العالم العربى

فى الكتابات التاريخية المعاصرة

ندوة

حصاد ..... عقدها الاتحاد بمقره فى القاهرة

١٢ ..... ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م

تم الجمع والاخراج الداخلى والخارجى

دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
٥ شارع ترعة المريوطية – عمارات شركة الخليج
تليفون وفاكس / ٣٨٧١٦٩٣

هذه الندوة

* علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة
* تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أي تيارات سياسية أو عقائدية .
* البحوث التي تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من أراء علمية .
* تصدر مؤقتًا سنويًا في مارس من كل عام ؛ على أن تضمها البحوث المقدمة للنشر في كل عدد في موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .
* لايزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .
* تخصص أقسام في الندوة – حسب الإمكانات – لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .
* البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها في حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .
* يأتي ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمني بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية ، ولا علاقة إطلاقًا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .

* * * *

* جميع المراسلات تكون باسم السيد الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

العنوان : ١٠ شارع فؤاد بدوانى – الحى الثامن – مدينة نصر – القاهرة .
تليفون / ٢٨٧٠٠٩٠ – فاكس ٢٨٧٠٠٩١

برنامج الندوة

اليوم الأول الأربعاء ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٤م - ١١ شوال ١٤٢٥هـ

الجلسة الأولى : ١٠,٣٠ - ١١,٠٠ صباحًا

افتتاح الندوة : أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور ..... رئيس الاتحاد

الموقف المالي : أ.د. يونان لبيب رزق ..... أمين الصندوق

أنشطة الاتحاد : أ.د. حسنين محمد ربيع ..... أمين عام الاتحاد

استراحة لتناول الشاي ١١,٠٠ - ١١,٣٠

الجلسة الثانية : ١١,٣٠ - ١,٣٠ ظهرًا

رئيس الجلسة : أ.د. محمد بهجت قبيسي

- أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد: جهود المؤرخين الغربيين المعاصرين في دراسة لغة وتقرش اليمن القديمة.
- أ.د. غيثان بن علي بن جريس: جنوب السعودية في كتاب فهود الجزيرة العربية لهاري سانت جون فيلبي.
- د. صالح محمد السديدي : مصر في مذكرات الرحالة الأسباني دومنجو بادية أو علي بك العباسي في بداية القرن التاسع عشر الميلادي.
- أ.د. محمد بهجت قبيسي

مناقشات وتعليقات

دعوة الغداء واستراحة ٢,٠٠ - ٣,٠٠

الجلسة الثالثة : ٣,٠٠ - ٥,٠٠ مساء

رئيس الجلسة : أ.د. عبدالله عبد الرازق إبراهيم

- أ.د. حياة ناصر الحجي: تاريخ العالم العربي بين المنهج والموضوع في الكتابات التاريخية المعاصرة.
- أ.د. محمد محمود السرويجي: العالم العربي في كتابات أندريه ريمون.
- أ.د. شوقي عطا الله الجمل : تريمي والقضية الفلسطينية.
- د. مرفت أسعد عطا الله : العالم العربي في كتابات المؤرخ الإنجليزي بيشوهولت.

مناقشات وتعليقات

اليوم الثانى الخميس ٢٥ نوفمبر ٢٠٠٤م - ١٢ شوال ١٤٢٥هـ

الجلسة الرابعة : ١٠,٠٠ - ١٢,٠٠ صباحاً

رئيس الجلسة : أ.د. حسين على المحرى

- د. سعيد مقاورى محمد : دراسات البربريات العربية فى أعمال المستشرقين المعاصرين.
- د. نوال على محمد : الحضارات العربية الإسلامية فى صقلية خلال القرنين الثالث والخامس الهجريين من خلال كتابات المستشرق الإيطالى ميكيلى أمارى.
- أ.د. على منصور نصر : البحرين فى الكتابات التاريخية الحديثة.
- أ.د. مجاهد توفيق الجندى : أروقة الأزهر فى نشر الثقافة الإسلامية المعاصرة.

استراحة وتناول الشاى ١٢,٣٠-١٢,٣٠ صباحاً

الجلسة الخامسة : ١٢,٣٠ - ٢,٣٠ صباحاً

رئيس الجلسة : أ.د. جمال زكريا قاسم

- أ.د. فاروق عثمان أباظة : تحديث الاتجاهات المعاصرة فى المدارس التاريخية تطبيقاً على تاريخ العالم العربى الحديث والمعاصر.
- د. سلوى إبراهيم العطار: العالم العربى فى كتابات دكتور صلاح العقاد.
- د. عايدة السيد سليمة : العالم العربى فى مؤلفات أمين سعيد.
- د. سعيدة محمد حسنى: مدرسة دكتور أحمد عزت عبد الكريم لكتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر.
- أ.د. سعد بن حذيفة الغامدى: حروب الخليج فى كتابات المؤرخين المعاصرين .

دعوة الغداء واستراحة ٢,٣٠ - ٣,٣٠ مساء

الجلسة الختامية : ٣,٣٠ - ٤,٠٠ عصراً

رئيس الجلسة : أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور وأعضاء مجلس الإدارة

- توصيات الندوة.
- اقتراح موضوع الندوة القادمة.
- مقترحات أعضاء الاتحاد.
- اجتماع مجلس الإدارة [٤,٠٠ - ٥,٠٠ عصراً] .

جولة حرة

المحتويات

صفحة

عبد المنعم عبد العليم سيد

جهود المؤرخين الغربيين المعاصرين فى دراسة لغة ونقوش اليمن القديمة ١١

محمد الصغير غانم

ملاحظات عامة حول إعادة كتابة تاريخ الجزائر القديم ٢٩

سعيدة محمد حسنى محمد حسن

مدرسة أحمد عزت عبد الكريم لكتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر ٣٩

سلوى إبراهيم العطار

العالم العربى فى كتابات صلاح العقاد ٦٣

عايدة السيد إبراهيم سليمة

الثورة العربية الكبرى ١٩١٦م فى كتابات أمين سعيد ١١٧

محمد محمود السروجى

العالم العربى فى كتابات أندريه ريمون ١٤٩

شوقى عطا الله الجمل

المؤرخ الإنجليزى آرنولد توينبى ورأيه فيما يتعلق باليهود والقضية الفلسطينية.... ١٦٧

مرفت أسعد عطا الله

العالم العربى فى كتابات المؤرخ الإنجليزى بيتر هوات ١٧٧

مصطفى حبشى محمد زهران

العلماء العرب فى الكتابات التاريخية عند المؤرخين العرب المعاصرين ٢٢١

غيثان بن على بن جريس

جنوب السعودية فى كتاب «مرتفعات الجزيرة العربية» لهارى سانت جون فيلبى... ٢٤١

صالح محمد السنيدى

مصر فى مذكرات الرحالة الإسبانى دومنجو بادیا أو على باى العباسى

فى بداية القرن التاسع عشر ٢٧٧

حياة ناصر الحجي

تاريخ العالم العربي بين المنهج والموضوع في الكتابات التاريخية المعاصرة ٣٠٥

عبدالله عبد الرازق إبراهيم

قراءة في التراث العربي في ظل العولمة ٣٢٧

علي متصور نصر آل شهاب

البحرين في المصادر العربية والإسلامية ٣٤٧

سعيد مغاوري محمد

أهمية تمحيص قراءات المستشرقين لنصوص البرديات ٤٢٥

أ.د. سعيد عبد الفتاح عاشور

كلمة الافتتاح

هناك متغيرات جوهرية تحدث في عالمنا المعاصر، تؤثر على الإنسان وحياته في أي جزء من أجزاء العالم لما لها من سمة عالمية. وقد ترتب على هذه المتغيرات مجموعة من النتائج التي أدت بدورها إلى ظهور مشكلات يتعين على كل أمة وكل دولة مواجهتها واقتراح حلول لها، حتى لاتتخلف عن ركب التقدم.

ومن أهم هذه المتغيرات العالمية النمو الهائل والمتسارع في المعرفة والفكر الذي أدى إلى تجدد الهياكل المعرفية، وكذلك ظهور فروع وأنظمة معرفية جديدة لم تكن توجد من قبل هذا هو التقدم العلمي والانفجار المعرفي وما ارتبط بهما من مفاهيم وأساليب جديدة منها الشبكة المعلوماتية الدولية (الإنترنت) وغيرها . ويقدر علماء الدراسات المستقبلية أن حجم المعرفة العلمية سيتضاعف كل بضع سنوات؛ أي أن حجم المعرفة خلال السنوات القليلة القادمة سيكون مساويا أو يزيد عما تراكم من معرفة منذ بداية التاريخ البشري المسجل.

ولما كان اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة أمانة في عنق كل مؤرخ عربي مخلص، ويعمل الجميع تحت مظلته لإنجاح المسيرة والنهوض بالأمانة في هذا العصر الذي يواجه تحديات عالمية. لذلك اقترح المشاركون من أعضاء الاتحاد في الندوة العلمية التي عقدت في شهر أكتوبر ٢٠٠٣ وكان موضوعها (البحر الأحمر عبر عصور التاريخ)، أن يكون موضوع الندوة لعام ٢٠٠٤ (العالم العربي في الكتابات التاريخية المعاصرة) لاستشراف ما كتبه الباحثون والمؤرخون المعاصرون في كتاباتهم التاريخية عن العالم العربي، وإخضاع هذه المعلومات للنقد والتحليل والتفسير والاستقراء والاستنباط للوصول إلى نظرة مستقبلية وأن يتصدى المؤرخون العرب لكتابة تاريخ العالم العربي للحديث بعيدا عن الافتراءات والأكاذيب التي أطلقها المستشرقون وغيرهم، تحقيقا لأهداف وآمال أبناء الأمة العربية.

وعقدت ندوة (العالم العربى فى الكتابات التاريخية المعاصرة) فى يومى ١١-١٢ شوال ١٤٢٥هـ / ٢٤-٢٥نوفمبر ٢٠٠٤م فى القاهرة، وبإطلالة سريعة على مجموعة البحوث والدراسات العلمية التى ألقيت فى الندوة ، وكانت محل نقاش علمى جاد، تلمح التعدد والتنوع، فهناك بحوث متميزة عن العالم العربى فى كتابات شوامخ المؤرخين العرب: أحمد عزت عبد الكريم، صلاح العقاد، أمين سعيد ، محمود الألوسى، وكتابات المؤرخين غير العرب: توينبى، بيترهولت، اندريه ريمون، وغير ذلك من البحوث التى تلقى أضواء كاشفة على تاريخ العالم العربى فى العصر الحديث.

وينشر اتحاد المؤرخين العرب فى القاهرة حصاد هذه الندوة فى كتاب – كعادته كل عام – ليكون الحصاد الثانى عشر من المسيرة المباركة للاتحاد وإضافة جديدة للمكتبة التاريخية العربية.

والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير

أ.د. سعيد عبدالفتاح عاشور

أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد(*)

جهود المؤرخين الغربيين المعاصرين فى دراسة لغة ونقوش اليمن القديمة

مقدمة موجزة عن جهود العلماء والرحالة الأوروبيين فى جمع النقوش اليمنية القديمة

بدأ تعرف الأوروبيين على نقوش اليمن القديمة عندما ارتاد كارستن نيبور K. Niebuhr بلاد اليمن ضمن البعثة الدانماركية حوالى عام ١٧٦٠، ورغم أنه لم يتمكن من جمع أية نقوش، إلا أنه كان أول من لفت علماء الغرب على وجود مثل هذه النقوش مما أثار اهتمام رحالة آخر هو سيتزن U.E. Seetzen الذى تمكن فى عام ١٨١٠ من نسخ عدة نقوش بالقرب من مدينة «ذمار» ولكن سيتزن اختفى ولم يعثر على نقوشه ، وكان هذا الاختفاء سببا فى إحجام الأوروبيين عن ارتياد اليمن لمدة ثلاثين عاما بعدها بدأوا يرتادون سواحلها وكان الضابط الإنجليزى «ولستد» Wellsted صاحب هذه المبادرة عندما اكتشف نقشا كاملا على صخور المنطقة المسماة «حصن الغراب» الذى تظل أطلاله على الميناء المسمى «بئر على» الواقع على الساحل الجنوبى لحضرموت (عبد المنعم عبد الحليم سيد ٢٠٠٠، الخريطة رقم ١ ص١٤) مما شجع ولستد على التوغل فى داخل هذه المنطقة حيث كشف عن مجموعة كبيرة من النقوش فى المنطقة المسماة حاليا «نقب الحجر» ، وعلى أثر نجاح ولستد تشجع الباحثون والرحالة الأوروبيون وأخذوا يرتادون المناطق الأثرية المختلفة

* أستاذ التاريخ القديم والآثار غير المتفرغ – كلية الآداب، جامعة الاسكندرية.

وجمعوا عدداً كبيراً من النقوش. ومن أشهرهم الفرنسي Thomas Arnaud الذي كان أول من نسخ بعض نقوش مدينة مأرب ورسم رسما تخطيطيا لسد مأرب وذلك حوالي عام ١٨٤٣م ثم المستشرق المشهور Joseph Halevy ابتداء من عام ١٨٧٠م والذي نشر النقوش التي جمعها في عام ١٨٧٢ والمستشرق Eduard Glaser الذي قام بعدة رحلات ابتداء من عام ١٨٨٤ وحتى عام ١٨٨٨ وكان من أهم النقوش التي جمعها نقوشا تفصيلية من مدينة وسد مأرب .

وبعد جلازر استمرت رحلات جمع النقوش وأشهر من قام بذلك كل من Theodore, Van den Berg Bent و G.W. Bury و H. Borchardt، والأخير قام برحلاته بين الأعوام ١٩٠٧-١٩٠٨ . ثم توقفت بعد ذلك رحلات جمع النقوش حتى نهاية الحرب العالمية الأولى (نلسون ١٩٥٨، ص١-٥٤). وإذا كانت جهود العلماء والرحالة قبل الحرب العالمية الأولى قد اقتصرت على جمع النقوش فقط، فقد شهد عام ١٩٢٨ أول حفائر أو تنقيبات أثرية في اليمن وذلك عندما قام كل من S.C. Rathjens و H. Von Wissman بحفائر في منطقة «حقة همدان» الواقعة على بعد ٢٣ كيلو مترا إلى الشمال من صنعاء. ثم قام المستشرق J.B. Philby برحلات في منطقة حضرموت بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ جمع خلالها عدداً كبيراً من النقوش . وفي عام ١٩٤٤ نشرت كاتون تومبسون نتائج تنقيباتها في منطقة حريضة في حضرموت التي كشف فيها عن معبد لإله القمر (Tompson 1944, p. 19 ff.) .

غير أن عام ١٩٥١ شهد أول بعثة أثرية منظمة على الأساليب الحديثة في الحفر والتنقيب، وهي بعثة «وندل فيليبس» W. Phillips التي نقبت في تلك السنة في منطقة معجر كحلان في وادي بيحان (موقع مدينة «تمنع» عاصمة دولة قتبان القديمة) . ثم انتقلت في العام التالي إلى مأرب حيث كشفت عن المعبد السبئي المسمى حاليا «محرم بلقيس» والمعبد المجاور له المسمى حاليا «عرش بلقيس»، وجمعت من هذين المعبدين وخاصة من قاعة المدخل في محرم بلقيس عددا كبيرا من النقوش، الكثير منها مدون على لوحات . كما نقبت هذه البعثة في عام ١٩٥٢ في منطقة «خور روري» (عبد المنعم عبد الحليم سيد ٢٠٠٠، الخرائط أرقام ١و٢ ص٤١-٤٣) في جنوب دولة عمان (فؤاد حسنين علي في نلسن ١٩٥٨، ص٢٥٤-٢٦٢) .

ومنذ عام ١٩٨٠ وحتى اليوم تعمل في اليمن بعثة ألمانية بإشراف شميدت Schmidt ونشرت نتائج تنقيباتها حتى عام ١٩٩٢ (شميدت ١٩٩٢، ص١٣ وما بعدها) ومنذ بداية الثمانينات بدأت بعثة روسية تنقيباتها بالتعاون مع المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار في عدن بمسح أثري لبعض معابد حضرموت (آكوبيان ١٩٨٧، ص٩-٤٦) .

وقد قامت بعثة فرنسية ابتداء من عام ١٩٧٩ بإشراف Breton بالتنقيب في حضرموت (Breton 1980, p. 5-42) كما وكزت البعثة الفرنسية عملها أيضا بالتعاون مع الهيئة العامة للآثار والمتاحف بصنعاء ابتداء من عام ١٩٨٠ في منطقة دولة معين وتمكن كريستيان روبين Christian Robin من نسخ عدد من النقوش ، كما عملت في منطقة جبل المعسال الواقع إلى الجنوب من صنعاء بحوالي ١٥٠ كيلو مترا حيث عثرت على نقش له أهمية فريدة لأنه غير كثيرا من التواريخ المتعارف عليها بين العلماء لملوك سبأ وذي ريدان (عبد المنعم عبد الحليم سيد ١٩٩٩، ص٨٩ وما بعدها) . وابتداء من عام ١٩٨٩ قام الإيطاليون برئاسة De Maigret بالتنقيب في منطقة دولة معين أيضا (De Maigret 1991, p. 159f) .

ملاحظة هامة : من المعروف أن العلماء والرحالة العرب قاموا بجهود كبيرة لجمع النقوش اليمنية القديمة من أبرزهم نزيه مؤيد العظم في عام ١٩٣٥ ثم محمد توفيق في عام ١٩٤٦ ثم الدكتور أحمد فخري في الأعوام ١٩٤٧ و ١٩٥٩ . ولكن هذا البحث مخصص لجهود العلماء الغربيين فقط كما هو واضح من عنوانه ونأمل أن ننشر مستقبلا دراسة عن هذه الجهود العربية.

حل رموز الكتابة العربية الجنوبية (اليمنية القديمة) المعروفة بالخط المسند

أطلق الكتاب المسلمون تسمية «الخط المسند» على الكتابة اليمنية القديمة وقد اعتقد بعض العلماء المعاصرين أن سبب هذه التسمية يرجع إلى وجود شرط رأسية تفصل بين كلمات هذا الخط، فكأنما «تسنده» الحروف على هذه الشرط أو «الأعمدة» في رأيهم (ولفنسون ١٩٨٠ ص٢٤٣) ولكن ثبت خطأ هذا الرأي ، ذلك أن هذه التسمية مأخوذة من كلمة يمنية قديمة (سبئية- حميرية) هي « م س ن د ن » بمعنى الكتابة أو الخط وربما انتقلت إلى الكتاب المسلمين عن طريق المؤرخين اليمنيين المسلمين الذين كان بعضهم يعرف قراءة القليل من الكتابة اليمنية القديمة مثل : أبو الحسن الهمداني (في كتابه «الإكليل، الجزء الثامن») الذي عاش في القرن الرابع الهجري . أما عن حل رموز هذا الخط فقد بدأ عندما نسخ ولستد نقش حصن الغراب في عام ١٨٣٤ (كما ذكرنا سابقا) إذ لاحظ أن هناك تشابها بين الخط المسند وبين الخط الحبشي المعاصر ونشر مقالا عن ذلك التشابه في مجلة الجمعية الآسيوية بعنوان:

Account of some inscriptions in the Abyssinian character found at Hassan Ghorab near Aden on the Arabian coast ", Journal of the Asiatic Society of Bengal (Calcutta) III, 1834, p. 554-556 .

ولاشك أن هذا التشابه سببه أن الخط الحبشي يرجع في أصله إلى الخط المسند طبقا للحقيقة التاريخية المعروفة بأن الحضارة الحبشية نشأت من الحضارة اليمنية منذ أن هاجر اليمنيون إبان دولة سبأ إلى الساحل الأفريقي للبحر الأحمر للمتاجرة في السلع الأفريقية الثمينة (سلع الترف) ومرور الوقت توغلوا تدريجيا نحو الداخل حيث أسسوا الدولة التي عرفت باسم « دولة أكسوم» ناقلين معهم حضارتهم من ديانة وفن ولغة وكتابة (عبد المنعم عبد الحليم سيد ٢٠٠٣، ص٢٩-٣٧ والخريطة رقم ٣ ص٥٤). ولكن بمرور الوقت ذابت معالم الحضارة اليمنية في الحضم الحبشي ولم يتبق منها سوى الخط وإن كان يغلب على الخط الحبشي الشكل اللين (أي المستدير) بسبب كتابة أغلب نصوصه على الجلد بينما يغلب على الخط المسند (الذي وصل إلينا الشكل المزوى (ذو الزوايا) بسبب حفر أغلب نقوشه على الحجر (عبد المنعم عبد الحليم سيد ٢٠٠٣، الأشكال أرقام ٣و٤) . وقد تمكن اثنان من العلماء الألمان في عام ١٨٤١ هما E. Rödiger و W. Gesenius من حل رموز الخط المسند بالاستعانة بهلا التشابه في دراساتيهما الآتيتين:-

"W. Gesenius , Ueber die Himyaritische Sprache und Schrift, Halle , 1841 & Rödiger, Versuch über die Himjaritischen Schriftmonumente, Halle, 1841.

(نلسون ١٩٥٨ ص٨) .

وفي العام التالي (١٨٤٢) تمكن Rödiger من قراءة نقش حصن الغراب ونشر هذه القراءة في كتاب أصدره ولستد بعنوان J. R. Wellsted, Reise in Arabien وعنوان دراسة Rödiger في هذا الكتاب هي : Exrsus über die himjaritische Inschriften وتبين من هذه القراءة أن النقش دونه رجل يدعى «سميفع أشوع» كان قائدا في جيش الملك الحميري المسمى في روايات الكتاب المسلمين «يوسف ذو نواس» وفي النقوش الحميرية «يسف أسار يثأر» وأن هذا القائد لجأ إلى منطقة هذا الحصن (الذي يبدو أنها كانت موطنه الأصلي) بعد أن هزم الأحباش هذا الملك أو كما جاء في النقش بالخط المسند « ه ر ج و / م ل ك . ه ر ج و / م ل ك / ح م ي ر م» وترجمتها بعد أن قتل (الأحباش) ملك حمير والنقش مؤرخ بسنة ٦٤٠ حميرية التي تعادل سنة ٥٢٥ ميلادية .

ورغم وضوح هذه الترجمة وانطباقها على واقع الأحداث المعاصرة لتاريخ النقش، فقد حاول أحد الباحثين وهو القس Charles Forster ترجمة النقش اعتمادا على قصيدة باللغة العربية

الفصحى أوردها المؤرخ العربي القزويني تبدأ بالكلمة العربية «سمعنا» قال عنها أنها منقوشة على صخور عدن، فاعتقد فورستر أن كلمة «سمعنا» هذه ، هي التي وردت في بداية النقش (Forster 1844, pp. 335-334)، وهو خطأ وقع فيه لأن الكلمة هي الجزء الأول من اسم القائد «سميفع أشوع» (أي «سميفع») وأسس هذا القس معلومة خاطئة على اعتقاد، هذا مؤداها أن النقش يتحدث عن أتباع النبي «عابر» المذكور في التوراة (وهو «هود» في الروايات الإسلامية) والخطورة في رواية فورستر تكمن في أن بعض الباحثين المسلمين والعرب أخذوا بتفسير فورستر هذا وكان أولهم المؤرخ الهندي سيد مظفر الدين ناد في (١٩٣٢) ومترجمو كتابه عبد الشافي غنيم وحسن جوهر بعنوان«التاريخ الجغرافي للقرآن» الذي صدر في مجموعة الألف كتاب الأولى في عام ١٩٥٦م ومحمد سالم حجاب في مقال منشور في مجلة الإكليل اليمنية العدد الأول ١٩٨٨م- أخذ كل هؤلاء برواية فورستر الخاطئة بحذافيرها دون تمحيص ودون الرجوع إلى ترجمة Rodiger الصحيحة للنقش، بل وإلى ترجمات تالية صحيحة أيضا منها ترجمة بريتوريس Pretrius في عام ١٨٧٢ ثم ترجمة Mordtmann سنة ١٨٨٥ وقد تناولت هذا الموضوع بالتفصيل والأسماء والعناوين الكاملة لترجمات هؤلاء المؤلفين الصحيحة للنقش في بحث سابق (عبد المنعم عبد الحليم سيد ٢٠٠٣، ص٥٥-٥٦) .

ترجمة النقوش العربية الجنوبية (اليمنية القديمة):

كثرت جهود العلماء الغربيين الفردية في ترجمة النقوش العربية الجنوبية من سبئية وحميرية ومعينية وقتبانية وأوسانية وحضرمية ، حتى أن عددهم يصل إلى حوالي ٩٠ عالما ترجموا حوالي ٢٥٠٠ نقشا منذ بداية ترجمة هذه النقوش في عام ١٨٤٢ (نقش حصن الغراب) حتى عام ١٩٥٠ (وهو تاريخ صدور آخر جزء من أجزاء كتاب Repertoire كما سنذكر بعد) ، ولما كان حصر جهود هذا العدد الكبير من العلماء لايتسع له هذا البحث المحدود ، فسوف نقتصر على المجموعات الرئيسة التي احتوت على ترجمات هذه النقوش. وأقدم هذه المجموعات هي المسماة Corpus Inscriptionum Semiticarum, Pars Quarta, Inscriptiones Himyariticas et Sabaeas continens , tome I Parisis أصدرتها الهيئة العلمية المسماة Académie des Inscriptions et Belles- Lettres .

وقد صدرت هذه المجموعة في باريس على فترات، وأقدم إصدار لها كان عام ١٨٨٩ واحتوى هذا الإصدار على ٦٩ نقشا في ١٠٢ صفحة وكما هو ظاهر من عنوانها فإنها تشتمل على نقوش سبئية وحميرية وتكتب مختصرة بالصيغة C.I.S., IV

وفى عام ١٩٠٠ صدر مجلد آخر من هذه المجموعة اشتمل على حوالى ٢٠٠ نقش.

وفى عام ١٩٠٨ صدر مجلد ثالث منها اشتمل على ٥٤ نقشا .

وفى عام ١٩١١ صدر مجلد رابع اشتمل على ٤٠ نقشا .

هذا وقد احتوت بعض المجلدات على نقوش متأخرة زمنيا من هذه المجموعة (أى فى عصر دولة حمير) باسم : Corpus Inscriptionum Himyariticarum واختصارها C.I.H

وقد ترجمت النقوش فى هذه المجموعة إلى اللغة اللاتينية مما جعل الاستفادة منها مقصورا على من يجيد هذه اللغة ولذلك قلت الاستفادة منها وكان ذلك دافعا لإعادة ترجمة أغلب النقوش التى تشملها هذه المجموعة إلى اللغات الأوروبية الحية وفى مقدمتها اللغة الفرنسية فظهرت مجموعة جديدة بعنوان :

Répertoire d'Epigraphie Sémitique (وتكتب مختصرة – RÉS-) وأصدرتها نفس الهيئة العلمية التى أصدرت المجموعة السابقة (C.I.S) من محرير العالم البلجيكى الكبير Gonsague Rykmans وصدرت ابتداء من عام ١٩٢٩ حاوية للنقوش العربية الجنوبية من سبئية وحميرية ومعينية وقتبانية وأوسانية وحضرمية، وقد خصص لهذه النقوش الأجزاء من الخامس إلى السادس (الأجزاء من الأول للرابع خصصت للنقوش السامية الأخرى من فينيقية وأرامية ونبطية تدمرية وسريانية وغيرها وقد ترجمت أغلب النقوش فى هذه المجموعة إلى اللغة الفرنسية ثم الألمانية والإنجليزية والإيطالية . والكثير من هذه الترجمات إعادة لترجمة النقوش المنشورة فى مجموعة Corpus Inscr. Semit المذكورة . وقد رقمت النقوش فى هذه المجموعة (Répertoire) ترقيما مسلسلا روزعت على الأجزاء الثلاثة فخصص الجزء الخامس الذى صدر عام ١٩٢٩ للنقوش من رقم ٢٦٢٤ إلى رقم ٣٠٥٢ والجزء السادس الذى صدر عام ١٩٣٥ م للنقوش من رقم ٣٠٥٣ إلى رقم ٣٩٤٦ والجزء السابع الذى صدر عام ١٩٥٠ للنقوش من رقم ٣٩٤٧ إلى ٥١٠٦ . والنقوش مرتبة طبقا لتاريخ العثور عليها فمن أوائل هذه النقوش المشهورة نقش حصن الغراب ورقمه ٢٦٣٣ وتبدأ ترجمة النقش بكتابة صفة النقش فإذا كان سبئيا يكتب الرمز (SAB) وإذا كان حضرميا يكتب رمزه (Hadr) وإن كان قتبانيا يكتب رمزه (QAT) وهكذا . يلى ذلك اسم العالم أو الرحالة الذى عثر على النقش أو الذى نسخ النقش ثم اسم مترجم النقش إذا كان قد سبق ترجمته (أو مترجمى النقش إذا تعددت ترجمته) وعنوان المرجع الذى نشرت فيه هذه الترجمة ورقم الصفحة، ثم اسم المكان الذى وجد أو يوجد به النقش (مثل مدينة مأرب على سبيل المثال) ثم وصف نوع الأثر المدون

عليه النقش إذا كان مبنى أو تمثال أو غيره وهكذا . يلى ذلك قراءة النقش بالحروف العبرية (transliteration) ثم الترجمة لاحدى اللغات الأوروبية . وأخيرا ترقيم مترجم النقش بالحروف الأولى من اسمه.

والاختلاف بين مجموعة Corpus ومجموعة Répertoire (بالإضافة إلى ترجمة النقوش فى المجموعة الأولى إلى اللغة اللاتينية ، بينما ترجمت فى المجموعة الثانية إلى اللغات الأوروبية الحية كما ذكرنا سابقا - الاختلاف بينهما- أن النقوش فى المجموعة الأولى مكتوبة بالخط المسند أى بخط النقش الأصلى ، بينما كتبت قراءتها فى المجموعة الثانية بالخط العبرى كما ذكرنا سابقا أيضا . وقد خصص الجزء الثامن (وهو الأخير من هذه المجموعة) للفهارس وحررته العالمة الكبيرة وجاكلين بيرين» Jacqueline Pirenne وصدر عام ١٩٦٨ وأهم ما جاء فيه ما يلى:

- قوائم بمعادلة أرقام النقوش فى كل من مجموعة C.I.S. ومجموعة Répertoire .

- قائمة بترتيب أرقام النقوش طبقا للهجاتها فتبدأ بالنقوش المكتوبة باللهجة الحضرمية فاللهجة المعينية فالقتبانية فالسبئية (وقد حوت القليل من النقوش المكتوبة باللهجة اللحيانية (ثلاثة نقوش) والثمودية (أربعة نقوش مؤكدة و١٩ نقشا غير مؤكدة) وهذه اللهجات تنتمى للغة العربية الشمالية فهى خارج نطاق اللغة العربية الجنوبية ولكن أضيفت بسبب ارتباط كل منها فى نص واحد مع النصوص التى تدخل ضمن موضوع المجموعة) .

- قائمة أبجدية بأسماء المواقع التى عثر على النقوش فيها وأرقام هذه النقوش مرتبة طبقا لتسلسلها العددى.

- قائمة أبجدية بأسماء المتاحف أو أصحاب المجموعات الخاصة وأرقام النقوش المحفوظة فيها طبقا لترقيم هذه الأماكن لهذه النقوش وم يقابله من أرقام Répertoire .

- قائمة أبجدية بأسماء جامعى هذه النقوش والأرقام التى أعطاها لها جامع هذه النقوش إن وجدت وما يقابلها من الأرقام المعطاة لها فى RES .

- قائمة أبجدية بأسماء مترجمى النقوش وعناوين المؤلفات (مقالات أو كتب أو غيرها) التى وردت فيها هذه الترجمات وأرقام هذه النقوش فى RES إذا كانت قد أعيدت ترجمتها فى هذه المجموعة أو ترجمت لأول مرة إذا لم يكن ناشر النقش قد ترجمه .

- بيان بأنواع الآثار التى سجلت عليها النقوش مثل التماثيل والأجزاء المعمارية (الأعمدة

والأكتاف والشيجان) والمذابح والآثار الجنائزية واللوحات التذكارية والأوانى والآثار البرونزية وأمام كل نوع أرقام النقوش المسجلة عليها .

– قوائم متنوعة بالنقوش المحفورة على الصخور والمخربشات .

– بيان بالنقوش المؤرخة طبقا للتقاويم اليمنية القديمة مثل تقويم «أبعلى» وتقويم «أبحض بن مبحض» (راجع : عبد المنعم عبد الحليم سيد ١٩٩٩، ص٨٩ وما بعدها) .

– قائمة أبجدية بأسماء أشكال الرموز المقدسة الواردة فى النقوش ابتداء من النسر Aigle والوعل Antilope حتى الثور Taureau.

– وأخيرا يأتى العمل العظيم فى هذا المجلد وهو قاموس أبجدى بجميع الكلمات (أو المفردات) الواردة فى المجلدات الثلاثة مكتوبة بالحروف العبرية وأمام كل كلمة معناها باللغة الفرنسية وصفتها النحوية إذا كانت ضميرا أو فعلا أو حرف جر أو اسم علم أو اسم مكان ثم أرقام النقوش التى وردت الكلمة فيها.

ونظرا لأن مجموعة Répertoire انتهت عند عام ١٩٥٠ وقد صدرت بعدها ترجمات متفرقة للنقوش التى اكتشفت بعد ذلك التاريخ وإن كانت لم تجمع فى مجموعة واحدة شاملة مثل مجموعة Corpus أو مجموعة Répertoire فقد صدر كتاب يحوى فهارس وقاموس لهذه النقوش الجديدة على غرار فهارس وقاموس جاكلين بيرين وذلك بعنوان:

– Alessandra Avanzini , Glossaire des Inscriptions de L'Arabie du Sud, 2 Vols, 1950- 1973, Universita di Firenza, 1980 .

– وكما هو ظاهر من العنوان فإنه يشمل فهارس النقوش من عام ١٩٥٠ (الذى انتهت عنده مجموعة Répertoire وبالتالى فهارس Pirenne) حتى عام ١٩٧٣ . وفى مجال ترجمة النقوش اليمنية القديمة وبالتحديد فى عام ١٩٦٢ صدر عمل عظيم لمؤلفه Albert Jamme وعنوانه Sabaean Inscriptions From Mahram Bulqis (Marib) , Baltimor ويشتمل على النقوش التى جمعتها فى الأعوام ١٩٥١-١٩٥٢ البعثة الأمريكية برئاسة Wendell Phillips من المعبد الرئيسى فى مأرب (وبالتحديد من قاعة المدخل (Jamme1962, p. 3) المسمى قديما «أوام» وهو معبد اله القمر السبئى «ايل مقه» الذى يطلق عليه اليمنيون حاليا «محرم بلقيس» كما ذكرنا سابقا . وقد نسخ Jamme بيده هذه النقوش التى يصل عددها إلى ٣٠١ نقشا، ونشر قراءتها وترجمتها فى كتابه المذكورة ثم نشر دراسة تاريخية وتحليلية لهذه النقوش.

رقم جام هذه النقوش بالأرقام من ٥٥٠ إلى ٨٥١ (لأنه سبق أن نشر نقوشا من أماكن أخرى أعطاها الأرقام من ١ إلى ٥٤٩) ومميزها بالرمز Ja وهو المقطع الأول من لقبه (Ja 550-851) وقد قسم محتويات الكتاب إلى قسمين . القسم الأول (Part I) يشتمل على نصوص النقوش Texts of the Inscriptions ولما كانت أغلب هذه النقوش مدونة على لوحات والقليل منها مدون على الجدران فقد بدأ بهذه النقوش الجدارية فأعطاها الأرقام الأولى Ja 550-557 – ثم قسم النقوش الأخرى أى التى دونت على لوحات تقسيما تاريخيا فالنصوص التى ذكرت فيها أسماء ملوك تحت لقب «ملك سبأ» أعطاها الأرقام Ja 558-566 والتى ذكرت فيها أسماء ملوك تحت لقب «ملك سبأ وذو ريدان» أعطاها الأرقام Ja 567-655 والتى ذكرت فيها أسماء ملوك تحت لقب «ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات» أعطاها الأرقام Ja 656-67، والتى لم يذكر فيها أسماء ملوك أو ألقاب أعطاها الأرقام Ja 672-851.

وفى دراسته لكل مجموعة من هذه النصوص يذكر كل نص أو عدة نصوص تحت اسم الملك الذى ذكر اسمه فيها فمثلا المجموعة التى أعطاها الأرقام Ja 558-566 ورد فيها أسماء سبعة ملوك (يحملون لقب «ملك سبأ») تبدأ بالملك «كرب – ايل – بين» (النص رقم Ja 558) وتنتهى بالملك «فرعم- ينهب» (النص رقم Ja 566) وهكذا .

وفى دراسته لكل نص على حدة يذكر جام أولا العصر الذى عاش فيه الملك (مثل عصر ملوك سبأ) ثم اسم الملك السبئى ثم رقم النص ثم وصف للأثر المنقوش عليه النص من حيث مادته (وجميع هذه الآثار تقريبا عبارة عن لوحات من الحجر الرملى أو الجيرى) ، وأبعاده وشكل الخط وغير ذلك من الأوصاف التفصيلية . ثم تأتى قراءة النص (Transliteration) بالحروف اللاتينية (وليست العبرية كما هو الحال فى مجموعة R´pertoire) مرقمة طبقا لسطور النص ثم ترجمة النص إلى الإنجليزية مرقمة بنفس أرقام قراءة النص، ثم شرح أهم مفردات النص مع مقارنتها بالنصوص الأخرى التى وردت فيها المفردة أو الكلمة سواء فى نفس نصوص محرم بلقيس أو فى نصوص وجدت فى أماكن أخرى.

وفى القسم الثانى من الكتاب تأتى الدراسة التاريخية وهى بعنوان Part II : Historical Studies وهى مقسمة إلى١٢ فصلا ففى كل من الفصل الأول والفصل الثانى يدرس جام النقوش الجدارية من Ja 550-557 وبعضها يرجع لعصر المكارب وفى الفصول من الثالث إلى الحادى عشر يدرس جام أهم الأسرات الحاكمة التى وردت أسماء ملوكها فى النقوش Ja 558-

٦٧١ من حيث مدى القرابة بين أفرادها والاشتراك في الحكم بين الملوك وأبنائهم أو أخوتهم أو كليهما والنواحي التي تميزت بها كل أسرة مثل الأحوال الدينية والسياسية والحربية إبان حكمها وأحيانا ملاحظات على شكل الخط (Palaeographical notes) الذي دونت به أخبار كل أسرة . وفي الفصل الثاني عشر جداول مقارنة بين حكام سبأ وحمير والدول اليمنية الأخرى مثل ملوك حضرموت وقتبان وما يقابلها من التواريخ الميلادية.

وقد ألحق جام بكتابه مجموعة فهارس أبجدية بالأسماء الواردة في النقوش المذكورة وأمام كل اسم ورقم النقش الوارد فيه منها فهرس بأسماء الآلهة، وفهرس بأسماء الأشخاص وفهرس بأسماء القبائل والأسرات والأماكن وفهرس بأسماء الشهور ثم فهرس بالمقاطع الداخلة في تركيب أسماء الأشخاص (مثل المقطع: «أب» في كل من «أب- أمر» و «أب- أنس» وهكذا) .

كما ألحق جام بالكتاب لوحات بها صور فوتوغرافية للنقوش وفهرس أبجدي عام.

وبهذا يعتبر كتاب جام هذا من أعظم ما صدر في ترجمة نصوص النقوش اليمنية القديمة.

ملاحظة : أسهم العلماء والباحثون العرب بدور هام في ترجمة النقوش اليمنية القديمة وفي مقدمتهم الدكتور خليل يحيى نامي الذي ترجم النقوش المعينية التي جمعها محمد توفيق (كما ذكرنا سابقا) ونشر هذه الترجمة في القاهرة في عام ١٩٥٢ في كتاب بعنوان «نقوش خربة معين» . والأستاذ مطهر علي الإرياني الذي ترجم ٣٤ نقشًا من مجموعة القاضي علي عبدالله الكهالي ونشرها في كتاب بعنوان « في تاريخ اليمن» صدر في صنعاء في عام ١٩٧٢، والدكتور عبد المنعم عبد الحليم سيد الذي ترجم نقشًا معينيًا وجده في مخزن بلدية مدينة العلا السعودية ونشر الترجمة بعنوان A New Minaean inscription from al- Ola في مجلة كلية الآداب بجدة في المجلد الثاني الصادر في عام ١٩٨٢، كما ترجم مجموعة نقوش سبئية محفورة على لوحات من المرمر والحجر والجبس وجدها ملقاة في مخزن كلية الآداب بجدة ونشرها في نفس المجلة، في المجلدين الثاني ١٩٨٢ والخامس ١٩٨٥ . ولكن نظرا لأن هذه البحث مخصص لجهود العلماء الغربيين فإننا نأمل أن ينشر الشرح التفصيلي لهذه الجهود العربية في بحث آخر.

دراسة تطور أشكال حروف (Palaeography) الخط المسند الجنوبي:

ويرتبط بدراسة وترجمة النقوش العربية الجنوبية دراسة تطور أشكال حروف الخط الذي كتبت به هذه النقوش وهو المعروف بين العلماء بالخط المسند الجنوبي الذي كتبت به النقوش السبئية والحميرية والقتبانية والحضرمية والأوسانية وذلك تمييزا له عن الخط المسند الشمالي الذي كتبت به نقوش اللغة العربية الشمالية (بلهجاتها الثمودية واللحيانية والصفوية) ورغم أن هذا الخط الأخير تطور عن الخط المسند الجنوبي إلا أن بعض حروفه تختلف عن حروف الخط المسند الجنوبي.

وقد درس علماء كثيرون تطور أشكال الخط المسند الجنوبي وخاصة أن هذه الدراسة ساعدت على سد فجوة كبيرة في تسلسل التاريخ اليمني لأن ملوك اليمن لم يهتموا كثيرا بذكر تواريخ حكمهم أو الظواهر الفلكية التي حدثت إبان هذه التواريخ أو قوائم بأسماء ملوكهم (على العكس من الفراعنة الذين دون بعضهم هذه القوائم وأرخوا الأحداث بسنى حكمهم ودونوا بعض الظواهر الفلكية التي حدثت إبان حكمهم مثل الشروق الاحتراقي لنجم الشعرى اليمانية) ، ومن هنا كان اهتمام علماء النقوش العربية القديمة بدراسة تطور أشكال حروف الخط المسند للتعرف قدر الإمكان على تسلسل التاريخ اليمني وتتابع ملوك اليمن .

وأكمل وأشمل دراسة في هذا المجال دراسة العالمة الفرنسية «جاكلين بيرن» في كتابها الذي عنوانه :

Jacqueline Pirenne, Paléographie des Inscriptions Sud Arabes. Contribution a la Chrolologie et a l'Histoire de l'Arabie du Sud Antique, Brussel, 1956

قسمت جاكلين بيرين كتابها إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول وهو بعنوان Chronologie et Paléógraphie أي التسلسل التاريخي ودراسة أشكال حروف الخط المسند، وقد قسمته إلى فصلين ، الفصل الأول بعنوان «ما تم إنجازه في مجال التعرف على تسلسل التاريخ اليمني القديم» درست فيه جهود القدماء (مثل المؤرخين العرب والمسلمين وغيرهم) للتعرف على تسلسل التاريخ اليمني القديم والفصل الثاني تناولت فيه طرق العلماء المعاصرين في دراسة تطور أشكال حروف الخط المسند ابتداء من العالم D.H. Müller والعالم A. Jamme ثم طريقتها التي قالت أنها اتبعت فيها قاعدة محددة بتقسيم مراحل تطور الخط إلى عصور . والقسم الثاني وهو بعنوان «عصر مكارب سبأ» قسمته إلى فصلين أيضا، في الفصل الأول

درست «مشكلات دراسة الخط المسند السبئي في هذا العصر» مثل مشكلة تمييز حرفي الألف والباء وأطلق تعلى هذا العصر العصر (A) . وفي الفصل الثاني درست أشكال الخط السبئي في عصور المكارب العظام ابتداء من المكربين «يثع أمر بين» و «يدع ايل ذرح حتى أشكال الخط في نقوش «كرب ايل وتار» وهو آخر المكارب وأطلقت على هذا العصر «العصر (B)». والقسم الثالث وهو بعنوان «ممالك اليمن» قسمته إلى فصلين درست في الفصل الأول أشكال الخط في الفترة من عصر المكارب إلى عصر ملوك سبأ وأطلقت عليه العصرين (C) و (D) وفي الفصل الثاني وهو بعنوان «ذروة الحكم المعيني»، درست أشكال الخط المسند المعيني وأطلقت على هذا العصر «العصر (E)» .

وبين ثنايا هذه الدراسة التفصيلية للخط السبئي بصفة أساسية ثم للخط المعيني، درست تطور أشكال خطوط الدول اليمنية الأخرى مثل خطوط دول قتبان وأوسان وحضرموت وحتى الخط الحبشي .

وقد ألحقت جاكلين بيرين بكتابها لوحات توضح تطور هذه الخطوط في كل عصر من العصور المذكورة في تصنيفها فبعد أن وضحت في اللوحة رقم ١ طريقة استخدام هذه اللوحات في التعرف على تطور أشكال الحروف، خصصت اللوحة رقم ٢ لأشكال حروف العصر (A) واللوحة رقم ٣ لأشكال حروف العصر (B) واللوحة رقم ٤ لأشكال الحروف الواردة على الآثار السبئية الضخمة ، واللوحة رقم ٥ للخطوط السبئية والمعينية والقتبانية التي تنتمي للعصور (C) و (D) و (E) .

دراسة قواعد اللغة العربية الجنوبية

تنتمي اللغة العربية الجنوبية إلى اللغة السامية الجنوبية فقد تعارف العلماء على أن أصل اللغات السامية كلها هي ما تعرفه «باللغة السامية الأم» [*] التي نشأت في الجزيرة العربية

* انتشرت في السنوات الأخيرة في بعض المؤلفات تسمية هذه اللغة ومشتقاتها من اللغات السامية «باللغة العربية» وهو خطأ تاريخي، ذلك أن سكان الجزيرة العربية القدماء لم يطلقوا على أنفسهم «عرب» فقد وردت في النقوش كلمة : أعرب » أو بالتحديد كلمة « أعربهم بمعنى قبائلهم أو «بدوهم» وذلك في اللقب الملكي الحميري ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات وأعربهم في الجبال وفي تهامة وليست كاسم جنس أو شعب. فكان العرب القدماء يطلقون على أنفسهم أسماء القبائل التي ينتمون إليها مثل «قبيلة سبأ وقبيلة «حميرة» . ولم ترد كلمة عرب كاسم لسكان الجزيرة العربية أو أجزاء منها إلا في نقوش خارج الجزيرة =

(في نجد والحجاز في الغالب) وانتشرت هذه اللغة في منطقة الشرق الأدنى القديم مع انتشار الهجرات من الجزيرة العربية على فترات يفصل بين كل فترة وأخرى حوالي الألف عام نتيجة لموجات الجفاف فاتجهت أولى هذه الهجرات إلى العراق حيث أدت إلى نشأة اللغة السامية الشمالية الشرقية . التي تطورت عنها اللغات الأكدية ثم البابلية ثم الآشورية فيما بعد . وانتهت هجرة أخرى إلى الشام حيث نشأت اللغة السامية الشمالية الغربية التي تطورت عنها اللغتان الكنعانية والآرامية، ومن الكنعانية اشتقت اللغتان الفينيقية والعبرية المبكرة ، ومن الآرامية اشتقت النبطية والسريانية .

أما في الجزيرة العربية وهي الموطن الأصلي للغة السامية فقد تطورت هذه اللغة إلى اللغة السامية الجنوبية التي تفرعت عنها لغتان هما العربية الشمالية والعربية الجنوبية . فمن العربية الشمالية اشتقت أربع لهجات هي الثمودية واللحيانية والصفوية والعربية الفصحى. ومن اللغة السامية الجنوبية اشتقت أربع لهجات هي السبئية- الحميرية والمعينية والقتبانية (وتتبعها الأوسانية) والحضرمية.

ولقد بدأ العلماء الغربيون في دراسة قواعد اللغة العربية الجنوبية بدراسة قواعد اللهجة السبئية الحميرية وقد تناول كثير من علماء اللغة العربية الجنوبية هذا الموضوع في بحوث متفرقة منشورة في الدوريات وخاصة في الدورية الألمانية Zeitschrift der Deutschen Morgelnándischen Geselischaft ولكن أول من تناول هذا الموضوع في كتاب مستقل شامل هي العالمة الألمانية ماريا هوفنر Maria Höfner, Altsüdarabische Grammatik , Leipzig, 1943.

= العربية أقدمها أطلقت في النقوش الآشورية من عصر الملك «شلمنصر الثالث» في عام ٨٥٤ ق.م على أحد أعدائه باسم «جندبير العربي» والغالب أنه لم يكن من سكان الجزيرة العربية نفسها بل كان يسكن منطقة في الشام بالقرب من تخوم الجزيرة العربية الشمالية. ثم أطلقت عبارة «ملكات العرب» في النقوش الآشورية أيضاً من عهد الملك آشور بانيبال (حوالي ٦٥٠ق.م) على ملكات كن يحكمن مناطق صحراوية قريبة من شمال العراق، وأخيراً أطلقت كلمة «عرب» في نقش النمارة الذي يرجع لعام ٣٢٨ ميلادية والذي عثر عليه في منطقة حوران (جبل الدروز الحالية) في جنوب شرق سوريا حيث وصف الملك امرؤ القيس بن عمرو ملك الحيرة بأنه «ملك العرب كله» (كلهم) وهكذا فإن جميع الحالات التي وردت فيها كلمة «عرب» وما يشبهها في وثائق التاريخ القديم وردت في أماكن خارج الجزيرة العربية ولم تطلق على سكان الجزيرة العربية ولذلك فإن إطلاقها في المؤلفات العربية المعاصرة على سكان الجزيرة العربية القدماء الذين عاشوا في التاريخ البعيد قبل الإسلام بقرون عديدة ليس له أساس تاريخي وعلى هذا فإن كلمة «الساميين» أكثر صحة ودقة منها.

غير أن أكثر الأعمال في مجال قواعد اللغة العربية الجنوبية شيوعا بين العلماء العرب هي مؤلفات العالم الإنجليزي بيستون الذي تركزت دراساته على اللهجة السبئية فقد نشر عدة دراسات فيها في الدوريات الأوروبية ثم جمعها في كتاب شامل بعنوان A.F.L. Beeston , Sabaic Grammar , Manchester 1984 درس فيها الموضوعات التالية:

Phonology , Verbal and Nominal Roots, Verb Stems , The Finite Verb : Morphology , The Finite verb : Syntax, The Finite Verb : Tense/ Aspect and Modalities, Infinitive and Participle , Auxiliaries, Noun Stems , Nouns: Gender , Nouns : The Construct State, Nouns: The Determinate State, Nouns : The Absolute State, Nouns : Case , Adjectives, Numerals: Cardinals (Morphology), Numerals : Cardinals (Syntax). Numerals: Ordinals, Fractions and Iteratives, Pronouns : Isolabe , Pronouns : Attached (enclitic), Demonstratives, The Relatival Antecedent, Relative Clauses, Periphrastic Genetive, Conditionals , Negatives, Enclisis, Coordinative and Deictis Particles, Subordinate Clauses (Substantival and adverbial), Prepositions.

وقد استخدم بيستون الحروف اللاتينية في قراءة (كتابة نطق Transliteration) الحروف السبئية (دون استخدام هذه الحروف نفسها) مع بعض الإضافات إلى بعض هذه الحروف لتمييزها عن بعضهما مثل تمييز حرف السين وحرف الشين عن بعضها بترقيم حرف (S) بالأرقام 1,2,3 إلى يسار الحرف (وهي طريقة متبعة بين أغلب علماء اللغة العربية الجنوبية) .

معاجم اللغة العربية الجنوبية:

ويرتبط بدراسة اللغة العربية الجنوبية إصدار المعاجم أو القواميس وقد صدر باللغة الإنجليزية قاموسان أولهما صدر بثلاث لغات هي العربية والانجليزية والفرنسية وبعنوان عربي هو «المعجم السبئي» وعنوان إنجليزي هو Sabaic Dictionary وعنوان فرنسي هو Dictionnaire واشترك في تأليفه أربعة مؤلفين أولهم إنجليزي هو بيستون نفسه والثاني بلجيكي هو «جاك ريكمانز» والثالث عربي هو «محمود الغول» والرابع ألماني هو «والتر مولر» وقد صدر القاموس ضمن منشورات جامعة صنعاء في عام ١٩٨٢ والطريقة المتبعة في كتابة نطق حروف الخط المسند السبئي في هذا القاموس هي نفس الطريقة التي تبعها بيستون في كتابه المذكور

سابقا (Sabaic Distionary) وهو مرتب طبقا لترتيب الحروف في اللغات الأوروبية (ABC DE) وبعد إيراد الكلمة يذكر رقم النص أو النصوص الرئيسة التي وردت فيها الكلمة ثم معنى الكلمة بالإنجليزية ثم بالفرنسية ثم بالعربية .

والقاموس الثاني وهو من تأليف العالم الأمريكي جوان كوبلاند بيللا وعنوانه Joan Copeland Biella, Dictionary of Old South Arabic, Sabaean Dialect , Harvard, 1982 .

وهو يتميز عن القاموس السبئي المذكور سابقا بميزتين أولاهما أن الكلمات مكتوبة بالخط المسند نفسه وثانيتهما أنه بالإضافة إلى كتابة رقم النص الذي وردت فيه الكلمة فإنه يورد النص نفسه مكتوبا بالخط المسند أيضا. أما ترتيب الكلمات فإنها مرتبة طبقا لترتيب حروف الأبجديات السامية (أبجد هوز حطي كلمن...) .

المراجـع

نكتفى فى هذه القائمة بالمراجع التى ذكرت اختصاراتها فى نص البحث

أ- المراجع العربية:

عبد المنعم عبد الحليم سيد ١٩٩٩

«التقاويم السبئية الحميرية فى ضوء نقش حميرى جديد » مجلة المؤرخ العربى، العدد السابع ، المجلد الأول، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة.

عبد المنعم عبد الحليم سيد ٢٠٠٠

«النشاط التجارى للعرب القدماء خارج الجزيرة العربية من خلال النقوش العربية القديمة وروايات الكتاب الكلاسيكيين » بحث منشور فى مجلد بحوث ندوة التجارة العالمية عبر العالم العربى على مر عصور التاريخ، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة.

عبد المنعم عبد الحليم سيد ٢٠٠٣

«تطور العلاقات بين اليمن والأحباش وأثرها فى حضارة الأحباش» مجلة المؤرخ العربى العدد الحادى عشر، المجلد الأول، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة.

ب- المراجع المترجمة إلى العربية :

أكوبيان ١٩٨٧

أكوبيان، التنقيبات الأثرية فى حضرموت القديمة، ترجمة المركز اليمنى للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف ، عدن.

شميدت ١٩٩٢

شميدت ، بورجن ، تقارير عن النشاطات الميدانية فى معبد الاله وايل منه» فى وادى ذنه، ترجمة هيئة الآثار ، صنعاء .

نلسون ١٩٨٢

«ديتلف - هومل- نرتز- رودوكاناكس ، ل - جرومان ، أدولف: التاريخ العربى القديم» ترجمه واستكمله فؤاد حسنين على وراجع الترجمة زكى محمد حسن، القاهرة.

- ولفنسون ١٩٨٠ .

ولفنسون ، إسرائيل ، تاريخ اللغات السامية، بيروت .

ج- المراجع الأجنبية :

Breton 1980

Breton , J.F., "Religious Architecture in Ancient Hadramawt, PSAS, vol. pp. 5-17 .

De Maigret 1991

De Maigret , Alessandro " The Excavations of the Temple of Nakrah at Baraqish", PSAS, vol. 21 , pp. 159-172 .

Forster 1844

Forster , Rev Ch., The Historical Geography of Arabia , London . PSAS = Proceedings of the Seminar for Arabian Studies.

Tompson 1944

Tompson, Caton, The Tombs and Moon Temple of Hureidha, London.

أ.د. محمد الصغير غانم(*)

ملاحظات عامة حول إعادة كتابة تاريخ الجزائر القديم

مقدمة :

تحاول الشعوب بعد حصولها على الاستقلال السياسي وإرساء قواعد مؤسساتها الدستورية والاقتصادية والاجتماعية أن تعطي الثقة والإمكانيات لنخبتها المثقفة والملتزمة في نفس الوقت لكي تتفحص - بذهنية الناقد المتبصر الغيور على أمته ووطنه - كامل التراث الوطني الذي سجل إبان فترة الاستعمار الأجنبي محاولة التصدي للنظريات التي أفرزتها مدارس الدخيل المستغل والتي غالبًا ما تتسم بطابع الهيمنة وتزييف الحقائق لعالم المستعمر .

ووفقًا لهذا المنظور تتظافر مجهودات الدولة والنخبة المشار إليها في الجزائر ، كلاً في ميدان اختصاصه بغية رفع رصيد مستوى شعبنا الثقافي وتنقية تراثنا الحضاري العربي الإسلامي من الشوائب التي علقت به أثناء ليل الاستعمار الدامس .

وحتى تعطي تلك المجهودات ثمارها لابد من اتباع خطة منظمة تضمن لنا دقة العمل وربح الوقت .

* - قسم التاريخ والآثار - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة منتوري - قسنطينة - الجزائر

وفي رأيي كواحد من أفراد أسرة الباحثين في ميدان التاريخ الذي يعد عنصراً هامًا في تركيبة تراثنا الحضاري أنه لكي تكلل جهودنا بنتائج جد هامة في ميدان الدراسات التاريخية، لابد من فتح أبواب مراكز البحث الوطنية على مصراعيها أمام الباحثين ومساعدتهم بالأشياء الضرورية التي تسهل لهم مهمة التصدي بجدية للمواضيع التي يدرسونها .

على أن يكون العمل داخل المراكز المشار إليها جماعيًا . وتقسم الأزمنة التاريخية التي مرت بها بلادنا وفقًا لكرونولوجي Chronologiquement معين يتماشى وفترات الانتقال الحضاري الخامسة التي يتضمنها تاريخنا بداية منذ العصور الحجرية وحتى وقتنا الحالي . وبا حبذا لو نتحقق الفكرة التي نادينا بها منذ سنوات في مقالات ظهرت في كل من مجلة حوليات جامعة الجزائر عدد ٩ ، ١٩٩٥م ، وكذا مجلة سيرتا العدد ٨ ، ٩ جامعة قسنطينة ، إضافة إلى مجلة العلوم الإنسانية عدد ٢ ، ١٩٩٢م [١] . ونفس الرأي ظهر على صفحات جريدة الشعب (العددان ٦١٩٦ - ٦١٩٧) والذي كتبه بعض الزملاء ، وكل ما كتب في المجلات المشار إليها آنفًا وصحيفة الشعب تركز على إنشاء مدرسة تاريخية جزائرية قائمة بذاتها لها مفاهيمها وأسسها المستقلة وذلك في الإطار العربي الإسلامي مع التفتح على العالم المعاصر .

وربما أن التخصص غالبًا ما يستولي على المرء فيسلبه إرادته ، فإنني أتقدم بالخطة التالية التي تناسب إعادة النظر في كتابة التاريخ القديم الجزائري الذي هو ميدان تخصصي . على أنني ألتمس مشاركة الزملاء الباحثين الجزائريين والعرب في تقديم وجهات نظرهم سواء أكان ذلك في مجال التخصص المشار إليه آنفًا (تاريخ قديم) أو في ميادين بقية التخصصات الأخرى التي تشمل العصور الإسلامية والحديثة والمعاصرة .

إن ما يمكن أن يلاحظ في إعادة كتابة تاريخ الجزائر القديم بصفة خاصة والتاريخ المغاربي بصفة عامة هو أن دراسته لم تتضح معالمها بعد وأنها تحتاج إلى المزيد من البحوث الجادة وتوحيد وجهات نظر المختصين في هذا الميدان حتى يتم التوصل إلى ربط حلقات الانتقال من عصر إلى آخر بصفة تدريجية محليًا دون ربط ذلك بأحداث عالمية طارئة كانت هي السبب في هذا الانتقال من فترة إلى أخرى .

وعلى هذا الأساس فلا يمكن في نظري مثلاً أن نقرن بداية التاريخ المغاربي القديم وتأسيس

المدن والأنظمة السياسية بحلول التجار الفينيقيين بالمنطقة ، ذلك لأننا سنلغي المرحلة التي احتك فيها المغاربة القدماء بالمصريين منذ ما قبل الأسر وطيلة مرحلة التاريخ القديم على حدودهم ، لاسيما منطقة غرب النيل . والمصريون القدماء هم الذين أطلقوا في كتاباتهم الهيروغليفية على كل من هاجمهم غربًا تسمية التحنو والتمحو والمشوش ثم الريبو أو الليبو [٢] . وقد نقل عن المصريين فيما بعد الكتاب الإغريق من أمثال هيكاتوس الملطي وهيرودوتس نفس التسمية ، ثم عمموها على كامل سكان شمال القارة الإفريقية وذلك حتى المحيط الأطلسي [٣] . ولابد أيضًا من مراعاة دور الرسوم الصخرية وتدرجها ثم اختيار مواضيع رسومها عبر تاريخ المنطقة الصحراوية باعتبارها تمثل عمقنا الإفريقي ، حيث نلتقي فيها مع دول الجوار الجغرافي [٤] .

كذلك لا يعقل أيضًا أن يربط ظهور الزراعة المنتظمة واستغلال الأرض ثم الاستقرار في نوميديا ببداية الاستعمار الروماني الذي لا يتجاوز تاريخه القرن الثاني قبل الميلاد عمقًا في التاريخ ، وعليه فلابد من تتبع الشواهد الأثرية المحلية التي تدل على الزراعة ، وقد بقيت منتشرة هنا وهناك في مواقع التجمعات السكانية القديمة العائدة إلى العصر الحجري الحديث وما أشير إليه في كتابات المؤرخين الإغريق مثل هيرودوتس وديودوروس الصقلي ، ثم أبيانوس عند إشارتهم إلى منطقة رأس بونة والمناطق الواقعة حول قرطاجة ، لاسيما أثناء غزو القائد الإغريقي أجاتوكليس (Agathocles) [٥] ، وكذا النزاع الذي تواصل بين الملك ماسينيسا ملك نوميديا والدولة القرطاجية بعد معركة زاما سنة ٢٠١ ق.م. حيث أن هذا الأخير كان يطالب باسترجاع ٧٠ مدينة كان قد تنازل عنها سفاقس قبل ذلك لحلفائه القرطاجيين مما يؤكد لنا الجانب المعماري والاستقرار الذي كان منتشراً في المنطقة [٦] .

وبالمثل ليس لأي باحث الحق في ربط انتماء المغرب العربي إلى الحضارة الإسلامية العربية بفترة انتشار الإسلام في منطقة شمال إفريقيا فقط ، ذلك لأنه سيهمل حلقات الاتصال السابقة التي تمت قبل ذلك بين منطقة الشرق القديم وبلاد المغرب عن طريق صحراء سينا ثم باب المندب وهرافتيم [٧] (منطقة الجبل الأخضر بليبيا) منذ العصور الحجرية .

ولكي تكون دراسة تاريخنا القديم مكتملة لابد من توفر الشروط التالية :

١ - التركيز على دراسة الحضارات أو الثقافات الحجرية التي تم العثور عليها في بلاد المغرب القديم والتطورات التي توالت عليها منذ العصر الحجري القديم الأسفل (الباليوليتي) وحتى نهاية فترة ما قبل التاريخ [٨] ، ثم ربط ذلك كله عن طريق الأبحاث الأثرية بالفترة

التاريخية في المنطقة بطرق تدريجية ، مع التركيز على فترة فجر التاريخ لأنها في نظرنا تعد الحلقة الضائعة في ربط فترة ما قبل التاريخ بالفترة التاريخية في بلادنا .

٢ – العمل على تغيير المنهج الكلاسيكي المتبع في التأريخ لبلاد المغرب والمتأثر إلى حد كبير بدراسة حضارات البحر المتوسط ، لاسيما الإغريقية والرومانية منها ، ومحاولة إيجاد منهج آخر يأخذ بعين الاعتبار دور الصحراء والمسالك المائية والنهرية الأخرى في ربط حلقات الحضارة المغربية بالإفريقية ، وذلك على أساس أن مناخ الصحراء كان مغايراً لما هو عليه الآن، وإن هذه الأخيرة كانت من بين مناطق العالم التي تحمل بصمات ظهور وتطور الإنسان فيها ، وقد هاجرها بعد ذلك متتبعاً مجاري الأنهار والوديان نحو الشمال والجنوب بعد الجفاف الذي بدأ ينتابها منذ الزمن الجيولوجي الرابع [٩].

وهذه الطريقة في توجيه الدراسة يمكن أن توفر لنا الانطلاق من الداخل نحو السواحل ، وبالتالي دراسة بقايا الثقافات المغربية القديمة وتطورها محلياً قبل عملية التأثير المستوردة عن طريق المسطحات المائية والتي تعتبر عنصراً أجنبياً في الموضوع .

فمثلاً يجدر بنا أن نحاول إيجاد العلاقات بين رسوم الكبش المغربي الذي عثر على رسومه في كل من الأغواط والجنوب الوهراني (كبش بوعلام زناقة) ، وبين عبادة الكبش آمون رع معبوده إله طيبة وواحة آمون المصرية في الرسوم المصرية[١٠] دون أن تربط الرسوم المغاربية كما جرت العادة مباشرة برسوم كهوف التاميرا في شمال شرقي إسبانيا ، لأن الأقرب إلى الصواب هو تأثير وتأثر الصحراء الجزائرية بمصر الواقعة في شمال شرقي القارة الإفريقية قبل تأثرها بإسبانيا الواقعة في أوروبا ، لاسيما في تلك الفترة التي كانت المواصلات فيها تمثل عائقاً كبيراً بالنسبة للإنسان .

٣ – ومن جهة أخرى تعد دراسة الآثار الرومانية والنقوش السابقة لها في بلاد المغرب القديم من بين الوسائل التي قد تعطينا أضواء جديدة على دراسة تاريخنا القديم ، ذلك لأنها تحتوي على أسماء أعلام خاصة بالأماكن والآلهة والأشخاص . وتعتبر النقوش الليبية والبونية بدورها مع الرسوم الصخرية من بين البصمات الأولى التي أنتجها لنا فكر الإنسان الجزائري القديم [١١].

٤ – يجب التخلص من توجيه الدراسات المغاربية نحو الفترة الرومانية لأن ذلك يجعل تاريخنا مبتوراً فاقد الحلقات ، فلابد إذا من ربط ماقبل الفترة الرومانية بما سبقها واعتبار مخلفات هذه الفترة (الرومانية) جزءاً مكملاً للكل الذي هو التاريخ المغاربي .

٥ – كذلك لابد من التركيز خلال فترة التاريخ القديم ، على إبراز الشخصية المغربية (النوميدية الموريطانية بالأخص) وما مدى رفضها ومقاومتها للاستعمار الروماني . وبالمقابل بحث الأسباب الحقيقية التي جعلت المغاربة القدماء يقبلون على اعتناق الديانة الإسلامية وينضمون إلى إخوانهم العرب الفاتحين للقضاء على فلول بقايا قلاع الدولة البيزنطية التي كانت جاثمة على بلاد المغرب [١٢]. ثم يرفعون بعد ذلك لواء العروبة والإسلام ويعملون على نشرهما في جنوب غربي القارة الأوروبية [١٣].

مشكلة المصادر والمراجع :

إن من بين المشاكل العويصة التي تعترض دارس التاريخ الجزائري القديم ، لاسيما الفترة السابقة للاستعمار الروماني مشكلة المصادر ، وهي تتلخص حسب رأينا في المصادر الكتابية والمادية :

أ – المصادر الكتابية :

١ – يعد هذا النوع قليلاً جداً ومبعثراً في أمهات الكتب وبسوده الغموض في كثير من الأحيان مما يجعل التتبع للفترات التي تناولتها الكتابات المشار إليها يعتمد في كثير من الأحيان على ما رصده المؤرخون القدماء الأجانب إمثال الكتاب الإغريق والرومان الذين احتكت شعوبهم في المنطقة بالليبيين والنوميديين ، غير أن كتابة هؤلاء المؤرخين كانت وصفية في كثير من الأحيان مع تحيزهم إلى شعوبهم في غالب الأحيان ، لاسيما عند احتكاكهم بالمغاربة الذين كانوا ينعتونهم بـ " البربار " .

٢ – اعتماد المؤرخين الإغريقيين والرومان على أساطير تصور النواحي الدينية والاجتماعية التي لا تخدم التاريخ السياسي في كثير من الأحيان .

٣ – اتخاذ بعض الأحداث التاريخية الإغريقية والرومانية البارزة كنقاط استناد تقاس عليها الأحداث التاريخية الأخرى في بقية العالم المعاصر لهم ، غير أن هذه الأحداث يمكن أن تصدق بالنسبة للتاريخ الإغريقي والروماني ، لكنها غير صالحة لشعوب مناطق الضفة الجنوبية للبحر المتوسط .

٤ – يؤخذ على هؤلاء المؤرخين فكرة تدوينهم لأحداث كانت سابقة عليهم فى الزمان والمكان ، فمثلاً نرى أن أقدم مؤرخ إغريقى وهو هيرودوتس والملقب بأبى التاريخ يصف بلاد المغرب فى بداية الألف الأولى ق.م دون أن يشير إلى المصادر التى اعتمد عليها ، والمحال أن هذا المؤرخ كان قد عاش خلال القرن الخامس ق .م (١٤).

٥ – ومما يؤخذ أيضًا على المؤرخين الإغريقيين والرومان عدم معرفتهم للهجات ولغات الشعوب التى كتبوا عنها ، بالإضافة إلى ذلك تسجل معاداتهم للتراجم الكنعانى (الفينيقيون والقرطاجيون) فى بلاد المغرب القديم ، وذلك نظراً للتنافس الاقتصادى والسياسى الذى كان سائداً حينذاك فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، وبلاد المغرب القديم بين القرطاجيين والرومان .

٦ – ومما يظهر تحيز هؤلاء المؤرخين ما أشار إليه المؤرخ الرومانى سالوستيوس (Sallustius) فى وصفه للمغاربة القدماء حيث يذكر : " كان أوائل سكان إفريقيا من الليبيين والجيتوليين ، وهم أقوام خشنون ومرابرة يتغذون بلحوم الحيوانات المتوحشة أو بأعشاب السهول على نمط القطعان لا يحكمهم أمير ، ولا يقنون إلا إذا داهمهم ظلام الليل"(١٥). وهو حكم قاسى بالطبع لا يتماشى والفترة التى كان عليها المغاربة القدماء فى فترة سالوست ! .

٧ – يضاف إلى ما كتبه المؤرخون الإغريق والرومان عنصر النقوش الليبية التى لازالت إلى يومنا هذا لم تجد الاعتناء الكافى ، ولم يفك الكثير من رموزها الكتابية للاستفادة من نصوصها (١٦).

ب – المصادر المادية :

أما المصدر الثانى الهام فيتمثل فى كامل البقايا الأثرية ويأتى فى مقدمتها الفخار والنصب التذكارية والجنائزية ثم العملة والزجاج ... إلخ .

غير أن هناك عدة أسباب تجعلنا لا نظر بعين الاطمئنان إلى هذه المصادر رغم جدواها وعمليتها من ذلك مثلاً :

١ – أن هناك هوة زمنية سحيقة تفصل بينها وبين ما تشير إليه المصادر الكتابية عندما يتعلق الأمر بلقى أثرية قائمة بذاتها ، أو موقع أثرى من ذلك مثلاً أن المصادر المادية (الفخار) بالنسبة لتاريخ نشأة مدينة قرطاجة يتوقف فى منتصف القرن الثامن ، بينما المصادر الكتابية تشير إلى أن تشأتها كانت فى نهاية القرن التاسع ٨١٤ ق.م . إذا هناك هوة تفصل

بين ما تشير إليه المصادر المادية وماذكره المؤرخون الإغريق فيما يخص نشأة المدينة المشار إليها .

٢ – إن هذه المصادر (المادية) غالبًا ما تخضع للتكهنات والتخمينات التى قد لا تكون صحيحة فى كثير من الأحيان .

٣ – كثير ما تلحق المصادر المادية بأنواعها فى بلاد المغرب القديم بمصادر مادية فى المناطق المجاورة لها ، لاسيما فى أوروبا ، وتكون هذه الأخيرة هى الأصل ، والسبب فى ذلك كله راجع إلى أن المشرفين على أعمال الحفر والتنقيب والدراسة كانوا من العلماء الأوروبيين ، خاصة فى فترة الاستعمار الفرنسى فى بلاد المغرب العربى .

وعليه لابد من إعادة النظر فى كرونولوجية هذه المصادر المادية على ضوء المستجدات الحديثة فى ميدان التنقيب الأثرى فى بلاد المغرب العربى (مرحلة ما بعد الاستعمار) .

مقترحات عامة :

حتى نعيد كتابة تاريخنا القديم أكاديميًا لابد فى رأيى أن نتبع المنهجية الآتية :

– جمع النصوص القديمة الخاصة ببلاد المغرب القديم من أمهات الكتب بلغتها الأصلية (المصرية ، واليونية، ثم اللوبية ، والإغريقية واللاتينية) وترجمتها إلى العربية مباشرة ، ومقارنتها بعد ذلك بما ترجم إلى اللغات الأجنبية الأخرى الحديثة .

– التركيز على دراسة اللغات الميتة التى وجدت مكتوبة بها عدة نقوش ، وإعادة تصنيفها لعلها تعطينا أشياء جديدة .

– اتخاذ مفاتيح أو نماذج خاصة للمصادر المادية ، مستقلة على مستوى بلاد المغرب العربى ، تأخذ التدرج الكرونولوجى المحلى بعين الاعتبار ، ويبقى الاجتهاد والبحث مفتوحان فى هذا الميدان الخصب ، لأنه لا يعقل أن تبقى مصطلحاتنا الأثرية بعد هذه الفترة من الاستقلال مرتبطة بالمصطلحات الأوروبية .

– توجيه دراسة التاريخ المغاربى القديم لخدمة الوحدة الوطنية ثم المغاربية والعربية ، مع التفتح على إيجابيات العولمة والتركيز على الفترات السابقة للفترة الرومانية والتى تعد حلقات مفقودة فى تاريخنا القديم وسد الثغرات التى يحاول منظروا فترة الاستعمار الفرنسى التسرب منها للتشكيك فى وحدة مجتمعنا الجزائرى على مر العصور مهما كانت فترات الضعف والهيمنة التى عانينا منها .

– وعليه لابد أن تعمل على تعميق التخصص فيما بعد التدرج في فترة ما قبل التاريخ مع التركيز أكثر على فترتي العصر النيوليتي والفترة المسهدة للتاريخ لأنهما حتى الآن لازالتا لم تنل حظهما الكافي بعد من الدراسة .

– أيضًا لا ينبغي أن نهمل في دراستنا الفترة البيزنطية في بلاد المغرب والعناصر الإيجابية التي أدت بالمغاربة القدماء إلى اعتناق الإسلام كدين والمروءة كحضارة والاعتراض على الحكم الروماني (البيزنطي) الذي كان قائمًا حينذاك في بعض أجزاء من بلاد المغرب.

– العمل على إيجاد معهد عال للتاريخ والآثار يخصص للبحوث والتخصصات الدقيقة فيما بعد التدرج يشرف عليه أساتذة أكفاء، وينتسب إليه الباحثون الذين يظهرون مقدرتهم في دراسة ما بعد التدرج ، وتسجل فيه عناوين كامل الرسائل التي تنجز في ميدان التاريخ بأسماء أصحابها بغية تجنب تكرار الجهود في موضوع واحد .

– يستحسن أن تتم الدراسات العليا في ميدان التاريخ والآثار بأرض الوطن وباللغة العربية مع الاستعانة باللغات الأجنبية على الأقل في البداية ، ويرسل الباحثون فقط لجمع المادة والوثائق اللازمة ثم الإطلاع على المناهج المختلفة في الجامعات ومراكز البحث العالمية ، على أن يجلب لهذا الغرض أساتذة يتمتعون بكفاءة تقنية عالية يشرفون على توجيه الباحثين في الميادين التي لا يتوفر فيها الإطار الوطني والعربي . وبذلك نكون قد وفرنا على أنفسنا أعباء مالية كثيرة تتحملها الدولة في ميدان المنح التي تدفع بالعملة الصعبة ، وبالتالي نضمن بقاء الإطارات الجزائرية لتستفيد بخبرتهم في ميدان التدريس بجامعتنا وفي نفس الوقت نتجنب هجرة الإطارات ذات الخبرة العالية التي يعاني منها العالم الثالث ، وفي نفس الوقت يمكننا عن طريق تطبيق هذه السياسة أن نقلل من التعاون الفني الأجنبي الذي قد تكون في بعض الأحيان سلبياته أكثر من إيجابياته وذلك عند غياب الضمير المهني وتجاوز صلاحيات الضيافة ولا يفهم من هذا الرأي الأخير الدعوة إلى التقوقع والانطواء على الذات بقدر ما يفهم منه إعطاء الثقة للإطار الوطني ضمن هويتنا العربية الإسلامية والتحاور مع الآخر على أساس الند للند وذلك هو جوهر مفهوم الإصلاحات العلمية الثقافية والاقتصادية في ميدان العلوم الإنسانية التي ترسخها الديموقراطية المسؤولة النابعة من واقع كل أمة أو عائلة بشرية قائمة بذاتها لها سلوكاتها وعاداتها وتقاليدها الحضارية النابعة من تراثها الضارب في أعماق الزمن في إطار الجمع بين الأصالة والحداثة التي تتطلع إليها الإنسانية في كامل أنحاء المعمورة .

الهوامش

١- مجلة حوليات الجزائر ع . ٩ ، سنة ١٩٩٥ ، ص.ص ٢٢٣ – ٢٥٤ ؛ مجلة سيرتا ع . ٩ ، ٨ ، جامعة قسنطينة ، ١٩٨٢م ، ص ص ١٥٨ – ١٩٤ ؛ مجلة العلوم الإنسانية ، ع ٢ ، جامعة قسنطينة ١٩٩٢ ، ص ص ٢٨ – ٣٨ .

2 - Gardiner A.H Ancient Egyptian Anomastica V.I Oksford, University Press 1954, pp. 116 - 117.

3 - Hérodote, Histoire, trad., P.H. Larcher, Paris 1980, p. 68; Texes relatifs a l'histoire de l'Afrique du nord, Alger 1915, IV .

4 - H.L'hote, Les gravures rupestres de l'Atlas saharien, Paris 1976, p. 231 et suit .

5 - Déodore de Sicile, Bibliothéque, Histoire, Trad. par A . F. Miot, Paris 1934, XX-4 .

6 - Appian, Histoire Romain, ed. P. Viereck dans Bio., reuiner 1906, . VIII - X .

٧ – هرافشيح : موقع أثري يوجد بليبيا حاليًا ، تعود بقاياه الأثرية إلى فترة ما قبل التاريخ (العصر الحجري القديم الأوسط) تحمل بعض رؤوس سهامها ونصالها سمات عاترية ، ويبدو من بقايا إنسان موقع هرافشيح بأنه ينتمي إلى نياندرتال الشمال الإفريقي . كما أنه يلتقي مع إنسان نياندرتال الفلسطيني بالمشرق العربي والعائد إلى نفس الفترة مما يجعل موقع كهف هرافشيح وموقع شمال أسوان بمصر الذي وجدت فيه رؤوس سهام عاترية مزودة بعقب يشكلان جسراً حضاريًا للربط بين المغرب والمشرق القديمين .

٨ – محمد الصغير غانم ، مواقع وحضارات ما قبل التاريخ في بلاد المغرب القديم ، ط ، دار الهدى للنشر ، ٢٠٠٣ ، ص ص ٥٩ – ٨٠ .

٩ – ندلل على ما ذهبنا إليه بوجود بقايا مجاري الأنهار الجافة حتى يومنا هذا في منطقة الصحراء ، وذلك مثل مجرى وادي الصاورة بالجنوب الجزائري ووادي أغارغار الذي يتجه نحو الشمال الشرقي ليصب بعد ذلك في شط ملغيغ بالشرق الجزائري . كذلك لا نغفل أيضًا وجود بقايا الأشجار المتحجرة والأسماك وعظام الفيلة التي عثر عليها في الصحراء . هذا إلى جانب البترول الذي هو نتاج مواد عضوية كانت موجودة في المنطقة منذ آلاف السنين .

١٠ – العقون أم الخير ، العلاقات الحضارية والسياسية بين مصر وشمال إفريقيا منذ أقدم العصور وحتى نهاية الألف الثانية قبل الميلاد ، رسالة ماجستير ، جامعة الإسكندرية ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ١٩٨٨م ، ص ص ١٦٤ – ١٦٨ .

١١ – يؤرخ للرسوم الصخرية في جنوب الجزائر (جبال التاسيلي) بحوالي الألف السابعة قبل الميلاد وهي

تمثل تلك الأعمال الفنية التي أنتجها فكر إنسان العصر الحجري القديم الأعلى والنيوليثي في بلادنا ، كما أنها تعد بمثابة صفحة فنية يومية تلخص أعماله الاقتصادية والاجتماعية . لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر :

- H. L'hote, Vers d'autres Tassilis, Paris 1979, p. 69 - 80 .

١٢ - يقصد بمصطلح المغرب القديم كامل أقطار المغرب العربي الحالية .

١٣ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٦م ، ص ٥١ وما يليها .

١٤ - يشتمل كتاب هيرودوت الذي عنونه " بالتاريخ العام " أو " تاريخ الحروب بين اليونان والبرابرة " ويقصد بالبرابرة الفرس ، وقد عرفت هذه الحرب فيما بعد " بالحروب الميدية " . وقد عاش هيرودوت على وجه التقريب فيما بين ٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م. في هاليكارناسوس بآسيا الصغرى ، وأثناء زيارته لمصر اجتاز إلى قورينة بليبيا الحالية ثم وصف بقية بلاد المغرب القديم من خلال ما عرفه من بعض سكانها الذين التقى بهم في قورينا بليبيا ، وحول هذا الموضوع انظر :

- Hérodote, Histoire, traduit du grec par Pierre Henri, Maspéro, Paris 1980, p. 261 - 262 .

١٥ - سالوست مؤرخ روماني ينتمي إلى طبقة العامة ، عاش خلال القرن الأول ق.م وهو أول حاكم روماني لإفريقيا الجديدة Africa Nova التي كانت عاصمتها سبرا (قسنطينة الحالية) ، عين من قبل يوليوس قيصر بعد قضاء هذا الأخير على الملك يوبا الأول ملك نوميديا . من أشهر مؤلفات سالوست " حروب يوغرطة " و " مؤامرة كاتلينا " انظر :

- Salluste, Histoire, trad. F. Richard, Garnier, Paris, 1963 .

١٦ - بدأت أعمال جمع النقوش الليبية منذ الاستيلاء على قسنطينة سنة ١٨٣٧م من قبل علماء الاستعمار الفرنسي ، غير أنها لم تدرس دراسة جيدة حتى الآن فيما عدا بعض المحاولات التي قام بها كل من الباحثين الفرنسيين شابو J.B. Chabot وقالار Galand منذ الأربعينات من القرن العشرين ، ولمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع انظر :

- J.B. Chabot, Recueil d'Inscriptions Libyques, Paris 1940 .

د. سعيدة محمد حسن محمد حسن (*)

مدرسة أحمد عزت عبد الكريم لكتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر

في نهضتنا العربية الحاضرة تلتقي القوى المفكرة والقوى العاملة لتسهم جميعًا في بناء الوطن العربي حيث يؤدي كل دوره في مجال تخصصه ، ولما كان التاريخ له دور بارز في إنهاض الأمم وتذكيرها بماضيها وتبصيرها بحاضرها لأن التاريخ هو سجل الحياة يحكي قصتها ، ويقص تجربتها وما نطوت عليه أعمال هذه الأمم من خطأ وصواب ، بالإضافة إلى أن الاهتمام بكتابة التاريخ هو أمر ضروري ؛ لأن التاريخ يعتبر من أهم مقومات بعث الحركة الوطنية في أي بلد ، وعلى أساس هذا الفهم لدور التاريخ كان الاتجاه إلى كتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر من خلال معاصريه من الكُتاب العرب والأجانب ، ومن ثم كان الاتجاه إلى تناول مدرسة أستاذنا أحمد عزت عبد الكريم لكتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر على اعتبار أنه من الذين كانت لهم بصمة لا يمكن إغفالها عند الحديث عن كتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر .

ولما كانت لفظة مدرسة في كتابة التاريخ تعني أنها تمتاز بخصائص عديدة من حيث المنهج ومن حيث الأسلوب وكذلك من حيث مفهوم التاريخ وأثرها عند صاحب المدرسة ، لذا كان اختيار هذا البحث والذي يمكن تحديد محاوره فيما يلي :

* - أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر - قسم العلوم الاجتماعية كلية تربية العريش ، جامعة قناة السويس .

أولاً : مقدمة بعنوان « أحمد عزت عبد الكريم » في سطور .

ثانيًا : آراؤه في كتابة التاريخ الحديث والمعاصر .

ثالثًا : قراءة في مؤلفات أحمد عزت عبد الكريم ، التي أثرت المكتبة العربية .

رابعًا : توجيه طلابه خلال الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين للبحث في تاريخ العرب الحديث والمعاصر سواء في المشرق أو المغرب وفي منطقة الخليج العربي .

خامسًا : تصوراته للعلاقات بين الشرق والغرب وأثر هذه التصورات في كتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر .

أولاً : أحمد عزت عبد الكريم في سطور :

ولد أحمد عزت عبد الكريم يوم ١٩ يونيو ١٩٠٩م في أسرة متوسطة بشبين الكوم بمحافظة المنوفية ، كان والده يعمل بوزارة المعارف ، ومن ثم كان أستاذنا رحمه الله غير مستقر في محافظة معينة ، ويتضح هذا من متابعة مراحل دراسته المختلفة ، حيث تلقى تعليمه الثانوي في مدرستي أسيوط والزقازيق الثانويتين ، ثم حصل على شهادة البكالوريا أدبي ١٩٢٦م[١] ثم التحق بالجامعة المصرية ١٩٢٦ وتخرج منها ١٩٣٠م ، حيث عمل بوزارة المعارف من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٨ ، ثم تدرج في الجامعة من معيد إلى أن وصل إلى منصب مدير لجامعة عين شمس ، حيث عمل بالجامعة المصرية منذ ١٩٣٨ (جامعة القاهرة فيما بعد) ، ثم نقل إلى جامعة عين شمس عند إنشائها ١٩٥٠ وظل بها حتى وفاته ١٩٨٠م.

ومن الوظائف والمناصب التي تقلدها : عين عميدًا لكلية آداب عين شمس بقرار جمهوري في ١ أكتوبر ١٩٦١م وظل يشغل هذا المنصب حتى ١٩٦٤م ، ثم وكيلاً لجامعة عين شمس في ٢٢ سبتمبر ١٩٦٤ حتى ١٩٦٨م ، وأخيرًا عين مديرًا لجامعة عين شمس في ٣ أبريل ١٩٦٨م خلفًا للدكتور محمد حلمي مراد الذي عين وزيرًا للتربية والتعليم ، وظل يشغل هذا المنصب حتى ١٩٦٩م حين بلغ السن القانوني للإحالة على المعاش في هذا العام ، ثم أستاذًا غير متفرغ بكلية الآداب بجامعة عين شمس منذ ١٩٦٩ وحتى وفاته ١٩٨٠م.

وكان قد اختير رئيسًا لمجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية منذ عام ١٩٦٦م وحتى ١٩٧٦م ، واختير عضو مجلس إدارة المجمع العلمي المصري في أبريل ١٩٧٥م[٢]. وفي العام التالي تم اختياره ليكون رئيسًا للجنة تسجيل تاريخ ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

إسهاماته العلمية :

بعد أحمد عزت عبد الكريم صاحب مدرسة في كتابة التاريخ الحديث والمعاصر ، ويدين الكثيرون بالولاء لهذا الأستاذ الجليل حتى ولو لم يعاصروه ، وهو مؤسس سمنار التاريخ الحديث بكلية آداب جامعة عين شمس ١٩٥٥م ، كان هذا السمنار يعقد جلساته العلمية في الساعة السادسة مساء كل خميس ، وكان هذا السمنار الذي كان يعقد بتوجيه منه وتحت إشرافه مظهرًا علميًا تم تألقه جامعاتنا من قبل حيث كان يمثل مركزًا للإشعاع في حقل كتابة التاريخ الحديث ليس فقط في مصر بل في أرجاء العالم العربي ، ومازال هذا السمنار مستمرًا في مسيرته حتى اليوم ، هذا بالإضافة إلى أنه كان يحاضر في العديد من الجامعات العربية والأجنبية ، وانتدب لتدريس مادة تاريخ الشرق الأوسط ومشاكله في جامعة نرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية [٣].

ولابد من الإشارة هنا إلى أن مؤلفاته ومحاضراته وكثيرًا من الكتب التي أشرف على ترجمتها أو راجعها وقدم لها ، ومقالاته العديدة التي كتبها في مختلف القضايا التاريخية والتي تم نشرها في المجلات والحوليات العلمية أثرت المكتبة التاريخية ، خاصة إنه كان صاحب فكرة المكتبة التاريخية التي أخذت طريقها إلى الظهور في يونيو سنة ١٩٥٨م[٤].

وقد أشرف على العديد من الندوات والمواسم الثقافية التي أقيمت في الجمعية المصرية للدراسات التاريخية خلال فترة رئاسته لمجلس إدارتها ، وشارك في العديد من المؤتمرات الدولية ، ومنح جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية سنة ١٩٧٥م ، ورحل عن الدنيا يوم ٨ أغسطس ١٩٨٠م بعد صراع مع المرض فترة من الزمن عقب إجراء عملية جراحية له ، ويجب الإشارة هنا إلى أنه رغم إسهاماته العلمية من ناحية ورغم كثرة تلاميذه من ناحية أخرى والذين أصبحوا أساتذتنا ، وكثيرًا ما يرددون لمضل هذا الأستاذ عليهم في المنتديات العلمية إلا أنه لم ينشر له أي نعي أو كلمات تأبين كما هو معتاد في مثل هذه الظروف إلا بعد تشييع الجنازة بثلاثة أيام ، وحتى خبر الوفاة قد نشر في جريدة الأهرام[٥] موجزًا فيما لا يزيد عن عدة كلمات في خبر قصير اختفى في زحمة الأخبار التي تملأ حياتنا اليومية ولا تحظى باهتماماتنا ، علمًا بأن هذا الأستاذ الجليل كان يستحق اهتمامًا أكثر من الدولة ومن تلاميذه الذين يشيدون بفضله عليهم في ميدان الدراسات التاريخية .

ومن خلال قراءة مؤلفات أحمد عزت عبد الكريم يمكن الوقوف على رؤيته لكتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ومن ثم يمكن تحديد هذه الرؤية فيما يلى من مراحل ، علمًا بأن تلك الرؤية هى التى يمكن أن توضح البعد التاريخى المتنوع لمدرسة هذا الأستاذ فى كتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر خلال النصف الثانى من القرن العشرين فى حقبة تاريخية دقيقة من نضال الأمة العربية للتخلص من الاستعمار بكافة أنواعه وأشكاله ، ويمكن حصر رؤيته التاريخية هذه فى أربع مراحل :

المرحلة الأولى : مرحلة العلاقات بين الشرق والغرب ، وكان أستاذنا يرى أن العرب أخذوا من الشرق والغرب وأعطوا للشرق وللغرب ، إذن فالعرب عرفوا أن الاتصال بالعالم الخارجى مقوم من مقومات الكيان العربى ، فعليهم أن يكونوا يقظين دومًا لتلبية مقتضيات موقعهم الجغرافى وقدراتهم الاقتصادية والبشرية .

المرحلة الثانية : مرحلة الإحياء والتحرر .

المرحلة الثالثة : مرحلة الاستقلال .

أما المرحلة الرابعة : فهى مرحلة الوحدة .

وكان أحمد عزت عبد الكريم يرى أن الكتابة فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر لابد أن تشمل هذه المراحل المختلفة ، ولابد من التركيز على إبراز التاريخ العربى الحديث والمعاصر حتى ولو فى فترة الحكم العثمانى .

ومن ثم فإن أحمد عزت عبد الكريم مرت كتاباته بهذه المراحل الأربع سواء منها ما هو متعلق بتاريخ مصر ابتداء من عصر محمد على وحتى وفاته ١٨٤٨م ، مرورًا بما ألقاه من محاضرات متعلقة بتاريخ مصر أو تاريخ العرب الحديث والمعاصر سواء من محاضراته أو إشرافه على الندوات والمواسم التاريخية والثقافية أو الرسائل التى أشرف عليها والتى استطعت تجميع معظمها وقد تاريخ الستين رسالة ما بين ماجستير ودكتوراه شاملة لمختلف فروع التاريخ الحديث والمعاصر .

ثانيًا : آراؤه فى كتابة التاريخ الحديث والمعاصر :

كان لصاحب المدرسة الأستاذ الجليل آراؤه فى كتابة التاريخ الحديث والمعاصر وفى كيفية استخدام الوثائق فى تلك الكتابة ، خاصة إذا ما كان يقوم بالبحث فيها باحث أكاديمى متخصص ، هذا بالإضافة إلى رأيه فى كتابة تاريخ أى بلد على أيدى الكتاب الأجانب .

ويمكن الوقوف على آرائه هذه من خلال ما كان يصرح به من أحاديث لبعض المجلات والصحف ، فبمناسبة تعيينه وكيلاً لجامعة عين شمس فى سبتمبر ١٩٦٦ صرح بأن البحث التاريخى فى مصر قد اجتاز عدة مراحل ، وأن إنشاء الجامعات وخاصة أقسام التاريخ والدراسات العليا بها كان باعثًا قويًا على نهضة البحث التاريخى فى مصر بعدما كان فى معظمه قاصرًا على الأجانب من قبل [٦] .

وفى بعض الأحاديث الصحفية التى صرح بها أحمد عزت عبد الكريم رداً على سؤال عن رأيه فى الدراسات التاريخية فى مصر ، قال أن الدراسات التاريخية فى مصر قد نمت من حيث الكم ، أما من حيث الكيف فلا زال الأمر يحتاج إلى جهود كثيرة ، وأرجع سبب ذلك إلى أن الأساتذة الآن لا يتحرجون فى عملية النشر كما كان فى السابق ، هذا بالإضافة إلى تصدى العديد من الهواة لكتابة التاريخ ، وكذلك سيل المذكرات الذى أخذ يتدفق على ساحة الكتابة التاريخية علمًا بأن بعض هذه المذكرات يغلب عليها الطابع الشخصى لكاتبها ، فكان غالبًا ما يصور نفسه البطل المغلوب على أمره وأنه كان منفذ فقط لتعليمات السلطة التنفيذية ، لذا فإن الحقيقة التاريخية من تلك المذكرات ليس من السهل الوصول إليها .

وعن رأيه فى كتابة التاريخ فإنه كان يرى ضرورة توجيه الباحثين إلى البحث فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية لا الاقتصار فقط على دراسة التاريخ السياسى : حيث أن المجتمع لا يمكن دراسته من الناحية السياسية فقط وإنما يجب توجيه الطلاب لدراسة التاريخ الاجتماعى والاقتصادى إلى جانب التاريخ السياسى .

وكان من رأى أحمد عزت عبد الكريم : أنه إذا كانت الدعوة فى ذلك الوقت - ١٩٦٦ - تتجه إلى إعادة كتابة التاريخ لتخليصه من الشوائب التى علقت به ، فيجب أيضًا أن تتجه الجهود إلى دراسة النواحى الاجتماعية والاقتصادية التى لم تكن تحظى بالدراسة فى التاريخ من قبل لأن التاريخ لم يعد سياسيًا فقط ، ولكنه أصبح يمتد ليشمل النواحى السياسية والاجتماعية والفكرية والثقافية والاقتصادية من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن هذه الجوانب تتشابه وتتكامل لتعطى فى نهاية الأمر صورة عن هذه الدولة أو تلك [٧] .

ولذلك فإنه أثناء وجوده كمدير لجامعة عين شمس أدخل فى لائحة كلية الآداب مادة التاريخ الاقتصادى فى قسم التاريخ ، حيث لاحظ أن طلاب التاريخ يقصرون كل اهتمامهم على التاريخ السياسى مع أن النظرة الجديدة لدراسة التاريخ تزاوج بين السياسة والاقتصاد

والاجتماع ، بل أن هناك من يغلب أثر العوامل الاقتصادية فى سير حركة التاريخ ، ومن ثم فإن إدخال دراسة التاريخ الاجتماعى والاقتصادى فى الجامعات المصرية فى الستينيات ترجع إلى فكر صاحب المدرسة التى نحن بصدد دراسة أثرها فى كتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، كذلك أدخل مادة التاريخ الاجتماعى فى قسم الاجتماع لعلمه جيداً بأهمية العلوم الأخرى فى كتابة التاريخ .

ويتضح إصراره على ضرورة الاتجاه إلى البحث فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى من خلال موضوعات البحوث التى كان يسمح لطلابه بتسجيلها لنيل درجتى الماجستير والدكتوراه تحت إشرافه ، حيث كانت تشمل النواحى الاجتماعية والاقتصادية إلى جانب النواحى السياسية[٨] لاقتناعه برأيه السابق الإشارة إليه .

وبخصوص رأيه فى تدخل الحكومة فى كتابة تاريخ أى بلد صرح بأن ذلك لا يجب أن يحدث بأى شكل من الأشكال لأن كتابة التاريخ لا تكون عن طريق الحكومة ولا عن طريق لجنة رسمية وأعضاء رسميين [٩] ، وفى مقال كتبه على أثر تشكيل لجنة تسجيل تاريخ ثورة يوليو بعنوان : (قضية للمناقشة) صرح فيه بأن الدولة لا يجب أن تقوم بكتابة التاريخ والا سيكون هناك ما يعرف بالمؤرخين الرسميين[١٠] وهذا أمر كان موجوداً فيما مضى ، مشيراً إلى استئجار بعض الحكام لبعض الكتاب لكتابة تاريخهم ، مثلما حدث فى عهد الملك فؤاد عندما أحضر كتابًا أجانب لكتابة أسرة محمد على أو التركيز على إظهار الجوانب الإيجابية لجهود هذه الأسرة فى تاريخ مصر والمنطقة العربية ، إلا أن هذا الأمر غير مقبول فى هذه الأيام .

ثم تطرق إلى قضية على جانب كبير من الأهمية فى كتابة التاريخ وهى خطورة الكتب المدرسية التى تضعها الدولة عن طريق اللجان التى تشكلها وزارة التعليم ، ومصدر الخطورة هنا أن آلاف الطلاب يتأثرون بما تضمه بين دفتيها من معلومات تاريخية ، لذا يجب أن تتوفر لهذه اللجان كافة الضمانات حتى تخرج الكتب المدرسية صحيحة ملتزمة بالموضوعية ولا تتحرى سوى الحقيقة التاريخية لكى لا تكون متذبذبة بين المدح والقدح ، من ثم كانت الدعوة لإصلاح المناهج المدرسية لمادة التاريخ لكى ترضع الحقائق عن تاريخ مصر والعالم العربى مجردة عن الهوى بين أيدى الشباب الذى هو عماد الأمم .

وأما عن رأيه فى استخدام الوثائق فى كتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر فيذكر : أن

اعتماد المؤرخ على الوثائق الرسمية لجانب واحد كمصدر فى دراسته التاريخية أمر خطير حتى ولو كانت هذه الوثائق الرسمية تنشر لأول مرة ؛ لأنها تسجل بأيدى وزراء وساسة وقواد جيوش[١١] للجانب الذى تصدر عنه تلك الوثائق ، لذا كان من رأى صاحب المدرسة أن المؤرخ الأكاديمى الذى يسعى وراء الحقيقة التاريخية يجب أن يستعين بوثائق تمثل جانبًا آخر ، هذا بالإضافة إلى الاستعانة بالمراجع والمصادر التى تعاصر الحقبة التاريخية التى يؤرخ لها ، ومن ثم يتحرى الحقيقة التاريخية بحس المؤرخ الذى يحرص على تقديمها للقراء .

أما فيما يختص برأيه فى هواة الكتابة فى التاريخ فإن صاحب المدرسة لا يائس فى أن تنتشر كتابة التاريخ على أيدى هذا النوع من الهواة ويكون هناك اهتمام بكتابة التاريخ إذا ما بعدوا عن الهوى فى كتاباتهم ، لأنهم فى كتبهم يسجلون أحيانًا للتاريخ ، وأحيانًا أخرى تصبح كتبهم مادة خام لا بأس بها للباحث يأخذ منها ما يأخذ ويترك منها ما يترك وله فى النهاية رأيه[١٢] وحسه التاريخى للوصول إلى الحقيقة التى يسعى إليها .

وفيما يتعلق بكتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر على أيدى الكتاب الأجانب فمن وجهة نظر صاحب المدرسة أن الأخذ عنهم لابد أن يكون بحذر لأن بعضهم ليس على درجة كافية من الأمانة العلمية ، إلى جانب عدم فهم بعضهم لطبيعة الشعوب التى يكتبون عنها[١٣].

ثالثًا : قراءة فى مؤلفاته المتضمنة كتابة فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر:

وكان لابد هنا من قراءة معظم إسهامات ذلك الأستاذ الجليل فى مجال الكتابة التاريخية والتى من خلالها يمكن الوقوف على الأثر العلمى له فى مجال كتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر والتى استحق أن يُطلق عليه اسم مدرسة أحمد عزت عبد الكريم لكتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، ومن خلال هذه القراءة يمكن تسجيل عدة ملاحظات على تلك المؤلفات وهى:

أولاً : أن هذه المؤلفات متنوعة وشاملة لفروع التاريخ الحديث والمعاصر ، على الرغم من أن رسالتيه للماجستير والدكتوراه حول تاريخ التعليم فى مصر فى القرن التاسع عشر ، ومن ثم فنتيجًا لما كان شائعًا فى بعض الأوساط العلمية فإن تخصصه الدقيق هو تاريخ مصر الحديث للترقية إلى درجة إستاذ مساعد ثم أستاذ .

ثانيًا : أن مؤلفاته اشتملت على تحقيق مخطوطة هى بحق إضافة جديدة لمجالات الكتابة

التاريخية فى ذلك الوقت على اعتبار أن التحقيق للمخطوطات لم يكن قد انتشر كما هو الآن.

ثالثًا : لم تقتصر كتاباته فى التاريخ على التاريخ الحديث والمعاصر وإنما امتدت لتشمل الكتابات فى التاريخ القديم والوسيط والإسلامى والعثمانى [١٤]. بل أكثر من هذا كتب فى تاريخ العلاقات .

رابعًا : يلاحظ على مؤلفاته أن بعضها قد نشر فى الحوليات والمجلات العلمية المختلفة، بالإضافة إلى المقالات التى كانت تنشر فى بعض الصحف اليومية والأسبوعية وبعض آرائه التاريخية التى كان يصرح بها فى المناسبات المتعددة .

وقد عنى طلابه فى الكتاب الذى أعدوه بمناسبة مرور عشرين عامًا على سمنار التاريخ بكلية الآداب جامعة عين شمس سنة ١٩٧٦م بجمع معظم إسهاماته العلمية فى مجال التأليف التاريخى والترجمة من خلال الإشارة إلى سيرته الذاتية فى هذا المؤلف . وهذا نوع من الوفاء للذلك الأستاذ الجليل وإن دله على شىء فإنما يدل على مدى الارتباط الوثيق الذى كان بينه وبينهم والذى ظهر أيضًا من كلمات الثناء التى كتبت فى بعض مؤلفات هؤلاء الطلاب أو التى مازالوا يرددونها على مسامعنا حتى الآن .

خامسًا : كانت له إسهامات عديدة فى مجال الترجمة ، حيث ترجم العديد من الكتب أو راجعها أو قدم لها والتى حاول من خلالها أن يكون ميزان البحث فى هذه المؤلفات أكثر اعتدالاً ، فقد كان الأستاذ الجليل يراجعه للكتب المترجمة أو تلك التى يعد مقدماتها يضيف أبعاداً جديدة وبعض التفاصيل التى تجعلها أكثر ثراء وفائدة للدراسات التاريخية محافظاً على الهيكل الأساسى للكتاب مشيراً إلى الجهد المبذول فيه .

وبعد هذه الملاحظات لابد من التنويه إلى بعض نماذج من إسهاماته العلمية فى ذلك الموضع من البحث علها تعين القارئ على استجلاء بعض القضايا التى تقابله أثناء القراءة وتؤكد الملاحظات السابق الإشارة إليها وهى :

١ – حوادث دمشق اليومية من ١١٥٤ إلى ١١٧٥ هجرى ، ١٧٤١ إلى ١٧٦٢ ميلادى ، وهى عبارة عن مخطوطة لأحمد البديرى الحلاق قام أحمد عزت عبد الكريم بتحقيقها ونشرها فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية سنة ١٩٥٩م ، وهذه المخطوطة قريبة الشبه بما

كتبه المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى عن وصف الحياة فى مصر . وكان كاتب يوميات أحمد بديرى الحلاق قد وصف الحياة فى دمشق خلال عشرين عام ، وهذه المخطوطة تعد مصدر أصليًا لمن يكتب عن الدولة العثمانية فى بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر .

٢ – تاريخ التعليم فى عصر محمد على (القاهرة ، مطبعة الاعتماد ، ١٩٤٨م) وهذا الكتاب مدعم بالوثائق فى كل فصل من فصوله ومزود بتسع لوحات إضافة إلى مقدمة بقلم الأستاذ المؤرخ الراحل محمد شفيق غربال . وقد استعان الدكتور أحمد عزت عبد الكريم بالوثائق المختلفة الخاصة بإصلاح التعليم وكتب المعاصرين ، وقد تميز هذا المؤلف بالمقارنة والموازنة بين المصادر المختلفة محاولة من المؤلف لكشف الغموض الذى أحاط بالتعليم خلال هذه الحقبة من تاريخ مصر .

٣ – تاريخ التعليم منذ أواخر حكم محمد على إلى أوائل عهد توفيق . يقع فى ثلاثة أجزاء تغطى التعليم خلال الفترة التى يتناولها المؤلف ، الجزء الأول ويتناول عصر عباس الأول وسعيد من ١٨٤٨ إلى ١٨٦٣ ميلادية (القاهرة ، مطبعة النصر ، ١٩٤٥م) ، أما الجزء الثانى فقد كان يتضمن التعليم من عصر إسماعيل والمسئولين المتصلة به من حكم توفيق من ١٨٦٣ إلى ١٨٨٢ ، وأما الجزء الثالث فيضم ملحقات بأهم الوثائق واللوائح التعليمية ومراجع البحث (القاهرة ، مطبعة النصر ، ١٩٤٥م) وساعده فى هذه التغطية وفرة المعلومات ، رغم أن هذه الوفرة قد أوجدت مشكلة من نوع آخر وهى أن أحمد عزت عبد الكريم قد خاض فى تفاصيل عديدة كان يمكن الاستغناء عنها ، إلا أنه يجب الإشارة هنا إلى أن أحمد عزت عبد الكريم بمؤلفاته عن تاريخ التعليم خلال القرن التاسع عشر والتى أشير إليها من قبل قد ملأ فراغ كبير فى ميدان التربية والتعليم ، لأن مهادين دراسة التربية والتعليم فى بلادنا – على الرغم من خطورتها – من أفقر الميادين حينذاك[١٥] فبذل المؤلف الكثير من الجهد لسد هذا الفراغ ومعالجة هذا النقص .

٤ – دراسات فى تاريخ العرب الحديث (بيروت ، دار النهضة العربية ، سنة ١٩٧٠م) وهذه الدراسات تشمل مجموعة المقالات والبحوث التى كتبها صاحب تلك المدرسة ونشرت فى العديد من المجلات المختلفة ، وهذه المقالات تدور حول الكثير من قضايا تاريخ العرب الحديث ، وكان قد جمعها ونشرها أثناء وجوده فى جامعة بيروت للتدريس بها ، وفى مقدمة هذا الكتاب يشير أحمد عزت عبد الكريم – من وجهة نظره – إلى أن تاريخ العرب الحديث يبدأ

منذ القرن السادس عشر وحتى الحرب العالمية الأولى ، أما تاريخ العرب المعاصر فإنه يبدأ بعد انتهاء هذه الحرب ، حيث دخل تاريخ العرب فى مرحلة لها من السمات ما يميزها عن ما قبلها.

ومن أمثلة الكتب التى قام بمراجعتها وقدم لها :

١ – أصول التاريخ الأوروبى الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية ، تأليف هاربرت فيشر ، ترجمة زينب عصمت راشد وأحمد عبد الرحيم مصطفى (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٢) .

٢ – أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين (١٧٨٩ إلى ١٩٥٠) .

الجزء الثانى تأليف هارولد تمبرلى أ.ن جرانت ترجمة محمد أبو درة ، لويس إسكندر ، مراجعة الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم (القاهرة ، مؤسسة سجل العرب ، ١٩٧٨) .

ومن أمثلة الندوات التى قام بالإشراف عليها وكتب بها أبحاثًا ، ثم صدر بها كتب :

١ – أبو العباس القلقشندى وكتابه صُبح الأعشى ، شارك فيها نخبة من الأساتذة ، (القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣) .

٢ – ابن إياس ، دراسات وبحوث ألقيت فى الندوة التى نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية من ١٦ إلى ٢١ ديسمبر ١٩٧٣م.

٣ – الجبرتى على مفترق الطرق ، مؤتمر عالمى عن الجبرتى فى القاهرة ١٩٧٤م ، وقد ألقى الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم كلمة فى هذا المؤتمر بعنوان الجبرتى على مفترق الطرق، حاول فيها توضيح أوجه الشبه بين الجبرتى وبين تونبى [١٩].

٤ – الأرض والفلاح فى مصر على مر العصور ، ١٩٧٤م ، وهى عبارة عن مجموعة من الأبحاث تتناول كلها موضوعًا واحدًا متصلاً ، ويذكر صاحب المدرسة التى هى محور بحثنا أن اختيار عنوان هذه الندوة كان أثناء الاحتفال بذكرى الرئيس عبد الناصر ، وذلك لأن مشكلة الأرض والفلاح فى مصر كانت أول المشكلات التى اتجهت إليها ثورة ١٩٥٢م منذ أيامها الأولى ، وهذه الندوة أقيمت فى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية تحت إشرافه وألقى فيها محاضرة بعنوان : الأرض والفلاح فى مصر ، وفى هذه المحاضرة أثنى على ثورة يوليو ، حيث

اعتبر أنها بإصدارها الإصلاح الزراعى فى سبتمبر ١٩٥٢ قد اهتمت بعنصرى الإنتاج وهما الأرض والفلاح على أساس أنه فى العصور الماضية كانوا يعتبرون الفلاح أداة للفلاحة فقط ، وكانوا يعدونه فى مرتبة أدنى من الأرض بينما جاءت ثورة يوليو لتهتم بالاثنين معًا لتوازن بين عنصرى الإنتاج الأرض والفلاح [١٨][١٧].

٥ – ندوة عقدتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بمناسبة مرور مئة عام على مولد مصطفى كامل من ١٨٧٤ إلى ١٩٧٤ (القاهرة ١٩٧٦) وألقى فيها أيضًا كلمة عن الزعيم الراحل متناولاً فيها أمجاده ودوره فى الدفاع عن القضية المصرية فى الداخل والخارج [١٩].

٦ – الندوة الدولية لتاريخ القاهرة من مارس إلى أبريل ١٩٦٩ ، وقد ألقى فيها بحثًا بعنوان : حركة التحول فى بناء المجتمع القاهرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ومن خلال هذا البحث أوضح كيف أن المجتمع فى مدينة القاهرة كان أكثر إحساسًا بسلطة الدولة وأشد تأثرًا بالتيارات المحيطة بها [٢٠].

٧ – بحث بعنوان حركة التأليف التاريخى بين التقليد والتجديد ، وتناول فى هذا البحث تطور حركة التأريخ العربى فى مصر وانتقالها من الطور التقليدى إلى طور التجديد ، وأشار فى هذا البحث إلى أنه إذا كان عبد الرحمن الجبرتى هو آخر المؤرخين المصريين التقليديين ، فإن رفاعة رافع الطهطاوى أول المؤرخين المصريين المجددين ، حيث جمع بين القديم والجديد واتخذ من القديم منطلقًا ليقيم على أساسه البناء الفكرى الحديث فى كتابة التاريخ مستخدمًا كل ما لديه من مادة زود به من خلال دراسته فى الأزهر وفرنسا ، مما ترك له أثرًا فى حركة التأليف التاريخى ، حيث أخذ عن فقهاء المسلمين آراءهم فى العدل والظلم وأسباب بقاء الدول وفنائها ، وأخذ عن المستشرقين الذين اتصل بهم فى باريس بعض مناهجهم فى البحث التاريخى واهتمامهم بنظام الدولة الإسلامية والحياة الاجتماعية والاقتصادية بها [٢١].

رابعًا : حرصه على توجيه طلابه لكتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر خلال السعينيات والسبعينيات من القرن العشرين :

الواقع أن أحمد عزت عبد الكريم قد حرص على توجيه تلاميذه فى الدراسات العليا إلى اختيار موضوعات أبحاث للحصول على درجة الماجستير أو الدكتوراه تغطى تاريخ العرب الحديث والمعاصر فى مختلف المجالات ، مما أضفى على الرسائل التى تولى الإشراف عليها صفة التنوع فى مجال الدراسات العليا ، ومن ثم استحق أن يعد مدرسة فى دراسة تاريخ

العرب الحديث والمعاصر ، ويؤكد ذلك طلابه الذين أصبحوا مثلاً يحتذى به في تخصصاتهم المختلفة فعلى سبيل المثال : وجه عبد العزيز نوار للتخصص في تاريخ العراق ، وجمال زكريا قاسم للتخصص في تاريخ منطقة الخليج العربي ، والسيد مصطفى سالم في تاريخ اليمن ويونان لبيب رزق في تاريخ السودان ، وعمر علي إسماعيل في تاريخ ليبيا ، ومحمد عبد الرؤوف سليم في تاريخ فلسطين ، وغيرهم من أساتذتنا الذين يمثلون فروعًا لتلك المدرسة التاريخية .

هذا بالإضافة إلى أنه كان يدفع بتلاميذه إلى اختيار موضوعات جديدة تأخذ في الاعتبار ما تأخذه الدراسات التاريخية الحديثة من اتجاهات فكرية ونفسية وثقافية معاصرة دون الاقتصار على التوصيف السياسي وبعيداً عن تصيد الأخطاء الأخلاقية للشخصيات السياسية[٢٣].

وقد حرصت على ألخص في نهاية هذا البحث قائمة بعظم أسماء الطلاب وموضوعات الرسائل التي أشرف عليها خلال فترة الستينيات والسبعينيات[٢٣] للوقوف على بعد نظره في ضرورة أن تشمل هذه الرسائل مختلف الدراسات العربية سواء تاريخ العرب الحديث أو المعاصر ، وكذلك حرص هذا الأستاذ على أن تمتد رسائل طلابه لتشمل تاريخ أفريقيا وآسيا ، وقد امتدت بعض الدراسات لتشمل تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب كالعلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السوفييتي .

ومن قراءة مؤلفات ذلك الأستاذ الجليل يتضح أن هذا المؤرخ ترك بصمات لا يمكن إغفالها في الكتابات التاريخية ، وعلى هذا استحق أن يكون صاحب مدرسة في كتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر .

والواقع أن أحمد عزت عبد الكريم كانت لديه نظرة شاملة في التأصيل لكتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر منذ أن كان يدرس لطلابه مادة تاريخ الشرق الأدنى الحديث ثم تحولها لمادة تاريخ العرب الحديث[٢٤] خلال منتصف الخمسينات من القرن العشرين ، حيث كان الرجل عربيًا حتى النخاع - على حد تعبير أحد طلابه[٢٥] - والذي أصبح بدوره صاحب مدرسة في كتابة التاريخ الحديث والمعاصر ، ويتضح أيضًا من المقدمات التي كان يكتبها لرسائل هؤلاء الطلاب ، حيث كان يشير دائمًا إلى أهمية التركيز على إبراز دور التاريخ العربي والمعاناة التي عاناها هذا الوطن على يد المستعمر وكيف ناضلت شعوبه في مختلف بقاعه حتى حصلت على استقلالها .

خامسًا : تصوراته للعلاقات بين الشرق والغرب وأثر هذه التصورات في كتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر :

وهذا المحور من البحث نستعين فيه بما كتبه صاحب المدرسة في مقدمة بعض مؤلفاته ، حيث يشير فيها إلى أن سبب اختياره للعلاقات بين الشرق والغرب خلال الفترة السابقة على الحملة الفرنسية على مصر والشام راجع إلى أن هذه الحقبة التاريخية للولايات العربية قد طبعها الحكم العثماني بطابع خاص وميزها بسمات قوامها سطحية الحكم والإبقاء على المؤسسات والمقومات المحلية ، وتحديد مجرى العلاقات الخارجية لتلك الولايات العربية في اتجاه خاص ، لا يقوم على العزلة الكاملة ، ولا على الانفتاح التام ، ولذا حرص العثمانيون على أن تسير هذه العلاقات في نطاق محدود لا يسمح إلا بالقليل من التأثيرات والاتصالات المتبادلة ، فكان أثرها محدوداً وارتضى الفريقان بهذا النوع من العلاقات حتى تطورت أوروبا الغربية وبدأت حركاتها التوسعية منذ أواخر القرن الثامن عشر ، فلم تستطع هذه العلاقات المحدودة أن تصمد للتجربة الجديدة فكان الغزو الأوروبي للشرق العربي متمثلاً في الحملة الفرنسية على مصر والشام سنة ١٧٩٨م فدخلت علاقات الشرق العربي بأوروبا في طور جديد [٢٦] ، حيث أن الغرب الأوروبي لم يكن مستعداً لأن يقدم لمصر أو لغيرها ثمار تجربته دون أن يتقاضى الثمن ، وهو لا يقل عن بسط النفوذ والسيطرة والاستغلال حتى يصل الأمر إلى ذروة المأساة بالاحتلال العسكري ، ولم يكن هذا الأمر مقتصراً على الشرق العربي فحسب وإنما عانت منه أيضًا بلاد المغرب العربي .

وكانت وجهة نظر أستاذنا صاحب مدرسة كتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر أن تطور هذه العلاقة نتج عنه ما عرف في تاريخ العرب الحديث بثلاث مشاكل أو مسائل دولية عملت أوروبا على إثارتها في الربع الأخير من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهذه المسائل الثلاث هي : المسألة الشرقية والمسألة المصرية والمسألة الجزائرية .

ويشير أستاذنا إلى قضية على جانب كبير من الأهمية يجب وضعها في الاعتبار عند الحديث عن كتابة تاريخ العرب الحديث وهي أن هذه المسائل أثارتها أوروبا وعملت على تعقيدها وأخذت ترسم لها الحلول حسب رغباتها تحقيقًا لأطماعها في أقطار هذه المسائل ، ويؤكد أن تلك المسائل تكون بدايتها على يد المستعمر الأوروبي وتكون خاتمتها على يد أبناء البلاد أنفسهم [٢٧] ، أعطى نماذج لذلك فالمسألة الشرقية أثارتها الدول الأوروبية لتقسيم الإمبراطورية العثمانية ولم تنته من وجهة نظر مثيريها إلا بعد الحرب العالمية الأولى وتم

التقسيم ، لكن أحمد عزت عبد الكريم يرى أن هذه المسألة وضع خاتمتها أبناء تركيا أنفسهم بالثورة الكمالية ، تلك الثورة التي حققت لتركيا استقلالها وحفظها من الضياع .

والمسألة المصرية أثارتها أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر حتى انفردت انجلترا باحتلالها سنة ١٨٨٢ ، ووضع خاتمتها قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ التي أجلت الاحتلال البريطاني من وادي النيل ، ورطدت استقلال البلاد ومكانتها الدولية .

أما المسألة الجزائرية فأثارتها أوروبا في الربع الأول من القرن التاسع عشر عقب الحروب النابليونية ، ثم عملت فرنسا على تطويرها خلال الحقبة من ١٨٢٧ إلى ١٨٣٠ حتى تم لها الاحتلال كمقدمة لاحتلال بقية البلاد[٢٨] ، وهكذا كانت رؤية أستاذنا لخاتمة هذه المسائل ولعلها رؤية يستفاد منها في كتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر .

الخاتمة :

في نهاية هذا البحث لا يسعني إلا أن أقول أن هذا المؤرخ الجليل كان صاحب مدرسة تاريخية في كتابة تاريخ العرب الحديث والمعاصر بحق ، حيث كان شديد التأثير في طلابه فاتسعت المدرسة ونمت فأصبح هؤلاء الطلاب فيما بعد يمثلون فروع تلك المدرسة التي امتد نشاطها العلمي إلى معظم بقاع العالم العربي وخارجه على النحو الذي نراه الآن .

وفي حقيقة الأمر أن هذا الأستاذ العملاق أسهم في تكوين العديد من هؤلاء الطلاب بمنهجه الذي أوجز أحدهم في بضع كلمات ، حيث ذكر أن الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم كان محاضراً متميزاً يستقرئ المادة التي يقدمها في صورة تساؤلات يستخلص منها الإجابة المحتملة ، وكان يسمح بالمناقشة إذا كان الطالب يسأل سؤالاً يعكس درجة استيعابه لما سمعه ، في نفس الوقت كان يتعامل مع طلابه بأسلوب الآباء فهم لا يكشفون عن حقيقة مشاعرهم تجاه الأبناء حتى لا تفسدهم عبارات الثناء .

ويؤكد هذا ما عثرت عليه من كلمات اقتبستها ، وهذه الكلمات تحمل كل معاني التقدير والثناء على ما قدمه صاحب هذه المدرسة إلى طلابه من توجيه وغرس قيم ومبادئ أخلاقية وأكاديمية ، ومن تلك الكلمات التي تفيض بالحب والتقدير ما ذكر في بعض كتب طلابه من إهداءات ، فعلى سبيل المثال ما ذكره أحد طلابه بتلقيبه بشيخ المؤرخين العرب أبًا وعالمًا ومعلمًا ، جزاء ما قدمه لوطنه ولأبنائه الباحثين والمؤرخين العرب ، ومن الكلمات الأخرى التي ذكرت في نعي صاحب هذه المدرسة الجليل ورأيت أن تكون خاتمة لهذا البحث :

(خسرنا فيكم الأستاذ المعلم والأب الحنون ، عزاؤنا تراث علمي خلفتموه وقيم أخلاقية غرستها فينا).

قائمة بالرسائل التي أشرف عليها الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم متضمنة اسم الباحث وعنوان الرسالة :

١ - عبد الرؤوف أحمد عمر ، العلاقات السياسية بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية من ١٩٣٩ إلى ١٩٥٧م.

٢ - بهيجت حسين عبد الله ، فلسطين أثناء الحرب العالمية الأولى والإدارة العسكرية البريطانية من ١٩١٤ إلى ١٩٢٠ .

٣ - علي محمد حامد شلبي ، الريف المصري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في الفترة من ١٨٤٦ إلى ١٨٩١ .

٤ - عبد العزيز سليمان نوار ، داود باشا والي بغداد ١٨١٦ إلى ١٨٣١ .

٥ - جمال الدين زكريا قاسم ، دولة بوسعيد في عمان وزنجبار منذ تأسيسها حتى انفسامها ١٧٤١ - ١٨٦١ .

٦ - يونان رزق إبراهيم ، العلاقة الخارجية للدولة المهدية في عهد الخليفة عبد الله التعايشي ،

٧ - أحمد إبراهيم تعلب ، مدينتا الحجاز مكة والمدينة في العصر الجاهلي وعهد الرسول.

٨ - عمر علي بن إسماعيل ، انهيار حكم الأسرة القرمانية في ليبيا ١٨٣٧ إلى ١٨٣٥ .

٩ - رؤوف عباس حامد ، الحركة العمالية في مصر من ١٨٩٩ إلى ١٩٥٢ .

١٠ - محمود محمد متولي ، التطور الاقتصادي لنيجيريا وأثره في الناحية السياسية من ١٩١٤ إلى ١٩٤٥م.

١١ - عبد العزيز محمد عوض ، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ إلى ١٩١٤ .

١٢ - فيصل محمد الأرحيم ، تطور العراق تحت حكم الاتحاد بين ١٩٠٨ إلى ١٩١٤ .

١٣ - محمد ياسين ، الحياة الحزبية في سوريا ١٩٠٨ إلى ١٩٢٠ .

١٤ - طلال ماجد المجزوب ، الحركة الدستورية في إيران ١٩٠٦ إلى ١٩٠٩ .

١٥ - عبد الودود محمد يوسف ، لواء حماه في القرن السادس عشر نظام الحكم وبناء المجتمع .

١٦ - ليلى عبد اللطيف أحمد ، شيخ العرب همام وحكم جرجا .

١٧ – محمد حسن محمد : الحرب الإخشانية الأولى من ١٨٤٠ إلى ١٨٤٢ صفحة من الاستعمار البريطاني في آسيا .

١٨ – أميمة صابر البنهاوي ، الحركة الوطنية المصرية من ١٩١٩ إلى ١٩٢٤ .

١٩ – محمد علي الطيب ، الحركة الوطنية في السودان من ١٩١٩ إلى ١٩٣٦.

٢٠ – بهجت حسين عبد الله ، لواء القدس تحت الحكم العثماني من ١٨٤٠ إلى ١٨٧٣.

٢١ – علي محمد حامد شلبي ، مصر الفتاة ودورها في المجتمع المصري من ١٩٣٣ إلى ١٩٤١ .

٢٢ – محمد عبد الفتاح عبد المجيد ، تاريخ التعليم في مصر من ١٨٨٢ إلى ١٩٢٢ .

٢٣ – حلمي أحمد عبد العال شلبي ، انتهاء الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤ .

٢٤ – عراقي يوسف محمد ، الأوجاقات العثمانية في مصر القرنين السادس عشر والسابع عشر .

٢٥ – عبد القوي فهمي محمد ، القواسم نشاطهم البحري وعلاقاتهم بالقوى المحلية والخارجية ١٧٤٨ إلى ١٨٥٣ .

٢٦ – عبد العزيز يوسف رفاعي ، تطور النظام النيابي في مصر من الثورة العرابية حتى الحرب العظمى من ١٨٨٠ إلى ١٩١٤.

٢٧ – نسيما ستاور ومقار فرياقوص ، أحوال السودان الاقتصادية من ١٨٢١ إلى ١٨٤١.

٢٨ – أحمد سعد الدين طرابين ، أزمة الحكم في جبل لبنان منذ سقوط الأسرة الشهابية إلى عهد المتصرفية من ١٨٤٢ إلى ١٨٨٢ .

٢٩ – عبد العزيز سليمان نوار ، تاريخ العراق من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا من ١٨٣٠ إلى ١٨٧٢ .

٣٠ – جمال زكريا أحمد قاسم ، الإمارات العربية في الخليج الفارسي من ١٨٤٠ إلى ١٩١٤.

٣١ – توفيق علي برو ، العرب والترك أثناء الحرب العالمية الأولى .

٣٢ – محمد خير فارس ، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب من ١٩١٢ إلى ١٩٢٩.

٣٣ – يونان لبيب رزق ، السودان في عهد الحكم الثنائي الأول من ١٨٩٩ إلى ١٩٢٤.

٣٤ – جاد محمد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية من ١٧٩٨ إلى ١٩١٤.

٣٥ – محمد عبد اللطيف الدسوقي ، حركة الإصلاح العثماني في عهد السلطان محمود الثاني .

٣٦ – السيد جمال مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن .

٣٧ – عبد الكريم الحاج الجيلاني ، عصر المنصور السعدي الذهبي ،

٣٨ – عبد العزيز محمد عوض ، متصرفية القدس في العهد العثماني ١٨٧٤ إلى ١٩١٤ .

٣٩ – رؤوف عباس حامد محمد ، الملكيات الزراعية الكبيرة في المجتمع المصري ١٨٣٧ إلى ١٩١٤.

٤٠ – محمد عبد المنعم محمود ، سيراليون من الاستعمار إلى الاستقلال ١٧٨٧ إلى ١٩٦١.

٤١ – عمر علي بن إسماعيل ، التطور السياسي والاجتماعي في ليبيا من ١٨٣٥ إلى ١٨٨٢.

٤٢ – محمود محمد متولي محمد ، الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وأثرها في مصر من ١٩٢٠ إلى ١٩٦١.

٤٣ – عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصري في القرن الثامن عشر .

٤٤ – ليلى عبد اللطيف أحمد ، الإدارة في مصر في العصر العثماني .

٤٥ – فؤاد إبراهيم خاطر ، العلاقات المصرية السوفيتية في الفترة من ١٩٤٣ لى ١٩٥٦ .

٤٦ – أحمد فريد عبد المجيد ، معاهدة ١٩٣٦ وأثرها في العلاقات المصرية البريطانية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥.

٤٧ – عباس ياسر حسين الزيدي ، تاريخ الصحافة العراقية منذ نشأتها حتى ١٩٣٦.

٤٨ – سيد أحمد محمد يونس ، المملكة العربية السعودية وسياستها الخارجية من ١٩٢٤ إلى ١٩٥٣ .

٤٩ – عبد الله محمد عزباوي ، الحركة الفكرية في مصر في القرن الثامن عشر .

٥٠ – محمد عبد الرؤوف سليم ، نشاط الوكالة اليهودية من تأسيسها حتى قيام دولة إسرائيل من ١٩٢٢ إلى ١٩٤٨ .

٥١ – طلعت إسماعيل رمضان ، الإدارة في مصر من ١٨٨٢ إلى ١٩٢٢ .

٥٢ – رياض رشيد ناجي ، الحركة الوطنية في العراق من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٨ .

٥٣ – سهيلة زكية الرفاوي ، الحياة الحزبية في سوريا بين عامي ١٩٢٠ إلى ١٩٤٥ .

٥٤ – محمد كمال يحيى حامد ، الاتحاد السوفيتي والقضية الفلسطينية من ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧ .

قائمة بمؤلفات الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم :

١ – تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، القاهرة ١٩٣٨ .

٢ – المجمل في التاريخ المصري (الجزء الخاص بالفترة من الحملة الفرنسية حتى نهاية حكم إسماعيل) ، القاهرة ١٩٤٢ .

٣ – تاريخ التعليم في عصر عباس وسعيد ، ١٩٤٥ .

٤ – تاريخ التعليم في عصر إسماعيل ، القاهرة ١٩٤٥ .

٥ – العرب والسياسة الدولية ، دمشق ١٩٤٧ .

٦ – تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، مصادره ووثائقه ، العدد الأول ، المجلة التاريخية المصرية ، القاهرة ١٩٤٦ .

٧ – التقسيم الإداري لسورية في العهد العثماني (حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، العدد الأول) ، القاهرة ١٩٥١ .

٨ – تاريخ أوروبا الاقتصادي ، القاهرة ١٩٥٣ .

٩ – دراسات في النهضة العربية الحديثة ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٠ – قصر أسعد باشا العظم بدمشق دراسة تاريخية أثرية ، مجموعة أعمال مؤتمر الآثار بفاس ١٩٥٩ .

١١ – العلاقات بين العرب والهند في أواخر العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث باللغة الإنجليزية ، مجموعة أعمال مؤتمر التاريخ الآسيوي بتيرودلهي ١٩٦١ .

١٢ – نشأة المسألة الجزائرية (حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس) القاهرة ١٩٦٣ .

١٣ – حركة التحول في بناء المجتمع القاهري ، مجموعة أعمال الندوة الدولية لألفية القاهرة ، القاهرة ١٩٦٩ .

١٤ – خمسون عامًا على ثورة ١٩١٩ (مراجعة وتقديم) ، القاهرة ١٩٦٩ .

١٥ – دراسات في تاريخ العرب الحديث ، بيروت ١٩٧٠ .

١٦ – محمد شفيق غربال : المعلم والمربي ، من كتاب لماذا نعلم ؟ القاهرة ١٩٧٤ .

١٧ – أزمة الفكر العربي في مطلع العصر ، مجموعة أعمال مؤتمر بغداد ، ١٩٧٣ .

١٨ – عبد الرحمن الجبرتي : مؤرخ مصري على مفترق الطرق ، مجموعة أعمال ندوة عبد الرحمن الجبرتي ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٧٤ .

١٩ – التأليف التاريخي في مصر بين التقليد والتجديد ، مؤتمر الحضارة العربية ، بيروت ، ١٩٧٥ .

٢٠ – الثقافة الحضارات : محاضرة في الرياض ١٩٧٥ ، معدة للطبع .

٢١ – محاضرات على الآلة الكاتبة بمعهد الدراسات العربية بالقاهرة .

١ – الحركة الوطنية في الجزائر .

٢ – حركة المسألة الجزائرية .

٣ – حركة التجديد وأوائل القرن التاسع عشر .

٢٢ – المكتبة التاريخية : أشرف على المكتبة التاريخية ، والتي صدر منها خمسة عشر كتابًا في الفترة ما بين ١٩٥٨ – ١٩٦٨ ، مراجعة وتقديم .

٢٣ – الترجمة ومراجعة كتب مترجمة :

أ – البندقية جمهورية أرستقراطية تأليف شارل ديل (عن الفرنسية) ، القاهرة ١٩٤٨ .

ب – بريطانيا والدول العربية تأليف سيتون واتسن ، القاهرة ١٩٥٢ .

جـ – أصول التاريخ الأوروبي الحديث ، تأليف هربرت فيشر ، ١٩٦١ .

د – مختصر دراسة التاريخ (الجزءان الثالث والرابع) ، لأرنولد توينبي ، القاهرة ١٩٦٦ .

هـ – أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، تأليف جرانت وتمبرلي ، القاهرة ١٩٦٧ (مجلدان) .

و – المجتمع الإسلامي والغرب القسم الأول (جزءان) ، تأليف جب وبون القاهرة ١٩٧١ .

٢٤ – التحقيق :

حوادث دمشق اليومية ، أحمد بدير الحلاق ، نشر وتحقيق ، القاهرة ١٩٥٩ .

الهوامش

١- (تقدير وعرفان) مجموعة بحوث في التاريخ الحديث مهداة إلى الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم بمناسبة انقضاء عشرين عاما على إشراف سيادته على الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٥ .

٢ - الأهرام ، أبريل ١٩٧٥.

٣ - جريدة الأخبار في ١٣ أكتوبر ١٩٧٥.

٤ - مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثامن ١٩٥٩ صفحة رقم ٢٩٥ .

٥ - انظر الأهرام ٨ ، ٩ أغسطس ١٩٨٠.

٦ - مجلة بناء الوطن سبتمبر ١٩٦٩ .

٧ - مجلة بناء الوطن سبتمبر ١٩٦٩ .

٨ - انظر قائمة الرسائل التي سجلت تحت إشراف الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والمرفقة في نهاية البحث .

٩ - جريدة الهدف ٣٠ ديسمبر ١٩٧٦.

١٠ - الأهرام في ١٤ نوفمبر ١٩٧٥ صفحة ٧ .

١١ - خمسون عاما على ثورة ١٩١٩ مؤسسة الأهرام مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة سنة ١٩٦٩ صفحة ٥ .

١٢ - مجلة الهدف مرجع سبق الإشارة إليه .

١٣ - مجلة بناء الوطن ٣٠ سبتمبر ١٩٦٩ .

١٤ - انظر القائمة المرفقة بنهاية البحث والخاصة بمؤلفات صاحب المدرسة .

١٥ - أسماء فهمي : مقال عن كتاب تاريخ التعليم للدكتور أحمد عزت عبد الكريم نشر بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد الأول والثاني أكتوبر ومايو ١٩٤٨ ، صفحة ٣٣٠ .

١٦ - الأهرام ٢٦ أبريل ١٩٧٤ ، صفحة ٤ ، ٥ .

١٧ - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، الأرض والفلاح في مصر على مر العصور القاهرة ١٩٧٤ ، صفحة ٤ .

١٨ - مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٧٤ ، صفحة ١ وما بعدها .

١٩ - مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٧٦ ، صفحة من ٥ إلى ١٢ .

٢٠ - أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة من مارس لأبريل ١٩٦٩ ، مطبعة دار الكتب القومية ١٩٧٠ ، صفحة من ١٤٧ إلى ١٥٩ .

٢١ - تقدير وعرفان ، مجموعة بحوث في التاريخ الحديث ، مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٧٦ ، بحث للدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، بعنوان حركة التأليف التاريخي بين التقليد والتجديد صفحة ٤٤٧.

٢٢ - الأهرام ٣٠ يناير ١٩٧٦ صفحة ١٣ .

٢٣ - انظر القائمة في نهاية البحث .

٢٤ - مجلة مصر الحديثة العدد الثاني ٢٠٠٣ . مقال بقلم : أ.د. برنان لبيب رزق تحت عنوان شخصية العدد (أحمد عزت عبد الكريم ، صفحة رقم ٢٥٥) .

٢٥ - أستاذنا الدكتور برنان لبيب رزق .

٢٦ - دكتور أحمد عزت عبد الكريم : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٠ ، ص ٧ و ٨ .

٢٧ - نفسه .

٢٨ - دكتور أحمد عزت عبد الكريم : " نشأة المسألة الجزائرية " ، حولية كلية الآداب ، جامعة عين شمس، المجلد السابع ، ١٩٦٢ ، صفحة ١ .

المصادر والمراجع

أولاً : مقابلات شخصية مع طلابه

ثانيًا : الدوريات باللغة العربية :

١ – الأخبار ، سبتمبر وأكتوبر ١٩٧٥.

٢ – الأهرام ، من أبريل إلى نوفمبر ١٩٧٥ ، يناير ١٩٧٦ أغسطس ١٩٨٠.

٣ – مجلة بناء الوطن ، سبتمبر ١٩٦٦ .

٤ – حولية كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، القاهرة مطبعة الجامعة ، منذ بدأ إصدارها وحتى رحيل صاحب هذه المدرسة .

٥ – مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٤٨ ، وحتى ١٩٨٠.

٦ – مجلة مصر الحديثة ٢٠٠٣ ، دورية سنوية تعنى بتاريخ مصر الحديث والمعاصر ، تصدر عن دار الكتب والوثائق القومية ، مركز تاريخ مصر المعاصر .

٧ – مجلة الهدف ، ١٩٧٦.

ثالثًا : المراجع العربية :

١ – أحمد عزت عبد الكريم : مؤلفاته التي حاولت حصرها في هذا البحث .

٢ – تقدير وعرفان ، مجموعة بحوث في التاريخ الحديث مهداة إلى الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم من طلابه بمناسبة انقضاء عشرين عامًا على سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس ، القاهرة ، جامعة عين شمس ١٩٧٦.

٣ – رؤوف عباس حامد ، مشيناها خطى ، سيرة ذاتية ، دار الهلال ديسمبر ٢٠٠٤ ، العدد ٦٤٨ .

٤ – عبد العزيز محمد عوض ، الإدارة العثمانية في ولاية سورية من ١٨٦٤ إلى ١٩١٤ ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩.

٥ – عبد المنعم إبراهيم الجميعي : اتجاهات الكتابة التاريخية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، القاهرة ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٤.

٦ – ـــــــــــ ، دراسة تاريخية لمؤسسة علمية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية من ١٩٤٥ إلى ١٩٨٥ ، القاهرة ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٨٥.

٧ – علي شلبي ، مصر الفتاة ودورها في السياسة المصرية من ١٩٣٣ إلى ١٩٤١ ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعي ١٩٨٢.

٨ – خمسون عام على ثورة ١٩١٩ ، مؤسسة الأهرام ، مركز الوثائق والبحوث التاريخية لمصر المعاصرة ١٩٦٩.

٩ – محمد عبد الرؤوف سليم ، نشاط الوكالة اليهودية لفلسطين منذ إنشائها وحتى قيام دولة إسرائيل من سنة ١٩٢٢ إلى ١٩٤٨ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

د. سلوى إبراهيم العطار (*)

العالم العربى فى كتابات صلاح العقاد

يتناول هذا البحث كتابات د. صلاح العقاد فى تاريخ العالم العربى وهو أستاذ جليل له باع كبير فى مجال الدراسات التاريخية وإن كان قد رحل عنا إلا أن ذكراه العطرة وروحه لاتزال ترفرف فى جنبات مؤلفاته القيمة التى تركها لقرائه من الأكاديميين والمثقفين على حد سواء والتى أفادتنا إفادة جمة دون شك .

فمؤرخنا د. صلاح العقاد الغائب الحاضر طارت شهرته إلى البلاد العربية بمؤلفاته فى تاريخ العرب وإشرافه على العديد من الرسائل ، وقد انتهزت الفرصة التى أتاحها اتحاد المؤرخين العرب لألقى الضوء على مؤلفات مؤرخنا علنّى أوفيه حقه حيث أننى أدين له بالفضل بل كان الفضل منذ أن كنت طالبة بكلية البنات حتى أصبحت بفضل تشجيعه ورعايته من المنتمين إلى أعضاء هيئة التدريس بالجامعة .

والحقيقة أن هناك العديد من المؤرخين المعاصرين الذين اهتموا فى كتاباتهم التاريخية المتخصصة بالعالم العربى، ومن الطبيعى أن يختلف هؤلاء فى طريقة تناولهم للأحداث بسبب ثقافتهم المتنوعة التى نهلوا منها واختلاف المدارس التى انتموا إليها واتجاه بعضهم إلى اعتناق أيديولوجيات خاصة أو أفكار ليبرالية استخدموها فى تفسير الأحداث التاريخية أو التعليق عليها.

---

* مدرس التاريخ الحديث – كلية البنات – جامعة عين شمس .

وهكذا ترك كل منهم بصماته الواضحة فى كتاباته ومجلداته التى تختلف دون شك عن الآخر ، وقد مثل هذا الاتجاه الأكاديميين ممن عنوا بالدراسات التاريخية وإن كان هناك فريق آخر من الهواه الذين شاركوا بجهد لايمكن تجاهله فى هذا المجال لكننا سنتعرض فقط كتابات صلاح العقاد فى تاريخ العالم العربى الحديث والمعاصر وهذا يقتضى أولا » :

- التعريف بالمؤرخ من حيث نشأته ومسيرته العلمية .
- الوظائف التى تقلدها والصعوبات التى واجهته فى هذا المجال.
- المؤتمرات والمهمات العلمية التى كلف بها .
- المقالات التى شارك فى كتابتها فى مجلة السياسة الدولية ومجلة الجمعية التاريخية.
- إصداراته المختلفة فى المغرب والمشرق العربى ودول الخليج .
- التعرف على منهجه العلمى فى الكتابة التاريخية من خلال كتبه ومقالاته العديدة.

وهذه الورقة ليست سيرة ذاتية لصلاح العقاد بقدر ما هى محاولة متواضعة لإبراز مساره العلمى وكفاحه الطويل الذى شقه متحديا الصعاب والعقبات حتى أرسى لنفسه موضعا بستحقه بجدارة بين كبار مؤرخى جيله ، وأصبح علامة بارزة وشاهدا على عصر ثقافى جديد هو أحد صناعه .

تعريف بالمؤرخ :

- يعتبر صلاح العقاد قاهرى المنشأ فقد ولد بمدينة القاهرة فى السابع من نوفمبر عام ١٩٢٩ وهو ينتمى لأسرة ميسورة الحال يمكن إدراجها فى مصاف الطبقة البورجوازية .

- والده يدعى أحمد سالم العقاد من تجار الأصواف المعروفين فى شارع جوهر القائد بالقاهرة الفاطمية.

- نشأ مؤلفنا فى شارع «علان» بكوبرى القبة بالقاهرة ، وينتسب إلى أسرة مغربية وفدت إلى مصر واستقرت بها منذ زمن بعيد فالأجداد القدماء من المغرب.

- وقد ولد مبصرا ثم أصيب برمد فى عينيه بعد أربعة أشهر من ميلاده وأجريت له عملية جراحية وظل يرى الألوان حتى الثانية من عمره ثم أجريت له جراحة ثانية فكف بصره[١].

مسيرته العلمية :

تلقى تعليمه الأولى فى سن الخامسة على يد إحدى السيدات المتخصصات فى تعليم المكفوفين وتدعى زاهية مرزوق فقد دربته على طريقة برايل باللغة العربية قراءة وكتابة إلا أنها لم تستمر معه طويلاً وحل محلها شخص آخر من المكفوفين يدعى نقولا باسيلى من رواد تعليم المكفوفين فى مصر وعلى يديه تلقى صلاح العقاد تعليم المواد المختلفة كالرياضة واللغتين الإنجليزية والفرنسية.

ولما كان هذا التعليم لايؤدى بالمكفوف إلى أى مدرسة معترف بها لهذا التحق بمدرسة الزيتون للمكفوفين وتعلم فيها الموسيقى والتاريخ والجغرافيا بالإضافة إلى الكتب التى كان يقرأها عليه باسيلى ثم تغيرت وجهة مؤلفنا فى التعليم والتحق بالأزهر وحفظ القرآن فى الثانية عشرة من عمره وجمع بين دراسته فى الأزهر ودراسة العلوم المدنية حتى أصبح فى مستوى شهادة الثقافة العامة وكان عمره وقتئذ خمسة عشر عاما . ثم غير اتجاه دراسته بمحاولة الالتحاق بكلية الآداب جامعة فؤاد «القاهرة- الآن » والتحق طالبا مستمعا ثم قيد بالكلية فى العام الدراسى ١٩٤٦-١٩٤٧ فى قسم اللغة العربية وحقق تفوقا ملحوظا فأصبح من حقه التمتع بالمجانية إلا أنه لم يكن بحاجة إليها لانتمائه إلى أسرة ميسورة الحال [٢]. ونتيجة لمثابرته حصل على شهادة الليسانس عام ١٩٥٠ بتقدير عام جيد جداً من قسم اللغة العربية إلا أنه من الصعوبة بمكان تعيينه فى وظيفة عادية فتطلعت همته إلى السفر فى بعثة دراسية خارج مصر وكان قد أعد نفسه لذلك من قبل بإتقانه للغتين الفرنسية والإنجليزية.

وفى منتصف القرن العشرين سافر صلاح العقاد إلى فرنسا على نفقة والده لدراسة الدكتوراة فى علم الأديان ثم كتب للدكتور طه حسين بشأن الانضمام إلى إحدى البعثات التابعة لوزارة المعارف وقد وافقت على طلبه وضم للبعثة فى ١٣ يناير عام ١٩٥١ [٣].

ولم تجبره البعثة على تخصص بعينه لهذا تحول من دراسة الأدب العربى إلى دراسة علمية تتوق إليها نفسه وهى دراسة التاريخ الحديث ثم سجل رسالته للدكتوراة الدولة فى موضوعين: هما الدولة السعودية الأولى من عام ١٧٧٤ إلى ١٨١٨ أى منذ قيام دولتهم إلى انتهاء عهدهم الأول على يد إبراهيم باشا ، والموضوع الثانى عن التنافس الإنجليزى الفرنسى فى منطقة الخليج العربى من عام ١٧٩٨ إلى ١٨٦٢ .

ومن واقع ملفه في البعثة الفهمية نجد أن صلاح العقاد تخصص في بداية حياته في تاريخ الديانات وكان موضوع دراسته الأسس الدينية والسياسية في عهد الرهابين تحت إشراف الأستاذ هنري لاوست الأستاذ بجامعة ليون وقد تم تسجيل هذا الموضوع بالفعل في جامعة السربون في يناير ١٩٥١ ولاندري السبب الذي دفع صلاح العقاد إلى تغيير موضوع رسالته من تاريخ الديانات إلى عنوان آخر هو تنازع النفوذ بين فرنسا وبريطانيا في منطقة الخليج وهو موضوع رسالته الأصلية أما مسمى رسالته الفرعية فهو الدولة السعودية الأولى[٤].

ولما كان صلاح العقاد يتوقع أن يصطدم بعقبات شكلية عند رجوعه إلى مصر بسبب تحوله من دراسة الأدب إلى دراسة التاريخ فرأى أن يتجنب ذلك فحصل على دبلوم في تاريخ الاستعمار وكان ترتيبه الأول على تسعين طالبا «فرنسيا» مما جعل أستاذه شارل أندريه جوليان يوليه اهتمامه ويشيد بسبقه لزملائه ويثني جهوده العلمية حتى كللت بالنجاح ونال شهادة الدكتوراة في مارس ١٩٥٦ بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى والتوصية من المستشار الثقافي المصري بتعيينه في إحدى وظائف التدريس بالجامعة نظرا لإبداعاته العلمية والنتائج المبكرة التي توصل إليها بناء على تقارير الأساتذة المناقشين . وعندما عاد إلى مصر في يوليو عام ١٩٥٦ كان يحدوه الأمل في الإنضمام للعمل بإحدى الجامعات لكنه ظل قرابة نصف عام عكف فيها على تأليف كتابه الأول ، ثم تقدم بطلب إلى كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم لإلحاقه بالتدريس في الجامعة، وبالرغم من أن الحاصلين على دكتوراة الدولة في التاريخ الحديث لايتجاوز عددهم الاثنين إلا أنه واجه صعوبات جمة في سبيل الحصول على وظيفة حتى ألحق بكلية المعلمين بصفة مؤقتة ثم انتدب للعمل بمعهد العلوم السياسية التابع لجامعة القاهرة في الفترة من عام ١٩٥٦ إلى ١٩٦٠ [٥].

وفي هذا المعهد قام بتدريس مواد التاريخ المختلفة وركز على التاريخ المعاصر لمجموعة من الطلبة الذين كانوا يشغلون في نفس الوقت وظائف ملحوظة في الدولة ومن بين هؤلاء من عمل في الخارجية «ومنهم على سبيل المثال د. عثمان نوري و د. النشرتي»[٦].

وعندما أعلنت جامعة عين شمس عن خلو وظيفة مدرس لتدريس التاريخ في كلية البنات تقدم إليها وقررت لجنة الفحص الجامعية تعيينه بها في سبتمبر عام ١٩٥٧ وظل بها حتى توفي في عام ١٩٩٤[٧] ويحق لكلية البنات أن تفخر بهذا المؤرخ الذي انتسب إليها لعلمه الوفير وفكره المتوقد الذي أفاد المتخصصين والمثقفين على حد سواء.

تدرج صلاح العقاد في سلك الوظائف الجامعية حتى حصل على درجة أستاذ في عام ١٩٧٠ وتولى رئاسة قسم التاريخ بكلية البنات من عام ١٩٧٨ إلى ١٩٩٠ وأصبح مقرر اللجنة الدائمة لوظائف الأساتذة المساعدين والأساتذة[٨].

ويرجع إليه الفضل في تأسيس سمنار التاريخ الحديث بكلية البنات جامعة عين شمس فقد حرص أستاذنا أن تنعقد جلساته أسبوعيا في مساء كل ثلاثاء، وكنا من بين رواده بحكم عملنا في الكلية كأعضاء لهيئة التدريس وحضره معنا مجموعة من تلميذات وطلاب صلاح العقاد ممن حملوا شعلة نشاطه واستكملوا مسيرته العلمية سواء في الجامعات المصرية أو العربية والذين شجعهم على طرق مجالات جديدة في دراساتهم كالكتابة في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي وغيره .

وقد دعي إلى السمنار بجانب الأكاديميين العديد من الرموز الفكرية في مصر باختلاف إتجاهاتهم ليدلوا بدلوهم كل في مجاله .

والخلاصة أن هذا السمنار ضم أساطين التاريخ ومنهم على سبيل المثال لا الحصر أحمد عبد الرحيم مصطفى ، عبد العزيز نوار ، عبد العظيم رمضان ، جمال ذكريا قاسم، يونان لبيب ، محمد عبد الرؤوف سليم ، رفعت السعيد ، عبد الوهاب بكر وغيرهم من هيئات التدريس في الجامعات الأخرى.

نشاطه العلمي:

شارك في العديد من الندوات العلمية والمؤتمرات العربية والأجنبية والعالمية كان أولها في مدينة تونس بفرنسا في الفترة من ٢٨ – ٣١ مارس عام ١٩٦٨ وحضره ممثلا لجامعة عين شمس وشارك معه لفيف من أساتذة التاريخ المعاصر بالجامعات الأوروبية ورغم تعدد الموضوعات المطروحة في هذه الندوة إلا أنه يهمنى فقط الموضوع الذي تقدم به صلاح العقاد «حول الفكرة العربية لدى الحركات الوطنية في المغرب» والتي تدور حول فكرة التضامن الإسلامي السائدة في فترة ما بين الحربين والفكرة العربية التي أخذت تنمو بعد ذلك وتسير جنبا إلى جنب مع فكرة المغرب الكبير ثم تغلب النزعة الإقليمية بعد الاستقلال والتي خدمت المصالح الشخصية لمن تسلموا السلطة[٩].

كذلك شارك مؤرخنا في الندوة العالمية الأولى لمركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة في عام ١٩٧٥ وألقى بحثا عن «دور البترول في الصراع العربي الإسرائيلي» ركز فيه على

أهمية البترول كسلاح استراتيجي وما أثير حوله من جدل كسلاح فعال ، وذكر أن استخدام البترول في حرب ١٩٧٣ كان مثمرا وأثبت فعالية على الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية[١٠].

كما دعي صلاح العقاد لحضور الندوة العالمية باستانبول عام ١٩٨٣ مع لفيف من أساتذة الجامعات منهم عبد العظيم رمضان ، عبد العزيز نوار وإبراهيم تصحي وغيرهم ، كما وجهت إليه وزارة الخارجية دعوة لحضور مؤتمر عقد في ألمانيا في شتوتجرد[١١].

ومن المهام العلمية التي أوكلت إلى صلاح العقاد تلك المهمة التي أوفدته فيها الجامعة في صيف عام ١٩٦٤ إلى فرنسا لدراسة تاريخ المغرب الحديث وذلك للاطلاع على أحدث المراجع لأن الوطنيين المغاربة المعاصرين في رأي مؤلفنا لم يرفوا هذا الموضوع حقه من البحث والدراسة على الأقل باللغة العربية[١٢].

كذلك أدت إقامته في الجزائر خلال العام الدراسي ١٩٦٩-١٩٧٠ إلى تهيئة الفرصة للاطلاع على الدوريات التي صدرت في موقع الدراسة[١٣].

هناك أيضا الزيارة التي قام بها إلى موريتانيا ضمن البعثة العلمية التي أوفدها معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة وذلك لإعداد موسوعة شاملة عن هذه البلاد في عام ١٩٧٦ [١٤].

وقد شارك في تلك الموسوعة ببحث مشترك مع د. جمال زكريا قاسم بعنوان الجمهورية الإسلامية الموريتانية دراسة مسحية شاملة وليس معنى ذلك إنها تفتقد إلى العمق في الدراسة بل اعتمدت على البيانات المستقاة من المصادر الأصلية .

وكان الهدف من تلك الدراسة التعريف بتاريخ واقتصاديات هذا البلد ووضعه الاجتماعي والسياسي وعرض قائمة من المصادر والمراجع التي يمكن الرجوع إليها في دراسات متخصصة قادمة[١٥].

ومن نشاطات مؤرخنا أنه كان يواجه بشجاعة أعداء الفكر الحر ولإحساسه بأن حزب الوفد أقرب إلى الليبرالية من الأحزاب الأخرى فقد انضم إليه وأصبح واحدا من أعضائه ومن كتاب صحيفته وانتخب قبل وفاته بيوم واحد رئيسا لمجلس إدارة الجمعية المصرية للتنوير خلفا للدكتور فرج فوده بعد اغتياله [١٦].

كذلك كان صلاح العقاد من مؤسسي جمعية النور للنهضة بمكفوفي البصر عام ١٩٥٧ بالعباسية ثم تركها لأنه رأى أن واجب تلك الجمعيات ينحصر في التدريب والإنتاج وليس التعريف بأحوال المكفوفين[١٧]. كما كان عضواً في مجلس إدارة الجمعية التاريخية وكتب في مجلتها بعض البحوث .

وحصل صلاح العقاد على عدة جوائز تقديرا لمجهوداته العلمية من كلية البنات في عام ١٩٩٠ وكلية الآداب كما حصل على شهادة التاريخ العربي من اتحاد المؤرخين العرب تقديرا لمجهوداته ودوره المتميز والمبدع في خدمة قضايا الأمة العربية في ١٤ فبراير عام ١٩٩٠ [١٨].

وقد قيل أن الكتابة في تاريخ العرب الحديث والمعاصر دائما ما تحتم على من يخوض فيها الرجوع إلى تاريخ مصر الذي يعد في كثير من مناحيه مكملا لتاريخ العرب.

لذلك نجد مؤرخنا يشترك في ندوة الجبرتي وقد اختار موضوعا هاما عن «وجهة نظر الجبرتي في الحملة الفرنسية» والتي تتراوح ما بين الإعجاب ببعض مظاهر السلوك ولاسيما حب المعرفة إلى مواقف الانبهار بأشياء مجهولة كالتجارب الكيميائية ونظام المطاعم والمسارح إلى موقف الاستنكار على ما لاحظه من تحرر في العلاقات النسائية واختلاط الرجال بالنساء واهتمامه بالقضايا المحلية وميله في مجال السياسة إلى مداراة الغزاة لأنهم أشد قوة في حين رفض الاستفادة من حضارتهم في المجالين الثقافي والحضاري وكان الموقف الأمثل الاستفادة من الحضارة والثقافة الفرنسية ورفض التعاون في المجال السياسي. كذلك أكد د. صلاح العقاد على علمانية الفرنسيين لأن الحملة الفرنسية لم تصطحب معها رجال دين حينما أتت إلى مصر [١٨].

كذلك ألقى د. صلاح العقاد بحثا آخر في الندوة التي عقدتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بمناسبة مرور مائة عام على مولد مصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٧٤) ذاكراً المؤثرات الثقافية والعوامل السياسية التي واكبت نشأت هذا الرائد واجتذابه نحو فرنسا لتربيته في كنف ثقافتها وتأثره بآلوانها أدبًا وفنًا وسياسة وتطلعه لمساندة القوى الخارجية ممثلة في حركة الجامعة الإسلامية والدول الأوروبية الكبرى[١٩].

هذا بالإضافة إلى مشاركته في مواسم الجمعية الثقافية بعدة موضوعات عن : الأحوال الاجتماعية والنظم الإدارية في الجزائر ، ودعوة حركات الإصلاح السلفي، والفكرة العربية في مصر.

وقد تناول في الأولى الشرائح الاجتماعية المكونة للمجتمع الجزائري كالأرستقراطية التركية وسكان المدن واليهود والأسرى المغاربة وقد نوه فيها إلى وضع الأرستقراطية التركية وقصر الوظائف العليا عليها مثلما كان الحال في مصر ، كما أشار إلى النظم الإدارية المستبدة وعلى رأسها الداي والحامية العسكرية العثمانية والقولوغلان وجهاز الكتبة وجامعي الضرائب، ثم تعرض للأحوال الاقتصادية ونظم جمع الضرائب وما ارتبط به من مخالفات وإرسال الحملات التأديبية وهو أمر شائع في الولايات العثمانية في تلك الحقبة . أخيراً «تناول المؤلف أنواع الاحتكار وتدخل الدايات في تحديد أسعار السلع [٢٠].

أما المقالة الثانية عن دعوة حركات الإصلاح السلفي فقد ذكر فيها أن الوهابيين أول من دعوا إلى فكرة العروبة في العصر الحديث وإن لم تكن الفكرة قائمة على أساس قومي بقدر ما كانت قائمة على أساس ديني حيث فضلوا العرب على الترك لأن الأخيرين أقل اتباعا لتعاليم الإسلام من العرب وأن العثمانيين اغتصبوا الخلافة وأن العرب أحق بها منهم[٢١].

أما الموضوع الثالث فقد تحدث فيه عن الفكرة العربية في مصر التي ظلت متأرجحة بين الفكرة المتوسطية والفرعونية والوطنية المصرية والاتجاه الإسلامي ولم تستقر الأمور إلى الاتجاه العربي إلا حينما تجسد ذلك في إنشاء الجامعة العربية وإن كانت لم تترك أثراً عميقا في حياة مصر لأن الاتحاد في ظل الجامعة وحسب ميثاقها كان واهي العرى. فالفكرة العربية تنمو حينما يكون هناك إحساس بالقوة في مجال المواجهة مع إسرائيل وتهبط حينما يؤدي الصدام المسلح إلى الهزيمة أو النكسات العسكرية[٢٢].

كما أثرى أستاذنا مجلة السياسة الدولية بعدد من المقالات التي تناولت موضوعات مختلفة في المغرب والخليج والمشرق. ففي المغرب تحدث عن الأبعاد الجديدة للسياسة الخارجية في تونس «تقرير» والبورقيبية ومستقبل تونس «تقرير» العلاقات الدولية بين الجزائر وفرنسا «دراسة».

وفي تاريخ الخليج قدم أربعة تقارير تدور حول : اتحاد إمارات الخليج، نظرية الفراغ والخليج العربي، نزاع الحدود بين العراق والكويت، الاستقرار والعوامل المضادة في الكويت.

أما في المشرق العربي فتحدث عن الإطار التاريخي للميثاق اللبناني «دراسة». ساطع الحصري والقومية العربية «تقرير».

ولم تكن هذه المقالات هي كل الحصيلة التي ساهم بها : صلاح العقاد في السياسة الدولية إذا اخترنا بعضها للحديث عنها على سبيل المثال لا الحصر، وسنحاول الباحثة على عجالة أن نعطي فكرة عامة عن كل مقالة على حدة مع إبراز رأيه في القضايا التي تناولها:

١- كانت فرنسا تحتل مكان الصدارة في علاقات تونس الخارجية:

أما على المستوى العربي فقد اهتم بورقيبة بالقضية الفلسطينية والوساطة بين الفدائيين والحكومة الأردنية في عام ١٩٧٠ ولم تدم العلاقات الدبلوماسية بينه وبين مصر بشكل طبيعي أكثر من أربع سنوات منذ استقلال تونس عام ١٩٥٦ : ١٩٧٠ «وقد أعيدت العلاقات بعد حرب ١٩٦٧ بعد قبوله وقف إطلاق النار» وقد اختلف سمير أمين مع د. صلاح العقاد في أن تونس قد اتخذت موقفا «مكشوفا» ففي عام ١٩٦٥ اعترفت بإسرائيل باسم الواقعية وقد أدانتها الجامعة العربية بصرامة بسبب تلك المواقف [٢٣].

ولم يكن لتونس سياسة خارجية طموحة تتجاوز إمكانياتها فتونس دولة صغيرة لا تتحمل أعباء عسكرية فوق طاقتها لإقامة جيش لن يستطيع أن يؤثر في الوضع الدولي، كما أن سياستها الخارجية تدور حول فكرة المغرب الكبير والعالم العربي ثم التضامن الأفريقي وحرصت على توقيع اتفاقيات حسن جوار مع المغرب وليبيا والجزائر لخدمة الأغراض الاقتصادية مع توثيق علاقاتها مع الدول الناطقة بالفرنسية[٢٤].

٢- أما عن البورقيبية ومستقبل تونس:

فقد حاول مؤرخنا أن يعرف البورقيبية بأنها تعني التسليم صراحة بحدود الممكن وهي اتجاه خاص في السياسة وعدم التحرك فيما وراء هذه الحدود وتعني عند الخصوم سياسة الانتهازية أو المرحلية في التهاون وقد سلم بورقيبة بمبدأ الاستقلال على مراحل وشاع عنه قوله «خذ وطالب» أو «الواقعية» ومحاولة إقامة التوازن بين الدول الكبرى حتى لا تستأثر واحدة بالنفوذ دون الأخرى. وعن سياسته الداخلية فقد استخدم مختلف الأساليب للقضاء على المعارضة إما بامتصاصها أو تعطيل الصحف وصدور الأحكام بالسجن أو توجيه الاتهام بالانتماء إلى الماركسية أو البعث واتبع السياسة العلمانية وتقييد حق الرجل في الطلاق وحظر تعدد الزوجات [٢٥].

٣- وعن العلاقات الدولية بين الجزائر وفرنسا:

فكانت في الغالب قضايا اقتصادية وصراع دول نامية من أجل إزالة آثار الاستعمار وأصبحت هذه الظاهرة لها الأولوية على موضوع الاستقلال السياسي وقد ركز صلاح العقاد على هجرة العمال الجزائريين ومصادرة أراضي الاستيطان والتعاون الثقافي وتقديم المساعدات العسكرية وعدم إجراء التجارب النووية الفرنسية على أرض الجزائر[٢٦]. وقد اتفق في ذلك مع سمير أمين[٢٧].

أما مقالاته في تاريخ الخليج :

١- قد ركز في المقالة الأولى على اتحاد إمارات الخليج العربي ومدى تأثير النفط على الاتحاد أو تعميق النزعة الذاتية لدى بعض الحكام فهم لا يريدون التنازل عن اختصاصاتهم إلا في أضيق الحدود وأشار إلى دور بريطانيا في توجيه هذه المنطقة سواء نحو التفكك أو الاتحاد ثم رأت في الستينيات أن مصلحتها تتمشى مع وجود وحدات سياسية أكبر لأن التعامل مع حكومة واحدة أيسر منه مع دويلات متعددة خاصة بالنسبة لامتيازات النفط حيث تعرضت مصالح الشركات للأضرار بسبب المنازعات على الحدود والمياه الإقليمية . وختم مقالته بالعقبات التي واجهت دولة الاتحاد وأوجزها في الاستعداد الفكري والنضج السياسي وتهيئة السكان لحكم تيابي وتخليصهم من النزعة القبلية التي يمكن أن تتلاشى في ظل الجيش الحديث الذي يتعايش فيه المواطنين من مختلف الإمارات [٢٧].

٢- وفي المقالة الثانية تناول المؤلف : **نظرية الفراغ والخليج العربي:**

ويعني بها انسحاب بريطانيا من الخليج وتساءل هل سيترك هذا الانسحاب فراغا «سياسيا» و«عسكريا» ؟ وهل في استطاعة إيران والدول العربية أن تملأ هذا الفراغ؟ أم هناك قوى خارجية جديدة ستحل محل بريطانيا ؟ وهل ستستمر بريطانيا في دورها الحارس لأمن الخليج ؟ أم أن الولايات المتحدة ستجد نفسها مدفوعة لأداء الدور الذي كانت تقوم به بريطانيا في الماضي؟ وخلص من كل هذه الأسئلة إلى مجموعة من النتائج نوجزها فيما يلي:

- خروج الخليج من العزلة الدولية وتحكم أزمة الطاقة العالمية في علاقة دول الخليج بالدول الصناعية المستهلكة وحاجته الدائمة لتلك الدول لاستيراد ما يلزمه وعدم التخلي عن حياة الرفاهية ثم تورط بعض الإمارات في خلافات الحدود واستنفاد ثروتها في التسلح لمواجهة النزاعات المحلية .

- تذرع بريطانيا بالمشروعات العمرانية وتمويلها كوسيلة للتدخل مرة أخرى. ثم اعتبار أمريكا مسئولة عسكريا عن المنطقة وارتكاز نفوذها على المجال الاقتصادي وفي نفس الوقت منحت تسهيلات للأسطول الأمريكي . وتطلع بعض الأسر لزعامة الاتحاد وقوة النزعة الذاتية لديها وما ترتب على ذلك من خلق طبقة من المستفيدين بهذا التفكك وارتباط مصالحها بالأوضاع الإقليمية مما عرقل محاولات الاتحاد بين إمارات الخليج[٢٨].

٣- أما التقرير الثالث فكان عن : **«نزاع الحدود بين العراق والكويت» :**

وقد تناوله بشيء من التحليل وذكر أن المنازعات التي تنشأ بين دولة وأخرى في منطقة الخليج على تخطيط الحدود هي من أسوأ مشكلات العالم العربي المعاصر لأنها تضعف من فاعلية العرب في الاستفادة من أزمة الطاقة العالمية كما أنها تؤثر في مستقبل الصراع العربي مع إسرائيل .

وقد عزا أسباب النزاع بين العراق والكويت إلى عوامل غاية في التشعب والتعقيد منها:

- تخطيط الحدود البرية والبحرية وهي ليست حالة فريدة وكثيرا ما تحدث بين البلدان في المشرق والمغرب.

- نقل المياه العذبة من شط العرب وتخوف الكويت من مجيء المزارعين العراقيين واستقرارهم في الكويت وتهريب البضائع عبر الحدود بين البلدين ووسائل مكافحته ودور السيطرة البريطانية وتعميق النزعة الإقليمية بسبب الثروة النفطية التي جعلت تحديد كل شبر أساسي في رسم الحدود[٢٩].

٤- أما الموضوع الرابع فكان عن : **«الاستقرار والعوامل المضادة في الكويت:**

وقد رصد فيه الملابسات السياسية التي أحاطت بنظام الحكم في الكويت في منتصف السبعينات وقارنها بتلك التي واكبت السنوات الأولى للاستقلال وكانت المؤشرات تتجه نحو مساعدة نظام الحكم على الاستقرار منوها إلى أثر الوحدة العربية على الأوضاع السياسية داخل الكويت ثم انتقل إلى مشكلة ضم العراق للكويت وأثر النظام القبلي - باعتباره الصورة الأولى للديمقراطية وهذه صورة بدائية لا تصلح كنقطة انطلاق- في تطور المجتمع نحو الأخذ بالنظم الديمقراطية .

وعن أزمة الديمقراطية يتحدث صلاح العقاد ذاكراً أن المعارك الصحفية الحامية أحياناً تعتبر نسمة ليبرالية تهب على الكويت من وقت إلى آخر فهناك قضايا اجتماعية وسياسية كبرى يحظر الخوض فيها فالصمت هو أكثر الأساليب المتبعة، كما تعرض للعوامل المساعدة على ترسيخ النزعة الإقليمية والمحافظة على الكيان السياسي الكويتي وعدم اندماجه مع أي من جيرانه بسبب صغر مساحته وإحاطته بقطرين كبيرين هما السعودية والعراق .

كما أن تعاظم ثروة النفط في هذه المساحة الضيقة المحدودة المكان جعله يتطلع إلى معاهدة تحالف مع بريطانيا للاحتماء من الجيران الأقوياء [٣٠].

أما مقالاته عن المشرق فتنحصر في الإطار التاريخي للميثاق اللبناني وحديثه عن ساطع الحصري والقومية العربية .

١- يرى مفكرنا أن الميثاق الوطني اللبناني رغم أنه إتفاق عرفي لم يتخذ شكل وثيقة مكتوبة إلا أنه عمل على الحفاظ على علاقات الطوائف الدينية المختلفة وكان يرجع إليه لتهدئة الأزمات الطائفية . ورغم أن الانتداب كان عليه بحكم الإدارة العصرية التقريب بين الطوائف إلا أنه عمق الخلافات الطائفية . وأشار المؤلف إلى موقف كل من المسلمين والمسيحيين المعتدلين الذين رأوا أنه من الممكن التعايش مع الطوائف الأخرى بشرط تراجع اللبنانيين المسيحيين عن البحث عن حماية خارجية وتلمس وجه لبنان العربي وعدم ذوبانه في المحيط الإسلامي.

وتساءل صلاح العقاد قائلا : « هل ما زال الميثاق رغم ثغراته صالحًا لتسيير شئون لبنان الداخلية والخارجية؟ أم لابد من إعادة النظر فيه وإلغاء فكرة التوازن بين الطوائف والأخذ بدلاً من ذلك بنظام علماني يتمشى مع روح العصر ؟ ويعقب على ذلك قائلا : وإذا كان الحل هو إعادة توزيع النسب بين الطوائف أم إلغاء الطائفية فإن ذلك يعني أن عهد الميثاق اللبناني قد انتهى »[٣١].

٢- وفي حديثه عن ساطع الحصري والقومية العربية استهل مقالته بفترة حياته الطويلة التي عاصرت تحول الأفكار والمفاهيم في الشرقين العربي والإسلامي وتجادلهم حول طبيعة الرابطة التي تجمع بين شعوب الشرق العربي هل هي رابطة الإسلام أم العروبة؟ ثم تعرض لتطور حياة الحصري وثقافته التي تلقاها بالأستانة مثل كثيرين من الشبان العرب واعتبره رمزاً من رموز الفكر القومي العربي لأنه رحب بثورة الشريف حسين ورفض التقسيمات الاستعمارية التي تقوى النزعة الإقليمية .

وأخيراً طرح سؤالاً حول آراء الحصري ونظرياته التقليدية قائلا: «هل عفا الزمن على تلك النظريات لأن عصر القوميات قد انتهى»؟ ثم يجيب بأنها لابد أن تستمر بحيويتها في وطن عربي لم يحقق وحدته الشعوبية وما زالت هوية بعض أجزائه مثار جدل بين الساسة والمفكرين[٣٢].

مؤلفاته :

أمكننا حصر مؤلفاته التاريخية التي بلغت «نيفا وعشرين إصداراً» خلال ما يقرب من أربعين عام منذ سنة ١٩٥٦ حتى عام ١٩٩٤ ففي النصف الثاني من الخمسينات كان له ثلاث إصدارات وفي الستينات سبع إصدارات والسبعينات سبع إصدارات والثمانينات ثلاث إصدارات والتسعينات إصدارين. وقد اتبعنا التقسيم الموضوعي في تصنيف إصداراته فجاءت في خمس مجموعات على النحو التالي:

المجموعة الأولى ممثلة في تاريخ الخليج وهي عبارة عن أربعة مؤلفات، والمجموعة الثانية في تاريخ المغرب العربي وتشتمل على سبع مؤلفات بينما تتناول المجموعة الثالثة الصراع العربي الإسرائيلي في أربع إصدارات وأخيراً المجموعة الخاصة عن الحرب العالمية الثانية والعرب والحرب العالمية الثانية.

المجموعة الأولى: تاريخ الخليج:

يمكن تقسيم مجموعة تاريخ الخليج إلى قسمين : القسم الأول يتحدث عن الاستعمار في الخليج الفارسي وكان باكورة إنتاجه العلمي وصدر في عام ١٩٥٦ .

أما القسم الثاني فيتناول معالم التغيير في دول الخليج العربي عام ١٩٧٢ والتيارات السياسية في الخليج العربي عام ١٩٦٥ ، ١٩٨٢ والتيارات السياسية في الخليج العربي من بدايته الحديثة حتى أزمة ١٩٩٠-١٩٩١ ويعتبر المؤلف أن عام ١٩٧١ نقطة تحول في تاريخ الخليج المعاصر فقبله انتهى عهد السيطرة البريطانية في المجالين العسكري والسياسي وبرزت إلى الوجود أربعة دول خليجية انضمت إلى الجامعة العربية وإلى الأمم المتحدة.

وفي إصدار عام ١٩٨٢ أجرى مسحا «شاملاً» للخليج منذ بداية العصور الحديثة حتى الأحداث المعاصرة التي أثرت في حياة القسم العربي من الخليج مستهلة بالاستعمار البرتغالي والتنافس الإنجليزي الفرنسي ونمو الكيانات العربية وعقود امتياز النفط والنتائج المترتبة

عليها والمؤثرات المحلية والدولية كأزمة الديمقراطية ، والامتيازات الأسرية وأمن الخليج وانسحاب بريطانيا . وفي إصدار ١٩٩٠-١٩٩١ : أبرز المشكلات المعاصرة كالصراع بين العراق وإيران وانعكاس الصراع العربي الإسرائيلي على المنطقة ، والغزو العراقي للكويت وما ترتب عليه من نتائج، كما تناول تصاعد النفوذ الأمريكي في الخليج، وتعرض لعاصفة الصحراء وختم هذا الإصدار بقوله:

«إن السعودية وإمارات الخليج كانت تأمل أن تعيش بمنأى عن الصراعات الدولية غير أن الأيام أتتها برياح عاصفة من المنازعات الدولية فالحرب العراقية الإيرانية كانت من أشد الحروب المعاصرة دموية ثم وقعت الطامة الكبرى في عام ١٩٩٠ مع الغزو العراقي للكويت مما جعل دول الخليج تدخل في مرحلة جديدة وهي الاعتراف بضرورة الحماية الخارجية ليس من قبل الأسر الحاكمة بل من قبل أصحاب الأعمال والموظفين الذين ساروا في نفس الاتجاه بعكس ما كان عليه الحال في السابق حينما كانت تتردد حكومة الهند في إجابة طلب حكام الخليج للحماية البريطانية إلا إذا شعرت بأن هناك مصلحة اقتصادية أو سياسية».

ومن القضايا التي شغلته في أقطار الخليج هي مدى الأخذ بالنظام الدستوري العصري فعمان تحتاج أولاً إلى التطوير قبل طرح مسألة الحكم النيابي، وعلى العكس نجد البحرين توجد فيها حركة قوية تنادي بالنظام الدستوري، بينما ينادي الرأي العام في الكويت بانتخاب هيئة تأسيسية، أما البحرين فقد شهدت مجدد الاحتجاجات العمالية في بداية عهد الاستقلال، وما يؤخذ على صلاح العقاد في مؤلفاته عن الخليج التشابه الكبير في الفصول بين معالم التغيير إصدار ١٩٧٢ من الفصل الثاني وحتى التاسع مع التيارات السياسية طبعة ١٩٨٢ من الفصل الثالث عشر ، وحتى العشرين وهذا الأخير يتشابه أيضا مع إصدار ١٩٦٥ من الفصل الأول وحتى الثاني عشر ومما يحمد له في هذه المجموعة أنه جمع بين ميزتين إذ أفاد المتخصص لأنه فتح أمامه رؤوس موضوعات من الممكن أن يتعمق فيها ويعرفه بالمصادر المتعلقة بالموضوع ومن جهة أخرى غدت تلك المجموعة في متناول المثقف غير المتخصص إذ نأى به عن سرد التفاصيل المملة وأوضح أمامه الخطوط العريضة لتاريخ المنطقة وربطها بالمشكلات المعاصرة مما ساعده على فهمها .

المجموعة الثانية: تاريخ المغرب العربي:

تعددت إصدارات صلاح العقاد تحت مسمى «تاريخ المغرب العربي»

- وكان أول إصداراته في عام ١٩٥٧ وعنوانه «المغرب العربي بين التضامن الإسلامي والاستعمار الفرنسي» .
- والثاني في عام ١٩٦٣ عن «المغرب في بداية العصور الحديثة».
- والثالث صدر في عام ١٩٦٦ تحت عنوان «المغرب العربي- الجزائر- تونس- المغرب الأقصى دراسة في تاريخه الحديث وأحواله المعاصرة».
- أما الرابع فقد صدر في عام ١٩٨٠ تحت نفس المسمى السابق، وهناك أيضا :
- الجزائر المعاصرة وهي محاضرات ألقاها في معهد الدراسات العربية في عام ١٩٦٣-١٩٦٤ .
- ليبيا المعاصرة تم نشرها في عام ١٩٧٠ .
- السياسة والمجتمع في المغرب العربي عام ١٩٧١ .

وسنحاول فيما يلي عرض أهم ما جاء فيها مع إبراز أوجه الخلاف والقضايا التي تستحق التعليق نظراً لأهميتها التاريخية سواء على المستوى المحلي أو العربي أو العالمي.

بداية أقر صلاح العقاد أن كتابه الأول كان عبارة عن دراسة عامة فهو محاولة لتعريف الجمهور بالموضوع أكثر منه دراسة علمية ، كما لايدعي أن المؤلف قد استكمل جميع الشروط العلمية فهو ثمرة اهتمام شخصي بالموضوع واطلاع طويل واتصال مباشر بالشبيبة المغربية والأوساط الفرنسية ذات النزعات المختلفة وكان إصراره على إصدار هذا الكتاب باللغة العربية ينبثق عن سببين:

أولاً: لأن هذا الجزء من العالم العربي أقل حظاً من غيره عناية بالكتابة باللغة العربية.

والسبب الثاني يرجع إلى السياسة الفرنسية التي حاولت عزل شمال أفريقيا عن العالم العربي ومحاربة الثقافة العربية مما جعل المثقفين من أبناء الشمال الأفريقي غير قادرين على تناول تاريخ بلادهم باللغة العربية وكل ما نشر كان عبارة عن كتب موجهة أصدرها مكتب المغرب العربي بالقاهرة . كذلك أخذ معهد الدراسات العربية والعلوم السياسية في الاهتمام بتخصيص سلسلة من المحاضرات تهتم بهذا الجزء من العالم العربي.

وفى المقابل كانت المكتبة الفرنسية متضخمة بالأعمال عن شمال إفريقيا بالإضافة إلى تعدد المعاهد الفرنسية المتخصصة فى باريس وتونس والجزائر والرباط.

صدر هذا المؤلف بعد حصول المغرب وتونس على الاستقلال واعتمد المؤلف فى معظم مادته العلمية على المصادر الفرنسية ، وقد قسم كتابه إلى أربعة أبواب تناولت : الجزائر وتونس ومراكش قبل وبعد الاحتلال الفرنسى الذى سماه الفرنسيون بالعصر الذهبى وقوة الجزائر البحرية والحماية على مراكش .

أما الإصدار الثانى عن المغرب فى بداية العصور الحديثة:

وهو عبارة عن محاضرات ألقاها على طلبة قسم الدراسة التاريخية والجغرافية ١٩٦٢-١٩٦٣ فى معهد الدراسات العربية تحدث فيه المؤلف عن دولة المرابطين والموحدين ودورهما فى نشر الإسلام فى مناطق جديدة عبر الصحراء فى اتجاه إفريقيا الغربية وعن العروبة ذكر المؤلف أن الحكم العثمانى لم يوقف تيار الاستعراب لأن وجود الأتراك فى المغرب كان ضئيلاً بحكم بعد المغرب عن الدولة العثمانية كما أن تلك الأعداد القليلة انتهى أمرها بالاندماج فى البيئة العربية المغربية وبعكس الأتراك فى مصر الذين رفضوا الاندماج فى البيئة العربية المصرية فى القرن التاسع عشر حتى المصاهرة اقتصرت على حدود ضيقة جداً وعلى الأسر الريفية من الأعيان وذوى الأطيان»[٣٣].

الإصدار الثالث: عن الجزائر المعاصرة:

وهى محاضرات ألقيت فى معهد البحوث والدراسات التاريخية تناول فيها المؤرخ تاريخ الجزائر منذ القرن العشرين وحتى قيام الجمهورية مستنداً فى ذلك إلى مادة علمية وثائقية غزيرة، ومن القضايا التى ركز عليها المؤلف الهجرة الأوروبية إلى أعماق الريف الجزائرى وبلوغها رقماً قياسياً فى السنوات العشر التى تلت قيام الجمهورية الثالثة حتى أصبح الأوروبيون يشكلون غالبية السكان فى مدينتى الجزائر ووهران وعجز المجتمع الجزائرى عن مقاومة تيار الفرنسة وآثر الكثير منهم الهجرة إلى أقطار إسلامية أخرى.

كذلك اتخذت الهجرة شكلاً جماعياً فى سنة ١٩٦٢ إخضاع الجزائر لنظام التجنيد الإجبارى لفرنسا، ويرجع المؤلف أسباب تأخر ظهور الفكرة القومية فى الجزائر إلى هذا التدهور الذى أصاب أركان المجتمع .

الإصدار الرابع : ليبيا المعاصرة:

يقع هذا الكتاب فى مائة وخمس وستون صفحة من القطع الكبير وقد طرح فيه المؤلف العديد من القضايا لعل أبرزها الاستعمار الاستيطانى واغتصاب الأراضى وتضبة الأملاك الإيطالية مع تسليط الأضواء على الاتجاه نحو العروبة والإيمان بمبدأ الفكرة العربية والارتباط بالمشرق والتفاعل مع أحداثه والإشارة إلى دور مصر والجامعة العربية وموقفهما من استقلال ليبيا والقاء نظرة على العلاقات العربية ومدى تأثرها وتأثيرها . ومحاولة عزل ليبيا عن المحيط العربى الإسلامى بمنع الطلبة من التزود بالثقافة العربية والدينية فى الأزهر والزيتونة، واعتبرت إيطاليا نفسها وريثة للدولة الإسلامية السابقة وقامت بتوزيع أراضى الدومين على ندامى المحاربين واستخدام المزارع العربى فى الأراضى المغتصبة وتوسعت فى الاستيطان بنقل عشرين ألفاً من الإيطاليين سنوياً منذ سنة ١٩٣٧ لتدعيم إيطاليا عسكرياً حتى بلغ عدد الجالية الإيطالية فى سنة ١٩٣٩ تسعين ألفاً بينما تناقص عدد السكان الأصليين إلى نحو ٧٠٠ ألف [٣٤].

كما أن تجاهل النظام السابق- الحكم الملكى - لقضية فلسطين صار من أشد المآخذ التى وجهت ضده . فقيل أن المسئولين فى الحكومات المتعاقبة كانوا يساهمون مع الجالية اليهودية فى كثير من ألوان النشاط الاقتصادى، كما كانوا يغضون العين عن نشاط اليهود داخل ليبيا كما أنه امتد أيضاً لقضايا أخرى كمشروع توطين اللاجئين باعتبار أن ذلك لا يكلفها شيئاً وكان هذا الموقف منافياً للسياسة العربية العامة التى تعارض توطين اللاجيئن فى أراضيها حفاظاً على الكيان الفلسطينى ولم يكن غريباً أن يكون الدفاع عن هذه القضية بعد ذلك سبباً من أسباب قيام الثورة الليبية [٣٥].

وأخيراً تعرض لموقف ليبيا السلبى فيما يتعلق بالاتفاقات الوحدوية سواء خارج الجامعة أو فى إطارها ففى سنة ١٩٦٦ لم تنضم ليبيا للاتفاقات التالية:

الوحدة الاقتصادية بين دول الجامعة، السوق العربية المشتركة، تنسيق السياسة البترولية وتسهيل التبادل التجارى، وانتقال رؤوس الأموال بين دول الجامعة[٣٦].

وقد نوه إلى أنه كلما بدا من الحكومة تقصير أو موقف عدائى من القضايا العربية كان يتردد صداه فى نفسية الشعب الليبى كانتقاد عبد الناصر لوجود القواعد الأجنبية وما أعقبه من ضغط الرأى العام على الحكومة وما أشيع عن استخدام القواعد العسكرية البريطانية

والأمريكية الموجودة في ليبيا في حرب ١٩٦٧ وما أثاره ذلك من سخط شعبي اضطر الحكومة لإحداث عدة تعديلات وزارية وقبول ليبيا المساهمة في الدعم المالي للدول المتأثرة بالعدوان لتجنب سخط الرأي العام[٣٧].

ثم تعرض لأهم مظاهر التغيير التي ترتبت على قيام الثورة الليبية وتوجيه السياسة الخارجية وتحديد الأهداف الداخلية التي انحصرت في الاشتراكية والحرية والوحدة فالقذافي يرى أنه ليست ثمة تعارض بين المغرب الكبير وبين الانتماء إلى مصر والسودان لإنشاء كتلة قوية وقريبة من جبهة القتال مع إسرائيل[٣٨].

الإصداران الخامس والسادس: المغرب العربي «الجزائر – تونس – المغرب الأقصى»

دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة طبعتي ١٩٧٦–١٩٨٠ :

يقع الكتاب الأول في ٥٣٠ صفحة والثاني في ٥٥٥ صفحة وقد قسم المؤلف الكتابين إلى أربعة أقسام : الأول عن المغرب في العصر الحديث وهو عبارة عن تمهيد تاريخي عن أحوال المغرب قبيل القرن السادس عشر والقسم الثاني عن الاستعمار الفرنسي والثالث عن الحركات القومية والأخير عن المشكلات المعاصرة والاتجاهات السياسية في المغرب.

ففي تونس تشبع بورقيبه بفكرة الديمقراطية التي شاهدها في الغرب والنزعة العلمانية التي تجلت في التعديلات الأساسية التي أدخلت على قانون الأحوال الشخصية وإلغاء المحاكم الشرعية وكان مستعداً لإدماج الفرنسيين والتونسيين في بيئة واحدة لو أن الحكومة الفرنسية لم تتعصب لكبار الملاك والطبقة المتأثرة من الموظفين في تونس. وتناول المبادئ الثابتة التي استقر عليها الزعماء الجزائريون منذ عهد الثورة كالأخذ بالمبادئ الاشتراكية كنظام اقتصادي وبالقيادة الجماعية كنظام سياسي واتباع مبدأ الحياد الإيجابي والتضامن في الإطارات الثلاث «المغرب الكبير والوطن العربي والوحدة الأفريقية» . أما المغرب فقد سار على مبدأ الملكية الدستورية فالوزراء مسئولون أمام الملك إلا أن القصر قضى على الأحزاب بحجة أن المغرب لم يتهيأ بعد للنظام البرلماني. وكان المغرب أقرب إلى سياسة الحياد وحدد مكانه في إطارين حركة النضال العربي ثم إطار الوحدة الأفريقية .

ويتشابه الكتابان في معظم الأقسام فيما عدا القسم الرابع في الطبعة الثانية من الفصل الحادي والعشرين حتى السابع والعشرين أي أنه أضاف سبعة فصول تناول فيها على التوالي :

بناء الدول والأسس الاقتصادية والعلاقات الخارجية مع فرنسا وهجرة العمال الجزائريين ثم بناء الدولة التونسية وأوضاعها الاقتصادية والحزب والزعامة وعلاقاتها الخارجية، ثم تحدث عن المملكة المغربية والقوى السياسية والاجتماعية ونفوذ القصر والأحزاب السياسية وأخيراً العلاقات الخارجية للمملكة المغربية والتعليم والتعريب وهي من القضايا التي أفردنا لها دراسة خاصة.

الإصدار السابع: السياسة والمجتمع في المغرب العربي طبعة ١٩٧١:

يقع هذا الكتاب في ٢١٤ صفحة من القطع المتوسط تناول فيه المؤلف تسعة فصول استهلها باستقلال الأقطار الثلاثة وأزمة السلطة في الجزائر ثم بناء الدولة وسياستها الخارجية ثم عرض لبناء دولة تونس وعلاقاتها الخارجية وتعرض بالدراسة للقوى السياسية والاجتماعية في المملكة المغربية وسياستها الخارجية مع الدول الأوروبية.

وتلم المؤلف في هذا الكتاب مجالاً خصبًا لدراسة المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية إذ تعاصرت فيه تيارات متفاوتة ما بين تقليدية محافظة وثورية متطرفة فعاشت القبيلة جنبًا إلى جنب مع أحدث التنظيمات النقابية العمالية ولم يلتزم بتقسيم الدراسة إلى ثلاث أجزاء متساوية من حيث الحجم لكل من دول المغرب الثلاث. فتونس لصغر مساحتها وقلة عدد سكانها وانسجام مجتمعها لم تثر من المشكلات والقضايا بقدر ما أثارته الجزائر وبذلك لم تشغل حيزاً مساويًا من هذا الكتاب لما شغله القطران الآخران.

وفي نهاية الكتاب أفرد فصلا للتعليم وقضايا التعريب وهي قضايا ليس لها نظير في المشرق العربي. وختمه بفصل عن فكرة المغرب الكبير وتطورها والعقبات التي اصطدمت بها مما جعلها تنتهي بنتيجة سلبية.

المجموعة الثالثة: الصراع العربي الإسرائيلي:

وهي تتكون من أربع إصدارات وسنحاول عرض أهم ما جاء فيها من قضايا مع إبراز رأي المؤلف وتعليقه عليها والدروس المستفادة منها .

١– قضية فلسطين : المرحلة الحرجة (١٩٤٥–١٩٥٦) :

يقع هذا الكتاب في ٢٤٩ صفحة من القطع المتوسط تناول فيه المؤلف عدة موضوعات منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى عدوان ١٩٥٦ وركز فيه على نواحي التقصير والضعف التي

أصيب بها القادة العرب على الصعيدين السياسي والعسكري مع الإقرار بمسئولية الدول الكبرى وعدم المبالغة ولكن بوزن الأمور وزنًا علميًا وموضوعيًا، واستغلال الصهيونية للحرب لتخطو خطوة حاسمة في تاريخها وهي التحول عن سياسة الوطن القومي إلى الدعوة الصريحة لبناء دولة يهودية وذكر أن من أخطر النتائج التي ترتبت على الحدود بين مصر وإسرائيل وهي النقطة التي كان من المنتظر أن تبدأ منها الانطلاقة لتحرير الأرض المحتلة واستمر هذا الوضع إحدى عشر عامًا استغلها العدو في الاستعداد لجولة أخرى عسكرية وسياسية. كما فند أسباب اشتراك كل من فرنسا وبريطانيا وإسرائيل في عدوان ١٩٥٦ مع أن أهدافها كانت مختلفة.

وأخيرًا عدد نتائج دراسته في النقاط الهامة التالية:

- أن خروج العرب ودخول اليهود ينسي العالم مع الوقت أن المنطقة كانت عربية.

- الإصرار على استخدام عبارة الشرق الأوسط تعني طمس الصفة القومية العربية للمنطقة.

- ضرورة استخدام الإمكانيات البشرية كطاقة لم توظف توظيفًا صحيحًا وذلك بإعادة تنظيم العرب سياسيًا واجتماعيًا وأخلاقيًا فالاستعداد للتضحية من قبل المواطنين لا تتحقق إلا إذا كانت هناك عقيدة راسخة في الأنظمة السياسية القائمة.

- ضرورة العمل الفدائي لزعزعة الثقة لكنه ليست الحل النهائي لأنه يزعزع الثقة بالأمن على الأقل لكنه لا يحل القضية حلاً جذريًا.

- وضع إسرائيل في المنطقة ليس أساسه التطرف القومي والديني فحسب بل هو وضع شاذ جغرافيًا.

- ليس التخلص من إسرائيل وإبادتها هو الحل الأمثل ولكن البحث عن حل معتدل يفرض بقوة السلاح عن طريق الردع وفرض الأمر الواقع وهي السياسة التي تستخدمها إسرائيل دائمًا.

٢- تطور النزاع العربي الإسرائيلي منذ ١٩٥٦-١٩٦٧.

يقع هذا الكتاب في ٣٥٩ صفحة من القطع المتوسط قسمه المؤلف إلى عشرة فصول تدور حول اتفاقيات الهدنة وقضية فلسطين قبل عام ١٩٥٦ والمتغيرات الدولية والعربية وتفجير أزمة مايو وما ترتب عليها من تصعيد للموقف وأخيرًا حرب الأيام الستة.

والكتاب يعالج النزاع العربي الإسرائيلي من الزاوية السياسية وهو موجه في الأصل لجمهرة المثقفين وأوضح أن خطأ «النكسة» يقع على كاهل العسكريين الذين قدموا بعد ذلك للمحاكمة بتهمة التقصير. وأوضح المؤلف خطأ عبد الناصر الذي أغفل ركيزة أساسية وهي الاستعداد العسكري لمجابهة إسرائيل وتعويله على الأوضاع الدولية والمؤثرات الاقتصادية كغلق قناة السويس وسلاح البترول ثم تصديقه للدول التي أشاعت أنها ستقف ضد من يطلق الرصاصة الأولى.

كما تعرض المؤلف للدعاية الصهيونية التي أشاعت نظرية مؤداها أن المسئول عن الحرب ليس من بدأ القتال بل من خلق الظروف التي أدت إليه وافتناع تسم من الرأي العام الدولي بهذه النظرية.

وأخيرًا أشار إلى الدروس المستفادة من حرب ١٩٦٧ في محاولة منه لكشف عيوب الماضي وأخطاء الأجهزة الإعلامية للدول العربية واختفاء صورة إسرائيل باعتبارها قطرًا صغيرًا محاطًا بجيران أقوياء يوشكون على التهامه لأن عدم الكشف عن الأخطاء يعد تضليلاً وبعدًا عن التبصر والمصلحة الوطنية. وقد اتفق في ذلك مع المشير عبد الغني الجمسي الذي تحدث في مذكراته عن الدروس المستفادة من حرب يونيو ١٩٦٧ فكليهما ذكر أن إسرائيل قد حققت كثيرًا من المكاسب في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية بينما خسر العرب خسائر جسيمة في كل المجالات وأصبح الاحتلال الإسرائيلي لسيناء والجولان والضفة الغربية لنهر الأردن وقطاع غزة هو الورقة التي تساوم بها إسرائيل لفرض السلام بالقوة على العرب. أما العرب فأصبحوا في حاجة إلى سنوات طويلة لإعادة بناء قواتهم المسلحة وأصبح هناك اقتناع بأن الأرض التي أخذت بالقوة لا تسترد بغير القوة.

كذلك اتفق صلاح العقاد مع الجمسي في أن حرب يونيو ١٩٦٧ كانت لتصفية الحساب مع الرئيس عبد الناصر بعد أن أصبح بطلاً قوميًا ورمزًا لتحدي النفوذ الغربي. واختلف صلاح العقاد مع الجمسي في أن الأول لم يذكر الخسائر العسكرية تفصيلاً لأنها ليست داخلة في تخصصه بينما عدها الجمسي باعتباره رجلا عسكريًا ومن شهود عيان تلك الحرب[٣٩].

كما أوضح كليهما أن الهزيمة التي لحقت بمصر وغيرها من الدول العربية كانت المحصلة الطبيعية لأخطاء سياسية وأخرى عسكرية.

وقد عقدنا مقارنة بين صلاح العقاد وعبد الغنى الجمسى رغم أن الأخير ليس من المؤرخين إلا أن معظم الكتاب العسكريين قد قدموا معلومات هامة فى دراستهم للأحداث لم يتوفر لغيرهم الحصول عليها فقد كتبوها بصفتهم شهود عيان أو مشاركين فى صنعها فقدموا بذلك خدمات جليلة لتاريخنا المعاصر عند توضيحهم للدروس الممكن الاستفادة منها.

وترجع أهمية دراساتهم إلى أنهم حصلوا على مادتها العلمية من الوثائق العسكرية المصرية خاصة وثائق مسرح العمليات والخطط الدفاعية وهذا متاح فقط للعسكريين[٤٠].

بالإضافة إلى رجوعهم للمصادر الإسرائيلية وغيرها. وهذه الأخيرة استفاد منها مؤرخنا لتحليل مواقف الطرف الآخر، ورغم أنه عانى من ندرة المصادر فى تلك الموضوعات المعاصرة إلا أنه تصدى لها وأدلى بدلوه فيها [٤١].

٣- مأساة يونيو ١٩٦٧ :

يقع هذا الكتاب فى ٣٢٠ صفحة من القطع المتوسط وهو يتشابه إلى حد ما مع الإصدار السابق فى تناوله لبعض الموضوعات كنظام الهدنة والنتائج المترتبة على ذلك الخاصة بمسألة الممرات المائية وقضية فلسطين قبل سنة ١٩٥٦ والأبعاد الجديدة للنزاع العربى الإسرائيلى ومنها مياه نهر الأردن واحياء الكيان الفلسطينى وتطور أوضاع اللاجئين حتى وصل إلى حرب يونيو ١٩٦٧، كما تعرض لبحث إسرائيل المستمر لإيجاد مبدأ الحق التاريخى الذى يربطهم بفلسطين وهو جزء من المشاعر العاطفية وليس مستمداً من واقع الأشياء.

كذلك أشار إلى تميز الصراع العربى الإسرائيلى بتدخل الأمم المتحدة لأن صاحب الحق الشرعى لم يكن قادراً على ردع المغتصب فكان يرضى بتدخل الأمم المتحدة لتنوب عنه فى قبول الأمر الواقع الذى فرض بالقوة.

وحول قضية الخلاف والاتحاد بين الدول العربية وموقف إسرائيل منها، يوضح المؤلف أن الاختلافات تفقد العرب عنصراً هاماً من عناصر القدرة على المواجهة العسكرية ومع التسليم بأهمية الاتحاد العربى فى المواجهة العسكرية والسياسية والاقتصادية فإنه لايكفى لتحقيق التفوق على العدو، فهو أحد عناصر المواجهة ولا يقل عنه أهمية رفع الكفاءة فى جميع المجالات.

كذلك احتل عبد الناصر موقعه من الدراسة باعتباره عنصراً مؤثراً فى العالم العربى وهو مثل أى شخصية تاريخية بارزة يثير الجدل حول تقييم أعماله ومنجزاته.

ويرى صلاح العقاد أنه إذا كانت هناك ثمة بعض الجوانب الإيجابية فى تاريخ عبد الناصر فمن المؤكد أن سلبياته تبدو راجحة ولعل أهمها فى رأيه هو الموقف الذى سلكه عبد الناصر والذى كان يتمثل فى التظاهر بالاستعداد للحرب وإن كان فى واقع الأمر يرتاح إلى نظام الهدنة وهذا هو أسوأ المواقف الذى قاد البلاد إلى الكارثة.

وقد اتفق محمد بيومى مهران مع صلاح العقاد فى موقفه من عبد الناصر حين قال «إن كثيراً من القادة تتوفر فيهم صفات القيادة فيتمكنون عند توافر الظروف الموضوعية من أداء دورهم فإذا ما تغيرت الظروف فإنهم سرعان ما يفشلون فى متابعة إنجازاتهم»[٤٢]. فعبد الناصر استطاع أن يؤدى دوره بشكل متميز حتى هزيمة ١٩٦٧ لكنه بعد تلك الهزيمة لم يستطع أداء دوره على الوجه المأمول[٤٣].

وأخيراً أشار المؤلف فى خلاصة كتابه إلى الدروس المستفادة التى وعيها الرؤساء والقادة العرب كإحساسهم بروح المسئولية والحصافة الدبلوماسية والتخلص من الدعاية الطنانة وتنمية مدخراتهم من البترول لاسترداد حقوقهم لا اغتصاب حقوق الآخرين.

٤- السادات وكامب دافيد:

يقع هذا الكتاب فى مائتى صفحة من القطع الكبير تناول فيه المؤلف عشرة فصول بدأ بآثار حرب يونيو على الأوضاع الداخلية فى دول المواجهة ثم أعقبه بالانعكاسات العربية والدولية وأردفه بالتحالف الأمريكى والإسرائيلى وركز بعد ذلك على الشئون العربية وتحدث عن الملك حسين والفلسطينيين وأيلول ١٩٧٠ وتعرض أيضاً لحرب أكتوبر ودورها فى تسلسل النزاع العربى الإسرائيلى وما ترتب على ذلك من نتائج ومفارقات. وذكر أن الطريق كان شاقا نحو الاتفاق والوصول إلى حل أمثل فكانت رحلة السادات إلى القدس.

الفترة التى يعالجها المؤرخ هى مرحلة تدهور فى العالم العربى بصفة خاصة ولو أن الدراسة تنصب على مصر وتطور الأحداث التى أدت إلى الصلح مع إسرائيل واستخدام كلمة الصلح لأنها أقرب إلى الحقيقة من السلام، وهو لايعارض اتفاقية كامب دافيد أو معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية عام ١٩٧٩ لأنها النتيجة البعيدة لهزيمة يونيو وأن حرب أكتوبر لم تكن كافية لإزالة آثار الهزيمة وأوضح أسباب تدهور العالم العربى فى تلك المرحلة وأرجعها إلى سيطرة النظم الاستبدادية والمجتمعات غير الواعية التى أفرزت تلك النظم وأكد على أن عبد الناصر هو الذى صعد التوتر فى مايو عام ١٩٦٧ دون أن يستشير أحداً حتى برر لإسرائيل

عدوانها وترك العالم العربي مهيئًا لابتعاطف معه أحد ثم قارن بين عبد الناصر والسادات فقد عاش الأول مرحلة الوهم بالزعامة العربية فأضاع الأراضي أما الآخر فقد عاصر الفترة التي كان لابد فيها من دفع الثمن «فقد أحسن قياس نبض أمته وعرف فيها الرغبة العارمة في السلام»[٤٤].

كما أحدث صدعًا في العلاقات العربية وتراجعت احتمالات عودة الضفة الغربية إلى الحكم العربي وضعفت قدرة مصر على التأثير في كتلة دول عدم الإنحياز إذا ما قورنت بالخمسينات.

كما دعا المؤلف إلى تغيير الداخل بطريق غير الانقلابات العسكرية لأنه خطوة هامة نحو التغيير في طبيعة العلاقات مع إسرائيل وإن لم يتحقق ذلك فإن المجتمع يرضى برجل الهزيمة ويصفق له كما حدث في يونيو عام ١٩٦٧ ويرى أن الزعيم أهم من الوطن.

وأكد أن غياب الديموقراطية في العالم العربي وتسلط الديكتاتورية على أنظمة الحكم هو العقبة الوحيدة أمام حسم الصراع العربي الإسرائيلي ثم تعرض لرد فعل حرب يونيو على الأردن وسوريا وما تم احتلاله من أراضيهما وما تردد من إشاعات حول وجود خيانة وتقاضي أموال حصل عليها المسئولون في دمشق وإعلان سقوط القنيطرة لمبيل وقوعها في يد الإسرائيليين والإدعاء بقدرة العرب على شن حرب شعبية لاقبل لإسرائيل بها وكان السلوك على طرف النقيض مع الشعارات وهذه الاتهامات أخطر بكثير مما وجّه للقيادة المصرية التي اتهمت بالتقصير، وعن المعارضة العربية الخارجية قال «ليلتس وإن السادات قال من هم السوريون أو غيرهم ليكونوا نقاداً لمصر بل إنه احتقر الزعامة العربية الأخرى للغاية ولم يحترم الملك حسين على الإطلاق»[٤٥].

وأخيراً «فإن الأفكار المعروضة في هذا المؤلف تنبثق من مصادر شتى موثقة تمثل جميع الأطراف المشتركة في التأثير على مجريات الأحداث سواء أكانت أطرافًا عربية أو إسرائيلية أو «دولية وإن كان المؤلف لم يلتزم فيه بثبت الهوامش.

المجموعة الرابعة:

تعددت إصدارات صلاح العقاد في المشرق العربي تحت مسمى واحد وإن اختلفت في محتواها العلمي ففي الإصدار الأول نجد أن المشرق العربي من ١٩٤٥-١٩٥٨ طبعة ١٩٦٧ بلغ في ٣٦٤ صفحة ركز فيه على ثلاثة أقسام رئيسة هي: العراق وسوريا ولبنان منذ الحرب

العالمية الثانية حتى أحداث ١٩٥٨ التي تشكل معلمًا واضحًا في سوريا والعراق وإن كان تأثيرها على لبنان أقل من القطرين الآخرين فقد هزت تلك الأحداث أركان المجتمع التقليدي ولو بدرجات متفاوتة فالوحدة انتكست في سوريا ولم تتمكن الرجعية من الهيمنة على السلطة فترة طويلة بعد الانفصال.

كذلك أدت ثورة العراق إلى حكم فردي غير متزن فسقط بعد ثلاث سنوات وعانت الدولتان من الاضطرابات الداخلية التي كانت نتيجة طبيعية وحتمية في مرحلة التحول والسعي لإيجاد شكل تقدمي للحكم. ولايدعي المؤلف أنه أول من تطرق إلى هذا الموضوع فقد سبقه في هذا المجال باتريك سيل وهو من الكتاب الغربيين فقد نشر رسالة قيمة عن سوريا من عام ١٩٤٥-١٩٥٨ استند فيها إلى الوثائق العربية والأجنبية وكتاب وولتر لاكير عن الأحزاب الشيوعية في الشرق الأوسط ومؤلف حوراني عن سوريا ولبنان الذي تناول فيه مشكلة الأقليات في البلدين وقد اتفق في ذلك مع صلاح العقاد فكليهما ذكر أن معظم سكان سوريا ولبنان عرب من حيث اللغة والتقاليد مسلمون سنيون من حيث الدين ومع ذلك توجد أقليات لغوية ودينية وجنسية مثل الشيعة والدروز والعلويين والموارنة والكاثوليك والأرثوذكس والسريان والأرمن والجراكسة والأكراد والتركمان واليهود وقد ساهمت عدة عوامل في تفاقم مشكلة الأقليات مثل الخلافات التقليدية وتفاوت هذه العناصر في تأثرها بحضارة الغرب وحركة القومية العربية التي أوجدت عدم الثقة بين الأغلبية والأقليات[٤٦].

ولصح بضرورة وجود شعور عام بالوطن اللبناني يعلو على الخلافات المحلية يوازنه شعور «رشيد» بالقومية العربية والقضاء على توتر العلاقات بين الأكثرية والأقلية بالمشاركة في حياة المجتمع والقيام بواجبات المواطن الحر بإتباع الإدارة «الرشيدة»[٤٧].

وعمومًا فقد تناول المؤلف مختلف المسائل والمشاكل التي تهم سوريا ولبنان مع الإشارة إلى مصالح الدول الغربية وآرائه تميل إلى الاعتدال والإتزان وهو متفق في ذلك مع صلاح العقاد مع تقديم بعض الحلول للمشكلات الداخلية والخارجية في هذين القطرين[٤٨].

٢- المشرق العربي المعاصر إصدار ١٩٧٩ :

تناول هذا الكتاب تاريخ المشرق العربي منذ عام ١٩٢٠ باعتبارها سنة حاسمة بالنسبة لتاريخ الشام والعراق وإن لم تكن كذلك فيما يتعلق بشبه الجزيرة العربية . أما نقطة النهاية فتختلف من قطر إلى آخر حسب المعالم التاريخية البارزة التي تقترب من نشر هذا الكتاب الذي قسمه المؤلف إلى أربعة أقسام:

تحدث في القسم الأول والثاني عن سوريا ولبنان والعراق منذ الانتداب حتى عام ١٩٥٨ وفي القسم الثالث تناول فلسطين من الانتداب حتى عام ١٩٦٧ والرابع اشتمل على الجزيرة العربية منذ تكوينها واليمن حتى مشكلات ما بعد الاستقلال وأخيراً تعرض للاتجاهات الوحدوية في المشرق وتكوين الجامعة العربية .

وقد حرص المؤلف في هذا التقسيم أن يطور أمام القارئ العربي صورة متكاملة لتاريخ المشرق العربي المعاصر تعينه على فهم الأوضاع القائمة والأحداث السياسية كما قام بطرح قضايا وموضوعات أمام الدارسين من أقسام التاريخ والعلوم السياسية لاختبار بعض الموضوعات ومعالجتها كل على حسب منهجه وبث الروح النقدية والموضوعية عند القارئ.

ولايدعي المؤلف أن هذا الكتاب هو الأول في موضوعه فهناك عشرات الكتب الإنجليزية والفرنسية التي تحمل عنوان الشرق الأوسط وبعضها يتسم بالتحيز والبعض الآخر تغلب عليه السطحية لعدم معرفة مؤلفه للغة المنطقة، وهذا لاينفي وجود دراسات قيمة متخصصة كالأطروحات التي قدمت إلى جامعات أوروبا وأمريكا والجامعات المصرية.

٣- الإصدار الثالث: المشرق العربي المعاصر ١٩٩٣ :

دعت الحاجة إلى إعادة نشر هذا الكتاب بعد أن شهد العالم خلال الثمانينات وأوائل التسعينات تغيرات زلزت كيانه وعلى رأس هذه التغيرات أزمة الخليج عام ١٩٩١-١٩٩٢ وقد شملت انعكاساتها أقطار المشرق الأخرى سوريا ولبنان والعراق وفلسطين وشبه الجزيرة العربية واحترت الطبعة الجديدة على إضافات هامة تناولت آخر ما شهدته هذه الأقطار من تغيرات سياسية واجتماعية حتى يكون الكتاب مواكبا للأحداث وقد أضيفت خمسة فصول لم يشملها الإصداران السابقان:

- ففي سوريا تناول الجدل حول الاتحاد سنة ١٩٦٣-١٩٦٦ والبعث والجبهة التقدمية من ١٩٦٦-١٩٧٠ والعوامل المؤثرة في العلاقات الخارجية .
- وتحدث عن الحرب الأهلية اللبنانية واتفاقية الطائف.
- أما العراق فتناول الطموح الإقليمي والانكماش والتطور الاقتصادي والاجتماعي.
- وفي فلسطين أشار إلى مؤتمر مدريد ومنظمة التحرير.
- وأخيرا أضاف فصلا «عن التيارات السياسية في المشرق العربي» تناول فيه الاتجاهات

الفكر السياسي بين القومية العربية والإقليمية أوضح فيه العقبات التي واجهت المد القومي وشجعت على الإقليمية .

- والخلاصة أن نظرية القومية التي كان مدها قويا بين الأربعينات والستينيات لم تلبث أن فقدت بريقها وكان لغيابها أثره في إضعاف العلاقات العربية ولم يبق سوى مجال واحد للترابط العربي وهو مجال الثقافة والفن وهو غير كاف للتأثير على العلاقات الاقتصادية والسياسية.

كذلك أوضح أن الديمقراطية الليبرالية كانت هي النموذج الغالب على تفكير النخبة في الشرق العربي وعلى الحركات المناضلة من أجل الاستقلال فقد خرجت عن نطاق المفكرين الدينيين وانتقلت في القرن العشرين إلى الذين تعلموا في غرب أوروبا غير أنها اصطدمت بالعقبات الداخلية وانتهت بالخضوع إلى الأنظمة العسكرية في الحكم سواء في العراق وسوريا أو في مصر بينما اقتصر التيار السلفي على المتعلمين تعليما «متوسطا» . ولم تصل العلمانية إلى أوساط النخبة الحاكمة في العالم العربي إلى الدرجة التي انتهى إليها كمال أتاتورك الذي اتخذ إجراءات لم يكن لها نظير في أي بلد عربي[١٤٩].

ومن الكتابات المعاصرة في هذا الموضوع ما أصدره مركز دراسات الوحدة العربية تحت إشراف السيد ياسين بعنوان «تحليل مضمون الفكر القومي العربي» وهو بحث أنطلق من إطار نظري شامل للمشكلة تكاملت فيه مناهج البحث وأدواته طبق المنهج التاريخي لدراسة نشوء وتطور الفكر القومي العربي ليس من خلال السرد التاريخي التتبعي كما يفعل المنهج التاريخي التقليدي ولكن من خلال الربط الوثيق بين ظهور وصعود الطبقات الاجتماعية في المجتمع العربي وصور التعبير الأيديولوجي عن أفكارها ومصالحها وطموحاتها الاقتصادية والاجتماعية وطبق منهج تحليل المضمون لدراسة متعمقة للفكر القومي العربي في جزئياته للكشف عن بنيته الحقيقية وتطور هذه البنية عبر الزمن .

وفي دراسته لتحليل مضمون الفكر القومي العربي تم تحديد أربع مراحل أساسية وهي:

مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى ومرحلة ما بين الحربين والمرحلة من عام ١٩٤٥-١٩٦٧ ثم ما بعد نكسة ١٩٦٧ وقد اتفق هذا المؤلف مع كتابات صلاح العقاد من حيث الخلفية الأساسية لنشوء الفكر القومي العربي والتعرف على مختلف التيارات الفكرية التي تصارعت

وما زالت على الساحة العربية ومشكلات الكتابة كغيبة الجهود التوثيقية العربية للفكر القومي العربي التي تسهل مهمة الباحث[٥٠].

٤- الاصدار الرابع : البترول وأثره في السياسة والمجتمع ١٩٧٣ :

يقع هذا الكتاب في مائة وثمانين صفحة من القطع المتوسط تناول فيه المؤلف عدة فصول تدور حول التنافس على امتيازات البترول في الشرق العربي وتطور نظم الإنتاج ومشكلات دول العبور والبترول في المغرب العربي وأثره على السياسة العربية والنتائج الاقتصادية والاجتماعية .

حرص المؤلف في تلك الدراسة على تتبع علاقات الشركات بالدول المنتجة مع إبراز الدور المؤثر للبترول على حياة بعض الدول العربية وكلما كان القطر المنتج أصغر من حيث المساحة وأقل في عدد السكان كلما كان أثر البترول في حياته أشد ظهوراً وتأثيراً .

وقد أشار المؤلف أيضًا إلى مدى تدخل الشركات في شئون إمارات الخليج في الستينات حتى أصبحت تفضل التعامل مع حكام أكثر استنارة مما هيأ الفرصة لخلع بعض الأمراء كالشيخ شخبوط حاكم أبو ظبي أو سعيد بن تيمور سلطان عمان السابق .

كذلك لم يهمل المؤلف القضايا التاريخية التي لعب فيها البترول دورا أساسيًا بالنسبة للعالم العربي مثال ذلك المساومات التي جرت بين بريطانيا وفرنسا حول زيت الموصل وتأثير البترول ليس على الدول فقط بل امتد إلى ما يسمى بدول العبور ثم أشار إلى تحول دول شمال أفريقيا في السبعينيات في عداد الدول المنتجة للبترول مثل ليبيا والجزائر وأثره في حياتهما السياسية والاقتصادية .

ومن خلال هذه الدراسة نستكشف تنسيق المعلومات وترابطها وتناولها بطريقة واضحة تبين أثر البترول على العالم العربي ومعالجة الموضوع معالجة موضوعية بعيداً عن أسلوب الدعاية الطنانة أو تصوير البترول على أنه عصا سحرية يستطيع من يمتلكها أن يسير الشئون العالمية في مجال السياسة والاقتصاد كيفما شاء لكنه سلاح ذو حدين فالعبرة ليس بامتلاك الثروة وإنما بحسن استغلالها وتوجيهها للصالح العام وأخيراً فإن الدول المالكة للبترول تعد دول نامية ومفككة سياسيًا ولا تستطيع أن تستغل ثروتها بنفسها وبدلاً من أن يكون البترول أداة لقوتها ونفوذها قد تتحول إلى مجرد تابع لمن يحسن استخدام هذه الثروة .

المجموعة الخامسة:

وهي آخر المجموعات حسب التصنيف الموضوعي الذي اتبعناه في عرض مؤلفات صلاح العقاد وتشتمل على إصدارين:

١- الحرب العالمية الثانية دراسة في تاريخ العلاقات الدولية (١٩٦٣) .

٢- العرب والحرب العالمية الثانية (١٩٦٦) .

وسنحاول في عرض كتابه عن الحرب العالمية الثانية أن نركز على ما يهم تاريخ العرب حتى لانخرج عن الموضوع الأساسي لعنوان البحث وفي نفس الوقت نبرز الهدف الأساسي من تلك الدراسة وهو إشباع راغبي الثقافة العامة، ومعالجة موضوع من الموضوعات التاريخية الحية التي تشغل اهتمام كثير من الكتاب والمؤلفين ودراسته دراسة علمية وبالرغم من أن هذا الموضوع قد تناوله الكثيرون من المؤلفين باللغات المختلفة سواء مؤرخين محترفين أو نقاد سياسيين فبعضهم تناول زاوية واحدة من الحرب والبعض الآخر تناول الحرب كدراسة شاملة ولم يترجم منها إلى اللغة العربية إلا النذر اليسير ، لذلك . آثر مؤرخنا التأليف على الترجمة لأنها لم تعط صورة شاملة وقد أولى عناية خاصة لآثار الحرب في منطقة الشرق الأوسط وهو ما لم تهتم به الدراسات العامة التي وضعت باللغة الأجنبية.

واهتم المؤلف بمعالجة مشكلتين تتعلق الأولى بالموضوع والثانية بالمنهج فبالرغم من أن الموضوع يعد معاصراً إلا أنه أمكنه الإطلاع على سياسات الدول في ظل الديمقراطية ونفوذ الصحافة وقوة الرأي العام أصبحت أعمال الدول لا تبقى طويلاً في طي الكتمان بل سارعت بنشر وثائقها كما أن محاكمات القادة كشفت عن الكثير من أسرار الحرب بعد انتهائها .

وإذا كان الكتاب يعتبر دراسة في تاريخ العلاقات الدولية وهو يعنى أساسا بالتطورات السياسية ومقدمات الحرب فلم يغفل الأحداث العسكرية التي تفسر المشكلات السياسية فالهجوم الذي قامت به ألمانيا على منطقة الأردن في شتاء عام ١٩٤٤ الهدف منه التأثير على الحلفاء لإقناعهم بالصلح مع ألمانيا .

كذلك ألقى المؤلف نظرة على التطورات السياسية في الشرق الأوسط فذكر أن تدخل الولايات المتحدة في السياسة الدولية كان له أثره الإيجابي والسلبي في خدمة القضايا الخاصة بالشرق الأوسط.

أما العراق فيمثل تجربة فريدة للعرب في الحرب الثانية وهي محاولة التخلص من آثار السيطرة البريطانية والتطلع إلى مساعدة المحور في هذا السبيل وانتهاء المحاولة بتخييب آمال العرب.

كذلك لم يتردد عرب ليبيا منذ البداية في مصادقة الإنجليز ضد الطليان بينما علق زعماء فلسطين جميع آمالهم على المحور. أما الرأي العام في العالم العربي فقد كان مترددا بين المعسكرين ومن الصعب إطلاق وصف موحد لموقف العرب من الحرب والقول بأنهم أميل للمحور أو للحلفاء، كما ذكر العوامل التي وجهت أنظار العرب تجاه كل منهما وأشار إلى أن مصالح بريطانيا كانت تقتضي تأييدها للحكومات الوطنية العربية بينما لم يهتم المحور بأوضاع السياسة الداخلية في المنطقة العربية[٥١].

٢- العرب والحرب العالمية الثانية:

يقع هذا الكتاب في مائة وتسعين صفحة من القطع المتوسط تناول فيه المؤلف ستة فصول تدور حول: دور مصر ومعاهدة ١٩٣٦ وإعلان الحرب على المحور، والعراق والاتصالات السرية بالمحور واستقلال سوريا ولبنان وتدخل الحلفاء والنزاع الإنجليزي الفرنسي ونتائجه. ثم تناول استغلال الصهيونية للحرب ودور الولايات المتحدة والاتجاهات الداخلية في مراكش وتونس والجزائر وسقوط الحكم الإيطالي في ليبيا، وفي الفصل الأخير أوضح أثر الحرب في حركة الوحدة العربية.

ويعتبر هذا المؤلف من المؤلفات الفريدة التي تناولت العرب والحرب العالمية الثانية ومن الأمور التي تسترعي الانتباه هو أن عدة مؤلفات قد تناولت دور العرب في الحرب العالمية الأولى بينما لا نصادف كتاباً واحداً خصص لدراسة موقف العرب من الحرب العالمية الثانية على حد قوله، وإنما نجد إشارات إلى هذا الموضوع في ثنايا الكتب التي تعرض للتاريخ العام لقطر من الأقطار العربية أو نجده ضمن الدراسات العامة والخاصة بتاريخ الشرق الأوسط الحديث والمعاصر.

ويحاول المؤلف أن يعقد المقارنات بين دور العرب في الحرب الأولى ودورهم في الحرب الثانية فيذكر أن حركة الشريف حسين اعتبرت دوراً إيجابيًا قام به العرب في الحرب الأولى ومهما كانت نتائجها مؤسفة فمما لاشك فيه أنه قد ترتب عليها كيانات عربية حديثة في الشام والعراق تخضع للاستعمار الفرنسي والبريطاني ولكنها على أية حال كيانات تستند إلى

أسس قومية حديثة وتمثل انتقال العرب نهائيًا من مرحلة التردد بين الفكرة الإسلامية والعثمانية والعروبة إلى مرحلة المفهوم القومي العصري وهذه نتائج ملموسة ليس لها نظير في الحرب العالمية الثانية.

ثم يؤكد أن موقف العرب في الحرب الثانية لم يكن سلبيا تماما فبالرغم من أن معظم الأقطار العربية كانت ترزح تحت نير الاستعمار فيكفي أن يشير إلى حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق وإلى المناقشات التي دارت بين الساسة المصريين حول إمكانية المسارعة مع بريطانيا للاستفادة من الحرب. يضاف إلى ذلك النتائج الملموسة المباشرة التي نجمت عن الحرب العالمية الثانية بالنسبة لبعض الدول العربية فقد تخلصت سوريا ولبنان من الانتداب الفرنسي وحصلت على الاستقلال السياسي التام غير المقيد بمعاهدة، كما أن هزيمة المحور كانت نقطة تحول في تاريخ ليبيا المعاصر وهي التي ساعدت ذلك القطر على نيل الاستقلال.

لم يقصد صلاح العقاد كرجل أكاديمي بتلك الدراسة أن يستعرض التاريخ العام للوطن العربي بين سني ١٩٣٩-١٩٤٥ وإنما استهدف دائما ربط الموقف العربي بالأحداث الدولية المحيطة به في تلك الحقبة وتلمس الاتجاهات السياسية السائدة في هذا القطر أو ذاك من أقطار الوطن العربي.

وكان يود أن يقسم دراسته تقسيمًا موضوعيًا كأن يفرد فصلاً مثلا عن الفئات الميالة للمحور أو تلك التي تعاونت مع الحلفاء وفصلاً ثالثًا عن أنصار الحياد إلا أنه وجد هذا التقسيم مستحيلا لتباين أحوال الأقطار العربية وتفاوتها تفاوتًا كبيراً بسبب الأوضاع الاستعمارية السائدة.

ويرى المؤلف أن التحدث عن وجود ميول محورية أو نزعات إلى الحياد التام في الحرب كان قاصراً على بعض التيارات الشعبية ولايتصل بموقف الجهات الرسمية. كما أنه من الصعب التحدث عن تيار شعبي موحد ساد العالم العربي أثناء الحرب، فكانت هناك بعض العوامل التي تشد الرأي العام نحو المحور وخاصة قضية فلسطين ولكن كانت هناك عوامل أخرى تقف ضد هذا التيار أهمها وجود إيطاليا كشريك لألمانيا في الحرب كما أنها ضربت مثلاً سيئًا باستعمارها لليبيا وما اشتهرت به جالياتها من صلف وغرور في تعاملها مع السكان الوطنيين. خلاصة القول أن هؤلاء الذين مالوا إلى المحور في وقت ما كانوا يعتقدون بأن ذلك هو أفضل السبل لتحرير بلادهم[٥٢].

كذلك أشار إلى أثر الحرب العالمية الثانية فى التقريب بين أجزاء الوطن العربى المفكك سياسيًا واقتصاديًا وارتباط كل قطر عربى بعجلة اقتصاد الدول الأوروبية صاحبة النفوذ وقلة حركة التبادل التجارى بين أجزاء الوطن العربى وتزايدها مع أوروبا .

ثم نوه إلى العوامل التى دفعت بريطانيا إلى إنشاء مركز ثقل لها فى الشرق الأوسط واستحداث وزارة بريطانية جديدة فى يونيو ١٩٤١ أطلق عليها وزارة الدولة لشئون الشرق الأوسط[٥٣].

وإذا كان صلاح العقاد قد ركز فى الفصل الأول من هذا الكتاب على دور مصر ومعاهدة ١٩٣٦ وإعلان الحرب على المحور وربط مصر بعجلة الاقتصاد الأوروبى نجد عاصم الدسوقى فى مؤلفه عن مصر فى الحرب العالمية الثانية قد اختلف مع صلاح العقاد وأوضح أن هذه الحرب كانت نقطة تحول بارزة فى تطور تاريخ مصر المعاصر من حيث تأثيرها فى البنيان الاجتماعى والاقتصادى والسياسى للبلاد وظهور فئات اجتماعية جديدة استطاعت أن تجمع أموالا عديدة خلال الحرب وفرضت نفسها على الحياة العامة فى البلاد مما ساعد على بروز التناقضات الطبقية فى المجتمع المصرى بشكل واضح وهيأ الجو لانتشار الأفكار اليسارية والشيوعية التى تنادى بتحسين أحوال العمال وإيجاد علاقات إنتاجية وقوف الجماعات الليبرالية فى مواجهة هذه الأفكار[٥٤].

والخلاصة أن صلاح العقاد قد ركز على الأوضاع السياسية والدبلوماسية بينما اتجه عاصم اتجاهًا آخر تناول فيه تأثير الحرب على شتى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مما خلق تناقضًا طبقيًا هيأ لانتشار أيدلوجيات جديدة.

منهجه فى الكتابة التاريخية :

اتسم المؤلف فى منهجه العلمى بالنظرة الموضوعية وهى لازمة لأى بحث علمى وأشد لزوما فى دراسة التاريخ المعاصر فالكاتب قد يتعرض للأهواء أحيانًا وللضغوط أحيانا أخرى فلابد أن يكون صاحب مبدأ وله معايير معينة يرجع إليها عند الحكم على الأشخاص والأحداث وكان معيار مؤرخنا : قضية الوحدة العربية فمن أخلص لها أسماهم بالوطنيين أو التقدميين ومن لم يلتزم بها أسماهم بالرجعيين أو الموالين للغرب.

– ومما يحمد للمؤلف أنه كان يصدر الأحكام طبقًا للمفاهيم السائدة فى عصرها فالحياد بين

الكتلتين الشرقية والغربية يعبر عن التيار الوطنى فى الخمسينات ولكن ذلك لاينطبق على الستينات والسبعينات .

– كذلك حرص المؤلف على وضع المسميات فى نصابها الصحيح فنجده يطلق « اسم النكبة على حرب ١٩٤٨ لأنه ترتب عليها قيام دولة إسرائيل بالإضافة إلى الهزيمة التى لحقت بالعرب.

– وأطلق مأساة يونيو على حرب يونيو ١٩٦٧ بدلاً من النكسة وهو المسمى الذى يبسط من حجمها مع أن آثارها فى المجالين العسكرى والسياسى لايقل خطورة عن نكبة ١٩٤٨ والتى أعطت لإسرائيل حدودًا تزيد عما خصص لها فى التقسيم.

– ومن مظاهر الموضوعية فى رأيه أن الأحكام تختلف من شخص إلى آخر حسب القضية أو المناسبة التى تثار كما أن النظم السياسية والاقتصادية ليست حقائق مطلقة بحيث يمثل بعضها الخير كله وبعضها الآخر الشر الخالص.

– كذلك تجنب استخدام الألفاظ الرنانة حتى لايخرج عن وقار العلم ونجح فى ربط أحداث التاريخ الماضية بالمستقبل واستخلاص الحكمة الخاصة من وراثها كدروس واجبة للانطلاق نحو مستقبل مشرق، ومما وفر له فرصة الكتابة الموضوعية اطلاعه على وجهات نظر متعارضة فى مختلف القضايا مما جعله يلم بالموضوع من جميع الأطراف فيسهل عليه التعليق وإصدار الأحكام على الأشخاص والمواقف وهذا واضحا فى القسم الخاص بفلسطين .

– ليست الوطنية فى رأيه هى المبالغة فى ذكر الأمجاد وإعطاء بعض الثورات صورة تفوق حقيقتها فهو يسلم بظاهرة التخلف فى المشرق العربى وهذا التسليم فى رأيه هو أول خطوة نحو الإصلاح ويعزو ظاهرة تقلص الاستعمار ليس للصدام العسكرى والثورات المسلحة وحدها بل إلى التغلب على عوامل التخلف فى الوطن العربى أيضًا .

– تغلب على كتاباته النواحى السياسية والعلاقات الدولية حيث كان المؤلف على دراية واسعة بعلم السياسة ونظر إلى التطور السياسى على أنه إلى حد كبير نتاج حتمى لما يتعرض له المجتمع من صراع وضغوط وقوى وتعديلات وبذلك ركز على التغييرات فى النظم السياسية أكثر منه على الشخصيات[٥٥]. ويرجع ذلك لاعتماده على وثائق الحكومات الأوروبية التى كان لها دور فى المشرق العربى ولاسيما الحكومة البريطانية والوثائق الألمانية التى تخص فترة

الحرب العالمية الثانية واعتماده أيضا على المذكرات الشخصية الأوروبية مثل تشرشل وديجول وإيدن وحاييم ويزمان ولم يغفل المصادر اليهودية فيما يتعلق بقضية فلسطين وهو اتجاه جديد ظهر بين المؤرخين العرب، كما استفاد من مذكرات الزعماء الذين شاركوا في توجيه الأحداث بعد تمحيصها دون التأثر بالنزعة الذاتية التي تغلب عليها .

– نصح بضرورة الاعتماد على النظرة التعليلية عند الاعتماد على المصادر الأجنبية خاصة البريطانية لأنها تؤرخ للوجود البريطاني في الخليج أكثر مما هي تأريخ لشعوب المنطقة ولابد أن يؤخذ في الاعتبار أن كتابات الإنجليز عن الخليج مبعثها التفاخر بدور بلادهم في هذا الجزء من بحار العالم كفضل «مكافحة القرصنة» ولحماية الرقيق وأشار إلى أن اعتماده على المصادر الأجنبية وثبتها في هوامشه ليس معناه أنه يوافقها في الرأي وإنما استفاد منها فقط في تجميع مادته العلمية، كما استفاد أيضا من الوثائق الفرنسية في دراسته للمغرب كمجلة المغرب التي يصدرها مركز الوثائق الفرنسية والكتاب السنوي الفرنسي الذي يعتبر بمثابة مسح شامل لأحوال شمال أفريقيا وهنا يتجلى حرصه الشديد في الرجوع إلى المصادر الأصلية وهي من الأسس المتبعة في المنهج التاريخي لتأصيل الدراسة التاريخية. ورغم اعتماده على المصادر الأصلية إلا أنه أكد أن الدراسات النظرية لايمكن الوصول فيها إلى حقيقة مطلقة وهذه من سمات الدراسات التاريخية بصفة عامة.

– كذلك توفر لمؤرخنا ملكة النقد فهو كثيراً ما يقرأ وجهات النظر المختلفة في الكتابات التاريخية فهو لايقبل أي وثيقة على أنها أمر مسلم به رغم أنها تعد من المصادر الأولية بل يخضعها للنقد والفحص والدراسة ويقارن الوثائق الأجنبية بما كتبه الوطنيين وشهود العيان ويستنطق الوثائق ويستخلص منها الحقيقة التاريخية غير عابئ بالكسب أو المناصب.

– وإذا كان صلاح العقاد قد اعتمد على الوثائق فليس معنى ذلك أنه ينتمي إلى مدرسة رانكة الألمانية التي ظنت أن من يعتمد على الوثائق يستطيع أن يكتب التاريخ كتابة صحيحة فمن رأي هذه المدرسة أن المؤرخ لايقول شيئاً وإنما الوثائق هي التي تقول كل شيء وعلى هذا فلا فرق بين مؤرخ ومؤرخ إلا فيما يتعلق بالقدرة على استخدام مناهج البحث.

– والحقيقة أن موهبة المؤرخ لايمكن إغفالها فالمؤرخ ليس كما قال وكونيارد زويد» رجل يقضي عمره لاهثاً بين دهاليز الوثائق والمحفوظات لأن المؤرخ الحقيقي ليس عبداً للوثائق والمخطوطات إنما هو ناقداً حصيفاً ينتقي منها ما يهمه ويدون آراءه ويخاطب عقول الناس في كل عصر ، ولابد أن يكون التاريخ حوار بين الماضي والحاضر وبين المؤرخ وقارئه[٢٦].

– وقد أكد على هذا الاتجاه عزت عبد الكريم حين تحدث عن المؤرخ الوثائقي قائلا : والمؤرخ وحده لايستطيع أن ينتج إنتاجاً صحيحاً إلا بمعرفة الوثائقيين والوثائقي لايستطيع أن يمضي في عمله إلا بمعرفة المؤرخ ومن يتصدى لكتابة التاريخ السياسي عليه أن يلم بتطور بناء المجتمع ونظمه الاقتصادية ويربط بين الأحداث السياسية والنظم الاقتصادية ودراسة التجمعات العمالية في شكل نقابات أو اتحادات»[٢٧]. وهذا ما عكف عليه أستاذنا خاصة في تاريخ المغرب .

– كذلك لم يغفل صلاح العقاد الدور الذي لعبته الشخصيات التاريخية في بناء المجتمعات أو اتخاذ القرارات السياسية وهكذا حفظ للتاريخ معالمه وصفته الواقعية «التي تسمى بالاكتوالية أو الصفة الحالية المميزة له»[٢٨]. ورغم هذا اعتبر نجاحه في نظر الغير مسألة نسبية وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تواضعه الجم أمام العديد من مؤلفاته ومشاركاته العلمية.

– اتسم مؤرخنا بالحيادية وعدم التحيز لعصر خاص أو ناحية تاريخية معينة بل كان ذا عقل واع مرتب ومنظم وكثيراً ما كان يلجأ للمقارنات وربط الأحداث بين بلد وآخر وهذا يدل على سعة إطلاعه وثقافته العالية فنجده يعقد المقارنة بين دور العرب في الحرب العالمية الأولى ودورهم في الحرب الثانية والنتائج التي توصلوا إليها كانتقالهم من مرحلة التردد بين الفكرة الإسلامية والعثمانية والعربية إلى المفهوم القومي» وفي الثانية كيف حصلت سوريا ولبنان على استقلالها كما أن هزيمة المحور كانت نقطة تحول في تاريخ ليبيا.

– ولم تقتصر دراسته على الأفراد كرمز للزعامة إنما تعرض لسياستهم إذا كانوا معتنقين لنظرية معينة كبورقيبه وانتهاجه لسياسة الانتهازية أو المرحلية كما تناول عهود المقاومة والحركات الوطنية المناهضة للاستعمار ونظام الحكم المطلق وهكذا لم يتم للمدرسة الفردية في تفسير التاريخ، وكان يلجأ إلى وضع الافتراضات وطرح الأسئلة المختلفة لفهم بعض القضايا التاريخية فجاءت كتاباته من أمتع ثمرات العقول لنضج عقليته كمؤرخ ولجاجه في تقديم وحدة واضحة متكاملة لكتاباته التاريخية في شتى المجالات وقد أشار أن هدفه هو نشر الثقافة وتقديم مادة تاريخية للمختصين والمثقفين على حد سواء.

– وحول منهج صلاح العقاد في الدراسة التاريخية نذكر أنه رغم اقترابه من بعض الماركسيين الفرنسيين خلال تواجده في باريس فإنه لم يقتنع بالمذهب المادية في الدراسات

التاريخية. بل ينتمي إلى المدرسة التفسيرية التي حذرت من أخطار الإفراط في الرومانسية في كتابة التاريخ وجمعت بين تسجيل الأحداث والمعالجة التحليلية لها وإنقسم أفراد هذا التيار إلى مجموعتين رئيسيتين الأولى إنحصرت معظم كتاباتها في تاريخ العرب والثانية سايرت هذا التيار من خلال كتاباتها عن تاريخ .

– تعد مؤلفاتصلاح العقاد سجلاً حافلاً للأحداث المعاصرة وقد ركز فيها على الفرق بين طريقة تناول الموضوعات المعاصرة من وجهة نظر المؤرخ والمتخصص في العلوم السياسية فكان يدرس التاريخ على أنه «مجموعة من القوى والمؤثرات الفردية والاجتماعية التي تساهم في تشكيل أبعاده» [٦٩]. والمجاهد الحديث لدراسة النظم الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية وكشف عوامل التأخر والتقدم والوعي السياسي والاجتماعي.

– لم تغريه تقلبات السياسة لأنه مفكر جاد لم ينزلق إلى مهاويها لأن طابعها العام كان ديماجوجي يأنف منه المفكر الحر ورغم إيمانه بالحرية والديمقراطية من الناحية النظرية فكان يحث على تطبيقها أيضًا كما كان يكره الجماهير الجاهلة التي يخدعها الساسة أو الأثرياء [٧٠].

– ولم يبالغ في استخدام الهوامش فنكاد لايستخدمها في مقالاته التي نشرها في المجلات بينما يلجأ إليها في مؤلفاته كما كان يستخدم الملاحق في بعض الأحيان .

– من يقرأ كتبه يلمس أثر التخصص ويدرك إحاطة المؤلف التامة بالموضوع «وعرض الخبير المتمكن الذي يملك ناصية بحثه حتى أصبح بين يديه أمرا سهلا ميسورا» [٧١].

– لم تقتصر مؤلفاته على ناحية من التاريخ بعينها بل شملت جوانب متعددة من الثقافة التاريخية والمادة العلمية المتخصصة وهكذا عمت فائدتها جمهور القارئين وساهمت إلى حد بعيد في نشر الوعي التاريخي ليس بين أبناء مصر خاصة بل بين أبناء الوطن العربي عامة وغذى هذا الاتجاه كتاباته في المجلات والصحف على وجه الخصوص وبذلك لم يكن منفصل عن مجتمعه .

– إفراده لفصول معينة تناولت قضايا شائكة وجديدة في مادتها العلمية وطريقة معالجتها كالصراع بين العرب والبربر في المغرب، وتعريب التعليم والإدارة ، والتيارات السياسية التي هبت على المغرب وهي حركة وحدوية مثل الحركات التي ظهرت في المشرق أو في أفريقيا ولم تستطع أن تتغلب على النزعة الإقليمية السائدة.

قضايا المغرب العربي في كتابات صلاح العقاد:

تعددت إصدارات صلاح العقاد في تاريخ المغرب العربي «الجزائر – تونس– المغرب الأقصى» وهي دراسات في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة «١٩٦٦، ١٩٨٠، ١٩٩٣» وقد قام بتقسيمها إلى أربعة أقسام:

تناول القسم الأول المغرب في العصر الحديث قبيل القرن السادس عشر ، أما القسم الثاني فقد تعرض فيه إلى الاستعمار الفرنسي والثالث عن الحركات الوطنية والرابع عن المغرب المعاصر والاتجاهات السياسية.

ومن القضايا التي تناولها المؤلف وأثارت اهتمامنا هي مسألة التعليم والتعريب في دول المغرب الثلاث والمشكلات التي ترتبت عليها مما دعا تلك الدول إلى ضرورة مواجهتها والتغلب عليها كتفشي الأمية وتعريب التعليم والإدارة ولغة الثقافة ، فقد عمد الفرنسيون إلى فرض لغتهم وثقافتهم على المغرب العربي بدرجات متفاوته ، فحاولوا محو الشخصية العربية في الجزائر وقد اتفق سمير أمين مع صلاح العقاد في ذلك حين ذكر أن فرنسا كانت تقدم مساعدات تقنية كثيفة للجزائر لا سيما في ميدان التربية الثانوية والجامعية[٦٢]. وإذا كانت تونس قد اقتربت من محو الأمية في الستينات واعتمدت على نفسها في إيجاد المدرسين الذين استخدموا اللغة العربية في المرحلتين الابتدائية والثانوية إلا أن التعليم العالي اقتصر على اللغة الفرنسية تمشيًا مع سياسة فرنسا في ربط تونس بها وبالأقطار الإفريقية الناطقة بالفرنسية.

وقد اتفق علال الفاسي مع صلاح العقاد فذكر أن هدف فرنسا الأساسي يتلخص في محاربة التعليم القومي واللغة العربية والعلوم الإسلامية ، وقد كانت جامعة القرويين في فاس وجامعة الزيتونة في تونس ليستا إلا مثالين لهذه الثقافة الحية ، فقامت الحماية بمحاربة تلك المنظمات الثقافية المغربية وإغلاق الكثير من المدارس وحبست عدائها المستمر على جامعة القرويين وفروعها في مراكش ومكناس والرباط وطنجة وجدة [٦٣].

وكان من الطبيعي أن تتبع حكومة الجزائر سياسة نشطة لتعريب التعليم وإن كان استخدام اللغة العربية يعد ضعيفًا في مجال الثقافة العامة والإعلام وأما المغرب فقد وقف موقفًا وسطًا بين الاتجاهين السابقين وكان من الطبيعي أن تنعكس آثار الصراع بين أنصار الثقافتين العربية والفرنسية على الاتجاهات السياسية فالمتشبعين بالثقافة الفرنسية يميلون إلى تحديد الصلات

بالمشرق العربي وتشبثوا بفكرة المغرب الكبير أو بإبراز النزعة الإقليمية الضيقة ، أما أنصار الثقافة العربية فتربطهم بالمشرق صلات عاطفية وكثير منهم نشأ بين معاهده.

ويعزو المؤلف سبب تأخر التعريب إلى ميل أبناء البورجوازية العليا والحكام إلى إرسال أبنائهم وبناتهم إلى المدارس الفرنسية الخاصة مع أن التعريب هدف من أهداف الحكومة في المغرب وقد طبق بعد الاستقلال في كليتي الحقوق والآداب . ومن معوقات التعريب من وجهة نظر المؤلف تفاوت المدرسين من حيث درجة الكفاءة وانتمائهم إلى مصادر ثقافية متعددة يعود بعضها إلى التعليم الديني التقليدي أو التكوين التربوي الحديث واستقدام أعداد كبيرة دفعة واحدة. كذلك وجد المتفرنسون في الدعوة إلى إحياء البربرية فرصة للتهرب من التعريب .

وفيما يتعلق بتعريب الإدارة فقد شاع استخدام اللغة الفرنسية في الأقطار الثلاثة غير أن الإدارة في كل من تونس والمغرب استخدمت اللغة العربية أثناء الحماية أما بعد الاستقلال فاستخدمت لغة مزدوجة مع تغليب اللغة العربية أما الجزائر فقد واجهت صعوبة كبرى في تعريب الإدارة مما حدا بهواري بو مدين أن يصدر قانوناً في أبريل عام ١٩٦٨ بجعل اللغة العربية إجبارية - والحقيقة أن الرئيس الجزائري كان من أبرز المتحمسين للتعريب في الجزائر فقام بفتح فصول ليلية لتعليم الموظفين اللغة العربية. وخلص إلى أن فريق من كبار الموظفين المتفرنسين كان يضع العراقيل لتعطيل عملية التعريب حماية لمصالحهم ولم يوجد في الجزائر من يجرؤ على معارضة التعريب كمبدأ ، وقد احتاج هذا الأمر إلى مضي بعض الوقت حتى يصبح الخريجون الجدد الذين درسوا في عهد التعريب هم الأغلبية في الدوائر الحكومية[١٦٤].

هنا أيضاً قضايا أخرى طرحها المؤلف في كتابه كسياسة فرنسا لعزل البربر عن المجتمع المراكشي وتطور فكرة المغرب الكبير.

سياسة فرنسا لعزل البربر عن المجتمع المراكشي :

شهد التاريخ حركات اندفاع شعوب وجماعات خرجت من مواطنها واستقرت في أرض جديدة صنعت فيها مواطنها وحملت معها عناصر مقوماتها الأولى واحتفظت منها بما ينفعها، وكانت هذه الهجرات لشعوب بربرية اندفعت نحو مواطن الحضارة التي تنطوي على فرص كبيرة لحياة أفضل[١٦٥]. وكان البربر في حاجة إلى دفعات روحية لكي يتم رسوخ الإسلام لديهم وهو ما قامت به الطرق الصوفية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ومما يثير الدهشة أن انتشار اللغة العربية سار قدماً في عهد الاستعمار لأنه أزال الحواجز الطبيعية التي كانت تعزل الجبل عن السهل وفكك المجتمع القبلي فازداد اختلاط الناس بعضهم ببعض - العرب

بالبربر - وارتكز العمران على حياة المدينة حيث كانت اللغة العربية تفرض نفسها على النازحين إلى المدن .

وقد لاحظ الفرنسيون هذه الحقيقة فعملوا على بعث العنصرية البربرية ومقاومة الإسلام والعروبة بإقامة كيان غير عربي لبلاد المغرب باستخدام كلمة بلاد البربر وإثارة النعرات العنصرية بين العرب والبربر واتخذوا في ذلك عدة سبل منها:

- إحياء التقاليد البربرية القديمة ومحاولة جعلها قانوناً يحتكم إليه بدلاً من الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية وإحياء اللغة البربرية وكتابتها بحروف لاتينية.

وقد اختلف عزت عبد الكريم مع صلاح العقاد حين ذكر أن البربر قد اصطنعوا اللغة العربية كأداة لهم في الحديث والكتابة والخطابة والإرشاد ثم عاد واتفق معه حين قال «وقد يصبح الرجل من البربر مسلماً يعتز بإسلامه لكنه يستطيع أن يحتفظ بلغته وتقاليده دون أن يؤثر ذلك في وضعه الاجتماعي أو الديني تحفزه إلى ذلك عصبية قومية وأنفة من تحكم العرب» ، ثم يعود ويقول في موضع آخر « اضطردت عملية الاستعراب وبلغت من قوتها أن نسيت بعض القبائل البربرية أصولها ووضعت لنفسها أصولاً عربية وآثروا على الثقافة العربية ليتزودون منها وأصبح فريق منهم من أعلام الفكر والأدب والفلسفة في تاريخ الثقافة العربية»[١٦٦].

وقد اتفق علال الفاسي مع كل من صلاح العقاد ، و عزت عبد الكريم في أن اللغة العربية كانت هي لغة الأدب والتعبير عن كل مظاهر الحضارة في المدن والقرى على السواء، كما اتفق مع صلاح العقاد في أن هناك بعض القبائل « البربر» ما تزال تحتفظ بلهجاتها المحلية وهذا لايغير شيئاً من الحقيقة[١٦٧].

أما الحماية فقد بنت سياستها على أساس فكرة خاطئة مؤداها أن البربر لم يعتنقوا الإسلام إلا ظاهرياً وبالتالي فمن الأنسب الاعتراف بعرفهم الخاص كقانون مدني وتطبيقه رسمياً بواسطة محاكم خاصة. وقد تم بالفعل استصدار ظهيراً مرسوماً من قبل الإقامة العامة في سبتمبر عام ١٩١٤ يخرج البربر من دائرة القضاء الشرعي في الأمور المدنية ويجعل مجلس الجماعة أو القبيلة مختصاً بنظر تلك الشئون.

وقد اتفق علال الفاسي مع صلاح العقاد في أن الغرض من الظهير البربري هو إدخال القبائل البربرية في دائرة اختصاص المحاكم الفرنسية في كل ما يرجع للقضايا الجنائية وإحلال الأعراف الجاهلية محل الشريعة الإسلامية في مسائل التجارة والميراث والحالة المدنية.

والحقيقة أن تطبيق العرف اصطدم بصعوبات جمة لاختلاف الأعراف من قبيلة إلى أخرى كما أنه من الصعب التمييز بين البربر والعرب ومعرفة الجماعات التي ينطبق عليها الظهير البربري تمامًا ، كما أنه قسم البلاد إلى قسمين عرب وبربر بالإضافة إلى ما في ذلك من مساس للشريعة الإسلامية والثقافة الدينية واللغة العربية»[٦٨].

ولم يثر الظهير في حينه رد فعل يذكر لأن مفزاه كان محدوداً ولعدم وجود وعي كاف لكن السياسة البربرية أصبحت فيما بعد منهجًا بعيد الأهداف، فالمقيم العام لوسيان سان كان محاطا بجماعة من المستشارين عرفت بالكتلة البربرية التي تدعو إلى فصل البربر عن حكومة المخزن بحجة أن الأخيرة تمثل العرب وترى هذا الفصل مقدمة لإدماج البربر في البيئة الفرنسية[٦٩].

كذلك صدر ظهير آخر في عام ١٩٣٠ وفي هذه المرة أحدث دويًا عظيمًا في العالم الإسلامي وفهم على أنه محاولة لتنصير البربر المسلمين بقوة القانون بينما قيل أنه يهدف إلى تعديلات خاصة بقضاء البربر إذ ينزع بمقتضاه اختصاص النظر في الجنايات من القضاة والقواد والباشوات الذين يمثلون السلطان وتنشأ محاكم جديدة في بلاد البربر من قضاة فرنسيين لتطبيق القانون الجنائي الفرنسي. فكان ذلك حجة قوية لذى خصوم الظهير البربري في الداخل وفي العالم الخارجي ورأوا أن الهدف من الظهير هو تنصير البربر، فكانت المعارضة الشديدة من كليهما، والحقيقة أن العرف البربري كان فيه ما يعارض الشريعة الإسلامية مثل عدم توريث المرأة من منطلق روح المحافظة على التقاليد ولو وجهوا بأن في عرفهم ما يخالف الإسلام أو بعد خروجًا عليه احتجوا أشد الاحتجاج . وكان من المفروض أن ينطبق الظهير على نحو مليون ونصف من أهل مراكش ولكن عدد من القبائل «آيت يوسي وزموري» أرسلت مندوبيها إلى فاس لتعلن أمام علماء القرويين رغبتها في البقاء تابعة للقضاء الشرعي ورغم أن الإقامة العامة تركت للقبائل حرية العمل بالظهير أو رفضه إلا أنهم قبضوا على المندوبين مما زاد من سخط البربر على الظهير[٦٩].

وقد اتفق علال الفاسي مع صلاح العقاد في مقاومة أهل مراكش للظهير البربري وسافر وفد من العلماء والأعيان للرباط يحملون للسلطان مطالبهم بضرورة إلغاء التشريعات المتعلقة بالظهير البربري وتوحيد الإدارة والتشريع في المغرب وتركيز السلطة في يد السلطان وحكومته[٧٠].

وأخيراً جاءت الحملة العنيفة من العالم الإسلامي لوقف السياسة البربرية ومحاولات فرنسا لفصل البربر عن العرب ومع ذلك لم تكف فرنسا طوال عهد الحماية عن استغلال كل مناسبة لبعث السياسة البربرية تمشيًا مع سياسة فرق تسد التي أتقنتها السياسة الاستعمارية.

- القضية الأخيرة التي أثارت انتباهنا في مؤلفات صلاح العقاد عن المغرب والتي أولاها أهمية خاصة في كتابه عن السياسة والمجتمع في المغرب العربي إصدار ١٩٧١ وفي كتاب المغرب العربي إصدار ١٩٩٣ في الفصل السابع والعشرين تدور حول تطور فكرة المغرب الكبير لهذا رأينا إلقاء الضوء عليها مع التعرض للمعوقات التي واجهتها .

- كان من الممكن أن يوجد الاستعمار الواحد نوعًا من الترابط بين الأقطار الثلاثة للمغرب لولا أنه ميز بين الجزائر التي اعتبرت جزءًا من الأراضي الفرنسية وبين كل من تونس والمغرب اللتين أخضعتا لنظام الحماية .

- وقد رسم الفرنسيون حدوداً دقيقة تفصل بين هذه الأقطار بالرغم من أن تلك الحدود لا تساير أية عوامل طبيعية «فكان الصراع بين الجزائر ومراكش حول واحة تندوف وبين المغرب وموريتانيا»[٧١].

- وهناك فرص عديدة لاحت لازدهار فكرة المغرب الكبير: منها الخضوع لاستعمار واحد هيأ الظروف الملائمة لالتقاء الوطنيين من شتى أنحاء المغرب الذين شرعوا في المطالبة بالاستقلال في عشرينات القرن العشرين. وبالفعل تأسست حركات نضالية باسم الأقطار الثلاثة في عام ١٩٢٤ و ١٩٢٥ غير أن بعض القادة في تونس والمغرب رأوا أن يفصلوا حركتهم عن مشكلة الجزائر الأكثر تعقيداً.

- ثم اتخذت فكرة المغرب الكبير في أعقاب الحرب العالمية الثانية خطوة أكثر إيجابية فبتشجيع من الجامعة العربية[٧٢] تأسست لجنة تحرير المغرب العربي ورأسها عبد الكريم الخطابي فترة من الوقت ولو أن حركة النضال حظيت بقيادة موحدة بصورة مستديمة إلى أن تم الحصول على الاستقلال لصارت النتيجة المنطقية هي إقامة دولة موحدة في المغرب العربي لكن الذي حدث هو أنه لم يتم الإجماع على قيادة واحدة وسرعان ما انفصل كل فريق ليقود حركة النضال في إطار إقليمي محض، وهكذا تم حصول كل حركة على الاستقلال باتفاق خاص بينها وبين فرنسا مما يؤكد وجود النزعة الإقليمية وتغلبها على فكرة المغرب الكبير واختلاف الظروف في الدول المجاورة فالبعض يميل إلى الكفاح المسلح وفريق آخر يميل إلى سياسة

الاستقلال على مراحل باتباع الأساليب الدبلوماسية . ويؤكد صلاح العقاد أنه لو وحدت الدول الثلاث حركاتها النضالية حتى انتهت باتفاق واحد مع فرنسا لوصلت إلى إقامة دولة اتحادية .

وقد درج المؤرخون على الجمع في كتاباتهم التاريخية بين الأقطار الثلاثة سواء فيما يتعلق بالعهد الاستعماري أم في تناول الحركات الوطنية مما يعني وجود أساس تاريخي متين لفكرة المغرب الكبير[٧٣]. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المجال هو : هل للمغرب شخصية متميزة عن بقية الوطن العربي وما مغزى هذا التميز؟

– هناك بعض المظاهر التي تعطي المغرب سمات خاصة في المجالات الثقافية والاجتماعية وقد بقيت اللغات البربرية مستعملة في الحياة اليومية بينما اندثرت جميع اللغات واللهجات المحلية من المشرق كما أن وجود مميزات إقليمية لهذا الجزء أو ذاك من الوطن العربي لا يتعارض مع مبدأ القومية أو الوحدة العربية فللمغرب مميزاته الإقليمية فقد تأثر كثير من زعماء المغرب فكريًا وسياسيًا بالثقافة الفرنسية وهذه علامة من ملامح الشخصية المغربية وإن كانت هذه الفروق لا تؤدي إلى خلق قومية خاصة ولكنها تشعر أهل البلاد ببعض التميز مما يدفعهم إلى التفكير في إيجاد رابطة خاصة تجمعهم تكون أضيق من الرابطة القومية القائمة على الفكرة العربية. وبالتالي ليس هناك تعارض بين فكرة المغرب الكبير وبين مبدأ الوحدة العربية لأن عروبة المغرب أمر مقرر لم يختلف عليه أي من الاتجاهات السياسية الكبرى في المنطقة. فالمغرب الكبير مرحلة نحو تحقيق الوحدة العربية ويكاد يجمع على ذلك زعماء المغرب.

– والعقبة التي صادفت حركة المغرب الكبير هي الاختلاف على الزعامة مما يهدف بغلبة النزعة الإقليمية ومما باعد بمشروع المغرب الكبير عن تحقيق التنافس الذي دب بين حكوماته المختلفة على الزعامة وتطلع محمد الخامس إليها بحكم هيبة أسرته ودوره في الكفاح الوطني وتفوق إمكانيات بلاده على تونس من جميع الجهات وعدم استقلال الجزائر بعد، كما أن تغيير اسم البلاد من مراكش إلى المملكة المغربية يعد من الشواهد على أن الأسرة الحاكمة تريد أن تتزعم حركة المغرب الكبير. وقد اتفق سمير أمين مع صلاح العقاد في ذلك حين ذكر أن قضية الوحدة الإفريقية لم تنجح في تقريب الدبلوماسيات المغربية أكثر مما فعلت قضية الوحدة العربية أو قضية الوحدة المغربية حتى عام ١٩٦٢ حيث جعلت مراكش من نفسها بطلة لهذا المطلب[٧٤].

– كما أن تونس رغم أنها من أصغر أقطار المغرب مساحة وأقلها سكانًا فقد تطلع بورقيبه إلى زعامة المغرب في بعض الأحيان حينما استقبلت تونس المؤتمر الثاني للشعوب الإفريقية عام ١٩٦٠ ومحاولة زيارة بعض الدول المعتدلة مثل السنغال وساحل العاج ونيجيريا وغيرها بإقامة مشروع كومنولث فرنكفوني «ناطق باللغة الفرنسية»[٧٦].

– وظن أن وجود الاستعمار في الجزائر يشكل عقبة في سبيل المغرب الكبير ولكن لم يتقدم هذه الفكرة بعد حصول الجزائر على الاستقلال بسبب النزاع على الحدود بينها وبين المغرب وقبل أن هذه المسألة ستحل تلقائيًا حينما توضع الوحدة المغربية موضع التنفيذ وقد أثيرت هذه القضية في عهد الحكومة المؤقتة الجزائرية عام ١٩٦١ .

– ثم عادت الاتجاهات الوطنية تمهد للوحدة وحملت المنظمات السياسية دون الحكومات لواء الدعوة إلى مؤتمر طنجة عام ١٩٥٨ وهو أول مؤتمر يحاول أن يضع أسلوبًا محددًا لتحقيق فكرة المغرب الكبير وأقر بأن هذه الفكرة جزء من الوحدة العربية واهتم بتأييد كفاح الجزائر ومواصلة النضال لتصفية بقايا الاستعمار الفرنسي في تونس والمغرب الأقصى «بينما كانت فرنسا تسعى إلى محاولة جذب تونس إلى صفها ونجحت في جعلها تقترح تكوين اتحاد فيدرالي يجمع بين فرنسا وشمال إفريقيا– تونس– الجزائر– مراكش– إلا أن هذا لم يفت في عضد الثورة الجزائرية»[٧٧].

وقد رفض المغرب العربي فكرة الانضمام للوحدة الفرنسية لأسباب كثيرة أساسها الاختلاف في الدين والجنس واللغة والروابط التاريخية والكيان السياسي[٧٨].

بينما اتجهوا منذ عام ١٩٥٠ بضرورة ربط مصيرهم بمصير البلاد العربية وضرورة العمل على تعاون المجموعة الإفريقية اللأسيوية على مقاومة المطامع الأجنبية[٧٩].

ثم زاد استقلال الجزائر من حدة الصراع حول زعامة المغرب لاكتسابها شهرة وطنية بعد الدور البطولي الذي قامت به إبان ثورتها المسلحة واستكمال سيادتها على أراضيها وأصبحت أكبر دول المغرب من حيث المساحة ونقطة اجتذاب للعناصر التقدمية في المغرب خاصة الاتحاد الوطني للقوى الشعبية والذي لم يوافق حكومة الرباط على استخدام القوة لتعديل الحدود ثم أخذت الجزائر زمام المبادرة بتحسين العلاقات وتنشيطها بين دول الجوار على أساس اتفاقيات ثنائية كانت هي محورها مع كل من المغرب وتونس وليبيا والهدف منها هو تجميد نشاط الأقلام والإذاعات الذي كان مستعراً بين فريق من الحكومات يوصف بأنه تقدمي وآخر رجعي وهدأت حدة هذا الصراع في العالم العربي كإحدى نتائج حرب يونيو ١٩٦٧ .

ويبدو أن زعماء المغرب قد سلموا بتعثر فكرة المغرب الكبير وأخذوا يعلنون عن إمكان تحقيقها على مراحل مع البدء بالوحدة الاقتصادية وتم عقد مؤتمر في عام ١٩٦٤ لتنسيق السياسة الاقتصادية بين الأقطار الأربعة إذ أن ليبيا أصبحت طرفًا جديدًا في مشروع المغرب الكبير لأن الدول كانت تتنافس في سياستها الاقتصادية مما أضر باقتصاداتها ومن هنا صار الاتحاد الاقتصادي ضرورة ملحة.

ولم يكن الصراع على الزعامة والتمسك بالكيانات الإقليمية هو وحدة العقبة الرئيسة فهناك صراع حول المثل السياسية فقد بدأ المغرب منقسمًا عام ١٩٦٢، ١٩٦٣ إلى معسكرين ارتبطت الدولتان الملكيتان ليبيا والمملكة المغربية بمعاهدة دفاعية بينما تقاربت حكومتا تونس والجزائر الجمهوريتان . ويخلص المؤلف إلى أن هناك ثلاث اتجاهات وحدوية تجاذبت الحركات الوطنية في المغرب: الوحدة المغربية والعربية والإسلامية وأخذت الأخيرة تختفي بفعل الثقافة العصرية وحلت محلها فكرة وحدوية هي الوحدة الأفريقية بحكم تشابه ظروف القارة الأفريقية في الكفاح ضد الاستعمار وبدأ التقارب بين تلك الأقطار حتى انتهت في عام ١٩٦٣ بإنشاء منظمة الوحدة الأفريقية وأقرت هذه المنظمة بإمكان قيام كتل إقليمية فهي إذن لا تتعارض مع مشروع المغرب الكبير وهي تسعى لتكتيل الجهود حتى تتخلص من آثار الاستعمار.

إذن فهي ضرورة أملتها ظروف العصر ولا صلة لها بالمبدأ القومي . والسؤال الذي يجدر طرحه: ما هو موقف أقطار المغرب من هذين الاتجاهين الوحدة العربية والوحدة الأفريقية؟

لقد أوضح الدستور الجزائري هذه الاتجاهات ورتبها حسب الأولويات فيذكر أن الجزائر جزء من المغرب الكبير ومن العالم العربي ثم من أفريقيا وإذا كانت حكومات المغرب تسير على هذا الترتيب المنطقي من الناحية النظرية إلا أنها من الناحية العملية يلاحظ تضارب بين الاتجاهين الوحدويين فعندما وقع النزاع بين الجزائر والمغرب استبعدت وساطة الجامعة العربية وقبلت بدلا منها وساطة سبع دول أفريقية غير عربية. وربما يرجع ذلك إلى رغبة الجزائر في أن تلعب دورًا قياديًا في الأقطار الأفريقية التي تناضل ضد الاستعمار وبعض البلاد الناطقة بالفرنسية بحكم سهولة التفاهم.

كذلك أنشأت المغرب وزارة خاصة بالشئون الأفريقية، كما أطلق الحزب الدستوري الجديد في - تونس- على مجلته الأسبوعية اسم أفريقيا الفتاة.

ويرى المؤلف أن أسباب الاهتمام بحركة الوحدة الأفريقية ترجع إلى:

رغبة حكومات معينة في التخلص من حقيقة أخرى أقوى تأثيرًا تهدد كياناتها الإقليمية وهي القومية العربية والوحدة الشاملة للوطن العربي في حين أن الإقليمية وليست حركة الوحدة الأفريقية هي التي تعرقل الوحدة العربية سواء للدول الواقعة في آسيا أم في أفريقيا وخلص صلاح العقاد إلى أن الاتجاه إلى الوحدة الأفريقية يرمي إلى:

- الخوف من القومية العربية والوحدة الشاملة لأنها أقوى.

- سيطرة النزعة الإقليمية التي تعرقل الوحدة العربية والتمسك بالزعامة ومما يزيد من حدة النزعة الإقليمية التفاوت من حيث الثروات الطبيعية كما أن اتفاقيات الحدود بين الجزائر وجاراتها هي اعتراف ضمني بالوضع الإقليمي.

لذلك كانت أمريكا وفرنسا تسعى سعيًا حثيثًا إلى محاولة وقف تلك الاتجاهات إما بسحق الثورة في الجزائر وتقديم أسلحة حلف الأطلنطي إلى فرنسا أو باستغلال سياسة بورقيبه الانتهازية وإغرائه بتقديم المعونات الاقتصادية إلى تونس بهدف رفع المستوى الاجتماعي في مقابل إقناع دول المغرب بإقامة حلف يجمع تونس والجزائر ومراكش وليبيا وإيطاليا وفرنسا وأسبانيا يكمل سلسلة أحلاف الأطلنطي على أن يسمى حلف غرب البحر المتوسط على أن يوقف الثوار في الجزائر إطلاق النار وتشكل حكومة جزائرية في نطاق الاتحاد الفرنسي[٨-].

والخلاصة أنه نظرًا لكون صلاح العقاد من الأكاديميين فإنه في استعراضه لقضايا المغرب قد أبرز آراءه، وأفكاره التي تعالج هذا الموضوع وأعطاه حقه من الدراسة معتمدًا على تحليله للمادة العلمية التي جمعها من مصادرها الأصلية الأمر الذي لم يجعله يترك أية ثغرة في تناوله بحيث يجعل الآخرين من الكتّاب يختلفون معه في الرأي أو يوجهون إليه النقد. بل نلاحظ أن من طرق تلك القضايا كان متفقًا معه في الرأي وقلما نجد إختلافًا بينه وبين غيره من معاصريه سواء من الأكاديميين أو الهواة .

خاتمة :

وهكذا تمضي أستاذنا حياته العلمية الخصبة في إثراء المكتبة العربية وخلف تراثًا سوف يبقى على الدوام دليلاً على تمكنه من الدراسات التاريخية وشاهدًا على نشاطه العلمي المتميز لأنه أضاف دون شك للتاريخ حقائق لم تكن معروفة وأجلى غوامض جوانب متعددة منه كما كان له تعليقات انفرد بها ، فكانت بمثابة مفاتيح لما استغلق علينا فهمه سواء في التنظيمات

الإدارية أو السياسية. فقد ظل تاريخ الخليج والمغرب إلى فترة متأخرة حكرا على الباحثين الأجانب الذين ظلوا يؤرخون لأحداثه من خلال المؤثرات الخارجية ومدى فهمهم لطبيعة ظروف المنطقة فجاءت كتاباتهم منحازة وتمثل بعض جوانب الصورة لا الصورة كاملة(١٨٠).

فكان للمؤرخين العرب وللدكتور صلاح العقاد الفضل في ولوج هذا الميدان الذي كان يشكو عزلتهم من قبل حتى أصبحوا هم قادرين على كتابة هذا التاريخ فهم أحق به وأخلص له بالإضافة إلى تأثرهم بحركة التاريخ في تلك المناطق والمؤثرات الخارجية والداخلية وعدم إغفال أحدها أو الفصل بينها تمشيا مع منهجية البحث والالتزام بالموضوعية.

وفي النهاية يعد هذا البحث عرضا موجزا لإنجازاته المتعددة وتخليدا لذكراه وعرفانا بالجميل لأستاذ جليل وتعزية لتفرسنا عن فقده فكان نعم الأستاذ والأب والمعلم وستفرح ذكراه العطرة مع قراءاتنا لأفكاره المتجددة التي امتلأت بها كتبه في المناحي المختلفة فجزاء الله عنا خير الجزاء.

الهوامش

١- أحمد الشرياصي: في عالم المكتوفين -ج٢ - البيان العربي- د.ت - ص٢١٨ .

٢- المرجع نفسه- ص ص٢١٩- ٢٢٠ .

٣- عبد المنعم الجميعي : المجلة المصرية التاريخية- العدد ٤١ سنة ٢٠٠٢ ص ص٣٠٤-٣٠٥ ملف البعثة الفهمية .

٤- دار الوثائق القومية بالقاهرة ملفات الإدارة العامة للبعثات - نفس المرجع - ص٣٠٧ .

٥- الشرياصي: المرجع السابق- ص٢٢١ .

٦- محادثة شفهية مع حرم المرحوم أ.د. صلاح العقاد في نوفمبر ٢٠٠٤ .

٧- الشرياصي : المرجع السابق، ص٢٢٢ .

٨- الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة - ط ٢ ج١ سنة ١٩٥٢ ، ص٤٩٥ .

٩- المجلة المصرية للدراسات التاريخية - مجلد ١٤ سنة ١٩٦٨- مؤتمر تونس بفرنسا من ١٩١٩ : ١٩٣٩ ص ص٤٠٧-٤١١ .

١٠- المجلة المصرية للدراسات التاريخية- مجموعة البحوث المقدمة للندوة العالمية الأولى جامعة البصرة- الكتاب الثاني بغداد سنة ١٩٧٥ .

١١- محادثة شخصية بيني وبين حرم المرحوم أ.د. صلاح العقاد في ٤ نوفمبر سنة ٢٠٠٤ .

١٢- صلاح العقاد : المغرب العربي ط٢ الأنجلو سنة ١٩٦٦، ص٥ .

١٣- صلاح العقاد: السياسة والمجتمع في المغرب العربي- معهد الدراسات العربية سنة ١٩٧١ ، ص٣ .

١٤- صلاح العقاد : المغرب العربي الأنجلو- ط٢ ١٩٨٠ ، ص٥ .

١٥- صلاح العقاد ، د. جمال ذكريا قاسم- الجمهورية الموريتانية- معهد البحوث ١٩٧٨- ص٢٨ .

١٦- عبد المنعم الجميعي، المجلة التاريخية العدد ٤١- سنة ٢٠٠٢ - ص٣٣١ .

١٧- الشرياصي: المرجع السابق، ص٢٢٥ .

(*)- شاهدت تلك الجوائز في منزله حينما تقابلت مع حرم المرحوم أ.د. صلاح العقاد في ٤ نوفمبر سنة ٢٠٠٤ .

١٨- صلاح العقاد : المجلة التاريخية - ندوة الجبرتي من ١٩ أبريل : ٢٣ الجبرتي والفرنسي أبريل سنة ١٩٧٤ ، ص ص٣١٢-٣١٤ .

١٩- صلاح العقاد: ندوة مصطفى كامل وفرنسا القاهرة ١٩٧٦، ص٦٥ .

٢٠- صلاح العقاد : الأحوال الاجتماعية والإدارية في الجزائر- المجلة التاريخية - المجلد الثاني عشر ١٩٦٤-١٩٦٥، ص١٤٣: ١٥٦ .

٢١- صلاح العقاد: المجلة التاريخية، دعوة حركات الإصلاح السلفي، المجلد السابع ، ١٩٥٨ ، ص ص٩٣،٩٤ .

٢٢- صلاح العقاد: المجلة التاريخية: الفكرة العربية في مصر الموسم الثقافي ١٩٧٣-١٩٧٣ ، ص ص١٦٦-١٩٧ .

٢٣- سمير أمين : المغرب العربي الحديث، ط الثانية، دار الحداثة الجزائر ١٩٨١، ص٢٦٥ .

٢٤- صلاح العقاد : الأبعاد الجديدة للسياسة الخارجية التونسية - مجلة السياسة الدولية - عدد ٢٩ السنة الثانية - ١٩٧٠ ص ص١٥٥-١٥٦ .

٢٥- صلاح العقاد : البورقيبة ومستقبل تونس- السياسة الدولية السنة الثانية ٢٧ يناير ١٩٧٢- ص ص١٢٤-١٢٩ .

٢٦- صلاح العقاد : العلاقات الدولية بين الجزائر وفرنسا - السياسة الدولية- عدد ٢٣ السنة السابعة يناير ١٩٧١ ص ص٥٤-٦٥ .

[٥]- سمير أمين : المرجع السابق، ص٢٥٩ .

٢٧- صلاح العقاد: اتحاد إمارات الخليج العربي، السياسة الدولية، عدد ٣٦ السنة السابعة أكتوبر ١٩٧١ . ص ص١٣٦-١٤٢ .

٢٨- صلاح العقاد : نظرية الفراغ والخليج العربي- مجلة السياسة الدولية عدد ٣٤- السنة التاسعة- أكتوبر ١٩٧٣ ص ص١١٢-١١٨ .

٢٩- صلاح العقاد : نزاع الحدود بين العراق والكويت- مجلة السياسة الدولية عدد ٣٣ - السنة التاسعة - يوليو ١٩٧٣ ص ص١١٠-١١٥ .

٣٠- صلاح العقاد : الاستقرار والعوامل المضادة في الكويت- السياسة الدولية عدد ٤٣- السنة العاشرة - يناير ١٩٧٦ ص ص١٤٨-١٥٠ .

٣١- صلاح العقاد : الإطار التاريخي للميثاق الوطني اللبناني - السياسة الدولية عدد ٤٣ - السنة الثانية عشرة- يناير ١٩٧٦- ص ص١٣-١٦ .

٣٢- صلاح العقاد : ساطع الحصري والقومية العربية- السياسة الدولية عدد ١٧- السنة الخامسة - يوليو ١٩٦٩ ص ص١٢٤-١٢٩ .

٣٣- لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع انظر سلوى العطار- التغيرات الاجتماعية في مصر في عهد محمد علي- الفصل الأول- اختفاء المماليك وظهور الارستقراطية التركية.

٣٤- صلاح العقاد : ليبيا المعاصرة - ١٩٧٠ ص ص٣٩-٤٥ .

٣٥- نفس المرجع ، ص ص١٣٠-١٣١ .

٣٦- نفس المرجع ، ١٩٧٠- ص١٣٦ .

٣٧- نفس المرجع ، ص ص١٥١-١٥٤ .

٣٨- صلاح العقاد : المرجع السابق- ص١٥٧ .

٣٩- مشير عبد الغني الجميعي: مذكرات حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣- مطابع شركة تيب بباريس - ط، ١٩٨٩ ، ص ص١٢١-١٢٥ .

٤٠- عبد المنعم الجميعي : المصدر السابق ، ص ص٦٧-٦٩ .

٤١- صلاح العقاد : تطور النزاع العربي الإسرائيلي- معهد البحوث العربية ١٩٧٥- ص ص٣٠١ ، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٩١ .

٤٢- محمد بيومي مهران ، التاريخ والتأريخ- دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٩٢ ص ص٣٦-٣٧ .

٤٣- عادل قديم ، جمال حجر : دار المعرفة الجامعية- ص٦٧ .

٤٤- هيرمان ايلتس- مصر والسادات والسلام- ياسين العيوطي- السياسة الدولية- عدد ٥٩ السنة السادسة عشر- يناير ١٩٨٠- ص١٩٩ .

٤٥- هيرمان ايلتس - المرجع السابق- ص٢٠٠ .

٤٦- المجلة التاريخية- مؤلف حوراني عن سوريا ولبنان - حسن عثمان ونقد كتاب، مجلد ١ ١٩٤٨- ص٣٤٨ .

٤٧- المجلة التاريخية - مؤلف حوراني- ص٣٤٦ .

٤٨- نفس المرجع - ص٣٤٩ .

٤٩- لمزيد من التفصيلات حول القومية العربية والمشكلات التي واجهتها انظر، صلاح العقاد: المشرق العربي المعاصر . الأنجلو ١٩٩٢-١٩٩٣ ص ص٦٦٣-٦٧٥ .

٥٠- السيد ياسين : تحليل مضمون الفكر القومي العربي، بيروت ١٩٩١، ص ص١ : ١٥ .

٥١- صلاح العقاد: الحرب العالمية الثانية- الأنجلو ١٩٦٣- ص ص٢١١، ٢١٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٥ .

٥٢- صلاح العقاد : العرب والحرب العالمية الثانية- معهد الدراسات العربية ١٩٦٦ - ص ص- ١-١٣ .

٥٣- نفس المرجع - ص١٧١ .

٥٤- عبد المنعم الجميعي : الجهات الكتابة التاريخية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر - ط١ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٤ ، ص١١١ .

٥٥- هاري إلمر بارنز : تاريخ الكتابة التاريخية- الهيئة العامة للكتاب- ج٢ ١٩٨٧ ، ص١٣٥ .

٥٦- صلاح أبوزيد : التاريخ والتأريخ - دار محسن للطباعة ١٩٩١- ص١٥٩ .

٥٧- أحمد عزت عبد الكريم ، ندوة كتابة التاريخ القومي- المجلة التاريخية مجلد ١٣-١٩٦٧ ، ص٣٤٨ .

٥٨- حكمت أبوزيد : ندوة كتابة التاريخ القومي- ص٣٦٤ .

٥٩- حسن عثمان : منهج البحث التاريخي- دار المعارف ط٤ ، ١٩٦٤ ، ص ص١٧-٢٢ .

٦٠- أحمد عبد الرحيم : شفيق غربال مؤرخا - المجلة التاريخية - مجلد ١١- ١٩٦٣ ، ص٢٥٨ .

٦١- أحمد عزت عبد الكريم : المجلة التاريخية مجلد ٨- ١٩٥١ - ص ص٢٩٥-٢٩٦ .

٦٢- سمير أمين : المغرب العربي الحديث- الطبعة الثانية- الجزائر ١٩٨١ ، ص٢٥٩ .

٦٣- علال الفاسي : محاضرات في المغرب العربي- معهد الدراسات العربية ١٩٥٥ ص ص٦٨-٦٩ .

٦٤- صلاح العقاد : المغرب العربي- الأنجلو ١٩٨٠- ص ص٥٣٣-٥٤٤ .

٦٥- عزت عبد الكريم : المجلة التاريخية المصرية- مجلد ٨ ط١٩٥١ ، ص٢-٣ .

٦٦- عزت عبد الكريم : مقدمة كتبها للدكتور صلاح العقاد في أحد كتبه عن المغرب.

٦٧- علال الفاسي : المرجع السابق - ص١٩٤ .

٦٨- صلاح العقاد : المرجع السابق - ص٣٠٦ .

٦٩- نفس المصدر ، ص ص٣٠٦:٣٠٨ .

٧٠- علال الفاسي : المرجع السابق- ص١١٦ .

٧١- سمير أمين : المرجع السابق ، ص ص٢٦٥ ، ٢٦٦ .

٧٢- اتفق علال الفاسي مع صلاح العقاد في أن المغرب العربي كان ينشد الاستقلال التام والوحدة المغربية والجامعة العربية - ص١٥٣ .

٧٣- صلاح العقاد: السياسة والمجتمع في المغرب العربي- معهد البحوث ١٩٧١- ص ص١٩٥: ١٩٧ .

٧٤- سمير أمين :المرجع السابق ، ص٢٦٦ .

٧٥- سمير أمين : المرجع السابق - ص٢٦٩ .

٧٦- زاهر رياض : شمال أفريقيا في العصر الحديث - الأنجلو ١٩٦٧- ص٣٣٧ .

٧٧- علال الفاسي : المرجع السابق- ص١٥٣ .

٧٨- نفس المرجع : ص١٨٩ .

٧٩- زاهر رياض : المرجع السابق- ص٣٣٤ .

٨٠- المجلة التاريخية- المجلد العشرون، ١٩٧٣ ص ص٣٢٠-٣٢١ .

مصادر ومراجع البحث

أولا : المذكرات الشخصية:

١- مشير محمد عبد الغني الجمسي- مذكرات الجمسي- حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، ط١ باريس ١٩٩٠ .

ثانيا: المراجع:

١- أحمد الشرباصي ، في عالم المكفوفين ج٢ البيان العربي ١٩٥٩ .

٢- السيد ياسين : تحليل مضمون الفكر القومي العربي- بيروت ١٩٩٩ .

٣- الموسوعة القومية للشخصيات العربية البارزة ج١، ط٢ ، وزارة الإعلام ١٩٩٢ .

٤- حسن عثمان ، منهج البحث التاريخي ، ط٤، دار المعارف ١٩٦٤ .

٥- زاهر رياض : شمال إفريقيا في العصر الحديث- ليبيا - تونس- الجزائر، الأنجلو ١٩٦٧ .

٦- سمير أمين : ترجمة كميل ق - داغر- المغرب العربي الحديث ط٢ ، دار الحداثة الجزائر ١٩٨١ .

٧- ـــــــــ : الاستعمار في الخليج الفارسي- الأنجلو ١٩٥٦ .

٨- صلاح العقاد ، المغرب العربي بين التضامن الإسلامي والاستعمار الفرنسي ، الأنجلو ١٩٥٧ .

٩- ـــــــــ : محاضرات عن تطور السياسة الفرنسية في الجزائر، معهد الدراسات العربية ١٩٦٠ .

١٠- ـــــــــ : الحرب العالمية الثانية- دراسة في تاريخ العلاقات الدولية، الأنجلو ١٩٦٣ .

١١- ـــــــــ : الجزائر المعاصرة ، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٤ .

١٢- ـــــــــ : العرب والحرب العالمية الثانية- معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٦ .

١٣- ـــــــــ : المشرق العربي ١٩٤٥-١٩٥٨ - معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧ .

١٤- ـــــــــ : قضية فلسطين في المرحلة الحرجة ١٩٤٥-١٩٥٦ معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٨ .

١٥- ـــــــــ : ليبيا المعاصرة - معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٠ .

١٦- ـــــــــ : السياسة والمجتمع فى المغرب العربى- معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧١ .

١٧- ـــــــــ : معالم التغيير فى دول الخليج ١٩٧٢ .

١٨- ـــــــــ : البترول وأثره فى السياسة والمجتمع- معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٣ .

١٩- ـــــــــ : مأساة يونيو ١٩٦٧- الأنجلو ١٩٧٥ .

٢٠- ـــــــــ : تطور النزاع العربى الإسرائيلى- معهد الدراسات العربية.

٢١- ـــــــــ : الجمهورية الموريتانية - مع آخرين - معهد الدراسات العربية ١٩٧٨ .

٢٢- ـــــــــ : المشرق العربى المعاصر- الأنجلو ١٩٧٩ .

٢٣- ـــــــــ : المغرب العربى - الأنجلو ١٩٦٦ .

٢٤- ـــــــــ : المغرب العربى - الأنجلو ١٩٨٢ .

٢٥- ـــــــــ : السادات وكامب دافيد- مدبولى ١٩٨٤ .

٢٦- ـــــــــ : التيارات السياسية فى الخليج العربى منذ بدايته الحديثة حتى أزمة ١٩٩٠-١٩٩١ الأنجلو ١٩٩٣ .

٢٧- ـــــــــ : المشرق العربى المعاصر ، الأنجلو ١٩٩٣ .

٢٨- صلاح أبوزيد : التاريخ والتأريخ ، دار محسن للطباعة ، سوهاج ١٩٩١ .

٢٩- عادل غنيم، جمال حجر: منهج البحث التاريخى، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٩ .

٣٠- عبد المنعم الجميعى : إتجاهات الكتابة التاريخية فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر ط١ ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٤ .

٣١- علال الفاسى : محاضرات فى المغرب العربى منذ الحرب العالمية الأولى، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٥٥ .

٣٢- محمد بيومى مهران : التاريخ والتأريخ دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ١٩٩٢ .

٣٣- هارى الم بارنز : ترجمة أ.د. محمد عبد الرحمن برج ، ج٢ ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧ .

ثالثا : الدوريات :

أ- السياسة الدولية:

١- السياسة الدولية عدد١٧ - السنة الخامسة- يوليو ١٩٦٩ .

٢- ـــــــــ ٢٣ - السنة السابعة- يناير ١٩٧١ .

٣- ـــــــــ ٢٦ السنة السابعة- أكتوبر ١٩٧١ .

٤- ـــــــــ ٢٧ السنة الثامنة- يناير ١٩٧٢ .

٥- ـــــــــ ٢٩ السنة الثامنة - يوليو ١٩٧٢ .

٦- ـــــــــ ٣٣ السنة التاسعة - يوليو ١٩٧٢ .

٧- ـــــــــ ٣٤ السنة التاسعة - يوليو ١٩٧٣ .

٨- ـــــــــ ٤٠ - السنة الحادية عشرة- أبريل ١٩٧٥ .

٩- ـــــــــ ٤٣ السنة الثانية عشرة - يناير ١٩٧٦ (مقالتين) .

١٠- ـــــــــ ٥٩ السنة السادسة عشرة- يناير ١٩٨٠ .

ب- الجمعية المصرية للدراسات التاريخية- المجلة التاريخية المصرية:

مجلد١ عام ١٩٤٨ ، مجلد ٨ عام ١٩٥١ ، مجلد ٧ عام ١٩٥٨ ، مجلد ١١ عام ١٩٦٣، مجلد ١٢ عام ١٩٦٤ - ١٩٦٥ ، مجلد ١٣ عام ١٩٦٧ ، مجلد ١٤ عام ١٩٦٨، مجلد ٢٠ عام ١٩٧٣، مجلد ٢١ عام ١٩٧٤، مجلد ٤١ عام ٢٠٠٢ .

رابعا: الندوات:

ندوة الجمهرتى ١٩٧٤، ندوة مصطفى كامل، ندوة مركز دراسات الخليج بالبصرة الكتاب الثانى ١٩٧٥، الندوة العالمية الأولى لمركز دراسات الخليج بالبصرة الكتاب الأول ١٩٧٥ .

- الموسم الثقافى ١٩٧٢-١٩٧٣ .

د. عابدة السيد إبراهيم سليمة(*)

الثورة العربية الكبرى ١٩١٦م فى كتابات أمين سعيد

حفل العالم العربى على مدى التاريخ بالعديد من الشخصيات البارزة التى أثرت الحياة الثقافية والعلمية فى مختلف أقطاره، والذين لم يقتصر دورهم على الكتابة والتأليف، بل أن بعضهم قد أسهم إسهامات فعالة فى إذكاء الروح الوطنية داخل أوطانهم سواء بأفكارهم التى سجلوها فى مؤلفاتهم ، أو بمشاركتهم فى حركة النضال الوطنى، ولقد جمع هؤلاء بين العمل السياسى وتدوين حوادث التاريخ. ومن بين تلك الفئة الصحفى والمؤرخ المصرى أمين محمد سعيد حسن سعيد ، الذى يعد واحداً من الكتاب الشوام الذين وفدوا إلى مصر وشاركوا فى إثراء المكتبه التاريخية سواء فى تاريخ العرب الحديث أو تاريخ مصر . ويمكن تصنيف هذا المؤرخ ضمن مجموعة الهواة فى كتابة التاريخ(١).

وفى هذا البحث سوف نلقى الضوء على بعض الجوانب المهمة لهذا المؤرخ العربى ومنها التعريف به والعرض لمعظم مؤلفاته التى مكنتنا من الوقوف على منهجه فى الكتابة التاريخية، وأخيراً الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦م باعتبارها من أهم القضايا التى تناولها فى كتاباته .

* مدرس التاريخ الحديث والمعاصر - كلية البنات - جامعة عين شمس .

تعريف بالمؤرخ :

ولد أمين سعيد باللاذقية عام ١٨٩٠م، وتلقى تعليمه الأولى بها، وقد هيأت له الظروف منذ صغره الاشتغال بالصحافة عندما التحق بالعمل مع والده في مطبعته وجريدته الأسبوعية، وفي عام ١٩٠٩م ترك اللاذقية ورحل إلى بيروت حيث استكمل دراسته في مدرسة الشيخ عباس الأزهري [٢]، ثم اتجه بعدها إلى دراسة الحقوق.

رحل أمين سعيد إلى دمشق عام ١٩١٦ واستأنف عمله الصحفي حيث أنشأ جريدة هناك أطلق عليها «أبو نواس» [٣]. وقد تزامن مجيئه إلى دمشق مع تصاعد حركة القومية العربية بسبب سياسة الاتحاديين التعسفية والتي انتهت بتزعم الشريف حسين شريف مكة للثورة العربية ضد تركيا في مقابل مساعدة انجلترا له في تكوين دولة عربية مستقلة يكون هو ملكًا عليها كما هو معروف. وقد حظي أمين سعيد بالمشاركة في هذه الثورة عندما التحق في مايو ١٩١٨ بشعبة المخابرات مستشاراً وخبيراً للشئون العربية في الجيش التركي [٤]. كذلك شارك المؤلف في المظاهرات التي قادها زعماء الحركة الوطنية السورية احتجاجًا على سياسة الانتداب الفرنسي في سوريا، التي كانت سببًا في خروجه من وطنه، واستقراره في مصر[٥] حيث استأنف عمله الصحفي محرراً في جريدة المقطم، وقام بكتابة مجموعة من المقالات اليومية في الصفحة الثالثة منها تحت إمضاء (مكاتب سياسي شرقي)[٦] عالج فيها العديد من قضايا العالم العربي والإسلامي، وألقى الضوء على الأحوال السياسية لتلك المنطقة ومشكلاتها آنذاك.

أمضى أمين سعيد في قلم تحرير المقطم خمس سنوات تفرغ بعدها للعمل في مجلته الأسبوعية «الشرق الأدنى» التي أسسها بالقاهرة في أكتوبر عام ١٩٢٧ وتم توزيعها في دول عربية أخرى مثل العراق والسودان وإمارات الخليج العربي. وقد توقفت تلك المجلة عن الصدور في فبراير عام ١٩٢٩م بعد أن صدر منها ستة وستون عدداً تناول في معظمها تاريخ العرب والمسلمين [٧].

ظل أمين سعيد مقيمًا بالقاهرة حتى تشكلت وزارة تاج الدين الحسني في سوريا عام ١٩٢٨م التي بادر باتخاذ بعض الإجراءات الوطنية كإلغاء الأحكام العرفية وإصدار العفو عن المعتقلين والمنفيين، الأمر الذي أتاح لأمين سعيد فرصة العودة إلى وطنه حيث انشأ جريدة يومية أسماها (الكفاح)، ثم عكف بعد ذلك على جمع قصاصات من الصحف احتفظ بها

وجعل منها مادة لعدد من الكتب أشهرها (الثورة العربية الكبرى) في ثلاثة أجزاء، (ملوك المسلمين المعاصرين ودولهم)[٨].

قام أمين سعيد بزيارات لعدد من العواصم العربية سعيًا وراء الحصول على المعلومة التاريخية حيث زار العراق مرتين، كانت الأولى في أكتوبر عام ١٩٣٣م لحضور حفل تأبين الملك فيصل ملك العراق بوصفه مندوبًا عن الهيئات السورية بمصر أصدر بعدها كتابه (أيام بغداد)، بينما جاءت الزيارة الثانية عام ١٩٣٧ بعد قيام انقلاب بكر صدقي وحكمت سليمان[٩]. كذلك زار الكويت مرتين: الأولى عام ١٩٣٧م بدعوة من الشيخ أحمد الجابر الصباح، والثانية عام ١٩٦٠ بدعوة أيضًا من الشيخ عبد الله السالم الصباح، وفي العام نفسه زار منطقتي الاحساء والرياض بالمملكة العربية السعودية، وعمان بالأردن[١٠] وقد ساعدته تلك الزيارات على إصدار العديد من المؤلفات التي تناولت قضايا ومشكلات الوطن العربي السياسية.

ظل أمين سعيد يتنقل بين القاهرة ودمشق إلى أن استقر به المقام في مصر مرة أخرى في عهد جمال عبد الناصر، خلال تلك الفترة قام بكتابة عدد من المؤلفات في تاريخ العرب ومصر مثل (ثورة ٢٣ يوليو) و(تاريخ الدولة السعودية) في جزئين، و(العدوان ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦– أول فبراير عام ١٩٥٨) و(الجمهورية العربية المتحدة) في جزئين، و(الوطن العربي) (وثورات العرب في القرن العشرين) و(أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين)، وغيرها، ثم ترك القاهرة وترحل إلى بعمدون في لبنان حيث أسس جريدة «نداء الوطن» البيروتية، ونوفي في هذه البلدة عام ١٩٦٧م[١١]. بعد أن ترك مجموعة من المؤلفات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر أثرت بلا شك المكتبه التاريخية العربية.

مؤلفاته :

تعددت مؤلفات أمين سعيد وتنوعت موضوعاتها، وإن كان معظمها يدور في إطار أحوال العرب السياسية، حيث عالج مختلف الأحداث التاريخية رغم تنوع عصورها وأماكنها. وقد بلغت تلك المؤلفات خمسة عشر مؤلفًا على مدى أربعة وثلاثين عامًا من عام ١٩٣٤ وحتى عام ١٩٦٧ تناولنا منها ثلاثة عشر مؤلفًا فقط، ولم نتمكن من الحصول على مؤلفين هما (تاريخ الدولة السعودية) و(ملوك المسلمين المعاصرين ودولهم). وجدير بالذكر أنه لم يقتصر في كتاباته على موضوعات التاريخ الحديث، بل تناول أحداثا كانت تعد في نطاق العصور

الوسطى ، وقد ساعده العمل بالصحافة على تدوين التاريخ العربى حينما جعل من المقالات المتنوعة التى كتبها فى كل من جريدة المقطم ومجلة الشرق الأدنى مادة أساسية لكتبه التى أسهمت بلاشك فى تثقيف وتشكيل عقول أجيال عديدة، كما إنها نبهت الأذهان إلى موضوعات لم يتطرق إليها أحدًا قبله.

وقد قمت فى هذا البحث بعرض مؤلفات أمين سعيد مسلسلة زمنيًا طبقًا لسنوات الإصدار.

ظهر باكورة مؤلفاته فى عام ١٩٣٤-١٩٣٥ تحت عنوان (الثورة العربية الكبرى) فى ثلاثة أجزاء، لستعرض فيها بإسهاب تاريخ القضية العربية فى ربع قرن حيث تناول فى الجزء الأول الذى صدر عام ١٩٣٤ الثورة العربية فى عام ١٩١٦ مقدماتها ، وعوامل قيامها ثم تاريخ النضال بين العرب والأتراك منذ صدور الدستور العثمانى عام ١٩٠٨م، وما أعقب ذلك من تأسيس الجمعيات العربية، كرد فعل على سياسة الاتحاديين المتعصبة ، بعد ذلك تطرق إلى اتفاقيات الحسين مع الإنجليز، وبدايات الخلاف بينهما ، وقد نوه فى هذا الجزء بالأسباب التى دفعته إلى إخراجه. وقد انتهى هذا المؤلف بفصل ختامى بعنوان (ملاحظات عامة على سير القضية العربية فى الفترة من ١٩٠٨ حتى ١٩١٨)، أشار فيه إلى ما كسبته القضية العربية وما خسرته خلال تلك الفترة.

وجاء الجزء الثانى من هذا المؤلف فى عام ١٩٣٥ تناول فيه تاريخ النضال فى سوريا منذ قيام الحكومة الفيصلية حتى وقوع الانتداب الفرنسى عليها ، كما تناول تاريخ العراق منذ ثورة ١٩٢٠ ضد الانتداب البريطانى حتى تولى فيصل عرش البلاد عام ١٩٢١ .

أما الحلقة الثالثة والأخيرة فاشتملت على وصف شامل لتاريخ القضية العربية فى الفترة الممتدة من عام ١٩٢١ حتى ١٩٣٤وفيها تناول تاريخ إمارة شرق الأردن والقضية الفلسطينية وأطماع الصهيونية، وسعى إنجلترا لتصفية عهودها مع الشريف حسين. ثم انتقل إلى الدولة الهاشمية فى الحجاز وأسباب إنهيارها ، وقيام الدولة السعودية ، ومراحل النضال فى الشام ضد الفرنسيين منذ الثورة السورية عام ١٩٢٥م، وجاء الفصل الختامى بعنوان (ملاحظات عامة). وقد دعم أمين سعيد هذا الجزء بملاحق تناولت أسماء المشتركين فى الثورة السورية من السياسيين والمنفيين والمبعدين ومن ماتوا من النساء والرجال والشباب، وكذا القواد الفرنسيين، وعدد القوات الفرنسية وأسماء أبناء الأقليات الدينية والعنصرية من السوريين.

وفى عام ١٩٣٥ أصدر أمين سعيد مؤلفة الثانى (أيام بغداد) والذى يشبه كتب الرحالة

فى وصفه لمعالم العراق ونهضته العمرانية إذ يحكى فيه مشاهداته على هيئة فصول، وهذا الكتاب رغم صغر حجمه لايقتصر على استقراء الحوادث أو تقويمها ، وإنما يقوم بتصوير الشخصيات التى قابلها والأماكن التى زارها كأنك شاهدتها . وقد أشار فى المقدمة إلى أن إعجابه بنهضة العراق الحديثة وآثاره القديمة كانت من وراء إخراجه، ومن المعروف أن هذا الكتاب صدر بعد الزيارة التى قام بها إلى العراق فى أكتوبر عام ١٩٣٣ لحضور حفل تأبين الملك فيصل . وأهم ما يلفت النظر فى الكتاب الإشارة إلى أن تداول النقد المصرى كبديل للنقد التركى خاصة بعد إنتهاء الحرب العالمية الأولى كان من وراء رواج الأسواق فى بلاد الشام والحجاز بدليل أنه عندما دخلت القوات الفرنسية دمشق عام ١٩٢٠ وبادرت بمنع تداول النقد المصرى وأحلت محله النقد السورى الذى ألحق بعد ذلك بالنقد الفرنسى تدهورت أسواق سوريا الاقتصادية[١٢] .

وتحت عنوان (حروب الإسلام والإمبراطورية الرومية) جاء مؤلفه الثالث عام ١٩٣٥ وفيه تطرق إلى الفتوحات الإسلامية فى الشام ومصر وشمال أفريقيا وهى موضوعات تدخل فى نطاق العصور الوسطى.

أما مؤلفه الرابع عن (الدولة العربية المتحدة) فقد جاء فى ثلاثة أجزاء ، حيث صدر الجزء الأول منه عام ١٩٣٦م بعنوان (تاريخ الاستعمار الإنجليزى فى بلاد العرب) تتبع فيه الجذور التاريخية للقضية العربية التى مرت بمراحل متعددة بدأت بسقوط الدولة العباسية، ثم انتقل إلى أوضاع وأحوال الدول العربية تحت الحكم العثمانى وما أصابهم من انحطاط دينى وقومى واجتماعى بسبب سياسة الأتراك الخاطئة المتمثلة فى إهمال اللغة العربية والتعليم الدينى، الأمر الذى أدى إلى انتشار البدع والخرافات مما أتاح المناخ المناسب لظهور كيان سياسى مثل فى الدولة السعودية الأولى وعلاقاتها بالدولة العثمانية حتى تم القضاء عليها. ثم تناول محاولات محمد على ومجهوداته لتكوين امبراطورية عربية موضحًا سبب اهتمامه بإبراز هذا الموضوع هو إهمال الكتاب المصريين التعرض له بسبب تغلب النزعة المحلية فى كتاباتهم مستندًا فى ذلك إلى كتابات عبد الرحمن الرافعى وخاصة مؤلفه (تاريخ الحركة القومية فى مصر).

ومن أبرز القضايا المطروحة فى هذا الجزء وصف للدولة السعودية الأولى بأنها أول محاولة لإنشاء دولة قومية عربية مستقلة فى جزيرة العرب بعد سقوط الدولة العباسية وهذا لايتفق مع

الواقع العربي الذي كان لايعي المفهوم القومي في تلك الفترة المبكرة . فمن المعروف أن المبدأ القومي حيث عند الشعوب الشرقية، ولم يعرف إلا في أواخر القرن التاسع عشر بعد ظهور حركة القوميات في أوربا، أما قبل ذلك فإن الناس كانوا يتميزون بعضهم عن بعض بالدين. كذلك أدى تغلب النزعات الإقليمية إلى تأخر ظهور القومية العربية في الوطن العربي الذي لم يمارس الاستقلال إلا بعد الحرب العالمية الأولى. كما ذكر أن تطلعات محمد علي لتكوين إمبراطورية عربية كانت بهدف تحرير العنصر العربي من سيطرة الأتراك، وإنعاشه ورفع مستواه العلمي والأدبي وإعداده للمساهمة في إنشاء الحضارة الجديدة[١٣]. رغم أن اهتمامات محمد علي لم تكن بهدف التطلع لخدمة الحضارة العربية وإنما التوسع وإرساء قواعد الدولة الحديثة في مصر . بعد ذلك تعرض لتاريخ مصر منذ حملة إنجلترا سنة ١٨٠١م حتى الثورة العرابية وما نتج عنها من احتلال إنجلترا لمصر، ثم الاستيلاء على السودان، والعراق وفلسطين وشرقي الأردن.

وجاء الجزء الثاني من هذا المؤلف عام ١٩٣٨ بعنوان (تاريخ الاستعمار الفرنسي والإيطالي في بلاد العرب) وفيه وضع الأساس لكل من يتناول تاريخ أقطار شمال أفريقيا لأن موضوعه من الموضوعات الجديدة التي لم يؤلف فيها باللغة العربية بسبب انشغال الكتاب العرب المغاربة بأحداث بلادهم عن تدوين تاريخ منطقتهم الحديث، كما لم يتناوله الكتاب المشارقة في كتاباتهم بسبب ضعف الروابط بين المشرق والمغرب، هذا في الوقت الذي كثرت فيه المؤلفات الأجنبية من فرنسية وإنجليزية وألمانية وإيطالية عن تاريخ أقطار شمال أفريقيا . ويسرد المؤلف في هذا الكتاب الأحداث التي مرت بها أقطار المنطقة والحملات الفرنسية على مصر والجزائر وتونس والمغرب، وأيضًا الانتداب الفرنسي على سوريا . ثم الاحتلال الايطالي لليبيا. وعن الحملة الفرنسية على مصر، رأى أمين سعيد أن الصورة الزاهية لهذا الاحتلال تتمثل في المشروعات العلمية والهندسية والفنية التي باشرها العلماء ورجال الفن مدة الاحتلال، فهم أول من أدخل الطباعة إلى مصر وأنشؤ المستشفيات على الطراز الحديث[١٤]. ومع تسليمنا بالتغيير الذي أحدثته الحملة داخل المجتمع المدني في مصر ، إلا أن الثابت لدينا أنهم أحضروا مطبعتين واحدة عربية والأخرى فرنسية ليس بهدف تثقيف المصريين، ولكن لطبع المنشورات الموجهة إلى الشعب المصري، كما أنهم لم ينشئوا المستشفيات على الطراز الحديث كما يقول ولكن يمكن القول أنهم عملوا على نشر الوعي الصحي لدى المصريين.

وفي عام ١٩٣٨ ظهر الجزء الثالث والأخير من (الدولة العربية المتحدة) وفيه تناول تاريخ الحركات الوطنية في برقة والجزائر والمغرب ، كما أورد أسباب قيام الثورة العربية في الحجاز ، ثم تاريخ مصر منذ عهد الخديوي عباس حلمي الثاني حتى عقد معاهدة ١٩٣٦ . وأهم ما يلفت الانتباه الدعوة التي وجهها أمين سعيد لحث العرب على تحقيق مشروع الدولة العربية المتحدة والتي اختار لها النموذج الألماني على أساس تشابه الشعبين العربي والألماني من حيث تعدد إماراته، وممالكه التي انضوت تحت علم قومي واحد رغم ما بينهم من خلافات داخلية. وقد نظر إلى الحلف الثلاثي الذي ضم مصر والسعودية واليمن على أنه نواة لتحقيق هذا المشروع . ثم وضع الخطوات التمهيدية لمشروع الدولة المقترحة ، كتوحيد برامج التعليم، وإعداد طبقة من المدرسين في كل قطر تكون مشبعة بالروح القومية لنشر فكرة الاتحاد العربي بين الطلاب ، كذلك تأسيس جمعيات قومية في كل قطر، وإصدار الصحف والكتب الداعية للاتحاد .. الخ[١٥] وكما يلفت النظر أن الدعوة إلى تحقيق الاتحاد العربي قد تحققت فيما بعد عندما تأسست جامعة الدول العربية عام ١٩٤٥، ومثلما كانت دعوة أمين سعيد ترتكز بصفة أساسية على النواحي الثقافية، لم تنجح جامعة الدول العربية في أي من المجالات سوى المجال الثقافي الذي لم يتأثر بأي تقلبات في السياسة العربية أو العلاقات بين الدول.

وقد حظيت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ باهتمام أمين سعيد وذلك من خلال مجموعة مؤلفاته عن تاريخ هذه الثورة . وقد صدر أولها عام ١٩٥٩م بعنوان (**تاريخ مصر السياسي من الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ إلى انهيار الملكية سنة ١٩٥٢**) وفيه تناول تاريخ مصر منذ مجئ الحملة الفرنسية ، ثم عصر محمد علي وإنجازاته في مصر، وفتوحاته في السودان وبلاد العرب والشام، وأخيراً الاحتلال الإنجليزي وتطور الحركة الوطنية في مصر حتى قيام ثورة يوليو عام ١٩٥٢م.

وفي العام نفسه (١٩٥٩) ظهر كتاب (**الثورة من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦**) وهو سجل لأعمال الثورة منذ اعلانها حتى العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ ومواقفها من حلف بغداد، وقضايا شعوب الشرق وأفريقيا، ومن أبرز ما جاء في هذا المؤلف هو الإشادة المبالغ فيها بشخص الرئيس جمال عبد الناصر في أكثر من موضع وبثورة يوليو سنة ١٩٥٢ بحيث جعل منها مثالاً يحتذى بالنسبة للدول العربية الأخرى حينما قال «فتحت للعرب كافة لا لمصر وحدها باب الحياة فدخلوها أمس وبعثتهم بعثًا جديداً فأصبحوا بتحمتها أخوانًا على سرر متقابلين». كذلك ربط بين هذه الثورة وبين البعثة النبوية وهذا الربط في غير محله.

فليس هناك وجه اتفاق أو تشابه بين بعثة رباعية مثالية تحكمها شريعة الله ، تولى مسئوليتها إنسان مختار من المولى عز وجل، وبين حركة إنسانية يحتمل نجاحها أو فشلها لأنها تسير وفقًا لأحكام البشر، ويتولاها زعيم صنعته الظروف وليس الإرادة الإلهية. كذلك ظهر موقف العدائي لجامعة الإخوان المسلمين حينما وصفهم بالإرهابيين فقال (واشترك فريق من الإخوان في معركة فلسطين سنة ١٩٤٨ واتخذوها ذريعة لنشر الإرهاب والتدمير ، فاغتالوا في أواخر سنة ١٩٤٨ النقراشي)[١٦].

وعن العدوان الثلاثي أصدر مؤلفًا آخر في عام ١٩٥٩م بعنوان (العدوان ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ – أول فبراير سنة ١٩٥٨) تناول فيه أسباب العدوان الثلاثي على مصر . وقد شبه تدخل بريطانيا في هذا العدوان بتدخلها عام ١٨٣٨ - ١٨٤٠م للقضاء على مشروع محمد علي لتأسيس امبراطورية عربية، كما شبه معركة بورسعيد بمعركة اليرموك بين المسلمين والروم، ثم انتقل إلى موقف العرب والاتحاد السوفيتي من العدوان على مصر، وأيضًا موقفهم من مشروع أيزنهاور. وقد أورد في هذا الكتاب نصوص البيانات العسكرية لمعارك بورسعيد وكذا نصوص خطب الرئيس جمال عبد الناصر، وجاءت خاتمة هذا الكتاب عن نظام الحكم في مصر منذ عصر محمد علي حتى إعلان الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٥٨م.

وآخر ما جاء عن الثورة المصرية مؤلفه (الجمهورية العربية المتحدة) في جزءين الأول عام ١٩٥٩م وفيه شرح واف لمراحل قيام الوحدة بين مصر وسوريا من حيث مقدماتها التي بدأت باتفاقها تجاه مقاومة الأحلاف الغربية كحلف بغداد، ثم وقوف سوريا بجانب مصر إبان العدوان الثلاثي، كما أشار إلى اتحاد اليمن مع الجمهورية العربية المتحدة، ثم انتقل إلى مواقف عبد الناصر من ثورتي لبنان والعراق ومن مشروع أيزنهاور، وأخيرًا تطرق إلى علاقات الجمهورية العربية المتحدة بالأردن.

وفي عام ١٩٥٩ ظهر كتاب (اليمن) الذي تتبع فيه تاريخ الدولة اليمنية منذ دخول الإسلام حتى اتحادها مع الجمهورية العربية المتحدة في مارس سنة ١٩٥٨، ثم وضع خاتمة تضمنت نظام الحكم في اليمن من حيث ولاية العهد والوزارة وظروف نقل العاصمة من تعز إلى صنعاء . وما يلفت النظر الحملة الشديدة التي شنها أمين سعيد ضد الوجود العثماني في اليمن، وكيف أنه جلب لها الخراب والدمار بحيث أفسح خروجه الطريق أمامها لكي تبرز إلى المجال الدولي[١٧].

من خلال تناول المؤلف لتاريخ اليمن الحديث أظهر هاشم دوله فعالة في العالم العربي، في حين أن موقف اليمن من القضايا العربية كان يتسم دائمًا بالتحفظ والحياد الذي يمكن وصفه بالسلبية ، كما رأينا في موقفها من تأسيس جامعة الدول العربية.

أما مؤلفه (الوطن العربي) فقد صدر في عام ١٩٦٠ وهو عبارة عن مسح شامل لتاريخ العرب الحديث وثوراتهم ضد الحملات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية. ويعتبر أمين سعيد من أوائل الذين نبهوا الأذهان إلى أهمية قارة أفريقيا وأنها قارة المستقبل بالنسبة للعرب ولذلك لفت الأنظار إلى ضرورة النزول إلى ميدانها ، كما ألقى تبعية استمرار السيطرة البريطانية على إمارات الخليج العربي وسلطنات اليمن الجنوبي على الشيوخ والسلاطين لتعاونهم مع بريطانيا ولقا تمنى أن يحذو هؤلاء حذو الملك عبد العزيز حينما طلب من بريطانيا إلغاء الاتفاقيات المعقودة بينهما لإنها استنفذت أغراضها. ويعتبر المؤلف أيضًا من أوائل الذين أدركوا أهمية البترول العربي ولهذا حث العرب على ضرورة حسن استغلاله عن طريق إنشاء هيئة دولية عربية تضم الدول المنتجة للبترول بحيث يصير للعرب سياسة بترولية تصون البترول العربي من استغلال الشركات الأمريكية والإنجليزية، إذ إن الهيئة العربية الوحيدة المتهمة بشئون البترول وقتئذ والمتمثلة في مكتب شئون البترول التابع لجامعة الدول العربية غير كافية للحفاظ على تلك الثروة المهمة. ويلاحظ أن فكرة أمين سعيد قد تحققت بالفعل عندما ظهرت إلى الوجود منظمة الأوابك[٥] وقد انتقل بعد ذلك إلى معارك البترول في الوطن العربي ، ومشكلات الحدود بين العرب وبعضهم وبعض وبينهم وبين جيرانهم من غير العرب. كما خصص فصلاً عن تأسيس جامعة الدول العربية وفيه أشار إلى ثورة الشريف حسين عام ١٩١٦م، وحركة رشيد عالي الكيلاني في العراق واستقلال سوريا ولبنان والعراق والأردن. وفي الفصل الختامي أكد على أن الأحوال المضطربة التي مر بها العالم العربي في مستهل القرن العشرين كانت تستلزم وجود زعيم يقودهم وقد تحقق ذلك من وجهة نظره في شخص الرئيس جمال عبد الناصر ، وكأن العالم العربي لم يشهد زعيمًا غيره. ومرة أخرى يعود إلى الحديث عن التطابق والإنسجام بين عهد عبد الناصر الذي وصفه بالعهد الزاهر السعيد وبين عهد النبوة الذي يعتبر من أعظم العهود التي عرفها العرب[١٨].

وصدر الجزء الثاني من مؤلف الجمهورية العربية المتحدة عام ١٩٦٠ ويتضمن عرضًا لعلاقاتها بدول العالم بما فيهم الدول العربية، ثم قام بشرح واف لمراحل بناء السد العالي. وعن

الحرب الأهلية اللبنانية في عهد كميل شمعون ذكر أن اختيار فؤاد شهاب لمنصب الرئاسة بدلا من شمعون كان إرضاء للرئيس جمال عبد الناصر . والحقيقة أن اختياره جاء استجابة لمطالب المعارضة التي تكتلت لاسقاط حكم كميل شمعون[١١٩] وليس ارضاءً لعبد الناصر كما قال . ثم انتقل إلى موقف الجمهورية العربية المتحدة من قضايا شعوب اسيا وافريقيا ومن حكومة عبد الكريم قاسم في العراق .

وفي عام ١٩٦١م أصدر كتابًا عن (ثورات العرب في القرن العشرين) انتقد فيه سياسة الدولة العثمانية الاقتصادية والثقافية بخاصة محاربتها اللغة العربية باحلال التركية محلها ، وما جرته تلك السياسة من تدهور أحوال العرب . ثم تطرق إلى ثورات العرب ضد السيطرة الأجنبية في القرن العشرين بما فيها ثورة الشريف حسين. ورغم أن الكتاب كما هو واضح من عنوانه يقتصر على ثورات القرن العشرين إلا أنه رجع بالثورات المصرية إلى عهد الحملة الفرنسية على إعتبار أن الثورات المصرية هي الأم، فهي أول ثورة يقوم بها شعب عربي ضد دولة أوربية، كما أنها القدوة التي يجب الاقتداء بها واتباع خطواتها وبهذه المناسبة أخذ يعدد مزايا ثورة ١٩٥٢ ووصفها بأنها «أعظم ثورات العرب على الإطلاق . فهي لم تنصب المشانق، ولم تفتح السجون، ولم ترق الدماء أنهاراً، ولم تقتل على الشبهة ، كما حدث في الثورتين الفرنسية سنة ١٧٨٩م ، والروسية سنة ١٩١٧م»[١٢٠]. وهذا الحديث فيه كثير من المبالغة فلا تخلو أية ثورة أو نظام حكم جديد من الإيجابيات والسلبيات والضحايا خاصة من هؤلاء الذين يقفون موقف المعارضة من أي نظام جديد، ومن المعروف أن سجون مصر قد امتلئت بأعضاء جماعة الإخوان المسلمين والجماعات اليسارية.

أما مؤلفه (الخليج العربي) فقد صدر في عام ١٩٦٦م وفيه ذكر أن الدافع وراء افراده دراسة خاصة بالخليج هو عدم اهتمام المؤرخين بالتعرض لتاريخ تلك المنطقة في دراساتهم، كما أبدى انتقاده الشديد لافتقار المكتبة العربية للدراسات الخليجية وأن الموجود منها لا يتجاوز عددها أصابع اليدين، في حين تعددت المؤلفات الإنجليزية وتنوعت موضوعاتها مما يدل على شدة إدراك الأجانب لأهمية منطقة الخليج، وقد أكد تلك الحقيقة الدكتور صلاح العقاد عندما تناول هو الآخر تاريخ الخليج في مؤلفاته . وفيما يتعلق بموضوعات هذا الكتاب فقد بدأت بالإشارة إلى انتشار الإسلام في منطقة الخليج العربي والصراع الدولي حوله للسيطرة عليها، ثم انتقل إلى أوضاع عمان في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والانقسام بين الإمامة

والسلطنة وعلاقاتها بالدولة السعودية الثانية وأوضاع الخليج خلال الحرب العالمية الأولى، وقد أفرد فصلاً خاصًا بالبترول في الخليج. ثم أبدى إعجابه بما وصلت إليه الكويت من نهضة وتقدم بحيث صارت «درة تاج الخليج وواسطة عقد مفاخرة» ، وذكر أنه بالرغم من وجود معاهدة حماية بين بريطانيا والكويت منذ سنة ١٨٩٩م إلا أن شيوخها وأمراءها لم يسمحوا لبريطانيا بالتدخل في شئونهم الداخلية[١٢١] على الرغم من أن تدخل انجلترا في شئون الكويت الداخلية بلغ حداً كبيراً في عهد الشيخ مبارك لدرجة أن الشيخ جابر الذي جاء بعده حينما حاول الخروج عن سياسة سلفه وضعت بريطانيا إمارته في حالة حصار تقريبًا، خلال الحرب العالمية الأولى [١٢٢]، ثم تعرض لأزمة ضم الكويت للعراق في عهد عبد الكريم قاسم. وجاء الفصل الأخير تحت عنوان (دراسة عبرة وعظة لشيوخ الخليج) حثهم فيه على ضرورة الاقتداء بالكويت الحديثة وما وصلت إليه من نجاح وتقدم.

وهرة أخرى يعيد أمين سعيد كتابه تاريخ ثورة الحسين عام ١٩١٦م تحت عنوان (أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين) والذي صدر عام ١٩٦٦م حيث أضاف بعض الموضوعات التي أغفلها في الإصدار الأول، كما أشار إلى مقابلاته مع كثير من الشخصيات التي شاركت في تلك الثورة ، والكتاب يحتوي على فصول متعددة بدأت بأسباب تصاعد الحركة العربية وتأسيس الجمعيات القومية منذ عزل السلطان عبد الحميد الثاني، وانتهى بمأساة الحسين عندما تم نفيه إلى قبرص حيث لم يعد إلى بلاده إلا في أواخر أيامه .

منهجه في الكتابة التاريخية:

من خلال العرض السابق لمؤلفات أمين سعيد أمكننا الوقوف على منهجه في الكتابة التاريخية. فقد تميزت كتاباته بسهولة الألفاظ ووضوح المعنى بحيث أصبحت في متناول جمهور القراء المثقفين. فلا هي دراسات أكاديمية عميقة لا تفيد إلا المتخصصين ، ولا هي كتابات مبسطة تنزل إلى مستوى الكتابة العامة وإنما هي وسط يفيد طلاب الجامعات وكل من يرغب في تثقيف نفسه، ولم تقتصر كتاباته على تاريخ العرب الحديث بل عالجت موضوعات من التاريخ الإسلامي، كذلك اهتم بإصدار عدد من المؤلفات في تاريخ مصر محققًا بذلك النظرية القائلة بأن الكتابة في تاريخ العرب الحديث المعاصر تحتم الرجوع إلى تاريخ مصر الذي يعد مكملاً لها، وبذلك يكون قد حرص على أن تسهم مؤلفاته في نشر الوعي التاريخي بين أبناء العروبة.

حرص أمين سعيد على السعي وراء المعلومة التاريخية من مصادرها الأصلية سواء كانت وثائق أو مذكرات شخصية أو دوائر المعارف الأجنبية إلى جانب اتصاله بالشخصيات المؤثرة في توجيه الأحداث وغيرهم من شهود العيان، كما فرضت عليه أمانته العلمية أن يزور العديد من العواصم العربية، وقد ساعده هذا السعي والترحال في إخراج العديد من المؤلفات التي نوهنا إليها في الصفحات السابقة.

اتبع إسلوب السرد التاريخي المبسط في كتاباته ويؤكد ذلك ما أشار إليه في مقدمة كتابه (الثورة العربية الكبرى) من حرصه على مراعاة التسلسل التاريخي للحوادث مع إبداء رأيه في بعض المواقف معتمداً على مقدار ما حصل عليه من وثائق وعلى موسوعية تكوينه الثقافي، والمامه بأوضاع وأحوال العالم العربي. وقد سار في هذا السرد بأسلوب الرواية الصحفي.

جمع المؤلف بين رواية الأحداث ومعاصرته لها فعندما تناول الثورة العربية الكبرى سنة ١٩١٦م أرخ لها من واقع ما سمعه من شهود العيان وموجهي أحداثها، وما وصل إليه من مصادر ووثائق، وكنا من واقع مشاركته فيها إذ رافق الأمير فيصل أثناء رحلته إلى دمشق قبيل إعلان الثورة للوقوف على إتجاهات رواد الحركة العربية بخصوص اتصال الحسين بالإنجليز، وأيضاً بوصفه مستشاراً وخبيراً للشئون العربية بشعبه المخابرات في الجيش التركي في مايو عام ١٩١٨م. وعندما تناول ثورة ١٩٥٢ ذكر في مقدمة كتابه (الثورة من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦) بأنه ليس أكثر من راو وكاتب لأحداثها من واقع حبه وإخلاصه على حد قوله [٢٣].

ومن الصفات الأساسية للمؤرخ عدم التحيز أو الميل أو الكراهية لعنصر خاص أو لناحية تاريخية معينة[٢٤] ولكن أمين سعيد خرج عن هذا الإطار، ولما اتسمت كثير من كتاباته بالخروج عن الموضوعية والحيدة التاريخية، من ذلك مثلا حملته الشديدة على الحكم العثماني في البلاد العربية إلى حد وصفه بالاحتلال «المقيت المشئوم»[٢٥] في حين أشاد في مواضع أخرى بالمعاملة الودية التي لاقاها العرب تحت الحكم العثماني[٢٦] متفقاً في ذلك مع د. محمد أنيس الذي أكد على أن الحكم العثماني في الشرق الأدنى لم يكن ظالماً أو عنيفاً [٢٧]. كذلك ذكر د. عبد العزيز الشناوي بأن سكان الولايات العربية لم يطلقوا على الفرق العثمانية المرابطة في بلادهم إسم جيش الاحتلال، بل أطلقوا عليها الحاميات العثمانية [٢٨].

كما اتجه نحو استخدام ألفاظ خارجة عن نطاق المنهج الصحيح للكتابه التاريخية من ذلك مثلاً أنه نعت اسماعيل بالسفاهة وتوفيق بالحقارة وإن كان قد استخدمها في موضعها حينما وصف فاروق بالطاغية. كذلك حينما ألقى مسئولية حريق القاهرة والنكبات التي نزلت بمصر على الملك والإنجليز[٢٩]. خرج أيضاً عن الموضوعية والنظرة الحيادية إذ من المفروض على المؤرخ أو كل من يتصدى لكتابة التاريخ ألا يقطع برأى في قضية ما أو تحميل بعض الأشخاص مسئولية بعض الأحداث دون توافر الأدلة والبراهين الثابته التي تدعم وتؤكد وجهة نظره، خاصة أنه لم يثبت حتى الآن من المسئول عن حريق القاهرة وإن كانت أصابع الاتهام تشير إلى الملك والإنجليز.

كما بالغ في تعظيم الزعامة الفردية ممثلة في شخص الرئيس جمال عبد الناصر إلى حد إعطائه صفات العبقرية والتشبيه بالأنبياء والرسل، ومن أهم الدلائل على ذلك ما كتبه عن ثورة يوليو ١٩٥٢ حينما شبهها بالبعثة النبوية فذكر «أن هناك كثيراً من الشبه والتقارب بين هذه الثورة المباركة وبين تلك الثورة العظمى التي قادها الرسول الأعظم في الحجاز منذ نيفا وأربعة عشر قرنًا، فقد لاتعدو الصواب إذ قلنا إن العرب لم يعرفوا في غابر أيامهم وحاضرها أعظم من هاتين الثورتين ولا أوسع مدى وأبرك نتائج». واستمر في تلك المبالغة التي يصعب الإقرار بها أو قبولها إلى أن استعرض الظروف التي أدت إلى قيام الثورة الأولى (على حد قوله) وأحوال العرب قبلها ونتائجها من حيث قيام الرسول (عليه الصلاة والسلام) بتأسيس أول دولة عربية مستقلة في الحجاز بعد هجرته واستقراره وما وصل إليه العرب من فتوحات، وختم حديثه بقوله: «لقد سجلنا في هذا المجلد أخبار ثورتنا الجديدة المباركة، وهي تحتذي حذو الثورة الأولى وتهتدي بهديها وكل الدلائل تبشر بأنها ستبلغ ما بلغته وينال منها العرب ما يأملون ويرجون» [٣٠]. وهذا يجعلنا نضع هذا المؤرخ ضمن أصحاب الاتجاه الفردي في كتابه التاريخ وهم الذين يذهبون إلى أن عظماء الرجال هم الذين يحركون التاريخ وينهضون بأممهم. ومع التسليم بدور الفرد في صنع التاريخ إلا أن دور هذا الفرد أو الزعيم يجئ نتيجة لتوافر ظروف داخلية وخارجية تهيئ المناخ المناسب لظهوره [٣١]. ومن الصعب وصف البعثة النبوية بالثورة وتشبيه عبد الناصر بالرسول، فلا يغفل على أحد أن الرسول (عليه الصلاة والسلام) كلف بتبليغ رسالة سماوية لهداية العالم أجمع ولبني المجتمع شبه الجزيرة العربية فقط، كما أن اطلاق كلمة مستقلة على الدولة العربية والإسلامية التي أسسها الرسول (عليه

الصلاة والسلام) لاتنطبق على واقع الحجاز وقتئذ، ولذلك لم يتوخ أمين سعيد الدقة فى هذا الربط والتشبيه .

وقد غلب على كتاباته المنهج الصحفى من حيث التركيز على النواحى السياسية دون الاجتماعية والاقتصادية وكذلك استخدام الأساليب الأدبية والإنشائية التى يستخدمها الصحفى عادة لاجتذاب القراء والتى لاتتمشى مع الأسلوب العلمى فى الكتابة التاريخية والأمثلة على ذلك متعددة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الوصف الذى أعطاه لثورة يوليو ١٩٥٢ بأنها «أعظم ثورات العرب، على الاطلاق ، قادها الزعيم الملهم الحكيم، بطل العرب الأكبر السيد الرئيس جمال عبد الناصر وأنها جاءت بيضاء من غير سوء وهيأ الله لها من أمرها رشدا .. وهزمت الإنجليز والفرنسيين واليهود حينما اعتدوا عليها سنة ١٩٥٦ وأخرجتهم ملمومين مدحورين »[٣٢] ومن المعروف أن انسحاب الإنجليز والفرنسيين واليهود كان بضغط أمريكى وليس كما قال بهزيمة ودحر.

ونظراً لكونه من مجموعة الهواة فى كتابة التاريخ لذا اتسم أسلوبه بعدم الالتزام بالمنهج الصحيح للبحث التاريخى من حيث خلو كتبه من الهوامش التى ترشد القارئ إلى مصدر المعلومة التاريخية رغم اعتماده على مصادر تعد أولية فى أى بحث تاريخى وإن كان كثير من الأكاديميين لايبالغون فى استخدام الهوامش ، حتى نصوص المعاهدات والمذكرات والخطب الواردة فى مؤلفاته لم يشر إلى مصدرها ويبدو أنه اعتبر ذكر المصادر التى اعتمد عليها فى مقدمة أو مؤخرة مؤلفاته كافية لإرشاد القارئ إلى مصدر المعلومة التاريخية. وفى حالة اقتباسه بعض ما جاء فى مؤلفات أو مذكرات أحد المعاصرين أو شهود العيان يكتفى فقط بالإشارة إلى المصدر فى المتن دون إثباته فى الهامش طبقاً للمنهج الصحيح للكتابة التاريخية العلمية. وللإنصاف تمت مراجعة كتابات بعض معاصريه سواء كانوا أكاديميين أو هواه لوحظ أنهم اتبعوا المنهج نفسه فى كتاباتهم ومن هؤلاء د. محمد أنيس فى مؤلفه (الدولة العثمانية والشرق العربى) . وأنيس صايغ ، ومحمد عزة دروزه ، وأبو خلدون ساطع الحصرى الذى كان إذا حاول توضيح معلومة تاريخية للقارئ يرجعه إلى أحد مؤلفاته.

كما غلب على كتاباته التكرار والاستطراد وهذا واضح أمام كل من يحاول الإطلاع على مؤلفاته من ذلك مثلاً تناوله للثورة العربية الكبرى وغيرها من الثورات العربية فى أكثر من مؤلف . كذلك لم يلتزم بتسجيل الحوادث التاريخية بتقويم موحد فأحياناً يستخدم التقويم

الهجرى وفى الصفحة نفسها يسجل أحداثاً أخرى بالتقويم الميلادى ، وفى بعض الأحيان كان يستعمل التقويم الهجرى وما يقابله بالميلاد ، كما فى كتابه (اليمن) ومن المفروض التزام المؤرخ بتقويم ثابت طوال البحث.

ولكن لابد لنا أن نعترف بالجهد الكبير الذى قام به أمين سعيد إذ تعد مؤلفاته مرجعاً مهماً لكل من يرغب فى التعرف على تاريخ العرب الحديث والمعاصر، كما أنها أسهمت بلا شك فى الإلمام بالمعرفة التاريخية.

الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ فى مؤلفات أمين سعيد:

من خلال قراءتنا لمؤلفات أمين سعيد وقع اختيارنا على موضوع جدير بالاهتمام والدراسة ألا وهو الثورة العربية عام ١٩١٦ وسوف نستعرض فيه عدة نقاط مهمة يتمثل أولها فى تطور فكرة الدولة العربية.

يذكر المؤلف أن الدولة السعودية تعد إحدى مراحلها باعتبارها أول دولة قومية عربية تقام فى جزيرة العرب بعد سقوط العباسيين[٣٣] ونظراً لتغلب النزعات الدينية والإقليمية على المجتمعات الشرقية وقتئذاك لذا كان من الصعب الإقرار بالدوافع القومية للدولة السعودية، ويتفق معنا فى هذا الرأى الدكتور عبد الفتاح أبو عليه فى معرض حديثه عن تطور مفهوم السلطة والدولة فى إقليم شبه جزيرة العرب حينما ذكر أن الأنظمة المبنية على أساس العرف والتقاليد المتوارثة ظلت أقرب إلى الحكم القبلى، وكانت عقلية السكان متوافقة مع هذا النظام[٣٤].

كذلك اعتبر المؤلف فتوحات محمد على فى الشام وجزيرة العرب إحدى مراحل الدولة العربية الموحدة والتى امتدت لتشمل كل الأقطار العربية التى دخلت تحت السيطرة العثمانية فيما عدا المغرب الأقصى باعتبارها المنطقة الوحيدة التى ظلت بعيدة عن سيطرة الأتراك. كما هو معروف ، مؤكداً على أهمية الدور الذى قام به أهالى الشام فى مساعدة محمد على وابنه إبراهيم لإنشاء إمبراطورية عربية.

وقد اختلف جورج أنطونيوس مع المؤلف حينما رأى أن فجر حركة العرب القومية إنبثقت من بلاد الشام عندما تأسست جمعية أدبية فى بيروت عام ١٨٤٧ تحت رعاية الأمريكيين، وأن استقرار سلطة الوهابيين فى جزيرة العرب وحروب محمد على فى الشام ما هى « إلا مساعى فردية وحركات متفرقة ناشئة عن دوافع خاصة، ولم تكن خطوات منتظمة فى سير القومية العربية المتوثبة إلى الأمام». وأضاف أن تجربة محمد على هى بداية متعثرة غير

سليمة للبقظة العربية ومصيرها الإخفاق حتى لو نجح هذا الوالي في تثبيت ملكه في سوريا والجزيرة العربية ثم أشار إلى أن أسباب فشل هذه المحاولة الجريئة ملخص في مقاومة الإنجليز للمشروع خوفًا من سقوط الدولة العثمانية ووقوع طريق الهند تحت سيطرة دولة فتية قوية، فقدان الوعي القومي لدى العرب[٣٥].

ورغم الاختلاف بين هذين المؤلفين إلا أنهما اتفقا في أن فكرة الدولة العربية قد اختفت على أثر الهزيمة التي منى بها محمد علي وابنه ولم تعد إلى الظهور مرة أخرى إلا خلال الحرب العالمية الأولى على يد الشريف حسين ، حيث تضافرت لدعم فكرته نفس القوى التي كانت سببًا في فشل تجربة محمد علي، وهي معارضة انجلترا وتنبه الشعور القومي عند العرب[٣٦].

وثانيها ما يتعلق بثورة الشريف حسين عام ١٩١٦ والتي اعتبرت تجسيداً عمليًا لتطور حركة الفكر القومي عند العرب ، والتي حفلت باهتمامات المؤلف بحيث لم يقتصر على رصد أحداثها في أكثر من مؤلف من مؤلفاته، بل أفرد لها دراسة خاصة جاءت في إصدارين، الأول عام ١٩٣٤ من مؤلفه (الثورة العربية الكبرى) ويقع في إثنين وثلاثين وثلاثمائة صفحة من القطع المتوسط، والثاني عام ١٩٦٦م بعنوان (أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين) والذي يقع في إثنين وتسعين وثلاثمائة صفحة من القطع المتوسط وقد جاء في مقدمة هذين الإصدارين أن إغفال الكتاب العرب تناول أحداث تلك الثورة وتطوراتها في مؤلفاتهما، كان وراء اهتمامه، بها ثم استطرد قائلاً «فبعد مضي أكثر من ثماني عشرة سنة على إعلانها لم يؤلف فيها كتاب شامل جامع يسجل حوادثها حتى خشي أن تدفن أخبارها في صدور الذين اشتركوا فيها خاصة وأن أكثرهم لحق بربه فتضيع معالمها وأخبارها ويتعذر التأليف فيها، فلا يجد الكتاب العرب في المستقبل سوى رسائل مبعثرة ، وكتب ألفت باللغات الأجنبية وقد وضعها واضعوها لخدمة غاية معينة، أو للدفاع عن خطة استعمارية شأن بعض الكتاب الأوروبيين عندما يتناولون قضايا الشرق العربي في كتاباتهم»[٣٧].

ومن هذا المنطلق أكد أمين سعيد على أن كتابه يعد أول دراسة باللغة العربية عن أول ثورة أعلنها العرب على الأتراك في القرن العشرين. وللتأكد من ذلك راجعنا بعض الدراسات التي أخرجها معاصروه عن الثورة فوجدنا أن مؤلف جورج أنطونيوس (يقظة العرب) قد صدر في عام ١٩٤٦، كما جاء كتاب محمد عزة دروزه (حول الحركة العربية الحديثة) الجزء الأول عام ١٩٥٠، أما أبو خلدون ساطع الحصري فقد صدر مؤلفه (يوم ميسلون) عام ١٩٦٤، ولهذا يعد بالفعل كتاب أمين سعيد أول دراسة صدرت باللغة العربية، عن ثورة الشريف حسين.

وهما يؤكد ذلك استعانة بعض مؤرخي وكتاب جيله بمؤلفاته في تسجيل بعض الأحداث ، إذ أخذ عنه محمد عزة دروزه نصوص المراسلات التي جرت بين الحسين ومكماهون المعتمد البريطاني في مصر.

بذل أمين سعيد جهداً كبيراً للوصول إلى كل ما يفيده في رصد أحداث الثورة. فقد اعتمد على مصادر تعد أولية لكل من يتصدى لكتابة التاريخ مثل مقابلته لعدد كبير من الشخصيات التي شاركت في صنع الأحداث أثناء زياراته المتعددة لعدد من العواصم العربية ، سواء كانوا ملوكًا مثل علي وعبدالله وفيصل أبناء الشريف، أو مسئولين في الحكومة الهاشمية الذين أقاموا في مصر كعبد الله بن سراج رئيس هيئة الوكلاء في الحكومة الهاشمية وعبدالله باشا بن محمد وزير داخلية تلك الحكومة، والشيخ فؤاد الخطيب أمين خارجيتها ؛ ونسيب البكري أحد مؤسسي الحركة العربية الجديدة وغيرهم من أبناء القضية الذين لم يضنوا عليه بما يعرفونه من معلومات ويحفظونه من وثائق، هذا بالإضافة إلى المصادر العربية كالمذكرات الشخصية والدوريات وكذلك المؤلفات الأجنبية التركية والفرنسية. ويبدو أن تلك المصادر كانت كافية لرصد أحداث الثورة بدليل قوله: «إن الاعتماد على هذه المصادر يكفي لتكوين رأي كامل عنها، وإصدار حكم بعيد عن التحيز والهوى»، مؤكداً على أن رائده في عمله هو الموضوعية وخدمة التاريخ.

لماذا اتجه أمين سعيد نحو إخراج إصدار ثان عن الثورة ؟ هناك أسباب متعددة يتمثل أولها في عثوره على مصادر ووثائق لم يتمكن من الحصول عليها في الإصدار الأول، وبذلك أضاف إلى الإصدار الثاني إضافات جديدة في الشكل والمضمون . وثانيها الإقبال والتقدير الزائد الذي لقيه المؤلف الأول، وبذلك جاء الثاني على حد قوله استجابة لنداء الشعوب العربية التي كانت تلح في إعادة طبعه .

وبمراجعة فهرس هذين الإصدارين لوحظ أن الاختلاف ظهر منذ البداية، فبينما بدأت فصول الأول بالإشارة إلى مقدمات الثورة ومراحلها منذ سليم حتى عبد الحميد الثاني موضحًا سياسة الأخير تجاه العرب ، استهل فصول الثاني باستعراض الفوائد التي حققتها الثورة للعرب، محاولاً الرد على كل من انتقد الحسين بسبب ثورته على دولة الخلافة، ثم انتقل إلى ثورات العرب على الحكم التركي خلال ثلاثة قرون منذ القرن الثامن عشر، فعد منها دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، وثورة علي بك الكبير في مصر، وظاهر العمر في فلسطين،

واعتبر دخول محمد علي بلاد الشام ثورة والثورة المهدية في السودان، والعرابية في مصر، وأخيراً ثورة الحسين في الحجاز.

وقد اشترك الإصداران في تناولهما لعناصر الحركة العربية وتأسيس الجمعيات القومية العلنية والسرية سواء في استانبول أو القاهرة أو الشام، والتي اعتبر تطور نشاطها إرهاصاً بالثورة، متفقاً مع كل من تناول تلك الثورة في مؤلفاته كجورج انطونيوس، د. أحمد قدري وهو من شهود العيان مثل المؤلف، محمد عزة دروزه، وقدري قلعجي وغيرهم.

هناك أوجه اتفاق واختلاف بين المؤرخين حول بعض أحداث الثورة وتطوراتها، ويتمثل الاتفاق في الآتي:

تشجيع انجلترا لتصاعد ونمو الحركة العربية، والقيام بثورة ضد الأتراك باعتبارها عاملاً لإضعاف تركيا وبالتالي لألمانيا في الشرق الأوسط.

وأيضاً حول تبني انجلترا منذ البداية فكرة التحالف مع أمير مكة دون غيره من أمراء شبه الجزيرة، وبأن كتشنر كان من وراء هذا الاختيار رغم الانتقادات التي وجهت له، والتي كانت تفضل ابن سعود صاحب القوة والسلطان [٣٨].

إلا أنهم اختلفوا بشأن بداية الاتصال بالإنجليز، فبينما يؤكد أمين سعيد وأحمد قدري أن الحسين حتى إعلان الحرب اقتصرت تطلعاته نحو استقلال الحجاز فقط بحيث تكون وقفاً عليه وعلى أولاده، ولذا لم يفكر في الاتصال أو الاتفاق مع الإنجليز، وقد دعم الأول وجهة نظره بتصريح الأمير عبدالله حينما قال «لم يسبق لنا قبل الثورة أن دخلنا في الحياة الدولية أو عاملنا الأجانب أو اتصلنا بهم من قريب أو بعيد، ولقد جاءنا الإنجليز إلى الحجاز ولم نذهب إليهم»[٣٩] رغم اتفاق جورج انطونيوس مع أمين سعيد في مسألة السعي نحو استقلال الحجاز، إلا أنه اعتبر ذلك سبباً في اتجاه عبدالله نحو الاتصال بالإنجليز في أوائل فبراير سنة ١٩١٤م.

لذا وصف انطونيوس الأمير بالتسرع[٤٠] وفي الوقت نفسه أكد محمد عزة دروزه بأن تعسف الاتحاديين وسوء نواياهم نحو العرب والشريف كان سبباً لاندفاع الأمير عبدالله نحو الاتصال بالمعتمد البريطاني في مصر[٤١].

على أية حال يمكننا القول أن الخلاف الذي دب بين الحسين وتركيا بدأ منذ توليه منصب الشرافة، خاصة بعد الخطبة التي ألقاها بهذه المناسبة والتي أكد فيها على عدم اعترافه بسلطة الأتراك على الحجاز، والتزامه بالشريعة الإسلامية فقط[٤٢].

تباينت تعليقات المؤرخين بشأن تلك الخطبة فبينما رحب بها جورج انطونيوس وقال بأنه لولا وجود الحسين لصارت سلطة السلطان مطلقة في الحجاز[٤٣]، أبدى جيمس موريس استعداده حينما قال بأن الحسين عزم على إحياء الشرافة وفرض سلطانه على القبائل.. وسلك مسلكاً صحيحاً ولكن بارداً مع أسياده الجدد في تركيا خالقاً نوعاً من التوازن الدقيق بين الإذعان والعصيان»[٤٤] ومنذ ذلك الوقت بدأ الاتحاديون يخططون للتخلص من الشريف وأبنائه، وكانت أولى الخطوات هي تعيين وهيب باشا الألباني والياً على الحجاز، وامداده بفرقة عسكرية لإتمام مهمته ومعه تعليمات بتحويل الحجاز إلى ولاية عادية من ولايات الدولة.

أدت تلك الإجراءات إلى قيام أزمة عنيفة بين الوالي الجديد والشريف انتهت بعقد اجتماع بين الأمير عبدالله والصدر الأعظم في القاهرة حيث قدم الأخير عدة مطالب تضمنت إنشاء سكة حديد من المدينة إلى مكة- جدة- ينبع- بشرط أن ينال الشريف ثلث إيراد هذه السكة، وأن تبقى إمارة مكة له ولأولاده مدى الحياة مع وضع قوة كافية تحت تصرفه لتنفيذ هذا المشروع، وأخيراً تخصيص ربع مليون ليرة عثمانية تحت تصرف الشريف لإنفاقها على العربان، ولكن حال ظروف قيام الحرب العالمية الأولى دون إتمام هذا المشروع.

رأى رجال الاتحاد والترقي في الحرب العالمية الأولى وفي محالفة ألمانيا، فرصة سانحة للقضاء على زعماء الحركة القومية العربية إما بالقتل أو الأبعاد، بعد أن كشف جمال باشا قائد الجيش الرابع التركي عن مخطط سري في سوريا ولبنان للقيام بثورة ضد تركيا مما دفع الشريف حسين إلى إرسال ابنه فيصل إلى دمشق طالباً العفو عن المتهمين السياسيين، ومنح سوريا نظام لامركزي، وجعل إمارة مكة وراثية في أولاده، ويذكر أمين سعيد أن الحسين لم يكن موفقاً في إختيار الوقت المناسب لإرسال تلك المطالب التي لم ترده حكومة تركيا في رفضها لأنها جاءت مع انتصارات الألمان والأتراك الذين كانت جيوشهم تحارب في جميع الميادين[٤٥] واتفق معه في ذلك علي أحمد شكري وعبد المجيد محمود حينما ذكروا تلك المطالب «لايمكن لأي دولة ذات سيادة إلا تلبيتها بالطرق الدستورية وهذه متعذرة في زمن الحرب، فاصراره عليها إلا اعتنانا مقصوده بل مؤامرة قذرة»[٤٦].

هكذا بادر الحسين بالاتصال بأقطاب الحركة القومية في الآستانة ودمشق عن طريق إبنه فيصل حيث وجد إجماعاً على تزعم الشريف لثورة عربية تقام في سوريا لتحرير البلاد العربية

من السيطرة التركية والإتفاق مع إنجلترا باسم العرب ضمن شروط محددة تضمن للعرب حريتهم ووحدتهم، وعلى هذا الأساس وضمن هذه الشروط دارت المراسلات بين السير هنري مكماهون المعتمد البريطاني في مصر والشريف حسين في مارس سنة ١٩١٦م.

والسؤال الذي يجدر طرحه هنا هو : لماذا انتقلت الثورة من سوريا كما كان مقرراً لها إلى الحجاز؟ ولماذا أجمع السوريون على تزعم الشريف لها ؟ يرى المؤرخون أن الأوضاع الجديدة في سوريا حالت دون قيام الثورة فيها خاصة بعد نقل الفرق العسكرية العربية من الشام إلى جبهة غاليبولي بعد انسحاب الحلفاء منها وكان معظم أفراد تلك الفرق من العناصر التي اعتمدت عليها جمعية العهد في خطتها للقيام بالثورة ، بالإضافة إلى نفي وإعدام مئات من الرجال البارزين سواء من المدنيين أو العسكريين، وبذا رأى الوطنيون أن سوريا لم تعد قادره على إعلان الثورة وأنه من الأفضل نقلها إلى الحجاز الذي صار مركزاً لتجمع الأحرار العرب الوافدين من مختلف الأقطار، والالتفاف حول الحسين باعتباره بعيداً عن سيطرة تركيا ولمكانته التي يتمتع بها إلى جانب إشرافه على قلب شبه الجزيرة العربية وباستطاعته أن يشكل جيشاً من عشائر الحجاز يشل حركة القوات التركية المرابطة في المنطق ويقطع بذلك الاتصال بين الحاميات التركية في عسير واليمن جنوباً وبلاد الشام في الشمال [٤٧].

قبل انتهاء المراسلات بين إنجلترا والشريف بدأ الأتراك في حشد قوات كبيرة في المدينة لإرسالها إلى اليمن ، غير أن الحسين اعتقد أن تلك التحركات موجهة ضده ولذا عجل بإعلان الثورة قبل الموعد المحدد لها ، وقبل إتمام استعداداته العسكرية. وجدير بالذكر أن أمير مكة لم يتجه نحو تكوين جيش إلا بعد أن قضى على المقاومة التركية في مكة وجده. وكانت نواته الأولى مجموعة من الضباط والجنود العرب العاملين في الجيش التركي في جبهتي فلسطين والعراق ومنهم نوري السعيد وجميل الراوي من العراق، ووزوف عبد الهادي من فلسطين، وعزيز المصري من مصر، بالإضافة إلى بدو الحجاز الذين شكلوا العنصر الأساسي لهذا الجيش [٤٨].

أبرز أمين سعيد دون غيره أوجه الخلاف الذي نشأ بين الإنجليز والحسين بعد إعلان الثورة، والذي ظهر من خلاله بدايات التراجع البريطاني عن تأييده والمتمثلة في اختلاف العقليتين، فالحسين ذو عقلية بدوية محافظة لاتعرف المجاملة ولاتؤمن بأنصاف الحلول، صلب الرأي يتحفظ نحو الأجانب . أما الإنجليز فقد ألفوا البيع والشراء في أسواق السياسة ولاتعنيهم سوى المصلحة المادية.

كذلك الخلاف حول منشور الثورة الذي وافق الإنجليز على نشره بعد حذف نصفه وتعديل معظم جمله تجنباً لإثارة مسلمي الهند بسبب ما جاء فيه من ضرب الأتراك للكعبة المقدسة وإحراق استارها.

ثم جاءت مشكلة الدفاع عن رابغ التي امتد إليها نشاط الأتراك العسكري خلال الأسابيع الأولى من الثورة ، ونظراً لعدم كفاية القوة العربية، ألح الحسين في طلب المساعدة من حليفته بريطانيا إلا أنها لم تبادر بإجابة طلبه وقد أدى انسحاب الأتراك من رابغ إلى انتهاء المشكلة دون تدخل من الحلفاء.

زادت مشكلة القنفذة من عوامل الخلاف ، وتتلخص في استغلال محمد علي الإدريسي فرصة انشغال الحسين بمجابهة الأتراك في الحجاز وقام باحتلالها في ١٠ يوليو سنة ١٩١٦ ولم يجلو عنها إلا بعد تدخل الإنجليز.

وقبل الإنتهاء من مشكلة القنفذة ظهرت مشكلة أخرى أدق وأصعب وهي مشكلة اللقب الذي يجب أن يكون للحسين عقب إعلان الثورة، فبعد مرور ثلاثة أشهر على إعلان الثورة وخروج الأتراك من الحجاز، بادر الحسين بإنشاء حكومة جديدة في أكتوبر ١٩١٦ وبهذه المناسبة بايعه قضاة الحجاز وأشرافها ورجال الدين بها ملكاً على العرب. ولكن لم يعترف به الحلفاء إلا ملكاً على الحجاز فقط.

من خلال عرض أمين سعيد لتلك المشكلة نجده قد أيد اللقب الثاني للحسين بدليل قوله (كان الحلفاء يخشون من اللقب الملكي لأنه قد يؤدي إلى وقوع الانشقاق والانقسام بين أمراء العرب، وقد يحول في المستقبل دون تسوية شئون الجزيرة تسوية تبعث على الارتياح) [٤٩] واتفق معه جورج انطونيوس حينما وصف هذا الاجراء بأنه «عملاً خالياً من بعد النظر وجاء في غير أوانه .. وحين شاء الشريف أن يتسمى (ملك البلاد العربية) كان يفتت أو- يبدو أنه يفتت- على المركز الذي اكتسبه كل من الحكام العرب الآخرين، وبحسب هذا الاعتراض كان الحلفاء ذوي حكمة وكياسة لأنهم امسكوا عن الاعتراف به» [٥٠].

بينما توخى المؤلف الحذر في موقفه من مشكلة اللقب نجده رفض صراحة فكرة إعلان الحسين خليفة على المسلمين في تلك المرحلة المبكرة من الثورة والحرب العالمية ما تزال تدور رحاها ، حيث رأى من الأفضل تأجيل إثارة هذا الموضوع الذي سوف يضر بقضية العرب ويثير عليهم سخط واستنكار العالم الإسلامي [٥١].

وقد أثير موضوع الخلافة مرة أخرى فى أوائل عام ١٩٢٣ وكانت العلاقات بين الشريف وبريطانيا تمر بأخطر مراحلها ، عندما أصدر المجلس الوطنى فى تركيا الحديثة قراره بإعلان الجمهورية فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٢٢م والاحتفاظ بالخلافة مؤقتاً واختير لها عبد الحميد ابن السلطان عبد العزيز مع تجريده من جميع السلطات التى كانت له ، وقد أثار هذا الإعلان استنكار المسلمين فى كافة أرجاء العالم، ووجد الأمير عبدالله الفرصة سانحة لمبايعة الحسين بالخلافة ثم بايعه بعد ذلك كل من الحاج أمين الحسينى رئيس المجلس الإسلامى الأعلى وقضاة المحاكم الشرعية باسم فلسطين وبعض علماء سوريا والعراق.

وقد تضاربت الآراء بشأن موقف الدول العربية تجاه تلك المبايعة، إذ ذكر أمين سعيد وجورج انطونيوس أنها لم تلق تأييداً سوى من الهيئات الإسلامية فى الدول المذكورة ، أشار قدرى قلعجى إلى مجئ وفد من مصر لمبايعة الحسين بالخلافة، بل وأورد نص برقيه التهنئة التى أرسلها أحمد زكى شيخ العروبة من مصر، والذى هنأ فيها العرب والشرق برجوع قريش فى شخص الحسين لإعادة الإسلام سيرته الأولى[٥٢].

وتعد هذه البرقية شخصية لاتعبر عن اتجاهات الرأى العام المصرى، خاصة أن الملك فؤاد كان يطمع فى هذا المنصب الدينى المهم.

بينما لمسنا من خلال تناول أمين سعيد لتلك المبايعة عدم رضاه لها ، انتقد جورج انطونيوس صراحة قبول الحسين للخلافة عندما ذكر أن «أسرا اخطائه أنه قبل فى آذار (مارس) ١٩٢٤ تزا بعد إلغاء الخلافة فى تركيا أن تنادى به الهيئات الإسلامية فى الحجاز وفلسطين وسوريا والعراق خليفة على المسلمين وهو عامل عاجل مرتجل[٥٣] كذلك كتب جيمس موريس يقول «أدى إعلان الخلافة إلى ضياع من بقى من أصدقائه. وربما كان الحسين قد أخطأ التقدير ، فاعتقد أن هذه الخطوة ستكسبه حلفاء جدد ضد خصومه فى الجزيرة العربية وفى مقدمتهم ابن سعود ، ولكنها أتت بعكس ما تمناه ..»[٥٤].

بعد أن كشف الأتراك النقاب للحسين عن حقيقة إتفاقية سايكس بيكو وتصريح بلفور والتى تناقضت مع الوعود البريطانية باستقلال العرب، عرض جمال باشا فى الأسابيع الأخيرة من عهده فى سوريا فكرة عقد صلح بين الأتراك والعرب على أساس تحقيق أمانى العرب القومية بإعطائهم الحكم الذاتى، ورجاء رد الحسين برفض هذه العروض مخيباً لآمال الأتراك الذين توقعوا نجاحها[٥٥].

وجدير بالذكر أن الحسين لم يتوقف عن مطالبة بريطانيا بالوفاء بالتزاماتها معه حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ووصل الأمر به إلى حد التهديد بالتنازل أكثر من مرة غير أن انجلترا لم تعبأ بتلك التهديدات واعتقدت أنها برضخ فيصل على عرش العراق وعبد الله على حكم إمارة شرقى الأردن عوضت الحسين والعرب عما أصابهم وأرضت بذلك البيت الهاشمى، بيد أن الشريف لم يقتنع بتلك الترضيات خاصة وأنه لم يحصل على تسوية مرضية بخصوص فلسطين حيث كان يردد دائماً «أنه لا سلام فى فلسطين للبريطانيين واليهود والعرب ما دام لدى العرب ما يدفعهم إلى الظن بأن غاية الصهيونية القصوى إنشاء دولة يهودية فى وسطهم وعلى حساب أمانيهم القومية» .

ومما يلفت النظر أن بريطانيا دخلت مع الحسين فى مفاوضات انتهت بتقديم مشروع معاهدة فى إبريل سنة ١٩٢٣ لم تغير من أوضاع فلسطين، وفى أثناء دراسة الحسين للمشروع هجم الإخوان النجديون على حدود الحجاز وتمكنوا من دخول الطائف ثم مكة ، حينئذ اضطر الحسين إلى التنازل عن العرض لابنه على، وقد انتهزت انجلترا تلك الظروف فأوقفت مفاوضاتها ، وربما تخلصت من الحسين ومن مشروع المعاهدة الجديدة.

بعد أن تمت البيعة لعلى حاول التفاهم مع الإنجليز لكنهم رفضوا الاعتراف بالحكم الجديد وأعلنوا حيادهم فى الحرب الدائرة بين الحجاز ونجد، عندئذ آثر على الاستسلام ورحل إلى بغداد بجوار أخيه فيصل، وفى الثامن من يناير سنة ١٩٢٦ نودى بابن سعود ملكاً على الحجاز.

أما الحسين فبعد تنازله عن العرش لجأ إلى العقبة كى يجمع الأنصار للدفاع عن جدة ، مما أثار مخاوف ابن سعود ، فطلب من بريطانيا إبعاده وبهذه المناسبة أعلنت بريطانيا ضم العقبة ومعان التابعتين للحجاز إلى الأردن بعد أن أجبرت الملك على التنازل عنهما، ثم قررت التخلص نهائياً من الحسين بنفيه إلى قبرص فى منتصف عام ١٩٢٥م.

اختلف المؤرخون حول مسألة نفى الحسين، فبينما أشار أمين سعيد وقدرى قلعجى إلى تدخل الأمير عبدالله لدى السلطات البريطانية بنقل والده إلى بغداد حتى يظل بجوار إبنه فيصل، ذكر جورج انطونيوس أن الشريف هو الذى اختار الذهاب إلى قبرص.

وعلى أية حال فقد ظل الحسين فى قبرص ما يقرب من ست سنوات، ولم يعد إلى البلاد إلا فى أواخر مايو عام ١٩٣١م، بعد أن اشتد به المرض حيث لقى ربه فى عمان يوم ٤ يونيو من

العام نفسه ودفن تحت قبة الصخرة ، وهذا ما دفع أمين سعيد إلى إضافة كلمة مأساة لعنوان الإصدار الثاني لأنه كما قال : (تحولت الثورة في أيامها الأخيرة إلى مأساة كبرى ما جال لأحد في ما ستنتهي إليه)[٥٦].

ألقى البعض على الثورة العربية مسئولية انهيار الدولة العثمانية وضياع الخلافة مرددين بأنه لو ظل العرب إلى جانب الأتراك حتى نهاية الحرب لتم النصر ونجت البلاد من الاحتلال الأجنبي، ومؤكدين على أن الشريف وأولاده وأتباعه من الثوار السوريين والعرب مسئولون عما أصاب الإسلام من المصائب. وبتسا طرن دهل حقق الشريف لبلاده أمانيها بعد ثورته المشئومة ولقد تخلص من النير التركي وتمتع بنوع من الاستقلال لم يزد في شيء عما كانت تتمتع به بلاده من قبل»[٥٧]. غير أن أمين سعيد ذكر إن هذا الأمر مناقض للواقع لأن النتيجة المقررة لنهاية الحرب هي انتصار الحلفاء لا الألمان الذين تعد مواردهم ضئيلة ومحدودة بالنسبة للحلفاء خصوصاً بعد انضمام الولايات المتحدة عام ١٩١٧م[٥٨].

ومهما قيل من أوجه الاتفاق والاختلاف حول الثورة العربية ونتائجها فإن هناك إجماع من المؤرخين والكتاب سواء كانوا أكاديميين أو هواة على دورها المهم في دفع فكرة القومية العربية خطوات نحو الأمام، فقد نظر إليها الدكتور صلاح العقاد على أنها (دور إيجابي قام به العرب في الحرب العالمية الأولى، ومهما كانت نتائج هذه الحركة مزعفة فمما لاشك فيه أنه قد ترتب عليها كيانات عربية حديثة في الشام والعراق تخضع للاستعمار البريطاني والفرنسي ولكنها على كل حال كيانات تستند إلى أسس قومية حديثة وتمثل انتقال العرب من مرحلة التردد بين فكرة الإسلام والعثمانية والعروبة إلى مرحلة المفهوم القومي العصري)[٥٩].

كما رأى أحمد قدري «أن العرب لو لم يقوموا بثورتهم المباركة لما أمكن الحيلولة دون انتصار الحلفاء وتسليم الأتراك وحلفائهم بدون قيد أو شرط . ولكانت بلادهم مسرحًا لاستعمار أشد هولاً مما عانوه بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى[٦٠].

أما أمين سعيد فكتب يقول: (إنه رغم الهفوات التي ارتكبت ورغم ما وقع خرجت الحركة العربية من الحرب العظمى سليمة، وصارت بسببها قوة مادية محسوسة بعد أن كانت خيالاً أو فكرة تجول في بعض الرؤوس وضمنت للعرب إنشاء دولة مستقلة في الحجاز والاستيلاء على الجزء الداخلي من بلاد الشام في خط مستقيم من المدينة إلى حلب لايفصل بينه فاصل وذلك نتيجة ملموسة لايستهان بها ...»[٦١].

كذلك أشار محمد عزة دروزه إلى أهمية الثورة بالنسبة لقضية العرب فقد أعطتها مكانًا بارزاً وصانها بين قضايا العالم بعد انبعاثها بعشر سنين فقط، ولولاها لفقد العرب وسيلة قوية في نضالهم القومي، ولزاد الاتحاديون في البطش والتنكيل بالعرب والقضاء على اليقظة القومية»[٦٢].

أكد أيضًا قدري تلحمي على الأهمية القومية للثورة حينما قال «إن دراسة الثورة ضرورة قومية لكل عربي يتطلع إلى أفق العروبة الواسع لأن هذه الثورة وما رافقها ومهد لها من انتفاضات وبطولات وتضحيات هي الينبوع الأول للقومية العربية والوحدة العربية وهي الناظر والموجه لجميع حركات التحرير في البلاد العربية خلال النصف الأول من القرن العشرين».

لم يقتصر الإشادة بأهمية الثورة العربية في دفع تطور حركة القومية عند العرب على الكتاب العرب، بل تناولها أيضًا القادة الأجانب ، إذ أشار لورانس في كتاباته على «أن مشاركة العراقيين والسوريين فيها ما يقدم كل المبررات للحقوق العامة للعرب في تجسيد الوجود القومي»[٦٣].

وعلى الوجه الآخر وجدت بعض الأقلام التي انتقدت الثورة انتقاداً شديداً إذ ذكر عبدالمجيد محمود في تحقيقه لمذكرات جمال باشا أن الشريف حسين أحد الزعماء العاصين وثورته ثورة مشئومة ، وبدلا من أن يستفيد من تصريح تركيا الأخير بالاعتراف باستقلال العرب إستقلالا تامًا، يزج بنفسه إلى أحضان الانجليز ليستعيض عن الاستقلال بلقب الملك الأكبر للحلف العربي المزمع أنشاؤه تحت الإشراف البريطاني ! أفلهذا حارب تركيا وشق عصا الإسلام ؟ ألا ليغتبط بجلالته بهذه النتيجة؟ »[٦٤].

وصف أيضا جيمس موريس الثورة العربية بأنها في جوهرها مؤامرة إنجليزية هاشمية، «على الرغم من أن حركات قومية عربية، قد انبثقت فيما بعد في السنوات التالية ، ثم أزهرت واينعت إلا أن ما حدث في عام ١٩١٦ لم يتعد في شموله إلا أقلية من العرب، الذين اندفعوا وراء الثورة مدفوعين بالحماس القومي»[٦٥].

وعلى ضوء ما تقدم يمكن القول بأن الثورة العربية وإن لم تنجح في تحقيق أهدافها ، فإنه وللمرة الأولى تعترف بريطانيا بدولة عربية موحدة في تلك الفترة المبكرة من حركة الفكر القومي العربي، وبرغم اختلاف وجهات النظر في بعض القضايا المتعلقة بالثورة بين الكتاب

الشوام وبخاصة الذين عاصروها إلا أنهم اتفقوا جميعاً على تزعم الحسين لقيادتها ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى بعض أهالي الشام، كما هو معروف للحكم التركي الذي يرجع تاريخه إلى عصر التنظيمات والسياسة المتعصبة التي اتبعها العثمانيون تجاههم.

والخلاصة أنه من خلال عرضنا لمؤلفات أمين سعيد وموقفه من بعض الزعامات الفردية ممثلة في جمال عبد الناصر والشريف حسين وعبد العزيز آل سعود، لوحظ أنه لم يسلك موقفًا موحداً تجاه تمجيد الشخصية التاريخية أو الزعامة الفردية، فإذا كان قد اتبع هذا الأسلوب مع عبد الناصر، نجده يتخذ موقفًا معتدلاً من ابن سعود، أما الحسين فإذا كان في كثير من الأحيان أيده في بعض المواقف إلا أنه انتقده في مواضع أخرى مثل موقفه من مؤتمر الكويت ١٩٢٣ الذي عقد لتصفية النزاع بين الحسين وابن سعود.

كما لايمكن إغفال تناول المؤلف في كتاباته لبعض القضايا المهمة وتنبيه بالحلول المناسبة لمواجهتها مثل حث العرب على ضرورة إيجاد منظمة عربية لحسن استغلال البترول العربي قبل التنبيه إلى إنشاء منظمة الأوابك بفترة زمنية طويلة، كذلك الاشارة إلى أهمية قارة أفريقيا باعتبارها قارة المستقبل للعرب، بالإضافة إلى ذلك، يعد أمين سعيد من أوائل الذين تصدوا للكتابة في تاريخ الخليج نظرا لافتقار المكتبة التاريخية العربية لمثل هذه الدراسات.

ورغم اتجاه المؤلف في بعض مؤلفاته إلى معالجة موضوعات بطريقة المسح التاريخي الشامل إلا أن هذه الطريقة أفادت الباحث المتخصص حيث فتحت أمامه رؤوس موضوعات يمكن له أن يتعمق فيها مستقبلاً، ومن جهة أخرى أصبحت تلك الكتابات في متناول المثقف غير المتخصص لأنه يبعده عن سرد التفاصيل المملة ويوضح أمامه الخطوط العريضة لتاريخ المنطقة ويساعده على فهمها.

هوامش البحث

١- د. عبد المنعم ابراهيم الجميعي : اتجاهات الكتابة التاريخية في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، الطبعة الأولى- عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ١٩٩٤، ص٣٤.

٢- خير الدين الزركلي : الأعلام- المجلد الثاني- الطبعة التاسعة- دار العلم للملايين- بيروت، لبنان ١٩٩٠م، ص٢٠.

٣- الأهرام: ١١ أبريل ١٩٢٢م ص٣.

٤- أمين سعيد: أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين- دار الكتاب العربي- بيروت- ١٩٦٦م، ص٢٥٩.

٥- الأهرام، ١١ أبريل سنة ١٩٢٢م ص٣، الشرق الأدنى: ٢ مايو سنة ١٩٢٨، ص٤.

٦- خير الدين الزركلي: المرجع السابق، ص٢١، المقطم من يناير ١٩٢٥، ص٣.

٧- الشرق الأدنى، أكتوبر سنة ١٩٢٧م، ص٢.

٨- خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ص٢١.

٩- أمين سعيد، أيام بغداد، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٩٣٥، ص١، المقطم ٢٦، ٢٩، ٣١ أكتوبر ١٩٢٣، ص٢، ٣-٥، ٨-١، ٨.

١٠- أمين سعيد : اليمن، الطبعة الأولى، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥٩، ص٤٨.

١١- خير الدين الزركلي : المرجع السابق، ص٢١.

١٢- أمين سعيد : أيام بغداد، ص٢٠١.

١٣- أمين سعيد: الدولة العربية المتحدة، ج١ (تاريخ الاستعمار الإنجليزي في بلاد العرب) مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ١٩٣٦، ص٣، ٢٠١.

١٤- أمين سعيد : الدولة العربية المتحدة، ج٢ (تاريخ الاستعمار الفرنسي والإيطالي في بلاد العرب) مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ١٩٣٨، ص١١٥.

١٥- أمين سعيد: الدول العربية المتحدة، ج٣: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، فبراير ١٩٣٨- ص٦٣٨- ٦٤٢.

١٦- أمين سعيد: الثورة من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦- دار إحياء الكتب العربية- القاهرة ١٩٥٩، ص٨-٣٤٤.

١٧- أمين سعيد: اليمن، ص٧، ٨، ٩.

١٨- أمين سعيد : الوطن العربي، دار الهلال بمصر، ١٩٦٠، ص٤، ٥، ١٥، ٩٦، ١٩٦، ١٩٧.

١٩- صلاح العقاد: المشرق العربي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ص١٨٥ .

* المنظمة العربية لتصدير النفط OAPEC وهي غير منظمة الأقطار المصدرة للنفط OPEC التي تشترك فيها بعض الدول العربية إلى جانب دول أجنبية أخرى.

٢٠- أمين سعيد : ثورات العرب في القرن العشرين، دار الهلال بمصر ١٩٦١، ص٧، ١١، ٣٠ .

٢١- أمين سعيد: الخليج العربي : دار الكاتب العربي، بيروت سنة ١٩٦٦، ص٥، ٦، ١٨٥، ٢٠٩ .

٢٢- صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٣، ص٢٢٤ .

٢٣- أمين سعيد : الثورة من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٩، ص١ .

٢٤- حسن عثمان: منهج البحث التاريخي- الطبعة الرابعة- دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ص١٩ .

٢٥- أمين سعيد: اليمن ص٩ .

٢٦- أمين سعيد : ثورات العرب في القرن العشرين، ص٨، المؤلف نفسه: الثورة العربية الكبرى، ج١، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ١٩٣٤، ص٢٠١ .

٢٧- حمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤) مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت ص١٤٠ .

٢٨- عبد العزيز محمد الشناوي: الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٠، ص٩٤٤ .

٢٩- أمين سعيد: الثورة من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ص١، المؤلف نفسه : تاريخ مصر السياسي من الحملة الفرنسية ١٧٩٨ إلى إنهيار الملكية ١٩٥٢، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٩م، ص٩٧، ٩٨، ٣٨٢ .

٣٠- أمين سعيد: الثورة من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦، ص١٨-١٢٠ .

٣١- أحمد يوسف مهران: التاريخ والتأريخ - دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٢، ص٣٣ .

٣٢- أمين سعيد : ثورات العرب في القرن العشرين، ص٣٠-٣١ .

٣٣- أمين سعيد: الدولة العربية المتحدة، ج١ ص٣، ١٩٥ .

٣٤- الجمعية المصرية للدراسات التاريخية: عبد الفتاح حسين أبو عليه : دراسات تاريخية لتطور مفهوم الدولة في جزيرة العرب في العصر الحديث - المجلد الحادي والعشرون سنة ١٩٧٤، ص١٣٩ .

٣٥- أمين سعيد: الدولة العربية المتحدة، ج١ ، ص٨٨، ١٩٥ ، جورج أنطونيوس: يقظة العرب، ص١، ٢، ١٢، ٢٢، ٢٤ .

٣٦- جورج أنطونيوس : يقظة العرب، ص١، ٢، ٢٢، ٢٤ أمين سعيد: الدولة العربية المتحدة، ج١، ص٢٠١ .

٣٧- أمين سعيد : أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين- دار الكاتب العربي، بيروت، ١٩٦٦ ص٦، ٧-١٦ .

٣٨- أمين سعيد: أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، ص٣٧-٣٩-٥١، جورج انطونيوس : المرجع السابق، ص١٥٤-١٥٥ .

٣٩- أمين سعيد : أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، ص٦-٧-١٦ ، أحمد قدري: مذكراتي عن الثورة العربية ، مطابع ابن زيدان، دمشق، ١٩٥٦، ص٤٥ .

٤٠- جورج انطونيوس: المرجع السابق، ص١٣٩ .

٤١- محمد عزة دروزة: حول الحركة العربية الحديثة، ج١، المطبعة العصرية ، صيدا، ١٩٥٠، ص٤٩ .

٤٢- أمين سعيد: أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، ص٤٥ .

٤٣- جورج أنطونيوس: المرجع السابق، ص٢٧٩ . ٢٨٢ .

٤٤- جيمس موريس: الملوك الهاشميون- منشورات المكتب العالمي للتأليف والترجمة- بيروت، ١٩٦٤- ص٢٥ .

٤٥- أمين سعيد: أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين- ص٤٣: ٤٨-٥٢-٥٣ ؛ جورج انطونيوس: المرجع السابق: ص١٣٧-١٣٩-١٤٤ ؛ قدري قلعجي: الثورة العربية الكبرى ١٩١٦-١٩٢٥، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر- بيروت، لبنان، ١٩٩٣، ص١٧٩ - ١٨٣-١٨٩ .

٤٦- مذكرات جمال باشا: تعريب : علي أحمد شكري- تحقيق عبد المجيد محمود- منشورات دار اليمري- بغداد، ١٩٦٣، ص٨ .

٤٧- أمين سعيد: أسرار الثورة العربية - الكبرى ومأساة الشريف حسين، ص٣٠-٣٣-٣٤، ١٠٩ ؛ جورج انطونيوس ، المرجع السابق، ص٥٧ ، ١٥٥، ١٥٦ .

٤٨- أمين سعيد: أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، ص١٥٩-١٨١ .

٤٩- أمين سعيد: أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين- ص١١٨-١١٩-١٢٠-١٢١-١٢٢-١٢٣-١٢٦-١٦٠-١٨١ .

٥٠- جورج انطونيوس : المرجع السابق، ص٣١١، ٣١٢ .

٥١- أمين سعيد: أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، ص١٢٩ .

٥٢- أمين سعيد: أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، ص٣٥٧ ؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٤٣٠، ٤٣١ .

٥٣- جورج انطونيوس : المرجع السابق، ص٤٥٤ .

٥٤- جيمس موريس: المرجع السابق، ص٨٩ .

٥٥- جورج انطونيوس : المرجع السابق، ص٢٧٩-٢٨٠-٢٨١ ؛ أمين سعيد : أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين ص٣٨٧،٣٩١ ؛ قدري قلعجي: المرجع السابق، ص٤٤٤ .

٥٦- أمين سعيد: أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين ، ص٨ ، ٣٩١ ؛ جورج انطونيوس المرجع السابق، ص٤٥٩ ؛ قدري قلعجي: المرجع السابق ، ص٤٤٤ .

٥٧- مذكرات جمال باشا: المرجع السابق، ص٨ .

٥٨- أمين سعيد: أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين ، ص٥،٨، ١٥ .

٥٩- صلاح العقاد: العرب والحرب العالمية الثانية، معهد الدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٦،ص١٥ .

٦٠- أحمد قدري: المرجع السابق، ص٧٠ .

٦١- أمين سعيد: الثورة العربية الكبرى، ج١، ص٣٢١، ٣٢٢ .

٦٢- محمد عزة دروزه: المرجع السابق، ص٥٨ .

٦٣- قدري قلعجي : المرجع السابق، ص٢٣٧، ٤٥٥ .

٦٤- مذكرات جمال باشا: ص٩ .

٦٥- جيمس موريس: المرجع السابق، ص٤٣ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المذكرات الشخصية:

١- أحمد قدري : مذكراتي عن الثورة العربية- مطابع ابن زيدون- دمشق ١٩٥٦ .

٢- مذكرات جمال باشا: تعريب: علي أحمد شكري ، تحقيق : عبد المجيد محمود- منشورات دار البصري- بغداد، ١٩٦٣ .

ثانيا: المراجع:

١- أبو خلدون ساطع الحصري: يوم ميسلون- منشورات دار الاتحاد- بيروت- ١٩٦٤م.

٢- أمين سعيد: أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين - دار الكاتب العربي- بيروت- ١٩٦٦م.

: أيام بغداد- مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ١٩٣٥ .

: تاريخ مصر السياسي من الحملة الفرنسية ١٧٩٨ إلى انهيار الملكية ١٩٥٢، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٩٥٩ .

: ثورات العرب في القرن العشرين- دار الهلال بمصر- ١٩٦١ .

: الثورة العربية الكبرى ٣ أجزاء - دار إحياء الكتب العربية- مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر والقاهرة - ١٩٣٤-١٩٣٥م.

: الثورة من ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلى ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦- دار إحياء الكتب العربية- القاهرة ١٩٥٩ .

: الجمهورية العربية المتحدة - جزءان - دار إحياء الكتب العربية- عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر- القاهرة ١٩٥٩-١٩٦٠ .

: حروب الإسلام والامبراطورية الرومية - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر- مارس ١٩٣٥ .

: الخليج العربي- دار الكتب العربي - بيروت- ١٩٦٦ .

: الدولة العربية المتحدة ٢ أجزاء - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ١٩٣٦-١٩٣٨ .

: العدوان ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦- أول فبراير ١٩٥٨- دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر- القاهرة- ١٩٦٠ .

: الوطن العربي: دار الهلال بمصر- ١٩٦٠ .

: اليمن - الطبعة الأولى- مطبعة عيسى البابي الحلبي- القاهرة ١٩٥٩ .

٣- جورج أنطونيوس: يقظة العرب- تعريب على حيدر الركابى- دمشق ١٩٤٦. الطبعة الثامنة ترجمة : ناصر الدين الأسد، إحسان عباس - دار العلم للملايين - بيروت، لبنان ، يناير ١٩٨٧ .

٤- جيمس موريس: الملوك الهاشميون- منشورات المكتب العالمى للتأليف والترجمة بيروت، لبنان- ١٩٦٤ .

٥- حسن عثمان: منهج البحث التاريخى- الطبعة الرابعة- دار المعارف بمصر- القاهرة ١٩٦٤ .

٦- صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٨٣ .

: العرب والحرب العالمية الثانية- مكتبة الأنجلو المصرية- ١٩٨٣ .

: المشرق العربى المعاصر - مكتبة الأنجلو المصرية- ١٩٧٠ .

٧- عبد العزيز محمد الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها- الجزء الثانى- مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٠ .

٨- عبد المنعم إبراهيم الجميعى: اتجاهات الكتابة التاريخية فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر- الطبعة الأولى- عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية- القاهرة ١٩٩٤ .

٩- قدرى قلعجى: الموسوعة العربية الكبرى ١٩١٦-١٩٢٥ شركة المطبوعات للتوزيع والنشر- بيروت لبنان، ١٩٩٣ .

١٠- محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤-١٩١٤) مكتبة الأنجلو المصرية د.ت.

١١- محمد بيومى مهران: التاريخ والتأريخ ، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية- ١٩٩٢ .

١٢- محمد عزة دروزة : حول الحركة العربية الحديثة- الجزء الأول- المطبعة العصرية- صيدا ، ١٩٥٠ .

ثالثا: الدوريات :

١- الجمعية المصرية للدراسات التاريخية- المجلة التاريخية المصرية- العدد الحادى والعشرون ١٩٧٤م.

٢- الشرق الأدنى.

٣- المقطم.

٤- الأهرام.

أ.د. محمد محمود السروجى(*)

العالم العربى فى كتابات اندريه ريمون

تميز المؤرخ الفرنسى أندريه ريمون André Raymond عن غيره من المؤرخين الأجانب الذين تناولوا تاريخ العالم العربى فى العصر العثمانى بالموضوعية، والرغبة الصادقة فى دراسة الحضارة العربية والإسلامية دراسة منصفة ومتأنية، استغرقت ما يربو على الثلاثين عاماً. فهو لم ينساق وراء المؤرخين الأوروبيين الذين سبقوه فى تحيزهم ومغالاتهم.

ولد أندريه ريمون فى عام ١٩٢٥، وظهر شغفه بالدراسات العثمانية منذ أن التحق بالمعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة كباحث فى عام ١٩٥٥، فانكب على قراءة ما كتبه المؤرخون العرب مثل المقريزى[١] وابن دينار[٢] وابن أبى ضياف[٣] والجبرتى[٤] وعلى باشا مبارك[٥] وغيرهم وما دونه علماء الحملة الفرنسية[٦] والكتاب الغربيون أمثال لابيدوس[٧] Lapidus، وألبرت حورانى[٨] A. Hourani، وسوفاجيه[٩] Sauvaget، وأندريه جوليان[١٠] André Julien، وشو[١١] Shaw ، وكارل بربير[١٢] Karl Barbir ، ولونجريج[١٣] Longrigg، وغيرهم هنا بالإضافة إلى ما تيسر الاطلاع عليه من وثائق المحاكم الشرعية بالقاهرة .

كان أول بحث نشر له حول المدن العربية فى عام ١٩٧٥ تحت عنوان:

Signes urbains et étude de la population des villes á l'époque ottomane.

ثم تلاه العديد من البحوث حول هذا الموضوع[١٤] وسأختار من كتابات أندريه ريمون

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - كلية الآداب- جامعة الإسكندرية.

كتابه «المدن العربية الكبرى في العصر العثماني» Grandes Villes arabes à l'époque ottomane لأنه اشتمل على العديد من الحواضر والمدن العربية الكبرى شرقًا وغربًا، مثل القاهرة ودمشق وحلب وبغداد والموصل في الشرق، والجزائر، وتونس وقسنطينة، وفاس ومراكش، وتطوان، وطرابلس في الغرب.

ومن مجموع بحوثه المتفرقة ومن قراءاته وزياراته الميدانية دارسًا ومنقبًا وفاحصًا أمكنه جمعها في هذا الكتاب موضوع الاختيار.

ويذكر أندريه ريمون أن ما دفعه لتدوين هذا الكتاب أن كتابه «الحرفيين والتجار بالقاهرة في القرن الثامن عشر»

"Artisans et commerçants au caire en XVII e siécles , 2 vols (1973-1974).

الذي سبقه في الصدور كان يفتقر إلى دراسة مستفيضة للناحية العمرانية والتي شغلت جزءاً متواضعًا منه وكان يهدف مؤلفه «بأن يكون الكتاب اجتماعيا واقتصاديًا قبل كل شيء»[١٥] ومن ثم بدأ في تدوين كتاب «المدن العربية» ليسد هذا النقص، مستعينًا بأبحاثه السابقة المتعلقة بهذا الموضوع، بالإضافة إلى ما نقله عن المؤلفين السابقين.

وقد اختط أندريه ريمون لنفسه منهجًا يسير عليه في دراسته لتلك المدن يجنبه الأخطاء التي وقع فيها «ماكس فيبر»، و«سوفاجيه»، ومن سار على دربهما وهي أن المدن العربية بها فوضى حضرية، فلم يحاول دراسة المدن العربية عن طريق تطبيق جداول تفسيرية (معايير) أجنبية وضعت أساسًا للمدن الغربية والتي كانت السبب فيما وقع فيه هذان العالمان من أخطاء.

وأوضح أندريه أن الدراسة الجادة تتطلب التسليم منذ البداية بوجود نمط تنظيمي عربي يختلف عن ذلك النمط الذي ساد المدن الغربية في العصرين القديم والوسيط. وقد أثبت هذا النمط العربي الإسلامي قدرة تلك المدن وقابليتها على الاستمرار في الحياة وفي أداء مهمتها. وعما يدحض رأي «سوفاجيه» أن مدينتي القاهرة وحلب كانتا مدينتين مزدهرتين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، ونالا إعجاب الرحالة الغربيين إعجابًا شديدًا من أمثال «جان كوبان» J. Copin و«فولني» Volney [١٦].

وهذا المنهج يقوم على دراسة السكان، ووظائف المدن، والتنظيم المكاني، والأنشطة الاقتصادية، وأخيراً الأنماط السكنية وأنماط المساكن.

وبالرغم من غزارة الوثائق والمراجع التي اطلع عليها، فقد كان للدراسة الميدانية نصيب كبير في نشاطه العلمي. فبالنسبة لمدينة القاهرة فقد اتخذ من خرائط كتاب «وصف مصر» ومن «مجمل آثار القاهرة» مرشدين له في طوافه بشوارع القاهرة القديمة وأزقتها مشاهداً وباحثًا ومنقبًا. وكذلك فعل الشيء نفسه بالنسبة لسائر المدن العربية التي تناولها بالدراسة.

وبعد أن أوفى مدينة القاهرة دراسة وبحثًا رأى أن يوسع دائرة اهتمامه لتشمل المدن العربية الكبرى الأخرى في العصر العثماني، فانتقل إلى سوريا حيث مكث عشر سنوات بالمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق L'Institut Français d'Etudes Arabes de Damas باحثًا ومديراً له. كما عمل أيضًا أستاذاً بجامعة «اكس أن بروفانس Aix- en - Provence بفرنسا. وقد أتاحت له إقامته في سوريا التعمق في دراسة تاريخ دمشق وحلب عن كثب، وكان من نتيجة ذلك نشر عدد من البحوث عن حلب، والقاهرة وتونس[١٧].

ومن خلال الدراسات المتعمقة التي أجراها أندريه ريمون عن تاريخ المدن، ومن خلال تحليله للرتائع البنيانية، وصولاً إلى المنهج الحضري الذي حكم المدينة العربية، أدرك أن السمة الأساسية لهذا المنهج، هو التمركز الشديد في منطقة وسط المدينة، مع الوجود المكثف للأنشطة الدينية والثقافية والاقتصادية في هذه المنطقة[١٨].

يشتمل كتاب «المدن العربية» على مقدمة وستة فصول وخاتمة، ويتصدره مقدمة المؤلف للترجمة العربية، ويليها كلمة المترجم «لطيف فرج» ويوضح المؤلف في الفصل الأول من الكتاب، وعنوانه: «المدن العربية في عهد الإمبراطورية العثمانية» بأن كلاً من تونس ودمشق والموصل لم تحظ بأية دراسة منهجية، وأن ما كتبه «لو تورنو Le Tourneau عن المدن الإسلامية في الشمال الإفريقي Histoire de L'Afrique du nord عام ١٩٥٧، ودرس فيه الحاضرة المغربية دراسة وافية، وقام بتعميمها على جميع مدن الشمال الأفريقي، وهذا لايجوز، إذ أن لكل مدينة ظروفها الخاصة.

وفي هذا الفصل يبين المؤلف أن عدد الولايات العثمانية في القرن السادس عشر بلغ ستًا وثلاثين ولاية، منها اثنتا عشرة ولاية عربية، وأن نظام الحكم فيها كان يقوم على ثلاث دعائم وهي: الحاكم، والمليشيات، والقاضي. وقد أدى الضعف التدريجي للدولة العثمانية في القرن الثامن عشر، أن أصبحت الأوضاع في الولايات العربية تتراوح بين التبعية شبه الكاملة، وبين الحكم الذاتي القريب من الاستقلال وأضيف بأن هذا راجع إلى قرب الولاية أو بعدها عن

مركز الدولة العثمانية، فكلما قربت الولاية من هذا المركز قوى تدخل الدولة، وكلما بعدت ضعف تدخلها فيها.

وتمثل تجارة مصر مع أوروبا نسبة صغيرة لاتتجاوز ١٤٪ من حجم التجارة الكلية ، أي أن التجارة الداخلية بين أجزاء الدولة العثمانية كانت تستحوذ على ٨٦٪ من حجم التجارة، وتسري هذه النسبة تقريبًا على سائر المدن العربية الأخرى فازدهار هذه المدن كان يرجع إلى اتساع السوق الداخلي، وليس لعلاقاتها لتجارية مع أوروبا . ومن هنا جاء خطأ «سوفاجيه» عندما ربط بين ازدهار مدينة حلب وتدهورها بتطورات تجارتها مع أوروبا[١٩].

وقد ازدهرت المراكز التجارية الكبيرة في الحواضر العربية الواقعة على الطرق التجارية الحساسة بالقرب من حدود أوروبا وآسيا وافريقيا مثل القاهرة وحلب والموصل. ومما لاشك فيه فإن معدلات نمو تلك المدن كان متباينًا ، نظراً لاختلاف الظروف التاريخية لكل منها. وتأتي مدينة القاهرة ثاني أكبر مدن الدولة العثمانية بعد استانبول.

وفي الفصل الثاني المتعلق بسكان تلك المدن، أوضح المؤلف بأنهم تميزوا بثلاث سمات: السمة الأولى التنوع الشديد ، فكانت تضم عناصر عرقية ودينية متباينة . والسمة الثانية اعتقاد سكان تلك المدن بأنهم يرجعون إلى أصول عرقية تختلف عن الفلاحين والبدو. أما السمة الثالثة فهي انقسامهم إلى طبقة أجنبية حاكمة لقليلة العدد، ورعايا وهم الأغلبية من أهل البلاد الأصليين.

وهذا التمييز بين الحاكمين من أرباب السيف الأجانب، وبين الرعايا المحكومين كان سائداً في كل الولايات العربية في جميع العصور. ورغم هذا التميز فقد ربط الانتماء إلى الإسلام بينهم، وظهر هذا واضحًا في استنجاد أهل الجزائر وتونس بالعثمانيين لحمايتهم من الخطر الأسباني[٢٠].

وتمثل الطبقة الأجنبية الحاكمة في المجالين السياسي والعسكري، وكانت قوات الانكشارية هي القوة الأكثر أهمية وانتشاراً ، وقد نشأوا عن نظام الديوشيرما[٢١].

أما وظائف علماء الدين الإسلامي فكان يتولاها الأتراك الخلص الأحرار، بعد دراسة علوم الدين الإسلامي والشريعة الإسلامية ، فمنهم مفتي استانبول والقضاة والوعاظ وخطباء المساجد، وكانوا يقومون بدور الوسطاء بين الرعايا والحكام .

وإلى جانب هؤلاء توجد طبقة الأشراف، ويرأسها نقيب الأشراف ، ونظراً لضعف تنظيمها

فقد قنعوا بالامتيازات التي منحتها لهم الطبقة الحاكمة دون الاشتراك الفعلي في الحكم والسلطة.

أما الرعايا من التجار، والحرفيين فقد قام على اكتافهم النشاط الاقتصادي أي التجارة والإنتاج ، ويذكر المؤلف أن المعلومات عنهم قليلة للغاية، وقد أجرى دراسة وحيدة[٢٢] عن إجمالي نشاط سكان القاهرة، وقام بتعميمها على المدن العربية الأخرى، وهذا عمل غير دقيق فلكل مدينة ظروفها الخاصة.

ويحتل التاجر مرتبة أعلى من الحرفي في السلم التجاري ، ويحتل كبار التجار مراكز خاصة ، ويمثلون طبقة برجوازية ثرية ، ولاسيما تجار البن والأقمشة. أما الحرفيون وصغار التجار فيمثلون الطبقة المتوسطة ، وكانوا أعضاء في الطوائف المهنية. فكان في القاهرة ما يقرب من مائتين وخمسين طائفة ، بينما لم يكن بالجزائر سوى ثلاث وثلاثون طائفة . وهناك العامة ، وهي الطبقة الكادحة التي تعيش على هامش الحياة. وهم الحمارون، والعتالون، والبوابون، وعمال اليومية والبائعون الجائلون .

وقد اختلف عدد الطوائف المهنية- باستثناء العلماء- من مدينة لأخرى. وكان الهدف الأساسي لها هو الإشراف المهني على أعضائها ، وهي في الوقت نفسه تمثل خلية أساسية شبه إدارية، كما كانت الجاليات العرقية والدينية تشكل كيانات شبه إدارية يرأسها شيوخها وساد هذا التنظيم جميع المدن العربية الكبرى.

ومن السمات الأساسية للمدن العربية كثرة عدد الجاليات التي لاتنتمي إلى مجموع الأهالي المسلمين ، وقد أطلق عليها اسم الطوائف . وكان لكل طائفة شيخ، وتتمتع هذه الطوائف بنوع من الاستقلال . ويختلف مركز كل طائفة عن الأخرى وفقًا لطبيعتها وديانتها ولغتها . وتتمثل هذه الأقليات في المغاربة والسوريين. أما الجالية اليهودية فكانت أكثر هامشية من جميع الجاليات.

وكانت التجارة الدولية من عوامل جذب مجموعات كبيرة من الأجانب للإقامة بالمدن العربية إقامة مؤقتة أو دائمة . كما جذبت المراكز الدينية العلماء والطلاب إلى الأزهر بالقاهرة، والجامع الأموي بدمشق وجامع القرويين بفاس، وجامع الزيتونة بتونس. وتختلف أوضاع الجماعات الأندلسية التي هاجرت إلى شمال إفريقيا عن غيرها من الجماعات. إذ أن هجرتها ارتبطت بمشكلات سياسية بدأت وانتهت في موعد محدد، وقد استطاعت تونس استيعابهم.

وقد عاش الأكراد على منحدرات جبل قيسون فوق دمشق، وكذلك في العراق، وقد حدثت مواجهات بينهم وبين العراقيين، وذلك لخصوصيتهم اللغوية وتمسكهم بها. وتمتع اليهود والمسيحيون بالحماية والرعاية لأنهم أهل كتاب. وعلى العموم فقد كانت الدولة العثمانية أكثر تسامحاً من سبقوها أو عاصروها من الدولة. وقد استفادت الطوائف المسيحية من إمكانات الدولة الاقتصادية، فعملوا كوسطاء بين التجار الفرنجة والتجار المحليين، كما عارنوا الحكام في الشئون الإدارية، نظراً لما اتصفوا به من كفاءة في الإدارة.

وقد ازدهرت أوضاع المسيحيين لإتصالهم بالغرب عن طريق الإرساليات الدينية، وساهم هذا في نهضتهم العلمية والثقافية. هذا إلى جانب إقامة المطابع في حلب وبيروت على وجه الخصوص قبل غيرها من المدن العربية.

وبلغ عدد أقباط مصر عشرة آلاف نسمة، أي بنسبة ٠,٢٥ ١٪ من مجموع السكان، وكانوا يقومون بعمل السكرتارية لدى بكوات المماليك وكبار ضباط الأوجاقات، وقد تمتعوا بالطمأنينة والأمان.

كما وجد اليهود في الدولة العثمانية الملجأ والملاذ في المغرب على وجه الخصوص بعد طردهم من أسبانيا. وقد مارسوا أنشطة متنوعة مثل أشغال المعادن الثمينة، وفي الصرافة وفي دار سك النقود، والتجارة الخارجية، وإدارة الالتزام بتكليف من الطبقة الحاكمة، وقد استبدلهم «علي بك الكبير» بالمسيحيين السوريين. وكان اليهود يعيشون في أحياء مغلقة بالقرب من مركز المدينة الاقتصادي وكان عدد الأوروبيين حتى نهاية القرن الثامن عشر قليلاً، ولكنهم سيطروا على التجارة بين البلاد العربية وأوروبا. كما احتكروا الملاحة البحرية.

وخلاصة القول «كان طابع سكان المدن العربية الكبرى هو التنوع الكبير، إذ كانو يضمون عناصر عرقية ومذهبية ولغوية متباينة، الأمر الذي يتناقض مع سكان الريف الذين كانوا أكثر تجانساً»[٢٣].

أما الفصل الثالث والخاص بوظائف المدن فيوضح المؤلف الاعتقاد السائد بضعف إدارة شئون المدينة، وهو من السمات المميزة للمدن العربية «ذلك لأنه لم يكن في المدينة العربية إدارة مخصصة لعمرانها، ولاهيئات شعبية تشرف على تقسيماتها الإدارية»[٢٤]. ويسبب عدم الاتساق بين جزئيات البنيان الحضري جعل الكتاب الغربيين لايعتبرونها مدناً، لأن أوضاعها تتناقض مع مناهج تنظيم المدن الغربية، وهذا ما نادى به «سوفاجيه» حيث نسب إلى الاسلام تدهور واضمحلال المركز الحضري لمدينة حلب، وهذا غير صحيح.

ويؤكد أندريه ريمون تناقض هذا الاعتقاد مع ما أظهره علم الآثار الحضرية وتاريخ المدن، ومع البحوث الحديثة، وخاصة ما قام به «باربر جوهانسن» Barber Johansen حيث أظهر مدى الإفراط في فرضيات «سوفاجيه» في المبالغة بشأن بعض النقاط. والحقيقة أن هذه المدن نمت وتطورت واستطاعت أن تشبع الحاجات المادية الأساسية لسكانها.

ويعترف أندريه ريمون بأن المعلومات التي لديه غير كافية، وذلك لعدم وجود دراسات منهجية لسجلات المحاكم الشرعية والتي عن طريقها يمكن معرفة الوسائل التي كانت تدار المدينة بها. والشئ نفسه ينطبق على الوثائق العثمانية التي تتناول المراسلات بين الولايات العربية والسلطات العثمانية باستانبول بشأن إدارة هذه المدن والتي لم يتم دراستها بعد.

كذلك يوضح المؤلف أن من الصفات المميزة للمدن العربية هو قلة عدد الموظفين القائمين على شئونها الحضرية. وهذا ما دفع «سوفاجيه» «إلى استنباط نظرياته بشأن عدم وجود نظام أساسي محدد للمدن الإسلامية الذي يعتبر جزءاً متمماً ولاينفصل عن المجتمع الإسلامي الكبير، حيث لايوجد شخص مؤهل لإدارة مصائرها عن خبرة وسلطة مطلقة[٢٦]».

وكان يشرف على المدينة مسئولان: المحتسب والوالي. كما قام القضاة والمحاكم بدور أساسي في إدارة شئون المدينة، حيث كانوا ينظرون في الجرائم، وفي الشئون المدنية، والأحوال الشخصية ويرى المؤلف أن دراسة أعمال القضاة بدقة، لابد أن يؤدي إلى استخلاص عقيدة حضرية إلى حد ما.

كما كانت سلطات استانبول تتدخل بهمة في جزئيات الحياة الحضارية في الولايات التابعة لها بصفة مباشرة، ويظهر هذا بشكل واضح في مدينة حلب بصفة خاصة[٢٧] ويرجع هذا كما سبق أن ذكرت لقرب حلب من مركز الدولة.

وقسمت المدن إلى أحياء مغلقة إلى حد ما، وكانت «تمثل أجهزة ضرورية وسيطة بين السلطات (الحاكم) والسكان... وتعتبر الأحياء جزءاً مكملاً للنظام[٢٨] وكانت المحافظة على النظام تأتي في مقدمة أولويات السلطات العثمانية سواء كان ذلك في عاصمة الدولة استانبول أو في عواصم الولايات. ويعترف المؤلف بأنه في ضوء المعلومات الراهنة لايستطيع أن يقدم وصفاً تفصيلياً للنظم الأمنية الموجودة بكل مدينة بذاتها. ففي القاهرة على سبيل المثال كان يقوم والي الشرطة، ويعاونه أغا الإنكشارية بالمحافظة على الأمن. وكانت أعمال الشغب والعنف شبه دائمة، وذلك بسبب فساد الباشوات وقسوتهم. وضرب لنا «سوفاجيه»

بعض الأمثال على ذلك فى مدينة حلب، ومع ذلك فقد كان أمن الناس فى حياتهم مستتبًا إلى حد بعيد.

أما ما يمكن أن نطلق عليه اسم خدمات عامة، فلم يكن فى المدن العربية ما يسمى بهذا الاسم ولكن فى مدينة كبيرة كالقاهرة، فقد وجدت أشكال تنظيمية قامت بمهمة تزويد المدينة بالمياه، وتوفير وسائل تنظيفها، وإنارة شوارعها، ومكافحة الحرائق فيها. ويعترف المؤلف بأنه لايعرف تنظيمات سائر المدن، ولكنه يعرف بعضها فقط. وهذا لايبرر له تعميمه على بقية المدن كما حدث.

وكان يقوم بتنظيف المدن زبالون محترفون يتولى سكان المنازل دفع أجورهم. وأغلب الظن بأنه لم يكن هناك شبكة لتصريف المياه المتسخة، ولكن كان يتم ذلك عن طريق قنوات.

أما عن إضاءة المدن ليلاً، فليس لدى المؤلف معلومات عنها، ولكن انتقال الأفراد ليلاً كان يتم عن طريق حمل القناديل أو المشاعل. ويرجع «ابن أبى السرور البكرى» إنارة شوارع القاهرة إلى عام ٨٣٥هـ / ١٤٣٢م. ونظراً لاتساع مدينة القاهرة، فكان نقل البضائع والأفراد يقوم به الألوف من المكاريين والجمالين.

ولما كانت البيوت فى تلك الفترة تبنى بالطوب والأحجار، فكانت الحرائق قليلة أو نادرة. وكان يتولى مكافحتها رئيس وقباء البصاصة. وقد أرجعها «المقريزى» إلى عام ١٤٤٠م.

أما عن مهمة توصيل المياه للمنازل، فكانت صعوبتها تأتى من وقوع المدينة على النهر أو بعدها عنه، أو لعدم وجود أنهار كلية. فبالنسبة للقاهرة وبغداد والموصل فلم تكن هناك مشكلة وذلك لوقوعها على نهر. ويقوم السقاءون بتوصيل المياه إلى البيوت دون تدخل من السلطات الحاكمة. وقد أفرد المؤلف بحثًا خاصًا عن الأسبلة التى كانت تسد حاجة المارين بالشوارع والتى كانت تقام كعمل من أعمال الخير[٢٩].

وفى الفصل الرابع المتعلق بالتنظيم السكانى، يذكر المؤلف أن العنصر الأساسى فى نشأة المدن العربية هو السوق وهو السمة المميزة الأولى. وقد نادى بهذا القول «لوى ماسينيون»[٣٠] Louis Massignon و«سوفاجيه» و«أوجين وورث»[٣١] Eugen Wirth. ويمثل الجامع الكبير العنصر الأساسى الذى يرتكز حوله السوق، حيث يوجد تجار الجملة وتجار الذهب.

وبناء عليه فإن المركز الاقتصادى فى العصر العثمانى كان هو العنصر المسيطر على التنظيم المكانى فى المدن العربية[٣٢]. أما مقر الحكم فكان خارج المدينة.

أما السمة الثانية المميزة للمدينة العربية فهى انقسامها إلى قطاعين مختلفين تمام الاختلاف: القطاع الأول وفيه يتمركز النشاط الاقتصادى، والقطاع الثانى: ويضم المناطق المخصصة للسكنى والبعيدة عن السوق طلبًا للهدوء من ناحية، ولعزلة الحياة العائلية التى ساعد الإسلام على تعزيزها من ناحية أخرى.

والسمة الثالثة هى الفصل بين الجاليات وتنظيماتها فى أحياء منعزلة طبوغرافيًا. ويمثل الهيكل الحضرى للمدينة شكل الإشعاع متحد المركز، ففى هذا المركز الأنشطة التجارية الدولية، وكذلك الأنشطة الدينية والثقافية، يليها بعيدا عن المركز الأحياء السكنية، ثم الأنشطة الحرفية، إلى أن تصل إلى الأحياء الأكثر فقراً، والأنشطة الهامشية. وأخيراً تأتى الضواحى حيث تمتزج الأنشطة الحضرية والريفية معًا. ومن أواسط المدينة تمتد شوارع واسعة وكبيرة مخترقة الأحياء السكنية إلى خارج المدينة.

وإذا انتقلنا إلى الأحياء السكنية نجد أن مساكن الطبقة الغنية تقع قريبًا من المركز الاقتصادى ومن الجامع الكبير. أما الأحياء الشعبية فبعيدة عن وسط المدينة، وقريبة من أطرافها، وهى شبه مغلقة وذات شوارع غير منتظمة.

أما أحياء المحيط الخارجى للمدينة فتوجد بها الأنشطة المهنية الثانوية وتلك التى تسبب أضرارا فى وسط المدينة، وكذلك الأنشطة المرتبطة بالريف. وبهذه الأطراف توجد أراض فضاء يفد إليها السكان للنزهة والترويح. ونجد أن الضواحى نشأت خارج حدود أسوار المدينة وذلك لعدم قدرة المدينة على استيعاب الوافدين عليها داخل أسوارها، والتركيبة الاجتماعية فى هذه الضواحى تعكس الحالة الاقتصادية المتدنية بالنسبة للمدينة[٣٣].

وتؤثر طبيعة الموقع الذى أقيمت عليه المدينة فى تطورها ونموها، فوجود مناطق وعرة تحد من توسعها فى هذا الاتجاه. وقد تأثرت مدينتا تونس والجزائر بضغوط الموقع، فالجزائر محصورة بين الجبل والبحر، وتونس منعت التضاريس من امتدادها نحو الغرب. ويذكر المؤلف أن مدينة القاهرة تمثل حالة عدم اتساق حضرى كاملة[٣٤]. وقد نمت نمواً كبيراً فى العصر العثمانى، ولكنه متفاوت فى الاتجاهات، مما يؤدى إلى عدم انتظام المدينة الحديثة مستقبلاً.

وتتشابه مدينتا دمشق وحلب فيما يتعلق بالموقع والتاريخ ، فكلاهما تقع على نهر متوسط الأهمية، بعكس الحال بالنسبة لبغداد والموصل بالعراق حيث تقع كلتاهما على نهر قوى.

وإذا نظرنا إلى تخطيط المدن العربية من حيث التنظيم والفوضى نجد أنه يبدو على المستوى الشامل منظمًا ومتماسكًا ، ولكن إذا نظرنا إلى الجزئيات نرى علامات الفوضى الحضرية، وهو ما أثار انتباه المؤلفين الأجانب. ويعترف المؤلف بأن معلوماته عن المسئولين عن تقسيم الأراضى فى الفترة العثمانية متعددة ، ويرى بأن دراسة وثائق الأوقاف مقترنة بالدراسات الأثرية «سوف يسمح بالتأكيد بتحديد ظروف هذه العملية على جد الدقة »[٣٦].

ومما لاشك فيه كان للدور الذى قامت به الأوقاف فى التنظيم المتعلق بالتوسع العمرانى أهمية كبيرة ، « أوضحت عملية تخصيص وقف كبير هى بالضرورة عملية تخطيط حضرى يمكن أن يؤثر على حى بأكمله وعلى إعادة تشكيله بالكامل »[٣٧].

خصص المؤلف الفصل الخامس للأنشطة الاقتصادية ، حيث أوضح أن بروز العوامل الاقتصادية أثر على البنيان الحضرى للمدينة، لاسيما إذا كان موقعها على المحاور التجارية الرئيسة مثل مدينتى القاهرة وحلب. ورغم ضخامة الكميات المتبادلة ، إلا أن الأنشطة ظلت غطية إلى حد كبير. كما أن نقل البضائع إلى أوروبا ظل حكرًا على السفن الغربية . والسمة الثانية لهذا التنظيم الاقتصادى «هى ضعف الأنشطة الحرفية بالنسبة للأنشطة التجارية»[٣٨] وذلك لضعف المستوى الفنى للأنشطة الحرفية.

ورما أن بدأ القرن الثامن عشر إلا وظهر التصدع فى الاقتصاد بسبب التغلغل التجارى الأوروبى ومنافسته للمنتجات المحلية.

نشطت السلطات الحاكمة فى تشييد القيساريات ، حيث تباع فيها الأقمشة الفاخرة. وكان وسط المدينة مكان تجار التوابل والمنسوجات والبن. وظلت الحوانيت على شكلها منذ العصور الوسطى، ولم تتغير على امتداد العالم العربى من مدينة فاس فى الغرب إلى مدينة بغداد فى الشرق وحازت مدينة حلب بدراسة «سوفاجيه» ، والقاهرة بدراسة «إدوار لين» وفاس بكتابات «تورنو».

وكان التاجر يجلس على مصطبة أمام متجره ، وكذلك الزبائن . أما عن الأسواق فكانت غير مسقوفة وتتميز بالتخصص الشديد والتركيز الجغرافى. وكان عددها يختلف من مدينة إلى أخرى حسب اتساعها.

وقد صدر فى عام ١٨٣٤ مرسوم يحذر سلطات مدينة القيروان التونسية السماح لغير المشتغلين بمهنة العطارة أن يقيموا فى سوق العطارين [٣٩]. وكانت الرسوم التى تفرض على الأسواق فى تونس يقوم بتوريدها (تايد) إلى الخزينة لدفع مرتبات الإنكشارية.

وقد تناول اسم القيسارية العديد من التغيير تبعًا للعصور واختلاف الأماكن ، ففى القاهرة أخذت عدة أسماء متتالية : فندق ، ثم قيسارية ثم خان وأخيرًا وكالة . وفى شمال إفريقيا أطلق عليها اسم فندق، وفى تونس اسم وكالة ، وفى سوريا والعراق اسم خان، وفى اليمن اسم سمارة . وقد وصفها «جاستون فييت» Gaston Viet بأنها بناء مربع الشكل على هيئة رواق ، وتحتوى على غرف ومخازن وحوانيت للتجار [٤٠]. وهى تستخدم لتجار الجملة ، وتتخصص فى سلعة واحدة مثل الزيت أو الصابون أو الأقمشة . وتعتبر القيسارية من الشواهد المعمارية الرائعة فى العصر العثمانى. وقد استقر البنيان الأساسى للوكالات فى العصر المملوكى، ومن ثم لم يطرأ عليها أى تغيير فى العصر العثمانى، فيما عدا دمشق فى القرن الثامن عشر.

ومنذ بداية القرن الثامن عشر ضعفت المهارات الحرفية فى البلاد العربية إذا ما قورنت بالتقدم الموجود بأوروبا، وهذا ما لفت أنظار الرحالة «فولنى» فى عام ١٧٨٣ ، وذلك لرداءة الأدوات التى يستخدمها الحرفى فى العمل ، وكذلك للطابع الروتينى لأساليبهم . وليس معنى هذا تدهور الصناعات فى كل المدن العربية. وقد احتلت صناعة السكر مكانة كبيرة فى الاقتصاد المصرى، وكذلك صناعة المنسوجات القطنية والكتانية والحريرية[٤١]. وكذلك اشتهرت مدينة حلب فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بصناعة الصابون والصباغة.

وفى الفصل السادس الأخير والخاص بالمناطق السكنية وأنماط المساكن ، أوضح فيه المؤلف أن البيت العربى التقليدى كان موضع دراسة مستفيضة وقيمة، وبالرغم من ذلك فما زال الغموض يكتنف بعض الجوانب «بسبب الثغرات الموجودة فى المراجع المتاحة، وبسبب الآراء النمطية التى تعززها الأصالة والتى لاتزال رائجة[٤٢].

وقد وجدت أن البيوت القديمة الجيدة البناء والجيدة الاستخدام والصيانة ما زالت باقية حتى اليوم ، فمدينة فاس تحتفظ بقصور من عهد بنى مرين ، وبتونس بيوت من العهد الحفصى، وفى القاهرة من عصر المماليك، وقد أدى تحديث المدن إلى دمار تلك المناطق القديمة. ومن سمات المسكن التقليدى أنه اتبع نموذجًا معينًا لم يتغير عبر الزمان والمكان، وأن تجاور بيوت الأسر الفقيرة والغنية عادة متبعة فى المدن العربية.

وكان البيت مغلقًا على الخارج ومنفتحًا على الفناء الداخلي السماوي. ولم يتبق من هذه البيوت سوى البيوت الفخمة التي أمكن الحفاظ عليها . وأدى تركز الأنشطة الاقتصادية في وسط المدينة إلى إبعاد المبنى السكني عن هذا المركز.

وكلما ابتعدنا عن وسط المدينة قل ارتفاع المبنى السكني، وتقل كثافة السكان. وكانت الطبقة الحاكمة والطبقة البرجوازية تشيد مباني جميلة يستخدمونها صيفًا. وأدت ضرورات تجمع السكان للأقليات الدينية أو القومية إلى حدوث اضطراب في التنظيم السكاني.

ومعرفتنا بجغرافية المناطق السكنية تتفاوت من مدينة إلى أخرى، ولكنها على العموم معرفة ضئيلة تنقصها الدراسات المدعمة التي لم تُجر إلا على عدد قليل من المدن. ويمكننا الاعتماد «على علم الآثار كمدخل لمعرفة جغرافية هذه المناطق رغم ما به من تصور»[٤٣].

والأحياء التي تمثل تطرفًا واضحًا هي الأحياء اليهودية والمسيحية ، فضلا عن الأحياء الشيعية في بغداد ، والكردية في دمشق، والعلوية في إنطاكية، والأندلسية في المدن المغربية. وليس هناك ارتباط بين الأحياء السكنية والمهن .

ولما كانت المساكن بعيدة عن وسط المدينة التجاري ، فقد أنشئت سوبقات فيها لتلبية حاجات الناس. وتمثل الأحياء الخلية الأساسية للمدينة ، وسكانها متضامنون فيما بينهم لحمايتها والقضاء على ما ينشب فيها من اضطرابات ، وهم شركاء في الأفراح والأتراح.

وقد تنوعت أنماط السكان بما يتفق مع التقاليد المحلية التي ظل تأثيرها قويًا. ونلمس التجانس الكبير بين الدور والقصور في كل من تونس والجزائر. ونجد أن مساكن القاهرة قد حظيت بدراسات متعمقة . وقد تميزت ببنيانها الرأسي وبكثافتها ، بينما نجد أن مساكن دمشق وحلب وحماة تمتد بشكل أفقي حول صحن الدار.

وإذا انتقلنا إلى مساكن الطبقة المتوسطة نجدها أقل في المساحة وفي عدد الطوابق. كما أنها بسيطة ، ويبدو هذا في الأحياء القديمة بتونس وحلب. ونجد في القاهرة نوع آخر من المساكن وهو ما يسمى بـ (الربع) ، وهو عبارة عن سكن جماعي. ولم تختص به القاهرة وحدها، بل نجده منتشرًا في كل أرجاء المنطقة العربية . ومن الصعب تقدير عدد ساكنيها.

أما عن المسكن الشعبي أو مسكن الفقراء الأكثر عددًا، فيذكر المؤلف أن الوثائق والحوليات لم تذكرها على الإطلاق. كما لاتوجد لها آثار باقية ، لأنها كانت عبارة عن أكواخ

بنيت من الطوب اللبن، وسقوفها من القش، فلم تستطع مقاومة الزمن، كما عرف في سوريا ومصر والحجاز مساكن جماعية أطلق عليها اسم أحواش (جمع حوش) ، وخصصت لسكنى الطبقات الفقيرة جدًا في المدن. ويصف «جومار» Jomard (أحد علماء الحملة الفرنسية) أحواش القاهرة بأنها ساحة واسعة مسورة مكتظة بالأكواخ التي لايزيد ارتفاعها عن أربعة أقدام، يتكدس فيه الفقراء مع حيواناتهم دون نظام[٤٤] .

وفي خاتمة الكتاب أوضح المؤلف بأن العصر العثماني يمثل مرحلة رئيسة هامة في تاريخ المدن العربية، وفصلاً من فصولها التاريخية التي استمر ثلاثة أو أربعة قرون، التزمت فيه المدن العربية «بمبادئ التخطيط المكاني والتنظيم الحضري الذي حددت تطورها خلال القرون السابقة »[٤٥]، مع بروز أهمية العوامل الاقتصادية في بنيان المدينة في العصر العثماني.

توصل «أندريه ريمون» من دراسته هذه إلى عدة نتائج:

أولاها: الاعتقاد بأنه لايمكن تفسير قيام هذه المدن بتأدية وظيفتها واستمرارها ، إلا بسبب قوة بنيانها الداخلي، الأمر الذي لم يتمكن من تقدير أهميته أصحاب مقولات (الفرضي الحضرية)[٤٦].

ثانيًا: أن من السمات الهامة لتلك المدن التمركز الشديد في منطقة وسط المدينة، وكذلك كثافة الأنشطة الدينية والاقتصادية والثقافية فيها، «وكذلك التجمع الثنائي للأنشطة الاقتصادية والسكنية»[٤٧].

ثالثًا: استدل أندريه من دراسته أن الظواهر التاريخية تحكمت إلى حد كبير في تطور كل من مدينة وتكوين السمة الخاصة بها .

رابعًا : نظرًا لانتماء تلك المدن للدين الإسلامي ، فقد تمكن هذا الدين من صنع سماتها وتوجيه تطورها، وذلك عن طريق المؤسسات الإسلامية التي تحكمت في تنظيم تلك المدن. مثل القضاء، والحسبة، والأوقاف، وهذا الطابع الإسلامي يفسر لنا التماثل الحضاري العام بين بعضها البعض ، رغم الاختلافات الطبيعية والثقافية، بسبب التجارب التاريخية التي خضعت لها، بحيث «أن الإنسان لايشعر باغتراب إذا ما انتقل من فاس إلى القاهرة أو حلب أو أصفهان أو كابل»[٤٨].

خامسًا: انتهجت السياسة العثمانية في تنظيمها للمدن على أساس المجموعات المهنية والدينية والعرقية والجغرافية، وازدادت الطوائف الدينية والقومية قوة. وقد تأثرت

الحياة الاجتماعية نتيجة دخول أنماط استهلاكية جديدة مثل البن والدخان كما كان لظهور المقاهي أثر عميق في المجتمع المدني وهذا الموضوع لم تتم دراسته بدرجة كافية حتى الآن.

سادسًا: أوضح المؤلف في مواقف عديدة عجزه عن توضيح بعض النقاط لعدم وجود مادة علمية لديه، وهذه صراحة يحمد عليها. وفي الوقت نفسه تضع القارئ العربي وغير العربي أمام مسئولية البحث لسد تلك الفراغات.

سابعًا: بيّن المؤلف المدن التي نالت حظها من البحث والدراسة والمدن الأخرى التي تفتقر إلى ذلك وذلك لتحفيز الدارسين على دراسة تلك المدن.

ثامنًا: مهما كان الجهد الذي بذله المؤلف في تدوين كتابه، ومهما كانت القيمة الكبيرة لهذا الكتاب، تبقى نقطة هامة يجب ألا نغفلها، وهي أن المؤلف رغم كثرة مصادره ودراسته الميدانية، فإنه لم يطلع على الوثائق العثمانية المحفوظة بدور الوثائق باستانبول، وهي بلا شك على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لموضوع الكتاب، وأن الاطلاع عليها ودراستها سيمنحنا المزيد من المعلومات، مما يسمح لنا إعادة تقييم فترة الحكم العثماني للبلاد العربية. وقد شعر المؤلف بهذا النقص.

الهوامش

١- المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، بولاق ١٩٧٩، نشر وتحقيق د. جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٩٦.

٢- ابن دينار القيرواني، المؤنس، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١.

٣- أحمد بن أبي ضياف، اتحاف أهل الزمان، تونس ١٩٦٣.

٤- عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، بولاق ١٩٧٩.

٥- علي باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة الشهيرة، ٢٠ جزءًا، القاهرة ١٣٠٥-١٣٠٦هـ/ ١٨٨٧-١٨٨٩.

٦- Delile, Devilliers, Gomard, Jolais, Description de L'Egypte, Paris 1809-1826.

٧- Lapidus, ed, Middle East Cities, Berkeley, 1969.

٨- Hourani, A.H, Stern, S.M., The Islamic city, Oxford, 1970.

٩- Sauvaget, J. Esquisse d'une histoire de la ville de Damas, Revue des Etudes, 1934.

١٠- André Julien, Historie de L'Afrique du Nord.

١١- Show, S.J., Financial and administrative organization of Ottoman Egypt, Princeton, 1962.

١٢- Barbir, K. Ottoman rule in Damascus, 1708.

١٣- Longrigg, Four centuries of Iraq.

١٤- Raymond, A, La ville arabe, Alep à L'époque Ottomane (XVII- XVIII siécles Damas, IFEAD, 1998, pp. 11-20.

١٥- أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، ص٥.

١٦- Volney, Voyage en Egypt et en Syrie, Paris, 1779.

١٧- Le deplacement des Janniéries à Alep, au Caire et à Tunis à L'époque Ottoman, revue d'Historie Maghrébine, (1979).

- Les Waqf et L'organisation de L'urbain à Alep et au Caire à L'époque Orromane (XVII-siécles, BED, 31 (1979).

- The Population of Aleppo in the 16th & 17th centuries, (1984).

Les quartiérs de residence des commerçants Syriens et Palestiniens au Caire en xviii siécles.

١٨- اندريه ريمون ، المدن العربية ص٧ .

١٩- نفسه، ص٣٨ .

٢٠- نفسه، ص٦ .

٢١- يقوم هذا النظام على جمع أبناء المسيحيين الفقراء من الولايات المسيحية الخاضعة لحكم الدولة العثمانية من سن ٨-١٢ سنة ويعتنقون الإسلام ثم يدربوا على أعمال الحرب والفروسية والسياسة، حتى إذا ما بلغوا مبلغ الرجال أصبحوا باشجيش وباشتون السياسية كل حسب استعداده ومقدرته .

٢٢- Raymond , A., Artisans , et le Caire, Economie et Société urbanes á la fin du vxiii siécle . dans L'Egypt au xix Siécle , R. Mantran ed. Paris , 1982 .

٢٣- اندريه ريمون ، المدن العربية ، ص٨٨ .

٢٤- نفسه، ص٩١ .

٢٥- Barber Johansen , "Eigentum , Familie und Obligkeit im hanafitischen Strafrecht, ", Die Welt des Islam, 19 (979) .

٢٦- اندريه ، المدن العربية، ص٩٣ .

٢٧- نفسه، ص٩٧ .

٢٨- نفسه، ص١٠٥ .

٢٩- Raymond , A., les fontaines publiqes (sabil) du caire, Annales Islamologiques, 15 (1979) .

٣٠- Louis Massignon , " Les corps de métier et la cité Islamique" Revue Internationale de Sociologie , 28 (1920) 473-475 .

٣١- Sauvoget, "Esquisse" 454, xavier de planhol, " forces économiques et Composantes culrur elles dans les suractures commecciales des villes Islamwques, 227 .

٣٢- Eugen Wirth " Villes islamiques , villes Arabes, villes Orientales 197.

٣٣- المدن العربية ، ١٢٩ .

٣٤- نفسه، ص١٥٣ .

٣٥- نفسه، ص١٥٦ .

٣٦- نفسه، ص٦٤ .

٣٧- نفسه، ص١٦٥ .

٣٨- نفسه، ص١٢٢ .

٣٩- نفسه، ص١٨٠ .

٤٠- Wiet, Gaston, " Fêtes et jeux au Caire", Annales Islamologiques, pp. 116-119 (1969) .

٤١- Raymond, A. Artisans I, 221, 233 .

٤٢- اندريه ، المدن العربية ، ص٢٠٥ .

٤٣- نفسه، ص٢١٣ .

٤٤- نفسه، ص٢٤٠ .

٤٥- نفسه، ص٢٤٣ .

٤٦- نفسه، ص٧ .

٤٧- نفسه.

٤٨- نفسه، ص٨ .

أ.د. شوقي عطا الله الجمل(*)

المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي

(Arnold Joseph Toynbee)

ورأيه فيما يتعلق باليهود والقضية الفلسطينية

تعريف بالمؤرخ توينبي وكتابه:

أرنولد توينبي مؤرخ إنجليزي صادق اشتهر بآرائه الشجاعة والموضوعية خاصة مواقفه من القضايا العربية وقضية فلسطين بالذات.

ولما تعرضت مصر في عام ١٩٥٦ للعدوان الثلاثي الذي اشتركت فيه ثلاث دول - إسرائيل وفرنسا وانجلترا لدى إعلان جمال عبد الناصر تأميم شركة قناة السويس بعد سحب أمريكا وحلفائها العرض الخاص بتمويل مشروع السد العالي- وجه توينبي لوما شديدا إلى حكومة بلاده لاشتراكها في ذلك العدوان الأثيم، وعقد مؤتمرًا صحفيًا شن فيه حملة صاعقة على العدوان الثلاثي فأثبت بذلك أن المؤرخ يجب أن يقف إلى جانب الحق الواضح حتى لو اختلف مع موقف بلاده وحكومته .

وقد اشتهر توينبي بكتابه الهام «دراسة للتاريخ» A Study of History الذي ألفه في عشر مجلدات وشرح فيه آراءه. وقد زار توينبي مصر ولقي ترحيبا وتكريما من تلاميذه ومن الجامعات المصرية.

---

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية - جامعة القاهرة.

وتمتاز آراء الأستاذ توينبي بالعمق الشديد والابتكار - كما يقول الأستاذ فؤاد محمد شبل الذي قام بتكليف من الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية بترجمة المختصر الذي وضعه المستر سومرفيل (D.C. Somervell) - لكتاب توينبي - (دراسة للتاريخ) للعربية.

وأرنولد جوزيف توينبي هو حفيد المؤرخ أرنولد توينبي (١٨٥٢-١٨٨٣) الذي اشتهر بأنه باحث اقتصادي ومصلح ويعتبر رائدا في دراسة التاريخ الاقتصادي وله دراسات عديدة عن الثورة الصناعية في انجلترا في القرن الثامن عشر، وقد أقيمت قاعة تخليدا لذكراه (Toyn-bee Hall).

ويرى جوزيف توينبي أن البحث التاريخي يجب أن يركز على دراسة المجتمعات الإنسانية، وقد قسمها إلى واحد وعشرين مجتمعا، وذكر أن معظمها قد اندرس، ويرفض توينبي الدعوة بتفوق الجنس الأبيض وتميزه عن باقي الأجناس، فجميع الأجناس- من وجهة نظره- قد ساهمت في قيام الحضارات.

وقد حرص المستر سومرفيل في المختصر الذي وضعه لكتاب (دراسة التاريخ) على الاحتفاظ بجميع آراء توينبي بل إنه في معظم الأحيان استخدم عباراته الأصلية ولم يحذف إلا ما اعتبر أنه لا يخل بفكرة الكتاب الأصلية.

وقد جاءت الترجمة التي قام بها الأستاذ فؤاد محمد شبل بتكليف من الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية والتي ظهرت طبعتها الأولى في عام ١٩٦٠- في أربعة مجلدات. وسنركز حديثنا هنا على آراء توينبي في القضية الفلسطينية وسنشير لصفحات الترجمة العربية لأنها هي التي في متناول يد القارئ العربي.

اليهود والصهاينة في كتابات توينبي

تعرض توينبي لوضع اليهود في العالم وموقف العالم الغربي منهم ووضعهم في البلاد العربية الإسلامية، بالإضافة إلى القضية الفلسطينية وما يقوم به الصهاينة من أعمال وحشية في فلسطين، وتتميز آراؤه في هذا الشأن بالموضوعية والصراحة التي قلما نجدها عند المؤرخين الغربيين المؤيدين في العادة لمواقف حكوماتهم المتحيزة للصهاينة.

ولعل هذا ما دفع الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية للتفكير في ترجمة المختصر الذي وضعه المستر سومرفيل لكتاب توينبي (دراسة للتاريخ) للعربية[1].

وسنعرض هنا لبعض ما جاء بهذه الدراسة عن اليهود وفلسطين والقضية الفلسطينية.

صفات اليهود وموقف الأوروبيين منهم:

يحدث توينبي عن تشتت اليهود، والنقمة التي تعرضوا لها في أرض الشتات وعن الصفات التي ميزت اليهود في حياتهم لينعزلوا في حي خاص بهم أطلق عليه (الغيتو) بسبب ما أطلق عليه (صدمة النقمة) وأن حياتهم في البلاد التي نزحوا إليها ونشاطهم في ممارسة تجارة التجزئة صبغتهم بهذه الصفات التي جعلت أهل البلاد التي نزحوا إليها ينظرون إليهم نظرة بغض واشمئزاز.

وقد ميز بين جماعتين من اليهود:

أولا: الاشكينازيون- الذين انجهوا إلى رومانيا والأراضي المتاخمة لها التي كانت داخلة في الإمبراطورية الروسية.

ثانيا: السفارديم- الذين وفدوا من البلاد الإسلامية إلى دول أوروبا الغربية.

وذكر أن قيام المسيحية الغربية وامتدادها - أدى إلى الصدام المستمر بين الشعوب الأوروبية واليهود، فأصبح اليهود يطردون من بلد بعد الآخر خاصة بعد أن أصبحوا يؤثرون في اقتصاد هذه الدول الأوروبية. فقد سمحت الدول الأوروبية لهم بالإقامة بين ظهرانيها إبان المراحل الأولى لتحولها الاقتصادي باعتبارهم رواد تجاريين- لكنهم ما لبثوا أن تعرضوا للاضطهاد ثم طردوا في النهاية مرة أخرى بمجرد أن أصبحوا غير ضروريين للحياة الاقتصادية في البلاد التي لجأوا إليها، فمثلا في عهد ملك انجلترا إدوارد الأول (١٢٧٢-١٣٠٧) طردهم الإنجليز من انجلترا، لكن أذن لهم كرومويل (١٦٥٣، ١٦٥٨) بالعودة إلى إنجلترا وذلك حين بلغت أمم الغرب مستوى من الكفاية الاقتصادية لم تعد تخشى معه المنافسة الاقتصادية اليهودية.

اليهود في شبه الجزيرة الأيبرية

يذكر توينبي أن اليهود في أسبانيا والبرتغال تمتعوا بحياة طيبة طوال فترة الحكم الإسلامي ولم يختلف وضعهم عن وضع إخوانهم في البلاد الإسلامية وفي المقاطعات الرومانية التي استولى عليها العرب، وأن وضع اليهود في عهد الخلافة العباسية لا يختلف عن وضعهم في البلاد العربية المختلفة- لكن بانتقال شبه جزيرة ايبريا تدريجيا من المسلمين إلى المسيحيين الغربيين الذي تم في نهاية القرن الخامس عشر- تغير وضع اليهود منذ عرض عليهم المسيحيون أن يختاروا بين أمور ثلاثة اعتناق المسيحية أو الطرد أو الإبادة[2].

ويذكر أن اليهود الذين اختاروا الخروج من أسبانيا والبرتغال وجدوا ملاذا لهم فى هولندا وتركيا وتوسكانى، والذين تعدوا تركيا شجعهم حماتهم من الأتراك العثمانيين على الإقامة فى القسطنطينية وسالونيك، وفى المراكز الحضارية الصغيرة فى الرويلى حيث كان هناك مجال لنشاطهم فتخصصوا فى التجارة، وراجت أحوالهم.

أما يهود شبه جزيرة ايبريا الذين ارتضوا اعتناق الدين المسيحى فقد فقدوا صفاتهم اليهودية المميزة لهم، وانصهروا فى سكان أسبانيا والبرتغال.

ولا شك فى أن هذا اعتراف صحيح وواضح من مؤرخ إنجليزى بروح التسامح والمعاملة الطيبة التى لقيها اليهود فى البلاد العربية التى هاجروا إليها قبل أن يقودهم دعاة الحقوق اليهودية لاغتصاب أرض العرب فى فلسطين لإقامة وطن قومى لهم.

وقد شرح توينبى بوضوح هذا التطور الذى طرأ على أوضاع اليهود فى البلاد العربية.

الصهيونية وإقامة دولة قومية لليهود:

يشير إلى أن حزبا من اليهود اتجهوا إلى إقامة دولة قومية وفقاً للشكل الغربى، وأن هؤلاء الصهيونيين يهدفون إلى تخليص الشعب اليهودى من (العقدة النفسية) التى كونتها قرون النقمة التى تعرضوا لها من وضعهم كشعب شاذ.

فقد انقسم اليهود إلى فريقين:

الاندماجيون: الذين يرون أنه يحسن أن يصبح اليهودى فى هولندا أو انجلترا أو أمريكا مجرد مواطن هولندى أو إنجليزى أو أمريكى يهودى الدين. أى يصبح مجرد مواطن مندمج فى المجتمع الذى يعيش فيه – فقط يختلف فى أنه يتوجه إلى المعبد اليهودى يوم السبت عوضا عن الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد.

الصهيونيون: وهم ينادون بإنشاء وطن قومى لليهود يصبح فيه اليهودى كالإنجليزى فى انجلترا – سيداً فى بيته الخاص.

ويشير توينبى إلى أن يهود العالم الإسلامى هم الوحيدون الذين خلت حياتهم من العقد النفسية التى تمكنت فى نفوس اليهود الآخرين وذلك بفضل سماحة الإسلام ودماثة أخلاق أهله.

اليهود يدعون أنهم شعب الله المختار:

يذكر توينبى أن أقبح شئ هو (عبادة الذات)، فقد رفع شعب مملكتى إسرائيل ويهوذا نفسه فوق الشعوب السورية المحيطة بهم، واعتنق فكرة أن الله جعلهم وحدهم (شعب الله المختار) بموجب عهد أبدى، وأن هذا الادعاء أوقعهم فى خطأ سحيق، وأن ذلك انحرف بهم إلى النقم الفكرى وقادهم إلى نبذ كنز أعظم قدرا، هبأه لهم الله بقدم عيسى الناصرى[٣].

الصراع الاقتصادى بين اليهود والمسيحيين:

يذكر توينبى أن الصراع الاقتصادى بين اليهود والمسيحيين فى الغرب مر فى أربعة فصول (مراحل):

الفصل الأول: كان فيه اليهود موضع الكراهية لكن المجتمع الغربى لم يكن فى غنى عنهم اعتقاديا.

الفصل الثانى: حين اكتسبت البرجوازية المسيحية قدراً كافياً من الخبرة والمهارة ورأس المال- مما دفعهم لمحاولة انتزاع المكانة التى يحتلها اليهود المحليون وقد بلغت انجلترا هذه المرحلة فى القرن الثالث عشر الميلادى، وبلغتها سبانيا فى القرن الخامس عشر، وبولندا والمجر فى القرن العشرين.

وفى **الفصل الثالث:** لقد وطدت البرجوازية المسيحية أقدامها وتمكنت تماما من الفنون الاقتصادية لدى اليهود فلم يكن لديها خوف من المقدرة الاقتصادية عند اليهود فأجازت لهم الدول الأوروبية العودة إليها- وتبع هذا التحرر الاقتصادى لليهود فى العصر الحديث تحررهم اجتماعيا وسياسيا- وساعدت على ذلك ثورة الإصلاح البروتستانتى التى حكمت جبهة الكنيسة الكاثوليكية الواحدة والمعادية لليهود، وما أن حل عام ١٩١٤ حتى كان تحرر اليهود رسميا فى جميع مجالات النشاط البشرى فى الدول الغربية.

الفصل الرابع: فى هذه المرحلة نكأ الجرح القديم- ذلك الحاجز السيكلوجى القائم بين المسيحيين من أهل الغرب واليهود- منذ كان اليهود ما زالوا يمثلون جبهة موحدة تتعامل ويشعرون بالازدراء والاستهانة تجاه غيرهم وزاد هذا الاتجاه وضوحا فى مدن مثل لندن ونيويورك نتيجة للهجرة اليهودية التى اندفعت إلى هذه البلاد تحت ضغط الاضطهاد الروسى- واشتدت هذه الفئة ضراوة فى النمسا الألمانية، وفى الرايخ الألمانى نتيجة هجرات يهودية أخرى وفدت إليها خلال الحرب العالمية وما بعدها وأدت هذه الأحداث إلى اختراع اليهود قومية

تقتصر عليهم ومن هنا جاءت فكرة جمع اليهود المشتتين بين دول العالم في دولة قومية خاصة بهم[٤٤].

تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية (Theodor Herzl):

كانت الصهيونية - كما يشير مؤسسها تيودور هرتزل- نتيجة قلق اليهود من إغلاق الطريق الذي يؤدي إلى استيعابهم كأفراد في المجتمعات الأخرى بتأثير بعض القومية بين المسيحيين الغربيين- وأدى هذا على أن تنبعث في نفس المنطقة الجغرافية- أي في الأراضي التي يتحدث أهلها الألمانية من الإمبراطورية النمسوية- الصهيونية اليهودية- وفي نفس الوقت النزعة الجديدة المناهضة للسامية.

اليهود يرتكبون نفس الجريمة التي كانوا هم ضحاياها:

يذكر توينبي أنه من سخريات التاريخ- إنه غداة أفظع ألوان الاضطهاد التي حلت بالشعب اليهودي في تاريخه- نجد اليهود أصحاب التوجه القومي الجديد- وهو الصهيونية - يقيمون على أنفسهم الحجة بأن الدرس الذي تعلمه الصهاينة من الفظائع التي قام بها النازي ضد اليهود لم يدفعهم إلى تتكب ارتكاب نفس الجريمة التي كانوا هم ضحاياها ، بل راحوا يضطهدون شعبا أضعف منهم، وهم الفلسطينيون العرب، الذين كانت كل جريمتهم لدى اليهود أن فلسطين كانت وطن أجدادهم، وإذا كان اليهود الإسرائيليون لم يقترفوا آثار النازيين إلى درجة إبادة العرب في معسكرات الاعتقال وحجرات الغاز- فإنهم استضعفوا غالبيتهم- وقد جاوزوا نصف المليون- بطردهم من الأراضي التي شغلوها وزرعوها أجيالا هم وآباؤهم من قبل، والاستيلاء على المتاع الذي عجزوا عن حمله أثناء فرارهم، ومن ثم أصبح العرب في حالة العدم وغدوا قوما لاجئين[٤٥].

ويضيف قائلا- إن التجربة الصهيونية أثبتت أن الخصائص اليهودية- التي طالما ألصقها المسيحيون منذ أمد طويل باليهود المقيمين بين ظهرانيهم- هي حصيلة الملابسات الخاصة التي صاحبت تشتت اليهود في أنحاء العالم الغربي.

وإن تناقض الصهيونية - أنها إذ تبذل جهدها الشيطاني لتشييد صرح جامعة يهودية لحما ودما، ما برحت تعمل بنفس القدر من النشاط لانخراط اليهود في عالم غربي.

اليهود والشعوب العربية المحيطة بهم:

يشير على أن اليهود يسعون بضعف وبقوة لتثبيت أقدامهم في أرض فلسطين التي

احتلوها- لكن لانعرف ما تخبئه الأيام لهم إذ أن الشعوب العربية المحيطة بهم مصممة على طرد الدخلاء من بين ظهرانيها- وهذه الشعوب القريبة يفوق عددها الإسرائيليين بكثير- وإن كان تفوقها العددي بحده في الوقت الحاضر- كما يذكر- نقصها في الطاقة والكفاءة . ولكن كما يذكر- فإن الأمر لا يتوقف على العرب والإسرائيليين فحسب- فإن لكل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة مصلحة في هذه المنطقة.

هل تنجح الصهيونية- في إقامة أمة مستقرة كما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية واستراليا ونيوزلندا ؟

إن الوضع مختلف تماما فالرواد البروتستانت المحدثون من المسيحيين الغربيين أقاموا الولايات المتحدة الأمريكية واستراليا ونيوزلندا بعد أن أبادوا الشعوب الأصلية في هذه البلاد - لكن العرب فطنوا لما يرمي إليه اليهود ويحاولون دون تحقيق أهدافهم .

العوامل التي تؤثر في موقف الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة:

يذكر أنه يصعب التنبؤ بموقف الاتحاد السوفيتي من القضية الفلسطينية لكن فيما يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية فالعامل المحدد لسياستها الفلسطينية يكمن في التفاوت الكبير في عدد وثراء ونفوذ كل من العنصرين اليهودي والعربي في مجموعه سكان تلك البلاد إذ يبدو الأمريكيون العرب- إذا قورنوا باليهود الأمريكيين- كمًا مهملاً، حتى وإن أخذ في الحسبان أولئك العرب اللبنانيون ذو الأصل المسيحي، أما الجانب اليهودي من كتلة المواطنين الأمريكيين، فهو يمارس سلطانا سياسيا ، لايتناسب إطلاقا مع عدد أفراده، ذلك لأن اليهود الأمريكيين يتمركزون في مدينة نيويورك وهذا أمر له وزنه في معترك المنافسة على كسب الأصوات في السياسة الأمريكية المحلية في دولة رئيسة. على أن تقديرات الساسة من المسيحيين الأمريكيين لأصوات اليهود في الانتخابات ليست هي - كما يتجه إليه اعتقاد بعض المراقبين الذين لايقلون عن هؤلاء الساسة حمقا- التفسير الكامل للتأييد الساحق الذي يذلته حكومة الولايات المتحدة لإسرائيل ، خلال السنوات الحرجة التي أعقبت مباشرة انتهاء الحرب العالمية الثانية. فلم تكن هذه السياسة انعكاسا لمجرد تقديرات جافة لاعتبارات داخلية، وإنما كانت أيضا انعكاسا لشعور الرأي العام في أمريكا باللامبالاة ، ومثالية وتشويه معلوماته .

ما يلزم أن يقوم به العرب في ضوء كتابات توينبي.

لقد كان توينبي دقيقا في ترضيح أهداف الصهيونيين واتجاهاتهم، وقد أعطى مثلا واضحا بما فعله المهاجرون الأوروبيون إلى أمريكا واستراليا ونيوزلندا بشعوب هذه البلاد الأصليين فلقد أبادوهم ليحلوا محلهم، وذكر أن اليهود الصهاينة حولوا عرب فلسطين إلى مهاجرين ويهدفون من وراء ذلك إلى تفريغ هذه البلاد من سكانها ليجمروا فيها اليهود من مختلف بقاع العالم. فالعرب مطالبون اليوم أن يقفوا بكل إمكانياتهم وقوتهم في وجه هذه الموجة الشرسة وواجب العرب في الولايات المتحدة الأمريكية أن يتكتلوا ويشعروا أصحاب القرار أنهم قوة مؤثرة يجب أن يعمل حسابها- والعرب لهم من يقظتهم ومن إمكانياتهم ما يحفظ لهم حقوقهم.

الهوامش

١- انظر الجزء الأول من الترجمة العربية لمختصر دراسة للتاريخ (١٩٦٠) ص٢٢٤ وما بعدها.

٢- الطبعة العربية من الملخص (١٩٦٠) ص٢٢٩ .

٣- الجزء الثاني من ترجمة الملخص طبعة (١٩٦١) ص٥٩ .

٤- انظر مختصر دراسة للتاريخ ج٣ (١٩٦٤) ص٣٢٣ وما بعدها.

٥- جزء ٣ من الملخص المشار إليه ص٣٢٦ .

د. مرفت اسعد عطا الله(*)

العالم العربى فى كتابات المؤرخ الإنجليزى
بيتر هولت Peter M. Holt

يعتبر المستشرق الإنجليزى بيتر هولت من المؤرخين البارزين فى التاريخ الحديث، وقد شغل العديد من المناصب التى زودته بخبرات كبيرة. وقد اهتم بصفة خاصة بدراسات العالم العربى الحديث والمعاصر. وقد عاصر هولت المؤرخ الإنجليزى الشهير أرنولد توينبى Arnold Toynbee (١٨٨٩- ١٩٧٥) .

ولد بيتر مالكولم هولت فى ٢٨ نوفمبر ١٩١٨ ، ودرس بمدرسة لورد ويليام Lord William ، ثم التحق بجامعة أكسفورد Oxford University حيث حصل على درجتى الماجستير والدكتوراة . وفى الفترة من ١٩٤١-١٩٥٣م الحقته بريطانيا للعمل بوزارة التربية فى السودان. ثم نقلته إلى دار الوثائق السودانية فى الفترة من ١٩٥٤ إلى ١٩٥٥ . وفى عام ١٩٥٥ قبل حصول السودان على استقلاله - عاد إلى المملكة المتحدة للتدريس فى مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية The School of Oriental and African (BSOAS).

وفى عام ١٩٦٤ عين أستاذاً للتاريخ العربى بالمدرسة نفسها. وفى الفترة من ١٩٧٥ إلى ١٩٨٢ عين أستاذاً لتاريخ الشرق الأدنى والأوسط فى جامعة لندن. وقد منحته جمهورية السودان فى عام ١٩٨٠ الميدالية الذهبية فى العلوم والفنون تقديراً له على خدماته للسودان[1]. وتوفى هولت فى أواخر العقد الثامن من القرن العشرين.

---

* مدرس التاريخ الحديث والمعاصر - كلية التربية - جامعة الاسكندرية .

وقد أمدنا هولت بمجموعة هامة من البحوث والمقالات [٢]. ولقد مكنته معرفته الجيدة باللغة العربية من الاطلاع على المخطوطات العربية الموجودة في المتحف البريطاني British Museum بلندن ومكتبة البوديان Bodleian بأكسفورد ، والمكتبة الوطنية Bibliothèque Nationale بباريس، والمكتبة الوطنية Nationalbibliothek بفيينا ، وغيرها من المكتبات الأخرى[٣].

وفي إطار الحديث عن العالم العربي في كتابات بيتر هولت فقد وقع اختياري على كتابه «مصر والهلال الخصيب ١٥١٦-١٩٢٢ ، تاريخ سياسي».

P.M. Holt , Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922 . A Political History (Cornell University press, Ithaca and London, 1980).

نظراً لأن الكتاب يشتمل على العديد من البلاد العربية، ويتناول تاريخها في فترة زمنية ليست بالقصيرة فهي تصل لحوالي أربعة قرون .

نشر هذا الكتاب في المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٦م، نشرته مطبعة جامعة كورنيل Cornell University Press بلندن واتيكا ، ونشر في الولايات المتحدة للمرة الثانية في ١٩٦٧ ، وتم نشره عدة مرات أخرى فيما بين عامي ١٩٦٩و١٩٩٢ .

والحقيقة أنه لو نظرنا للتحديد الزمني والمكاني لموضوع الكتاب لوجدهما متوافقين لحد كبير جداً . فقد بدأ هولت فترته الزمنية بعام ١٥١٦م وهو العام الذي تم فيه الغزو العثماني للشام[٤]، أي الجناح الغربي من الهلال الخصيب . وبعدها في ١٥١٧ تم غزو مصر [٥]. وكان ذلك في عهد السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) .

وفي عام ١٥٣٤م كان غزو العراق[٦] أي الجناح الشرقي للهلال الخصيب . وكان ذلك في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦) أي أن هذه المنطقة العربية تم غزوها في الثلث الأول من القرن السادس عشر. وهكذا فإن بداية الفترة الزمنية التي اختارها هولت موفقة تماماً فهي الفترة التي تعرض فيها الهلال الخصيب ومصر للغزو العثماني.

أما العام ١٩٢٢ الذي اختاره هولت كنهاية للفترة الزمنية التي تناولها فقد كانت موفقة أيضاً لأنه هو العام الذي تحدد فيه مصير مصر ودول الهلال الخصيب على يد الدول الأوربية. كما تقرر فيه مصير مصر بصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢[٧] .

بالإضافة لذلك ، فإن هناك سمة مشتركة بين منطقتي مصر والهلال الخصيب ، فعلى حد قول هولت «في العصر الحاضر تعتبر مصر والهلال الخصيب مركزي الروح القومية التي تميز بصورة صارخة العرب عن جيرانهم في الشرق الأدنى من الفرس والأتراك والإسرائيليين . وهي ظاهرة حديثة يخرج الجانب الأكبر في تطورها عن الإطار الزمني لهذا الكتاب»[٨] يبدأ الكتاب بتصدير Preface من صفحة واحدة [٩]. يقول فيه هولت أن : «معظم الكتابات التي تناولت تاريخ تلك المنطقة كانت تنظر لها من الخارج فقط كقطع شطرنج في يد القوى العظمى تتحكم بها خططها الدبلوماسية والاستراتيجية . أما هذا الكتاب فهو محاولة لسد ثغرة في تلك الكتابات ، فهو يركز على التطورات الداخلية للمنطقة ، وليس على العلاقات الخارجية. كما أنه يهدف بمعالجته التفصيلية للفترة الواقعة بين الغزو العثماني في القرن السادس عشر وتأثير أوربا بعد ثلاثمائة سنة – تلك الفترة التي تعرضت للإهمال رغم أهميتها– النظر إلى التاريخ الحديث لهذه البلاد العربية من منظور أوسع».

ويتفق روبرت تجنور Robert Tignor الأستاذ بجامعة برنستون Princeton University مع هولت في هذا الرأي ، حيث يرى تجنور أن الموضوع المختار هام وأهميته تنبع من داخله فتاريخ البلاد العربية في مصر والهلال الخصيب في العصر العثماني (١٥١٦-١٩٢٢) . لايعرف عنه إلا القليل [١٠]. «كما أن تاريخ مصر في القرن التاسع عشر ، ودبلوماسية الحرب العالمية الأولى ونتائجها في منطقة الشرق الأدنى معروفة لنا تماماً ، ولكن اهتمام هولت بالتفاصيل وبشكل موضوعي قد زاد من فهمنا لها»[١١].

أما الناقد بيل بيريز Bill Perez ، الذي وضع نقداً للكتاب في شيكاغو في ٣١ ديسمبر ١٩٩٧ ، فيرى أن الكتاب ضروري جداً لأي شخص يريد فهم الحالة الحالية في الشرق الأوسط، وهو أيضاً كتاب جيد لأي شخص يهتم بالسياسة الداخلية للإمبراطورية العثمانية [١٢].

والحقيقة أن خبرة هولت تؤهله لخوض غمار هذا الموضوع بعد أن أثبت قدرته في تناوله للمهدية في السودان . وقد جمع هولت في هذا الكتاب أهم ما كتبه في المقالات الكثيرة التي نشرها في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية ، أو التي قدمها في مؤتمر التاريخ الحديث عام ١٩٦٥ ، أو التي قام بنشرها في دائرة المعارف الإسلامية .

Encyclopaedia of Islam , 2nd . edn. (Leiden, 1960). [١٣]

بدأ هولت تاريخه لهذه الفترة بمقدمة في تسع عشرة صفحة[١٤]، وهي عبارة عن خلفية جغرافية واجتماعية وتاريخية عن المنطقة موضوع الكتاب.

ففى القسم الجغرافى والاجتماعى، قسم هولت منطقة مصر والهلال الخصيب إلى ثلاث مناطق رئيسة لكل منها خصائصها المميزة . الأولى مصر ، والثانية العراق، والثالثة الولايات السورية.

ثم بدأ يتحدث عن أهم مدن المنطقة والغريب أن فى الصفحة رقم ٣ قد بدأ فى الحديث عن مدن المنطقة وفى الصفحتين التاليتين هما ٤ و٥ تطرق للحديث عن نقطة أخرى وهى سكان مصر والهلال الخصيب، والأقليات العنصرية والدينية الموجودة بالمنطقة ومدى ولاء الجميع للسلطان العثمانى، والسمة البارزة فى المنطقة من حيث انقسام المجتمع إلى حزبين أو طائفتين متناقستين. ثم يعود مرة أخرى فى الصفحة رقم ٦ ليستكمل الحديث عن مدن المنطقة.

وفى حديثه عن المدن ذكر أن أصول مدن المنطقة كانت مختلفة . فبعضها كان يقع فى نفس مواقعه الضاربة فى القدم، كدمشق فى واحتها الكبيرة، بينما قامت مدن أخرى، كبغداد والقاهرة ، حول قصور الأسر السابقة. وكانت هناك مدن أخرى كبيت المقدس والنجف وكربلاء، تعتبر مدنًا مقدسة . وكانت أكثر المدن ازدهارًا فى العصر العثمانى هى تلك التى كانت مراكزًا إدارية وتتمتع فى الوقت نفسه بموقع مناسب للتجارة . والواقع أن الإدارة والتجارة، سارتا جنبًا إلى جنب . فالتجارة كانت تجد أقصى درجات الأمن فى المناطق المجاورة مباشرة للإدارة الفعالة . وهكذا كانت القاهرة ، ودمشق ، وحلب والموصل ، وبغداد ، والبصرة، عواصم ولايات ومراكز تجارية فى وقت واحد[١٥].

ثم تحدث هولت عن موانئ البحر المتوسط على سواحل مصر وسوريا التى تنفتح على عالم أكثر اتساعًا . وعن موانئ البحر الأحمر التى ترجع فى تاريخها إلى أقدم العصور. وتحدث عن البصرة التى تقع على شط العرب وهى حلقة الاتصال بالخليج، تلك المدينة التى كانت لها أهميتها الاقتصادية والسياسية حتى فى أوقات تدهورها .

وذكر أيضًا أنه كانت هناك بعض المدن الداخلية التى تقوم بدور مشابه لدور الموانئ البحرية، حيث كان موقعها يتيح النفاذ إلى خطوط الاتصال بالأراضى الواقعة خارج الإقليم.

ثم تحدث عن سكان تلك المدن فذكر أنه يمكن التفرقة بين ثلاث مجموعات رئيسة من سكان المدن وهم: عمال الحكومة ، والموظفون الدينيون، والتجار والصناع والحرفيون. وكان للعلماء مكانة مرموقة ونفوذ لدى كل من أصحاب السلطة السياسية وجموع الناس، مكنتهم من القيام بالوساطة بين الفريقين، وكانوا يقدمون خدمة لها قيمتها فى الحفاظ على الاستقرار فى أوقات الأزمات[١٦].

ثم ذكر أنه بعد الفتح العثمانى لمصر والهلال الخصيب كان كبار موظفى الحكومة، وقوات الجامبات، وكبار القضاة من رعايا السلطان الناطقين بالتركية، وهكذا كان هناك صفوة حاكمة أجنبية ، وإن لم تكن هذه بالظاهرة الجديدة فى هذه المناطق العربية، ولكن بمرور الوقت تغير الموقف الأصلى بانتقال السلطة إلى أيدى جماعات وطنية واستيعاب سكان المدن المدنيين فى القوات العثمانية، وبتجنيد قوات محلية[١٧].

ثم تحدث عن النظم البرلمانية فى المدن العربية فقال أنه لم تكن توجد مجالس مدن فى أى منطقة من مناطق الإمبراطورية العثمانية حتى بدأت محاكاة النماذج الأوربية لهذه المجالس فى القرن التاسع عشر.

والحقيقة أن هولت لم يوفق فى هذا القول لأن القاهرة والمدن الكبرى فى مصر قد عرفت نظام الدواوين، ذلك النظام الذى أدخله نابليـــون بونابرت Napoleon Bonaparte (١٧٦٩-١٨٢١م) فى أثناء الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١) أى منذ أواخر القرن الثامن عشر.

وأكمل هولت أنه مع ذلك لم يكن سكان المدن يفتقرون تمامًا إلى التنظيم أو لايجدون من يدافع عنهم. فقد منحتهم عضويتهم فى الطرائف الحرفية قوة وتماسكًا[١٨].

ثم تناول الحديث عن البنية الطبيعية للمدن العربية وكيف كانت توفر الأمن لسكانها ، فكانت عبارة عن تجميع لأحياء منفصلة ، يحيط بكل حى منها سور خاص به. وكان الحى يضم عائلات يجمعها الاشتراك فى قرابة، أو مهنة، أو عقيدة من عقائد الأقليات[١٩]. وكان دور القرويين فى صنع التاريخ من وجهة نظر هولت أقل من دور سكان المناطق الحضرية.

وكان للبدو دور فى اقتصاد منطقة مصر والهلال الخصيب. فقد كانوا يمدون القرويين وسكان المدن بالحيوانات والمنتجات الحيوانية ، بينما كانت القوافل مالكة الإبل توفر وسيلة النقل والأدلاء للتجار والحجاج . مقابل ثمنًا لسلعهم وخدماتهم . ولم يكن هذا الثمن من منتجات أو مصنوعات القرى والمدن فحسب ، بل كان يشمل أيضًا رسومًا تفرض على المسافرين لضمان سلامة تنقلاتهم، كما كانت تفرض إتاوات على القرويين مقابل عدم الإغارة عليهم[٢٠]. فحتى القرن التاسع عشر كان البدو يتفوقون على السكان المستقرين ، حيث كان يستحيل الوصول إليهم لتأديبهم على تعدياتهم[٢١]. وكان استقرار القبائل، إذا سمحت الظروف المواتية ، وتحول رؤسائها إلى ملاك للأرض، يعتمدون على الحكومة، فكان ذلك من العوامل الهامة فى القضاء على خطر هؤلاء البدو فى القرن التاسع عشر[٢٢].

وقد تحدث هولت عن ظاهرة تعد من أهم الملامح البارزة فى تاريخ مصر والهلال الخصيب فى العصر العثمانى ألا وهى ميل المجتمع فى الانقسام إلى طائفتين متنافستين. ففى مصر كانت هناك جماعتا سعد وحرام [٢٢]، وبمرور الوقت حلت أسماء جديدة محل سعد وحرام فظهرت الفقارية والقاسمية [٢٤]. وفى سوريا كان الصراع بين طائفتى قيس ويمن [٢٥]. وانتهى الصراع بينهما بالقضاء على قوة الحزب اليمنى فى موقعة عين دارا ١٧١١، ثم بدأت الصراعات من جديد عندما انقسم القيسيون فيما بينهم إلى اليزبكيين والجنبلاطيين[٢٦].

ويعلق المؤلف على تلك الظاهرة أن «هذا الانقسام كان كامنًا فى جميع العصور، ولكنه كان يتحول إلى ظاهرة سياسية مهمة عندما يعجز جهاز الحكم الرسمى عن أداء المهام المنوطة به. وهكذا شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر، عندما كانت السلطنة والإدارة العثمانيتان فى أشد حالاتهما ضعفًا، ذروة الصراع الطائفى. ثم خمد هذا الصراع مرة أخرى فى القرن التاسع عشر، عندما قويت الإدارة وزادت مركزيتها على يد السلاطين العثمانيين وولاة مصر»[٢٧].

والحقيقة أن هولت على حق تامًا فى اعتباره أن ضعف السلطنة والولاة العثمانيين هو السبب فى ظهور ذلك الانقسام فى المجتمع. ومن الممكن أن نضيف إلى ذلك، أنه كان من سياسة الدولة العثمانية بذر بذور الشقاق بين القرى المحلية المتصارعة. فصراع تلك القرى فيما بينها على السلطة يحول دون اجتماع كلمتهم على الوحدة ومن ثم لايتحقق هدفهم حول الاستقلال بالولاية القائمين فيها.

أيضًا للناحية الجغرافية دور أساسى فى ظهور تلك الظاهرة فى المجتمعات العربية فعلى حد قول إدوارد لين Edward Lane : «إن أكثر الخصائص لشمائل أمة وعاداتها وأخلاقها إنما يرجع إلى الخصائص الطبيعية لإقليم هذه الأمة»[٢٨].

والحقيقة أن أكبر مثال لذلك: العداوات والمشاحنات التى كانت موجودة بين الأسر الإقطاعية فى جبل لبنان فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، نظرًا للخصائص الطبيعية لجبل لبنان، تلك المنطقة التى تتصف بالوعورة الشديدة[٢٩]. وكذلك مصر العليا والتى كانت مأوى أعداء الحكام الذين يتخذون من الدلتا مقرًا لحكمهم. ففى أوقات الفوضى أو ضعف الحكومات كانت مصر العليا هى المأوى الآمن حتى القرن التاسع عشر [٣٠].

بعد ذلك تناول ظاهرة أخرى من الظواهر التى ميزت المجتمع العربى فى مصر والهلال الخصيب. وهى ظاهر الولاء. «وكان أكثر أشكال الولاء لجماعة، هو الولاء الذى كان يشعر به الفرد تجاه الجماعة الدينية .. وقد أدت هذه العاطفة الإسلامية فى أغلب الأحوال إلى تقوية الإمبراطورية باعتبار السلطان العثمانى رئيسًا لدولة إسلامية... وجدير بالذكر أن المتمردين والمنشقين المسلمين، مهما بلغ من تمادهم فى اغتصاب سلطة السلطان، نادرًا ما كانوا يعترضون على حقه فى السيادة»[٣١].

والحقيقة أن هولت محق تمامًا فى هذا القول. ولو أخذنا مثالاً على ذلك لكان محمد على أكبر مثل. فبعد أن بدأت إمبراطوريته فى التكوين بعد أن دانت له مصر ١٨٠٥م، وشبه الجزيرة العربية بعد الحرب الوهابية (١٨١١-١٨١٨م) والسودان (١٨٢٠-١٨٢٢م) وكريت التى ضمها محمد على بعد حرب اليونان (١٨٢١-١٨٢٨م) بدأ محمد على بعد ذلك يخطو الخطوة الأخيرة فى إقامة الإمبراطورية وتقصد بذلك الاستيلاء على الشام وتحويل الحوض الشرقى للبحر المتوسط إلى بحيرة مصرية. ورغم ذلك ظل يعلن أنه لاينوى مطلقًا أن يحل محل السلطان محمود الثانى (١٨٠٨-١٨٣٩م) على عرش الآستانة رغم علمه «بما يدور فى الآستانة وبقدرة الباب العالى الحقيقية. إن فى استطاعتى (محمد على) أن أنزل السلطان عن عرشه بهجمة موفقة يقوم بها أسطولى. ولكن لا أحب أن أعتدى على حقوق أبنائه لأنهم خلفاء النبى (عليه الصلاة والسلام) وليس معنى هذا إننى أرهب جيوش السلطان... إننى استوليت على مصر بسيفى وإن أحدًا لايستطيع أن يخرجنى منها إلا بحد السيف فأنا تابع السلطان ولكننى أحتل مصر بحق الفتح وإننى وإن فتحت الشام سأظل تابعًا له ردحا من الزمن لعرشه»[٣٢].

ويستكمل هولت حديثه عن الولاء للسلطان العثمانى فيقول «وحتى الحرب العالمية كان القوميون العرب يكيفون مطالبهم السياسية فى الإطار التقليدى الراقى للسلطنة العثمانية»[٣٣]. وهنا لم يكن دقيقًا فى هذا القول ذلك أن نظرة الشعوب العربية إلى الحرب العالمية الأولى اختلفت اختلافًا كبيرًا، فنظرة أهل الشام فى مجموعهم تختلف عن نظرة أهل العراق، وعن نظرة أهل الحجاز، أو أهل اليمن، أو المصريين، أو غيرهم من الشعوب الخاضعة لحكم الدولة العثمانية. فإذا أخذنا الشام مثلاً نجد أن شعوبه قد انقسمت إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: كان يرى أن ينضم إلى جانب الدولة العثمانية في حربها ضد الحلفاء حتى إذا ما خرجت من الحرب ظافرة تمكنوا من أن يسووا ما بينهم من خلافات وأن ينالوا ما يريدونه من حقوق وامتيازات.

القسم الثاني: كانوا ينادون بالانضمام إلى الحلفاء ضد الدولة العثمانية ليتمكن هؤلاء من أن يحلوا محل العثمانيين في الأقطار العربية لأنهم كانوا أقدر على حكم تلك البلاد حكمًا ديمقراطيًا راقيًا على نمط الحكم الأوربي. وكان معظم المنادين بهذا الرأي ممن تثقفوا بثقافة أوربية في المدارس الأجنبية التي انشأتها البعثات التبشيرية في مختلف المدن الشامية.

القسم الثالث: يرى أن ينتهز العرب فرصة قيام الحرب للهجوم على الدولة العثمانية والتخلص من نير الحكم التركي وإنشاء دولة عربية كبرى على أنقاض الدولة العثمانية المنحلة.

أما في الحجاز فكان الأمر يختلف عن ذلك إذ كان الحسين بن علي والي الحجاز رجل قوي يستند في نسبه إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ويرى تخليص الأراضي المقدسة (الحجاز) بل وتخليص العالم العربي كله من نير الحكم العثماني. أي أنه كان يرى رأي الفريق الثاني من أهل الشام. أما في داخل شبه الجزيرة العربية فقد أثر عبد العزيز بن سعود الوقوف على الحياد، وكذلك الامام يحيى والي اليمن. وانضم آل رشيد للعثمانيين. وكذلك انضم أمير تهامة «محمد الادريسي» إلى الإنجليز.

أما عن موقف مصر فكان يختلف عن موقف زميلاتها من البلاد العربية، إذ كانت مصر ترزح تحت عبء الاحتلال الإنجليزي منذ ١٨٨٢. ولقد لعب النزاع المستمر بين اللورد كرومر Lord Cromer المعتمد البريطاني في مصر (١٨٨٢-١٩٠٧) وبين الخديو عباس الثاني (١٨٩٢-١٩١٤) دورًا هامًا في إذكاء الروح القومي والمطالبة بالحكم الدستوري والاستقلال عن بريطانيا مع البقاء تحت السيادة العثمانية الاسمية[٣٤].

ثم تحدث بعد ذلك عن نوع آخر من أنواع الولاء فقال: «كانت توجد داخل المجتمع الإسلامي شبكة من الولاءات لشيوخ الطبقات الصوفية فمنذ العصور الوسطى أحكمت الصوفية قبضتها على المسلمين. وجعلت تعاليمها - التي تحث على التقشف والتأمل الباطني، وتأكيدها على سلطان أولياء الله من الأحياء والأموات باعتبارهم الوسيلة إلى القدرة الإلهية، وطقوسها، وعبادتها الجماعية - المسلمين على اختلاف مراتبهم وتعليمهم»[٣٥].

والحقيقة ليس ثمة اختلاف مع هولت في هذا الأمر فعلى مر التاريخ الحديث ظهرت الحركات السلفية التي جمعت حولها الآلاف من الأتباع إلى الحد الذي تحولت فيه هذه الحركات من مجرد حركات دينية إلى حركات سياسية كما حدث في حركة محمد بن عبد الوهاب مؤسس الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وحركة محمد أحمد المهدي مؤسس الحركة المهدية في السودان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

بذلك تنتهي الخلفية الجغرافية والاجتماعية التي وضعها هولت عن مصر والهلال الخصيب في العصر العثماني والتي شملت الصفحات من ١ إلى ٩ من المقدمة لتبدأ بعد ذلك الخلفية التاريخية التي شملت الصفحات من ٩ إلى ١٩.

والحقيقة أن هذه الخلفية التاريخية قد أصابت القارئ بخيبة أمل كبيرة، فبما أن هولت بدأ الفترة الزمنية الخاصة بكتابه بعام ١٥١٦م وهو تاريخ غزو العثمانيين للشام ثم مصر في ١٥١٧، فقد كان من الأجدى به أن يتناول في تلك الخلفية التاريخية تاريخ دولة المماليك الشراكسة (١٣٨٢-١٥١٦م) على اعتبار أنها الفترة السابقة مباشرة للغزو العثماني لمصر والهلال الخصيب، وعلى أساس أن المماليك ظلوا طوال فترة الحكم العثماني لمصر والشام قوة ضاربة لها شأنها ولم ينته أمرهم بمجرد دخول العثمانيين لمصر والشام. وإذا فوجئ القارئ بأن تاريخ دولتي المماليك البحرية (١٢٥٠-١٣٨٢م) والشراكسة تحدث عنه هولت في صفحتين فقط (١٧-١٨) أما الصفحات السابقة من ٩ إلى ١٧ فلقد تناول فيها تاريخ مصر والهلال الخصيب منذ ظهور الإسلام.

وفي نهاية الخاتمة يقول: «نهاية القرن الخامس عشر ظهرت البلاد العربية كما نعرفها اليوم: أي الحزام الكبير من الأراضي الذي يضم شبه الجزيرة العربية، والهلال الخصيب، والقطاعات الوسطى من وادي النيل، والساحل الجنوبي للبحر المتوسط. ولم تكن هذه البلاد باستثناء شبه الجزيرة، عربية، بمعنى أن سكانها كانوا يتحدثون كلهم (أو حتى في جانب كبير منهم) من رجال القبائل الفاتحين في القرن السابع الميلادي، بل كانت عربية بمعنى أن سكانها كانوا في غالبيتهم يتكلمون ويكتبون باللغة العربية ويعتنقون الإسلام»[٣٦].

هذا فيما يتعلق بالمقدمة

بعد ذلك يقسم هولت الكتاب إلى ثلاث أقسام:

القسم الأول بعنوان «ذروة القوة العثمانية The Ottoman Heyday وتناول فيه ثلاث نقاط:

تحدث في الأولى عن «قيام الإمبراطورية العثمانية ووصولها لأوج عظمتها»

The Rise and Zenith of the Ottoman Empire.[٣٧]

ويعلل المؤلف تطرقه لقيام الدولة العثمانية وتوسعاتها بأن مصر والهلال الخصيب قد خضعتا منذ بداية القرن السادس عشر وحتى أوائل القرن العشرين، لحكم الإمبراطورية العثمانية، وبناء عليه لايمكن أن ندرس التطورات التي مرت بها الولايات العربية خلال هذه القرون الأربع منفصلة عن إطار النظام العثماني[٣٨].

في هذه النقطة تحدث هولت عن أمرين:

الأول: قيام الدول العثمانية توسعاتها

الثاني: النظام الإداري في الدولة العثمانية

ذكر هولت أن السلطان العثماني كان يتربع على قمة التنظيم الإداري والعسكري. وقد أخذ السلاطين بتقليدين أديا إلى سلامة الحاكم واتصافه بالكفاءة.

التقليد الأول: أنه كان من عادة السلطان أن يعين أبناءه كحكام للولايات في الإمبراطورية، فتهيأ للأمراء بذلك معرفة وخبرة فائقتان تمهيداً لاعتلاء أحدهم العرش.

أما التقليد الثاني: فقد مُنح السلطان الجديد الحق في قتل إخوته الباقين حتى لاينازعه أحد منهم على العرش في المستقبل.

ثم تحدث عن الجهاز الحاكم فذكر أنه قد مر في القرن الخامس عشر بتغيير ملحوظ. فلقد سيطر على الدولة العثمانية في بداية تكوينها فئة المحاربين المسلمين أحرار المولد الذين لم يكونوا أتراكًا وإنما اصطبغوا بالصبغة التركية عندما اعتنقتهم هذه المجموعة الحاكمة وكان هؤلاء اسباهية[٣٩] السلاطين الأول. وقد نظمت الإسباهية على أسس شبه اقطاعية إذ كانوا يمنحون إقطاعات من الأرض تسمى تيمارات timars يستغلونها مقابل خدماتهم تجاه الدولة. وفي الوقت الذي استمرت فيه هذه النخبة حتى الإصلاحات الإدارية الكبرى في القرن التاسع عشر، تفوقت عليها ابتداء من القرن الخامس عشر طبقة عسكرية جديدة جُمعت بواسطة نظام الدفشرمة[٤٠] the devshirme من أبناء البلقان المسيحيين الذين أمدوا الجيش بالمجند وشغلوا الوظائف الكبرى في العاصمة والولايات.

وعلى رأس الجهاز الحاكم كان يوجد الصدر الأعظم وهو بمثابة رئيس الوزراء، ويمثل السلطان العام في كل أمور الدولة.

واستطرد بأن الدولة العثمانية كانت مقسمة في بداية الأمر إلى عدد من الوحدات الإدارية الإقطاعية عرفت بالصناجق على رأس كل منها صنجق بك.

وقد عمدت الدولة إلى جمع عدد من الولايات الصغيرة فيما يسمى بالإيالة وكانت أولى هذه الإيالات هي الرومللي[٤١] Rumelia التي تكونت في عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٠-١٣٨٩م) من المتلكات البلقانية التي استولى عليها. وتكونت فيما بعد إيالة ثانية في الأناضول Anatolia كما أنشئت إيالات أخرى عندما ازدادت مساحة الإمبراطورية وعين على كل إيالة بكلر بك برتبة باشا[٤٢].

ثم تحدث عن المؤسسة الإسلامية وعلى رأسها مفتي استانبول الذي لقب بشيخ الإسلام والذي قام بدور ذي أهمية عظيمة، إذ كان السلطان يرجع إليه في إعداد القوانين لكي يتأكد من أن نصوصها لاتتعارض مع مبادئ الشريعة الإسلامية.

ثم تناول هولت الحديث عن الجماعات غير المسلمة التي تعيش في كنف الدولة العثمانية كاليهود والمسيحيين (أهل الذمة) وتحدث عن أحوالهم في ظل الدولة العثمانية المسلمة السنية.

أما النقطة الثانية في هذا القسم فتحدث فيها هولت عن «الإطاحة بدولة سلاطين المماليك»[٤٣] the Overthrow of the Mamluk Sultanate.

نظراً لتقربها من الدولة الصفوية عدوة الدولة العثمانية. ولم يعد هناك مفر من الصدام بين العثمانيين والصفويين وكانت معركة جالديران في ١٥١٤م. التي أيقن بعدها الفريقان أن كل منهما ليس بالخصم السهل. وهنا تقاربت وجهات نظر قنصوه الغوري والشاه اسماعيل، فتعهد الغوري بارسال قوات مملوكية إلى حدود سوريا الشمالية لتهديد الجيش العثماني، وخرج الغوري على رأس قواته في أوائل يوليو ١٥١٦ متجهًا إلى سورية بعد أن ترك أحد كبار قادته نائبًا عنه في القاهرة وهو طومان باي.

وفي أغسطس ١٥١٦ تقابل العثمانيون والمماليك في سهل مرج دابق. وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة للمماليك بسبب خيانة خاير بك الذي سحب القوات التي تحت إمرته في الفترة التي تحرج فيها القتال، فسقط الغوري المسن صريعًا، ودانت سورية كلها للعثمانيين. وواصل سليم سيره إلى مصر حيث هزم طومان باي في الريدانية في يناير ١٥١٧.

ثم تحدث عن الجاميات العثمانية التي تركها للدفاع عن مصر ولمنع المماليك من استعادتها مرة أخرى. فكانوا أربع فرق زيدوا إلى سبع . وكانت إدارة مصر تحت حكم خايربك تتبع نظام الحكم أيام سلاطين المماليك، حيث كانت الصبغة العثمانية لمصر محدودة جداً وظل حكام مقاطعات مصر من المماليك [٤٤].

والحقيقة أنه بحلول منتصف القرن السادس عشر، أكدت الدولة العثمانية مكانتها التاريخية وقد تحقق في عهد سليمان العظيم (القانوني) (١٥٢٠-١٥٦٦م) خوف الممالك الأوربية الأخرى واحترامها للدولة. فأصبح العثمانيون قوة يحسب لها كل حساب، ولاتستطيع أية قوة أوربية أن تنكر ذلك أو أن تقدر على تحديها . ويرجع نجاح السلطان سليمان في المحافل الدولية والمعلية إلى قدرته على إيجاد توازن للحفاظ على إمبراطورية كبيرة من ناحية، والاستقرار الداخلي من ناحية أخرى، واستطاع تحقيق هذا التوازن من خلال معاركه في الشرق والغرب والتي بدأت عقب توليه الحكم، ومن خلال إصلاحاته التي هدف منها تقوية النظام القانوني. سارت السياسة الداخلية للدولة العثمانية بالتوازي مع السياسة الخارجية، وقام السلطان سليمان بوضع برنامج لتقوية الدولة وجعلها دولة مركزية، فوضع اللوائح والقوانين لتنظيم الحكومة وتنمية مواردها المالية [٤٥].

وهذا ما حاول هولت أن يبرزه ولكن بشكل مختصر للغاية في النقطة الثالثة من القسم الأول : «سليمان العظيم (القانوني) والأراضي العربية» [٤٦] Süleyman the Magnificent and the Arab Lands.

حيث تحدث عن أحوال البلاد العربية بعد وفاة السلطان سليم الأول في عام ١٥٢٠م، واعتلاء السلطان سليمان القانوني الذي بلغت الإمبراطورية في عهده أوج عظمتها.

فذكر هولت أن بداية عصر سليمان شهد قيام الثورات ضد الحكم العثماني في البلاد العربية. ثم تطرق إلى الحديث عن مواجهة العثمانيين لأخطار البرتغاليين ، وكيف أنهم بذلك قد ورثوا من أسلافهم المماليك مهمة حماية البحر الأحمر ومداخله من تهديدات البرتغاليين.

ثم تناول حملة أزدمر باشا حاكم اليمن لفتح الساحل الأفريقي حتى باب المندب بهدف حماية البحر الأحمر من البرتغاليين. والاستيلاء على سواكن ومصوع في عام ١٥٥٧م. ثم استطرد منحدثا عن استكمال الفتوحات العثمانية للبلاد العربية فلقد تحدث عن اليمن وبقي الحديث عن العراق وهو الجناح الشرقي للهلال الخصيب.

وفي عام ١٥٣٤م أعلن سليمان الحرب على الصفويين قصد بها حرب وقائية ليمنع انتعاش أي ملكية عسكرية قوية في فارس. وفي خلال الحملة تم الاستيلاء على تبريز وبغداد وبذلك انتهت حملة سليمان امتداد الحكم العثماني على الأجزاء الشمالية والوسطى من العراق. أما في الجنوب فكان ميناء البصرة يخضع لحكم شيخ عربي يدعى راشد بن مغامس الذي انتهى أمره على يد العثمانيين في عام ١٥٤٧م، حيث ضمت البصرة والمناطق المحيطة بها إلى الإمبراطورية العثمانية . وبالاستيلاء على هذه المدينة وصل العثمانيون إلى رأس الخليج العربي حيث جابهوا قوة البرتغال البحرية.

هذا فيما يتعلق بالقسم الأول من الكتاب. أما القسم الثاني فهو بعنوان «اضمحلال الإمبراطورية العثمانية The Ottoman Decline فقد تناول فيه هولت ثماني نقاط الرابعة بعنوان «تدهور الإمبراطورية العثمانية» [٤٧] The Ottoman Empire in Decline ونبهنا لحدث هولت عن عوامل ضعف الدولة العثمانية. سواء أكانت عوامل داخلية أم خارجية.

فذكر أنه بوفاة السلطان سليمان القانوني انتهى عهد السلاطين الأقوياء الأكفاء وتتابع على العرش سلاطين ضعاف باستثناء السلطان مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠م) وفي أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ظهر السلاطين المصلحون أمثال سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م)، والسلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) اللذان جاهدا لإعادة تنظيم البناء العسكري والإداري لإمبراطوريتهما لمجابهة متطلبات العصر الحديث.

ويستكمل سرد أسباب ضعف الدولة العثمانية فيقول أنه عندما انتاب سلاطين آل عثمان الضعف أخذ نفوذ الصدور العظام في النمو . وفي ١٦٥٤م حصل الصدر الأعظم على مقر رسمي له ظل لمدة قرنين المركز الرئيس للإدارة العثمانية وأصبح اسمه منذ القرن الثامن عشر «الباب العالي» . وكان أبرز الصدور العظام الذين تولوا هذا المنصب، من أسرة كوبرولو التي ظهرت في أواخر القرن السابع عشر.

ثم تحدث عن العوامل الخارجية التي أدت لضعف الدولة العثمانية ومنها الفتوحات الكبيرة التي قامت بها الدولة والتي وصلت في القرن السادس عشر إلى أقصى اتساع لها. فقد جرّت تلك الفتوحات للدولة العثمانية عداء الصفويين، فمن ناحية الشرق تكاتفت عوامل كثيرة على إيقاف القوة العثمانية عند الحدود الإيرانية، وجرت عليها فتوحاتها أيضًا في الغرب عداء أسرة الهابسبرج ذلك العداء الذي استنهض بأن وقعت الدولة العثمانية مع النمسا معاهدة

كارلوفتز Carlowitz عام ١٦٩٩م والتى أجبرت الدولة العثمانية على رد غالبية أراضى المجر وهى أول معاهدة توقعها الدولة العثمانية باعتبارها دولة مهزومة . على أن الصراع بين الدولة العثمانية وروسيا كان أكثر خطراً فتصميم القيصر بطرس الأكبر Peter the Great (١٦٨٢١-١٧٢٥م) فى الحصول على مركز فى المياه الدفيئة قاده إلى تنظيم حملة كبيرة فى عامى ١٦٩٥-١٦٩٦م ضد أزوف. وبعد احتلاله كاترين الثانية Catherine II (١٧٦٢-١٧٩٦م) واصلت نفس السياسة التى بدأها بطرس الأكبر، وكانت الحرب الروسية - العثمانية (١٧٦٩-١٧٧٤م) ونكبة على السلطان وانتهت بتوقيع معاهدة كوتشك قينارجة Küchük Kayanarja ، وفيها اعترفت الدولة العثمانية باستقلال شبه جزيرة القرم عنها، والتى ضمتها كاترين الثانى إلى روسيا بعد ذلك بتسع سنوات، وبطرت بذلك بذور المسألة الشرقية[٤٩] التى ظهرت فى القرن التاسع عشر.

ثم يعود هولت مرة أخرى ليتحدث عن بقية العوامل الداخلية التى أدت لضعف الدولة العثمانية [٥٠]. فذكر أنه بالإضافة إلى هذه المشاكل، فقد واجهت الدولة العثمانية مشكلة اقتصادية كبيرة، فلقد عانت كغيرها من دول أوربا من مشكلة «ثورة الأسعار» Price Revolution وذلك عندما تدفق معدن الفضة الأمريكى إلى أوربا ، وفشلت الدولة العثمانية فى مواجهة تلك المشكلة .

أما فى داخل الولايات العربية حدث تفتت مشابه حيث قامت محاولات لتركيز السلطة فى أيدى بعض الزعماء المحليين، وذلك بإطالة فترة حكمهم ومحاولة تأسيس أسر محلية وكان ذلك يشبه ما قام به «الأعيان» فى الأناضول. ولقد تحققت هذه المحاولة فى بغداد فى القرن الثامن عشر، وكانت أسرة العظم التى سيطرت فى القرن الثامن عشر على دمشق والولايات السورية الأخرى أقل نجاحًا . أما أكثر مؤسسى الأسر المحلية نجاحًا وشهرة فكان محمد على والى مصر . كذلك ظهرت أسر من الشعوب الناطقة بالعربية مثل المعنيين والشهابيين اللذين حكما لبنان على التوالى ، وكذلك السيادة المؤقتة التى فرضها كل من الشيخ ظاهر العمر فى الجليل والشيخ همام من قبيلة هوارة فى مصر العليا.

أما النقطة الخامسة فلقد كانت بعنوان «مصر فى القرن السابع عشر» Egypt in the Seventeenth Century [٥١] وفيها تناول الحديث عن الاضمحلال الذى ظهر فى نفوذ الولاة العثمانيين فى مصر، مع أواخر القرن السادس عشر ، وتمثل ذلك فى قيام مجموعة من

الثورات ضدهم ، كالتى قامت فى عام ١٥٨٦م، وعام ١٥٨٩م، وعام ١٥٩٨م، وعام ١٦٠٨م. وأدت تلك الثورات بقى بعض الأوجاقات[٥٢] على ولائهم للولاة مثل أوجاق المتفرقة والجاويشان ونظراً لأن هذين الأوجاقين لم يتمتعا بقوة عسكرية فعالة، فقد اعتمد الولاة على تأييد وحماية بكوات المماليك لهم. هؤلاء البكوات الذين سيطروا على الجهاز الإدارى فى مصر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وبعد انتهاء ولاية محمد باشا (١٦٠٧-١٦١١) تتابع على مصر ولاة ضعاف لم يجدوا قوة موالية يعتمدون عليها فى تدعيم نفوذهم، فالأوجاقات السبع كانت مجموعات لها مصالح خاصة . ولذلك ظهر بكوات المماليك كقوة سياسية لها نفوذ كبير فى مصر. وكان يقوم بالإشراف على إرسال الجزية السنوية إلى استانبول بك يحمل لقب أمير الخزنة. كما كان يشرف على قافلة الحج بك آخر يلقب بأمير الحج والذى أصبح فى القرن السابع عشر أحد كبار موظفى الدولة.

وفى أواخر القرن السادس عشر كون الصعيد مديرية كبيرة عاصمتها جرجا ويحكمها بك يلقب بحاكم الصعيد، كما سيطر البكوات على منصب مدنى مهم وهو منصب الدفتردار[٥٣]، وخلال القرن السابع عشر تولى البكوات منصبًا آخر وهو منصب القائمقام وكان يمارس كل سلطات الوالى بعد وفاته أو عزله حتى يعين السلطان خلفًا له .

ومن الشخصيات التى برزت فى القرن السابع عشر، شخصية رضوان بك الفقارى، الذى يعد أعظم بكوات القرن السابع عشر . وكان رضوان بك من أصل شركسى، وكان زعيمًا لجماعة من البكوات وأتباعهم تعرف باسم الفقارية . وفى مواجهتها وجدت جماعة أخرى منافسة تعرف باسم القاسمية ، وبنهاية القرن السابع عشر انقسم المماليك إلى هاتين الجماعتين. وتطور التنافس بينهما إلى صراع عنيف أدى لتدهور القوتين ، وهنا استطاع الوالى العثمانى أن يحكم من جديد دون منازع حتى عام ١٦٦٤م. وهكذا يتضح أن المماليك بدأوا يتنافسون على السلطة والمناصب الرئيسة فى القرن السابع عشر.

ثم استكمل هولت حديثه عن بكوات المماليك فى النقطة السادسة وهى بعنوان «سطوة بكوات المماليك فى مصر فى القرن الثامن عشر»[٥٤].

The Ascendancy of the Beylicate in Eighteenth- Century Egypt.[٥٤]

وفيها تحدث عن الصراعات الشديدة بين بكوات المماليك بعد القضاء على قوة الفقارية في عام ١٦٦٠م على يد أحمد بك بوشناق زعيم القاسمية، ونهاية هذا الأخير في ١٦٩٢م وبنهايته انتهى أمر القاسمية كذلك. وفي عام ١٧١١م قامت في مصر ما عرف بالثورة الكبرى وكانت بمثابة حرب أهلية صغيرة حيث نشأت الخصومة بين الانكشارية وبين بقية الأوجاقات. ولقد تورط البكوات وبيوتاتهم المملوكية في هذا الصراع الدائر.

ولم تنعم مصر بعد ذلك بأي استقرار سياسي إلى أن تولى في عام ١٧٥٧ مملوك يدعى علي بك الغزاوي والذي يعرف أيضًا بعلي بك الكبير، منصب شيخ البلد[٥٦].

وفي عام ١٧٦٠م تقلد علي بك الغزاوي إمارة الحج، ودبر مؤامرة لاغتيال عبد الرحمن كاهيا كبير القازدوغلية أثناء غيابه. وعندما علم عبد الرحمن كاهيا بالمؤامرة صمم على الإطاحة بعلي بك الغزاوي والعمل على تعيين شيخ بلد جديد وكان شيخ البلد الجديد يدعى علي بك «بلوط قبان» Bulut Kapan (The Clou- Catcher) أي «صائد المشبوهين»[٥٧].

وانتهى الأمر بانتصار علي بك والقضاء على خصومه واستقراره في مشيخة البلد، وبدأ علي بك بعد ذلك يعتمد على مماليكه مثل إسماعيل بك ومحمد بك أبو الذهب وأحمد بوشناق (أحمد الجزار فيما بعد) . وفي عام ١٧٦٨م قام علي بك بعزل الوالي وتقلد منصب القائمقام وجمع بين هذه الوظيفة ومشيخة البلد. وهكذا ظهر أن علي بك كان على وشك إعلان استقلاله. ثم بدأ علي بك يوجه نظره ناحية سورية، ويبرر هولت ذلك بوجود عدة عوامل دفعت علي بك لفتح سورية . فقد تكونت الإمبراطورية المملوكية القديمة قبل الفتح العثماني من ثلاث مناطق رئيسة : مصر وسورية والحجاز، ولما سيطر علي بك على المنطقتين الأولى والثالثة فكان من الطبيعي أن يقوم بغزو سورية لإدخالها داخل نطاق نفوذه . كما أن فتح سورية سيكون بمثابة إيجاد حد فاصل بين الأراضي العثمانية وبين ممتلكات علي بك في مصر[٥٨].

ولكن لم يتم فتح سورية بسبب انقلاب محمد بك أبو الذهب على سيده علي بك وانتهى أمر علي بك في أول مايو ١٧٧٣م في المعركة التي دارت بين الطرفين وجرح علي بك ومات بعد أسبوع. ويرى هولت أن علي بك قام بأعمال تشبه إلى حد كبير ما قام به محمد علي باشا من حيث أنه قضى على خصومه من المماليك، وانقض من نفوذ السلطان حتى أصبح نفوذًا اسميًا ، كما حاول فرض سيطرة مصر التقليدية على الحجاز وسورية.

وهنا يتساءل هولت لماذا إذن لم تستمر انجازات علي بك فترة طويلة مثلما حدث بالنسبة لمحمد علي؟ ويجيب هولت بأنه أولا: أن محمد علي تسلم السلطة في وقت بدأت فيه قوة المماليك تتداعى نتيجة للغزو الفرنسي في عام ١٧٩٨ . وثانيًا: أن محمد علي لم يكن عضوًا في التنظيم المملوكي، ولكي يدعم سلطته استخدم قوة عسكرية هي الحامية الألبانية التي لاتدين بالولاء للمماليك ولاتشترك في صراعهم، ذلك في الوقت الذي منع فيه علي بك ثقته العمياء لمماليكه الذين انقلبوا عليه .

ثم انتقل للنقطة السابعة «ضعف الدولة العثمانية وأثره في الولايات السورية»[٥٩]
Ottoman Decline and the Syrian Provinces

وتناول فيها الحديث عن آثار ضعف الدولة العثمانية في الولايات السورية. وكانت تلك الآثار تشبه إلى حد كبير الآثار التي لاحظناها في مصر. ومما زاد من خطورة الموقف في سورية افتقار الإقليم إلى الوحدة السياسية ووجود الحواجز الجغرافية، وعدم قيام مجموعة قوية حاكمة مثل مماليك مصر، الذين استطاعوا استعادة نفوذهم رغم وجود الإدارة العثمانية المحلية. فقامت المدينتان السوريتان حلب ودمشق من ضعف الإمبراطورية العثمانية الشئ الكثير.

وكانت فترة ولاية نصوح باشا نقطة تحول في تاريخ دمشق السياسي في العصر العثماني. فكان نصوح أول والٍ يبقى في منصبه مدة طويلة، ولذلك هيأ للولاية فترة من الاستقرار والهدوء كانت تفتقر إليها في القرن السابق، فكان يحج بالركب الشامي في كل عام، وأصبح والي دمشق يشغل منذ ذلك الوقت وظيفتين معًا وهما والي دمشق وأمير الحج. ولكن نجاح نصوح باشا أثار شكوك الدولة العثمانية فأرسلت جيشًا عند عودته من آخر بعثة للحج قام بها فقبض عليه وقتل. ونتج عن هذه التطورات إشاعة الفوضى وأعمال السلب في دمشق ، ولم ينقذها من تلك الفوضى سوى أسرة العظم.

ثم انتقل هولت للنقطة الثامنة حيث تحدث عن «الإمارتين: المعنية، والشهابية في لبنان»
The Amirate of the Manids and Shihabs in Lebanon[٦٠]

تحدث فيها عن جبل لبنان فتناول تاريخه في فترة العصور الوسطى، والأنماط العامة التي شكلت المجتمع اللبناني . وتعرض لوضعه عندما غزا العثمانيون الشام، فقال أن السلطان سليم عندما غزا سورية كان هدفه هو القضاء على تهديد سلطنة المماليك لذا أبقى أمراء جبل لبنان على استقلالهم الحقيقي تحت الحكم العثماني، وتمتعوا بالحرية الكافية في إتباع سياساتهم

العائلية ، وفي نزاعهم الحزبي ما لم يهدد ذلك السيطرة العثمانية على الطرق والمدن السورية.

وقد أمدت تطورات الأحداث المعنيين أمراء الشرف بأسباب القوة والتفوق على باقي الأسر الموجودة.

ثم تحدث هولت بعد ذلك عن حكم فخر الدين المعني الثاني (١٥٩٠-١٦٣٥) وسياسته الداخلية والخارجية من حيث تكوينه لجيش محترف من المرتزقة، واستغلال المصادر الاقتصادية ، وتطور التجارة وتشجيع الزراعة، وتجديد الموانئ لخدمة التجارة الخارجية. فضلاً عن سياسة التسامح الديني التي اتبعها تجاه دروز وموارنة لبنان . فضلاً عن علاقاته التجارية الخارجية لاسيما مع دوقية تسكانيا .

وبعد انقراض الأسرة المعنية في عام ١٦٩٧م. ورث الشهابيون من المعنيين سيادة مزعزعة في لبنان . وأهم ما يميز فترة حكمهم موقعة عين داره عام ١٧١١م التي دارت بين القيسية بزعامة الشهابيين ضد اليمنية بزعامة آل علم الدين، والتي انتهى فيها أمر اليمنية. على أن تاريخ لبنان بعد عين داره لم يكن أقل اضطراباً منه في الفترة السابقة، فبدأت المنازعات بين الأمراء الشهابيين والسلطات العثمانية، وبدأت المنازعات الأسرية تستشري في الأسرة الشهابية.

أما في النقطة التاسعة وسيطر ظاهر العمر والجزار في سوريا »

The Ascendancy of Zahir al- Umar and al- Jazzar in Syria[٦١]

ذكر هولت أنه بزوال نفوذ أسعد باشا العظم من دمشق عام ١٧٥٧م انتقل مركز الثقل السياسي من دمشق إلى الجليل والساحل ، نتيجة ظهور قوتي ظاهر العمر الزيداني، وأحمد باشا الجزار. ويرى المؤلف أن مشيخة ظاهر العمر لم تكن تمتلك عناصر البقاء ، حيث كانت نشأة ظاهر العمر تختلف عن نشأة أمراء لبنان مثلاً، لم يعتمد مثلهم على عناصر مخلصة، بل اعتمد على أسرته وجنده المرتزقة ، ولكن الخيانة دبت في صفوفهم.

ورغم ذلك فمما لاشك فيه أن فترة حكم ظاهر العمر قد أثرت في تطور جنوب سورية ، فلقد حقق الأمن والنظام، ولم يثقل كاهل أتباعه بالضرائب الباهظة بل انتعشت التجارة في مدنه لاسيما مدينة عكا التي حولها إلى مركز مزدهر للتجارة الأجنبية .

وبعد القضاء على ظاهر ، ظهرت شخصية أحمد الجزار، الذي عرف بالبوشناقي نسبة إلى البوسنة مسقط رأسه. ونظرا للخدمات التي قدمها للدولة العثمانية، فقد منحه العثمانيون

بالإضافة إلى باشوية صيدا- مدينة عكا فاتخذها مقراً له، وأخذ الجزار كما فعل العظم في دمشق يعمل على بسط سيطرته على الولايات العثمانية المتدهورة فقضى على بقية الزيدانيين وفرض ضرائب على المناطق التي حكمتها هذه الأسرة ، كما قام بتقوية حصون عكا.

وكان الجزار متشوقًا لمد نفوذه على دمشق، كما تدخل مراراً في سياسة لبنان لكي يفرض سيطرته على الجبل . وبالفعل أرسل جنده لاحتلال بيروت، لولا تصدي القوات العثمانية له، وعلى أية حال ، حاول الجزار إضعاف قوة أسرة العظم وآل شهاب .

وبلغ الجزار ذروة مجده في عام ١٧٩٩ م بعد أن أوقف زحف نابليون بونابرت على عكا، وتوفي الجزار عام ١٨٠٤م.

وبعد استعراض هذه النقاط الثلاث السابعة ، والثامنة ، والتاسعة ، نلاحظ أن هولت قد توسع بشكل كبير جداً في التفصيلات الصغيرة، فعندما تحدث عن حكام أسرة العظم، وفخر الدين المعني الثاني، وظاهر العمر، والجزار، نجده يتحدث عن تحالفاتهم مع الأسرات والولايات الأخرى ، والوشايات والخيانات التي تمت، وولاء البعض تجاه هؤلاء الحكام وعدم ولاء البعض الآخر، ومواقف الدولة العثمانية تجاه كل ذلك في إسهاب كبير ، في حين أنه تناول السياسة العامة كل واحد منهم في سطور قليلة والمفروض أن يحدث العكس، ففي كتاب مثل هذا المفترض أنه موسوعي يشمل فترة زمنية طويلة لعدد كبير من الدول، المفروض أن يركز المؤلف على الخطوط العريضة للسياسة ويوضحها لا أن يذكرها في سطور أو لايذكرها إطلاقا كما حدث في بعض الموضوعات التي تناولها، في حين يسهب في التفصيلات الأخرى غير المفيدة في صفحات .

أما النقطة العاشرة والولايات العراقية في ظل التدهور العثماني»

The Iraqi Provinces in the Period of Ottoman Decline[٦٢]

نتناول فيها الحديث عن الفوضى في العراق وظهور باشوات المماليك ونجده هنا أيضًا يسهب بشكل كبير جداً في أحداث العراق في تلك الفترة، فبدأ حديثه بأنه كانت للبصرة أهمية كبيرة في تاريخ الولايات العراقية ، وأيضًا بالنسبة للدولة العثمانية فتحدث عن حكامها آل عليان وعن تمردهم المستمر ضد الحكم العثماني، مما دفع الدولة العثمانية لإرسال عدة حملات للقضاء على آل عليان . لاسيما في عام ١٥٦٧م، وتوالى على حكم البصرة مجموعة من الحكام الضعاف ، حتى أنه بعدما يقرب من ثلاثين عام باع أحدهم البصرة إلى كاتب الحامية العثمانية بها ويدعى أفراسياب.

أما بغداد فلم تكن أحسن حالاً من البصرة، فقد انهار فيها النظام الإداري بسبب ضعف الولاة الذين كانوا يحكمون فترات قصيرة ، كما أن الولاة العثمانيين اعتمدوا في السنوات الأولى من الحكم العثماني على الإنكشارية ، ولكن بسبب التمردات العديدة التي قامت بها لجأ الولاة إلى تكوين قوات محلية تكون تحت أوامرهم، مما أدى لحدوث صدام بين القوات الإنكشارية والقوات المحلية، غير أن القوات الإنكشارية كانت أقوى واستطاعت أن تستبد بالحكم في بعض الأحيان كما حدث في حركة القائد الإنكشاري محمد بن أحمد الطويل عام ١٦٠٣-١٦٠٤ .

وشهدت السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر ازدياد قوة رؤساء العشائر العربية في حين ظلت الإدارة العثمانية في انحلال . وفي عام ١٦٩٤ استطاع شيخ من قبيلة المنتفق يدعى مانع بن مغامس الاستيلاء على البصرة، وحكمها لمدة ثلاث سنوات ولم يستطع والي بغداد التابع للدولة العثمانية التدخل .

ثم تطرق لأحوال بغداد في القرن الثامن عشر حيث حكمتها أسرة حسن باشا في الفترة من ١٧٠٤ إلى ١٨٣١م، وقد حكم حسن باشا نفسه من ١٧٠٤م إلى ١٧٢٣م ، وقد وقعت في السنوات الأخيرة من حكمه حادثة ذات أهمية كبيرة في التاريخ العثماني. ومن المحتمل أنها كانت العامل الأساسي الذي أدى إلى قيام أسرة حاكمة في بغداد ، ذلك أنه قاد ثائر أفغاني يدعى مير محمود قواته إلى قلب فارس وأطاح بالصفويين في عام ١٧٢٢ ، وقامت دولة سنية في إيران برئاسته .

وفي عام ١٧٨٠م وصل إلى حكم بغداد سليمان باشا الذي لقب بالكبير والذي ظل يحكم بغداد إلى جانب البصرة وشهر الزور حتى وفاته ١٨٠٢م. وتعتبر فترة حكمه ذروة ازدهار الحكم المملوكي في العراق.

أما النقطة الحادية عشر الأخيرة في القسم الثاني فهي بعنوان «التحديان: الوهابيون، وبونابرت»

Tow Challenges: The Wahhabis and Bonaparte[٩٣]

والحقيقة أن هولت كان محقًا تمامًا عندما وصف الدعوة الوهابية وحملة بونابرت على الشرق على أنهما يمثلان تحديا للدولة العثمانية فبالنسبة للدعوة الوهابية ، لم تهتم بها الدولة

العثمانية في البداية لسببين أولاً: لأنها دعوة سنية، والدولة العثمانية سنية لذا لم تعترض فيها أي عداء تجاه الدولة . وثانيًا : إن اهتمام الدولة العثمانية كان منصبًا بالدرجة الأولى على السواحل لا على داخل الجزيرة العربية، فكان اهتمامها بمنطقة الإحساء على الخليج العربي ، والحجاز على البحر الأحمر، ولكن عندما امتدت الدعوة الوهابية من داخل شبه الجزيرة واستفحل أمرها حتى أنها استولت على الحجاز وبذلك حرمت السلطان العثماني من أهم لقب من ألقابه وهو «حامي حمى الحرمين الشريفين» كان ذلك تحديا كبيرا للدولة العثمانية وجب عليها إيقافه .

أما بالنسبة لبونابرت ، فيلاشك كان مجيء الحملة الفرنسية واستيلاؤها على جزء من أملاك الدولة العثمانية وهي مصر ، ومحاولتها الاستيلاء على الشام أيضًا كان ذلك أيضًا تحديًا كبيرًا للدولة العثمانية.

وعلى أية حال. فلقد بدأ هولت حديثه عن «الحركة الوهابية والإمبراطورية السعودية» أو بمعنى أدق الدعوة الوهابية والتوسع السعودي. فقال أن السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، شهدت بزوغ حركة إحياء ثقافي كان من الممكن أن تجدد حيوية الإسلام، ألا وهي الدعوة الوهابية التي ظهرت في نجد في وسط شبه الجزيرة العربية. ثم تحدث بعد ذلك عن مؤسس الدعوة محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩٢م) وعن نسبه ونشأته وعن أساس دعوته التي أنكر فيها على المسلمين نسيانهم لمبادئ العقيدة الواضحة ، فراحوا يقدسون الأولياء ، ويحجون إلى قبورهم . فنادى ابن عبد الوهاب بالتخلص من تلك العادات والرجوع إلى الإسلام الصحيح .

ثم تحدث عن التحالف بين محمد بن سعود [٩٤]، ومحمد بن عبد الوهاب وكيف أن الإثنين وضعا نواة الدولة التي استمرت حوالي سبعين عامًا في الجزيرة العربية (الدولة السعودية الأولى) ، والتي مر تكوينها بثلاث مراحل متميزة ، الأولى: الحروب القبلية التي دارت بين ابن سعود وجيرانه ، وكان أمير الرياض أكثر من ناصب ، تلك الدولة الناشئة، العداء الذي استمر من ١٧٤٦-١٧٧٣م. أما المرحلتين الثانية والثالثة فتميزتا بسقوط الرياض وفرار سكانها ومعهم الأمير وأصبحت العيينة هي مركز الحكومة السعودية.

ونتيجة للحملات التي أرسلها ابن سعود لإخضاع القبائل للدعوة الوهابية أن امتدت فتوحاته إلى الحجاز وهنا ظهر خطر الدعوة على الدولة العثمانية. واستمرت مهاجمة القوات

الوهابية لمدن العراق وفشل والي بغداد في القضاء عليها، فأضطر السلطان العثماني الاستعانة بمحمد علي.

نلاحظ أن هولت طوال حديثه عن الدعوة الوهابية، يطلق لفظ «الإمبراطورية السعودية» على الدولة التي أسسها محمد بن سعود حاكمها السياسي وكان محمد بن عبدالوهاب زعيمها الروحي، وهي تسمية مبالغ فيها للغاية فهذه الدولة لم تكن إطلاقا إمبراطورية.

ويستكمل المؤلف حديثه:

وفي القرن التاسع عشر ظهرت عدة دعوات سلفية سارت على نهج الدعوة الوهابية مثل السنوسية والخاتمية في برقة والسودان، والمهدية في السودان، كما تأثر الشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) في مصر بأفكار الدعوة الوهابية.

ثم تحدث بعد ذلك عن «بونابرت والغزو الفرنسي لمصر» فقال أنه في أول يوليو ١٧٩٨ نزلت قوة فرنسية تحت قيادة نابليون بالقرب من الإسكندرية وكان هذا نقطة تحول في التاريخ المصري، وبداية العلاقات بين أوربا الغربية والمشرق العربي. ربطت مصر بفرنسا علاقات تجارية قديمة، وكانت آخر الحملات الصليبية الكبرى هي حملة لويس التاسع الفاشلة على مصر في منتصف القرن الثالث عشر، وخلال القرن الثامن عشر كان للتجار الفرنسيين علاقات تجارية قوية، ولكن سوء معاملة إبراهيم بك ومراد بك لهم كان من الأسباب التي ادعتها فرنسا لغزو مصر.

ولكن السبب الرئيس يرتبط باستراتيجية فرنسا إزاء بريطانيا خلال حروب الثورة الفرنسية، وقد كلف بونابرت القائد الشاب الذي هزم النمساويين في إيطاليا وفرض عليهم معاهدة كامبوفورميو في أكتوبر ١٧٩٧م، بغزو بريطانيا، وعندما ظهر استحالة ذلك بم الفرنسيون وجوههم شطر مصر، فموقعها يهدد المصالح البريطانية في الهند، ويخلص المصريين في الوقت نفسه من حكم المماليك. خرجت الحملة من ميناء طولون في ١٩ مايو ١٧٩٨م يصحبها عدد كبير من العلماء والفنانين هدفهم تسجيل مظاهر الحياة في مصر قديمها وحديثها.

وما أن وطئت أقدام بونابرت أرض الإسكندرية إلا وبدأ دعايته بأن فرنسا صديقة للسلطان العثماني، وأن مجيئه هو للإطاحة بحكم المماليك، وفي تقدم الحملة تجاه القاهرة هزمت

المماليك عند شبراخيت تحت قيادة مراد بك، وهزم مرة ثانية في موقعة إمبابة أو الأهرام في ٢١ يوليو. وفر مراد إلى الوجه القبلي واتجه إبراهيم هو والوالي العثماني إلى سوريا، وفي ٢٥ يوليو دخل بونابرت القاهرة وبدأت حركة التنظيم.

لم يبرز هولت دور الصعيد في المقاومة الشديدة للحملة الفرنسية من قبل المصريين والمماليك ومن انضم إليهم من الحجاج والمعتمرين عن طريق ميناء القصير، بحيث لم يستطع الفرنسيون البقاء فيه، فاتفقوا مع مراد بك بأن يقوم بحكمه باسمهم في نظير مبلغ من المال يدفع لهم سنويا [٦٥].

وفي أول أغسطس ١٧٩٨ تحطم الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية، فتحدد بذلك مصير الحملة. ورغم سياسة نابليون في استرضاء العلماء، فإن فداحة الضرائب، وهدم أبراب الأحياء لتأمين جنود الحملة، أدى إلى اندلاع ثورة القاهرة الأولى في ٢١ أكتوبر، فأخضعها بكل قسوة.

وحاول غزو سوريا لتأمين حدود مصر ولكن الحملة فشلت واضطر نابليون إلى الانسحاب، ونظرا لوضع فرنسا السيئ قرر نابليون العودة إليها سرا بعد أن ترك لكليبر مهمة الانسحاب، فقامت ثورة القاهرة الثانية ضده فأخضعها بكل شدة.

وآلت القيادة لمينو بعد قتل كليبر، وفي عهده تم جلاء الفرنسيين عن مصر، حيث تصارع العثمانيون والمماليك بعد انسحاب الإنجليز للسيطرة على حكم مصر.

وبذلك ينتهي القسم الثاني من الكتاب، أما القسم الثالث الأخير من الكتاب فهو بعنوان «الصفحة الأخيرة للحكم العثماني»

The Last Phase of Ottoman Rule

وفيه تحدث عن تسع نقاط تبدأ بالنقطة الثانية عشرة وهي «محاولات إحياء الإمبراطورية العثمانية» The Revival of the Ottoman Empire [٦٦]

وفيها تحدث هولت عن أن ضعف الجيش العثماني ظهر منذ أواخر القرن السادس عشر، بعد هزيمته أمام الجيوش الأوربية، وكانت كارثة معاهدة كارلوفتز Treaty of Carlowitz عام ١٦٩٩م التي اقتطعت أجزاء كبيرة من الإمبراطورية العثمانية لصالح القوى الأوربية.

أدرك العثمانيون أن التفوق العسكري قد انتقل إلى الدول الأوربية المسيحية، وأن وضع

برنامج لتحديث الجيش العثماني كفيل بإنقاذ الإمبراطورية في المستقبل . فبدأ رجال الإصلاح في القرن الثامن عشر يخطون خطوات محدودة ومؤقتة لم تؤت ثمارها ، وظلت الإصلاحات على هذا النحو حتى عام ١٧٨٩م حيث تولى الحكم السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م) الذي صمم على تحديث الجيش والبحرية بمعاونة فرنسا ، مستخدمًا جنود الانكشارية ، ولكن فشلت التجربة لتمردهم ضد السلطان وقتله في عام ١٨٠٨م.

خلفه السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) وكان مصممًا على السير في حركة الإصلاح ، محاولاً أن يحذو حذو محمد علي في ذلك الوقت ، وعندما حاولت الإنكشارية القيام بثورة ضده قضى عليهم.

وأعقب حكم السلطان محمود سلسلة من القوانين الإصلاحية عرفت بالتنظيمات الخيرية ، استمرت حتى إصدار دستور ١٨٧٦م في مستهل عهد السلطان عبد الحميد الثاني. وفي عام ١٨٨٩ بدأت حركة «تركيا الفتاة» تنظم نفسها ، وكان هدفها الإطاحة بنظام السلطنة ، والحفاظ على الدولة من السقوط ، وناقستها في هذا الميدان حركة «الاتحاد والترقي» C.U.P وقد نجحت الأخيرة في الثورة على السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨م ، ثم عزله في السنة التالية.

ومنذ عام ١٩١٣م أصبحت السلطة في يد العسكريين ، مما مهد لدخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب دول وسط أوربا ، وكان من نتيجة انتصار بريطانيا في الحرب أن خرجت منطقة الهلال الخصيب من حوزة العثمانيين بعد حكم دام حوالي أربعة قرون. وظهر مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١-١٩٣٨) كقائد عسكري انشأ دولة تركية في الأناضول. كما ألغى السلطنة عام ١٩٢٢م ، والخلافة عام ١٩٢٤م ، وكون الجمهورية التركية التي أخذت بالحضارة الغربية في كل نواحي الحياة.

أما النقطة الثالثة عشر فهي «محمد علي باشا»[٧٧] Muhammad Ali Pasha

ذكر فيها المؤلف كيفية وصول محمد علي إلى مصر ، وتحول نظام الحكم في مصر إلى النظام الوراثي ، وتحول في القرن العشرين إلى ملكية دستورية ، وانتهت الأسرة بقيام ثورة يوليو وإعلان الجمهورية في عام ١٩٥٣م.

ذكر المؤلف العقبات التي واجهت محمد علي من قبل المماليك ، ثم وصول حملة فريزر ١٨٠٧م ، ومحاولاته للوقيعة بين بكوات المماليك ، والقضاء عليهم نهائيًا في مذبحة القلعة

١٨١١م ، ثم استنجاد السلطان العثماني بمحمد علي للقضاء على الدعوة الوهابية بعد أن عجز والي العراق ووالي سوريا في القضاء عليها ، ونجاح محمد علي في ذلك وبسط سيطرته على معظم شبه الجزيرة العربية حتى عام ١٨٤٠م.

ثم تحدث عن اتجاه محمد علي بعد ذلك إلى فتح السودان وأسبابه ، وفشل تجربة تجنيد السودانيين ، مما دفعه إلى تجنيد المصريين ، ونتيجة لذلك انقسم الجيش إلى قسمين: الضباط الأتراك والجراكسة ويتكلمون التركية وضباط وجنود مصريين يتكلمون العربية. كما شعر الضباط المصريون بتفضيل الضباط الأتراك والجراكسة في المعاملة ، مما سيكون له أكبر الأثر في قيام الثورة العرابية.

نجح محمد علي في تكوين جيش قوي على النمط الأوربي دعم مركزه في مصر ، مما جعل السلطان العثماني يستعين به للقضاء على ثورة بلاد المورة بعد أن عجزت قواته عن تحقيق ذلك. وكان لنجاح القوات المصرية أن فاوضت الحكومة الإنجليزية محمد علي في عام ١٨٢٨م في الانسحاب من اليونان.

بدأ محمد علي يتطلع للاستيلاء على بلاد الشام فتذرع بتصرفات عبدالله باشا والي صيدا ، وبدأ ابراهيم زحفه الناجح على الشام ، وانتهت الجولة الأولى من الحرب بانتصار قوات مصر ، وعقد معاهدة كوتاهية (إبريل- مايو ١٨٣٣م) .

وفي عام ١٨٣٩ أبلغ محمد علي قناصل بريطانيا وفرنسا والنمسا وروسيا بعزمه على إعلان استقلال مصر ، ولكنه لم يجد قبولاً لديهم ، وفي ذلك الوقت استأنف السلطان محمود الزحف على سوريا ، فهزمت قواته هزيمة كبيرة في موقعة نزيب ، وفي أول يوليو مات السلطان محمود وخلفه الطفل عبد المجيد ، وفي ذلك الوقت قام قائد الأسطول العثماني بتسليمه إلى محمد علي بميناء الاسكندرية ، فأسرعت الدول الكبرى إلى عقد مؤتمر لندن ١٨٤٠م ، وأرغم محمد علي على الانسحاب ، وأعقبه فرمان أول يوليو ١٨٤١م الذي يمنح مصر استقلالا ذاتيًا في ظل السيادة العثمانية ووراثة عرش مصر في أسرة محمد علي.

وفي أواخر أيام محمد علي أصبح غير قادر على ممارسة الحكم فتولى ابنه إبراهيم عدة شهور ، ومات محمد علي في ٢ أغسطس ١٨٤٩م بالاسكندرية ودفن بالقلعة.

عمل محمد علي على تركيز السلطة في يديه ، فقضى على نظام الالتزام ، ومن الناحية

الاقتصادية سار على سياسة الاحتكار والتوجيه، وظهرت وظائف الكاشف، والدفتردار، والمدير، والمأمور، والمديرية، والحكمدار.

وكانت الإدارة الحكومية معقدة، وتطلب تنفيذ النظام الجديد إخضاع الدولة إلى تنظيم إدارى عسكرى لم تره مصر مثل قبل ذلك. كما انشأ الجيش الحديث والبحرية والمدارس المتنوعة : عسكرية ومدنية .

أما في النقطة الرابعة عشر وهى «مصر فى مفترق الطرق»[٦٨] Egypt at the Cross Roads.

عالج المؤلف فى هذه النقطة أوضاع مصر فى ظل خلفاء محمد على وهم عباس حلمى الأول (١٨٤٨-١٨٥٤م) ومحمد سعيد (١٨٥٤-١٨٦٣م) واسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩م) ترك محمد على لخلفائه دولة قوية تضم مصر والسودان، عرشًا وراثيًا، وحكومة قوية، وجيش قوى، وتعتبر ولاية مصر أغنى ولاية فى الشرق الأدنى. وكان نفوذ السلطان العثمانى اسميًا، وكانت مصر تتمتع باستقلال ذاتى، وترك لخلفائه علاقات مع الدولة العثمانية، وعلاقات مع الدول الأوربية الكبرى، وقد استطاع أثناء حياته أن يحتفظ بالتوازن بين الجانبين، ولكن هذا التوازن اهتز إلى حد كبير فى الستة الأخيرة لحكم الخديو اسماعيل ١٨٧٩م.

ويصف المؤلف الحكام الثلاثة بأوصاف متعددة، فعباس كان كئيب المزاج، رجعى التفكير، ومحمد سعيد كان تافهًا وكسولاً، أما إسماعيل فكان مسرفًا ومحبًا للعظمة، ورغم ذلك فكان لهم تأثير عميق على البلاد.

فيذكر المؤلف أن سياسة عباس الأول كانت تسير ضد التيار الرئيس لتاريخ مصر من ١٨٠٥-١٨٨٢م، كان متزمتًا، يكره الأجانب، ولا يتفق مع سياسة جده محمد على فى الأخذ عن الغرب، ورفضه للتغريب دفعه للابتعاد عن فرنسا، وهذا عكس ما اتجه إليه سعيد واسماعيل.

وعندما أرادت الدولة العثمانية تطبيق التنظيمات الخيرية فى مصر رفض عباس لأن لمصر وضع خاص بمقتضى الفرمانات، فالتجأ إلى بريطانيا التى أيدته فى موقفه، وترتب على ذلك تنفيذ مشروع الخط الحديدى الإنجليزى بمصر، وفى حقيقة الأمر فقد أوجد المشروع أزمة بين بريطانيا وفرنسا أكثر منها بين والى مصر والسلطان.

بعد ذلك يترك المؤلف سعيد[٦٩] ويتحدث عن إسماعيل وزيارته لاستانبول، ورد السلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦م) الزيارة لمصر (وهو أول سلطان يزور مصر بعد السلطان سليم الأول)، ونجح إسماعيل بعد زيارة ناجحة لاستانبول أن يحصل على فرمان مايو ١٨٦٦م ينص على وراثة حكم مصر فى أكبر أبنائه هو.

وكانت الامتيازات الأجنبية تقف فى طريق اسماعيل لإصلاح نظام القضاء، ولكنه نجح فى إقناع الدول الأوربية فى إنشاء المحاكم المختلطة عام ١٨٧٥م، وعندما أراد إسماعيل تغيير بعض بنود عقد امتياز شركة القناة تولى التحكيم بينه وبين الشركة الإمبراطور نابليون الثالث الذى وافق على مطالب إسماعيل فى مقابل تعويض الشركة بمبلغ ثلاثة ملايين جنيه.

ويشير المؤلف بأنه حدث تغيير كبير فى الزراعة فى مصر، ولاسيما فى عصر سعيد، وكذلك يشير إلى نقطة هامة وهى أن سعيد قد فتح باب الترقى أمام المجندين المصريين إلى الرتب العالية فى الجيش وكان منهم أحمد عرابى[٧٠].

انشأ الخديو اسماعيل مجلس شورى النواب عام ١٨٦٦م، وانشأ الجمعية الجغرافية الخديوية ١٨٧٥م، وانشأ ديوان الكتب ١٨٧٠م، وكانت ديون مصر بوفاة سعيد حوالى تسعة ملايين جنيه، ارتفعت فى عهد اسماعيل حوالى مائة مليون جنيه، منها ٦٨ مليون دين خارجى، وترتب على ذلك إنشاء صندوق الدين فى مايو ١٨٧٦، والرقابة الثنائية على مالية البلاد، وفى ٢٦ يونيه ١٨٧٩م عزل إسماعيل وعين ابنه توفيق خلفًا له.

ويذكر المؤلف أنه كان على مصر فى منتصف القرن التاسع عشر أن تسلك أحد الطرق الثلاثة، إما الاستقلال، وإما العودة لحظيرة الدولة العثمانية، وإما أن توضع تحت رقابة دولية، وهذا ما حدث، ومن هنا جاءت تسميته «مصر فى مفترق الطرق»[٧١].

والنقطة الخامسة عشر «الحركة القومية والاحتلال البريطانى»

Egyptian Nationalism and the British Occupation[٧٢]

أوضح المؤلف أنه لا السلطان العثمانى ولا الدول الأوربية استطاعت على مدى ثلاثة أرباع القرن منذ حكم محمد على أن تحد من استقلال ولاة أسرة محمد على الداخلى، فتدخل محمد على فى الشئون الأوربية وحاول إنشاء إمبراطورية فى منطقة الليفانت، ولكنه لم ينجح، ولكن استطاع خلفاؤه خطوة بعد خطوة أن يكون لهم وضع خاص معترف به فى مصر والسودان.

وفى سنوات حكم إسماعيل الأخيرة زاد التدخل الدولى عن طريقين: الأول الرقابة الثنائية على مالية البلاد ، وسلطة إيفلين بيرنج Evelyn Baring (١٨٤١-١٩١٧م) اللورد كرومر فيما بعد التى هيمنت على شئون مصر مدة ربع قرن ، والثانى اللجنة الدولية لتصفية الدين والتى تشكلت من بريطانيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا فى يوليو ١٨٨٠م ، حيث خصصت نحو ٥٠٪ من الدخل العام لمصاريف الحكومة ، والباقى يحول لصندوق الدين.

زاد تذمر الضباط المصريين فى أواخر عهد اسماعيل نتيجة لهزيمة حملة الحبشة[٧٣] بقيادة راتب باشا الجركسى، وكذلك لفصل عدد من الضباط المصريين بحجة الاقتصاد فى نفقات الجيش[٧٤]. فثار الضباط المفصولون وهاجموا نوبار باشا ناظر النظار وريفرز ولسون Rivers Wilson وزير المالية فى فبراير ١٨٧٩م واتهم الخديو إسماعيل بتدبير هذه الحركة.

يشير المؤلف إلى يقظة التيار الإسلامى عن طريق جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨-١٨٩٧) الذى مكث بمصر من مارس ١٨٧١م- سبتمبر ١٨٧٩م، والذى كان يدعو إلى حركة الجامعة الإسلامية، وبيان ما له من تأثير عميق على شباب مصر، ويوضح كيف انضم ضباط الجيش إلى جمعية سرية فى عام ١٨٧٦م، وبوالى سرد شكوى عرابى وزملائه واعتقالهم، ثم لقاء عرابى للخديو توفيق فى عابدين ٩ سبتمبر ١٨٨١م، وانصياع الخديو مؤقتًا لمطالب عرابى.

ثم يذكر أحداث الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى بالتفصيل ، وأعلنت بريطانيا أنها ستنسحب من مصر عندما تستقر الأوضاع فى البلاد ، ولكن بحلول عام ١٨٨٩م هجرت فكرة الجلاء ، وظلت مصر تحت السيادة الاسمية للدولة العثمانية حتى قيام الحرب العالمية الأولى وإعلان الحماية على مصر ، ولكى تزيل بريطانيا شكوك الدول الأوربية على وضع قناة السويس بعد احتلالها مصر وقعت معاهدة القسطنطينية عام ١٨٨٨م وفيها أقرت حرية الملاحة لجميع الدول فى وقت السلم والحرب.

اضطربت الأمور بالسودان بقيام الثورة المهدية، وحاولت مصر فى نوفمبر ١٨٨٣م إرسال حملة إلى السودان كان تصيبها الفشل، وبناء عليه أصر إيفلين بيرنج على الانسحاب من السودان.

وبولاية عباس حلمى الثانى (١٨٩٢-١٩١٤م) بدأ الصدام بينه وبين اللورد كرومر، فاحتضن عباس الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٠٨م) لتدعيم مركزه إزاء كرومر .

خشيت بريطانيا على السودان من تحركات فرنسا ، فأرسلت حملة مصرية بقيادة كتشنر لاستعادته . وقد التقت القوتان الإنجليزية بقيادة كتشنر والقوات الفرنسية فى فاشودة[٧٥] على النيل الأبيض، وكادت الحرب تقوم بين الدولتين لولا انسحاب فرنسا ، وهذا الموقف دفع الدولتين إلى حل ما بينهما من مشكلات بالطرق الودية، فوقع الاتفاق الودى بين الطرفين فى عام ١٩٠٤م.

وفى عام ١٩٠٦م وقعت حادثتان أثارتا الشعور الوطنى: الحادثة الأولى الخلاف بين الدولة العثمانية وبريطانيا بشأن حدود مصر الشرقية مع سوريا العثمانية، والثانية حادثة دنشواى التى أظهرت وحشية سلطات الاحتلال فى مصر إزاء الفلاحين المصريين والتى سحب على أثرها اللورد كرومر من مصر ، وخلفه الدون جورست Eldon Gorst (١٩٠٧-١٩١١).

وفى نهاية حكم كرومر سمح للتيار الوطنى المعتدل بإصدار «الجريدة» فى مارس ١٩٠٧م، وفى خريف نفس السنة نشأ «حزب الأمة» ، وكون مصطفى كامل، الحزب الوطنى، ولكنه لم يلبث أن مات فى ١٠ فبراير ١٩٠٨م ، وقد سبق صدور جريدة «المؤيد» فى ١٨٨٩م جريدتى اللواء والجريدة التى كان يرأسها الشيخ على يوسف الذى يمثل رأى الخديو «وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية».

وعندما رغبت شركة قناة السويس فى عام ١٩١٠م أن تمد امتيازها أربعين عامًا بعد ١٩٦٨م، وساند جورست المشروع ، وعندما عرض المشروع على الجمعية العمومية فى ٧ أبريل ١٩١٠م رفض المشروع بإجماع الآراء.

قامت الحرب العالمية الأولى ، وبانضمام الدولة العثمانية لألمانيا فى ٢٩ أكتوبر ١٩١٤، أعلنت بريطانيا الحماية على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤م، وفى اليوم التالى عزلت الخديو عباس حلمى وعينت السلطان حسين كامل (١٩١٤-١٩١٧م) ابن الخديو إسماعيل حاكمًا على مصر ، وبذلك حققت بريطانيا عدم الالتزام بنظام الوراثة الوارد بفرمان ١٨٦٦م، وفى الوقت نفسه فقد السلطان بعده عن الدولة العثمانية.

وفى النقطة السادسة عشر «سوريا ولبنان خلال محاولات إحياء الإمبراطورية العثمانية»[٧٦] Syria and Lebanon during the Ottoman Revival

وفى هذه النقطة تناول هولت الحديث عن الفوضى فى لبنان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. فتحدث عن الغزو الفرنسى لسوريا عام ١٧٩٩م، وكيف أن أحمد باشا الجزار أعلن ولاءه للسلطان العثمانى، ذلك فى الوقت الذى قام فيه بونابرت بدعاية كبيرة هناك. ولكن الأمير بشير الثانى (١٧٨٨-١٨٤٠م) أمير جبل لبنان- لم يستجب لعروض بونابرت، وسمح للقوات العثمانية بالمرور عبر إقليمه. وفى هذه الأثناء حاولت الدولة العثمانية الاعتماد على بشير الثانى كقوة مضادة للجزار، ولكنها كانت تجربة غير ناجحة، إذ سرعان ما تبين أن الأمير بشير لايمكنه الدفاع عن مركزه فى سورية تجاه قوة الجزار، حتى أنه فر عام ١٨٠٠م إلى قبرص، ولكنه عاد إلى لبنان ليخضع من جديد للباشا القديم الذى توفى عام ١٨٠٤م.

وحل محله فى صيدا أحد مماليكه ويدعى سليمان باشا الذى أطلق عليه الكتاب المعاصرون لقب العادل، وهنا وجد الأمير بشير نفسه طليقا فأخذ فى سحق أعدائه فى الداخل وفى تركيز السلطة فى يده وتوحيد ممتلكاته وتثبيت الحكم فيها.

وفى عام ١٨١٨م توفى سليمان باشا وخلفه عبدالله باشا، الذى ورط الأمير بشير معه فى خلافاته مع درويش بشا حاكم دمشق، وانتهى الأمر بتنازل الأمير بشير عن الحكم برحيله إلى مصر عام ١٨٢٠م، حيث وجد ترحيبًا من قبل محمد على، وكان لتلك الزيارة أثرها لدى الرجلين(بشير، محمد على)، ففى عام ١٨٣١م، دخلت قوات محمد على سوريا للاستيلاء عليها، وكان موقف بشير هنا مخالف تمامًا لموقفه من بونابرت، فمنذ البداية قدم كل المساعدات لإبراهيم باشا.

بسبب سياسة محمد على الاقتصادية فى سوريا لاسيما احتكار الحرير والقطن فضلا عن التجنيد الإجبارى للأهالى، لم يطل الحكم المصرى للشام، فاشتعلت الثورة فى نابلس عام ١٨٣٤م، ثم انتشرت فى جميع أنحاء الشام، وانتهى الأمر بخروج المصريين من الشام، ونفى الأمير بشير خارج لبنان فى عام ١٨٤٠م، ويعتبر هذا العام بداية مرحلة جديدة فى تاريخ لبنان إذ أن الوفاق القديم بين طائفتى الجبل- الدروز والموارنة- قد انتهى تمامًا.

ثم استعرض هولت مواقف الدولة العثمانية والدول الأوربية لاسيما فرنسا وإنجلترا تجاه لبنان حيث ناصرت إنجلترا الدروز، فى حين وقفت فرنسا بجانب الموارنة، بالإضافة لروسيا التى استغلت معاهدة كوتشك قينارجة للتدخل فى شئون الأرثوذكس. وعادت لبنان مرة أخرى للحكم العثمانى المباشر بعد سقوط الشهابيين وتعيين عمر باشا حاكمًا على الجبل من قبل السلطان العثمانى.

ونتيجة لسوء الإدارة سرعان ما اندلعت الفتنة الطائفية فى لبنان، والتى تحولت فى عام ١٨٦٠م إلى حرب أهلية ومذابح، لاسيما فى المناطق المختلطة - أى التى يسكنها دروز ونصارى- من الجبل. وكان من الطبيعى أن تتدخل الدول الأوربية لإيقاف هذه المذابح، لاسيما لفرنسا، حيث أرسل الإمبراطور نابليون الثالث (١٨٥٢-١٨٧٠م) حملة إلى لبنان فى أغسطس ١٨٦٠م.

وأرسلت لجنة تحقيق دولية وضعت فى عام ١٨٦١ النظام الأساسى Réglement Organique يحكم بمقتضاه لبنان، واستمر حتى الحرب العالمية الأولى.

ورصد هولت فى سوريا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ظاهرتين هامتين هما تنامى الإرساليات التبشيرية، وهجرة اليهود إلى فلسطين.

وانتقل إلى النقطة السابعة عشر وهى «الولايات العراقية فى ظل إحياء الدولة العثمانية»[٧٧] The Iraqi Provinces during the Ottoman Revival فذكر أن العراق خضع منذ بداية القرن التاسع عشر لحكم سليمان باشا الكبير وأسرته إلى أن تولى داود باشا الحكم وجرت بينه وبين فارس آخر الحروب التى انتهت بمعاهدة أرضروم ١٨٢٣، واستمر حكم داود باشا خمسة عشر عاما. وتولى بعده رضا باشا، ثم مدحت باشا فى عام ١٨٦٩ حيث طبق «قانون الولايات» ونظام الطابو.

وفى تلك الفترة بدأت بريطانيا تهتم بطرق المواصلات العالمية عبر العراق عن طريق شركة الهند الشرقية، ولكنها وجدت أن طريق نهر الفرات لايصلح كوسيلة للاتصال بين المحيط الهندى والبحر المتوسط، وأن الطريق البرى عبر مصر أقصر وأفضل.

ثم ظهرت رغبة بريطانيا فى استبداله بخط حديدى، ولكى تدعم طريق مصر بعد إنشاء الخطوط الحديدية عام ١٨٥٨، وفتح قناة السويس عام ١٨٦٩. ونتيجة لنمو النفوذ الألمانى فى الدولة العثمانية، ظهر مشروع مد خط حديدى عبر العراق فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦-١٩٠٩) من قونية إلى حلب فالموصل وبغداد إلى الخليج. وعارضت بريطانيا المشروع الذى لم يتم لقيام الحرب العالمية الأولى.

ثم انتقل إلى النقطة الثامنة عشر وهى «نشوء القومية العربية»[٧٨] The Emergence of Arab Nationalism

ذكر أنه في بداية القرن العشرين قامت محاولات من جانب بعض الأفراد والأسر لنيل قسط أكبر من النفوذ والسلطة. ثم تحدث عن جهود جمال الدين الأفغاني، ونصيف اليازجي (١٨٠٠-١٨٧١)، وبطرس البستاني (١٨١٩-١٨٨٣) وجورجي زيدان (١٨٦١-١٩١٤). في ظهور حركة القومية العربية. ويرى هولت إن حركة القومية العربية بدأت كتعبير عن ابتعاد العرب وتفورهم من الحكم العثماني في مراحله الأخيرة. وبدأ إنشاء الجمعيات السرية من اللبنانيين المسيحيين.

ويرى هولت أن التاريخ الحقيقي للقومية العربية بدأ بكتابات شخصيتين عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩-١٩٠٣) وقد عاصرت دعوة الأفغاني في إقامة الجامعة الإسلامية محاولة السلطان عبد الحميد تأكيد حقه في الخلافة الإسلامية[٧٩]. وقد عارض الكواكبي هذه المحاولة.

ويرى هولت أن ثورة تركيا الفتاة في عام ١٩٠٨ كانت نقطة تحول في تاريخ كل من القومية العربية والقومية التركية. ففي أعقاب هذه الثورة أسس العرب «جمعية الإخاء العربي العثماني» هدفها حماية الدستور، والولاء للسلطان، وتحسين أحوال الأجزاء العربية من الدولة.

وأدى سقوط عبد الحميد في عام ١٩٠٩ إلى تشوب العلاقات بين العرب ورجال تركيا الفتاة لإتباعهم سياسة التتريك، وأدى ذلك إلى انتشار الجمعيات القومية في الهلال الخصيب، وفي القاهرة، وباريس، مثل «المنتدى العربي» باستانبول، و«الجمعية القحطانية» السرية، وجمعية «العربية الفتاة» وهي سرية أيضا، وجمعية «العهد» (سرية).

ويخلص هولت من هذا العرض أن أهم ما يميز الحركة القومية العربية المبكرة أن معظم الداعين إليها من رجال الجناح الغربي للهلال الخصيب.

ثم ينتقل إلى النقطة التاسعة عشر وهي «الحرب العالمية الأولى»[٨٠] The First World War.

حيث يوضح بأنه ترتب على دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب دول وسط أوربا أن يقرر الحلفاء في عام ١٩١٥ مصير الممتلكات العثمانية بعد انتهاء الحرب. وإذا كان شيخ الإسلام في استانبول قد أصدر فتوى بوجوب حمل المسلمين السلاح ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا، فقد لجأت بريطانيا إلى تلس السلاح بأن اتخذت من الشريف حسين حاكم الأراضي

المقدسة بالحجاز، منافسا للسلطان فهو شريف من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم وله نفوذ كبير على قبائل الحجاز، حليفا لها وأعلن الجهاد ضد العثمانيين.

جرت محادثات بين الشريف حسين ومكماهون ممثل بريطانيا (١٩١٥-١٩١٦) ركز فيها الحسين على استقلال المستطيل العربي الممتد من العراق شرقا إلى ساحل البحر المتوسط غربا، وكذلك استقلال شبه الجزيرة العربية. ووافقت بريطانيا مع تحفظات غامضة بأن لها مصالح خاصة بالعراق، وحليفتها فرنسا مصالح خاصة في سوريا.

وفي عام ١٩١٦ اتفقت الحكومتان الإنجليزية والفرنسية (سايكس- بيكو) على تقسيم المستطيل العربي المشار إليه بينهما.

تقدمت القوات البريطانية في العراق، وكذلك القوات المصرية البريطانية في فلسطين ودخلت سوريا. وفي الوقت نفسه أعلن الشريف حسين الثورة في الحجاز ضد العثمانيين في يونيو ١٩١٦. وفي ٢ نوفمبر ١٩١٧ صدر وعد بلفور لليهود بتسهيل إقامة وطن قومي لهم في فلسطين.

وفي النقطة العشرين وهي «تسوية ما بعد الحرب في الهلال الخصيب ومصر»[٨١]
The Post - War Settlement in the Fertile Crescent and Egypt.

أنهت الحرب السيادة العثمانية على مصر والهلال الخصيب، وأصبح على بريطانيا التوفيق بين تعهداتها للحسين، وما أتفق عليه في معاهدة سايكس بيكو، ووعد بلفور.

أعلن الرئيس الأمريكي ولسون أن مؤتمر السلام في باريس سيضع تسوية للحرب طبقا لمبادئه وأهمها حق تقرير المصير. وتكونت لجنة تحقيق كنج – كرين لمعرفة رغبة الأهالي في سوريا وفلسطين. ولكن تم التقسيم بواسطة بريطانيا وفرنسا وحدهما في سان ريمو (٢٥ أبريل ١٩١٩)، واتفقتا على أن تنتدب بريطانيا على العراق وفلسطين، وفرنسا على سوريا ولبنان. وعينت بريطانيا الأمير عبدالله حاكما على شرق الأردن، وأطاح عبد العزيز بن سعود بالملك حسين. وظلت مصر تحت الحماية البريطانية حتى صدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢.

وبهذا ينتهي القسم الثالث من الكتاب

وبعد ذلك ألحق هولت بالكتاب Postscript (ملحق) بعنوان :

The Anglo - French paramountcy and its passing[٨٢]

وفيه أوضح أن بريطانيا وفرنسا كانتا تفتقدان ولاء الأهالى فى البلاد العربية التى وقعت تحت انتدابهما ، هذا الولاء الذى كان يتمتع به السلاطين العثمانيين من قبل رعاياهم من المسلمين حتى وهم فى أوج ضعفهم. ولذا كان انتدابهم يعتمد على قوات الاحتلال.

ومن أبرز ملامح الفترة التى أعقبت الحرب ظهور الملكيات الجديدة. فحكم الهاشميون الحجاز لفترة قصيرة وفترة أطول فى العراق وشرق الأردن، والأسرة الخديوية فى مصر.

وكان سياسة كل من بريطانيا وفرنسا إزاء البلاد المنتدبة عليها تعمل لصالحهما أكثر مما لصالح تلك البلاد ، وقد نمت حركة القومية العربية فى دول الهلال الخصيب فى الفترة التى أعقبت الحرب، ونتيجة الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وبدأ الاحتكاك بين العرب واليهود من عام ١٩٢٠ فما فوق، ومما زاد من تعقيد المسألة بسيطرة النازى فى ألمانيا وأوربا الوسطى، واندفاع الهجرات اليهودية إلى فلسطين ، وقيام العرب فى فلسطين بثورة ١٩٣٦م وتدخل الحكومات العربية ، وأصبحت قضية فلسطين صلب القومية العربية، وفيما بين عام ١٩٣٩م حيث اندلعت الحرب العالمية الثانية وحدوث أزمة السويس (العدوان الثلاثة على مصر) ١٩٥٦م، أن انتهى التفوق الإنجليزى الفرنسى فى مصر والهلال الخصيب، وبنهاية الحرب لم تعد لبريطانيا ولا لفرنسا القوة للاحتفاظ بهيبتهما ، وظهرت الولايات المتحدة الأمريكية كقوة غريبة فى المنطقة.

وفى مايو ١٩٤٨ أنهت بريطانيا انتدابها على فلسطين فقامت دولة إسرائيل ونشبت الحرب العربية الإسرائيلية ، وهزم العرب وكان لهذه الهزيمة نتائجها على المنطقة ومن أهم تلك النتائج قيام الثورة فى مصر فى يوليو ١٩٥٢م وبعدها بست سنوات سقطت الملكية فى العراق، ودخلت سوريا ولبنان فى فترة طويلة من الاضطرابات ، وأعلن النظام الجمهورى فى مصر ووقعت بريطانيا فى يوليو ١٩٥٤م معاهدة بجلاء قواتها عن منطقة قناة السويس، وأصبحت مصالح بريطانيا فى المنطقة تتمثل فى حرية الملاحة فى قناة السويس، واستمرار تدفق إمدادات البترول من منطقة الخليج.

وإذا نظرنا إلى الوراء – على حد قول هولت– نجد أن تفوق بريطانيا وفرنسا كان فترة انتقال لأهالى مصر والهلال الخصيب ما بين الحكم العثمانى وبين الاندفاع نحو الغرب فى السياسة والاجتماع والثقافة . فالسيادة العثمانية استمرت حوالى أربعة قرون والحكم الإنجليزى الفرنسى استمر أقل من أربعين عامًا، قد أحدثا أثرًا ما زال مستمرًا .

ومن هذا العرض الموجز لما تضمنه الكتاب عن تاريخ مصر والهلال الخصيب فى مدى أربعة قرون يتضح أنه يتضمن جوانب إيجابية وأخرى سلبية.

من الجوانب الإيجابية أن المؤلف تعرض لسرد الأحداث التاريخية لمصر والهلال الخصيب ، وهى منطقة تتفق فى الحضارة والعادات والتقاليد والثقافة والدين، وقد خضعت لمؤثرات حضارية واحدة فى القديم والوسيط والحديث .

خدم المؤلف التاريخ العادى فى أن يلم إلمامة سريعة بتاريخ تلك المنطقة الهامة فى فترة زمنية تمتد إلى أربعة قرون ، ومن ثم كان عليه إبراز الملامح الرئيسة دون الدخول فى عمق الأحداث التاريخية.

أما عن الجوانب السلبية، فيلاحظ عدم التناسق بين الأقسام الثلاثة التى اختطها للدراسة . فالقسم الأول عالجه فى ثمان وثلاثين صفحة ، اشتملت على ثلاث محاور . أما القسم الثانى فامتدت صفحاته إلى مائة وست صفحات ، ويضم ثمانية محاور . أما القسم الثالث فعدد صفحاته مائة واثنتان وثلاثين صفحة ، ويضم تسعة محاور .

الملاحظة الثانية أن طول الفترة الزمنية موضوع الدراسة والتى تمتد إلى أربعة قرون، هذا فضلا عن دراسته لست دول هى مصر وسوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق، قد دفعه للاختصار الشديد فى بعض الأحيان ، والسرعة فى ملاحقة الأحداث ، مما يقلل من قيمته إلى حد كبير بالنسبة للمتخصصين .

ومما يؤخذ عليه أيضًا أنه لم يهتم بتدوين التواريخ الخاصة بالكثير من الشخصيات التى تناولها فى المتن ، رغم ذكره لكثير منها– وليس جميعها– فى ملاحق الكتاب .

كذلك لايسير المؤلف على وتيرة واحدة فى معالجته للأحداث ، ففى بعض الأحيان يسهب فى ذكر التفصيلات الصغيرة ، وفى أحيان أخرى يوجز إيجازًا مخلا كما حدث فى حرب المورة وحرب الشام فى المحور الثالث عشر . ويبدو أن هذا يخضع لتوافر المادة العلمية أو شحها لديه.

ومما يؤخذ على المؤلف أيضًا التزامه السرد التاريخى طبقًا للتسلسل الزمنى، وإغفاله العوامل المؤثرة فى الأحداث التاريخية مثل العامل الاقتصادى والعامل الاجتماعى، وغيرهما. فلم يتحدث عن الثورات العديدة التى قام بها المصريون ضد الحكم العثمانى بسبب سوء

الأحوال الاقتصادية، وفداحة الضرائب وظلم الولاة[١٨٣]، وإن تعرض لأول مرة لدور العامل الاقتصادى كسبب من أسباب ضعف الدولة العثمانية، كما ورد فى النقطة الرابعة.

كما لم يهتم بدراسة المؤسسات السياسية فى العصر العثمانى دراسة متعمقة ، بل أشار إشارة بسيطة إلى الديوان ، والوالى، والأوجاقات العسكرية فى النقطة الثانية، وكذلك بالنسبة لقانون نامه مصر فى النقطة الثالثة.

ومن أهم ما يؤخذ على المؤلف عدم اعتماده على الوثائق العثمانية باستانبول ، وهى مهمة جداً لموضوع الدراسة.

ولكن مما يشفع له الكم الهائل من تلك الوثائق المتعلقة بالموضوع ، والتى يستغرق الاطلاع عليها سنوات طويلة ، ومما يستلزم كتابة موسوعة تضم العديد من الأجزاء .

الهوامش

١- WWW. aim 25 ac. uk / cgi- bin / search 2 coll-id = 200 & inst . id = 19-10k .

٢- بلغ عددها مائة وأربعة كتابا وبحثا .

٣- صبرى عبد العزيز ، دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر (١٥١٧-١٩٥٢)، (دار المعرفة الجامعية)، ١٩٩٢، ص ٣٠ .

٤- P.M. Holt , Egypt and the Fertile Crescent 1516- 1922 . A Political history, (Ithaca and London: Cornell University press, 1980), p. 38 .

٥- Ibid. p. 40 .

٦- Ibid, p. 56 .

٧- Ibid . p. 299 .

٨- Ibid, p. 3 .

٩- فى صفحة رقم VII .

١٠- يقتصر كلام هولت على الفترة التى كتب فيها نقده للكتاب أى عام ١٩٦٧ . فالدراسات التى تتناول تاريخ مصر وبقية البلاد العربية فى العصر العثمانى، الآن لاحصر لها.

١١- "Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922; A Political history . by P.M. Holt (London: Longmans . 1966), Reviewed by Robert L. Tognor , Princeton University " The American historical Review, vol 73, No.2 (Dec., 1967), pp. 553-554 .

١٢- WWW. amazon Com / exec / obidos / tg/ detail - 0801490790 / gid = 1090091140 sr= 1-1 / ref= sr1-1 / 200 - 0932874 - 5425619?

١٣- صبرى عبد العزيز، المرجع السابق، ص٣٦ .

١٤- عالجها فى الصفحات من ١-١٩ من الكتاب .

١٥- ولمزيد من التفاصيل عن هذه المدن انظر:

أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى فى العصر العثمانى، ترجمة لطيف فرج (دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٨٥) الفصل الرابع «التنظيم المكانى» ص ص١٢٥-١٦٨ .

١٦- Holt, op. cit., p. 7 .

١٧- Ibid .

أكبر مثال على ذلك محمد على (١٨٠٥-١٨٤٨) ومشروعاته فى التعليم والجيش والبحرية، واختياره

لأبناء البلاد من المصريين، وحتى بعد تكوينه للإمبراطورية كان يسد العجز في منطقة بالمشوفر في منطقة أخرى . أنظر: حفظة (٤٢)، (٢٥٦) عابدين وثائق الشام، ترجمة الوثيقة التركية ٣٦ / ٢١ ، من محمد شريف باشا إلى باشمعاون جناب الخديوي ، ١٨ محرم ١٢٥٤هـ .

١٨- Holt, Op. cit., pp. 7-8 .

١٩- وقد ورد هذا التفصيل في كتاب أندريه ريمون، السالف الذكر، الفصل السادس «الأنماط السكنية وأنماط المساكن» ص ص٢٠٣-٢٤٢ .

٢٠- الحقيقة أن الفلاحين عانوا الأمرين من إغارات البدو المتكررة على أراضيهم، خاصة الفلاحين الذين تقع قراهم بالقرب من أماكن تواجد البدو، فعلى سبيل المثال شكى فلاحو قرية برزة في جبل لبنان من أن «أصحاب الماعز عمالين يطلعوا مغازهم على الزرع» .

انظر: «محفظة ٦٣ أبحاث ، وثيقة ٤٩ ، شعبان ١٢٤٨هـ .

وشددت الحكومة المصرية في عهد محمد علي الحكام عند تعيينهم على المدن التي لها صلة بالبدو أن تكون مهمتهم الأولى «حفظ وحماية الأهالي والطرقات من شر العربان وأذيتهم» .

انظر: محفظة ٦٥ أبحاث ، وثيقة٤٤ ، ١٧ جمادى الآخر ١٢٤٧هـ .

٢١- ولو أردنا التدليل على ذلك نجد أنه في أيام الحملة الفرنسية على مصر والشام كان البدو يتاجرون في المهمات الحربية المهربة بين مصر والشام لتعذر على الفرنسيين منع هذه التجارة بسبب طبيعة البلاد ، ولم تتغير هذه الحالة على الإطلاق في مدة حكم محمد علي حتى جاء وقت كان البدو فيه أشد إزعاجًا له مما كانوا على عهد الحملة الفرنسية، فسلبوا في عام ١٨١٣ قافلة خاصة به بينما كانت سائرة من السويس إلى القاهرة ، وفروا بغنيمتهم من الجمال والسلع، ولما حاول محمد علي أن يقتص منهم لجأوا إلى حدود الشام.

انظر دفتر رقم ١ عربي تركي، وثيقة ٩٤ ، غرة صفر ١٢٢٨هـ من محمد علي إلى الأفندي كتخدا الباب.

٢٢- ومن أهم الأمثلة على ذلك ما قام به إبراهيم باشا (١٧٨٩-١٨٤٨) ابن محمد علي – تجاه البدو في الشام. ذلك أنه رأى أن من حسن السياسة كسبهم إلى وصفه والاستفادة منهم وذلك لمعرفتهم بالطرق ومضافيها ، كما أنه بذل جهوداً كبيرة لترطيبتهم وإغرائهم ، وبذلك حقق مكسبين : الأول ، كفهم عن الإغارات ، والثاني: تحقيق الهدف الإنتاجي.

انظر: لطيفة محمد سالم، الحكم المصري في الشام (١٨٣١-١٨٤١م) (القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ١٩٠٠)، ص٢٢١ .

وخلاصة القول وعلى حد قول كامبل Vamphell أنه ومن المزايا العظيمة التي حققتها الحكومة المصرية، توطين الكثير من قبائل البدو... وقد أصبحت فعلا. أكثر نفعاً للمجتمع ككل» .

انظر:

Bowring, J., Report on the Commercial statistics of Syria Addressed to the Right Hon Lord viscount Palmerston, Her majesty's Principal Secretary of State for foreign Affairs (London, 1840), p. 134 .

٢٣- سعد وحرام من القبائل والبطون العربية التي نزلت بمصر مع الفتح العربي، وهذا الانقسام إنقسام اجتماعي بشطر المجتمع كله إلى شطرين ولايستند إطلاقا إلى أسس مذهبية سياسية أو اقتصادية . انظر: عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، (دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩)، ص ١٤، هامش ١ .

٢٤- ولمزيد من التفاصيل عن الصراع بين الغفارية والقاسمية ، انظر:

Holt , op. cit., pp. 79-93 .

٢٥- كانت قبيلة قيس التي ينتسب إليها القيسيون قبيلة شمالية مواطنها ضفاف الفرات، أما الحزب اليمني فكان ينتمي إلى قبائل عربية جنوبية هجرت مواطنها الأولى ونزحت شمالا إلى سورية واستمر التعصب بين القيسية واليمنية قائماً في سورية ولبنان خاصة بعد الفتح العثماني انظر: عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص١٦٤ ، هامش ١ .

٢٦- وعن الصراع بين القيسية واليمنية، ثم بين اليزبكية والجنبلاطية، انظر:
Holt, op. cit., Chap. 8 " The Amirate of the Ma'nkis and Shihabs in Lebanon", pp.112- 123

٢٧- Ibid, p. 4 .

٢٨- ادوارد وليم لين، المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، في القرن التاسع عشر، ترجمة عدلي طاهر نور، (القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٤٥)، ص٩ .

٢٩- ولمزيد من التفاصيل عن تلك الأسر والمشاحنات بينها انظر:

مخطوطة «تقسيم جبل لبنان» ، محفوظ بقسم المخطوطات بالهيئة المصرية العامة للكتاب تحت رقم ١٦ تاريخ مصطفى فاضل ، ورقة ١٦ .

٣٠- Holt, op. cit., p. 1 .

٣١- Ibid, p. 4 .

٣٢- بيير كوبيشس، إبراهيم باشا، ترجمة محمد بدران (القاهرة ، ١٩٣٧، ص١٦٦ .

٣٣- Holt, op cit., p. 4 .

٣٤- محمد محمود السروجي، دراسات في تاريخ العالم العربي الحديث والمعاصر، (دار الثقافة العلمية ، ٢٠٠٣)، ص ص٩٦-٦٩ .

٣٥- Holt, op. cit. p. 5 .

٣٦- Ibid. p. 19 .

٣٧- تناولها المؤلف في الصفحات من ٢٣-٣٢ .

٣٨- Ibid. p. 23 .

٣٩- إسباهية كلمة فارسية معناها الجيش، مأخوذة من كلمة أسب بمعنى حصان، والإسباهية في اللغة التركية تعني الفرسان. وقد ذكرها ابن إياس باسم الاصبهانية . انظر: عبد العزيز محمد الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (القاهرة ، ١٩٩٨م) ج١ ، ص١٣٠ .

٤٠- ترجع الكلمة إلى أصل يوناني، ومعناها جمع الأولاد من الأسر المسيحية الخاضعة لحكم الدولة العثمانية مثل الصرب وبلغاريا والمجر وألبانيا ومقدونيا كضريبة دم في نظير حماية تلك الشعوب المسيحية. وتخرج اللجنة المخصصة لجمع الأولاد وتطوف بالقرى المسيحية ، حيث يتقابلون مع قسيس القرية لمعرفة عدد الأولاد الذين قام بتعميدهم ويختارون منهم الأصحاء ، ولا يأخذون الطفل وحيد والديه ، ومعظمهم من أبناء المزارعين والرعاة من سن الثامنة إلى سن العاشرة ، ويدخلون في الإسلام ويتعلمون القراءة والكتابة وفن الفروسية والقتال. ومنذ أن ينتزعون من أسرهم تنقطع صلتهم بها تماماً.

انظر: Gibb, H.A.R. and Bowen, H., Islamic Society and the West (London , 1950), vol . 1 " Islamic Society in the Eighteenth Century", pp. 56-60 .

٤١- الروملي: هي الجزء الخاص بالدولة العثمانية في أوربا والقريب من الآستانة، وهي اسم مركب من جزئين : روم- إيلي ، وروم تعني الروم ، وإيلي تعني الأرض القريبة.

٤٢- باشا: كلمة تركية ما زال أصلها الإشتقاقي خلافاً قليل إنها من (باش اغا) أي رئيس الأغوات ، أو كبير الخصيان، وقيل إنها من الكلمة الفارسية (بادشاه) ، وقيل : إنها من (باش) بمعنى الرأس والرئيس، وكان هذا اللقب يطلق في مصر على رجال الجيش إذا صاروا ألوية.

انظر: أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ، (دار المعارف، ١٩٧٩) ، ص٣٦ .

٤٣- عالجها المؤلف في الصفحات من ٣٣-٤٥ .

٤٤- يتفق هذا مع السياسة العثمانية التي تميل إلى إبقاء الإدارة المحلية كما هي، ثم تعمل بعد ذلك على الغائها أو دمجها بالأنظمة العثمانية بالتدريج. انظر: عمر عبد العزيز عمر ، دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، الجزء الثاني، ص ص٥٥٨-٥٥٩ .

٤٥- Barkey , Karen Bandits and Bureaucrats : the Ottoman Route to State Centraliza- tion, (Cornell University press, Ithaca, 1994) , Chapt. 2 " The Contexs of the seventeenth Century ", pp. 24-54 .

٤٦- تناولها هولت في الصفحات من ٤٦-٥٧ .

٤٧- عالجها هولت في الصفحات من ٦١-٧٠ .

٤٨- تعتبر تلك المعاهدة هي حجر الزاوية في العلاقات الروسية العثمانية، وبمقتضاها مُنحت روسيا حق إنشاء قنصليات في ممتلكات الدولة العثمانية وأصبح لرعاياها حق التجارة في أملاك هذه الدولة- كما كان لروسيا الحق في إقامة كنيسة أرثوذكسية في القسطنطينية، وسمح لرعاياها بالحج إلى الأراضي المقدسة المسيحية التي تقع في الممتلكات العثمانية. انظر: عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢)، ص١٢١ .

٤٩- تختلف المسألة الشرقية في العصر الحديث المبكر في المعنى والمدلول عن معناها في القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر. فالمسألة الشرقية في العصر الحديث المبكر عبارة عن المشكلة التي نجمت عن احتلال الأتراك العثمانيين لشرق أوربا ، وتهديدهم ممتلكات دول غرب أوربا بخطر جسيم ، أي أن المشكلة كانت بالنسبة للعالم الغربي في ذلك الوقت تتلخص في محاولة التكتل والاتحاد للوقوف صفا واحداً أمام الخطر العثماني المترقب. أما تلك المسألة فقد أخذت شكلاً آخر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهو يتمثل في محاولات الدول الأوربية التخلص بصفة نهائية من الدولة العثمانية، وذلك بطردها من أوربا وتقسيم ممتلكاتها بين الدول المعنية بالأمر .

وقد لعب التنافس بين تلك الدول الاستعمارية دوراً هاماً في بقاء الدولة العثمانية رغم تفسيخها . كما حاول السلاطين العثمانيون استغلال هذا التضارب في المصالح بين الدول الأوربية الكبرى في الاحتفاظ بممتلكاتهم دون تقسيم. وقد نجحوا في هذه السياسة إلى حد بعيد. انظر محمد محمود السروجي، معالم التاريخ الأوربي الحديث (الاسكندرية، ١٩٩٧) ، ص١٧ .

٥٠- والطريف أن هذه الطريقة في سرد الأحداث ، كانت من الظواهر الواضحة في معظم ما عالجه هولت في كتابه .

٥١- عالجها المؤلف في الصفحات من ٧١-٨٣ .

٥٢- الأوجاق: كلمة تركية ، معناها الأول في التركية المولد والمدفئة ، ثم أطلق على كل ما تدفئ فيه النار فأطلق على البيت من وبر أو مدر ، ثم على أهله ثم على الجماعة التي تتلاقى في مكان واحد ، ثم أطلق على الطائفة من طوائف أرباب الحرف ، وعلى الصنف من أصناف الجند . وتنطلق أيضاً وجاق، انظر: أحمد السعيد سليمان، مرجع سابق ، ص١٩٤ .

٥٣- الدفتردار: الدفتر من الكلمة اليونانية دفتيرا Diphthéra بمعنى جلد الحيوان، لأنه كان يستعمل

للكتابة ، أما دار فارسية ومعناها الصاحب فالدفتردار لغويًا هو صاحب الدفتر ، انظر المرجع السابق، ص ص٩٨-٩٩ .

٥٤- توسع هولت بشكل كبير في الحديث- إذا ما قورن حديثه هنا بحديثه الموجز في الموضوعات الأخرى- عن وضع بكوات المماليك في مصر العثمانية فتناول أخبارهم وصراعاتهم في القرنين السابع عشر والثامن عشر وأفرد لهم النقطتين الخامسة والسادسة في كتابه.

٥٥- تناولها هولت في الصفحات ٨٥-١٠١ .

الحقيقة أن سيطرة بكوات المماليك قد ظهرت بشكل واضح في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. بينما شاهد النصف الأول منه سيطرة رؤساء الأوجاقات العسكرية، حيث ساهمت تلك الأوجاقات - لاسيما الإنكشارية- بأكبر نصيب من الفوضى السياسية والعسكرية التي عمت مصر في ذلك الوقت. انظر: عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجزء الأول (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٣) ص ص٥٦-٣١٨ .

٥٦- المغزى الحقيقي للقب شيخ البلد ليس واضحًا ويبدو أنه يشير إلى أقدم مماليك القاهرة . ولم يكن هذا اللقب من الألقاب الرسمية العثمانية، ولكن استخدمت اصطلاحات أخرى في القرن الثامن عشر يبدو وأنها تتشابه مع لقب شيخ البلد. فقبل ذلك بأربعين عامًا أشارت المصادر إلى اسماعيل بك بن إبواظ على أنه «أمير مصر» وظهرت أيضا ألقاب أخرى مثل «كبير القوم» ، و«كبير البلد» وحتى نهاية فترة إبراهيم كاهيا ورضوان كاهيا زعيمي بيت القازدوغلية كان من الممكن أن يتقلد أحد ضباط الأوجاقات السبعة منصب الرياسة أو أن يقتسمها مع شخص آخر. ولكن اقتصر لقب شيخ البلد على البكوات فقط. انظر:

Hole, op. cit., p. 92-93 .

٥٧- نلاحظ الكثير من الكتاب إنما يطلقون لقب «الكبير» على «علي بك بلوط قبان» مثل محمد رفعت رمضان في كتابه علي بك الكبير» (دار الفكر العربي ، د.ت) ص ص١٨-٢٣ . والحقيقة أن لقب «الكبير» لم يطلقه هولت على «علي بك بلوط قبان» وهو يتفق في ذلك مع عبد الرحمن الجبرتي في كتابه «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» الجزء الثاني (الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣) ففي صفحة ٥٩١ قال الجبرتي «تولى الأمير علي بك» وفي صفحة ٥٩٦ قال «ومات: الأمير الكبير، علي بك الشهير» . وبخلاف ذلك لم يلقبه بالكبير طوال الحديث عنه من صفحة ٢٤٤-٦٠١ وإنما ذكره «علي بك».

أما لقب «الكبير» فلقد أطلقه الجبرتي على «علي بك الغزاوي» انظر صفحة ٤٠٤ وهو ما أغفله هولت أيضا . بل نجد أن هولت يطلق على «علي بك بلوط قبان» علي بك الصغير The Younger Ali Bey في صفحة ٩٣ للتفرقة بينه وبين علي بك الكبير (الغزاوي) .

٥٨- وهو نفس التذكير الذي سيذكره محمد علي (١٨٠٥-١٨٤٨م) فيما بعد عندما يفكر في فتح الشام.

٥٩- عالجها هولت في الصفحات من ١٠٢-١١١ .

٦٠- تناولها المؤلف في الصفحات ١١٢-١٢٣ .

٦١- شملت الصفحات من ١٢٤-١٣٣ .

٦٢- عالجها هولت في الصفحات ١٣٤-١٤٨ .

٦٣- شملت الصفحات من ١٤٩-١٦٣ .

٦٤- محمد بن سعود: هو حاكم مدينة العيينة بنجد، والتي نشأت فيها الدعوة الوهابية.

٦٥- لمزيد من التفاصيل عن دور الصعيد تجاه الحملة الفرنسية على مصر، انظر : بحث الأستاذ الدكتور محمود السروجي «الحملة الفرنسية على الصعيد عام ١٧٩٨م» الذي قدم في «ندوة الدور الحربي والتاريخ العسكري لجنوب مصر عبر العصور»، أقامها مركز دراسات المستقبل بجامعة أسيوط في الفترة من ١٧-١٨ أبريل عام ١٩٩٦م.

٦٦- عالج المؤلف هذا الموضوع في الصفحات من ١٦٧-١٧٥ .

٦٧- شملت الصفحات من ١٧٦-١٩٢ .

٦٨- عالج المؤلف هذا الموضوع في الصفحات من ١٩٣-٢١٠ .

٦٩- في هذه النقطة لم يذكر هولت شيئا عن سعيد وكان يجب أن يتبع أهم حدث في عهده وهو منح شركة قناة السويس امتياز حفر القناة واستخدامها لمدة تسعة وتسعين عامًا من فتحها ثم بعد ذلك يتفرغ للكتابة عن اسماعيل.

٧٠- كان سعيد دائم الخوف من أفراد أسرته ، ومن مؤامراتهم لمنزله ، ولذا فقد صمم على الاعتماد على أبناء الجيش المصري من المصريين لحمايته، فسمح لهم بالترقي من تحت السلاح إلى أعلى الرتب العسكرية وكان منهم أحمد عرابي وزملاؤه من زعماء الثورة العرابية. ولهذا يمكننا القول بأن سعيد قد مهد بطريق غير مباشر لقيام الثورة العرابية.

٧١- والحقيقة أن هذه التسمية سبق ذكرها على يد المؤرخ محمد شفيق غربال- حسين أفندي الروزنامجي ، ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية ، تحقيق محمد شفيق غربال بعنوان: «مصر في مفترق الطرق (١٧٩٨-١٨٠٠)»، مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول (القاهرة) المجلد الرابع ، الجزء الأول، ١٩٣٦ عن الوضع في مصر بعد خروج الحملة الفرنسية منها عام ١٨٠١ ، فكان عليها إما الاستقلال أو العودة إلى الحكم العثماني المباشر ، أو العودة لحكم بكوات المماليك كما كان الوضع عند مجيء الحملة.

٧٢- امتدت معالجة هذا الموضوع من صفحة ٢١١-٢٣٠ .

٧٣- لمزيد من التفصيلات حول هذا الموضوع يرجع إلى محمد محمود السروجي، دراسات في تاريخ أفريقيا الحديث، (دار الثقافة العلمية، ٢٠٠٤) الفصل التاسع «معركة كرم» والفصل العاشر «تتابع الحملات».

٧٤- لمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع ، يرجع إلى محمد محمود السروجي، الجيش المصري في القرن التاسع عشر (دار المعارف ، ١٩٦٧) ص ص٥٤٩-٥٥٢ .

٧٥- لم يذكر المؤلف شيئا عن الفترة من انسحاب فرنسا من لشبونة إلى توقيع الاتفاق الودي وهي فترة تمت فيها مساع كثيرة للوصول إلى تسوية . ويمكن الرجوع في هذا الشأن إلى كتاب مرفت أسعد عطا الله، التنافس البحري العسكري بين بريطانيا وفرنسا في البحر المتوسط، بعد فتح قناة السويس(١٨٦٩-١٩٠٤) (مركز الاسكندرية للكتاب، ٢٠٠٥) ، ص ص٣٤٤-٤٢٧ .

٧٦- شملت الصفحات من ٢٣١-٢٤٦ .

٧٧- امتدت معالجة هذا الموضوع من ٢٤٧-٢٥٤ .

٧٨- عالجها هولت في الصفحات ٢٥٥-٢٦١ .

٧٩- حاول السلطان عبد الحميد الثاني أن يعوض ضعف الدولة العثمانية الحربي بالناحية الدينية، حيث اهتم بلقب خليفة المسلمين، كما أنه تقربا للمسلمين قام بمد الخط الحديدي من دمشق إلى المدينة المنورة تسهيلاً لحجاج بيت الله الحرام لأداء شعائر الحج ورغم أن السلطان أضفى على الخط الناحية الدينية إلا أن الغرض الخفي من مد هذا الخط هو مساعدة الدولة العثمانية في القضاء على الثورات أو التمرد ضد الدولة بوسائل سريعة. انظر: محمد محمود السروجي ، دراسات في تاريخ العالم العربي الحديث والمعاصر، ص ص٤١-٥٢ .

٨٠- عالج المؤلف هذا الموضوع في الصفحات ٢٦٢-٢٧٧ .

٨١- تناولها هولت في الصفحات ٢٧٨-٢٩٨ .

٨٢- شمل الصفحات من ٢٩٩-٣٠١ .

٨٣- ولمزيد من التفصيلات عن تلك الثورات ، انظر: محمد محمود السروجي، دراسات في تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر، الاسكندرية ١٩٩٨ ، الفصل الأول «مظاهر كفاح الشعب المصري ضد الحكم العثماني» ، ص ص٣-١٣ .

د. مصطفى حبشي محمد زهوان(*)

العلماء العرب في الكتابات التاريخية عند المؤرخين العرب المعاصرين

« أبو الثناء محمود الألوسي » (١٨٠٢-١٨٥٥)

كان عراق العباسيين مركز الزعامة في السياسة والأدب، ثم انتقلت بغداد تلك الزعامة في أعقاب نكبة المغول لها ولعلمائها، ولم تستطع دمشق أو القاهرة أن تتسلم تلك الزعامة من بغداد حيث أن الآداب العربية كانت تتدهور فيها كذلك، واستمر هذا الركود خلال العهد العثماني حتى القرن الثامن عشر الميلادي، ذلك القرن الذي يمكن أن نطلق عليه «قرن الحركة» حيث بدأت خلاله تطورات ثقافية وسياسية هامة في الوطن العربي ، وهو أيضًا قرن استطاعت أثناء العصبيات والأسرات المحلية أن تستبد بالحكم في معظم ولايات الدولة العثمانية. وقد ظهرت في العراق عصبية المماليك التي حكمته من ١٧٤٩ إلى ١٨٣١م[1].

عاش العراق تحت الحكم المملوكي فترة قلقة مليئة بالثورات العشائرية وبالأوبئة والفيضانات المخربة والغزوات الفارسية؛ ولكن منذ الثلث الأول من القرن التاسع عشر هبت على العراق رياح التغيير والتطور، حيث وصلت إليه بعض التيارات التي اجتاحت منطقة الشرق الأدنى في أعقاب نزول الحملة الفرنسية في مصر، وبعد انتشار الحركة الوهابية في

* المعهد العالي للدراسات الأدبية - الإسكندرية.

به الجزيرة العربية، حتى لقد اعتنى سليمان باشا الصغير- الذى حكم العراق بين ١٨٠٧و١٨١٠- الفكرة الوهابية ، هذا فضلا عن أنه كان قد حصل على منصب باشوية بغداد بفضل وساطة المسيو سباستيانى Sebastiani السفير الفرنسى المشهور لدى الباب العالى. وبدا واضحًا أن العراق بدأ يدخل فى مجال السياسات الدولية. ولقد أصبح العراق ذا أهمية دولية خلال عهد الوالى داود باشا آخر ولاة المماليك الذى حكم فى ١٨١٧ إلى ١٨٣١. فلقد حاول الرجل أن يوحد العراق بمختلف ولاياته تحت حكمه، وأن يقتبس من حضارة الغرب ما يستطيع به أن يدعم قوى العراق الاقتصادية والعسكرية. ولكن صادف ذلك الوقت اتجاه السلطان العثمانى نحو القضاء على العصبيات المحلية الحاكمة على اعتبار أنها من عوامل تدهور الدولة العثمانية ، وأن إعادة الحكم المركزى إلى مختلف ولايات الدولة كفيل بخلق امبراطورية عثمانية متماسكة قادرة على الوقوف فى وجه الإمبراطوريات الكبرى الأوروبية الاستعمارية الطامعة فى الدولة العثمانية ، فشن السلطان العثمانى حملة كبيرة على العراق ١٨٣٠-١٨٣١ بقيادة على باشا رشيد فاستولى عليه وأعاد إليه الحكم المركزى العثمانى الذى استمر حتى ١٩١٧.[٣]

وكان للأدباء فى عصر بعض وزراء المالية دولة، ويعتبر عهد داود باشا ذروة ما بلغه العراق من تطور أدبى فى عهد المماليك. وكان هذا التطور فى ذلك العهد منطلقًا لتقدم أدبى كبير خلال القرن التاسع عشر، بدأه أبو الثناء الألوسى وعبد الغفار الأخرس وصالح التميمى وغيرهم من أدباء ذلك العهد . وكانت رعاية مماليك العراق للآداب العربية ترجع إلى عوامل عديدة. فلا شك أن اللغة العربية والإسلام هما اللذين أخذا بيد هؤلاء المماليك عندما كانوا مجرد عبيد أرقاء فى بيوتا بغداد الكبرى، ولما تولى المماليك الحكم- وكان احتكاراً لهم منذ منتصف القرن الثامن عشر- عنوا باللغة العربية وآدابها وبالعلوم الدينية وبالشيوخ والعلماء، فقربوهم إليهم، وعقدوا لهم المجالس الأدبية، وأنشأوا العديد من المدارس، وأعدوا المكتبات لطلاب العلم.[٤]

ولقد كان الحكام المماليك فى حاجة إلى كسب صداقة ود العلماء والأدباء لأن المماليك كان يفرضون أنفسهم فى حكم العراق على غير رغبة من السلطان العثمانى وبابه العالى وفى وجه معارضة قوية من بعض الزعماء العرب والأكراد. هذا إلى جانب ما كان يوجهه المماليك من تمردات داخلية خطيرة تهدف إلى إبعادهم عن الحكم. فأملت هذه الظروف عليهم أن يكسبوا إلى جانبهم العلماء والأدباء ، خاصة وأن حكومة المماليك كانت فى طريق التحول نحو حكومة

محلية عراقية فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر . وجاء هذا التحول فى وقت نمت فيه الحركة الفكرية. ولقد فطن الحاكم المماليك إلى ذلك ، وبخاصة داود باشا، ولهذا نجده يحيط البراعم الأدبية الناشئة برعايته ، فأعان على بزوغ نجم كل من أبى الثناء محمود الألوسى وعبد الغفار الأخرس.[٥]

وظهرت فى أيام داود باشا حركة أدبية كبيرة، فقد كانت مجالس الأدب والأدباء متعددة، وتعيد لنا المساجلات والمطارحات الشعرية حينذاك ذكرى ما كان بين جرير والفرزدق ، وكانت الأبيات القيمة- بمقياس ذلك العصر- تطير من مجلس إلى مجلس، كما كانت القصيدة الممتازة، لا يتناقلها الناس فحسب بل كان الأدباء يتسابقون إلى شرحها أو تشطيرها أو تخميسها ، فيذيع صيتها ويرتقى خلال هذا وذلك الإنتاج الأدبى العربى.[٦]

ومما زاد من ثمر الفكر الأدبى العربى فى العراق فى ذلك الوقت أن العراق قد أخذ يشق طريقه إلى المجالات الدولية منذ أن استعاد طريق العراق بين الشرق والغرب بعض أهميته فى العشرينات من القرن التاسع عشر، خاصة عندما ازدادت أهمية العراق الدولية مع بداية التوسع المصرى فى الشام (١٨٣١-١٨٤٠)، وظهور المشروعات الملاحية التجارية الإنجليزية فى أنهار العراق متمثلة فى «بعثة الفرات» بقيادة فرنسيس روادن جسنى F. Rawden Chesney التى مهدت لجعل العراق قاعدة إنجليزية ضد التوسع المصرى فى الشام وفى شبه الجزيرة العربية.[٧]

إن مثل هذه الأحداث الكبرى كفيلة بأن تشحذ الأذهان وتطلق طاقات أدباء العراق وعلمائه، وفعلاً ظهر عدد من الشعراء ملأوا الأسماع ببعض روائعهم ، حقيقة كان الشاعر عبد الغفار الأخرس يتكسب بشعره مادحًا الولاة والأثرياء ، ولكن فى نفس الوقت ظهرت اتجاهات وطنية فى شعره وكذلك فى نثر محمود الألوسى. ويجدر بنا قبل أن نتعرض لهذه الاتجاهات الوطنية أن نلقى نظرة سريعة على نشأة وتاريخ حياة محمود الألوسى الذى اشتهر بأبى الثناء لفضله الجم.[٨]

ولد أبو الثناء محمود الألوسى فى ١٨٠٢م / ١٢١٧هـ ، وهو ينتسب إلى الشجرة النبوية الكريمة، ومن بيت علم حيث كان أبوه من مدرسى بغداد المعروفين وقد تلقى على يديه الكثير من علوم الدين واللغة والأدب.

وقد تلقى العلم كذلك على يد عدد من المدرسين والعلماء، وتحدث عن بعض هؤلاء حديثًا كشف عن بعض المشاعب التى كان يعانى منها طلاب العلم على يد المدرسين حينذاك ،

فبعضهم كان يقول ما لايفهم، ورغم هذا كان يسعى إلى أعلى المراتب، ويبيّن كذلك أن بعض علماء ومدرسي بغداد كان يستجدي بعلمه، ولكن كانت حرية الطالب في أن ينتقل من عالم إلى آخر ومن مدرسة إلى أخرى تخفف من حدة مثل هذه المشكلات [٨].

وكان من بين العلماء الذين درس عليهم أبو الثناء الألوسي من لعب أدواراً خطيرة في تاريخ العراق، ونقصد بذلك الشيخ خالد النقشبندي، وعلي أفندي السويدي، وكان الأول شيخاً للطريقة النقشبندية، وكان يسعى إلى تصفية الأحقاد بين الزعماء الأكراد وإلى توجيه قلوب الناس نحو حياة دينية أفضل، ولقد استطاع أن يكون لنفسه جماعة كبيرة من المريدين على مختلف المستويات. ويبدو أن السلطات العثمانية خشيت من النمو المطرد لعدد من مريدي الشيخ خالد النقشبندي فعملت على مطاردته وتشريده[٩].

أما علي السويدي فكان نائب الوزير سليمان باشا الصغير الذي حكم العراق من ١٨٠٧ حتى ١٨١٠، وقد قام هذا الوزير بتمرد كبير ضد السلطان العثماني بتحريض من علي أفندي السويدي وكانت خطورة هذه الحركة تكمن في أن علي السويدي هذا كان ذا اتجاهات سلفية قوية ثورية، حتى لقد قيل عنه أنه كان وهابياً، وأنه استطاع أن يقنع الوزير سليمان الصغير بالفكرة الوهابية[١٠].

ولاشك أن تلقي محمود الألوسي العلم على يد أمثال هؤلاء العلماء كان له تأثير كبير في التكوين السياسي لأبي الثناء الألوسي، بل يمكن القول أن اتجاهات أبي الثناء الألوسي السياسية امتداداً لاتجاهات بعض أساتذته.

وبعد أن حصل أبو الثناء من العلم والمعرفة زاده، فتح له أبوه مجال العمل بأن جعله محافظ كتب مدرسة الشهيد علي باشا التي كان يقوم والده بالتدريس فيها. ولاشك أن الفترة التي قضاها أبو الثناء أميناً لمكتبة تلك المدرسة كانت فترة إعداد له فتحت له آفاقاً جديدة ومنحته فرصة واسعة للاستزادة من مختلف نواحي العلوم، وبعد ذلك بوقت قصير عينه داود باشا مدرساً في مدرسة الحاج أمين الباجة جي. فكان ذلك بداية لظهور أبي الثناء الألوسي.

وبمرور الوقت وثقت الصلة بين أبي الثناء الألوسي وداود باشا والي بغداد، ولكن جاءت هذه الروابط الوطيدة بين الرجلين في وقت كان فيه السلطان العثماني محمود الثاني يعد حملة كبيرة لطرد داود من بغداد وللقضاء قضاءً تاماً على المماليك. وفعلاً جرد السلطان العثماني جيشاً بقيادة «علي رضا باشا» لتنفيذ تلك الأهداف، فاستعد داود باشا بجيشه المدرب لمقاومة جيش علي رضا، ووقف أبو الثناء الألوسي إلى جانب داود في هذه الأزمة [١١].

أن وقفة أبي الثناء الألوسي هذه إلى جانب داود باشا الثائر على السلطان والخارج على طاعة خليفة المسلمين لا تعني أن تلك الثورة كانت من أجل فصل العراق عن دولة الخلافة العثمانية، فتلك كانت وجهة نظر السلطان وبابه العالي في ثورة داود باشا، أما داود هو الأكفأ لحكم العراق من غيره من «ولاة الخارج» الذين كان يبعث بهم السلطان العثماني لحكم ولايات الدولة العثمانية حكماً مركزياً. فالمماليك- من وجهة نظر أبي الثناء الألوسي- أحق من غيرهم في حكم البلاد لأنهم كانوا يعيشون بين أهل العراق وعلمائه .. ويعرفون أساليب حكم هذه البلاد، بعكس الحال بالنسبة «لولاة الخارج» - من أمثال «علي رضا» الذين كانوا يفدون إلى العراق دون سابق معرفة به أو بأهله، فلايراعون مكانة علمائه ولا يدبرون أموره بمشورتهم. ولهذا «أبى» على حد تعبير مترجم حياة أبي الثناء الألوسي أن يطيعه جميع من في العراق وقامت الحرب فيما بين الطرفين»، علماً بأنهم في نفس الوقت كانوا يعلنون الطاعة للسلطان العثماني وأنهم يدافعون فقط عن العراق ضد جيش علي باشا رضا[١٢].

وأغلب الظن أن أبا الثناء الألوسي وغيره من علماء العراق كانوا يعتقدون أن جيش المماليك وكان قد أعد إعداداً جديداً- قادر على رد هجوم جيش علي رضا، وكانت كل المقدمات توحي بأن داود سيخرج من المعركة المنتظرة منتصراً. ولكن حدث أن تفشى الطاعون في جيش داود فأباد غالبيته العظمى، ثم انقض نهر دجلة بفيضانه على بغداد، فكان أن أجهز على المدينة، ولم يجد داود من وسيلة أمامه سوى الاستسلام، ودخل «علي رضا باشا» في أعقاب ذلك المدينة ودبر مذبحة مروعة لمماليك بغداد فقضى عليهم قضاءً مبرماً[١٣].

وكان طبيعياً أن يتوقع أبو الثناء الألوسي عقاباً صارماً على يد الباشا المنتصر علي رضا، خاصة وأن منافسي وخصوم أبي الثناء كانوا قد وشوا به إلى الباشا الجديد «وأغلظوا قلب الوزير عليه» ولهذا اختفى أبو الثناء الألوسي عن الأنظار حتى تهدأ الأمور «فجأة مختفياً في محلة الشيخ عبد القادر الكيلاني» وظل على هذا الحال حتى عاد من الشام «عبد الغني جميل» الذي كان من كبار رجالات بغداد والذي تولى منصب الإفتاء. وكانت تربطه بأبي الثناء الألوسي أوثق الروابط، ولذلك عزم أبو الثناء الألوسي، على أن يلجأ إلى حماه، ليدفع عنه انتقام علي باشا رضا، وليسعى في العفو عنه [١٤].

أقام أبو الثناء في بيت عبد الغني جميل فترة من الزمان، واستطاع بمعاونته أن يخرج مرة أخرى إلى مجالات الحياة العامة، ولكن الظروف القاسية، والتقلبات كانت سريعة، فلايكاد

أبو الثناء يجد طريقه إلى الحياة العامة حتى وقعت في بغداد ثورة كبيرة «ضد علي باشا رضا» تزعمها عبد الغني جميل مفتي بغداد، وكان السبب المباشر لتلك الثورة هو القسوة البالغة التي كان يعامل بها رجال «علي رضا» نساء بغداد، حيث كانوا يعذبونهن لإرغامهن على إبراز ما لديهن من أموال مخبأة، والواقع أن تعذيب التعسة لمن الأمور التي لا تقرها شهامة أي رجل، فكان طبيعيًا أن تثير مثل هذه الاعتداءات غير الإنسانية ثائرة مفتي بغداد عبد الغني جميل لما عرفت عنه من روح عربية أصيلة، ولكن كان هناك أسباب أخرى عامة ساعدت على نشوب ثورة بغداد ١٨٣٢، ومنها أن انتقال الحكم من أيدي المماليك إلى أيدي الأتراك العثمانيين كان دمويًا، وبينما كان الناس يتوقعون من الحكم التركي الجديد أن يقدم الإعانات والإسعافات للمدينة المنكوبة إذ بهم يرون رجال الوالي الجديد يعملون على سلب كل قرش من جيوب أهل المدينة وبشكل وحشي[١٥].

ومما ساعد على نشوب ثورة بغداد أن السلطات المصرية بعثت برسائل إلى أهالي كبريات المدن العراقية تحثهم فيها على أن يأخذوا جانب القضية المصرية ضد السلطان العثماني. ففي ١٨٣١ بدأت القوات المصرية زحفها إلى الشام وأحرزت عدة انتصارات كبيرة خلال ١٨٣١، ١٨٣٢، وعلى رأسها سقوط عكا في يد القوات المصرية[١٦].

والواقع، لم تكن بغداد هي الثائرة وحدها ضد «علي باشا رضا» فلقد ألهب سقوط عكا حماس كثير من القوى الوطنية العراقية للعمل ضد الأتراك العثمانيين، فلقد أعلنت الموصل انضمامها إلى المصريين، وظهر في البصرة حزب عربي قوي يعمل ضد علي رضا، وأعلن صنوق- شيخ عشائر شمر الجربا التي كانت أقوى عشائر العراق البدوية- انضمامها إلى جانب الثوار في بغداد، وكان مستعدا للتعاون مع القوات المصرية إلى حدود بعيدة، كما قيل أن أمير رواندوز «محمد باشا ميركور»- الذي كاد أن يسيطر على معظم كردستان- كان مستعدًا للهبوط على بغداد متعاونًا مع القيادة المصرية في الشام، وهكذا كان عام ١٨٣٢ أخطر عام مر بالوالي الجديد «علي باشا رضا» حيث أن معظم العراق بدا وكأنه قد خرج عن طاعته ولكن الرجل كان- رغم كل هذا - قادرًا على مواجهة تلك الأزمات الطاحنة، فقد ركز جهده أولاً في إخماد ثورة بغداد حتى يتفرغ لبقية القوى المناهضة له، ولقد استطاع فعلاً أن يخمد الثورة فيها بعد أن أصلاها بوابل من قنابل مدافعه واضطر عبد الغني جميل في نهاية الأمر إلى أن يغادر العراق[١٧].

كان الدور الذي لعبه أبو الثناء الألوسي خلال تلك الثورة خطيرًا، حيث أنه تزعم ثورة الكرخ، فلما باءت الثورة بالفشل أضحى مركزه غاية الحرج، حيث نسب إليه أعداؤه «ما هو أعظم من الأول» حتى لقد قيل أن الوزير «حزم على قتله» وظل أبو الثناء مدة ليست بالقصيرة تحت سيف الانتقام حتى شفع لها عدد من شيوخ الطريقة النقشبندية لدى «علي باشا رضا» فقبل شفاعتهم، والملاحظ بصفة عامة أن «علي رضا» كان خفيف الوطأة على العلماء والأدباء الذين ثاروا عليه، وكان يبذل جهده من أجل استرضائهم وجمعهم حوله، وكسب تأييدهم له، لقد كان «علي رضا» في حاجة ماسة إلى تأييد هؤلاء العلماء والأدباء لمواجهة الأزمات الداخلية المتتالية وللصمود أمام تيار الانتصارات المصرية القوية التي هزت ثقة الناس في جيوش السلطان العثماني، وهذا يفسر لنا عدم مطاردته لأبي الثناء إلا لفترة عاد بعدها إلى مجالات عادية واستطاع بذلك أن يصبح واعظًا في «الحضرة القادرية»[١٨].

وفي ليلة من ليالي شهر رمضان، كان أبو الثناء الألوسي يقوم بالوعظ في «الحضرة القادرية» وتصادف أن جاءها الوزير علي رضا باشا واستمع إليه فشغف بوعظه، وأسف على ما أصاب الرجل من اضطهادات «فوصله بعطيته وبجائزة سنية... وأرجع إليه جميع وظائفه... وأمره ألا ينقطع عن حضرته العليا ... وأن يشرح البرهان في طاعة السلطان»[١٩].

لقد قدر «علي رضا» قيمة أبي الثناء الألوسي في خدمة مصالح السلطان العثماني في تلك الظروف الحرجة التي تحتاج إلى رجل عالم يستطيع أن يثبت قلوب الناس على الولاء للسلطان، رأى علي رضا أن يستغل علم وذكاء أبي الثناء الألوسي في تنفيذ أهداف في العراق وخارج العراق، وخاصة في مقاومة تيار التوسع المصري، ولاشك أن تكليف «علي رضا» لأبي الثناء الألوسي «بشرح البرهان في طاعة السلطان» في تلك الظروف كان جزءًا من مخطط عام وضعه «علي رضا» لجعل العراق قاعدة فكرية وعسكرية تعمل ضد التوسع المصري في المشرق العربي[٢٠].

والملاحظ أن أبا الثناء الألوسي لم يقم فقط بشرح البرهان في طاعة السلطان بل تولى كذلك تحرير رسائل تدعو الشريف محمد بن عون- حاكم مكة المكرمة- إلى نصرة العلية العثمانية ضد مصر، كما شن أبو الثناء هجومًا شديدًا على «محمد علي» والي مصر بسبب ما أقدم عليه الأخير من الاستيلاء بالقوة على ولايات الشام التابعة للسلطان، ومن إعمال السيف في جيوش الدولة، وهنا يقول أبو الثناء الألوسي، إن للسلطان في مثل هذه الظروف أن

يترك قتال الكفار والجهاد في سبيل الله إلى إخماد تلك الفتنة على أساس أن بعض العلماء يرى «أن قتال البغاة أفضل من جهاد الكفار»[٢١].

وهنا نلاحظ أن أبا الثناء الذي أيد ثورة داود المسلحة ضد جيش السلطان وثورة عبد الغني جميل ضد علي باشا رضا يقف موقف العداء الشديد من حركة محمد علي باشا، تلك الحركة التي وصفها أبو الثناء الألوسي بأنها بمثابة «الفصل بين الشجر و لحائه» هذا مع العلم بأن الفارق الزمني بين ثورة داود باشا وثورة محمد علي باشا لايزيد على العام الواحد ، فما هو السر وراء اختلاف موقف أبي الثناء من تلك الثورتين ؟

الواقع أن أبا الثناء الألوسي حين وقف إلى جانب داود كان ذلك لأنه كان يدافع عن قضية واضحة أمامه ويؤمن بعدالتها ، وكان داود من ناحية أخرى يقف موقف المدافع إزاء هجوم جيش السلطان عليه، أما محمد علي فكان هو الذي هاجم ولايات الشام، هذا إلى أن أهداف حكومة مصر في أن تتوسع بالشام وشبه الجزيرة العربية لم تكن واضحة في أذهان أهل العراق إن لم تكن مشوشة، ثم إن خبرات أبي الثناء خلال الفترة القصيرة التي سبقت الزحف المصري على الشام كانت معظمها تؤكد أن جيش السلطان هو الذي ينتصر في النهاية. فلقد رأي بعينى رأسه كيفية تلاشي جيوش داود في أيام معدودات (١٨٣١)، وكيف انهالت القنابل على بغداد عندما ثارت (١٨٣٢) وخرج من كل هذا أن جيش السلطان العثماني وخليفة المسلمين لاشك هو المنتصر على جيش مصر إن آجلاً أو عاجلاً[٢٢].

لقد أدى هذا التفاهم النسبي بين أبي الثناء الألوسي وعلي باشا رضا إلى أن يخدم كل منهما الآخر خدمات جليلة ، فبينما كان الألوسي قد جند قلمه وعلمه لخدمة مصالح السلطان العثماني كان علي رضا يمنحه الراتب والمناصب بسخاء، فقد ولاه علي رضا أوقاف مدرسة مرجان، وهي مشروطة لأعظم أهل بغداد ، ورتب له رتبة (تدريس الآستانة) من السلطان، ثم نصبه مفتياً للحنفية (١٢١٩هـ/ ١٨٣٣)[٢٣].

ويجب أن نؤكد هنا أن تفوق أبي الثناء الألوسي في مجالات العلوم الدينية هو الذي رفع مكانته بين جماعات العلماء من أقرانه، وكان قيامه بتفسير القرآن الكريم من العوامل الرئيسة التي أسهمت في ارتفاع نجمه، وكان خلال قيامه بتفسير القرآن الكريم- الذي عرف باسم «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» يبحث بكل جزء ينتهي منه إلى السلطان العثماني ، فكان يحصل هو من وراء ذلك على تقديس السلطان ومكافأته له،

وحصل من وراء ذلك على تيشان، كان أول تيشان منحه السلطان العثماني لعربي من العراق، كذلك منحه السلطان قضاء أزمير[٢٤].

ثم حدث أن وردت إلى أبي الثناء الألوسي بعض الأسئلة الدينية العويصة التي كتبها بعض علماء إيران من الشيعة، وكان في غيرها حينذاك اتجاه عام بأن العراق بعد نكبات الحر والفيضان والطاعون والثورة وأضحى خلواً من العلماء والمدرسين والشيوخ، ولكي يتأكد علماء إيران من حقيقة الوضع في العراق بعثوا بأسئلة دينية عويصة لامتحان علماء العراق فلم يستطع واحد منهم أن يقوم بالرد عليها رداً حاسماً، وتصدى لها أبو الثناء الألوسي وبعث إلى علماء إيران بردود مفحمة، لقيت استحسان أهل العراق والسلطات العثمانية الحاكمة في بغداد وفي الآستانة[٢٥].

ومع أن رده أفحم علماء الشيعة في إيران فإن علاقته مع علماء الشيعة في العراق كانت وطيدة قوية، ومن ذلك أن العالم الشيعي المعروف كاظم الرشتي كان من أصدق أصدقائه ، وكان كاظم الرشتي يؤسس حينذاك فرقة جديدة شيعية عرفت باسم «الكشفية» ، وقيل عنه أنه كان يترقب ظهور المهدي «المنتظر» ويبدو أن أتباع الحركة البابية انتهزوا هذه الترقعات التي كانت لدى كاظم الرشتي وأتباعه من الكشفية ، وصرحوا بأن كاظم الرشتي هو الذي بشر بقرب ظهور «الباب» علي محمد، ومن ناحية أخرى كان محمود الألوسي معتدلاً عند التعرض للاتجاهات الشيعية، بل كان يبدي تعاطفاً واضحاً نحو الأئمة الإثني عشرية وهذا واضح في شرحه لقصيدة عبد الباقي العمري التي عرفت باسم «الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب»[٢٦].

ولقد كان طابع الاعتدال من صفاته عندما يتعرض للمذاهب والأديان ، ففي الوقت الذي كان فيه عطوفاً على أفكار الشيعة الأمامية ، كان متمسكاً بأفكار سلفية واضحة ومعتدلة مثل أفكار الوهابيين.

وأغلب الظن أن أبا الثناء الألوسي كان يهدف إلى تحقيق مشروع كبير هو توحيد قلوب أهل العراق خاصة والمسلمين عامة، سنتهم وشيعتهم، وفض الخلافات بينهم عن طريق التقريب بين المذاهب، ولعله أراد أن يجعل من نفسه نموذجاً لهذه المحاولة ، ولعل هذا يفسر لنا اتجاهاته في بعض الأحيان نحو المفاهيم الشيعية مع تمسكه بالسلفية ، ويفسر أيضاً اعتداله إزاء الحركة البابية[٢٧].

حقيقة لم يعثر الباحث على رد من جانب أبي الثناء الألوسي يفند به معتقدات «الباب وأتباعه»، وأنه تعرض في اعتدال إلى تلك المعتقدات حين كتب عن قرة العين الداعية البابية. ولكن يبدو أنه أعطى لخصومه سلاحًا قويًا لمحاربته به عندما أفسح مكانًا لكاظم الشمسي في مقدمة كتابه «روح المعاني» ليكتب فيه تقريظًا كان بأسلوب الفكر الشيعي يليه الفكر البهائي.

وجاء هذا كله في وقت كانت فيه الظروف مواتية لأعداء أبي الثناء الألوسي للوشاية به لدى المسئولين العثمانيين سواء في بغداد أو في الآستانة. فلقد كثر حساده بسبب ما حصل عليه من مكانة وشهرة، ثم شعبية أبي الثناء الألوسي وصيته كان قد بلغ درجة كبيرة وشهرة، أثارت مخاوف السلطان العثماني منه. وكان من عادة السلطات التركية العثمانية الحاكمة أن تمنع من ظهور زعامات دينية أو سياسية يمكن أن تشكل يومًا ما جبهة داخلية قوية تستطيع أن تناوئ السلطات العثمانية. ولقد كان للحكومة العثمانية خبرات طويلة، ومريرة مع رجال الدين الذين أثاروا أزمات طاحنة في وجه الدولة العثمانية، وما ترتب عن الحركة الوهابية ليس ببعيد. هذا إلى أن سياسة الحكومة العثمانية- بعد أزمة التوسع المصري في المشرق العربي- اتجهت إلى إحلال البيروقراطية التركية محل نظم الحكم القديمة التي كانت تعتمد إلى حد كبير على تعاون العلماء والأدباء مع الوالي، أو بمعنى آخر أن الحكم البيروقراطي التركي الجديد لم يكن في حاجة إلى أولئك العلماء والأدباء. ومن ثم كان ارتفاع نجم أبي الثناء الألوسي في العراق وخارجه على غير هوى السلطات العثمانية، وهكذا كانت كل الظروف مهيأة لأن يوجه محمد نجيب باشا والي العراق الجديد (١٨٤٢-١٨٤٧) ضربات متتالية لأبي الثناء الألوسي[٢٨].

والملاحظ أن محمد نجيب باشا هذا جاء إلى العراق لينفذ سياسة الباب العالي الهادفة إلى تقوية قبضة الأتراك العثمانيين على مختلف ولايات الدولة والقضاء على الزعامات المحلية التي تهدد الوجود العثماني في المنطقة. ولقد نفذ نجيب باشا هذا سلسلة من مؤامرات الاغتيال لعدد من زعماء العراق من عرب وأكراد، فدبر مؤامرة أدت إلى مصرع صفوق شيخ عشائر شمر ودبر أخرى أدت إلى مصرع سليمان الفنام شيخ عشيرة العقيل وانقض على كربلاء انقضاضا دمويا وطارد أتباع «الباب» في العراق[٢٩].

كان أبو الثناء الألوسي من أولئك الذين عدهم محمد نجيب باشا خطرًا على الحكم العثماني في العراق، فناصبه العداء منذ البداية، فكان طبيعيا أن ينتهز أعداء ومنافسو أبي الثناء

الألوسي هذه الفرصة لإبعاده عن مناصب ورواتب يطمعون هم فيها. فاتهموا أبا الثناء الألوسي بأنه يدبر «فتنة خرقاء». وكان مثل هذا القول كفيل بأن يثير والي بغداد نجيب باشا الذي كان مستعدا لأن يستمع إلى مثل هذه الوشايات في أبي الثناء الألوسي. هذا إلى أن ذلك الاتهام لرجل في مكانة الألوسي كفيل بأن يشغل بال الحكام وكان أمام نجيب باشا أمرا من اثنين:

١- أما أن يحد من نشاط أبي الثناء قليلا وفي هدوء حتى لا تثار أزمة.

٢- وإما أن يوجه إليه ضربات قاسية تقضي على مكانته.

ولقد اختار نجيب باشا الطريق القاسي الثاني، وأغلب الظن أن الذي شجع نجيب باشا على ذلك أن أبا الثناء الألوسي لم تكن له عصبية قوية تذود عنه عند الشدائد، فإن سياسة الاعتدال التي سلكها أبو الثناء الألوسي كانت تقدير عقلاء القوم وكبرائهم، ولكنها لا تمكنه من تشكيل جبهة داخلية تقف وراءه، ولهذا كان الأمر أمام نجيب باشا سهلا ميسراً، فبدأ بأن عزله من منصب الإفتاء، وتم ذلك دون ضجة ما، بل إن أبا الثناء الألوسي نفسه رحب بتخليه عن ذلك المنصب حتى يتفرغ لإتمام الكبير «روح المعاني»[٣٠].

ولكن محمد نجيب لم يكتف بتلك الخطوة وإنما أصر على التضييق على أبي الثناء الألوسي إلى أقصى درجة ممكنة، فجرده من جميع وظائفه وأبعده عن جميع الأوقاف التي كانت تحت إدارته والتي كانت تدر عليه دخلا وفيرا، بل سلبه من الموارد التي يمكن أن تكفل له قوته وقوت أسرته اليومي، ويصف أبو الثناء شدة العوز الذي وقع فريسة له قائلا:

«فأسبل على بذلك سجف الأحزان وقطع مني بشفرة إعراضه نياط قلبي عنيشة أثاني رفيرة كتبي حتى كدت آكل الحصير وأشرب عليه مداد التفسير»[٣١].

ونلاحظ أن أبا الثناء الألوسي - رغم مؤلفاته المتعددة- لم يتعرض بإسهاب للأسباب التي أدت إلى وقوعه في تلك الأزمة الطاحنة، وكان إذا تحدث عن تلك الأزمة اتخذ طريق الإبهام والرمز، وأغلب الظن أنه ما لجأ إلى الإبهام والرمز إلا لخشيته من بطش رجال الدولة العثمانية به، أو لعله كان يخشى من أن يستغل أعداؤه الموضوع إن عرفت تفاصيله. فلقد كان أعداء أبي الثناء الألوسي يتسقطون له الهفوات. وكل ما ذكره أبو الثناء الألوسي عن أسباب اضطهاد السلطات العثمانية الحاكمة له قوله أنهم اتهموه بالزيوبية. والملاحظ أن أبا الثناء الألوسي نفسه اتهم علماء ومدرسي الآستانة بنفس هذه التهمة ويبدو أن بعض مدرسي الآستانة وعدد من علماء بغداد حاولوا استخدام أسلوبه في تفسير القرآن الكريم وسيلة للنيل منه، وأيا

كان الأمر فقد كانت التهم الموجهة إلى أبي الثناء الآلوسي من الخطورة لدرجة أنه وجد أن من الخير له عدم ذكرها بالمرة[٣٣].

وخلال تلك الأزمة الطاحنة التي كان يعاني منها أبو الثناء، وردت إليه من الآستانة دعوة لحضور حفل إقامة السلطان العثماني عبد المجيد بمناسبة ختان ولديه، ويفهم من هذا أن سلطات الباب العالي لم تكن على علم بما وقع بين والي بغداد ومفتيها، والحق أنه في تلك الأيام كانت سلطات الولاة لاتزال واسعة، فيستطيع الوالي أن يعزل مفتي مدينة كبيرة كبغداد دون الحصول على موافقة مسبقة من الباب العالي. ولكن وجد نجيب باشا في وصول هذه الدعوة إلى أبي الثناء الآلوسي صورة من صور التشريف له. أو بمعنى آخر أن السلطان العثماني يكرم أبا الثناء الآلوسي في الوقت الذي يخفض فيه والي العراق نجيب باشا من قدره، ومن ثم رأى نجيب باشا أنه لابد من منع أبي الثناء الآلوسي من السفر إلى الآستانة بوسيلة أو أخرى[٣٤].

أوعز نجيب باشا إلى أبي الثناء أن يعتذر عن السفر إلى الآستانة بحجة «بعد الدار مع الاشتغال بالتفسير والقيام بمصالح الوزير» وهدد نجيب باشا أبا الثناء بالبطش به إن لم ينفذ رغبته هذه. ولم يكن في وسع أبي الثناء الآلوسي أن يقاوم هذا الاضطهاد حيث لم تكن لديه القدرة على ذلك فضلا عما عرف به ذلك الوزير من شدة البطش.

آثر أبو الثناء أن يكتب رسالة اعتذار إلى المسئولين في الآستانة، وبعد أن دبجها سلمها إلى محمد نجيب باشا ليقوم هذا بدوره برفعها إلى الباب العالي حسب القواعد المتعارف عليها حينذاك، وما أن وقعت الرسالة في يد نجيب باشا حتى تحولت إلى سلاح جديد ضد أبي الثناء الآلوسي، فقد بعث محمد نجيب باشا بتلك الرسالة إلى الباب العالي بواسطة «اليالوز الإفرنساوي»[٣٥].

لقد كان معروفا في ذلك الوقت أن القناصل الأجانب يعملون على تقويض الدولة العثمانية عن طريق تشجيع الجماعات المعادية للحكم العثماني، ولهذا كان معنى إرسال المكاتبة على يد القنصل الفرنسي أن أبا الثناء متصل بالقناصل الأجانب متعامل معهم وبالتالي يمكن القول عنه أنه يعمل ضد الدولة العثمانية والسلطان العثماني[٣٦].

ولقد كانت المؤامرة محبوكة فقد أصابت أبا الثناء في الصميم وغيرت عليه قلوب السلطات العثمانية في الآستانة، وضاقت الحلقة على أبي الثناء الآلوسي، ولم يعد قادرا على أن يعيش مرتاح البال بسبب غضبة السلطات الحاكمة عليه وبسبب الفقر المدقع الذي كان

يعانيه. وفكر أبو الثناء الآلوسي في طريقة يخلص بها نفسه من هذه الأزمة ويبرئ ساحته أمام المسئولين، ووجد أن من الخير له أن يذهب إلى الآستانة ليعرض هناك قضيته وليقدم في نفس الوقت إلى السلطات العثماني موسوعته الكبرى «روح المعاني» التي قضى عدة سنوات في تأليفها. فشد الرحال إلى الآستانة في أواخر حكم نجيب في بغداد.

بعد أن استقر أبو الثناء في الآستانة حاول أن يقابل كبار المسئولين وأن يتشرف بمقابلة السلطان العثماني. ولكن كانت معظم مقابلاته واجتماعاته بشيخ الإسلام عارف حكمت الذي أكرم وفادته ورطيب خاطره، ولكن شيخ الإسلام كان يرى أن أبا الثناء الآلوسي لم يعد جديراً- من وجهة نظر الحكومة العثمانية- بمنصب الإفتاء فلم يفكر في إعادته إلى ذلك المنصب وعرض عليه واحدا من ثلاثة:

١- أن يبقى في الآستانة فيحصل على معاش مناسب.

٢- أن يحصل على منصب قاضي أرضروم وينال من وراء ذلك ثلاثين ألف قرش رومية.

٣- أن يعود إلى بغداد على أن يحصل على نصف وقف مرجان فقط.

وكان طبيعيا أن يرفض أبو الثناء الآلوسي فكرة الإقامة في الآستانة فهو بذلك سيضيع في زحمة مدرسي وعلماء الآستانة من الأتراك الذين لم يتركوا له فرصة أخرى للظهور والتفوق، ومعنى هذا أنه سيصبح كمن يعيش في قفص من ذهب في الآستانة، هذا إلى أن حنين أبي الثناء للعراق كان قويا جدا ولم يكن يستطيع أن يفارقه إلا لفترات محدودة جدا، حتى ولو كانت حياته في العراق أشد عليه من حياته خارجه، وكان الرجل يفضل أن يحصل على وقف بكامله دون أن يشاركه فيه أحد حتى لا تثار حوله الأزمات، ولكن المسئولين في الآستانة أبوا أن يحققوا رغبته فقبل قضاء أرضروم على مضض[٣٦].

وخلال وجوده في الآستانة تكشف كوامن عواطفه الوطنية العربية نتيجة لأنه لمس عن قرب مدى ما كان في قلوب علماء وأدباء ومدرسي الآستانة من كراهية دفينة للعرب بصفة عامة، فهو يقول عن مدرسي الآستانة أنهم:

«في غاية الاستكبار والأنانية، ولولا خوف قطع وظائفهم لأعلنوا بدعوى الزيرية.. ولقد استمعت كثيرا منهم فرأيت سدا وعظهم ولحمته هذيان، وعلى ذلك تجمع لهم الدراهم» ويقول رأيت معظم مشايخ إسلامبول يبيعون المنصب للمعزول» ويقول «وعلماء القسطنطينية أجهل الناس بالفنون الأدبية.. وأما الشعر العربي فطريقه بينهم بالكلية غير مسلوك ولابدع فالعربي بين الترك من قديم متروك..»[٣٧].

وقد أبدى أبو الثناء الألوسي تألمه من أن أولئك العلماء الأتراك- الذين لايقفون على نفس المستوى العلمي للعلماء العرب- يتمتعون بالمرتبات العالية. ويبدو أن هؤلاء العلماء الأتراك عملوا على أن يحتكروا لأنفسهم المناصب والمرتبات بحيث لايشاركهم فيها بقية علماء الدولة. وبوجه خاص العرب. ويرى الألوسي أن مجرد كون العالم عربي كفيل بأن يجلب على نفسه نقمة علماء الآستانة من الأتراك فيقول في هذا الصدد:

«إنهم لم يزالوا يجمعون حجر الباطل ويرمون به بريئًا، ويبغضون لا در درهم كل من يرد على بلدهم من الأفاضل ولو كان نبيا، وإن رؤية العالم العربي في أعينهم الموت الأحمر، وإن صحبته ولو مقدار ذرة في اعتقادهم الذنب الأكبر والشرك الذي لايغفر .. فلا تقرب مأراهم .. وابعد عنهم ما استطعت ، إياك وإياهم، وعليك إن أردت بمصاحبة العوام، فإنك تقوم وتقعد معهم في أمان الله عز وجل والسلام»[٣٨].

إن النقد الشديد من جانب أبي الثناء الألوسي لعلماء ومدرسي الآستانة من الأتراك ، والمؤامرات التي حاكها المدرسون الأتراك له في الآستانة ، هي في اعتقادنا الإرهاصات الأولى للصدام الفكري بين العرب والترك، فلقد كان أساس وجود العرب في الدولة العثمانية هو المشاركة على قدم المساواة مع الأتراك في هذه الدولة الإسلامية القائمة على أساس الذود عن حياض المسلمين، ولكن في القرن التاسع عشر فقد العثمانيون قدرتهم على الحفاظ على أجزاء هامة من الوطن العربي في وجه العدوان الاستعماري الأوروبي[٣٩].

كذلك عجزت قوات السلطان العثماني عن الصمود أمام جيش مصر ولم تقف القوات العثمانية أمام القوات المصرية إلا بمساعدة القوى الأوروبية الكبرى. ورغم كل هذا أصبح واضحا أن الأتراك أصبحوا أكثر احتكارا لمناصب الحكم والإدارة، وزاد الأتراك في منع العرب من الوصول إلى المناصب العليا[٤٠].

تجلت تلك الروح العربية المعادية للترك في المراسلات المتبادلة بين كل من أبي الثناء الألوسي وعبد الغفار الأخرس وعبد الغني جميل. فأثناء وجود أبي الثناء الألوسي في الآستانة جاءته من بغداد أنباء أثارت فيه كوامن الهموم. وعندما أراد أبو الثناء أن يعبر عما كان يجيش في نفسه لجأ إلى الشعر رغم أنه لم يكن متضلعًا في النظم . ولقد صرح هو بذلك حيث أشار إلى أن قصيدته التي أولها:

أبيت ولي وجد حرارته تعلو ودمع له في عارضي عارض هطل

قليل منها من عنده وأكثرها من شعر جده ، وسواء أكانت الأبيات استشهد بها على اتجاهاته الوطنية العربية من نظمه هو أو من نظم جده فإنها على أي حال تعبر عن وجهة نظره[٤١].

جاء في تلك القصيدة سالفة الذكر عدة أبيات تكشف عن دعوته إلى اليقظة العربية بوضوح فيقول في بغداد:

فهل روضها يخضر بعد ذبولها ويهمي على أوراقها الويل والطل

وهل أنا في يوم العروبة قاصد لحضرة بان شأنه الفضل والوصل

وعندما وصلت هذه القصيدة إلى العراق تناولها عبد الغني جميل بكل جوارحه، حيث أنها أثارت فيه روح العروبة حين قام بالرد على تلك القصيدة المليئة بالبكاء على بغداد التي اقفرت من أهلها والتي ساد فيها من ليس منها. إلا أن عبد الغفار الأخرس في تخميسه لشعر عبد الغني جميل كان أكثر وضوحا من حيث الكشف عن تلك التيارات الوطنية العربية وكان الأخرس في الحقيقة يعبر لا عما كان يجيش في صدره فقط بل كذلك عما كان يعتمل في صدر كل من عبد الغني جميل وأبي الثناء الألوسي، وقد رده في شعره الإشارة إلى (معد) ، (يعرب) ، و (عامر) . وهو خلال ذلك يجد شجاعة العرب في الحرب مذكرا بأيامهم البطولية الأولى، ونجده في نفس الوقت حزينا كل الحزن لأنه مضطر إلى أن يعيش تحت حكم جيل (يافث)، والمعروف أن يافث كان أبو الترك والعجم بصفة عامة[٤٢].

إن هذه الدعوات الصريحة إلى حث أجيال العرب على النهوض في وجه جيل يافث رد فعل طبيعي لاحتكار الأتراك لمجالات التفوق في الحكم والإدارة والآداب، حقيقة لا ترقى تلك الاتجاهات إلى فكرة الاستقلال الكامل عن الدولة العثمانية حفاظا على وحدة دولة الخلافة ، ولكن أفاد العرب والعروبة من تلك الاتجاهات الوطنية العربية المبكرة فوائد كبرى.

حيث أن الأتراك تحولوا في أوائل القرن العشرين من مجرد محتكرين للحكم والإدارة في المشرق العربي إلى قوميين يعملون على صبغ كل الدولة العثمانية بالصبغة التركية، أو بمعنى آخر كان على العرب أن يغادروا حضارتهم ولغتهم وأن يصبحوا أتراكا إذا أرادوا التمتع بحق المواطنة في الدولة التركية الجديدة إلا أن سياسة التتريك هذه جاءت في وقت كانت فيه الآداب العربية في العراق قد نهضت وارتقت إلى الدرجة التي لايمكن أن تتغلب عليها اللغة التركية وآدابها وتلك هي القيمة الكبرى لتلك البدايات المبكرة للحركة العربية في العراق[٤٣].

نتائج البحث

هذا البحث يكشف النقاب عن أحد رموز المؤرخين العرب في عهد الدولة العثمانية والذي تعايش مع ولاتهم وأطل برأسه المشحونة بالعطاء المتدفق إلى سلاطينهم فتلذذت سياستهم تجاهه بين الترغيب والترهيب والتي تعكس شخصية آل عثمان تجاه المؤرخ السابق أبي الثناء محمود الآلوسي الذي أفاض علينا بعلمه عن سلوكيات حياة آل عثمان في الأستانة تجاه بلاد الرافدين.

١- برهنت الدراسة على تدويل الحكم بين المماليك والعثمانيين في العراق في صدر حياة أبي الثناء محمود الآلوسي وبالتالي صارت العراق بلا هوية قلبًا وقالبًا .

٢- أبرزت الدراسة نشأة الآلوسي بفضل جهد وجهاد والده في غرس الفضيلة فيه منذ نعومة أظافره في العراق بالرغم من التيارات العاتية التي تموج بها البلاد حينئذ.

٣- كشفت الدراسة عن حيوية أبي الثناء الآلوسي في استقطاب العديد من أقرانه لصقل الموهبة لديه بعد تردي الأوضاع في العراق في عصر الحكم العثماني وبالتالي تدبير المكائد له.

٤- أوضحت الدراسة عن جهد وجهاد الآلوسي تجاه العقبات التي واجهته والتي لم تفتر من عزيمته في الكتابات التاريخية عن حكام آل عثمان في البلاد كمًا وكيفًا .

٥- أشارت الدراسة إلى صمود وصلابة قلم الآلوسي في الكتابات التاريخية واستسلام الحاقدين عليه من تصف هذا السلاح الحيوي الذي ألهب حماسه في تفعيل علاقته وتوطيدها بالأستانة وترسيخ جذورها.

٦- حققت الدراسة مدى ثبات الآلوسي تجاه العواصف العاتية أمام خصومه وبالتالي نجاحه نجاحا منقطع النظير في سحب البساط من تحت أقدامهم بعد أن ظلوا يلهثون وراءه حتى راق ماء وجههم والتي أعطت الآلوسي دماء جديدة بتتويجه في العديد من المناصب الشرفية والذي أعقبه تهاوي خصومه وبالتالي توطيد علاقته بالباب العالي وقد تضعضعت تلك العلاقة على التوالي انعكاسا لضعف الدولة العثمانية التي شاخت فأصبحت حاضرة بشخصها غائبة بسلطانها حتى غابت شمس الخلافة العثمانية.

الهوامش

١- India Office Records, vol. 49, p. 8 .

٢- F.O. 195 , pp. 12-13 .

٣- India Office Records. Op. cit.,p. 11 .

٤- عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين (بغداد ١٩٥٥) ص١٧ .

٥- محمود الآلوسي: نشوة الشمول في السفر إلى اسلامبول ، بغداد ١٢٩١هـ ، ص١٩ .

٦- F.O. 78, p. 22 .

٧- Ibid. p. 24 .

٨- عبد العزيز نوار: تاريخ العراق الحديث (القاهرة ١٩٦٨) ، ص٢٦ .

٩- علي سيد والكوراني : جولة في كردستان الجنوبية (بغداد ١٩٥٥) ص٤٧ .

١٠- India Office Records vol . 13, p. 77 .

١١- Encyclopedia of Islam; p. 80 .

١٢- Ibid, p. 18 .

١٣- F.O.P.73 .

١٤- Diplomacy in the Near and Middle East, p. 9 .

١٥- Ibid, p. 10 .

١٦- عبد الحسين إدارة : الكواكب الدرية في مآثر البهائية (بغداد ١٩٨٠)، ص٣٩ .

١٧- علي سيدو الكوراني: جولة في كردستان الجنوبية (بغداد ١٩٥٥) ص٤٥ .

١٨- Memorandum Respecting, p. 14 .

١٩- محمود الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (بغداد ١٢٩٤هـ) ص٧ .

٢٠- محمود الآلوسي: نزهة الألباب وغرائب الاغتراب في الذهاب والإقامة والإياب (بغداد ١٣١٧هـ) ص١٩ .

٢١- F.O. 195, p. 44 .

٢٢- محمد مصطفى صفوت: محاضرات عن رموز بلاد الرافدين القاهرة ١٩٨٥، ص١٩ .

٢٣- مرجع سابق: ص٣٣ .

٢٤- Diplomacy in Near and Middle East. Op. cit, p. 40 .

٢٥- محمود الألوسي: نشوة الفلم في العودة من مدينة السلام (بغداد ١٢٩٣هـ) ص٤٩ .

٢٦- Encyclopedia of Islam. Op. cit, p. 35 .

٢٧- محمود الألوسي : نزهة الألباب وغرائب الاغتراب في الذهاب والإقامة والإياب (بغداد ١٣١٧هـ) ص٤٧ .

٢٨- F.O. 78, pp. 22-23 .

٢٩- India Office : Op. cit, p. 47 .

٣٠- عباس العزاوي: مرجع سبق ذكره ، ص٧٨ .

٣١- India office Records Factory: p. 77 .

٣٢- F.O. 78, p. 99 .

٣٣- عبد الحسين إداراه : مرجع سابق، ص٧٢ .

٣٤- Encyclopedia of Islam, p. 33 .

٣٥- عباس العزاوي: مرجع سابق، ص٤٢ .

٣٦- محمود الألوسي: نشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول (بغداد ١٢٩١هـ) ص١٨، ص١٩ .

٣٧- عبد العزيز نوار: مرجع سابق، ص٧٧ .

٣٨- Memorandum Respecting: op. cit. p. 40 .

٣٩- علي سيدو الكوراني : مرجع سابق، ص٤٩ .

٤٠- عباس العزاوي: مرجع سابق ص٤٥ .

٤١- F.O. 78. p. 37 .

٤٢- محمد مصطفى صفوت: مرجع سابق، ص٣٧، ص٣٨ .

٤٣- Diplomacy in the Near and Middle East : Op. cit. p. 30 .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر:

(أ) الوثائق العربية والتركية:

دار الوثائق الأهلية بعابدين:

- محفظة رقم ٢١٣ عابدين وثيقة ٤٣٩ في جمادي الآخر ١٢٤٩هـ / أكتوبر ١٨٣٣م.
- محفظة رقم ٢٣٩ عابدين وثيقة ٥٠٧ في جمادي الآخر ١٢٥١هـ أكتوبر ١٨٣٥م.

(ب) الوثائق الأجنبية :

1- Encyclopeedia of Islam : Combridge Modern History Volum 2 November 3-1901 .
2- Memorandum Respecting The Navigstion of the Tigris And Enphrates April 1920. F.O. Canfidetial 7231 .
3- F.O. 78-210-211 .
4- F.O 195-204 .
5- Indo Office Records Factory Records Persia And Persian Gulf. vol. 49 .
6- India Office Records, Political and Secret Department Records vol . 13 .
7- Diplomacy in The Near and Middle East . 2 volum. New York. 1960 .

ثانيا : المراجع العربية:

١- عباس العزاوي : تاريخ العراق بين احتلالين (بغداد ١٩٥٥) .

٢- عبد الحسين إداراه : الكواكب الدرية في مآثر البهائية ترجمه من الفارسية إلى العربية (أحمد فائق) ج٢ ص١٨٨ .

٣- عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ١٨٣١-١٨٧٢ (القاهرة ١٩٦٨) .

٤- علي سيدو الكوراني : جولة في كردستان الجنوبية بغداد ١٩٥٥ .

٥- محمد مصطفى صفوت : محاضرات عن رموز بلاد الرافدين بمعهد الدراسات العربية - القاهرة ١٩٥٨ .

٦- محمود الألوسي : نشوة الشمول في السفر إلى اسلامبول (بغداد ١٢٩١هـ) .

٧- محمود الألوسي: نشوة الشمول في السفر إلى مدينة السلام (بغداد ١٢٩٣هـ) .

٨- محمود الألوسي : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (بغداد ١٢٩٤هـ) .

٩- محمود الألوسي: الطراز المذهب في شرح قصيدة الباز الأشهب (بغداد ١٢٩٥هـ) .

١٠- محمود الألوسي: نزهة الألباب وغرائب الاغتراب في الذهاب والإقامة والإياب (بغداد ١٣١٧هـ) .

أ.د. غيثان بن علي بن جريس(*)

جنوب السعودية في كتاب: «مرتفعات الجزيرة العربية» لهاري سانت جون فيلبي

(دراسة تاريخية تحليلية)

أولاً: مقدمة:

إن شبه الجزيرة العربية، جنوبيها بعامة، وبلاد عسير وجازان ونجران بخاصة من المناطق التي عانت عبر العصور الإسلامية، قصوراً في تدوين تاريخها وتراثها، إنما كان ذلك لعدة أسباب منها:

١- بعدها عن مواطن الحضارات الإسلامية في كل من الشام والعراق وفارس ومصر وبلاد المغرب وغيرها، فبعد خروج مقر الخلافة الإسلامية من شبه الجزيرة في عهد الخليفة الراشد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) شابها فقر في تدوين تراثها وحضارتها.

٢- إن صعوبة التضاريس في أجزاء عديدة من شبه الجزيرة العربية، مثل: بعض النواحي في جازان ونجران وعسير وما حولها، مما جعلها في معزل عن بقية بلدان العالم، كذلك جعلها منسية في أغلب كتب التراث الإسلامي خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة[١].

---

* جامعة الملك خالد - كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية والإدارية- السعودية- أبها.

أما وضع جنوب البلاد السعودية في العصر الحديث والمعاصر فإنه أحسن حالاً من العهود الإسلامية السابقة، حيث بدأ الاهتمام بها من الناحية العلمية والفكرية ، فظهر خلال القرنين الماضيين عدد من المؤرخين بدأوا الكتابة عنها وإبراز أهميتها السياسية والحضارية [٢]، ولم يقتصر هذا الاهتمام على المراجع والمصادر العربية فحسب، بل ظهر بعض الأوروبيين الذين أدرجوها ضمن بعض مؤلفاتهم [٣]، ثم وفد بعض الرحالة الأوربيين إليها ، فدونوا عنها كتباً خصوا فيها رحلاتهم ومجاريهم ومشاهداتهم في تلك الربوع ، كما سجلوا وجهات نظرهم عن تاريخ وآداب وحضارة هذه البلاد. وعلى الرغم من أن بعض هؤلاء الرحالة الأوربيين جاءوا إلى منطقتنا المعنية بالدراسة لأهداف معينة، لكنهم بدون شك جمعوا مادة علمية قيمة صورت مظاهر الحياة السياسية والحضارية في عموم جنوب السعودية، ثم إن مدوناتهم التي وصلتنا تعد حقيقة من المراجع الجيدة التي دونت تاريخ هذه البلاد في فترة لم يكن قد دون عنها الشيء الكثير [٤]. ولقد قصرت دراستي في هذه الورقة على كتاب: مرتفعات الجزيرة العربية لهاري سانت جون فيلبي ، وذلك لعدة أهداف منها :

أ- صلتنا القديمة بقراءة الكتاب في نسخته الأصلية (باللغة الإنجليزية) ثم الحديث عنه بشكل مختصر في ورقة قدمت؛ لندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة في الفترة الممتدة من (٨-١٠ شعبان ١٤٢٠هـ الموافق ١٦-١٨ نوفمبر ١٩٩٩م) تحت عنوان (إقليم عسير في عيون الرحالة الأوربيين) [٥]. ثم وصول دعوة إلينا من أستاذنا الكريم الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور رئيس اتحاد المؤرخين العرب خلال عام (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م) يخبرنا فيها بأن ندوة هذا العالم التي قيتمها الاتحاد سوف تكون تحت عنوان : العالم العربي في الكتابات التاريخية المعاصرة، لهذا قررت الرجوع إلى هذا الكتاب بشكل عام، لأنه لم يقتصر على إقليم عسير فقط، وإنما شمل معظم الأجزاء الجنوبية من المملكة العربية السعودية، والممتدة من السليل شرقاً إلى الطائف ، ثم إلى عسير وجازان ونجران جنوباً بالإضافة إلى المنطقة الساحلية الممتدة من جازان إلى مكة المكرمة[٦].

ب- رجوعنا هذه المرة إلى هذا الكتاب في نسخته العربية وليس في نسخته الأصلية، كما حدث معنا من قبل ، لأن مكتبة العبيكان مشكورة قد قامت منذ زمن بالعكوف على ترجمة بعض مؤلفات فيلبي [٧]، وهذا الكتاب الذي نحن بصدده في هذا البحث يعد من أفضل كتب ودراسات فيلبي عن شبه الجزيرة العربية، ولقد قام بترجمته على نفقة آل العبيكان الدكتور / حسن مصطفى حسن ، ثم أوكل إلينا مراجعة الكتاب وتدقيق معلوماته وكتابة تقديم له، لهذا اضطررت العيش مع مادة الكتاب قرابة سنة كاملة راجعت النص الأصلي مع النصوص المترجمة، ثم ذهبت إلى جميع المناطق التي زارها فيلبي فاتضح لنا الكثير من الأخطاء العلمية واللغوية عند كل من صاحب الكتاب فيلبي، وكذلك في النسخة المترجمة، وقد عملنا ما بوسعنا من إصلاحات وتصويبات في معظم متون الكتاب وحواشيه، مع ذكر العديد من المصادر والمراجع التي رجعنا إليها أثناء مراجعة هذا السفر الكبير الذي يقع في مجلدين، وفي حوالي (١٥٠٠) صفحة[٨].

ج- الدعم غير المحدود والذي وجده فيلبي من الملك عبد العزيز، وقد لمسنا ذلك في هذا الكتاب ، وفي كتب أخرى عديدة، فكان الملك عبد العزيز يعمل جاهداً على تسهيل جميع مهماته المادية والأمنية والاجتماعية بل يحث رجال حكومته في جميع المناطق التي زارها، على توفير جميع مطالبه ، ودعمه بكل ما يستطيعون[٩].

د- معظم دراسات فيلبي قائمة على الرحلات والتجوال في نواحي الجزيرة العربية، وهذا بدون شك أمر صعب جداً، لما يقابل من عقبات جغرافية ، وسياسية ، وأمنية واقتصادية، واجتماعية ، ولكن هذا الرحالة تجاوزها بسبب حماية الملك عبد العزيز له ودعمه الكبير [١٠]، ثم صبره وعزيمته، وكذلك سعة معارفه وثقافته وإتقانه اللغة العربية، بالإضافة إلى دبلوماسيته سواء مع الملك عبد العزيز ورجال دولته، أو مع عامة الناس، كل هذه الأمور مجتمعة جعلته ينجح في معظم رحلاته، وبالتالي ترك كنزاً معرفياً كبيراً منها هذا الكتاب الضخم الذي هو عنوان ورقتنا هذه.

ثانياً: التعريف بهاري سانت جون فيلبي (H.St. J.B. Philby)

صاحب كتاب: مرتفعات الجزيرة العربية، هو هاري سانت جون فيلبي (H.St.J.B. Philby) الإنجليزي الجنسية ويدعى اختصاراً جاك أو (عبد الله فيلبي) والمولود في عام (١٨٨٥م) والمتوفى عام (١٩٦٠) ، فهو من معاصري أحداث القرنين (الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، والتاسع عشر والعشرين الميلاديين) . انخرط بداية حياته في وظائف عدة بالحكومة البريطانية، ثم قدم إلى شبه الجزيرة العربية في اليوم السابع عشر من تشرين الأول سنة (١٩١٧م) ، حيث ذهب من البصرة إلى الاحساء ، ومنها اتجه إلى الرياض، حيث اجتمع لأول مرة بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، وقد فصل ذلك في كتابه : أيام بلاد العرب

Arabian Days، الذى قام بتلخيصه الأستاذ/ خيرى حماد فى كتابه عبدالله فيلبى قطعة من تاريخ العرب الحديث، ونشره فى بيروت عام (١٣٨١هـ/ ١٩٦١م) [١١].

ويختلف فيلبى عن جميع الرحالة الذين قدموا إلى الجزيرة العربية فى التاريخ الحديث والمعاصر ؛ وذلك لغزارة مؤلفاته عن شبه الجزيرة العربية، بل نستطيع القول بأنه امتاز بالريادة فى الكتابة التاريخية عن المملكة العربية السعودية بخاصة والجزيرة العربية بعامة، وقد ذكر عنه الشيخ حمد الجاسر قوله: «والحقيقة التى يجب أن تقال هى أن فيلبى أسدى للجزيرة العربية يداً تقصر عن مدها إليها من سواه» [١٢]. أيضًا ذكر جورج رنتز (George Rentz) فى حديثه عن فيلبى «أنه أكثر الغربيين إنتاجًا عن تاريخ هذه البلاد» [١٣] ويقصد بالبلاد، المملكة العربية السعودية، مذوهًا فى ذلك إلى أن السبب فى تلك الغزارة يرجع إلى حصول فيلبى على مؤهلات الكتابة التاريخية عن هذه البلاد، ومن أهمها معرفته التامة بجميع نواحيها ، فقد عاش فى شبه الجزيرة العربية متنقلاً بين ربوعها أكثر من أربعين عامًا ، أى منذ أن وطئت قدماه أراضيها لأول مرة عام (١٣٣٦هـ / ١٩١٧م) إلى وفاته عام (١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م) [١٤].

وإذا كان (عبد الله فيلبى) قد بدأ حياته العملية فى خدمة الإمبراطورية البريطانية ككثير من أبناء جلدته ، فإنه بعد أن جاء إلى شبه الجزيرة العربية ، والتقى بالملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ثم دان بالإسلام صار عندئذ حميم العلاقة مع الملك عبد العزيز، وبالتالى أصبح من المقربين لدى الملك حتى إنه أوسله فى عدد من المهام الخاصة بالدولة داخل البلاد وخارجها ، وذكر فيلبى كثيراً من تلك المهام فى مذكراته وكتبه ومقالاته الكثير [١٥].

وقد ترك المؤرخ والرحالة فيلبى عددًا من المؤلفات والمقالات المتنوعة فى عناوينها وأطروحاتها وجميعها دُوِّنت باللغة الرئيسة التى يتكلمها فيلبى، وهى اللغة الإنجليزية ، وبعضها قد ترجم إلى اللغة العربية [١٦]. ومن تلك المؤلفات (حسب الطبعات التى وقفت عليها).

١- كتاب : قلب الجزيرة العربية ، طبع فى نيويورك سنة (١٩٢٣م) .

٢- كتاب : تاريخ الحجاز المعاصر ، طبع فى لندن سنة (١٩٢٥م) .

٣- كتاب: العربية الوهابية، طبع فى لندن فى سنة (١٩٢٨م) .

٤- كتاب: الجزيرة العربية ، وقد نشرته دار (ارنست لند) فى سنة (١٩٣٠م) .

٥- كتاب: الربع الخالى ، طبع لندن سنة (١٩٣٣م) .

٦- كتاب: النقوش فى نجران، طبع فى لندن سنة (١٩٤٤م) .

٧- كتاب: ثلاثة نقوش فى حضرموت ، طبع فى لندن سنة (١٩٤٥م) .

٨- كتاب: أيام عربية ، طبع فى لندن سنة (١٩٤٨م) .

٩- كتاب: الذكرى العربية، طبع فى واشنطن سنة (١٩٥٢م) .

١٠- كتاب: العربية السعودية، طبع فى لندن سنة (١٩٥٥م) .

١١- كتاب: أرض مدين ، طبع فى واشنطن سنة (١٩٥٥م) .

١٢- كتاب: أربعون عامًا فى القفر: طبع فى واشنطن سنة (١٩٥٧م) .

١٣- كتاب: صفقات الزيت العربى، طبع فى واشنطن سنة (١٩٦٤م) .

١٤- كتاب: بنات سبأ ، طبع فى لندن سنة (١٩٨١م) .

١٥- كتاب: مرتفعات الجزيرة العربية ، طبع فى نيويورك سنة (١٩٧٦م) [١٧].

وهناك كتب ومقالات أخرى عديدة لم نشر إليها ، والغالب على معظم الدراسات التى دونها فيلبى تميزها بوفرة المعلومات الجديدة فى محتوياتها وطريقة تدوينها ، كما أن المشاهدة وتنوع الخبرة عند هذا الرحالة جعلته يصبغ كتبه وأبحاثه بصبغة تبدو فيها العمق فى التحليل والتدوين. حتى إننا نجده أحيانًا يخوض فى جزئيات وتفاصيل دقيقة لا تتأتى إلا لمن كان كثير الرحلة والتجوال، وكان شاهد عيان لتلك التفاصيل، وعلى الرغم من أن جميع أبحاثه وموضوعاته تدور حول الجزيرة العربية، فإنها تميزت- كما سبق القول- بالتنوع [١٨]. ولهذا سوف نقتصر فى هذه الدراسة على عرض المؤلف الخامس عشر من مؤلفاته، الآنفة الذكر، والموسوم بـ «مرتفعات الجزيرة العربية» (Arabian Highlands) .

ثالثا: التعريف بكتاب مرتفعات الجزيرة العربية، وأقسامه .

عنوان الكتاب : مرتفعات الجزيرة العربية (Arabian Highlands) لمؤلفه سانت جون بريجر فيلبى أو «عبدالله فيلبى» كما عُرف بالمنطقة العربية، وقد طبع الكتاب باللغة الإنجليزية بمطبعة جامعة كورنل أثاكا فى نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٦م .

ويقع في (٧٧١) صفحة من القطع المتوسط ، وقامت على نشره جمعية الشرق الأوسط في واشنطن ، دي . سي (ashington, D.S) [١٩]. وقد اعتمدنا على الطبعة العربية المترجمة من قبل مكتبة العبيكان عام ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م) والتي تأتي في مجلدين كبيرين[٢٠].

ونجد في بداية الطبعة الإنجليزية مقدمتين إحداهما مؤرخة بعام (١٩٤٤م)، والثانية ترجع إلى عام (١٩٥١م) [٢١]. أما المقدمة الأولى فيبدو أن فيلبي قد دونها أثناء انتهائه من جمع ثم تدوين معلومات هذا الكتاب، وقد أشار فيها إلى فضل جمعية الشرق الأوسط سالفة الذكر لقيامها بالدعم العلمي له ، وتكفلها بنفقات نشر كتابه هذا. كما نلاحظ أن نوه في ذات المقدمة إلى أهمية كتابه وكونه من أفضل الكتب الأجنبية التي صُنفت عن النصف الجنوبي الغربي من البلاد السعودية، ونحن نوافقه القول لما احتوى عليه هذا المصنف من معلومات متنوعة وقيمة يندر وجودها في مرجع آخر تناول هذا الجزء من الجزيرة العربية خلال الفترة الزمنية نفسها وهي العقد الرابع من القرن الميلادي الماضي [٢٢].

أما المقدمة الثانية والمؤرخة بعام (١٩٥١م) فليست سوى تكملة للمقدمة السابقة، وقد أشار فيها إلى مرور سبع سنوات على كتابة مقدمة الكتاب الأولى وتوضح أنه خلال تلك السنوات بدأت أوضاع البلاد السعودية في التحسن والنمو، وأنه يتنبأ بمستقبل مشرق لهذه البلاد ، كما يتوه إلى تطور العلاقات السياسية والحضارية بين الحكومتين السعودية والأمريكية، ويوضح تركيز الأمريكيين في دراساتهم وبحوثهم الأكاديمية على شبه الجزيرة العربية[٢٣].

وهذا الكتاب الضخم، موضوع الدراسة، عبارة عن رحلة قام بها عبدالله فيلبي من بلدة السليل في أسفل وادي الدواسر، وذلك بعد الانتهاء من رحلته في الربع الخالي، والتي فصّلها في كتابه : الربع الخالي (The Empty Quarter) الذي صدر في لندن عام (١٩٣٣م) [٢٤].

وانطلاقة فيلبي في هذه الرحلة من بلدة السليل نحو بيشة والطائف ومكة المكرمة، وقد أشار إلى ذلك في الباب الأول من كتابه الذي قسمه إلى ستة أبواب تحتوي على ثلاثة وثلاثين فصلاً خصص لكل باب منطقة جغرافية ، ولكل فصل بلدة أو ناحية من جنوبي المملكة العربية السعودية [٢٥]، كما سوف نذكر في الصفحات التالية، بالإضافة إلى عدد من الصور والرسوم والخرائط القيمة، وكذلك عدة ملاحق وفهارس بأسماء الأعلام والأماكن والقبائل [٢٦]. كما يأتي في الصفحات الأولى من الجزء الأول، «كلمة الناشر» للطبعة العربية (مكتبة العبيكان)

وضح فيها بعض الأسباب التي جعلته يسعى إلى ترجمة هذا الكتاب وغيره من كتب فيلبي الرائدة في موضوعاتها وتفصيلاتها [٢٧]. كما تلى هذه الكلمة سبع صفحات أخرى من تدوين المدقق والمراجع لهذا الكتاب ، أوضح فيها أهمية هذا الكتاب لما احتوى عليه من معلومات دقيقة ورئيسة في جوانب تاريخية وحضارية عديدة[٢٨].

رابعًا : دراسة وصفية للكتاب:

يحتوي **الباب الأول** : على ثلاثة فصول ناقشت ذهاب فيلبي من أطراف الربع الخالي الشمالية الغربية إلى مكة المكرمة، وهذه الرحلة عبارة عن نهاية رحلته التي بدأها من الاحساء وانتهاء منها في مكة المكرمة بالحجاز [٢٩]. ذكر في الفصل الأول: ما يلي الربع الخالي، ودون فيه ما شاهده في وادي السليل وبلاد الدواسر من قرى وهجر، بالإضافة إلى وجود الكثير من النباتات والحيوانات وبعض الطيور المختلفة[٣٠].

أما **الفصلان الثاني والثالث**: فخصصهما على بيشة: ثم البلاد الممتدة من شمال بيشة حتى مكة المكرمة ، ذكر فيها ما رأى من قرى ومواطن استيطان ، كما أوضح أهمية بيشة التجارية، وعلاقاتها الاقتصادية مع ما جاورها من البلدان مثل اليمن، وعسير ، والحجاز، ولم يغفل ذكر مصبات بعض الأودية الرئيسة في هذه المناطق ، مثل أودية بيشة ، ورنية، وتربة التي تأتي مصباتها من قمم جبال السروات الواقعة إلى الغرب من هذه البلاد المشار إليها في هذين الفصلين[٣١].

الباب الثاني تحت عنوان : الوادي الثلاثي ، ويشتمل على سبعة فصول. أولها بعنوان «الملك في معسكره» ويقصد بذلك الحديث عن مخيم الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود الذي رآه والتقى به في حج عام (١٩٣٦م) ، كما ذكر فيلبي بعض الترتيبات التي قام بها من أجل بداية رحلته في جنوب البلاد السعودية والتي بدأها في (٢٢ أبريل ١٩٣٦م) ، وهي موضوع بحثنا هذا، كما ذكر أن ذهابه في هذه الرحلة بناء على توجيه من الملك عبد العزيز كي يقوم بدراسة هذه المنطقة التي تعد حلقة الوصل بين اليمن والحجاز، كما كان عليه لأن يقف على مواقع الحدود التي رسمت بين حكومتي اليمن والسعودية في عام (١٩٣٤م)[٣٢].

أما الفصول : الخامس والسادس، والسابع، والثامن، والتاسع، والعاشر، فقد شملت الحديث عن المناطق الشرقية الرئيسة لبلاد السروات الممتدة من الطائف حتى الحدود الشمالية

لبلاد نجران، وهي الخرمة، وتربة، وبيشة، وخميس مشيط، ومرتفعات عسير وقاعدتها مدينة أبها، وأخيراً وادي تثليث. ثم تدوين هذه الفصول الستة في حوالي (٢٢٧) صفحة [٣٣]، ناقش فيها المؤلف كثيراً من التفصيلات الجغرافية؛ كالتضاريس، والمناخ، وأشار إلى كثير من النباتات والحيوانات المتواجدة في هذه المناطق، كما تعرض لشروحات عديدة عن الزراعة، والتجارة، مع ذكر السلع والعملات التي كانت تتداول في الأسواق الأسبوعية وبخاصة في بيشة، وخميس مشيط، وأبها، كما نوه إلى بعض الأحداث العسكرية التي حدثت في منطقة عسير خلال الحكم العثماني وحكم آل عائض على هذه البلاد [٣٤]. ولم ينس الإشارة إلى كثير من الحرف والمهن التي كان يمارسها السكان مع الإشارة إلى كثير من العادات والأعراف التي كان يقوم بها أهل هذه المنطقة، ومنها ما يتعلق بالطعام والشراب، واللباس، والزينة، والبناء والعمران، وكذلك الزواج والاحتفالات والفنون العلمية والفكرية والشعبية. كما تعرض لذكر أسماء وأوصاف بعض الأمراء والشيوخ والوجهاء في معظم بلاد عسير [٣٥]. ولم يغفل الحديث عن بعض الآثار والنقوش والرسومات التي شاهدها في نواحي عديدة بالبلاد الممتدة من بيشة إلى أبها وتثليث [٣٦].

الباب الثالث، بعنوان: **بلاد يام** [٣٧]. ويحتوي على ستة فصول وأرقامها في فصول الكتاب من (١١-١٦)، وقد اشتملت جميعها على تاريخ وحضارة نجران في القديم والحديث، ففي الفصل الأول من هذا الباب والحادي عشر من فصول الكتاب العامة، والذي أسماه: عتبة نجران ناقش فيه وادي حبونا من الناحيتين الجغرافية والبشرية، وأشار إلى وجود بعض الآثار الدينية القديمة في هذا الوادي [٣٨].

أما الفصول الخمسة الأخرى: فقد وضع لكل منها عنواناً مستقلاً هي: كعبة نجران، أولى الخطى إلى نجران، الأخدود، الحياة في نجران، الزيارة الثانية إلى نجران [٣٩]. وتحدث في هذه الفصول عن كثير من آثار نجران القديمة، وتعرض للتاريخ السياسي القديم لهذه البلاد، وبخاصة أثناء قيام ممالك الجنوب مثل: دولة معين، وسبأ، وحمير [٤٠]، كما اهتم بذكر تفصيلات عن قبائل يام وفروعها ومشيخاتها الرئيسة، ولم يغفل الإشارة إلى بعض النواحي الاجتماعية عند النجرانيين كالأطعمة والأشربة، وكذلك بعض العادات والأعراف القبلية. وذكر أيضاً بعض المعلومات عن المكارمة الإسماعيلية في بلدة خشيرة بنجران [٤١].

وفي الفصل الأخير من هذا الباب المدون تحت عنوان: **الزيارة الثانية إلى نجران**، وذلك بعد

خروجه من نجران حوالي (١٠ ٨) يوماً ذهب فيها إلى مأرب وحضرموت وشبوة في بلاد اليمن، وأفرد هذه الرحلة في كتاب آخر سماه: بثات سبأ [٤٢]، ثم عاد إلى نجران مرة ثانية وتحدث عن بعض النواحي التجارية في أسواق نجران، وأورد في نهاية هذا الفصل ثلاث صفحات تحت اسم (قرى نجران) ذكر فيها عدداً من القرى والبيوت والمزارع التي كانت تابعة للفروع الرئيسة في قبيلة يام [٤٣].

الباب الرابع والموسوم بـ: الهضبة المرتفعة، ويشتمل على سبعة فصول، وتحتل الأرقام (١٧-٢٣) من فصول الكتاب الرئيسة، وعناوينها على النحو التالي: الطريق إلى حبونا، وادي حبونا، وطن السفاحين، وتثليث الأعلى، المنابع العليا لحبونا، نخوم الهضبة، عودة إلى شراقب [٤٤].

عمل في تدوين هذه الفصول على نفس المنهج الذي سلكه في الفصول السابقة، معتمداً على المشاهدة والمقابلات مع أعيان وبعض سكان هذه المناطق، ولم يغفل الحديث عن بعض الأحداث السياسية والعسكرية التي وقعت في بلاد نجران مع بعض القرى اليمنية خلال العقد الرابع من القرن الميلادي الماضي [٤٥].

الباب الخامس بعنوان: مرتفعات تهامة ويحتوي على خمسة فصول (٢٤-٢٨) من الفصول الرئيسة للكتاب، وهي: وادي بيش، منطقة صبيا، جازان، مرتفعات تهامة، حدود المرتفعات [٤٦]. وفي هذه النواحي كان تنقلي قد انتقل من مرتفعات السروات إلى سهول وبعض جبال وهضاب تهامة، وشاهد الاختلاف بين الأجزاء التهامية والسروية من حيث التضاريس، والمناخ، وطبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية. وهذا التباين يعود في الأساس إلى أوضاع واختلاف النواحي الجغرافية الطبيعية في المنطقتين [٤٧].

الباب السادس والأخير: الذي يأتي في خمسة فصول (٢٩-٣٣) من فصول الكتاب والموسوم بـ: **متفرقات تهامة** ذكر فيه هذا الرحالة الكثير من المعلومات الخاصة بالمنطقة الممتدة على حدود اليمن والسعودية في النواحي التهامية، ثم عاد أدراجه من جازان إلى مكة المكرمة في الحجاز [٤٨]. وأشار إلى تفصيلات قيمة عن الطريق الساحلي الذي يربط بين مكة المكرمة وجازان، مع التوقف عند بعض المراكز الحضارية على هذا الطريق مثل: صبيا، وبيش والدرب، والقحمة، والبرك، وحلي، والليث، والقنفذة [٤٩]. ومن بلدة الليث اتجه إلى مكة المكرمة ودخلها في (١٨ / ٢ / ١٩٣٧م) [٥٠].

خامساً : دراسة تحليلية للكتاب

إن الموجز الوصفي الذي أورده الباحث عن هذا الكتاب الضخم يُعرف القارئ الكريم على الإطار العام لمسيرة الرحالة التي بدأت فعلاً من مكة المكرمة، وانتهت في مكة، بعد حوالي عشرة شهور [٥١]، قضاها هذا الرحالة بين سكان نواحي عديدة من جنوب المملكة العربية السعودية. وفي الصفحات التالية نتوقف مع بعض المعلومات والروايات التاريخية التي حفظها فيلبي، وقد نجد صعوبة في العثور عليها في مصادر ومراجع أخرى، وإن ذكرها غير فيلبي فإنها تكاد تكون مضطربة ، أو ناقصة، وغير دقيقة . ويجب القول بأن هذا الكتاب جدير لأن يكون موضوع رسالة ماجستير أو دكتوراه ، لما احتواه من معلومات وتفصيلات كثيرة تحتاج إلى التحليل والنقد والمقارنة، مع مصادر ومراجع معاصرة، أو متأخرة[٥٢].

وسوف نتحدث عن عناصر عديدة شملها الكتاب وهي على النحو التالي:

١- الأحوال الجغرافية:

اتصف فيلبي بخبرة واسعة في علم الرحلات ، فتراه دقيق الملاحظة عندما يدخل إلى منطقة جديدة فيذكر السمات العامة لتضاريسها ومناخها ، وأشجارها ونباتها، وحيواناتها وطيورها وحشراتها ، بل كان مولعاً بالخروج إلى الطبيعة وصيد الطيور والحشرات[٥٣] ، والتعرف على الأسماء المحلية لبعض الأشجار والنباتات. ويذكر أحياناً المناخ الذي امتازت به بعض المناطق ويقارن الأحوال المناخية في كل من الجبال والسهول وأثناء الليل والنهار، ويشير إلى بعض المعالم الجغرافية المهمة في كل منطقة مثل : الجبال والأودية والهضاب الكبيرة والهامة، ويدون تفاصيل دقيقة عن الطرق والمسالك والجداول المائية التي تتخلل بعض المدن والقرى والأرياف. كما نوه إلى سكان المناطق التي زارها وكيف كانوا يتكيفون في مساكنهم وملابسهم وطعامهم وشرابهم مع ظروف المناخ ، واختلاف التضاريس ، فالذين يعيشون في السهول التهامية الحارة يلبسون الملابس الخفيفة، بعكس الذين كانوا في المناطق الباردة في فصل الشتاء مثل : أبها، وتثليث، ونجران ، فتجدهم يحرصون على لبس الملابس الثقيلة لمحاربة البرد الذي يحل عليهم عدة شهور من السنة[٥٤].

٢- الأوضاع السياسية والتاريخية:

إن القارئ لكتاب فيلبي : مرتفعات الجزيرة العربية، يجده يتحدث عن التاريخ القديم من خلال الحضارات التي ظهرت في اليمن في عهد دول : معين، وسبأ ، وحمير ، فذكر أقيالها

وملوكها ، وبعض من أعمالهم، مع أن معلوماته في هذا الجانب يشوبها الكثير من الشكوك والخلط حول عصور وأسماء أولئك الملوك، ومن يطالع في هذه الجزئية يجب عليه أن يكون حذراً فيما دونه هذا الرحالة [٥٥]. كما أنه في معظم جولاته في أنحاء جنوبي السعودية يحرص على الوقوف على الآثار والنقوش والرسوم المتناثرة في أجزاء عديدة من تلك البلاد فيدرسها ويحللها، وأحياناً يرسل بعض الآثار إلى المتحف البريطاني ، كما نشر بعض الدراسات عن تلك الآثار والنقوش وبخاصة ما وجد في بلاد نجران وعسير [٥٦].

وهذا الكتاب يعد من المصادر المهمة عن أوضاع جنوب السعودية في فترة حكم الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، وبخاصة خلال العقد السادس من القرن الرابع عشر الهجري (الرابع من العشرين الميلادي) ، فيما يتعلق بالسيطرة الكاملة لابن سعود على مناطق عسير، وجازان، ونجران مع الإشارة إلى الأمراء المعينين على تلك البلاد ، وكيفية اتصالاتهم وعلاقاتهم بالملك عبد العزيز وأبنائه (سعود وفيصل)[٥٧] كما وقف على معظم الحدود السعودية اليمنية الممتدة من الساحل غرباً إلى حدود الربع الخالي شرقاً فذكر مواقعها، وتحديدها على الخرائط، وأشار إلى القبائل التي تعيش حولها من الجانبين (السعودي واليمني)، مع توضيح مواقف الدولتين من تلك الحدود والسكان القاطنين حولها. وأشار أيضاً إلى تركيبة القبائل السياسية، وبخاصة البدوية منها المعتمدة على التنقل والترحال، وكيفية الأعراف والعادات السائدة بينها، والتي كانت الضابط الإداري والسياسي الذي يضبط طريقة التعامل فيما بين أفرادها ، مع ذكر أن حكومة الملك عبد العزيز كانت تسعى جادة إلى أن يكون جميع سكان البلاد يحتكمون إلى ضوابط عالية وإدارية ونظامية قائمة على منهج الشريعة الإسلامية[٥٨].

لم ينس هذا الرحالة من ترضيح الأحداث التاريخية السياسية التي مرت على المنطقة الجنوبية، فذكر إمارة آل عائض ونفوذها في منطقة عسير [٥٩]، ونوه إلى سيطرت الحكم العثماني والإدريسي على بعض أجزاء المنطقة[٦٠]. كما تعرض للحديث عن معارك ابن سعود والأشراف في تربة عام (١٣٣٧هـ / ١٩١٩م) مع الإشارة إلى موقعها وما خلفت من آثار عمرانية وبشرية حتى أنه شاهد الكثير من الجماجم والعظام المتناثرة في أرض المعركة التي وقعت قبل عدة سنوات من رحلته هذه[٦١]. وذكر أيضاً بعض الأحداث والحروب التي وقعت بين السعودية واليمن بخصوص الحدود عام (١٩٣٤م) ، وتحدث عن حملة الأمير سعود بن عبد العزيز على الجيرش اليمنية، وذكر بعض الآثار والطرق التي سلكتها تلك الحملة وما تابلها من مشكلات وصعوبات [٦٢].

٣- النواحي الاجتماعية :

أ- طبقات المجتمع:

يغلب الطابع القبلي على البلاد التي زارها فيلبي، فيذكر دائمًا القبائل الرئيسة التي تسكن الحواضر والبوادي في جنوب السعودية ومن تلك القبائل السروية والتهامية، البقوم والسبعان في بلاد رنية والخرمة، وشهران ، وقحطان ، وقبائل عسير الرئيسة حول مدينة أبها مثل: بني مفيد، وعلكم، وربيعة ورفيدة، وبني مالك. كما تحدث عن قبيلة يام وفروعها وشيوخها وأفخاذها الرئيسة في بلاد نجران [٦٣]، وأشار إلى العديد من القبائل في بلدة ظهران الجنوب بمنطقة عسير، وفي بلاد ليفا، وجازان مثل: وادعة، وآل تليد، والعبادل، وبني حريص، والعلبليين، وبني مران وغيرهم [٦٤]. وذكر بعض بيوت الأشراف الموجودة في نجران ومنطقة جازان[٦٥] ، ولم ينس ذكر أسماء عشائر أخرى عديدة تقطن البلاد الساحلية الممتدة من صبيا جنوبًا إلى القنفذة والليث شمالاً [٦٦].

ونجده أحيانًا يتعرض لأنساب بعض القبائل فيذكر بطونها وفروعها وسلالاتها النسبية، كما فعل مع بعض عشائر شهران ، وعسير ، ويام ، وبني حريص ، والعبادل، وغيرهم ، ولكنه لم يكن موفقًا في ذكر المعلومات الصحيحة حول أنساب بعض هذه العشائر ، بل خلط بعضها ببعض، وأحيانًا ذكر أنساب خاطئة لفروع بعض القبائل، وهذا ما لمسناه أثناء مراجعة الكتاب وتدقيق معلوماته مع سكان تلك القبائل في مواطنهم الرئيسة[٦٧].

والشيء الجميل في بعض صفحات الكتاب أن فيلبي ذكر بعض الأرقام والإحصائيات لعدد أفراد القبيلة أو المدينة أو القرية الواحدة، فقد أشار إلى أن عدد أفراد قبيلة يام يقدرون بحوالي ستة آلاف (٦٠٠٠) نسمة، معتمدًا في معلوماته على بعض أعيان ووجهاء القبيلة[٦٨]. وعدد سكان وادي حبونا وما جاوره من القرى والأرياف بحوالي أربعة آلاف (٤٠٠٠) نسمة من قبيلتي وادعة ويام. وتعرض لذكر بعض المواطن في منطقة جازان فأشار إلى أن سكان أبو عريش وما حولها يقدرون بـ (٢٢,٠٠٠) فرد، وكذلك كل من فيف وصبيا يقدر عدد سكان كل ناحية من هذه المناطق بـ (٢٥٠٠٠نسمة) [٦٩]. وهذه الاحصائيات ربما لاتكون دقيقة جدًا، ولكن ذكرها يعود إلى دقة ملاحظة هذا الرحالة واهتمامه في تدوين معلومات دقيقة وهامة.

كما كان العبيد والموالي ضمن طبقات المجتمع، وهؤلاء في الغالب ليسوا من عناصر

عربية، وإنما قدموا إلى المنطقة مع الجيوش التركية التي جاءت إلى هذه البلاد في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجري (التاسع عشر والعشرين الميلاديين) ، ووجدت عناصر أخرى إفريقية جُلبوا إلى هذه البلاد في هيئة خدم ورقيق. واستقروا في حماية بعض القبائل، أو الأمراء والوجهاء حتى تم اعتاقهم. وقد شاهد فيلبي العديد من العبيد الذين كانوا يخدمون في منازل ومزارع وأملاك سادتهم في عسير، ونجران وجازان [٧٠].

ومجتمع جنوب السعودية كان يتخلله بعض العناصر العربية وغير العربية المختلفة في مذاهبها وعقائدها. فعموم السكان كانوا ولا زالوا يدينون بالدين الإسلامي على مذهب الإمام أحمد بن حنبل . لكن وجد هناك بعض الفئات اليهودية والاسماعيلية وبخاصة في نجران وبعض أجزاء من منطقة قحطان ، كظهران الجنوب وما حولها . ونجد أن معظم المصادر والمراجع في التاريخ الحديث تتجاهل الحديث في مثل هذه الموضوعات فلا تُطرح ولا تناقش بسبب حساسيتها ، وإن ذكرتها أشارت إليها بطريقة مختصرة جدًا [٧١]. لكن رحالتنا أشار إلى وجودهم. فذكر وجود مجموعة يهودية من حوالي ثمانين (٨٠) فردًا يسكن أغلبهم في بعض قرى نجران، وقد أقاموا في تلك المواطن مستأجرين بسبب رفض ملاك الأراضي المحليين من بيعهم أو تمليكهم أي عقار. وعمل معظم أفراد تلك الفئة في الصناعات الحديدية والفضية ، ويذكر فيلبي أن أحد أفراد اليهود في نجران طلب منه المساعدة في الهجرة إلى فلسطين بسبب تقلص مصادرهم الاقتصادية ، ثم الاستقرار والأمن الذي عم البلاد تحت حكم الملك عبد العزيز، مما أنتج قلة الطلب على صناعة الحديد التي كانوا يصنعون منه الأسلحة المختلفة[٧٢].

كما ذكر وجود بعض الأسر اليهودية التي كانت تعيش في بلدة ظهران الجنوب من بلاد وادعة القحطانية ، وكانوا يمارسون نفس المهن التي كان يمارسها اليهود في نجران، بل كان هذا الرحالة حريصًا على الذهاب إلى منازلهم والالتقاء بهم والسماع لآرائهم ووجهات نظرهم عن حكم الملك عبد العزيز الذي امتد إلى بلاد نجران وما حولها، ووجدهم متشوفين إلى الجلوس معه والحديث عن الصراع العربي الإسرائيلي الذي كان جاريًا في أرض فلسطين[٧٣].

أما الاسماعيلية فلم يتردد فيلبي في الحديث عن تاريخ قدومهم إلى نجران واستقرارهم ونوعية الأعمال التي يمارسونها ، وخصص الفصل التاسع عشر من كتابه للحديث عن مقر الإسماعيليين المعروفين بالمكارمة في نجران، والذي أطلق عليه: وطن السفاحين، وكانت مدينة بئر مقر رئاسة طائفة السفاحين من شيعة الإسماعيلية في نجران لأكثر من ثلاثة قرون وسط

دعم وتأييد سياسي واقتصادي من قبائل بلاد العربية [٧٥]. قدم أول دعاة الإسماعيلية إلى اليمن من الهند خلال القرن السادس عشر الميلادي. وفي عام (١٧٠٦م) استقر أحد دعاتهم في بدر من قرى وادي حبونا بعد طردهم من اليمن بواسطة أئمة الزيدية . ونجحوا في فرض سيطرتهم على منطقة نجران خلال فترة حكم العثمانيين . وقبل أن يضعف نفوذهم الرسمي ويختفي خلال الحكم السعودي[٧٥].

وغالبية طبقات المجتمع في البلاد التي مر عليها فيلبي يعيشون عيشة الكفاف، وربما وجد الكثير منهم تحت خط الفقر، لقلة الموارد الاقتصادية التي يعتمدون عليها، ومعظمها محلية من زراعة ورعي وصيد وتجارة. إلا أنه كان يوجد في هذا المجتمع وبخاصة في المراكز الحضارية الأعيان والوجهاء وموظفو الدولة كالأمراء والقضاة وغيرهم، وهم يعيشون في مستوى معيشي أفضل من غيرهم ، وقد أشار هذا الرحالة إلى العديد منهم مثل: عبدالله بن مسمر أمير بيشة، ومحمد بن ماضي أمير جازان، والسنيري وحاشيته في أبها، وإبراهيم النشمي وبعض مرافقيه في نجـران [٧٦]. كما أشار إلى بعض الوجهاء والأعيان، والشيوخ أمثال: عبد الوهاب أبو ملحة، وسعيد بن مشيط في خميس مشيط، وابن كدسة في بيشة، وابن منيف ، وجابر أبو ساق، وابن سلطان في نجران، واليهلكي في جازان[٧٧]، وهؤلاء الأعيان وأمثالهم كانوا يمثلون طبقة المجتمع الأرستقراطي لما يمتلكونه من وجاهة ومال وصلات اجتماعية مع عامة الناس، ومع الملك عبد العزيز ورجال حكومته .

ب- معيشة المجتمع العامة:

١- وصف القرى والمنازل :

أشار فيلبي إلى طبيعة القرى في عسير وجازان ونجران ، وإلى أنواع المنازل والمرافق المحيطة بها، وإلى نوعية مواد البناء، فذكر الطرق المتبعة في البناء والتي تعتمد على استخدام الطين والحجارة ، أو القش والأخشاب . وأوضح أن معظم النواحي المرتفعة في نجران وعسير كانت تستخدم الطين والحجارة في بناء منازلها وقراها، وأحيانًا كانت تبنى الأجزاء السفلية للمنزل بالحجارة ثم يستكمل الجزء العلوي من الطين، أما الأجزاء التهامية الساحلية فكانوا يستخدمون الأخشاب والقش في بناء بيوتهم وذلك لعدم توفر الأحجار الكافية للبناء، ثم حرصهم على توفير البرودة التي تطلف الحرارة الشديدة في تلك المناطق [٧٨]. ويتـراوح ارتفاع المنازل من دور إلى دورين، ماعدا الأعيان والأمراء والشيوخ فأحيانًا كانت منازلهم

أربع أدوار، ويتراوح ارتفاع بعضها ما بين أربعة إلى ستة أدوار، وقد شاهد ذلك في بيشة ، وخميس مشيط، وأبها ، ونجران، وجازان، وصبيا [٧٩]. ولأن فيلبي كان مدعومًا من الملك عبد العزيز آل سعود فقد استطاع دخول الكثير من بيوت أهل المنطقة بجميع شرائحهم ، وبالتالي تمكن من إعطاء تفصيلات دقيقة عن الأقسام الداخلية التي تتكون منها منازلهم، لاسيما منازل الأعيان والأمراء والوجهاء ، فأوضح تقسيم بعضها إلى عدة أقسام، مثل: قسم الضيوف ، وآخر لأفراد الأسرة، وأقسام أخرى تستخدم كمستودعات، وأماكن للبهائم وغيرها[٨٠]. وأشار إلى بعض المنازل والدور التي كانت تستخدم من قبل بعض المؤسسات الحكومية، كالإمارة والشرطة، والقضاء وغيرها، ومعظمها كانت مستأجرة من ملاكها[٨١]. كما شاهد طريقة تأثيث بعض المنازل، وبخاصة عند علية القوم، إلى جانب ملاحظته ازدحام هذه البيوت من الداخل بالزخارف المتنوعة . وقد بهرته هذه اللمسات الجمالية فأثنى عليها، وذكر تفرد منطقة عسير بهذا النوع من الزخارف المعمارية[٨٢].

٢- الأطعمة والأشربة واللباس والزينة:

لقد فاق فيلبي غيره من معاصريه أو ممن سبقوه حول إعطاء تفصيلات عن نوعيات الأطعمة والأشربة التي كان يتناولها سكان المنطقة أثناء زياراته لها ، والسبب الذي مكن هذا الرحالة من مشاهدة الكثير من الأطعمة والأشربة والكتابة عنها، أن الظروف ساعدته للمكوث بعض الوقت في أجزاء عديدة من هذه البلاد، كما تم استضافته على أكثر من وجبة وليمة في بيوت بعض الأمراء والأعيان في المنطقة . ومن ثم أعطى تفصيلاً لا بأس به عن بعض المأكولات التي كان يتم تناولها على موائدهم . وإذا كان ذكر بعض أسماء الأطعمة والأشربة في بيوت المقتدرين ماديًا من الناس، فإن غالبية سكان المجتمع كانوا فقراء ، وكانت أغلب أطعمتهم تمُن الحبوب التي تنتجها أراضيهم ، أو من منتجات حيواناتهم التي يقومون على تربيتها [٨٣].

كما أشار فيلبي إلى نوعية اللباس والزينة التي شاهدها عند سكان المنطقة، فذكر بعض الألبسة التي يستخدمها النساء والرجال في كل من بيشة ، وخميس مشيط ، وأبها، وأجزاء عديدة من بلاد تهامة الممتدة من جازان إلى مكة المكرمة [٨٤]، ونوه إلى توفر بعض الأقمشة المختلفة في أنواعها وأشكالها، والتي كانت تباع في معظم الأسواق الأسبوعية الموجودة في أنحاء البلاد [٨٥]. وكذلك توافر العديد من أدوات الزينة المستخدمة عند الرجال والنساء مثل:

الحلى، والخناجر، والأسلحة التي يتمنطق بها الرجال، وأدوات الصياغة كالنيلة وغيرها[٨٦]، وكثير من الأشجار والنباتات المحلية التي يتزين بها الناس في أفراحهم واحتفالاتهم كالكادي، والريحان، والبعيثران وما شابهها من هذه الأشجار العطرية[٨٧].

٣- بعض العادات والتقاليد:

ذكر فيلبي مشاهداته لعادة لزواج المبكر من الشباب والشابات في مناطق جازان وعسير حتى إن بعضًا منهم قد يتزوج بين (١٢-١٣) سنة. كما نوه إلى أن صداق المرأة البكر عاليًا بعض الشيء، في حين أن الثيب كان يتراوح مهرها من (٢٠-٣٠) ريالاً. كما أكد على الطابع الاجتماعي للأسواق الأسبوعية في جنوب المملكة العربية السعودية والتي لم تكن مقتصرة على البيع والشراء، بل كانت فرصة مناسبة لاجتماع سكان القرى والمستوطنات البعيدة. وشكل انعقاد السوق في نجران، وربما في عسير وجازان فكان ذلك فرصة للفتيات والفتيان في البحث عن زوجات وأزواج المستقبل ضمن الأعراف والتقاليد المسموح بها، فكانت الفتيات الصغيرات يلبسن أجمل الملابس ويسنقن شعورهن بصورة جميلة في إطار البحث عن أزواج المستقبل[٨٨].

وأشار فيلبي إلى الاختلاف الواضح بين السكان في المناطق الجبلية والساحلية، وبين نساء وسط الجزيرة وجنوبها، حيث تميزت نساء جنوب المملكة بقدر كبير من الحرية في التنقل والعمل بجانب رجالهن، وذكر أن عملية التحصيل والتنقل في جبال فيفا وبني مالك كانت شبه مقصورة على النساء[٨٩].

ووصف هذا الرحالة عادات وتقاليد الضيافة في عدد من المناطق التي قام بزيارتها مثل حديثه عن مواسم الضيافة التي وجدها عند أمير نزية، وبيشة، وخميس مشيط، وأبها، وقبائل بام في نجران، وأمير جازان[٩٠]. كما أبدا استغرابه من سكان قرى الدرب وبيش والتي لايأكل أهلها البيض والدجاج[٩١]. كما شارك في إحدى جلسات تعاطي القات في مدينة جازان، والتي تستمر لعدة ساعات، ولكنه لم يستسغ التجربة وقرر الخروج منها باكرًا[٩٢].

ويذكر أيضًا أن التعليم بدأ ينتشر في جنوب البلاد السعودية، والاهتمام بالقرآن وتلاوته كان من أهم الأمور التي يحث عليها السكان، حتى أنه قد شاهد حفلاً في بيشة يحتفى فيه بختم القرآن، وذكر أنه كان يحضره الشباب المحتفى بهم وعليهم ألبسة جميلة، إلى جانب أنه

يحضر مثل تلك المناسبة العديد من الأعيان والوجهاء، وعلية القوم في المنطقة، وذلك تكريمًا لكتاب الله، ثم احتفاءً وفرحة بهؤلاء الشبيبة الذين ختموا كتاب الله[٩٣].

وأشار لعادة الختان التي كانت تنفذ بطريقة قاسية عند بعض سكان المنطقة، وأورد وصفًا لهذه العملية في وادي الريث، وذكر أن تقاليد الختان كانت تقام في احتفال عام يسبق زواج الشخص، يتم خلالها سلخ جلد البطن من أسفل السراة وحتى العانة مع القضيب وحتى باطن الفخذين[٩٤].

وتعرض فيلبي في أماكن عديدة من كتابه إلى المنازعات بين العشائر على بعض الحدود، وموارد الرعي والمياه، أو لأمر من الأمور التي يعيشونها في حياتهم اليومية، وقد يتدخل للإصلاح بين المتخاصمين بعض الأمراء والوجهاء في المجتمع، وأحيانًا تقوم المؤسسات الحكومية بممارسة عملها في الضرب على يدي المعتدي[٩٥]، ولكنه أشار إلى طريقة القسم الجماعي من قبل أحد الأطراف المتنازعة كأسلوب لحل المشكلات الكبيرة بين المتخاصمين حيث يقوم أفراد العشيرة أو القبيلة التي تقبل القسم فيختارون أشخاصًا يصل عددهم أحيانًا إلى الخمسين فردًا من القبيلة الأخرى لإجراء القسم، وفي حالة عدم التزام الجميع بالقسم يسقط حق القبيلة المدعية أو المدعى عليها، وهذا إجراء صعب بسبب قوته والتزام القبائل المتنافسة به في حالة الاحتكام إليه[٩٦].

٤- الأحوال الاقتصادية والإدارية والمالية:

إن العنصر الاقتصادي يأتي من أكبر الموضوعات التي ذكرها فيلبي في كتابه، فلاتخلو أي منطقة زارها من التفصيلات الجيدة في بعض الجوانب الاقتصادية المختلفة، فتجده يشير على طول طريقه من الطائف حتى نجران إلى بعض البدو الذين يتهنون حرفة الرعي والصيد، بل كانت عماد معيشتهم، فيقومون برعي الإبل والضأن والماعز، إلى جانب صيد الطيور والغزلان وما شابهها من الحيوانات. بل كان بعض أولئك البدو يجمعون الحطب من الجبال والأودية ويلحقون به إلى الأسواق القريبة منهم ليبعه والشراء بثمنه سلع أخرى[٩٧].

وذكر الإنتاج الزراعي وبخاصة الحبوب ومواسم زراعتها ومحاصيل كل منطقة، والزكاة التي تجبيها الدولة على الحبوب، ففي بلاد عسير تأخذ الدولة نصف العشر فقط، بسبب صعوبة الزراعة في المنطقة، وكان دخل الدولة من هذا النواحي يقدر بحوالي (٣٠٠,٠٠٠) صاع سنويًا من القمح والشعير. أما في نجران فقد كانت الدولة تأخذ العشر كاملاً، والذي يقدر بحوالي (٣٦٠,٠٠٠) صاع في السنة[٩٨].

وكانت الدولة توزع عشر محصول الحبوب في بعض مناطق جنوب المملكة على النحو التالي: (٢٠٪) لشيوخ القبائل الرئيسة والفرعية، و(٥٪) للعاملين على جمع العشور، ويبقى للدولة حوالي (٧٥٪) من إجمالي العشور. وذكر أن الداخل الصافي للدولة من الحبوب أثناء الفترة التي زار فيها منطقة عسير، يقدر بحوالي (١٦٠٠٠) ريال فرانسي سنويًا[٩٩].

ونوه إلى بعض المحاصيل الزراعية الرئيسة في المنطقة. فكانت بلاد عسير الممتدة من بيشة إلى نجران تقوم على زراعة القمح، والذرة والتمور. أما سهل تهامة من جازان إلى مكة فمعظم السكان يشتغل في زراعة الدخن والسمسم والقطن وصناعة الملح وزيت السمسم. أما مرتفعات تهامة فكانت أبرز حاصلاتها الحبوب، والموز، والقات، والبن، والقطن، والتبغ[١٠٠]. وكانت المياه الجوفية والأمطار، والأودية، وبعض العيون، والجداول المائية هي المصادر الرئيسة في ري تلك المحاصيل الزراعية المختلفة[١٠١].

أما التجارة فكانت من أهم المهن التي يمارسها السكان، وقد أفاض هذه الرحالة في التفصيلات عن أسماء وأماكن الأسواق الأسبوعية فيها، وما كان يعرض فيها من سلع مختلفة، والطرق التجارية الداخلية والخارجية التي تربط أجزاء المنطقة بعضها مع بعض. كما ذكر الأسعار في بعض تلك الأسواق، وأنواع المكاييل والمقاييس المستخدمة، ووسائل التعامل التجاري، مع الإشارة إلى العملات المتداولة بين الناس، وإلى نشاط طريقة المقايضة بين مرتادي تلك الأسواق، وإلى دور العشائر والقبائل في حماية الأسواق التي تقام في مراطنها، وما كان لتلك الأسواق من أنظمة وقوانين لحمايتها، وتعامل الناس فيها براحة وأمان[١٠٢].

توقف فيلبي كثيراً مع بعض الأسواق الرئيسة مثل: أسواق بيشة، وخميس مشيط، وأبها، ونجران، وظهران الجنوب، والقنفذة، فوصف حركة التعامل التجاري في تلك الأسواق، وأسماء كبار التجار فيها، وتواجد ممثلي الدولة من أمراء ومحتسبين وشيوخ قبائل يسعون جميعهم على أمن الناس وسير الحركة التجارية في هذه الأسواق بيسر وسهولة[١٠٣].

وأشار إلى قرار الدولة في جعل بلدة بيشة المركز الرئيس لتجارة البن القادم من اليمن إلى الجزيرة العربية، والذي ساعد على نهوض المنطقة اقتصاديًا، ولكنه أثر سلبيًا على وادي الدواسر والسليل المركز التقليدي لهذه التجارة. كما أصبح سوق ظهران الجنوب أكبر أسواق المنطقة، بعد أن قررت الحكومة جعلها المركز الأساسي لتجارة البن القادم من اليمن إلى غرب

الجزيرة[١٠٤]. وذكر أيضًا سوق مدينة القنفذة على ساحل البحر الأحمر، وكيف أثرت الرسوم الحكومية العالية على تجارة المدينة[١٠٥].

وذكر هذا الرحالة الرسوم التي كانت تتقاضاها الدولة على واردات المنطقة من اليمن، بخاصة واردات البن حيث تصل الرسوم المفروضة إلى (٥٠٪) من قيمة السلع. وبين أن دخل الدولة السنوي من هذه التجارة يصل إلى حوالي (٧٠٠٠) ريال فرانسي سنويًا في ظهران الجنوب، وحوالي (١٢٠٠) ريال فرانسي سنويًا في سوق الخوبة في منطقة جازان[١٠٦]. وعند إشارته إلى السوق التجارية في نجران ذكر معارضة الأهالي والتجار محاولة الحكومة جعل التداول المالي قاصراً على الريال السعودي مما أدى إلى إلغاء العمل به[١٠٧].

وتحدث في صفحات عديدة من كتابه عن بعض الحرف والصناعات المهنية المحلية المختلفة، مثل صناعة الفخار، والأحجار المستخدمة في البناء، والحبال من ألياف بعض الأشجار[١٠٨]، وذكر صناعة صبغ النيلة من نبات الأندقي، واصباغًا أخرى من نبات القرظ والنشث في جبال عسير وجازان[١٠٩]. وأشار أيضًا إلى صناعة عصر السمسم والملح في الأجزاء التهامية مثل: جازان وما حولها، وذكر احتكار الدولة لصناعة الملح وتسويقه على التجار المحليين[١١٠]. ونوه إلى عدد من الحرف التي كان يمارسها معظم سكان جنوب السعودية، كالنجارة، والحدادة، والصباغة، وصناعة القطران الذي تطلى به أبواب المنازل، ويعالج به جرب الإبل. وشاهد في الأسواق الأسبوعية المنتشرة في معظم البلاد التي زارها بعض الحرفيين كالحمالين الذين ينقلون السلع لمسافات بعيدة قد تصل عشرات الكيلو مترات. بل كان في الأسواق من يمارس مهن البيع والشراء، والخياطة، والحسرة وغيرها من الحرف، والجوانب الاقتصادية الأخرى التي يصعب حصرها في أوراق معدودة[١١١].

وفي طيات الكتاب أشار فيلبي في مواقع كثيرة إلى سيطرة أمراء المناطق على النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية في البلاد، وهذا مما يدل على نفوذ دولة ابن سعود وسيطرتها على جميع البلاد التي زارها هذا الرحالة بل بدأ الوضع يتحول البلاد من التفكك والتشرذم والصراعات القبلية إلى نظام سياسي إداري حديث تشرف عليه الدولة من خلال مؤسساتها وأنظمتها الإدارية الحديثة[١١٢]. وصار هناك نظامًا ماليًا جيداً تشرف عليه وزارة المالية، وممثلها في أغلب المناطق التي زارها فرع الوزارة في مدينة أبها، وعلى رأس هذا الفرع أحد رجالات المنطقة الذين اتصفوا بالحكمة والدقة في تسيير أعمال المال في هذا الجزء الجنوبي من

السعودية، ألا وهو الشيخ / عبد الوهاب بن محمد أبو ملحة الذى كان على صلات مستمرة ومباشرة وقوية مع الملك عبد العزيز وأبنيه سعود وفيصل ، وكان يعمل معه نخبة من الرجال المخلصين أمثال عبد الله بن عبد الرحمن الملقب بـ (ابن الياس) وغيرها من الأشخاص الذين ذكر فيلبى بعضهم واحتفظت الوثائق الموجودة فى وزارة المالية بأسماء العشرات منهم [١١٣].

ولم يغفل فيلبى ذكر اسماء بعض المسؤولين الآخرين فى إدارة البلاد كأصحاب الشرطة فى بعض الحواضر ، وكذلك القضاة ، والمرشدين الدعاة، والقائمين على جمع العشور والضرائب من المواطنين ، وأشار إلى رواتب بعضهم ، وإلى أجور البيوت التى كانت تستأجر لانشاء بعض المؤسسات وغيرها. وفصل الحديث أحيانًا عن أسعار بعض السلع فى الأسواق، وف بعض التجمعات السكانية كالمدن والقرى وغيرها [١١٤].

٥- بعض جوانب الحياة العلمية والفكرية:

من النواحى التى أشار إليها هذا الرحالة وجود المواقع الأثرية والنقوش المتناثرة فى بلاد عسير ونجران، وبعض الأجزاء الساحلية التهامية. وكان من اهتماماته أيضًا جمع كثير من الطيور والحشرات وأنواع من الصخور والمواد الآثارية وأرسلها إلى المتاحف البريطانية. وقد أرسل فى إحدى المرات (١٧) صندوقًا حصيلة ما جمعه خلال خمسة شهور [١١٥]. واهتمامه باهتمامه بحركة النجوم وتتبعه للأنواء، وغالبًا كان يحرص على النوم خارج المنزل كى يشاهد حركة الأفلاك عن طريق أجهزة الرصد والمشاهدة التى كان يصطحبها معه فى جميع رحلاته.

أما الحياة العلمية والفكرية عند سكان البلاد التى زارها فيذكر أنها كانت شبه معدومة ، فلا يوجد إلا عدد قليل من المتعلمين التعليم الشرعى، الذين يقومون بإرشاد الناس، وإمامتهم فى الجمع والجماعات، ولم يكونوا متضلعين فى العلوم التى يعرفونها ، وإنما أغلبهم يغلب عليه السطحية ، وكثيرًا ما يقعون فى أخطاء علمية وثقافية نتيجة الجهل الذى يسود البلاد [١١٦]. وفى أثناء زيارته كانت المدارس النظامية قد بدأت رحلتها فى بيشة وأبها وجازان، وبدأ الناس يرسلون أولادهم إلى هذه المدارس كى يتعلموا من العلوم والمعارف التى تدرسها وتشرف عليها هذه المدارس، وكان معظم القائمين على هذه المدارس قد قدموا إلى المنطقة من مكة المكرمة والمدينة المنورة، وضموا إليهم بعض المتعلمين فى المنطقة ، وبخاصة من كان يقوم على إرشاد الناس، أو يعمل فى بعض الكتاتيب الفردية التى كانت موجودة فى بعض المراكز الحضارية من قبل مجئ الحكم السعودى الحالى [١١٧].

ولم يغفل ذكر لمحة عن الحياة الصحية فى البلاد فأشار إلى وجود مستوصف فى أبها يعمل فيه طبيب هندى يعالج الأمراض البسيطة مثل : الحمى والجروح الصغيرة وغيرها ، ويذكر أن إمكانات ذلك المستوصف كانت بسيطة جدًا [١١٨]. وأشار إلى بعض الأمراض التى كانت تصيب الناس هناك، ومن أشدها أمراض الحمى التى أصيب بها هو نفسه أكثر من مرة أثناء إقامته فى عسير، ونجران، وجازان، وكاد أن يفقد حياته مرات عديدة على أثر الإصابة بها [١١٩].

سادسًا : الخاتمة :

والخلاصة إننا قد خرجنا من دراسة ومراجعة وتدقيق معلومات هذا الكتاب، بالعديد من النتائج ، والانطباعات، والتوصيات نورد أهمها على النحو التالى:

١- أن هذا الكتاب غطى منطقة واسعة جدًا تقدر بحوالى (١٥٠٠٠٠٠) مثل مربع، كما ذكر فيلبى نفسه، حيث شملت البلاد الممتدة من الدواسر شرقًا إلى مكة المكرمة غربًا، ثم إلى الأطراف الجنوبية لبلاد نجران وجازان جنوبًا، والشريط الساحلى الممتد من جازان إلى جدة، وهذه فى اعتقادى مساحة تقدر بتسع مساحة المملكة العربية السعودية [١٢٠]. وإذا قللنا من أهمية المساحة الجغرافية التى قطعها فيلبى ، فإنه لايمكن أن نتجاهل ما يوجد على هذه المساحة من تباينات واختلافات فى التضاريس الجغرافية ، والأحوال المناخية ، والعناصر البشرية ، والنواحى الحضارية الأخرى سواء كانت اجتماعية، أو اقتصادية ، أو فكرية ودينية وثقافية. وهذا يؤكد على صعوبة المهمة التى قام بها هذا الرحالة.

٢- من ينظر فى الكتاب ويدرسه يلاحظ الجهد الضخم الذى بذله مؤلفه، فهو لم يركز على ناحية علمية معينة، وإنما كان شديد الملاحظة ، فإذا نزل منطقة معينة فهو يتحدث عن قضايا عديدة تشمل الملامح التاريخية والجغرافية لتلك البلاد، كما أنه يذكر الأخبار والقضايا المعاصرة التى شاهدها ، وبالتالى فهو يدون الكثير من المعلومات الحضارية المتنوعة التى يصعب أن تجدها فى مرجع آخر. ومن خلال تجوالنا فى البلاد التى زارها ومقارنة أقواله وشروحاته بما شاهدنا وسمعنا تبين شدة ملاحظته، ودقة معلوماته ومصداقيته فى تدوين كثير من الأخبار والروايات .

٣- من بطالع هذه المساحة الشاسعة التى زارها فيلبى فى هذا الكتاب، فإنه يتضح أن هناك مناطق عديدة لم يزرها رجل أوربى من قبل ، بل لم يكتب عنها أحد من الأوربيين أو

العرب على الإطلاق. وأخص بذلك بعض أجزاء من مناطق قحطان مثل: طريب، والعرين، وأجزاء من وادي تثليث، وبلاد ظهران الجنوب، وعقبة شراقب الواصلة بين ظهران ووادي بيش في منطقة جازان، وبلاد بني مالك وفيفا، وأجزاء من وادي حبونا في نجران، ومناطق حدودية بين السعودية واليمن، وغيرها مناطق عديدة، وإن ذكرت بعض هذه المناطق في مصادر ومراجع أخرى، فذكرها كان مختصراً جداً يختلف عن الكيفية والتفصيلات التي أوردها فيلبي في هذا الكتاب الكبير. ولا أجانب الحقيقة لو قلت إن هذا الكتاب يُعد أشمل وأفضل دراسة تكلمت عن الأجزاء الجنوبية للبلاد السعودية، وحتى هذه اللحظة لم تظهر دراسة أدق وأشمل منه.

٤- مما يظهر في صفحات كثيرة من الكتاب، أن من أهدافه رسم النقاط الحدودية بين السعودية واليمن، وهذا مما شجع الملك عبد العزيز على دعم فيلبي وتشجيعه، بل قدم له بعض الآراء والنصائح التي يتبعها أثناء ذهابه إلى تلك المناطق الحدودية. وقد عمل فيلبي كل ما في وسعه على رسم أغلب الحدود الممتدة من ساحل البحر الأحمر غرباً إلى أطراف الجبال الشرقية في نجران وبلاد قحطان، ولكن من يقارن فيلبي مع ما ورد في بعض الوثائق والمراجع الأخرى يجد بعض الاختلافات في تسمية بعض المواطن، وكذلك القرى والقبائل والعشائر التي تعيش على جانبي بعض النقاط الحدودية. وقد صححنا كثيراً من تلك الأسماء، وبخاصة أثناء زيارتنا لعدد من المناطق في عام (١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م).

ونجد فيلبي يتميز على غيره، ممن كتبوا عن النقاط الحدودية بين السعودية واليمن، فهو لم يقتصر على ذكر مواقع تلك النقاط ومسمياتها وإنما ذكر كثيراً من المعلومات عن طبيعة السكان الذين يعيشون حول تلك الحدود سواء كانوا من السعودية أو اليمن، فذكر أسماء قبائلهم وعشائرهم، وأشار إلى بعض أعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية والدينية والفكرية، بل ذكر أحياناً نوعية ملابسهم وأطعمتهم، ومساكنهم، بالإضافة إلى أنه كثيراً ما يذكر بعض التفصيلات عن حياتهم الاقتصادية وبخاصة التجارية مثل الأسواق الأسبوعية التي كانوا يرتادونها، وأنواع السلع والأسعار والعملات التي كان يتم التعامل بها في تلك الأسواق، وأحياناً يذكر الطرق التجارية وطبيعتها الجغرافية، التي تربط بعض النواحي الداخلية والخارجية في تلك الجهات.

٥- إن السائد على معظم الكتاب التنوع في مادته العلمية، إلا أن هناك جوانب عديدة تميز فيلبي في دراستها عن غيره، مثل: ذكر أنواع الطيور والنباتات التي كان يشاهدها في

أغلب المناطق التي زارها، كما أنه كان حريصاً على دراسة النقوش والرسوم والآثار التي تقع عينه عليها، بالإضافة إلى أنه يشير إلى الأعيان والشخصيات البارزة في كل بلدة يزورها، كما أنه لم يتمن ذكر حالة الفقراء والبؤساء الذين كان يشاهدهم من وقت لآخر، كما نوه إلى وجود بعض الأساطير والخرافات التي كانت سائدة في البلاد. والحقيقة أن هذا الكتاب جدير بالدراسة والتأمل إلى كل ما ورد فيه من معلومات قيمة، وبخاصة أنه يعالج تاريخ وحضارة بلاد طواها النسيان والفقر العلمي لقرون طويلة.

٦- إن ضخامة الكتاب، وتنوع معلوماته جعلت مؤلفه أحياناً لايواصل شروحاته في بعض الجوانب بتسلسل وانسيابية ولكنه في مواطن عديدة يقطع الموضوع الذي يتحدث عن، ويخرج للحديث عن جزئية صغيرة شاهدها، كحشرة، أو حيوان، أو طائر، أو نقش، وقد تأخذ هذه الجزئية سطوراً عديدة، ثم يعود إلى الموضوع الرئيس الذي كان يتكلم عنه. وهذه الطريقة تقطع أفكار القارئ، وتشوش عليه، وربما يجد صعوبة في لملمة نفسه والرجوع إلى صلب الموضوع الأساسي. غير أن هذه السلبية وهي محدودة لاتنقص من حسن الكتاب وقيمته العلمية.

٧- من المعلوم أن فيلبي قد أعلن إسلامه، فنراه في كثير من ثنايا الكتاب يتحدث عن نفسه مسلماً يؤدي شعائر الصلاة والحج وغيرها من ركائز الإسلام. لكنه يتحدث أحياناً عن بعض مشاهداته متأثراً بثقافته وتربيته الأوربية. فمثلاً: رأى أحد رفاقه ومرشديه عند وصولهم إلى ناحية يوجد بها خطيبته وزوج المستقبل، وبعد رؤيتها ومقابلتها لم يسلم عليها بالتقبيل والجلوس معها. ومثل هذا الأمر يعد طبيعياً في الثقافة الغربية، ويختلف تماماً في العادات والأعراف بالبلاد العربية، وبخاصة المناطق البدوية والريفية المحافظة التي لاتمكن الرجل من خطيبته أو زوجته إلا بعد المرور بالعديد من القوانين الاجتماعية المبنى بعضها على منهج الشريعة الإسلامية، والبعض الآخر على مبادئ الإرث الاجتماعي. كما ذكر أن بعض البدو يختفي بنفسه في شهر رمضان فيأكل ويشرب في النهار معتقداً أنه لايراه أحد. يورد أمثلة من هذا النوع دون أن ينوه إلى أن الله يرى الظاهر والخافي، وأن من يقوم بمثل هذه الأعمال ربما يدل على ضعف إيمانه وأحياناً إلى جهله بالدين، ومواطن أخرى وردت في الكتاب ولها علاقة ببعض الأعراف والنظم الحضارية، كما لها صلات بالنواحي الشرعية. وأخطأ فيلبي في تفسيرها وتوضيحها، وقد عالجنا مثل هذه الأمور في حواشي الكتاب وأوضحنا الخطأ والصواب.

٨- إن هذه الدراسة التي نطرحها في هذه الأوراق ليست إلا مساهمة بسيطة عن أهمية هذا الكتاب، وأنه يحتاج إلى تضافر جهود كبيرة تقوم بدراسته وتحليله ومقارنة معلوماته مع العصور السابقة واللاحقة التي مرت على هذه البلاد الواسعة. وإنني من على صفحات هذا البحث أنادي الجامعات السعودية، أو المراكز والمؤسسات البحثية والعلمية، كدارة الملك عبد العزيز، أو مكتبة الملك فهد الوطنية، أو مكتبة الملك عبد العزيز العامة وغيرها، أن تسعى إلى عقد ندوة علمية عن إنجازات فيلبي العلمية عن الجزيرة العربية بشكل عام وعن المملكة العربية السعودية بشكل خاص. ومن يقوم بهذا المشروع فإنه سوف يضيف إلى المكتبة العربية والإسلامية والعالمية جهود علمية جيدة حول هذه البلاد من خلال التراث الذي تركه هذا المؤرخ والآثاري والرحالة الكبير.

٩-كما سبقت الإشارة- إلى أن فيلبي ذهب من السليل ووادي الدواسر، إلى الحجاز، ثم عاد إلى مناطق عسير، وجازان، ونجران، وساحل البحر الأحمر الممتد من جازان إلى مكة المكرمة. والشيء المؤسف حقًا أن ذهابه من الطائف إلى نجران كان عبر الأجزاء الشرقية لبلاد السروات ماراً بمدينتي بيشة وأبها في بلاد عسير، ثم عاد من نجران إلى ظهران الجنوب وسلك عقبة شراقب التي أوصلته إلى صبيا وجازان، وعند عودته إلى مكة المكرمة رجع من الطريق المحاذية لساحل البحر الأحمر. وبهذه الكيفية فإن أعالي السروات وسفوحها الغربية الممتدة من ظهران الجنوب في بلاد قحطان جنوبًا (ماعدا مدينة أبها وما حولها) إلى مدينة الطائف شمالاً، قد خسرت وخسر أهلها الشيء الكثير لعدم مرور هذا الرحالة القدير على هذه المواطن. ومن يذهب في هذه البلاد قديمًا وحديثًا فإنه يشاهد العديد من الجوانب العلمية الفكرية والحضارية الكثيرة، ويكفي أنها مكتظة بالقرى والسكان الذين نزلوا بها وعاشوا منذ آلاف السنين، وكانوا ضمن المشاركين في التاريخ الحديث أثناء قيام الدولة السعودية الحديثة، ويوم زيارة فيلبي المعنية في هذا البحث. ومن خلال استقرائي تاريخ هذه المنطقة والسير في جنباتها لسنوات طويلة، وجدتها منسية، فلاكاد تجد شيئًا مدونًا عن تاريخها القديم والوسيط، وأحيانًا الحديث، وإن وجد بعض الإشارات البسيطة في الكتب الكلاسيكية القديمة، أو مصادر التراث الإسلامي المبكرة فهي في الواقع محدودة جداً. وكثيراً ما يطلع الباحث على مئات المصادر فلايخرج إلا بمادة علمية غامضة. وربما وعورة أرضها في الماضي، وصعوبة التعامل مع عشائرها وقبائلها لانغلاقهم على أنفسهم كانت من الأسباب التي تجعل العلماء، وأرباب

القلم والجيوش والحجاج بين اليمن والحجاز يسلكون الطرق الشرقية أو الساحلية العربية لهذه المرتفعات السروية [١٢٦١]. أما عدم مرور فيلبي بها فربما كان لديه سيارات تنقله من مكان لآخر، كما حدث معه من الطائف إلى بيشة، وكذلك في أبها، ونجران، وجازان، والقنفذة، وعند مجيئه إلى المنطقة في هذه الرحلة، لم يكن هناك طرق للسيارات في هذه المرتفعات الآنفة الذكر. ثم إن الملك عبد العزيز هو الذي رسم له خطة السير وقدم له العون ماديًا ومعنويًا في جميع النواحي التي مر بها.

١٠- أما طريقتنا في مراجعة هذه الدراسة فقد ارتكزت على تصحيح أسماء الأعلام (سواء كانت مكانية، أو زمانية، أو إنسانية أو حيوانية) وهي كثيرة جداً، واعتمدنا في التصحيح على عدة أمور مثل:

أ- زيارة أغلب المناطق التي جاءها فيلبي، والالتقاء بأعيان ومتعلمي تلك النواحي، ثم السماع منهم حول ما أورد هذا الرحالة عن بلادهم وتصحيح ما وقع فيه من أخطاء.

ب- الرجوع إلى أكثر من مائة مصدر ومرجع لمقارنة بعض ما ذكر فيلبي في كثير من القضايا، أو للقراءة والاستزادة من هذه المصادر والمراجع التي تعرضت لبعض الجوانب العلمية الخاصة بهذه البلاد المذكورة في هذه الدراسة. وطريقة رجوعنا إلى هذه المصادر والمراجع ثم ترتيبها، ولذلك فإننا نورد المصدر أو المرجع بمعلومات كاملة عند أول مرة يرد معنا، وفي حالة تكراره نذكره باختصار.

الحواشي والتعليقات

١- لمزيد من التفصيلات عن تضاريس جنوب البلاد السعودية انظر: عبد الرحمن صادق الشريف، جغرافية المملكة العربية السعودية. إقليم غرب جنوب المملكة (الرياض : دار المريخ ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ج٢، ص٣٣ وبعدها .

٢- حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين، ط٥ (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٧٨هـ / ١٩٦٧م) ص٣٣، فؤاد حمزة : في بلاد عسير ، ط٢ (الرياض: مكتبة النصر، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م) ص١٤٥، ٢٦٣-٢٦٩ ، علي أحمد عسيري . عسير من ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م- ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م) (دراسة تاريخية) (أبها : مطبوعات نادي أبها الأدبي، ٧-١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) ص٢٣ وما بعدها . غيثان بن علي بن جريس. صفحات من تاريخ عسير (الرياض: مطابع العبيكان، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م) الجزءان الأول والثاني في مجلد واحد ، ص١٧ وما بعدها .

٣- جاكلين بيرين : اكتشاف جزيرة العرب (خمسة قرون من المغامرة والعلم) . ترجمة قدري قلعجي (بيروت: دار الكتاب العربي ، د.ت) ص٢٥١-٢٧٣ .

٤- المرجع نفسه . وللمزيد انظر كتابات فيلبي المتعلقة (غير هذا الكتاب الذي بين يدينا)، والذي تعرض في أجزاء منها إلى نواح عديدة من جنوب شبه الجزيرة العربية مثل : مناطق جازان، ونجران، وعسير، وأجزاء أخر في بلاد اليمن الحديثة. وللمزيد انظر أيضاً : محمد محمود الصياد «الرحالة الأجانب في الجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر». دراسات تاريخ الجزيرة العربية. الكتاب الأول . مصادر تاريخ الجزيرة العربية. (الرياض: مطابع جامعة الملك سعود- الرياض سابقاً، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٩م) ج٢، ص٤٣٧-٤٤٤ ، عبد الباقي غنيم عبد القادر، «الجزيرة العربية في كتب الرحالة الغربيين» دراسات تاريخ الجزيرة العربية. الكتاب الأول. مصادر تاريخ الجزيرة العربية (الرياض: مطابع جامعة الملك سعود- الرياض سابقاً، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٩م) ج٢ ، ص٤٢١-٤٣٦ .

٥- هذا البحث يناقش ثلاثة رحالة تدمروا إلى منطقة عسير في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين (التاسع عشر والعشرين الميلاديين) ، وهم : موريس تاميزيه الفرنسي ، والسير كهناهان كورنواليس، وهاري سانت جون فيلبي، ونشر ضمن بحوث الندوة في كتاب: العرب وأوربا عبر عصور التاريخ (بحوث ودراسات) (القاهرة: منشورات اتحاد المؤرخين العرب ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م) ص٤٠٩-٤٥٩ .

٦- انظر كتاب فيلبي : مرتفعات الجزيرة العربية، في طبعته العربية، في مجلدين كبيرين (الرياض: مكتبة العبيكان ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م) .

٧- قامت مكتبة العبيكان مشكورة بجهود عديدة في ترجمة العديد من مؤلفات المؤرخين والأدباء والنقاد الأجانب الذين تعرضوا في مصنفاتهم إلى الجزيرة العربية ، وبخاصة المملكة العربية السعودية، ومنهم

هاري سانت جون فيلبي الذي ألف هذا الكتاب، وكتب أخرى تم ترجمتها ومنها: العربية السعودية من سنوات القحط إلى بوادر الرخاء (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م) ، وبنات سبأ : رحلة في جنوب الجزيرة العربية ، (الرياض : مكتبة العبيكان / ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م) ، وغيرها.

٨- انظر الطبعة العربية من كتاب: مرتفعات الجزيرة العربية، جزءان.

٩- للمزيد عن رحلات فيلبي في الجزيرة العربية، وعلاقته بالملك عبد العزيز انظر: معلومات كثيرة في هذا الكتاب : مرتفعات الجزيرة العربية، بالإضافة إلى حمد الجاسر، «رحلات في البلاد العربية» مجلة العرب عام (١٤٠٩-١٤١٠هـ) مج (٢٤) ، ص٥٠٤-٥٠٨، عبدالله بن عبد الرحمن آل عبد الجبار». دراسة تحليلية لكتاب (مرتفعات جزيرة العرب) لجون فيلبي وبحث مقدم في ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، المنعقدة في الرياض بدارة الملك عبد العزيز (٢٤-٢٧ / رجب ١٤٢١هـ / ٢١-٢٤ أكتوبر ٢٠٠٠م) ص١-٣٥ ، غيثان بن علي بن جريس ، «بلاد عسير في كتابات فيلبي ورفيليب ليبنر». قدمت هذه الدراسة في اللقاء العلمي الثالث لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربي في رحاب جامعة السلطان قابوس بعمان خلال شهر المحرم (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) وقد نشرت هذه الدراسة ضمن مداولات اللقاء، المنوي للجمعية رقم (٣) (١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م) ص٥٢٣-٥٩٤ . كما أعيد نشره في كتابنا الموسوم بـ : صفحات من تاريخ عسير ، الجزءان ١+٢ ، ص٢٧٥-٣٤٨ .

١٠- عاش فيلبي في الجزيرة العربية حوالي (٤٠) عاماً ، جميعها كانت تحت رعاية وحماية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود .

١١- غيثان بن علي بن جريس . بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر (جدة: دار العوفي للطباعة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م) ص١٢٥-١٢٦ .

١٢- حمد الجاسر وفيلبي.. « ص١٠٥-١٠٨ .

١٣- انظر: جورج رنتز فيلبي «مؤرخاً للمملكة العربية السعودية» ترجمة وتعليق حسين محمد الفامدي. مجلة الدرعية (السنة الأولى ، عدد (٢) ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م) ص٦١ .

١٤- المرجع نفسه ، ص٦١-٦٤ .

١٥- المرجع نفسه. انظر أيضاً تفصيلات أكثر عن فيلبي في كتاب اليزبيث مونرو Elizabeth Monroe في كتابها الموسوم بـ فيلبي العرب Philby Arabia، والذي طبع في عام (١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م) ص٣٠٧-٣١٢ . ومونرو نشرت في كتابها أوسع دراسة علمية شاملة عن فيلبي ، وقد قابلته لأول مرة عام (١٩٣٨م)، وفي سبيل الكتابة عنه سافرت إلى كل بلد عمل فيه مثل: الباكستان، والعراق، والأردن، ومصر ، وفلسطين ، ولبنان، وجزيرة العرب مستخدمة ما تضمنته أرشيفاتها من معلومات عنه .

١٦- البعض من كتب وأبحاث فيلبي قد ترجمت في أماكن عديدة من العالم، ولكن مكتبة العبيكان تعد أكبر من قام بترجمة ونشر كتب هذ الرحالة، وبخاصة ما يدور في فلك تاريخ وحضارة وتراث المملكة العربية السعودية.

١٧- انظر: ابن جريس، بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر، ١٢٩-١٢٨، جورج رنتز «فيلبي مؤرخًا للمملكة...» ص٦١ وما بعدها .

١٨- يذكر عن صفات فيلبي Philby أنه كان يطمح منذ ريعان شبابه في العظمة والشهرة، وكان ذا مواهب متعددة، وقدرة عجيبة في مجالات عدة كالإدارة والسياسة، والتاريخ، والرحلات ، والآثار، وعلوم الطبيعة ، والاقتصاد والمال، وكان يتقن كثيراً من اللغات القديمة والحديثة، للمزيد عن حياته وأعماله ، انظر : كتاب فيلبي العرب Philby Arabia ، للأستاذة سونرو (الطبعة الإنجليزية ، ص٣٠٥ وما بعدها، كما انظر أيضًا : ج. د. فورتون، «فيلبي رجل الجزيرة العربية» مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، (الكويت، ١٣٩٥هـ) عدد (٣) ، جمادى الثانية، ص١٥١ - ١٥٩ .

١٩- ابن جريس ، بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر، ص١٣٨ ، وللمؤلف نفسه انظر «إقليم عسير في عيون الرحالة الأوربيين» منشورات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة (١٤١٩هـ / ١٩٩٩م) ص٤١٠ وما بعدها .

٢٠- انظر الطبعة العربية ، مطبوعات مكتبة العبيكان (الرياض: ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م) .

٢١- في النسخة العربية المترجمة، وضعت كلمة (مقدمة) على ما تم تدوينه في الأصل بلندن بتاريخ (٩ مايو ١٩٤٤م) وكلمة «تصدير» على المكتوب في الأصل أيضًا بمكة المكرمة ، بتاريخ ١٦ سبتمبر ١٩٥١م) .

٢٢- وقد استغرقت هذه الرحلة حوالي عشرة شهور من (٢٢ أبريل ١٩٣٦م إلى ١٨ فبراير ١٩٣٧م) .

٢٣- انظر ما ذكره فيلبي في المقدمة والتصدير الواردة في الصفحات الأولى من الجزء الأول (الطبعة العربية) ، ص١٧-٢٥ .

٢٤- والفصل الأول من كتابنا هذا يأتي تحت عنوان : ما بعد الربع الخالي، ج١ ، ص٣٩ .

٢٥- انظر العناصر الرئيسة في فهرس محتويات الكتاب .

٢٦- انظر فهارس الملاحق في نهاية الجزء الثاني للكتاب .

٢٧- الكتاب في طبعته العربية، تظهر عليه معلومات النشر كالتالي: هاري سانت جون فيلبي : مرتفعات الجزيرة العربية ، ترجمة الدكتور/ حسن مصطفى حسن. تقديم ومراجعة وتعليق الأستاذ الدكتور/ غيثان بن علي بن جريس (الرياض: مكتبة العبيكان ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م) جزءان. وهو ما سوف نعتمد عليه في توثيقنا خلال هذا البحث .

٢٨- انظر : فيلبي مرتفعات الجزيرة العربية ، ج١ ، ص٩-١٥ .

٢٩- المرجع نفسه، ج١ ، ص٢٨-١٤٨ .

٣٠- المرجع نفسه، ج١ ، ص٢٨-٧٢ .

٣١- المرجع نفسه، ج١ ص٧٣-١٤٨ .

٣٢- المرجع نفسه ، ج١ ، ص١٥١-١٦٨ .

٣٣- المرجع نفسه، ج١ ، ص١٦٩-٣٩٦ .

٣٤- المرجع نفسه، ج١ ، ص٢٤٣ وما بعدها .

٣٥- المرجع نفسه .

٣٦- المرجع نفسه .

٣٧- المرجع نفسه ج١ ، ص٣٩٧ .

٣٨- المرجع نفسه، ج١ ، ص٣٩٩-٤١٠ .

٣٩- المرجع نفسه، ج١ ، ص٤١١-٦١٢ .

٤٠- ذكر فيلبي الكثير من التفصيلات عن تاريخ نجران خلال العصور التاريخية القديمة، معتمداً في تدوين معلوماته على النقوش والآثار التي شاهدها في المنطقة، بالإضافة إلى رجوعه إلى بعض المراجع والمصادر القديمة. ولكن في اعتقادنا أنه يجب أخذ ما أورده هذا الرحالة حول هذه الجزئية بنوع من الحيطة والحذر، لأن هذه المنطقة لا زالت تحتاج إلى تضافر جهود الآثاريين للوقوف على التاريخ الحقيقي لها في عصور ما قبل الإسلام. للمزيد انظر . فيلبي ، مرتفعات الجزيرة العربية، ج١ ، ص٤٩٠ وما بعدها .

٤١- المرجع نفسه، ج١ ص٥٣٣ .

٤٢- انظر الكتاب في نسخته العربية (الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م) .

٤٣- فيلبي، مرتفعات الجزيرة العربية، ج١ ص٦٠٩-٦١٢ .

٤٤- المرجع نفسه ، ج٢ ، ص٦١٩ وما بعدها .

٤٥- المرجع نفسه .

٤٦- المرجع نفسه، ج٢ ، ص٨٩٩ وما بعدها .

٤٧- المرجع نفسه.

٤٨- المرجع نفسه، ج٢ ، ص١٢١٦-١٣٢٣ .

٤٩- المرجع نفسه .

٥٠- المرجع نفسه ، ج٢ ، ص١٢٦٤-١٣٢٠ .

٥١- من الثلث الأخير من شهر أبريل عام (١٩٣٩م) إلى (١٨ فبراير ١٩٣٧م) .

٥٢- إن من يقوم بدراسة هذا الكتاب ومقارنة معلوماته مع الوثائق غير المنشورة، والرواية الشفهية، وبعض الكتب التي خرجت عن جنوبي البلاد السعودية حتى الآن، ثم الذهاب إلى المناطق التي زارها فيلبي ودراسة هذه الرحلة ميدانيًا . مركزاً على أساليب النقد والتحليل، فإنه سوف يخرج لنا دراسة قيمة تفيد المكتبة العربية الإسلامية.

٥٣- يظهر اهتمام فيلبي بالحشرات والطيور واضحًا . فكان إذا نزل في مكان وبقي فيه لبعض الوقت يخرج إلى بعض الأودية والجبال لصيد بعض الطيور والحشرات، ثم تحنيطها وإرسالها إلى المتاحف البريطانية.

٥٤- للمزيد عن أوضاع التضاريس والمناخ في جنوبي السعودية، ثم نوعية الملابس التي يرتديها سكان تهامة والجبال خلال فصول السنة . انظر: الشريف ، جغرافية المملكة، ج٢ ، ص٣٣ وما بعدها ، فهشان بن علي بن جريس، عسير دراسة تاريخية حضارية (١١٠٠-١٤٠٠هـ / ١٦٨٨-١٩٨٠م) (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م) ص٦٥-٧٤ .

٥٥- انظر فيلبي ، مرتفعات الجزيرة العربية ، ج١ ، ص٤٩ وما بعدها .

٥٦- من يطالع سيرة فيلبي العلمية يجده نشر عدد كبير من الكتب بالإضافة إلى الأبحاث المتنوعة التي نشرها في المجلة الجغرافية البريطانية ، وغيرها من المجلات العلمية في الجامعات والمراكز العلمية في بريطانيا وفرنسا وأمريكا، ومعظم تلك الدراسات تدور في محيط الجزيرة العربية وما جاورها من البحار والبلدان.

٥٧- عنصر الشخصيات من الجوانب الهامة التي برزت في كتاب فيلبي: مرتفعات الجزيرة العربية، فلم يكن حديثه دائماً محصوراً على الملك عبد العزيز وأولاده، وإنما كان يذكر زعماء وصفات الأمراء، والقضاة ورجال الدولة الذين يقابلهم في كل مدينة أو قرية، بل كان أحيانًا يتطرق إلى وصف أحوال المجتمعات وإلى نوعية وصفات بعض الأفراد من عامة الناس في الأسواق ، أو الطرق ، أو المزارع، أو مواطن الرعي والصيد وغيرها من الأماكن العامة.

٥٨- إن الأعراف والتقاليد القبلية كانت هي المهيمنة على تسيير أحوال الناس، ولكن بعد قيام الدولة السعودية الحديثة، بدأت المؤسسات الإدارية والنظامية تحل محل الأعراف في حل مشاكل الناس وضبط شؤونهم ، انظر: ابن جريس ، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ) ، ص٩٠ وما بعدها. وللمؤلف نفسه ، عسير في عصر الملك عبد العزيز (دراسة تاريخية للحياة الإدارية والاقتصادية) (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) ، ص١٩-١٠٢ .

٥٩- انظر ، فيلبي ، مرتفعات الجزيرة، ج١ ص٢٦٥ وما بعدها .

٦٠- المرجع نفسه، للمزيد عن الصراعات السياسية في عسير خلال الحكم العثماني، انظر : ابن جريس ، صفحات من تاريخ عسير ج١ ، ص٩١-١٢٠ ج٢، ص٢٣٥-٢٧٤ ، محمد أحمد العقيلي، تاريخ المخلاف السليماني (الرياض : دار اليمامة ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م) ج٢، ص١٠٣٥ وما بعدها.

٦١- المرجع نفسه، ج١ ص١٧٤، ١٧٦ وما بعدها . للمزيد من التفصيلات عن معركة تربة بين الملك عبد العزيز والأشراف، انظر: عبدالله الصالح العثيمين : تاريخ المملكة العربية السعودية، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٧هـ) ج٢، ص١٨٣-١٨٥ .

٦٢- فيلبي ، مرتفعات الجزيرة ، ج١ ، ص٤٣٢-٤٣٣ . للمزيد عن حملة الأمير سعود بن عبد العزيز على نجران عام (١٩٣٤م) انظر: العثيمين ، ج١ ، ص٢٨١-٢٨٢ .

٦٣- فيلبي الجزيرة، ج١، ص٣٩٩ وما بعدها .

٦٤- المرجع نفسه، ج٢ ، ص٧٩٣ وما بعدها .

٦٥- المرجع نفسه .

٦٦- المرجع نفسه .

٦٧- هناك بعض القبائل المتداخلة في تضاريسها ومواطن سكانها، وبخاصة في منطقة عسير، وجازان، حتى أن أهل البلاد أنفسهم يقعون في الخطأ عند تحديد المواطن لبعض العشائر والقبائل، ولعل الاندماج ربما يكون أحد الأسباب الرئيسة التي جعلت فيلبي يقع في بعض الأخطاء المتعددة والتي أوضحناها في حواشي الكتاب أثناء مراجعته وتدقيق معلوماته .

٦٨- للمزيد انظر: فيلبي مرتفعات الجزيرة ، ج١ ، ص٤٦٧-٤٨٥ .

٦٩- المرجع نفسه، ج٢، ص٨٩٧ .

٧٠- العناصر الأفريقية متواجدة في جنوب الجزيرة العربية منذ غزو الرومان والأحباش لبلاد اليمن في عصور ما قبل الإسلام، واستمرت الهجرات على مر التاريخ الإسلامي، ومن يتجول اليوم في أجزاء جنوب السعودية فإنه يشاهد بعض السكان من أصول أفريقية وملامحهم كانوا وثيق ثم أعتقوا مع مرور السنين واستوطنوا بين القبائل العربية حتى أصبحوا من أفرادها الذين ينتسبون إليها ، وبخاصة ما يتعلق بالعنصر اليهودي الذي كان يعيش في أجزاء عديدة من جنوب البلاد العربية مثل نجران، وبلاد قحطان ، وأبها وبيشة.

٧٢- فيلبي، مرتفعات الجزيرة ، ج١ ، ص٥٣٦-٥٤١ .

٧٣- المرجع نفسه، ج٢ ، ص٧٣٥ وما بعدها .

٧٤- المرجع نفسه، ج٢ ص٦٧٣ وما بعدها .

٧٥- المرجع نفسه .

(٧٦-٧٧) كما ذكرنا سابقًا ، بأن حديث فيلبي عن كثير من الوجهاء والشخصيات في جنوب البلاد السعودية جدير بالدراسة المستفيضة ، لما ذكر من معلومات تاريخية هامة عن أعمال، وصفات، وسلبيات وإيجابيات كثير من أولئك الرجال.

٧٨- لمزيد من التفصيلات عن أنماط العمارة في جنوب البلاد السعودية انظر: ابن جريس، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ) ص٣٧-٤٩ ، للمؤلف نفسه، والعمران في إقليم عسير خلال القرون المتأخرة الماضية (دراسة تاريخية حضارية» مجلة المنهل، عدد (٥٧١) مج (٦٦١) عام (٦٦) (شوال - ذي القعدة / ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م) ص٢٦-٤٩ ، آل عبد الجبار، ص١٩-٢٠ .

٧٩- المرجع نفسه .

(٨٠-٨٢) فيلبي أفاض الحديث عن نوعية وأشكال بعض المنازل التي دخلها في بيشة ، وخميس مشيط، وأبها، ونجران، وبعض مدن جازان الرئيسة . ونستطيع القول أن دراسة الفن المعماري في هذه المناطق، وبخاصة القديم منه ، جدير بالدراسة ، حيثما لم تتصدى لهذا الموضوع أحد طلاب الدراسات العليا في الجامعات السعودية.

(٨٣-٨٧) للمزيد من اللباس والزينة والأطعمة والأشربة في جنوبي البلاد السعودية خلال القرن الرابع عشر الهجري وما قبله، انظر: ابن جريس ، عسير ١١٠٠-١٤٠٠هـ ، ص٥٨-٧٤ . أيضا أنظر صفحات عديدة متفرقة من كتاب فيلبي موضوع البحث .

٨٨- فيلبي ، المرجع نفسه، ج١ ، ص٥٢٩ وما بعدها، وللمزيد انظر: فؤاد حمزة ، في بلاد عسير، ص٧٦-٧٧، ١٣١-١٣٣ .

٨٩- فيلبي ، مرتفعات الجزيرة ، ج٢ ، ص٩١٩، ٩٥٠، فؤاد حمزة ، ص٨٠، ٨٢، ١٣٢ .

٩٠- هذه القبائل التي زارها فيلبي من الطائف حتى جازان ونجران، سواء في الأجزاء السعودية أو اليمنية، تشتهر بالكرم وحسن الضيافة ، ولهم عادات وأعراف عديدة يمارسونها مع ضيوفهم أثناء القيام بإكرامهم وأداء الواجب تجاههم (دراسة ميدانية قام بها الباحث خلال عام (١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣-٢٠٠٤م) وللمزيد انظر: ابن جريس، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ) ، ص٩٣-١٠٥، للمؤلف نفسه، صفحات من تاريخ عسير ، ج١+٢ ، ص١٨٧-٢٣٢ .

٩١- فيلبي ، المرجع السابق، ج٢ ، ص١٢٣٠-١٣٣١ .

٩٢- المرجع نفسه ، ج٢ ، ص٨٩٠-٨٩١ . شجرة القات من الأشجار المنتشرة في أجزاء من منطقة جازان، وكذلك بعض النواحي في البلاد اليمنية الشهالية. هي من الآفات الاجتماعية والاقتصادية

التي يعاني منها سكان جازان، ولها شبكات من المهربين والمتورطين في تسويقها بين عامة الناس. والحكومة السعودية بجميع أجهزتها الأمنية تعاني من أحكام السيطرة على انتشار هذه الشجرة التي تصيب آكلها بالفتور العقلي والجسمي معًا ، بالإضافة إلى أضرارها المادية وارتفاع أسعارها ، حتى أن هناك أفراد وأسر عديدة قد تصاب بالإفلاس المادي بسبب تعاطيهم أكلها .

٩٣- فيلبي ، مرتفعات الجزيرة ج١ ، ص٣٩ .

٩٤- كانت طريقة الختان في جنوب السعودية قاسية إلى درجة تصعب وصفها . وبخاصة عند سكان البوادي والأرياف فلا يكتفي بقطع الجزء المطلوب في الختان الشرعي، وإنما كانوا يذهبون إلى أبعد من ذلك فيقومون بسلخ الجلد من منتصف البطن إلى بطن الفخذين. ومن يتألم أو يبكي من المختونين أثناء عملية الختان فهو جبان ، وينظر إليه من عموم أفراد قبائله نظرة ازدراء واحتقار. للمزيد انظر ، فؤاد حمزة ، ص١٠٩-١١١، ابن جريس ، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ) ، ص٨٥-٨٧ .

(٩٥-٩٦) النزاعات القبلية تكاد تكون من أكبر المشاكل بين أفراد القبائل وأماكن الرعي والصيد، وموارد المياه والمزارع ، وبعض الملكيات العقارية الخاصة، تنشأ على رأس القائمة بين المتنازعين ، وأحيانًا يقوم وجهاء وأعيان القبائل بالتوسط في الإصلاح بين المتخاصمين، وقد يحال أمرهم إلى المؤسسات الحكومية ، كالقضاء، والشرطة والامارات لتفصل في أمورهم. وهناك مئات الوثائق التي تصور طبيعة مثل هذه النزاعات وكيفية التعامل معها من خلال بعض الأعراف والعادات القبلية . للمزيد من التفصيلات ، انظر ابن جريس، صفحات ، ج١ +٢، ص١٨٧-٢٣٣ .

٩٧- يوجد الكثير من المعلومات التي ذكرها فيلبي طوال رحلته عن أنواع الطيور والحيوانات التي كان يشاهدها في معظم الأجزاء السعودية أو الشهالية التي مر عليها. ومن يزور جنوب السعودية اليوم فإنه يشاهد الكثير من الغابات والبيئات المختلفة التي يعيش فيها الكثير من النباتات والأشجار المختلفة في أشكالها وفوائدها ، كما يجد الكثير من الطيور والزواحف والحيوانات التي تعيش في جنبات هذه البيئات المتنوعة (مشاهدات الباحث وانطباعاته) .

٩٨- فيلبي ، مرتفعات الجزيرة، ج١ ، ٢٩٠-٢٩١، ٤٣٣ .

٩٩- المرجع نفسه ، ج٢ ، ص٩٢٩ .

١٠٠- المرجع نفسه، ج٢ ، ص٨٦٣، ٨٦٤، ٨٦٩، ٨٧١ .

١٠١- لمزيد من التفصيلات عن مصادر المياه في جنوب السعودية، وأهميتها في مهنة الزراعة ، انظر : الشريف ، جغرافية المملكة العربية السعودية، ج٢ ، ص٥٣ وما بعدها .

١٠٢- يوجد في كتاب فيلبي عشرات المواضع التي أشار فيها إلى الأوضاع الاقتصادية وبخاصة التجارية وللمزيد عن الأحوال التجارية في جازان ونجران انظر : ابن جريس ، عسير

١١٠٠-١٤٠٠هـ، ص١٦٣-١٨٩ ، للمؤلف نفسه، عسير في عصر الملك عبد العزيز، ص١٤٨-٢١٥ ، فؤاد حمزة ، في بلاد عسير، ص١١٢ ، وما بعدها ، شرف عبد المحسن البركاتي، الرحالة اليمانية (دمشق وبيروت: المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ١٣٨٤هـ) ص٤٧-٤٨ ، محمد عمر رفيع، في ربوع عسير، ذكريات وتاريخ (القاهرة : دار العهد الجديد للطباعة، ١٣٧٣هـ) ص١٩٥ وما بعدها .

١٠٣- المراجع نفسها .

(١٠٤-١٠٥) قيلبي ، مرتفعات الجزيرة، ج١، ٢١٤ ، ج٢، ٧٤٢، ١٢٩٢ وما بعدها .

١٠٦- المرجع نفسه، ج٢ ، ص٨٠٢ ، ١١٣٩ .

١٠٧- المرجع نفسه، ج١ ، ص٥٧١ . ولمزيد من التفصيلات عن التنظيمات المالية والإدارية في جنوب السعودية في عهد الملك عبد العزيز ، انظر : مبارك محمد المرزن المعيدي، التنظيم الاداري والمالي في تهامة خلال الإشراف السعودي (١٣٤٥- ١٣٥١هـ) (جدة: شركة دار العلم للطباعة والنشر ، ١٤٠٥-١٤٠٦هـ) ص٨٥ وما بعدها، محمد بن أحمد العقيلي، تاريخ المخلاف السليماني (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ج٢، ص٩٦٣ .

(١٠٨-١٠٩) ذكر قيلبي كثير من الحرف والصناعات المختلفة التي رآها في الجبال والسهول التهامية، ولي اعتقادي أن هذا الموضوع جدير بالدراسة لينظر إلى المعلومات التي رواها هذا الرحالة بتبجيل للجوال والمشاهدة، ثم تقارن مع ما ورد في الوثائق والمراجع المنشورة وغير المنشورة، وعن الحرف والصناعات المختلفة في منطقة عسير ، وأجزاء من تهامة انظر ، ابن جريس ، عسير ١١٠٠-١٤٠٠هـ، ص١٤٧-١٦٣ .

١١٠- قيلبي ، مرتفعات الجزيرة، ج٢، ص٧٢٩-٩٤٩ وما بعدها .

١١١- لانخل أي ناحية جاءها قيلبي في هذه الرحلة من ذكر ما شاهده من مهن وحرف وصناعات يتقنها سكان جنوب السعودية، ومعظم المواد الأساسية لجميع تلك الصناعات تكاد تكون محلية، وقليلاً ما يتم استيرادها من خارج المنطقة.

١١٢- لمزيد من التفصيلات عن ظهور المؤسسات الإدارية الحديثة في جنوب السعودية في عهد الملك عبد العزيز انظر: ابن جريس ، عسير في عصر الملك عبد العزيز، ص١٩-١٠٣ .

١١٣- المرجع نفسه.

١١٤- هكذا كان قيلبي في معظم رحلاته، فهو لايهتم بجزئية دون أخرى وإنما يدون معلومات متنوعة تشمل النواحي السياسية والحضارية المختلفة . وكما ذكرنا سابقًا فإن كتاب: مرتفعات الجزيرة العربية، يعتبر نموذجًا جيدًا لشموليته بالمعلومات الجيدة الجديرة بالدراسة والتحليل والمقارنة.

١١٥- قيلبي، مرتفعات الجزيرة ، ج١ ، ٣١٠، ٣٢٠ ، وللمزيد ، انظر : عبدالله آل عبد الجبار، ص٢٤ وما بعدها ، ابن جريس، بحوث في تاريخ عسير الحديث والمعاصر، ص٥٩ .

١١٦- المراجع نفسها .

١١٧- عن الحياة الفكرية والتعليمية في جنوبي البلاد السعودية خلال زيارة قيلبي لها، انظر: غيثان بن علي بن جريس، تاريخ التعليم في منطقة عسير (١٣٥٤هـ/ ١٣٨٦هـ/ ١٩٣٤-١٩٦٦م) (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) الجزء الأول، ص٥٢ وما بعدها ، وللمؤلف نفسه، دراسات في تاريخ وحضارة جنوب البلاد السعودية (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م) ص٦١-٨٤ .

١١٨- قيلبي ، مرتفعات الجزيرة، ج١ ص٢٧٠، ٢٨٤، ٢٨٥ .

١١٩- المرجع نفسه، ومن ينظر في كتاب قيلبي، مرتفعات الجزيرة العربية، فإنه سوف يجده تحدث عن العديد من الأمراض التي كانت تفتك بالناس آنذاك ومن أشهرها: الحمى، الجدري ، الطاعون، السعال، وبعض الأمراض المعدية المختلفة.

١٢٠- انظر تقديمنا للكتاب : مرتفعات الجزيرة العربية، ج١، ص١٣ .

١٢١- ولمزيد من الإيضاح عن بلاد تهامة والسراة الواقعة بين اليمن والحجاز، انظر : عبد الله الوهبي والحجاز كما حدده الجغرافيون العرب، مجلة كلية الآداب، جامعة الملك سعود (١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م) ج١ ، ص٥٣- ٧٠، غيثان بن علي علي بن جريس، دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال القرون الإسلامية المبكرة والوسيطة (ق١هـ - ق١٠هـ / ق٧م-١٦م) (الرياض: مكتبة ومطابع العبيكان ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) الجزء الأول ، ص٣٦ وما بعدها، للمؤلف نفسه وملامح النشاط التجاري لبلاد تهامة والسراة في العصور الوسطى، بحث قدم ضمن الندوة العلمية التي عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة من (٢٥-٢٧ / ٨ / ١٤٢١هـ الموافق ٢١-٢٣ / ١١ / ٢٠٠م) ونشرت ضمن بحوث الندوة في كتاب : طرق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ، جزء (٨) منشورات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهر (١٤٢٢١هـ/ ٢٠٠٠م) ص١٥٧-٢٢٢ .

د. صالح محمد السنيدى[*]

«مصر فى مذكرات الرحالة الإسبانى دومنجو باديا أو على باى العباسى فى بداية القرن التاسع عشر»

ظروف الرحلة: التنافس والصراع الفرنسى البريطانى على مصر:

مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر الميلاديين كان الصراع الاستعمارى الغربى على أشده حول منطقة العالم الإسلامى وبالذات ما عرف بمنطقة الشرق الأوسط فى ظل أفول شمس الخلافة العثمانية، وكانت مصر فى مقدمة هذه الأهداف والأطماع حيث شهدت صراعًا استعماريًا من نوع آخر أصبحت بموجبه حلبة للصدام والصراع بين قوتين متنافستين هما فرنسا وإنجلترا، فالفرنسيون بدأوا التخطيط لتوجيه ضربة حاسمة للإنجليز تقضى على مصالحهم فى الشرق الأدنى والهند من خلال هزيمتها فى مصر وقطع طريق البحر الأحمر الحيوى عليها، كيف ذلك؟ لعل الجواب جاء فى تصريح نابليون نفسه حينما قال: «لكى نحطم إنجلترا يجب أن نضع أيدينا على مصر»[1]. وتدع أحد مهندسى هذا الهجوم وقنصل فرنسا فى مصر يشرح لنا ذلك من خلال الوثيقة التى بعث بها لهذا الغرض، يقول مساجلون[2] Magallon فى رسالته لحكومته: «إذا أصبحنا سادة البحر الأحمر فإننا نستطيع أن نهدد مصالح البريطانيين وأن نطردهم من الهند، فعن طريق السويس خلال الفترة المناسبة من العام، يمكن إرسال عدد من القوات للهند على عدد قليل من البواخر،

---

* أستاذ مشارك بقسم التاريخ والحضارة – جامعة الإمام بالرياض .

ولايحتاج جنودنا فى ذلك الطريق لأن يبقوا فى البحر لأكثر من ستين يوما بدلاً عن طريق رأس الرجاء الصالح الذى يستغرق ستة شهور ، وعن طريق السويس لن نكون معرّضين لخسارة أكثر من ١٪ من رجالنا ، بينما خسائرنا فى الطريق الآخر لن تقل عن ١٠٪ بأى حال من الأحوال»[٣]. ولتحقيق هذا الهدف وبعد التهيئة والاستعداد وصلت قوات الجنرال الفرنسى نابليون بونابرت إلى الإسكندرية فى ٢٨ يولية سنة ١٧٩٨م الموافق ١٣ محرم ١٢١٦هـ قاصدة الاستيلاء على مصر وتأسيس قاعدة استعمارية لها فى شمال أفريقية ،تُحقق من خلالها مصالحها وتنقل مطامعها القريبة والبعيدة، ومع نجاحه الباهر فى الاقتحام وتحقيق الهدف بالاستيلاء على القاهرة ، إلا أن حلم نابليون تحطّم أمام تزاوج المصالح العثمانية الإنجليزية التى سعت منذ الرحلة الأولى لطرد القوات الفرنسية الغازية، فبعد صراع امتدّ لسنوات لجوج هزلا، فى إخراج الفرنسيين من مصر منتصف سنة ١٨٠١م / ١٢١٦هـ ومع محاولة الإنجليز استغلال الفرصة والبقاء فى مصر إلا أن جهود الخلافة وبالتعاون مع الفرنسيين فى لعبة المصالح المشتركة، نجحت فى إخراجهم منها أيضًا بعد سنتين، وخلا الجو للأتراك ممثّلين برجلهم القوى محمد على باشا الذى سيطر على الأمور بعد صراع دام مع المماليك وصفا له الحكم باسم الأتراك فى مصر[٤].

تأتى رحلة دومنجو بادیا Domingo Badia أو على باى العباسى Ali bey كما يحلو له أن يسمى نفسه فى ظل هذه الظروف ، لدوافع وأهداف يتوجّس منها من تناولوا سيرة هذا الرجل، بل ويذهب البعض منهم إلى أنه ليس إلا جاسوسًا لنابليون مدفوع الأجر، خاصة وأن فرنسا لم تهدأ أو تتوقف أطماعها فى المنطقة وظلّت تبعث بمندوبيها وعيونها لسبر الأوضاع وجمع البيانات الهامة ومتابعة سير الأمور هناك لاقتناص الفرصة المناسبة للانقضاض مرة أخرى أو على الأقل عرقلة مصالح الإنجليز هناك.

وفى هذه الدراسة سنتناول بالتحليل هذه الشخصية الغريبة ونتعرّف على دوافعها وأهدافها فى مشوارها الطويل، ثم نتوقف باستعراض ما يخص مصر فى هذه الرحلة ، وما أورده فى كتاباته عنها ، مع الإشارة إلى ملامح هذا التنافس البريطانى- الفرنسى الذى أشرنا إليه آنفًا فى ثنايا حديث بادیا ، على أمل أن نقوم بترجمة النصّ المتعلق بها فى مرحلة لاحقة إن شاء الله. آملين أن نفى هذا الموضوع ما يستحقه من العناية والدراسة والجهد.

الرحلة والرّحالة:

هذه الشخصية التى غامرت وكافحت لتصل إلى مدى ليس بالسهل- فى ذلك الزمن - على شخص يعتمد على مقدرته وبراعته الشخصية واقتناص الفرص التى قد تَهب لصالحه فترة لكنها تنقلب لفترات أخر ، ونقصد بها شخصية رحّلتنا هذا التى لم تجد من الاهتمام والدراسة ما يفيها حقّها ، فما توافر لدينا من معلومات لاتتناسب وحجم هذه الشخصية وما قامت به من مغامرات ولصبته من أدوار ، لكنها مع ذلك تُلقى أضواءً كافية حول حياة هذا الرجل والتقلبات السياسية التى عاشها وشارك فى صنع أحداثها. وقد اهتمّ به الباحثون الكتالان[٥] وأفردوه بدراسات وبحوث خاصة كان آخرها مجموعة من المقالات تحت عنوان : «على باى Ali Bei حاجّ كتلانى فى دبار الإسلام باللغة الكتلانية نشر فى برشلونة سنة ١٩٩٦م.

يذكر دارسو رحالتنا بأنه ينتمى إلى أب كتلانى كان يعمل سكرتيرا لحاكم برشلونة وأم بلجيكية اسمها كاتالينا لبليخ Catalina Leblich ، أما هو فاسمه دومنجو بادیا لبليخ Domingo Badia Leblich ولد فى برشلونة للأول من أبريل سنة ١٧٦٧م الموافق ٢-١١-١١٨٠هـ، انتقل أبوه إلى غرناطة ثم إلى مدريد يرافقه ابنه الذى تبدو عليه علامات النجابة والنبوغ، فوجّهه والده لدراسة الإدارة ، وعندما بلغ الرابعة عشرة من عمره أصبح معاونًا إداريًا لوالده فى بلدة على ساحل غرناطة ، ثم خلف والده فى منصبه عندما انتقل إلى مدريد وعمره وقتها تسعة عشر عاما ، وبعد أن بلغ أربعًا وعشرين سنة تزوج من فتاة غرناطية، وفى هذه الأثناء تحوّل إلى قرطبة ليعمل فى مصلحة التبغ، وأثناء ذلك كان الطموح وحبّ المغامرة يدفعانه إلى البحث والدراسة وإجراء التجارب العلمية المتعددة التى كان آخرها تجربته الانتطلاعية حول الغاز وتأثيره فى رفع المناطيد ، كما سبقها وتلاها محاولات متعددة بقصد الترقية، وهى وإن كانت غير موفقة فى غالبيتها إلا أنها تدلّ بوضوح على ما ذكرناه من سماته الشخصيّة المتميزة والمغامرة، وهذا ما دفعه فعلاً إلى التقدم بمشروع الرحلة موضوع حديثنا هذا فى شهر أغسطس من سنة ١٨٠١م / ١٢١٦هـ إلى الحكومة الأسبانية باسم «مشروع رحلة إلى شمال أفريقية ذات أهداف سياسية وعلمية»، وقد تمت الموافقة عليها مع ما يتطلبه ذلك من تمويل وتجهيز ، وكان وراء المشروع والداعم الأول له رئيس الحكومة الإسبانية آنذاك مانويل جودوى Godoy الذى تحمّس له وأقنع الملك شارل الرابع Charles VI بالموافقة

عليه. عندما بدأ باديا يستعد للرحلة ويحضر لمستلزماتها من أجهزة ومعدات وتهيئة نفسية ولغوية ومعرفية تتناسب والبلاد المقصودة ، فرحل إلى لندن وهناك التقى بأعضاء الجمعية الأفريقية وبحث معهم إمكانية إجراء بعض الاكتشافات في القارة الأفريقية جنوب الأطلس، وفي هذه الأثناء قام بمبادرة شخصية فخلق نفسه تأكيدا لشخصيته الإسلامية التي سوف يتقمصها فيما بعد، ثم انتقل إلى باريس وأجرى بعض الاتصالات الخاصة وأعدّ بعض الأجهزة العلمية التي تلزمه في رحلته هذه ؛ وبعد سنتين من الاستعدادات والتجهيزات انطلق صوب المغرب التي وصلها في ٢٩ من شهر يونية سنة ١٨٠٣م / الموافق ٩ من شهر ربيع الأول سنة ١٢١٨هـ معلنًا بداية الرحلة، ومتنكراً بالزي العربي مدعيًا أنه من أصل عربي وينتمي إلى الأسرة العباسية متخذاً من علي باي العباسي اسمًا له، مؤكداً أن الظروف دفعته إلى ترك بلاده الإسلامية والانتقال إلى أوروبا، وفي معاهدها درس العلم ونهل من معينه وتنقل في دولها ما بين إيطاليا وفرنسا وإسبانيا ، مما جعله ينسى لغة آبائه وأجداده، لكنه مع ذلك ظلّ محافظًا على تعاليم دينه الإسلامي[٦].

في رحلته هذه جاب المغرب وولاية طرابلس وقبرص وبعض جزر اليونان ومصر والحجاز وفلسطين وسورية وتركيا ثم عاد إلى بلاده عن طريق فرنسا سنة ١٨٠٧م / ١٢٢٢هـ التي كانت الأمور فيها مضطربة حيث اقتحمها نابليون بونابرت وأسقط حكومتها ونصّب ملكًا موالياً له هو أخوه جوزيف بونابرت ودفعها إلى حكمه المباشر، فتردد رحالتنا هذا ما بين تفرغه لأبحاثه ومشاريعه العلمية أو الدخول في معترك السياسة ودهاليزها المظلمة، فجلبته الأضواء، وتقلّب في مناصب متعددة تحت إدارة أخي بونابرت جوزيف، وعندما انتهى الحكم الفرنسي في إسبانيا آثر باديا الرحيل معه والانخراط في خدمة الفرنسيين وتحت حمايتهم بعد أن أحرق جميع أوراقه الوطنية.

على أنه سيعاود الكرة مرة أخرى ويشدّ الرحال من باريس هذه المرة باتجاه الشرق الذي دفعته إليه دوافع متعددة ستتوقف عندها فيما بعد [٢]، لكن ما يهمنا هنا أنه لقي مصيره في هذه الرحلة الأخيرة وهو في طريقه إلى مكّة مع نهاية شهر أغسطس من سنة ١٨١٨م نهاية شوال سنة ١٢٣٣هـ في ظروف غامضة حيث قيل إنه أصيب بالدوسنتاريا أو الزحار وذلك على بعد ١٢٠ ميلاً من دمشق، ولا يستبعد البعض أن السمّ قد دُسّ له من قبل أعدائه الإنجليز[٨].

دوافع الرحلة وأهدافها:

بعد هذا العرض السريع لسيرته نتوقف عند هذه الشخصية بالتحليل والدراسة لمعرفة دوافع الرحلة، ولصالح من كانت تلك المعلومات التي حملتها مجلداتها ؟

كما رأينا فيما عرضناه من معلومات : رجل مغامر وذكي وطموح تدرّج بسرعة في المناصب الإدارية ومع ذلك لم يجد فيها ما يُرضي طموحه ، ففكر بطريقة توصله إلى ذرى الشأن وأصحاب السلطان، وجدها في موضة ذلك العصر وهي الاكتشافات والتجارب العلمية التي كانت حديث المجالس في أوربا وعلم شبّانها ومحطّ أنظار ساستها، فكانت تجاربه ومحاولاته العلمية ورقة أدخلته إلى الدهاليز المتنفذة وصانعة القرار في بلده، ومع أنه فشل في معظم تجاربه هذه خاصة الطيران بالمنطاد بواسطة الغاز، إلا أنه تحول إلى ما هو أهمّ ، فعالم المغامرات واكتشاف العالم الجديد ما زال له بريقه ولمعانه في هذا الوقت، والصراع حوله بين أقطاب القوى الاستعمارية الأوربية المتنافسة على أشده، وتركة الرجل المريض تغري بالمغامرة ودخول المعترك. كل ذلك دفع بمغامرنا إلى الدخول في المعمعة والتقدم بمشروع الرحلة.

لقد اختار من كتب عن هذه الشخصية في تصنيفه وتبعيته ، فعلى الرغم من اتفاقهم على انخراطه في سلك الجاسوسية وأساليبها القذرة ، إلا أنهم لم يتّفقوا على من كان يقف وراءه ويتلقى تقاريره الدورية، هل هم الأسبان بتطلعاتهم نحو شمال أفريقية وبشكل خاص المغرب؟ أم نابليون بأحلامه وطموحاته التوسيعية نحو شمال أفريقية والشرق الإسلامي العربي؟ الدلائل التي تجعل منه عميلا إسبانيًا أو فرنسيًا ملتزمًا لم تصل إلى حدّ القطع مع وجودها وظهورها بوضوح وبشكل مكشوف أحيانًا بالمغرب، مثلا عندما كان يسعى لتحقيق طموحات قادة بلاده فيها؛ وفي مرحلة الإعداد للرحلة زار لندن والتقى بأعضاء الجمعية الأفريقية وبحث معهم العمل لمصالحهم في أفريقية تحت ستار الاكتشافات العلمية[٩] ولعلنا ندرك مدى ارتباط هذه الجمعيات بالأهداف الاستعمارية لبلادها ومع ذلك فإننا نجهل مدى تجاوب هذه الجمعية مع مشروعه هذا، فهل كانت إحدى المسولين له في رحلاته عبر البلاد العربية؟ وفي ذات الفترة وبعد أن خرج من لندن اتجه إلى باريس بحجّة استكمال الاستعدادات للرحلة، فهل عقد صفقة مع حكومة فرنسا للعمل لصالحها في هذه المناطق مشروع الرحلة؟ ثم ما مدى ارتباطه بحكومة بلاده على مدى مشوار الرحلة؟ كل هذه التساؤلات تحتاج لأكثر من دراسة للإجابة على ملابساتها خاصة وأن باديا- كما يقول مواطنه خوان بارثيلو Juan Barcelo- "لا يعدو عن

كونه جاسوسا يستحيل معرفة سيرته الذاتية لأن الجواسيس ليس لهم سيرة واحدة بل متعددة هي التي يمكن بمجموعها أن تخرج بتصور ولو جزئي عنهم[١١٠]، وفي اعتقادنا أن باديا استخدم كل أساليب المكر والخديعة لا ليخدع بها ضحاياه السذّج وذوي النوايا الطيبة في البلاد التي زارها فقط وإنما ليلعب على كل الحبال ، فبعد أن أتمّ حكومة بلاده بمشروعه التجسسي والتخريبي داخل المغرب وأغراها بخيرات هذا البلد وهشاشة الحكم فيها ، كسب الدعم والتمويل منها طوال مدة إقامته بها ، مرتبطا بشبكتها التجسّسية ومزوداً لها بالأخبار والمعلومات والاقتراحات ومستمداً منها التوجيهات تحت اسم رمزي هو «الشيطان» أحيانا و«الرحالة» في أحيان أخر [١١١]، ساعيًا إلى كسب ودّ السلطان مولاي سليمان وإقناعه بالحماية العسكرية الإسبانية ضد أعدائه ، وفي حالة رفضه فسيدفع البلد إلى حرب أهلية تجعل الأسبان يصطادون في الماء العكر[١١٢]، ومع ذلك فإن الأمر اختلف عندما غادر باديا المغرب، فمع محاولة البعض تأكيد استمراريته في العمل لصالح إسبانيا من أجل تواجد في منطقة الشرق الأوسط لتكون قريبة من الهند والشرق الأدنى ولذا كان على صلة بعناصر إسبانية ذات نفوذ واسع من جزيرة مايوركا [١١٣]، لكن مع احترامنا لهذا الرأي إلا أنه يصعب إيجاد أية دليل يؤكد هذه المقولة، بل على العكس كل الأدلة تشير إلى أنه عمل لصالح الفرنسيين بعد خروجه من المغرب مباشرة فلم يمض وقت طويل على مغادرته للجزائر حتى كان نابليون يفكر بإنزال عسكري فيها ، بل هناك دلائل تشير إلى أنه كان يفكر بإنشاء مستعمرات سكنية أوربية على الساحل الشمالي لأفريقية للاستفادة من حبوبها وسدّ حاجة جيوش منها[١١٤]، وحتى وصل الأمر بالبعض ليقول بأنه ليس إلا أحد موظفي إمارة البحر الفرنسية أرسل إلى البحر الأحمر لتدوين ملاحظات فلكية وتحديد مواقع جغرافية[١١٥]. ليس هذا وحده فقصّة الرحلة ملبسة بالإشادة بفرنسا والفرنسيين وإنجازات الحملة الفرنسية على مصر ثم اتصاله بالقناصل الفرنسيين وعودته إلى فرنسا أولاً وليس إلى إسبانيا ، وأكثر من ذلك تعاطفه بل وتعاونه مع الاحتلال الفرنسي لبلاده ثم رحيله مع قواتها بعد طردها إلى باريس، كل ذلك لايدع مجالاً للشك في ارتباط باديا بحكومة فرنسا بعد خروجه من المغرب.

هذه الثوابت التي أكدها عدد من الكتاب الأوربيين نستبعد معها أن تكون تزييفًا لحقائق ثابتة أو تشويهًا للشخصية التي حاول أن يرسمها لنا باديا فيما كتبه من أنه مسلم يسعى لصالح الإسلام والمسلمين ربّما نشكّ في هذه لو أنها توقفت عند حدّ الاتهامات المجردة ولم

تصل إلى المسلمات الثابتة، لكن رغم هذه الثوابت فإنّ من كتبوا عنه اختاروا في مدى تلك العلاقة وهل تصل لحدّ العمالة، خاصة عندما وقفوا مبهورين أمام مقدرته في مزج شخصيته الأسطورية بالحقيقة وإظهاره لنفسه وكأنه مؤمن إيمانًا عميقًا في كل ما يكتبه، ثم تمسكه بشخصيته الخيالية طيلة مراحل رحلته وحتى بعد عودته إلى أوربا . كما تساءل أولئك عن تلك الإمكانيات المالية التي توفرت له وسهلت رحلته وجعلته ينفق ببذخ، ما هو مصدرها إذا افترضنا براءة الرجل وصحّة ما ذهب إليه؟ ونحن بدورنا نتساءل ونضيف تساؤلاً ملحًا آخر هو: كيف وصل باديا وبهذه السهولة إلى قصور أمراء ورؤساء تلك البلاد العربية التي زارها؟ حيث يجد الطريق أمامه سالكة ميسرة ، فبعد أن وصل المغرب التقى سلطانها وكسب ثقته ثم نجد حاكم طرابلس يتوسل إليه بالبقاء ، وكذلك الحال مع محمد علي بمصر، وفي الحجاز يمكن بجانب قصر الشريف ويتلقى استقبالا حارًا منه، فهل صدّق هؤلاء ادعاءاته وانتحاله لهذه الشخصية الخيالية أم كان للهدايا المميزة التي تسبقه والتوصيات الخاصة من قبل حكومات أوربية معينة بشكل أو بآخر أثر في ذلك القبول وتلك التسهيلات؟ كل هذه الدلائل والمؤشرات تجعلنا نؤكد بأنه ليس إلا أحد هؤلاء المستكشفين وموظفي الدوائر الاستعمارية رغم محاولته المستميتة خداعنا وإقناعنا بأنه أحد المسلمين نسبًا واعتقادًا والساعي للحقيقة العلمية المجردة. فبالإضافة إلى ما أشرنا إليها سابقا من علاقاته وارتباطاته بالدوائر الاستعمارية ، فإن هذه العلاقة تلازمه في رحلته داخل البلاد الإسلامية ليس في المغرب وحدها بل في طرابلس ومصر والحجاز ، ففي الغرض مثلا التي كانت خارج إطار رحلته مكث فيها حوالي الشهرين بحجّة أن المركب والأمواج دفعت به إليها وكانت المسألة كذلك لما احتاج إلى كل هذه المدة ، لكنها كانت تخفي ورائها أشياء أخرى باعتقادنا ، فقد التقى خلالها بشخصيات وأشخاص سهّلوا له مهمته ورحبوا به [١١٦]، يرجّح بارتيلو أن يكون التقى خلالها برسلائه من عملاء المخابرات الأوربية وتزوّد فيها بالمال والتعليمات اللازمة[١١٧]، ثم في مصر يزوره القنصل الفرنسي [١١٨]، وتتكرر هذه الزيارات واللقاءات من قبل مسئولين فرنسيين وأوربيين في أكثر من مناسبة وأكثر من مكان ، لدرجة أن أحد من تناولوا سيرته كتب متعجبًا كيف يستطيع هذا الجاسوس العتيق الوصول إلى شخصياته في أغلب الأماكن التي حلّ بها مدعيًا أحيانًا أنه صديقه القديم[١١٩] ومرات أخر دون تعليل يذكر .

من هنا يمكن القول أن باديا حاول جاهدًا أن يستثمر كل الظروف لصالح مشاريعه وتحقيق

طموحاته لاعبًا على كل الحبال مستخدمًا كل الوسائل الممكنة لخدمة هذه الأهداف بعد أن درس عصره وعرف كيفيّة الوصول إلى ما يريد . اتّصل بالإنجليز واستفاد من تجاربهم وخبرتهم الجاسوسية فيها ووعدها مقابل ذلك بخدمتها في مناطق محددة مقابل تسهيلات معينة، ومع أنه كرس خدماته لبلاده في المغرب وبشكل مكشوف ولايقبل الجدل إلا أن هذا لايمنع جاسوس محترف أن يتعامل مع أكثر من جهة ويرسل تقاريره لعدة أطراف حسب ما تقتضيه مصلحة تلك البلاد خاصة بريطانيا وفرنسا، بدليل أنه ظلّ على صلة بهذه القوى وارتباط أوضح بعد طرده من المغرب، ففي لمبرص يلتقيه ممثل بريطانيا ويسكن في منزل أحد عملائهم ويستفيد من توجيهاته[٢٠]، لكنه عندما يصل إلى مصر تظهر عليه علامات الضجر من الإنجليز وينسب إليهم بطريقة مباشرة وغير مباشرة ما حلّ بها من خراب ومشاكل اقتصادية[٢١]، ويصل به الحدّ إلى اتهامهم بشكل صريح بسرقة الآثار[٢٢]، كما ينتقد الرحالة الإنجليزي براون Brown بما كتبه عن القاهرة وأنها لاتعدو عن معلومات خاطئة في غالبيتها[٢٣] مما يشير إلى أنه اتخذ موقفًا وخطًا آخر يصب في صالح الفرنسيين، ولذا لم تغفر له المخابرات البريطانية هذه الإهانة وربما الخيانة فانتقمت منه وقتلته بالسم عندما استأنف رحلته من باريس مرة أخرى على رأى أغلب من تناولوا سيرته[٢٤]، ويؤيد هذا الرأي أيضًا خوفه وتوجسه من الإنجليز، نلحظ ذلك واضحا في مغادرته للقاهرة في سفره مفاجئة تشبه الهرب عندما أحسّ أن هذه المدينة تقع في مرماهم[٢٥]. أما فرنسا فظلّ على ولائه لها حتى وفاته ولذا فقد استحق أن يُمنح لقب «سيد» نظير ما أسداه لها من خدمات في الشرق [٢٦]، وسنتوقف عند هذا كله بالدراسة الموسعة في ترجمة الجزء الخاص بالحجاز الذي سيرى النور قريبًا إن شاء الله .

خط سير الرحلة :

انطلقت خطوات رحالتنا هذا من جنوب إسبانيا وابتدأت بطنجة التي حلّ بها في الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٩ من شهر يونية سنة ١٨٠٣م الموافق لـ ٩ من ربيع الأول ١٢١٨هـ وانتهت بخروجه من الدولة العثمانية في ١٩ من ديسمبر سنة ١٨٠٧م الموافق ١٩ من شوال ١٢٢٢هـ زار خلالها المغرب وطرابلس ومصر والحجاز وفلسطين وسوريا ثم الأناضول والقسطنطينية ، وفي أثناء الرحلة مرّ بقبرص وجنوب اليونان مع أنها لم تكن في برنامج الرحلة.

أما مصر- موضوع حديثنا- فقد دخلها من بوابتها الشمالية ونقصد بها «الإسكندرية»

عصر يوم الثاني عشر من مايو سنة ١٨٠٦م الموافق ٢٣ / ١٢ / ١٢٢١هـ بعد رحلة عاصفة صارع فيها مركبهم الأمواج ، وتلقرأ صنوف الأهوال. وظلّ فيها مدة ليست بالقصيرة تنقل في عدة من مدنها وقراها حتى استقل مركب الحجّ المتّجه إلى مكة عبر البحر الأحمر في ٢٣ من ديسمبر من نفس السنة الموافق لـ ١٣ / ١٠ / ١٢٢١هـ .

الكتاب أو مذكرات الرحلة:

مذكرات دومنجو بادیا أو علي باي العباسي وما سجله خلال رحلته تلك ، سعى جاهدًا أن يطبعه وينشره في أوربا ولم يتأخر ذلك كثيرًا ، فقد طبعت الرحلة في ثلاثة مجلدات وأطلس باللغة الفرنسية بفرنسا سنة ١٨١٤م بعنوان «رحلات علي باي العباسي في أفريقيا وآسيا» ولم يلبث أن تُرجم وطبع بالإنجليزية والألمانية سنة ١٨١٦م ثم الإيطالية عام ١٨١٧م ، بينما تأخرت الطبعة الإسبانية حتى سنة ١٨٣٦م في مدينة بلنسية [٢٧]، وبين أيدينا نسخة تتكون من مجلدين باللغة الإسبانية، نُشرت في برشلونة سنة ١٩٨٢م، تحمل عددا من الصور والخرائط: وقد اعتمدت الدراسة هذه على طبعتي اللغة الإسبانية خاصة طبعة برشلونة.

وقد حظي الكتاب بدراسات نقدية وتحليلية من بينها تلك التي تصدرت طبعة الكتاب الأخيرة والتي قام بها خوان جُويتيسولو Juan Goytisolo، وفيها أبرز الأهمية القصوى لهذه الرحلة كمصدر غنّي وشامل عن تلك المناطق التي زارها ، رغم بعض المبالغات التي تتخلل أحاديثه أحيانًا ، كما أنها ثرية بما حملته من أوصاف ومعاينات انثروبولوجية وعلمية وجغرافية ودقة في وصف الحج بمشاعره ومشاهده، مما يمنح كاتبها مكانة مميزة بين أولئك المغامرين والرحالة والمستكشفين وموظفي الدوائر الاستعمارية الذين مزجوا الدافع السياسي والمهني بالتعلق الشخصي بالحياة العربية والافتتان بالإسلام[٢٨]، كما تتميز كتابات باديا بالأسلوب المنظم والمعرفة العلمية واللغوية التي تجعل منه وحده- في تلك الفترة- ممثلاً للعالم الحديث على حدّ تعبير روبن بدول [٢٩]، قدم أول تقرير للغرب دقيق ومفصل عن الحج كما رآه وعايشه[٣٠]، ومن بين الدراسات الجديرة بالإشادة تلك التي قام بها عدد من الكتاب الأسبان وغيرهم بعنوان: «علي باي»: حاج كتلاني في ديار الاسلام » كما خصّه الأديب الإسباني خوليو روماني بدراسة طريفة بعنوان: «علي باي العباسي» وقد سبقت الإشارة إليهما .

وقد احتل الجزء المتعلق بمصر ثلاث وأربعون صفحة (٢٢٨-٢٧٠) في الجزء الأول من طبعة برشلونة ذات خط صغير.

مصر في رحلة علي باي العباسي

الفصل الأول: وصف الاسكندرية وأقدميتها

مصر التي كانت هدفًا لرحلات المستكشفين والمغامرين وذوي الأهداف المتباينة قبل هذا القرن وبعده كان لها نصيب وافر في رحلة رحالتنا هذا دومنجو بادیا أو علي بك العبّاسي كما يحلو له أن يسمّي نفسه. فقد أفرد لها فصلاً متكاملاً نستعرض أهمّ محطاته :

يذكر بادیا أنه قرر مواصلة رحلة الحجّ إلى مكّة المكرمة متخذاً من الاسكندرية طريقًا. فاستأجر مركبًا يونانيا صغيراً أقله هو وخدمه من قبرص، ورسى بهم في ميناء الاسكندرية في تمام الساعة الثالثة من عصر اليوم الثاني عشر من شهر مايو سنة ١٨٠٦م (٢٣ من صفر ١٢٣١هـ) بعد رحلة شاقة ومعاناة مع الأمواج استمرت لمدة يومين ونصف ، ونعرّضهم للمسألة والاستفسار من طرف فرقة من الأسطول العثماني، أفاد بادیا خلاله أنه قادم من المغرب لأداء فريضة الحج وأنه أحد الأشراف وابن السلطان، مما سهل لهم الخلاص؛ وقد جاء لاستقباله والبحث عنه الشيخ إبراهيم باشا الذي يعتبر في المرتبة الثانية بالاسكندرية وأصطحبه معه لمنزله وقدم له القهوة والمرطبات ، ثم انتقل بعدها إلى محل اقامته الذي أعدّ له سلفًا.

ويشيد بتعامل رجال الجمارك ولباقتهم فحقائبه وأمتعته لم تتعرض لأية تفتيش وبكلمة واحدة- يقول بادیا- «تلقيت كل معاني التقدير والاحترام التي تعبر عن أخلاقيات هذا الشعب الطيب»[٣٩].

تبدأ بعد ذلك رحلة الوصف والتجوال في هذه المدينة ومعالمها وآثارها مستهلاً ذلك بقوله: «ليس من الصّعب على رحّالة تأليف مكتبة متكاملة لوصف هذا البلد»[٣٢] لكنّه يُشير إلى ما كتبه مُرافقو الحملة الفرنسيّة من وصف يصعب الزّيادة عليه، وكعادته في فصول مذكراته، يبدأ بالوصف الجغرافي لمدينة الإسكندرية التي استهل رحلته لمصر مُبتدأ بها ومحدداً موقعها الطّولي والعرضي، ثم يعرّج على أهمية المدينة وأوليتها ومكانتها السابقة بالنسبة لمصر تجاريًا واستراتيجيًا ويذكر أنّ تعداد سُكانها كانوا أكثر من مليون، كما يقدّر دخل جماركها بستين أو خمسة وستين مليون فرنك في حالة الرّخاء، ويقارن ذلك بوضعها الحالي الذي لاتتجاوز معه جماركها الخمسمائة ألف فرانك . ثم ينتقل إلى الجانب التاريخي مُردداً المقولة التي ينعتني بها

المؤرّخون الغربيّون بأنّ المسلمين كانوا وراء خراب المدينة أو إهمالها. ويذكر نقلاً عن القصّاصين أنّ بهذه المدينة أربعة آلاف قصر ومثلها من الحمامات العامّة وأربعمائة سوق وأربعين ألفا من اليهود ومثلها كذلك من الحدائق والبساتين التي كانت تزين ما يحيط بالمدينة والتي أصبحت اليوم صحارى قاحلة تكسوها الرمال المتحركة.

ينتقل بعد ذلك بالوصف لأطلال الإسكندرية وآثارها القديمة، ويعود إلى المدينة نفسها ليؤكد أنّه ليس مع الصورة السّوداويّة التي صورها بعض الرّحالة الذين سبقوه لهذه المدينة الجميلة سواء في شوارعها أو منازلها وأسواقها أو حتى أهلها عندما يصفونهم بالاضطراب والعناد وقلّة التحضر. ويفيض في وصف المدينة بمنازلها وشوارعها ومرافقها مُشبهًا لها بمدينة بلنسية الإسبانية.

ويُشير إلى وضع الإسكندريّة الحرج اقتصاديًا نتيجة للحروب مع النصارى خارجيًا وبسبب الصراع مع المماليك ونقص العُملة داخليًا ، وأزمة النقل والمواصلات، وكذلك نظراً لهروب سُكانها إلى الحقول نتيجة لظروف الحرب مع الإنجليز.

ومع أنّه يعيب على أسلافه الرّحالة ما وصفوا به سكان الإسكندرية من صفات سبق ذكرها لكنه يردّد ما هو أشدّ ، فهم في غالبيتهم «عربٌ رجالهم جهلة نصّوا الطّباع إلاّ أنّه لا يمكن وصفهم بالصلف والعناد ولاحتّى بالسّيئين مع النّصارى لكنهم يكدحون ويدارون ظروفهم السّيئة بصبر العبيد»[٣٣].

ويعتقد أنّ مردّ سُوء النّظرة للأوربيين من قبل هؤلاء السّكان سابقًا هو بسبب المشاكل الدّينية، لكنّ الحملة الفرنسية جعلتهم يعتقدون أنّ النّصراني لايكرهُ المسلم حتّى أنّها أكدّت بما فيه الكفاية على ذلك بمعاملة السّكان كأشقاء ، ثمّ يشيد بهذه الحملة وما قدّمته لهذا البلد في المجالات المتعدّدة الحضاريّة والسياسية وغيرها.

يعود مرة أخرى مُفصلاً الحديث عن المنازل واصفًا لها من الدّاخل بدقّة مُتناهية وحتى محتوياتها العامّة من الأثاث، وكذلك الأسواق وأماكن تواجدها في المدينة، ويؤكدّ على الرّغم من عدم حصانة المدينة إلاّ أنّه لم يسمع عن أية حوادث سطو أو اعتداء طيلة مدة إقامته هناك، مما يؤكدّ على أنّ الإسكندرانيين ليسوا سيئين كما يصفهم البعض.

يتوقّف بالوصف عند مسجد المدينة أو جامعها الأعظم ويتوقف عند ضريح سيدي أبو

العبّاس ، ويُشير إلى بعض المشاهد التى رآها قبل إقامة صلاة الجمعة من النّشيد الجماعى وترديد الأدعية ثم مشهد المؤذّن وهو يعلو الآذان وترددّه خلفه مجموعة بصوت جماعى واصفاً صوت هذا الرجل بأنه كصوت كهلٍ يحتضر.

ويذكر أنّ المساجد تعتمد فى مصروفاتها على ما تجود به أيدى المُحسنين فما تتدّمه الدّولة قليل لايستحقّ الذّكر. مُشيراً فى الوقت نفسه إلى اختفاء عدد من المساجد القديمة والجميلة التى ذكرها الرّحالة السّابقون، فالخروب التى يخرجها الأتراك قضت عليها ، وكذلك الحال مع أحد الآثار الهامة الحجرية التى تعلوها النقوش الهيروغليفية والتى أشاد بها هؤلاء الرّحالة هو الآخر اختفى ، «وربما يغلب على الظن – كما يقول باديا – أن الإنجليز نقلوه إلى بلادهم»[٣٤].

ينتقل بعدها إلى الأسعار ويقارنها بأسعار تلك البلاد الإفريقية التى زارها ويؤكد على زيادتها فى الاسكندرية عنها، ويُشير إلى بعض أسعار المواد الغذائية بالعُملة التركية مقارنة بما يُعادلها بالعملات الأوروبية.

أما المياه التى تسقى المدينة فتأتى أساسًا من النّيل مع مشاكل تعترض وصولها ، وقد وصف القنوات والمجارى التى توصلها إلى المدينة. كما توقف عند فنار الإسكندرية بالوصف وموقعه والبديل الذى شيّده العرب، ثم يتحدث عن أبواب المدينة، ويقول : «إنه قبل الحملة الفرنسية كان يسمح لمراكب النّصارى بالدخول من الباب الشرقى فقط وهو الأسوأ ، أما الغربى فقد كان مخصصًا لمراكب الأتراك، لكن بعدها أصبحت كلا البابين مفتوحة للجميع»[٣٥].

أما دفاعات المدينة فكانت عادية لكن الفرنسيين شيدوا القلاع والأسوار مؤكداً على أن العرب والأتراك يجهلون فن الحرب ودفاعاته .

ثم يصف نباتات المدينة وحيواناتها ويلفت نظره نوع من الحمير الصغيرة التى تتميز بالسرعة والنشاط والتحمل. كما أن سوق الخيول يضم كل الأنواع والأجناس ولها مواصفاتها الخاصة بها.

أما المدارس فمع تواجدها وتنوعها حسب المذاهب والطوائف فهى تتسم بالشدة واختلاف المناهج والطرق ، لكن يبدو الاهتمام بالتعليم واضحًا ، ومن ينجح فى هذه المدارس يواصل دراساته فى القاهرة، كذلك الكتاتيب فى المساجد الرئيسة تؤدى دورها وقد وصف إحداها فى طريقة تعليمها ونظامها وصفا دقيقا.

كما حضر احتفالا أقيم بمناسبة الإسراء والمعراج فى مسجد المدينة الرئيسى، وأشاد بالحضور والبرنامج والاستعدادات التى حظى بها.

ويتحول إلى بقايا الإسكندرية القديمة، وكيف غمرتها الرمال بسبب الرياح الغربية التى تهب عليها دون توقف ، ويتوقف بالوصف والتحليل لتلك الآثار الباقية التى سلمت من أيادى سكان الإسكندرية ، الذين كانوا يستخدمونها فى بناء منازلهم الجديدة.

ويذكر أن عدداً كبيراً من هذه البقايا الأثرية التى استخرجها الأوربيون من بين الأنقاض، كانت على ضفّة البحر ليشحنها هؤلاء إلى بلادهم، لكن الظروف لم تسمح لهم فظلت مغمورة بالرمال والمياه. ويسهب فى وصف الآثار الباقية كمسلة كيلوباترا وغيرها من تلك المتناثرة على سواحل المدينة وأطرافها ويناقش الروايات المأثورة حول بُناتها وقصة الإسكندر المقدونى ونحوها مما يُروى ويُشاع .

المغارات أو المقابر الملكية أو مدن الأموات كما يسميها، هى هدف الرحالة ومحطّ أنظارهم، ولذا فقد حظيت باهتمام بالغ من قبل باديا، فخصص لها مساحة ليست بالقليلة من الوصف والدراسة. ولم ينس كيلوباترا ولا حماماتها التى ذكرته بمكتبة الإسكندرية الضائعة وقرار الخليفة الذى كان وراء ذلك.

الفصل الثانى:

يعود فى هذا الفصل مرة أخرى لوصف الإسكندرية خاصة جانبها البحرى وما يضمه من أطلال وبقايا أعمدة وتحوها وكذلك مراسيها وآثارها وكُهوفها وعلى مدى أكثر من ثلاث صفحات، كما يتحدث عن شواطئها وموانئها ومصائدها وحركة المدّ والجزر وتأثيرها على هذه الشواطئ، ثم يعرّج على الصّحراء المحيطة بالمدينة ورمالها ونباتاتها وحيواناتها .

يذكر أن مدينة الاسكندرية تضم خليطًا بشريًا من كل الأجناس ، ولذا فهى تتكلم كل اللغات فالأطفال يتحدثون ثلاث أو أربع لغات فى نفس الوقت ، مما يمكن معه القول: «إن الإسكندرية هى أسوأ مكان فى العالم لتعلم اللغة»[٣٦].

يفصل على بك الحديث فى هذه الفصل عن الأجناس والأعراق التى تسكن المدينة فالقبط تعدادهم حوالى الألف ويمارسون التجارة، ومثلهم كذلك اليونانيون الذين يقدرون بأربعين عائلة مستقرة ، لهؤلاء معابدهم ويقيمون طقوسهم الدينية بحرية تامة، كما يوجد أكثر من ثلاثمائة

يهودي مُقيمين بصفة دائمة، لهم معبدان صغيران. أما الأكبر فقد هدمه الأوربيون، وهم يمارسون التجارة والصرافة . كما يوجد خليط من الأوربيين (الفرنجة) يقدّر بأكثر من مائتين ، يمارسون التجارة التي تتأثر بالظروف المحيطة ، والتي كانت سيئة أيام سجن علي بك نظراً لكسادها . ويُشيد بالحرية التي يتمتّع بها هؤلاء رجالاً ونساءً في لباسهم ومعاشهم وعباداتهم وما يُلاقونه من احترام في البلد المُضيف على خلاف ما هو موجود في المغرب.

لم ينس رحالتنا أن يعرّج على المرأة ولباسها وجمالها، ويذكر في هذا الصدد أن المرأة حتى اليهودية والنصرانية تلبس الحجاب كالمسلمة.

من حيث النظافة والعناية بها ، يوجد في الإسكندرية حمامات تركية عامة يؤمها النّاس على مختلف دياناتهم وأجناسهم.

يتحدث عن المهن الحرفية الموجودة بإيجاز وبعدد ما رآه منها، وينتقد الرّحالة الإنجليزي مستر براون في حديثه عن بعض المصنوعات الزّجاجية وأماكن تواجدها[٣٧] ويصوّب ما ورد في حديثه.

وقد لفت نظره احتفال المسلمين بختان أبنائهم، وشرح لنا طريقة هذا الاحتفال . وبهذه المناسبة يتحدّث عن الموسيقى السائدة ويقارنها بالموسيقى التركية ويستعرض معارفه في هذا المجال مسترسلاً في وصف بعض الحفلات والمقاطع الموسيقية .

ثم ينتقل إلى موضوع البريد وكيف يتمّ توزيعه وساعي البريد ومواصفاته ، ثم يتحول فجأة إلى الطقس وأجواء المدينة ثم يتحدث عن موضوع الصّحة ويقول:

«إن الرّمد أو التهاب العين يكادُ أن يكون المرض المستوطن الوحيد في الإقليم»[٣٨] ويعزو ذلك إلى الرّمال النّاعمة التي تحركها الرياح.

يصرح لنا هنا في إحدى الفقرات (ص٢٤٩) أنه وعلى الرغم من أن تاريخ تلك البلاد التي زارها هو هدف لمسار رحلاته، «لكن الموقع الاستراتيجي المتميّز لمصر تلك البلاد التي ليس لها تلك المساحة الشاسعة وتتمتع بنوع من الاستقلال غير المنتظم ، يلفت النّظر بشكل أخص الأمر الذي يدفعني لإعطاء فكرة عن أوضاعها حسب ما أتوصل به من أخبارها منذ رحيل الحملة الفرنسية حتى ساعة رحيلي إلى مكة».

يدخل في ميدان التاريخ والصراع على مصر ويفصل الحديث في تحالف الأتراك مع الإنجليز

لإخراج الفرنسيين والحملات التي اشتركت في هذه العملية وتعدادها وأماكن تركزها. ثم يتحدث عن مصر بعد ذلك والصراع على السلطة والتفرد فيها بين الألبان والمماليك والأرناؤط والأتراك والتي انتهت بتولية محمد علي لحكم مصر[٣٩] وتدخلات الإنجليز بكل هذه الأحداث، وذلك على مدى حوالي ثلاث صفحات.

ويتوقف عند حدث مهم هو تعيين علي باشا حاكما للإسكندرية (ص٢٥٠) من قبل الباب العالي في القسطنطينية، وبناءً على سياسة الشدة مع الخصوم والمعارضين التي اتبعها، وكذلك تقييد حركة القناصل الأجانب، الأمر الذي دفع بهم إلى الاحتجاج الصامت وهو اللجوء إلى أحد البراخر الراسية في الميناء مع عوائلهم عما دفع محمد الباشا إلى فتح باب المفاوضات معهم للعودة إلى منازلهم خوفًا من التتائج ، وهو ما حصل بعد مفاوضات ومطالب خضع لها، وقد بقي هؤلاء القناصل على ظهر السفينة خمسة عشر يومًا.

ويعرّج على قصة المملوكي الألفي وسفره إلى لندن عن طريق مالطة وأسباب هذا الرحيل، حيث يذكر أن الرجل ملّ من مماطلة الإنجليز وعدم تقديره حق قدره فقرر الاتجاه إلى الفرنسيين وفتح علاقات معهم، وكان على وشك السفر إلى باريس لهذا الغرض، لكن الإنجليز تنبهوا للأمر فأمّنوا له فرقاطة لتقله إلى لندن لمناقشة الأمور معه هناك. ويواصل الحديث حول محاولة الإنجليز اللعب في ورقة المماليك بمصر، ويذكر صراع هذا الأخير مع عثمان البرديسي[٤١] الذي أخافته تحركاته فقرر الخلاص منه بالسم أو القتل حال عودته. ويتأوه بأسى «ما أتعس السياسة في آسيا، فهي دائما ملازمة لسلاح السم أو الخنجر!!».

ويسرد لنا قصة الألفي وعلمه بما يخطط له غريمه، وهربه إلى الصحراء وقصته مع الأعرابي، وتداخلات قضيته مع الصراع الإنجليزي العثماني على مصر حتى صفت الأمور لمحمد علي، مؤكدًا أن ما حصل للألفي هو ضربة في الصميم للوجود الإنجليزي في مصر، معها أضاعوا مصالح مهمة جعلت منهم في السابق أسياد التجارة في مصر.

ويشيد بعلاقته المميزة بحاكم الإسكندرية آنذاك قبطان باشا الذي اختصه بالحلويات وأرسل له طبيبه الخاص، ويعزو ذلك لعدم تدخله فيما لايعنيه ، حيث انشغل في اهتماماته الخاصة، وأمضى تسعة عشر يومًا في مخيمه مع أصحابه خارج أسوار الاسكندرية القديمة يستمتع بالبحر ويستخرج نباتاته لأغراض علمية ويعدّ لرحلة لمنظر المدينة العام.

خروج علىّ بك من الاسكندرية:

بعد بحوث ودراسات ومشاهدات متعدّدة قام بها فى الاسكندرية وخارجها طلب من حاكمها القبطان باشا أن يكتب له توصيات لكل من محمد على وآخر لحاكم دمشق وفرمان لشريف مكة ذكر لنا مطلعه ومقاطع متعددة منه يوصيه بعلىّ بك وأنه أحد أتباع ملك المغرب مولاى إسماعيل الذى جاء لأداء فريضة الحج . وقد علق باديا على هذه الرسالة فذكر أنها اخطأت فى اسم السلطان المغربى الذى هو مولاى سليمان وليس اسماعيل كما أنها عدت باديا من خدم هذا الأمير، ومردّ هذا الخطأ هو أن المغاربة هم الذين أرادوا تسهيل أموره بهذا الانتساب كما يدّعى .

خرج على بك تاركًا الإسكندرية متجهًا نحو القاهرة آخذًا طريق النهر (النيل) بعد خمسة أشهر ونصف وذلك فى يوم الخميس ٣٠ من شهر أكتوبر سنة ١٨٠٦م الموافق ١٨ من شعبان سنة ١٢٢١هـ . مودّعًا من قبل بعض أعيان البلد الذين رافقوه مسافة ساعتين. وقد وصف لنا وقائع الرحلة والمركب الذى أقله ، ومشاكل هذه المراكب وكثرة حوادثها، وما رآه من مشاهد عمرانية وحيوانية ومائية ويتغنى بمنظر التقاء النيل بالمتوسط ونهر النيل المحاط بالنخيل وأشجار الأرز والمليء بآلاف الطيور التى تشدو بألحانها العذبة. حتى وصل إلى مدينة رشيد التى وصفها بأنها لاتختلف عن مظهر أية مدينة أوروبية ، ومن عجائب الصّدف أنّ حاكم هذه المدينة يحمل اسم رحالتنا نفسه على باى وهو أغا أرناؤوطيا ومثله أحد وجهاء المدينة الأتراك.

يستمر باديا فى رسم لوحة جميلة مليئة بالصور الحيّة لما لقيه فى رحلته النيلية تلك من حيوانات وطيور وشجر وبشر وقرى ومدن وأحياء مائية أو نباتية على طول الطريق الذى استغرق منه عشرة أيام قضاها ما بين إبحار واسترخاء على ضفتى النهر؛ حتى طرق أبواب قاهرة المعزّ من بوابتها النهرية «بولاق» .

على بك فى القاهرة :

فى يوم الإثنين العاشر من نوفمبر سنة ١٨٠٦م (٢٩ شعبان سنة ١٢٢١هـ) كان وصول على بك إلى القاهرة ودخوله إليها فى حفل مهيب - حسب وصفه- يتقدم هؤلاء المستقبلون صديقه شيخ المغاربة والرجل الثانى فى المدينة حسب تعبيره ونقيب الأشراف وغيرهم، ويحاول على بك أن يقنعنا بأهميته من خلال وصف مظاهر هذا الاستقبال والشخصيات التى رحبت بقدمه ومظاهر التقدير التى لقيها، فقاضى القاهرة عمر مكرم يرسل له أعداداً من الإبل لنقل

حاجياته، بينما نقيب المغاربة الملوى ؟ (Methlui, Medlui) اصطحبه معه إلى بيته وجهز له غرفة فى منزله، واستقبل بعد نزوله عدداً من الزوار من مشائخ ورجالات القاهرة المهمين وكذلك بعض الأمراء المغاربة خاصة الأمير معلمة أخو حاكم المغرب مولاى سليمان الذى إختلف معه على الحكم ودخل فى نزاع انتهى بلجوئه إلى الشرق ما بين مصر والحجاز[٤٢]، والذى حظى باهتمام باديا وتبادل ذكريات المغرب وأحداثه معه .

يتوقف قليلاً لبرسم الصورة السياسية التى تعيشها مصر خاصة القاهرة ، ويُشيد بمحمد على الشاب الذى يتمتع بالحيوية والنشاط عندما زاره بمعية الشيخ عمر مكرم، وكيف وصل إلى الحكم وأنقذ الشعب من معاناته مع المماليك والأتراك ، لكنه مع ذلك لم يعرف كيف يستقل بالبلد وأعطى للوجهاء أو المشائخ مكانة مكنتهم من لعب دور مهم فى إدارة البلد، وعاد الجندى إلى استبداده وطغيانه والشعب إلى معاناته والكبار لم يظلهم شئ من ذلك.

وبعد حديث عن وضع مصر السياسى بين نفوذ الخلافة وعجزها عن فرض سلطتها ، والمماليك فى أعالى مصر، يضرب مثلا بالاسكندرية من خلال موقعها الجغرافى الذى جعل منها مدينة دون هوية لما هى مصرية وليست بالطبع تركية. ثم ينتقل فجأة للحديث عن مسمى مصر والقاهرة.

وينتقد الرّحالة النصارى الذين يصفون المدينة وشوارعها بالقذارة والكآبة ويؤكد عكس ذلك، فالقليل من المدن الأوربية تفوقها بالنظافة.

ثم يستطرد فى وصف المدينة: العدد الكبير من محلاتها التجارية ورشها وكثافة مرتاديها متعددى المشارب مما أضفى البهجة والسرور على رحالتنا ونقله إلى أجواء كبريات المدن الأوروبية، أما مجمع الفرنجة أو الأوروبيين فهو يوحى بالكآبة والعزلة ، يرتدون ملابسهم فى بلادهم التى تزيد من عزلتهم فعندما يخرجون إلى شوارع المدينة يصبحون محط أنظارالناس وجذب فضولهم، يتساءل باديا: هل نضع اللوم على العرب معدومى الحضارة بينما نرى الإنجليزى المتحضر يفعل ما هو أشد من شتم الأجنبى الذى يظهر فى بدلة تزيد أو تنقص عما تعارف عليه بضع سنتيمترات ؟

كان تصميم المنازل والنوافذ وحتى الشوارع فى هذه المدينة مناسبًا جداً لتلطيف درجة الحرارة ، حسب رأى باديا الذى ينتقل بعد ذلك للحديث فى المناخ وأجواء القاهرة مقارنًا إياها ببعض المدن الأوربية . ثم يتحول فى حديثه إلى مساجد المدينة خاصة الأزهر الذى تكمن

عظمته فى سعته أكثر منها فى جمالياته، وقد أفاض فى وصفه مقللاً من قيمة تيجان الأعمدة التى وصفها بالخشونة وسوء الصنعة، بينما يلفت نظره السجاد الفارسى الذى يغطى أرضية المسجد والذى يتم تغييره باستمرار لكن المتسولين يشوهون صورته باتخاذه ملاذاً لهم ومرتداً. ويعرّج على مكانته وأهمية قاصديه من مشائخ وقضاة وطلبة علم وغيرهم، ثم يشير بإيجاز إلى بقية المساجد الكبرى كجامع الحسين والسيدة زينب وجامع السلطان قلاوون الذى كانت تنسج فيه كسوة الكعبة؛ ثم انتقل بالحديث إلى المستشفى العام المجاور للمسجد المذكور وكلاهما يقعان فى حى فقير، يتوقف عند هذا المشفى وكيف كان يعتمد فى نفقاته وإدارته ذات الكفاءة العالية.

يضع لنا باديا بعد ذلك قائمة بأهم الشخصيات الدينية التى كانت على رأس المسئولية حين قدومه، فيبدأ بسيدى عمر المكرم[٤٣] نقيب الأشراف ثم نقيب المغاربة[٤٤]، وبعدها يسرد قائمة بمشائخ القاهرة الكبار ووظيفة كل منهم:

الشيخ الشرقاوى[٤٥]	شيخ الأزهر ورئيس علمائها
الشيخ الأمير[٤٦]	مدير ومستول القضايا المالية بالأزهر
السادات شيخ الوفائية[٤٧]	رئيس النظام أو المؤاخاة (الوفائية)
الشيخ البكرى[٤٨]	رئيس السادة البكرية
المشائخ الأربعة مستشارى القاضى	الشيخ الحنبلى، المالكى، الشافعى، الحنفى

ويقول إنهم ذكروا له عدداً آخر من العلماء أمثال: الشيخ المهدى والشيخ سليمان الفيومى[٤٩] والسيد الدواخلى[٥٠] والسيد عبد الرحمن الجبرتى الفلكى الأول بالبلاد[٥١]، والشيخ العروسى[٥٢] والشيخ الصاوى[٥٣] والسيد المحروقى رئيس التجارة والشخصية ذات التأثير والنفوذ[٥٤]، ومحمود حسن نائب الرئيس الثانى للتجارة.

وبعد أن وضع لنا هذه القائمة بأسماء المشائخ والعلماء وذوى المسؤوليات العالية يصفهم بأنهم استغلوا نفوذهم ومكانتهم وعاشوا فى نعيم بينما الشعب يُعانى من ضنك العيش «ويحيطون أنفسهم بحاشية عريضة ويستقبلون طبقات الشعب الدنيا بالاحتقار» كل هذا يعطى لمصر مظهر جمهورية أرستقراطية مكبلة بالحديد تحت تسلط العسكر»[٥٥].

يتوقف عند الاحتفالات المصاحبة لشهر رمضان واستعدادات الناس وفرحها بهذه المناسبة

سواء فى منازلها أو شوارعها أو أجوائها العامة، فالسكان يسرحون ويمرحون كالمجانين فى الشوارع يوم العيد وفى أيديهم سعفات النخيل الخضراء بينما تتنقل النساء بمجموعاتهن من جانب لآخر، ويعلوا الصراخ والعويل من عدد كبير من هذا الجمع»[٥٦].

ثم يتحول إلى وصف الطبيعة والأهرامات فى الجيزة التى زارها تحت وطأة الخوف من الأعراب ورفقة رجاله المسلحين، يسترسل بالوصف والشرح لهذه المعالم وما أحاط بها من طبيعة، وبدون انطباعاته ومشاهداته ومرئياته حيال ما رآه من عظمة الأهرامات التى شيدتها يد الإنسان. كما يخصص حيزاً غير قليل لوصف بعض المعالم الأثرية والمعابد النصرانية وحى بولاق والجيزة وجزيرة الروضة النيلية، وما كان يعرف بـ «المقياس» ذلك العمود المنتصب لقياس ارتفاع مياه النيل برمتها وقد خصه بتفصيل مفيد ولحسر على عدم العناية به وتخصيص من يقوم بحراسته وعدم الاستفادة منه مع أهميته لمصر فى ظروف الفيضانات، ولم ينس أن يشيد بالفرنسيين الذين أولوه جل اهتمامهم فرمموه وأضافوا له بعض الإضافات. ثم ينتقل إلى القاهرة العتيقة فيتوقف عند منازلها الخربة، يتحول بعدها إلى معبد نصرانى مخصص للقديس سان جورج، وبعد حديث عنه ينتقل إلى معبد الأقباط ويسجل لنا بعضا مما رآه وما سمعه.

وبعد حديث عن بولاق الذى يعتبره أهم أحياء القاهرة، يصف ميناءه وحركة الناس والمراكب، ويتحدث عن التجارة فيه وتأثرها فى مصر من جراء المشاكل المحيطة فى أعلى مصر حيث المماليك وفى الغرب ثورات البربر وتوقف التجارة مع المغرب والجزائر وغيرها، ومشاكل البدو وقطع الطريق فى الشرق (السويس) وسرقة القوافل القادمة من الجزيرة العربية والهند، وحروب الإنجليز التى عطلت التجارة فى البحر المتوسط، وعلى الرغم من ذلك فإن القاهرة تشهد حركة تجارية ضخمة، يمكن معها القول: «إن مصر غنية بمواردها، لكن ماذا لو تحسنت الظروف تحت ظل حكومة راعية»[٥٧].

مغادرة القاهرة:

لم يطل المقام بباديا فى القاهرة على الرغم من أنها تستحق منه وقتًا أطول ووصفًا أدقّ وأشمل، لكن نظراً لانشغاله بأمر الحج الذى اقترب أوانه ولأنه ينوى العودة إليها مرة أخرى، فقد اكتفى بهذه المدة التى لم تزد على الشهر وخمسة أيام، فبعد انتهاء شهر رمضان وبالتحديد فى يوم الاثنين الخامس عشر من ديسمبر سنة ١٨٠٦م الموافق ٥ من شهر شوال سنة

١٢٢١هـ غادر القاهرة متوجهًا إلى جدة سالكًا طريق السويس ثم البحر الأحمر، وقد وصف لنا مشاهد الوداع الذي حظي به من أصدقائه ، كما حظي بزيارات متعددة، بخيمه الذي هيئ فيه استعداداً للرحيل سواء من مسلمين أو من نصارى كان من بينهم القنصل الأول الفرنسي الذي حضر بمعية وفد معتبر .

يصف هذه القافلة الضخمة التي تضم الحجيج المتجهين إلى مكة المكرمة والتي تتكون من خمسة آلاف جمل وما بين مائتين وثلاثمائة فرس، لعلي وحده منها أربعة عشر جملا وفرسين. يوضح لنا نظام تحركها وسيرها وقيادتها ، وكيف تتقدم الطلائع وترقب الطريق، ثم انضمام حجاج السويس إلى نفس القافلة، وخلال ذلك لم ينس أن يذكرنا بالمعالم القليلة التي مرّ بها مع أنها في خاليتها صحاري جرداء خالية من النبات والحياة.

مدينة السويس الصغيرة تضم حوالي خمسمائة مسلم وبضع وثلاثون من النصارى، وتكمن أهميتها في موقعها على البحر الأحمر حيث تعتبر مفتاح مصر في هذه الناحية، وميناؤها سيء وضيق ، لكن الأخر الواقع في جنوبها واسع وجيد. يواصل حديثه عن المدينة في منازلها وشوارعها وطقسها وسوقها ومياهها العذبة النادرة التي تأتيها من الجبال الشرقية، كما يذكر أنها مركز للتجارة وملتقى للتجار، ويحكمها أحد المماليك السود تحت مسمى الأغا وفي معيته ثلاثون جندياً من الأرناؤط. ظل باديا في هذه المدينة يومين فقط ومنها استقل الباخرة المتجهة إلى جدة في يوم الثلاثاء ٢٣ من ديسمبر الموافق ١٣ من شوال سنة ١٢٢١هـ .

عودة علي بك إلى مصر :

بعد زيارته لمكة وجدة وما حولهما وفشل محاولته الوصول إلى المدينة ، قرر رحالتنا العودة إلى مصر وبالتحديد إلى القاهرة التي ترك فيها بعض أغراضه وخدمه، سالكًا طريق البحر الأحمر، وفي رحلة طويلة وشاقة قصّ فيها متاعبه ومشاهدات الطريق [٥٨]، وصل إلى مصر عن طريق سيناء، فحلّ بالسويس ومنها اتجه إلى القاهرة واصفًا بعض المواقع التي مر بها مثل بير سويس وما حولها ومواقع أخرى صغيرة مشابهة وصحاري واسعة عريضة وقاحلة تحت ظروف مناخية قاسية ودرجة حرارة عالية وشحّ في المياه .

وقبل دخوله القاهرة خرج لاستقباله عدد من الأعيان من بينهم عمر مكرم نقيب الأشراف مع عدد من العلماء والوجهاء برافقهم كركبة من المماليك والحشم، كما كان الأمير المغربي مسلمة حاضراً أيضًا ؛ ويتحدث بافتخار بقدوم هؤلاء لاستقباله ومشاركتهم المحتفلين بهذا

القدوم معتقداً أن ذلك وابتهاجا بعودة سيدي علي باي السعيدة»[٥٩] وقد دخلوا القاهرة من باب الفتح في منتصف شهر يونية من سنة ١٨٠٧م الموافق الثامن من ربيع الثاني سنة ١٢٢٢هـ [٦٠]، لكن الأوضاع فيها كانت غير مستقرة بل في حالة استنفار حسب تعبير باديا، نظراً لهجوم الإنجليز على مدينة رشيد ونزولهم في الإسكندرية[٦١]، كما أن القاهرة تحتفظ بعدد من الأسرى الإنجليز[٦٢]. لذا فإن هجومهم المتوقع دفع بصاحبنا إلى مغادرة المدينة بعد تسعة عشر يومًا فقط متجهًا إلى القدس[٦٣]، حيث خرج في صباح يوم الجمعة الثالث من شهر يولية من نفس السنة، دون أن يسجل شيئًا من ذكرياته وملاحظاته هذه المرة، ودون أن يعلل لنا السبب الحقيقي لهذا الخروج المفاجئ مع حفاوة الاستقبال ومظاهر الاحترام والتقدير التي لقيها .

وكعادته عند قدومه أو رحيله كان هناك جمع كبير في وداعه عند خروجه في سفرته هذه إلى القدس فالمشائخ إياهم كانوا برفقته مودعين ، وصديقه الأمير المغربي متشبثًا به يريد ثنيه عن السفر، لكن قراره كان نهائيًا ولم يبق إلا أن يستودعهم الله شاكراً كرم ضيافتهم ومواصلاً رحيله إلى بيت المقدس.

هوامش البحث

١- انظر: Hoskins, European Ipmerialisan in Africa. 1930, p. 22 نقلا عن : شوقي عطا الله الجمل: سياسة مصر في البحر الأحمر القاهرة ١٩٧٤م ص٢٠ ؛ كما أن المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي تناول هذا الموضوع في ثنايا كتابه وبصفحات متعددة ومتفرقة . انظر تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ج٣ ط. دار الجيل بلبنان ، بيروت .

٢- كان أحد التجار الفرنسيين في مصر منذ سنة ١٧٧٧م وانتهى الأمر باختياره قنصلا لفرنسا في القاهرة سنة ١٧٩٣م . انظر : المرجع السابق، ص٢٠ .

٣- انظر: Charles Roux, L, Angleterre, I, sthme de Suez et l,Egypte au 19e siecle 1922, p. 94 نقلا عن : شوقي عطا الله الجمل: سياسة مصر في البحر الأحمر القاهرة ١٩٧٤م ص٢٠ .

٤- يمكن مراجعة كتب كثيرة تناولت هذا الموضوع لعل آخرها ما كتبه أندريه ريمون معتمدا على وثائق فرنسية ومصرية حول هذا الصراع، انظر كتابه: المصريون والفرنسيون في القاهرة ١٧٩٨-١٨٠١م. ترجمة بشير السباعي الناشر. هيئ للدراسات والبحوث القاهرة ٢٠٠١م. ومثله ما كتبته: إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة البريطانيين في القرن التاسع عشر. القاهرة ٢٠٠٣م. وقبلهما كتب مهمة كـ: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس للجبرتي والعطار القاهرة ١٩٩٨م.

٥- أحد أقاليم إسبانيا وأهمها ، يقع في الشمال الشرقي منها، وعاصمته برشلونة، ولسكانه سمات الجدية في العمل والاعتزاز بإقليمهم وما ينتسب إليه ، ولغتهم تختلف عن الاسبانية بالكثير من مفرداتها.

٦- انظر حول سيرته ما كتبه : مراجعة خوليو روماتو : Ali Bey el Abbasi ص ص١١-٢٤ ، مدريد ١٩٥٩م؛ جاكلين بيرن: اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة ندى شلبجي، نشر الفاخرية بالرياض ٤٢ ص ص١٨٤-١٨٦ ؛ بالإضافة إلى مقدمة الرحلة نفسها . انظر Ali Bei ; Barcelona لمجموعة من الباحثين ، برشلونة ١٩٩٦م، روبن بدول : الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة د. عبدالله تصيف ، جامعة الملك سعود ، الرياض ١٩٨٩م، ص ص٢٩-٣٤ .

٧- وذلك في الدراسة الوافية على مقدمة رحلته الحج : التي تعمل على إنجازها قريبا إن شاء الله ، وستقوم دارة الملك عبد العزيز مشكورة بطباعتها .

٨- All Bei: p. 263.8 روبن بدول: الرحالة ص٣٤ . ولايستبعد هنا الرأي لأن الفرنسيين قد انتدبوه في مهمة تتعلق بالهند . خوليو روماتو Ali Bey ص٣٤ .

٩- روبن بدول: الرحالة ص ص٣٢-٣ .

١٠- Ali Bei , p. 251 .

١١- Ali Bei , p. 269 المقدمة : ص١٩ .

١٢- المقدمة : ص١٥ .

١٣- Ali Bei , p. 259 .

١٤- روبن بدول: الرحالة، ص٤٤ .

١٥- جاكلين بيرن : اكتشاف جزيرة العرب ص١٨٥ .

١٦- الرحلة : ص١٩٩ .

١٧- Ali Bei , p. 253 .

١٨- الرحلة : ص٢٧٣ .

١٩- Ali Bei , p. 255 .

٢٠- الرحلة ص١٩٩ .

٢١- نفسه، ص٢٣٥ .

٢٢- نفسه ، ص٢٣٩ .

٢٣- نفسه ، ص ص٢٦٣-٤ .

٢٤- روبن بدول: الرحالة ص٣٤ ؛ Ali Bei ; p. 263 .

٢٥- انظر : ص٢٨ من هذا البحث .

٢٦- Ali Bei ; p. 261 .

٢٧- Ali Bei ; p. 232 : اكتشاف ص١٨٥ .

٢٨- مقدمة الرحلة.

٢٩- انظر: الرحالة ص٣٤ .

٣٠- بيرن : اكتشاف ص١٨٨ .

٣١- انظر: ج١ ص٢٢٩ .

٣٢- انظر ج١ ص٢٣٣ .

٣٣- انظر: ج١ ص٢٣٥ .

٣٤- ج١ ، ص٢٣٦ .

٣٥- ج١ ص٢٢٧ .

٣٦- ج١ ص٢٤٥ .

٣٧- انظر: رحلة براون إلى دارفور ج١ ص١٥ (المؤلف . ترجم عبد الرحمن بدوى لإدوارد براون الذى زار القاهرة ترجمة وافية لكن لاندرى هل هو المقصود هنا . انظر : موسوعة المستشرقين ، ط. بيروت ١٩٨٩م، ص٥١-٥٣ .

٣٨- ج١ ص٢٤٨ .

٣٩- كان ذلك فى ليلة الثلاثا . الثالث من محرم سنة ١٢٢١هـ الموافق لـ ٢٤ / ٣ / ١٨٠٦م حسب الجبرتى فى: تاريخ عجائب الآثار ٣ / ١١١ .

٤٠- أشار الجبرتى إلى صراع هذا الرجل مع رجالات الدولة العثمانية خاصة محمد على على عدة صفحات متعددة انظر مثلاً: فى المصدر السابق ٣ / ١١٢ - ١٢٣ ، وانظر فى هذا المجال: إلهام محمد على ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة البريطانيين فى القرن التاسع عشر، ص١١- ١٣ .

٤١- أفرد له الجبرتى ترجمة وافية . انظر نفس المصدر ٣ / ١٧٣- ١٧٥ .

٤٢- فضل الناصرى (أبو العباس أحمد بن خالد) أخبار هذا الصراع وهجرة مطلعة إلى الشرق، انظر : الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٨ ، ص٨٦-٩٣ .

٤٣- هو السيد عمر أفندى مكرم الأسيوطى. انظر الجبرتى، نفس المصدر ٢٥-٢٥١ ؛ ريمون ، المصريون، ص٣٦ .

٤٤- لم نستطع قراءة الاسم كما ورد فى رسم بادية انظر ص٢٢ من هذا الموضوع .

٤٥- هو الشيخ عبدالله بن حجازى أحد علماء الأزهر المعتبرين، ولى مشيخة الأزهر سنة ١٢٠٨هـ وصنف عدداً من الكتب. انظر أخباره فى: الجبرتى، المصدر السابق ٣ / ١٣٤ ، ١٣٦ ؛ الزركلى: الأعلام ٤ / ٧٨ ؛ ريمون ، المصريون، ص٣٦- ٣٧ .

٤٦- وقد أوردها الجبرتى: الشيخ محمد الأمير وقد كلف بمسئولية الصلح مع المماليك بهينة صحبة معه الشيخ العروسى والدواخلى سنة فى ذى الحجة سنة ١٢٢١هـ / ١٨٠٧م انظر : تاريخ عجائب الآثار ٣ / ١١٣ . وانظر ص٥٧٣ - ٥٧٤ ريمون ، المصريون ٣٨-٣٩ .

٤٧- الجبرتى ذكر أنه : شيخ السادات وهو الناظر والمسئول عن مولد المشهد الحسينى المعتاد . المصدر السابق ٣ / ١٢٧ . وقد ترجم له ترجمة وافية فى نفس الكتاب ٣ / ٩ / ٤٣٨ . وهو محمد أبى الأنوار السادات كان فى هذه الفترة أهم العلماء المؤسسين وذلك بالنظر إلى دوره كرئيس لطريقة الوفائية، كما كان الشيخ السادات والشيخ البكرى يقومان بالتنسيق بين الطرق الصوفية ويتنافسان على تولى منصب نقيب الأشراف، كما أنهما ينظمان موالد مهمة كالمولد النبوى ومولد البكرية ، الحسين . انظر : أندريه ريمون ، المصريون والفرنسيون ص٢٧ ، ٣٣ .

٤٨- هو الشيخ خليل البكرى الذى أشار الجبرتى إلى تقليده نقابة الأشراف سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م واختصه وأسرته بترجمة وافية. انظر : نفس المصدر ٢ / ٢٠٢ ؛ ٣ / ٢٥٠-٢٥٢ ، ٣٨٤-٣٨٥ .

٤٩- كان من ضمن ثلاثة مشائخ أرسلوا للصلح مع الأمراء القبليين ، الجبرتى : نفسه ٣ / ٢٠٧ ، ريمون : المصريون ص٣٩ .

٥٠- الشيخ محمد الدواخلى نقيب الأشراف بعد عمر مكرم . الجبرتى، نفسه ٣ / ٤٨٦ . وانظر سيرته بتفاصيل أوسع، ٣ / ٥٨٨- ٥٩٠ .

٥١- لاندرى هل المقصود عبد الرحمن المؤرخ الذى ترلى كتابة الديوان لنابليون ، كما كان مفتى الحنفية فى عهد محمد على، أم يقصد شخصاً آخر بنفس الاسم. انظر حول ترجمة المؤرخ : خير الدين الزركلى، الاعلام ٣ / ٣٠٤ ط. بيروت ١٩٨٠ . لكن يمكن الجزم بأن المقصود هو المؤرخ حيث أكد دارسوه بأنه أحد المهتمين بهذا العلم والمبرزين فيه. انظر : مقدمة كتاب : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس ، القاهرة ١٩٩٨ م ص١٧ .

٥٢- تولى مشيخة الأزهر فى فترة سابقة.

٥٣- الشيخ مصطفى الصاوى . الجبرتى: المصدر نفسه ٣ / ٥٨٩ . وانظر المزيد حول سيرته فى: أندريه ريمون، المصريون . ص٣٧ .

٥٤- هو محمد بن أحمد المشهور بالمحروقى المغربى، خلف والده بهذه المهنة واشتهر به الخلاعة والجود والكرم انظر ترجمته فى: الجبرتى ، تاريخ عجائب الآثار ج٣ ص٥١-٥٦ .

٥٥- ج١ ص٢٦٥ .

٥٦- ج١ ص٢٦٦ .

٥٧- يمكن ترجمة الجملة أيضا وحكومة وصاية« Un gobierno tutelar» وقد ناقش أندريه ريمون هذه الأزمة الاقتصادية ، وأضاف عوامل أخرى أهمها دخول البضائع الأوربية منافسة للمحلية، انظر : المصريون والفرنسيون فى القاهرة . ص١٧-١٩ .

٥٨- أخبار هذه الرحلة إلى مكة المكرمة ومشاهداته هناك هى قيد النشر من قبل دارة الملك عبد العزيز فى الرياض بعد قمنا بترجمتها والتعليق عليها وإعدادها للنشر كما ذكرنا سابقا .

٥٩- الواقع أن ذلك احتفال تقليدى يُعد بمناسبة مقدم الحجيج كل عام . انظر حول ذلك ما كتبه اللواء ابراهيم رفعت باشا فى : مرآة الحرمين ج١ ص٤٩٣ ك ج٢ ص٢٧١ (حج كقائد لحملة الحج المصرية سنة ١٩٠٣، ١٩٠١ ، ١٩٠٤ ، ١٩٠٨) لم يوضح مكان ولا تاريخ الطباعة . وكذلك الجبرتى ، المصدر السابق، ٣ / ١٣٢ .

٦٠- فعلا بهذا التاريخ وصلت قافلة الحجيج لكن لم يفصل لنا الجبرتى شيئا من أخبارها ولم يشر من

بعيد ولاقريب إلى هذه الرحالة، وكان أمير الركب المصري هو مصطفى جاويش . الجبرتي، نفسه ٣ / ١٨٩، ٢٠٤ .

٦١- أكد الجبرتي هذا الخبر في برمياته وإن كانت متقدمة قليلا على هذا التاريخ . انظر : نفس المصدر ٣ / ١٧٧، ١٧٩ .

٦٢- أكد الجبرتي هذه الحقيقة وأشار إلى مراسلة الإنجليز بهذا الشأن. كما أكد في موقع آخر أن تم إطلاق سراحهم بالثاني عشر أو الحادي عشر من رجب سنة ١٢٢٢هـ الموافق ١٤-١٥- ١٨٠٧م انظر: المصدر نفسه، ٣ / ٢٠٠، ٢١٤ .

٦٣- أورد الخواجا الجبرتي خبراً قد يحلل سفر بادبا إلى الشام خاصة إذا سلمنا بارتباطه بالفرنسيين . يقول فيه (محرم سنة ١٢٢٣هـ) حضر قنصل الفرنساوية إلى مصر وكان بالاسكندرية ، فلما وردت مراكب الإنجليز انتقل إلى رشيد ، فلما بلغه طلوعهم إلى البر حضر إلى مصر وذكر أنه يريد السفر إلى الشام هو وباقي الفرنساوية القاطنين بمصر. لكن القنصل لم يغادر وورد اسمه متواجدا في القاهرة بعد هذا الشهر، فهل كانت مغادرته بعد هذا التاريخ ورافقه بادبا مع بقية الفرنسيين ؟

أهم المصادر والمراجع

- اللواء إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين ج١ (حج كقائد لحملة الحج المصرية سنة ١٩٠٣ ، ١٩٠١، ١٩٠٤، ١٩٠٨) لم يوضح مكان ولاتاريخ الطباعة.
- الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد) : الاستقصا، لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء ١٩٥٦م.
- عبد الرحمن الجبرتي: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ٣ج٣ ط. دار الجيل بلبنان، بيروت .
- مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس للجبرتي والعطار القارة ١٩٩٨م.
- إلهام محمد علي ذهني: مصر في كتابات الرحالة البريطانيين في القرن التاسع عشر، القاهرة ٢٠٠٣م.
- أندريه ريمون: المصريون والفرنسيون في القاهرة ١٧٩٨-١٨٠١م، ترجمة بشير السباعي الناشر، عين للدراسات والبحوث القاهرة ٢٠٠١م.
- عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، ط. بيروت ١٩٨٩م.
- خير الدين الزركلي، الأعلام ٣ / ٣٠٤ ط. بيروت ١٩٨٠ .
- ALI BEY , VIAJES POR MARRUECOS TRIPOLI, GRECIA Y EGIPTO, BARCELONA. 1982 .

لمجموعة من الباحثين . ALI BEI ; BARCELONA. 1996

- شوقي عطا الله الجمل: سياسة مصر في البحر الأحمر ، القاهرة ١٩٧٤م.
- جاكلين بيرن: اكتشاف جزيرة العرب ، ترجمة فتحي قلعجي، نشر الفاخرية بالرياض١٤
- روبن بدولف: الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمة عبدالله نصيف، جامعة الملك سعود الرياض ١٩٨٩م.
- JULIO ROMANO , VIAJES DE ALI BEY EL ABBASI . MADRID , 1951 .

أ.د. حياة ناصر الحجي(*)

تاريخ العالم العربي بين المنهج والموضوع في الكتابات التاريخية المعاصرة

«سلطنة المماليك أنموذجًا»

عند البحث في كيفية وقوع الحوادث التاريخية والظواهر الحضارية يجد الباحث نفسه دائمًا أمام أسباب متنوعة تختلف اختلافًا كبيرًا في كلتا الحالتين. ففي حالة الحوادث التاريخية فإن الأسباب قد تتشابه وقد تختلف إلا أنها في النهاية لابد أن تؤدي إلى فعل واقع، ولابد أن يكون لكل فعل خاصيته الانفرادية، وحتى حينما يظهر للباحث أن بعض الأفعال متشابهة مما قد يتيح فرصة للمقولة الشائعة خطأ أن التاريخ يُعيد نفسه فإن ذلك جزمًا غير صحيح ، حيث لايمكن أن يعيد التاريخ نفسه مهما تشابهت الأسباب، ولكن العامل الذي يعطي فرصة كبيرة لهذه المقولة للطرح والتداول هو الإنسان بخيره وشره إذ أن توفر هاتين الصفتين في الإنسان يعطي مجالاً واسعًا للاعتقاد بتشابه الحوادث وبالتالي إعادة التاريخ لنفسه .

أما فيما يتعلق بالظواهر الحضارية فإن فرصة تشابه أسبابها أكبر وذلك لارتباطها الحتمي بالبيئة والطبيعة ، من ذلك على سبيل المثال المجتمعات الجبلية ، حيث يدعت الإنسان منازله في كهوفها كما ينظم نشاطه الزراعي على منحدراتها الجبلية ، وكذلك الوضع في المجتمعات البحرية التي يتمثل نشاطها الاقتصادي واضحًا في الاستفادة من

* أستاذ التاريخ - جامعة الكويت.

الثروات البحرية صيدا وتجارة ، وبهذا تلعب البيئة دورا كبيرا ومحوريا فى ظهور ظواهر حضارية متشابهة حتما بفعل تشابه دواعيها كذلك من هذا المنطلق يمكن تفسير كيفية قيام المجتمعات الزراعية عند ضفاف الأنهار كما هو الحال فى الحضارة الفرعونية على ضفتى نهر النيل، وحضارة الشرق الأدنى القديم فى بلاد الرافدين ، وحضارة الهنود الحمر أو سكان أمريكا الأصليين على ضفاف نهر المسيسبى .

وإذا أخذ الإنسان كعامل سببى فإن المفاهيم الاعتقادية العميقة لابد أن تكون سببا قويا لظهور حماس إبداعى فى المجالات العقلية والحسية كما هو الحال فى الحماس الدينى الكبير فى إيطاليا الكاثوليكية فى القرن الحادى عشر الميلادى، حيث كان سببا أساسيا ورئيسيا فى ظهور النهضة الإيطالية الرائعة فنيا وأدبيا .

كذلك كان الاعتقاد بالآلهة الطبيعية فى بلاد اليونان قبل ذلك سببا فاعلا فى ظهور الأساطير الفلسفية والملاحم الأدبية، بالإضافة إلى ذلك فإن اعتقاد الإنسان فى مصر الفرعونية بالبعث والخلود كان سببا أساسيا فى ظهور مظاهر الحضارة الخالدة المتمثلة فى الموميات والأهرامات وأبو الهول . وهكذا فإن المعتقدات الإنسانية تلعب دورا فاعلا فى ظهور الظواهر الحضارية وتلاحم نتاجها وهى أكثر مدعاة للتشابه فى سماتها .

ومن المؤكد أن وجود الإنسان كفاعل فى الحوادث التاريخية والظواهر الحضارية يفتح الباب على مصراعيه لعامل التشابه فى حالة المقارنة، إلا أن هذا التشابه لايتجاوز النوازع الإنسانية المعروفة نحو الخير والشر. ومن هذا المنطلق يمكن اعتماد دور العقل فى النشاط الإنسانى المستمر على مر العصور، إلا أن فعالية دور العقل كعامل مؤثر تختلف إيجابا وسلبا باختلاف البيئة؛ ففى البيئة اليونانية قبل الميلاد كان دور العقل مؤثرا إيجابيا بشكل واضح له انعكاساته المدونة فى صفحات الفلسفة والتاريخ بينما يتراجع هذا التأثير العقلى سلبا فى الفترات المظلمة من أوروبا العصور الوسطى تحت وطأة الهجوم البربرى والدمار الاجتماعى. ثم يبدأ بروز نشاط العقل الإنسانى مرة أخرى مع متغيرات القرن السادس عشر الميلادى وحركات الإصلاح الدينى، واكتشاف العالم الجديد أو الأمريكتين. وأعقب ذلك تصاعد فعالية هذا النشاط العقلى استجابة لمؤثرات القومية وتطور التعليم حتى بلغ تقدم الحضارة الإنسانية ذروته مع الاستكشافات الفضائية والتطور التكنولوجى والثورة المعرفية.

وبناء على ذلك فإن نوعية الحادثة التاريخية أو الظاهرة الحضارية ترتبط ارتباطا وثيقا

بالأسباب المهيئة لحدوثها ، وكلما ازدادت تلك الأسباب قوة وتأثيرا اتسعت شمولية نتائجها على المجتمع الإنسانى. وعلى هذا فإنه يمكن القول بأن الحوادث التاريخية والظواهر الحضارية على اختلاف أنواعها وأنماطها ما هى فى حقيقة الأمر إلا نتائج مختلفة لأسباب عديدة ومتنوعة، ومع ذلك يبقى التأكيد على أن الأسباب الرئيسة الفاعلة فى تبلور الحوادث التاريخية والظواهر الحضارية هى: الإنسان والمكان والزمان.

وعند محاولة تقصى الأسباب الأخرى المؤثرة فى هذه المتغيرات الإنسانية يظهر للوهلة الأولى تفاوتها تأثيرا وقوة . ولعل من أكثر الأسباب تأثيراً وتفعيلاً تلك المتعلقة بالدين والعلم لأن كلاهما يتعلق بالعقل ويخاطبه ثم يمتد تأثيرهما لكى يتفاعل مع السلوك الإنسانى الذى هو العنصر المحرك للمجتمع الإنسانى فى درب التنمية والتطور . ثم تأتى بعد ذلك أسباب عديدة أزلية قديمة وحديثة جديدة قد تكون رئيسية ذات تأثير مباشر أو مساندة ذات تأثير غير مباشر، كما يختلف هذان التأثيران المباشر وغير المباشر من حيث القوة والعمق، حيث يظهر للباحثين فى التاريخ والحضارة قوة وعمق تأثير الأسباب الرئيسة وكذلك سطحية وضعف تأثير الأسباب المساندة . ويمكن القول بأن جملة هذه الأسباب الرئيسة والمساندة أو ما يمكن أن يسمى «العصبة السببية» تشكل بتكاملها عنصراً بالغ الأهمية فى المتغيرات التاريخية والحضارية ، وعلى هذا فمهما كانت ضآلة السبب تأثيراً وتغييرا فإنه يمكن أن يشكل مع مجموع الأسباب الأخرى - باختلاف أهميتها وعمق فعاليتها - عاملا محركًا لكثير من الثوابت فى التاريخ والحضارة.

وتظهر أهمية منهج التفاضل والمقارنة فى دراسة الظواهر الحضارية فى التعرف على أسباب التفاضل وقنائه، حيث يمكن التوصل عند ذلك إلى النتيجة المهيئة لذلك التفاضل الفترى الحضارى وهى أن الحضارات التى تتميز بالامتداد الزمنى الخالد هى تلك التى تتعامل إما مع العقل أو مع الإنسان، أو مع المعرفة ، حيث إن هذا الثالوث هو المحور المحرك لجميع عمليات الخلق والإبداع. وفى الحضارات الإنسانية أمثلة كثيرة على ذلك، وحتى فى الحضارات المتأخرة من التاريخ فى العصور الوسطى فإن الذى بقى منها ذلك المتصل بالكتابة والعلم والمعرفة وهو الذى تطور إلى ما يعرف اليوم بالحضارة العالمية المعاصرة.

الوقائع والحوادث:

وبعد السببية تأتى المرحلة الثانية فى حلقة تفاعل الإنسان بالمكان والزمان وهى الوقائع

التى قد تشكل فى كثير من الأحيان أسبابا لمتغيرات أخرى، كما قد تكون نتائجا لعوامل أنفة. ويعتبر الإنسان هو العامل المحورى المحرك لغالبية الحوادث ، وغالبا ما يكون متأثرا بؤثرات خارجية تظهر واضحة فيما يأتيه من أعمال وأفعال . ولعل من المؤثرات القوية المؤثرة فى العقل الإنسانى عبر العصور والتى ظهرت تأثيراتها واضحة فى الحضارات الإنسانية «الدين» الذى كان فاعلاً قويا فى أنماط الحضارة الفرعونية فى مصر، وطاغيا فى عصور الإيمان فى أوروبا العصور الوسطى. وبالمقابل تظهر فاعلية «العلم» كعنصر محرك للحضارة الإنسانية الحديثة . وتزداد تأثيراته مع تفاعله النشيط والسريع مع العقل الإنسانى.

ومن خلال متابعة الإسهامات الإنسانية الحضارية عبر العصور يمكن التأكيد على أن الدين والعلم هما الأكثر فعالية فى تفعيل عقل الإنسان وبالتالى تحديد مسار تحركاته الفاعلة والسلوكية. لقد كان الدين عبر العصور التاريخية وحتى إطلالة العصور الحديثة هو المحور الأساسى لكافة الوقائع التاريخية والإنجازات الحضارية . ثم ظهر العلم فى بدايات العصور الحديثة ليأخذ دفة العمل فى العقل الإنسانى ويزداد فعالية ونشاطا فى العهود المعاصرة مع الثورة المعرفية والتطور التكنولوجى.

وبين عوامل الدين والعلم كانت هناك مؤثرات أخرى لعبت دورا مهما فى العقل الإنسانى مثل «السلطة» حيث يمكن القول أنه بالاطلاع على المؤلفات المختلفة لتاريخ العالم بوجه عام وتاريخ الوطن العربى بوجه خاص عبر العصور أن هناك بعض الظواهر التى أثرت على فكر المؤرخ وانعكست إيجابا على كتاباته ، حيث تدور تلك المؤلفات حول شخصيات الملوك والسلاطين مع الإسهاب فى بيان أعمالهم. ولهذا السبب تزخر المكتبات العالمية بالمخطوطات الخاصة بالسير الذاتية للحكام، بل إن هذا التوجه سيطر على المؤرخات التى اهتمت بتسجيل تواريخ الممالك والإمبراطوريات، حيث ركزت فى سطورها على أفعال أولئك الحكام وأعمالهم مع إهمال غير مقصود لأى ذكر يتعلق بأعمال الشعوب أو مواقفها . ولاشك أن تركيز الضوء على شخصية الحاكم والمقربين إليه من كبار المسئولين ينبع من هيمنة تأثير السلطة على عقل المؤرخ، وبالتالى تنحسر اهتماماته لبيان ماهية الرأى العام ومواقفه . غير أن تأثير السلطة على عقلية المؤرخ بدأت تتراجع تدريجيًا مع إطلالة العصور الحديثة ودعوة كبار الكتاب إلى تحرير العقل الإنسانى من المؤثرات التوجيهية . ولعل كتابة الدستور الأمريكى فى القرن الثامن عشر البلادى أكبر دليل على احترام العقل الإنسانى لدور الشعب وحقوقه . ولقد

انعكست حرية العقل الإنسانى إيجابا على طبيعة الوقائع التى شهدتها أوروبا وأمريكا الشمالية ، بينما عاصر الوطن العربى أحوالا مختلفة أثرت سلبا على ما يمكن أن يطلق عليه حرية العقل العربى.

وشهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين صراعا واضحا بين توجهات العقل العربى بتأثيرات الدين والعلم والسلطة، بحيث يمكن التأكيد على أن العقل العربى يتمتع اليوم بحرية التفكير والتعبير. ومن هذا المنطلق فإن أبعاد التاريخ العربى الإسلامى تدعو الكتاب العرب إلى تناول هذا التاريخ بعيدا عن المحاذير التالية:

- التعصب العنصرى.
- الحماس الطائفى.
- الاندفاع القومى.
- أساليب النفاق والتزلف لحاكم أو نظام.
- المغريات المادية الموجهة .
- المنافع الشخصية الخاصة.
- الرؤية الجانبية الضيقة للموضوع.
- الهيمنة الطاغية للعولمة.

وعلى ذلك فإن تناول تاريخ الوطن العربى عبر العصور لابد أن يكون بموضوعية مطلقة مع الأخذ الكامل ببيان الإيجابيات والسلبيات وفق منهج تحليلى عميق يقوم على التفسير والتعليل ، بحيث يصل القارئ إلى رؤية الوقائع مجردة دون أى تأثيرات أخرى. وهذا الكشف الموضوعى عن حقيقة مجرى الوقائع فى تاريخ الوطن العربى سوف يحقق الرؤية الصادقة لهذا التاريخ من خلال منظور الأجيال القادمة، بل إن الطرح الموضوعى لكل صغيرة وكبيرة فى تاريخ الوطن العربى سوف يحقق احترام الجيل الحديث للعقلية الكاتبة وبالتالى سوف يتخذها أنموذجا فى المسلك والفعل، كما إن ذلك سيحقق دون شك مصداقية التعامل مع الحدث من خلال التثبت من مسبباته بحثا وتقصيا . وتتطلب مصداقية البحث العلمى التعامل مع الحاجة والغاية على أنهما أسباب لحتمية واقعية اقتضتها أحوال بعينها ، كما يجب الأخذ بعين الاعتبار أن الواقع يشكل سببا لتحولات تالية اقتضاها ذلك الحال.

ومن المؤكد أن هذه الرؤية الموضوعية لحوادث التاريخ تتطلب دراسة الظواهر بشكل خاص يستدعي البحث عن أسباب ونتائج كل ظاهرة على حدة، فإذا تم الإلمام بحيثيات تلك الظاهرة وفق منهج علمي صحيح يقوم على التفسير والتحليل تأتي بعد ذلك الخطوة التالية وهي تقييم تلك الظاهرة من خلال الإطار الشامل لتاريخ تلك الحقبة . وبذلك تتحقق دراسة مقتضيات التاريخ الإنساني من خلال إبراز خصوصية كل ظاهرة ضمن دائرة الشمولية للتاريخ الإنساني. وإلحاقا لهذا كله يلاحظ الباحث في التاريخ أن كلا من الحاجة والغاية والواقع أسباب تؤدي إلى بزوغ ظاهرة ذات ملامح محددة تستحق الدراسة والبحث. ولذا يقتضي المنهج العلمي الحديث استخدام كافة وسائل البحث من أجل فهم الحوادث التاريخية والظواهر الحضارية. ومن حتميات تطورات الدراسة التعرف على علاقة لابد وأن تكون موجودة بين السبب والنتيجة، قد تكون علاقة إيجابية وقد تكون سلبية، وفي كلتا الحالتين ينبغي دراستها من أجل فهم طبيعة مجريات الوقائع .

أوكما يمكن التعرف على طبيعة الحدث من خلال دراسة أسبابه ، كذلك يمكن التعرف على أسباب الحدث من خلال دراسة نتائجه، حيث يمكن أن يستدل الباحث على طبيعة تلك الأسباب سواء أكانت طبيعية مثل الزلازل والفيضانات وثورات البراكين، أو قدرية مثل البيئة الاجتماعية، أو اصطناعية من فكر الإنسان مثل التيارات الأيدلوجية وحركات التمرد الجماعي، فكل هذه الأسباب لها نتائج يمكن أن تكشف مباشرة عن نوعية مقوماتها ومراحل التغيير التي تعرضت لها حتى بلغت تلك الصورة التي يتناولها الباحث بالتفسير والتحليل.

وتشكل هذه الصور في مجموعها حقائق تاريخية واقعية هي بصمات ثابتة في مسار البشرية، ويمكن للباحث الذي يتناول هذه الوقائع بالدرس والفحص والتحليل أن يصل إلى نظريات تفسيرية لتلك الوقائع، حيث تكشف عن نوعية العلاقات التي تربط بين تلك الوقائع والمتغيرات المؤثرة فيها والنتائج الناجمة عنها، بل قد تنبئ عن تحولات مستقبلية تترتب عليها. ويتطلب التوصل إلى مثل هذه النظرية التاريخية بذل الجهود من أجل عمل دراسة موضوعية لظاهرة مستقلة في إطارها منفصلة في حلقاتها، حيث يجب تتبع هذه الظاهرة بكافة حيثياتها السببية والمؤثرة ، ثم تقييمها من خلال بيان علاقتها بالواقع الواسع للحوادث في دائرة المنطقة المحددة مكانيا وزمنيا . وبذلك يمكن أن تتحقق فعالية ربط الجزء بالكل وانعكاس الكل على الجزء، ومن ثم تبرز الصورة الواضحة عن الحقيقة من خلال الاستقصاء اللامتناهي

لجزئيات الوقائع ثم النظر المعنن إليها من خلال دائرة الكل كلما تعمق الفهم لطبيعة العلاقات السببية بين الأشياء، وبالتالي الإدراك الكامل لقيمة النتائج الناجمة عنها .

ومع تكثيف الدراسات المنهجية للظواهر التاريخية وفق خطوات التنقيب والتمحيص والتحليل يمكن أن يصل الباحث إلى مثل تلك الصيغ النظرية مع الأخذ بعين الاعتبار أن التباين بين الحوادث التاريخية لن يحول دون التوصل إلى عوامل فاعلة متشابهة طالما أن الإنسان هو المؤثر الأول في جميع الوقائع والظواهر . وقد سبق القول بأن من أبرز الأخطاء الشائعة في حقل الدراسات التاريخية القول إن التاريخ يعيد نفسه في بعض الحوادث ، حيث إن تشابه الحوادث لايعني تطابقها ولكنه الإنسان بخيره وشره في جميع البقاع وفي كل العصور. وبناء على ذلك يمكن التأكيد على أن لكل ظاهرة خصوصيتها من الأسباب والوقائع والنتائج ويبقى الإنسان دائما هو محور التغييرات والتفاعلات في كافة التحولات البشرية.

وعلى ذلك يمكن تلخيص القيمة العلمية للدراسات التاريخية فيما يلي:

أولا: الإدراك التام والوعي الفكري المناسب لوضع القوانين التي تحكم المجتمع الإنساني.

ثانيا: الاستيعاب الكامل للحقائق وبالتالي القدرة على معالجة الأوضاع الجديدة وفق مفاهيم اقتناعية برهنت الحوادث التاريخية جدواها.

ثالثا: النظر إلى الأعمال التاريخية الكبرى كمثل عليا يحتذى بها في مسار السعي لغايات إنسانية جميلة للعالم البشري.

رابعا: تلافي أخطاء الماضي من خلال وضع الدساتير التي تحدد حقوق وواجبات الفرد والدولة من أجل تحقيق الأمان الاجتماعي للكيانات السياسية في العالم.

خامسا: اكتشاف القدرات الهائلة للإنسان ، حيث استطاع تجاوز الأزمات البشرية الضخمة من خلال الاختراعات العلمية التي غيرت في كثير من الأحيان المجتمعات الإنسانية.

وبناء على ذلك كله يمكن القول بأن التاريخ الذي يبدأ بالإنسان ثم يسير عبر فترات من التفاعلات الاجتماعية والتحولات الاقتصادية والمتغيرات البيئية السلبية والإيجابية لابد وأن ينتهي إلى الإنسان. وهذا الواقع يثبت دون جدال علاقة علم التاريخ بالعلوم الأخرى، مثل علم البيئة وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد. بالإضافة إلى ذلك تقتضي مرحلة التوصل إلى القيمة العلمية للدراسات التاريخية دراسة الحدث من خلال الإطار الاجتماعي والبعد التاريخي. كما

يتيفى معاينة الظاهرة من منظور علاقتها المتبادلة بالمجتمع كعامل مؤثر ومتأثر وبالعكس، أي دراسة الجزء من خلال دائرة الكل الاجتماعي والمحيط الشامل وتعقب كافة انعكاسات ذلك الكل على الجزء. وإذا أتم الباحث دراسة الظاهرة أسبابا ودوافعا ونتائجا تمكن من الوصول إلى الحقيقة العلمية التاريخية التي تفسر تفاعل كافة هذه العناصر معا .

عوامل التحول والتغيير:

تتعدد عوامل التحول والتغيير في التاريخ العربي كما تختلف في أهميتها وفاعليتها، بل تتفاوت تأثيراتها في قدرتها على جذب فكر الباحث فما يراه باحث في أهمية عامل بعد ذاته قد لايراه باحث آخر ، وبالتالي لايحظى ذلك العامل بنفس العناية في الدرس والتمحيص . علاوة على ذلك فإن الحقبة الزمنية الطويلة التي مر فيها تاريخ الوطن العربي تعطي فرصة كبيرة لكثرة عوامل التحول والتغيير، بل تهيئ مجالا واسعا لتزايدها الاضطراري مما يجعل تصنيفها عملا شاقا للباحثين ، ولذا يجدر التركيز على تلك العوامل البارزة ذات التأثيرات القطعية والحاسمة في مجريات التغيير في تاريخ الوطن العربي كما يلي:

١- الإسلام:

يعتبر الإسلام من أبرز العوامل المؤثرة في تاريخ الوطن العربي ليس فقط كونه أحدث تغييرا كبيرا وكليا في العقيدة ، بل لأنه وضع الوطن العربي في مسار تاريخي خاص له تأثيراته الواضحة على المجتمع الداخلي والعالم الخارجي. لقد غير الإسلام فكر الإنسان العربي، وبالتالي تغير سلوكه ومن ثم اختلفت علاقاته بالمجتمع . وقد ترتب على هذه العلاقات الجديدة بين الإنسان المسلم والمجتمع العربي الكثير من النتائج الإيجابية التي كانت لها بصماتها الواضحة على التاريخ العربي. لقد تأثر جميع المسلمين بالإسلام كعقيدة، بينما تأثر البعض بالإسلام كفكر وتأثر آخرون بالإسلام كسلوك . وقد نتج عن كل هذا دراسات كثيرة في مناهج الفكر الإسلامي ومسارات السلوك الاجتماعي، ودخل المجتمع الإسلامي في سلسلة ذات حلقات دائرية متصلة من أوجه التغير الاجتماعي، وما تزال هذه ممتدة حتى يومنا هذا.

٢- الفتوحات الإسلامية:

انطلقت الفتوحات الإسلامية نحو البلدان الواقعة شرق وغرب وشمال الجزيرة العربية من

أجل نشر العقيدة الإسلامية ومواجهة السلطات الخارجية الرافضة للتغيير العقائدي الجديد. ومن ثم تراجعت أعداد أصحاب الديانات الأخرى، وبدأت التغييرات الفكرية والسلوكية فعالياتها في الأمصار الإسلامية مما أدى إلى نشاط فكري كبير وتطورات اجتماعية هائلة. بل إن الفتوحات الإسلامية غيرت خريطة الوطن العربي فازداد اتساعا وازدهر بالمدن الإسلامية الجديدة والثغور المزدهرة والطرق النشيطة. كما أضاف اتساع المجتمع الإسلامي مجالا واسعا لنماذج الحضارات المختلفة في أصولها وأنماطها مما أضفى تنوعا حضاريا ظهرت سيماته واضحة على كثير من الصور الاجتماعية التي تضمنها الإطار الشامل للحضارة الإسلامية.

٣- النظم والمؤسسات:

لقد استلزم بناء الدولة الإسلامية الواسعة تنظيم الإدارة الداخلية والعلاقات الخارجية من خلال إرساء قواعد النظم الإدارية وإقامة المؤسسات المختلفة. وقد حققت النظم الإدارية في الدولة الإسلامية هدف الأمان الاجتماعي من خلال اعتماد القواعد القانونية والتقاليد الشرعية، من ذلك على سبيل المثال نظام الحكم وتولية حكام الولايات في الأقاليم الإسلامية المتعددة وغير ذلك . كذلك تأكد مبدأ توزيع المسئوليات من خلال نظام التخصص الذي فرضته الإدارات المختلفة المتمثلة في دواوين الدولة مثل بيت المال وديوان الجيش وديوان الضرائب وديوان الإنشاء وديوان الأيتام وغيرها من الدواوين الكثيرة التي انتشرت في المجتمع الإسلامي فأدت إلى تنظيم العلاقات الداخلية كما حتمت الوفاء بالحقوق والالتزام بالواجبات . بل إن التطور المطرد في الهيكل الداخلي في الدولة الإسلامية اقتضى التجديد في تلك الدواوين فاستحدث عدد من الدواوين لمواكبة مظاهر التغيير والتطور مثل ديوان الميزان الذي أنشئ في الإسكندرية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وهكذا كان النظام الإداري والتنظيم المؤسسي من المؤثرات العميقة في المسيرة التاريخية وفي التطور الحضاري للدولة الإسلامية. وكما كان الدين الإسلامي واللغة العربية من عوامل الانصهار الاجتماعي في الدولة؛ كذلك كان النظام الإداري المؤسسي من عناصر الاستقرار الأمني في المجتمع .

٤- الحروب الصليبية:

تعتبر الحروب الصليبية من أبرز الأخطار الخارجية التي تعرضت لها الدولة الإسلامية ليس فقط كونها مثلت تهديدا كبيرا للبقاع الإسلامية، بل لأنها كانت تحديا عنيفا وسافرا للوجود الإسلامي عقيدة ونظام حكم، ومن هنا كانت عمليات المواجهة العسكرية ضد التغلغل

الصليبي فتحا جديدا للمدن والثغور الإسلامية سجلته المؤلفات المعاصرة والمتأخرة. ومع نجاح حلقات الاسترداد للأقاليم الإسلامية برزت نتائج التفاعلات الاجتماعية والاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، وقد كان لهذه النتائج تأثيرات عميقة المدى على العلاقات الإسلامية - الأوروبية.

٥- الجهاد الإسلامي :

يسجل ظهور الإسلام بدء الجهاد لنصرة الحق، وما كان للدولة الإسلامية أن تنمو وتتسع دون تهديدات خارجية ، الأمر الذي أعطى هدف الجهاد الإسلامي طابعا نبيلا قومته عوامل البقاء والاستقرار والأمن، ولهذا سجل المجاهدون صفحات جميلة في سجلات نصرة الإسلام والمسلمين، بل إن الانتصارات التي أحرزها الأيوبيون والمماليك ضد التتار والصليبيين عامل بناء حضاري مهم في بناء الدولة الإسلامية. وفي الإطار الخارجي الشامل حققت حركة الجهاد الإسلامي الانصهار العرقي التام بين طوائف المسلمين، فالجميع مسلمون والأخوة الإسلامية هي الأطغى على أية روابط أخرى. بل إن هذا الرباط الديني القوي تجاوز كافة الحواجز المادية والنفسية بين الحكام والمحكومين وأوجد بينهم علاقة الانتماء للعقيدة والأرض وهي أساس العطاء المستمر في المجتمع الإسلامي.

٦- الهيمنة الأجنبية:

لقد أحدث انحسار المد السياسي والعسكري لحدود الدولة الإسلامية تقلصا واضحا في رقعتها حتى انحصرت ضمن البقاع الناطقة باللغة العربية، ومع تراجع عوامل روابط العقيدة ومبادئها ضعفت مظاهر التماسك الاجتماعي وتمكنت المصالح الشخصية ، وانحسر الاهتمام بالصالح العام فأصبح الوطن العربي أرضا خصبة للأطماع الأجنبية التي سرعان ما ظهرت في شكل هيمنة عسكرية سافرة شملت غالبية البلاد العربية. ومن ثم عانى الوطن العربي من ويلات السيطرة الأجنبية التي شملت كافة مظاهر الحياة في الوطن العربي . وكان لابد لحركة المقاومة العربية من الظهور من أجل جلاء الاحتلال الشامل في الوطن العربي. وسجل التاريخ العربي صفحات رائعة في ملاحم المقاومة الوطنية في سبيل الحرية، حيث استغرق ذلك أجيالا من النضال السري والتضحية الملتهبة حتى جاءت مراحل استقلال الدول العربية لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الوطن العربي.

٧- الدولة الحديثة:

يعتبر تحرر البلاد العربية من السيطرة الأجنبية بداية الانطلاقة لبناء الدولة الحديثة، وهي المرحلة الأصعب بعد استنزاف الطاقات المادية والبشرية في الأرض العربية. وتأتي صعوبة هذه المرحلة في كونها تتزامن مع تمتع مواطني الدولة المتقدمة بالعيش في مجتمعات ديمقراطية متحضرة ، بالإضافة إلى تقارب المسافات بين المجتمعات العربية والأخرى في أوروبا وأمريكا نتيجة تفوق وسائل الاتصال والتواصل . ومن هنا ظهرت الرغبات العربية تطالب بالحرية والعدالة والمساواة. وإذا كان الكفاح في سبيل الاستقلال صعبًا فإن تحقيق هذه المبادئ السامية عمليًا في البلاد العربية أصعب وذلك نتيجة عوامل التراجع في التعليم والوعي السياسي والاجتماعي. وهذا كله يستدعي العمل الشاق من خلال المؤسسات التعليمية والاجتماعية . ومع تجاوز نقاط البدء في العمل البناء لتحقيق هذه الأهداف تظهر تحديات عالمية أكبر قوة وأشمل مواجهة مثل العولمة وطغيان معالم ومظاهر الحضارة الأجنبية الحديثة . وهذا الوضع الجديد يتطلب العمل المشترك لكافة طوائف المجتمعات العربية وطاقاتها من أجل بناء مجتمع إسلامي الأساس عالمي البناء، مع الحرص على الأخذ من الثقافات الأجنبية ما يتناسب مع مبادئ العقيدة وتقاليد المجتمع العربي. وهذا التكامل الاجتماعي الإسلامي العالمي لا يتأتى إلا بتضافر الجهود البشرية والطاقات المادية تحت مظلة المؤسسات العلمية والاجتماعية الفاعلة إلى مجتمع حضاري متقدم يكفل للمواطن العيش في ظل نظام قادر على تطبيق مبادئ الحرية والعدالة والمساواة.

سلطنة المماليك أنموذجًا :

وبتطبيق هذه المفاهيم على سلطنة المماليك يمكن القول بأن الحضارة الإسلامية التي شهدها مجتمع سلطنة المماليك في مصر والشام انفردت بمميزات خاصة. ولعل السبب في هذا التميز هو الظروف المختلفة التي أحاطت بظهور سلطنة المماليك . ويأتي تأثير الحروب الصليبية التي حمل لهيبها السلاطين المماليك الأوائل راية الجهاد الإسلامي على رأس الأسباب التي أثرت في اكتساب هذه الحضارة طابعًا خاصا . كما أن ظهور الخلافة العباسية التي انهارت بسقوط بغداد سنة ١٢٥٨م تحت أقدام المغول أعطى المماليك صبغة شرعية فريدة. علاوة على ذلك كان لهجرة الجماعات العلمية من المدن العربية والأجنبية إلى مصر أثر كبير في ظهور تأثيرات حضارية مختلفة في بلاد النيل[١].

بالإضافة إلى ذلك يعتبر وجود المماليك في السلطة عنصرا فعالا في ظهور نمط حضاري مختلف، حيث تلقى هؤلاء تدريبا متفوقًا، إضافة إلى تعليم ديني مفصل ومكثف ، مما أدى إلى ظهور طبقة من الفرسان المتعلمين . إلى جانب ذلك كان لنظرة الناس إلى المماليك على أنهم طائفة من الأتراك الأجانب رد فعل إيجابي عند المماليك القابضين على مقاليد السلطة فعمل كل في موقعه ، على تأكيد انتمائهم الديني الإسلامي ، وذلك من خلال العمل على تطبيق مبادئ الشريعة السمحاء قولاً وفعلاً . فغدت المدن المصرية مؤسسات لنشر العلم، وتأهيل العلماء، فذاع صيت مدن ندر ذكرها من قبل مثل «قوص» في مصر العليا التي أصبحت مركزاً تعليميًا مشهوراً[٢] .

كما أسهم رواد هذه الحضارة الإسلامية لأول مرة في تأليف الموسوعات العلمية، مثل «لسان العرب» لابن منظور الذي تعجز المجامع اللغوية المعاصرة أن تنجز مثله ، وكذا الأمر مع «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري الذي لم تستطع المؤسسات العلمية أن تنجز تحقيقه بعد، و«نهاية الأرب» للنويري تلك الموسوعة الفذة التي قل أن نجد لها نظيراً عند أية حضارة من الحضارات السابقة.

وقد حظي عصر سلاطين المماليك بوجود عدد كبير من العلماء والفقهاء والقضاة والباحثين عن العلم والمعرفة ، فتهيأت بذلك أرض خصبة للتفوق الحضاري . وقد نجح سلاطين المماليك في أن يوجدوا رابطة قوية مع تلك الطبقة المثقفة عن طريق إنشاء المؤسسات الدينية والتعليمية، وكما كانت الثروة الطائلة هي الركيزة الاقتصادية التي قام عليها ذلك البناء الثقافي، كان نظام الوقف هو الأساس الذي ضمن لهذا البناء صفة الدوام والاستمرار.

ونتيجة لهذا كله تشعبت الجهات التي كان للأوقاف إسهام في تمويلها والانفاق عليها، ولكي يمكن الإشراف على كافة تلك المجالات الوقفية اجتهدت السلطنة المملوكية في إيجاد جهاز إداري ووظيفي كامل، تمتد تخصصاته لتشمل كافة جزئيات هذا النظام . وقد شارك سلاطين وأمراء دولة المماليك والقضاة والعلماء والفقهاء وأغنياء المجتمع في إنشاء المراكز الدينية والتعليمية والصحية والاجتماعية . وقد نجح سلاطين المماليك من خلال الأوقاف في أن يؤكدوا الصفة الشرعية على حكمهم .

ومن جانب آخر عزز هذا النشاط الوقفي الكبير في سلطنة المماليك الشعبية التي تمتع بها عدد كبير من السلاطين في ذلك العصر، فالأوقاف في الأصل صدقة لمساعدة الفقير واليتيم

والمحتاج ، ومن ثم كان جزء كبير من تلك الأوقاف المملوكية يهدف إلى أعمال البر والخير وإعانة تلك الطبقة الفقيرة ، وبخاصة في المناسبات الدينية . كما ساعد نظام الوقف الحكام المماليك على توفير الرعاية الصحية للشعب بمختلف طبقاته دون تمييز، بل تم إنشاء كليات متخصصة في تدريس الطب، كما اجتهد المقتدرون في وقف سبل الماء في مختلف البلاد طلبًا للأجر والثواب، كما أنشئت الجوامع والمساجد لأهل الدين لممارسة الشعائر الدينية والاستفادة فكريا ومعنويا من الاجتماع بطبقة الفقهاء والمثقفين دينيًا، إلى جانب أن هذه الجوامع والمساجد كانت تؤدي وظيفة المدرسة، حيث يجتمع طلاب العلم بقضاة المذاهب الإسلامية الأربعة.

وكانت الأوقاف هي مصدر الصرف والإنفاق على هذه الجوامع والمساجد، التي كان يبالغ في عمارتها وزخرفتها ، ويعنى عناية كبيرة باختيار من يقوم بالتدريس فيها والقيام على خدمتها، وبخاصة الإشراف على خزانة الكتب التي حواها الكثير من الجوامع.

بالإضافة إلى ذلك وفرت الأوقاف ريعًا وافيًا وثابتًا للمدارس التي أكثر المماليك من إنشائها ، وامتازت بكثرتها وفخامتها وضخامة بنائها مثل المدرسة الناصرية . وقد كانت تلك المدارس ذات فائدة عظيمة للشعب، ووثقت تلك الرابطة التي جمعت بين أصحاب السلطة وطبقة العلماء والمتعلمين.

كذلك كانت الأوقاف هي مصدر الإنفاق على الخانقاوات والأربطة والزوايا ، حيث قدمت هذه المراكز الدينية والتعليمية والتهذيبية في المجتمع المملوكي المنافع الجليلة للشعب بمختلف طبقاته وصفاته. ومن ناحية أخرى كانت هذه المراكز بحد ذاتها جهازاً قائمًا بذاته محققا نوعا من الاكتفاء الذاتي في المعيشة، ونشاطًا حيويًا في مختلف العلوم النظرية والتطبيقية، وعونًا للمحتاجين من مختلف طبقات المجتمع .

ومن المؤكد أن وفرة المصادر المخطوطة التي كتبت في ذلك العصر برهانا حيًا على عمق الاهتمام بالتعليم . إلى جانب بروز أعلام من الفكر والمعرفة ما زالت أفكارهم مصدرا لكثير من الدراسات في العصر الحديث مثل المفكر أحمد بن عبد الحليم بن تيمية.

كذلك تميزت سلطنة المماليك خلال هذه الحقبة بنظام قضائي اختص بتنظيم إداري فريد رتب مراكز التدرج في السلم الوظيفي القضائي ، وطبق مبدأ تكافؤ الفرص تبعًا لمبدأ الاستحقاق والمقدرة ، وجزأ الإدارات وقسمها في كافة النواحي والأقاليم والمدن، وخصص أوقافا مناسبة للعمل العلمي، والخدمات الاجتماعية، والعطاء التعليمي على حد سواء، فكان نظامًا شاملاً

متكاملا ومعطاءً، بل إن النظام القضائي أثناء ذلك العهد انفرد بـ «بروتوكول» خاص بتدر توافره في أغلب العصور الإسلامية السابقة. وازدهرت المدن خلال حقبة حكم المماليك ازدهارا كبيرا مثل القاهرة، والإسكندرية التي وصفها ابن فضل الله العمري بأنها «مدينة جميلة ذات طرق معبدة وفاكهة رخيصة»، وقوص المدينة الأكثر أهمية في مصر العليا ، كما كانت سوقًا مهما للتجار من عدن، إلى جانب دمشق وبيروت وطرابلس في بلاد الشام، حيث نعمت هذه المدن بالرخاء الاقتصادي والاستقرار الإداري[٣].

بالإضافة إلى ذلك حرص أصحاب السلطة على توطيد علاقاتهم بعامة الناس من خلال كثير من الأعمال التي كان لها بالغ الفعالية في تطور الأوضاع الداخلية في المجتمع في ظل الحكم المملوكي .ويأتي على رأس هذه الأعمال دور السلطان في توفير الأمان والحماية والسلامة لعامة الناس، وبخاصة الطبقات الفقيرة ، حيث يجتهد في رفع الظلم عنهم، وتوفير المواد الغذائية الرئيسة في الأسواق على مدار العام بأسعار معقولة. بالإضافة إلى الحرص على النظر في الشكاوى التي يرفعها المظلومون إلى مجلس دار العدل، مع العمل على الحد من تطاول كبار الأمراء المماليك على مصالح الناس وحقوقهم. كما عني سلاطين المماليك بتأسيس المرافق العامة والإنشاءات المهمة لخدمة الري والزراعة والموصلات مثل الجسور والقنوات والسواقي والبحيرات العلبة الصناعية . إلى جانب عناية بعض السلاطين المماليك بالغاء العديد من المكوس والضرائب التي كانت تثقل كاهل الطوائف المسحوقة . كذلك حظيت الطبقة المتوسطة في مصر وبلاد الشام بحرية كبيرة في البيع والشراء في الأسواق المختلفة في المدن والثغور مما كان له بالغ الأثر على تطور أوضاعها المعيشية . فالأوضاع الاقتصادية لهذا المجتمع لعبت دوراً بارزاً في إنعاش كافة مظاهر الحياة، بحيث كان محتمًا أن يتطور المجتمع المملوكي في الفترات التي ازدهرت فيها حياته الاقتصادية بكافة جوانبها وفروعها ، وبخاصة من خلال تلك العلاقات التجارية التي ربطته بدول العالم المعاصر آنذاك. وكان الهدف الرئيس الذي نشط سلاطين المماليك لتحقيقه يكمن في إغراء تجار الشرق على جلب بضائعهم إلى موانئ وثغور مصر والشام، ثم تشجيع تجار أوربا على التردد إلى الأسواق المملوكية لشراء حاصلات الشرق، فحصل التجار الأوروبيون على تسهيلات في كثير من الأمور حتى زادت أعداد من يأتي إلى الأسواق المملوكية منهم بشكل كبير . وكانت دولة المماليك حريصة على جلب الخشب والحديد والبارود من الأسواق الأوروبية ، في حين رغب الأوروبيون في شراء البضائع الشرقية من توابل وكارم وعطور وبخور وحرير وغير ذلك من البضائع الخفيفة الحمل الغالية الثمن .

وتشيد الكتابات التاريخية التي تتناول طبيعة الأحوال الاقتصادية في سلطنة المماليك إبان هذا العهد بالنشاط التجاري الكبير المتبادل بين مملكة أراغون ودولة المماليك وازدياد تنقل التجار بين أسواق المماليك هذه، وازدهار نشاط التبادل التجاري بشكل واسع.

لقد كانت التجارة مصدر ثروة طائلة للأمراء والسلاطين معًا . أما الأهالي فكانوا ينتفعون من دورهم في التجارة كوسيط في المبادلات التجارية، وبما كانوا يتقاضونه من أجور لاشتغالهم في نقل البضائع ، أو استخدام دوابهم، أو تقديم خدمات للتجار في الفنادق وبيع الأطعمة والمشروبات. أما سلاطين المماليك فكانت خزائنهم تفرض بما كانوا يجبونه من التجارة بمختلف البضائع. ويمكن تقدير قيمة ما كان يعود على مصر من الفوائد المادية من التجارة إذا ما علمنا أن البضائع عندما كانت تخرج من الإسكندرية يكون قد بلغ ثمنها ما يقرب من أربعة أمثال ثمنها الأصلي.

وقد أثار هذا البناء الحضاري والتمازج الإنساني اهتمامات الرحالة المسلمين والأوروبيين فقدموا إلى أقاليم ومدن سلطنة المماليك حيث سجلوا الكثير من الآراء والملاحظات . ويمكن الإشارة هنا إلى بعض هذه الآراء، ومنها على سبيل المثال كتابات الرحالة ابن بطوطة عن زيارته إلى القاهرة في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاون (٧٠٩-٧٤١ هـ / ١٣٠٩-١٣٤٠م) حيث ذكر بعض الأعمال التي نفذها الناصر محمد لخدمة الرعية، كما حرص على إبراز تفوق النظام القضائي الذي يعتبر بحق الصفحة البيضاء في تاريخ مصر والشام في ظل حكم المماليك، كذلك أشاد ابن بطوطة بكفاءة علماء العصر البارزين في مصر والشام[٤].

علاوة على ذلك سجل هذا الرحالة المغربي انطباعاته الشخصية عن جمال المدن الشامية مثل مدينة طرابلس في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي عند زيارته لها، حيث يقول : «وهي إحدى قواعد الشام، وبلدانها الضخام، تخترقها الأنهار، وتحفها البساتين والأنهار، ويكتنفها البحر برافقه العميقة، والبر بخيراته المقيمة ، ولها الأسواق العجيبة، والممارح الخصيبة ، والبحر على ميلين فيها ، وهي حديثة البناء، وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر»[٥]. وهكذا توزعت اهتمامات ابن بطوطة بين النظم المتصلة بأمور الرعية وعلمائها وبين جمال المدن الشامية.

ولايقتصر هذا الاهتمام بجمال المدن على ابن بطوطة وحده فقد أعجب الرحالة ناصر خسرو بمدينة طرابلس ووصف المزارع والبساتين التي كانت تحيط بها، وكيف كانت تجود بأفضل أنواع الخضروات[٦].

وبالإضافة إلى ذلك حرص الرحالة الأوروبيون على الإشادة بما شاهدوه في مدن سلطنة المماليك ومن بينهم الرحالة الفرنسي «ميشو» Michaud الذي بين الأهمية الكبيرة لمدينة طرابلس والأنهار التي تجري في أراضيها[٧].

كذلك كتب رحالة آخرون عن جمال طرابلس، وحسن منازلها، وعظمة جوامعها، وازدهار أسواقها، وفخامة خاناتها مع كثرة أعداد سكانها [٨].

وبذلك كان رحالة العالم حينذاك هم المرآة التي يعرف منها الناس نوعية المدن في البقاع المختلفة، ومميزاتها، والأفضلية بينها، واهتمامات سكانها، وقيمتها التاريخية والحضارية.

كذلك من المدن الشامية التي أثارت اهتمامات الرحالة المسلمين مدينة حماة التي كان لها طابعًا حضاريًا جميلاً منفردًا لم يستطع أولئك الرحالة أن يتجاوزوه في كتاباتهم. فيقول عنها ابن بطوطة في رحلته: «إحدى أمهات المدن الشامية الرفيعة، ولها ربض سُمي بالمنصورية أعظم من المدينة، فيه الأسواق الحافلة»[٩].

أما الرحالة ابن جبير فيذكر عن حماة إنها حسنة التنظيم، بديعة التقسيم، ولها جامع كبير، وثلاث مدارس وبيمارستان، كما تضم قلعة كبيرة على أحد جانبيها، كذلك كانت كثيرة الصناعات والتجارات [١٠].

علاوة على ذلك أثارت مدينة حماة اهتمام الرحالة الاصطخري فأشار في كتابه «مسالك الممالك» إلى كثرة الماء والزرع في حماة[١١]. وهكذا كان الرحالة المسلمون يتجولون في أقاليم البلاد الإسلامية فيحسون بمشاعر الانتماء إلى العالم الإسلامي، كما يعيشون واقع الإدراك بالأخوة الإسلامية، وهذا بداية إحساس الإنسان بانتمائه إلى هذا العالم الذي بدأ منذ ذلك الوقت يصغر تدريجيا، وتقترب المسافات، فيشعر الإنسان أينما كان بأنه في بلده وبين أهله ومجتمعه. كما إن التنقل بين الأقطار يعمق الإحساس بالإنسانية، وأهمية تحقيق مبادئ الديانات السماوية في الحرية والعدالة والمساواة، وضرورة العمل الجماعي لما فيه مصلحة البشرية في كل مكان.

ومن اللافت للنظر أن بعض كتابات الرحالة الأوروبيين في سلطنة المماليك تركزت حول الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في الدولة، فالرحالة ماريو اسبوزيتو Mario Esposito ذكر في كتاب رحلته أنه التقى بالقنصل البندقي في الإسكندرية في جمادى الأولى ٧٢٤هـ / نيسان - أبريل ١٣٢٤م أثناء قيامه برحلته إلى مصر[١٢].

كذلك يشير الرحالة برنارد دو بريدنباخ Bernard de Breydenbach ضمن كتاباته عن زيارته إلى مصر في منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي إلى أنه كان في مصر حينذاك حوالي خمسة عشر ألف يهودي يشتغلون في مختلف الحرف وبخاصة التجارة[١٣].

أما الرحالة يوحنا ثيفنود Jean Thenaud فقد اهتم بشرح وضع أهل الذمة في العصر المملوكي، حيث يذكر أنه كان يوجد في مصر أكثر من عشرة آلاف يهودي يعيشون في أحيائهم الخاصة، ولهم كنائسهم وأسواقهم، وكذلك أكثر من عشرة آلاف مسيحي من السريان والأقباط الذين ملكوا عدداً كبيراً من الكنائس[١٤].

كما أشار الرحالة يوحنا ثيفنود في رحلته هذه إلى رهبان دير القديسة كاترين في سيناء، شارحًا بالتفصيل مراحل رحلته إلى جبل سيناء وزيارته لدير القديسة كاترين [١٥].

ومن جانب آخر يذكر الرحالة الاصطخري عن مدينة حمص أنه كان «بها كنيسة بعضها مسجد جامع وبعضها كنيسة وهي من أعظم كنائس الشام»[١٦] وهذا يدل على عمق مشاعر التسامح الديني عند الطوائف المختلفة. كما أنه من المؤكد أن كتابات هؤلاء الرحالة تعد بمثابة شهادات تكشف عن وضع أهل الذمة في المجتمع الإسلامي في ظل حكم المماليك، حيث حظوا بنصيب كبير من الحرية الدينية والعدالة الاجتماعية والأنشطة الاقتصادية.

وهكذا تفاوتت اهتمامات الرحالة وكتاباتهم بين المشاهدات المادية والآراء الشخصية في العديد من الموضوعات التي عنوا بتسجيلها إلى جانب ذلك انفرد هؤلاء الرحالة بالموضوعية بحكم أن الرحالة سواء أكان مسلما أم غير مسلم ليس واحداً من أهل البلاد، ومن ثم كان رأيه فيما يرى، ويشاهد، ويلمس ذاتيًا مجردا ليس وراءه مصلحة أو بغية أو صفينة. وعلى ذلك فإن الباحثين في تاريخ الدول المختلفة عبر العصور يعتمدون بآراء هؤلاء الرحالة ويستندون عليها فيما يدونونه من تصورات في كثير من الموضوعات التاريخية والحضارية.

ولا يعني هذا إطلاقا أن الموضوعية في الرأي كانت هي الصفة السائدة لدى جميع الرحالة فقد كان منهم من تجاوز هذه الموضوعية في آرائه عن أهل البلاد التي زارها، فالرحالة العبدري مثلا تطرف كثيراً في آرائه عن أهل مصر حين زارها في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي حتى يصعب تقبل الكثير من آرائه العامة، ولعل السبب وراء هذا التطرف في الرأي يعود إلى بعض المضايقات التي تعرض لها هذا الرحالة أثناء زيارته لمصر، وربما هو الشعور

القرى لدى العبدرى بالانتماء الإقليمى إلى بلاد المغرب وارتياحه فى معيشته بين أهله ومجتمعه ، ولكن حتى لو أخذ بكل هذه الأسباب فإن التعميم المطلق الشامل فى الرأى حول سلوك الشعوب سواء أكان رأيا حسنا أو سيئا لايمكن الاعتداد به أو الاعتماد عليه[١٧].

ومن ناحية أخرى عنى الحكام فى مختلف البلاد باستقبال هؤلاء الرحالة، وبحسن وفادتهم، والعمل على راحتهم فلايرى الرحالة الضيف إلا ما يسر خاطره ويرضى نفسه فينعكس ذلك على كتاباته وملاحظته عن تلك البلاد ومجتمعها .

وبذلك كان هؤلاء الرحالة بمثابة قوة تسجيلية لايستهان بها فى تلك الأزمنة ، كما تبقى كتاباتهم محط اهتمام الباحثين فى كل زمان ومكان وعند معالجة العديد من الموضوعات الإنسانية.

وهكذا مثلما كانت سلطنة المماليك ذات أهمية تاريخية وحضارية، كذلك استطاعت أن تكون منطقة جذب للرحالة من الشرق والغرب على حد سواء، فحرصوا على التنقل بين أقاليمها ومدنها، والتعبير عن آرائهم فى نظمها وأنماط تطورها، حيث نتج عن كل ذلك مادة علمية قيمة تلقى الضوء على كثير من الحوادث والظواهر التى ميزت هذه الحقبة المهمة من تاريخ الدولة الإسلامية.

الهوامش

١- انظر الخريطة (١) .

٢- انظر الخريطة (٢) .

٣- انظر الخريطة (٣) .

٤- رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، «رحلة ابن بطوطة» ، تحقيق على المنتصر ، ج٢، ص٥٩-٩٢ ، بيروت ١٩٧٥م.

٥- رحلة ابن بطوطة ، ج١، ص٨٣-٨٤ .

٦- ناصر خسرو ، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت، ١٩٧٠م، ص١٣، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٥ .

7- Michaud, Correspondanse D'orient, vol. 7, p. 157 .

8- D'arleux , Voyageurs D'orient, vol. II, "Memoires", p. 166 .

٩- رحلة ابن بطوطة ، ج١ ، ص٨٥ .

١٠- رحلة ابن جبير، ص١٨١ .

١١- الاصطخرى، مسالك الممالك، طبعة ليدن، ١٩٢٧م، ص٦١ .

12- Esposito , Itinerarium Symonis Ab Hyberia Ad Terrum Sanctum, Dublin 1960, p. 75 ..

13- Larrivaz, Les Saints Peregrinations du Bernard de Bredenbach (1483), Cairo, 1904 , p.56 .

14- Jean Thenaud , Le Voyage D'outremer (Egypt, Mont Sinay, Palestine 1512, Paris, 1884, p. 51 .

15- Jean Thenaud, Op. cit., pp. 72-82 .

١٦- الاصطخرى ، مسالك الممالك ، ص٦١ .

١٧- العبدرى، رحلة العبدرى ، تحقيق على إبراهيم كردى، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٩٩م، ص٢٧٦-٢٨٢ .

سلطنة المماليك
في القرن ٨هـ/١٤م
②
البحر المتوسط

سلطنة المماليك
في القرن ٨هـ/١٤م
①
البحر المتوسط

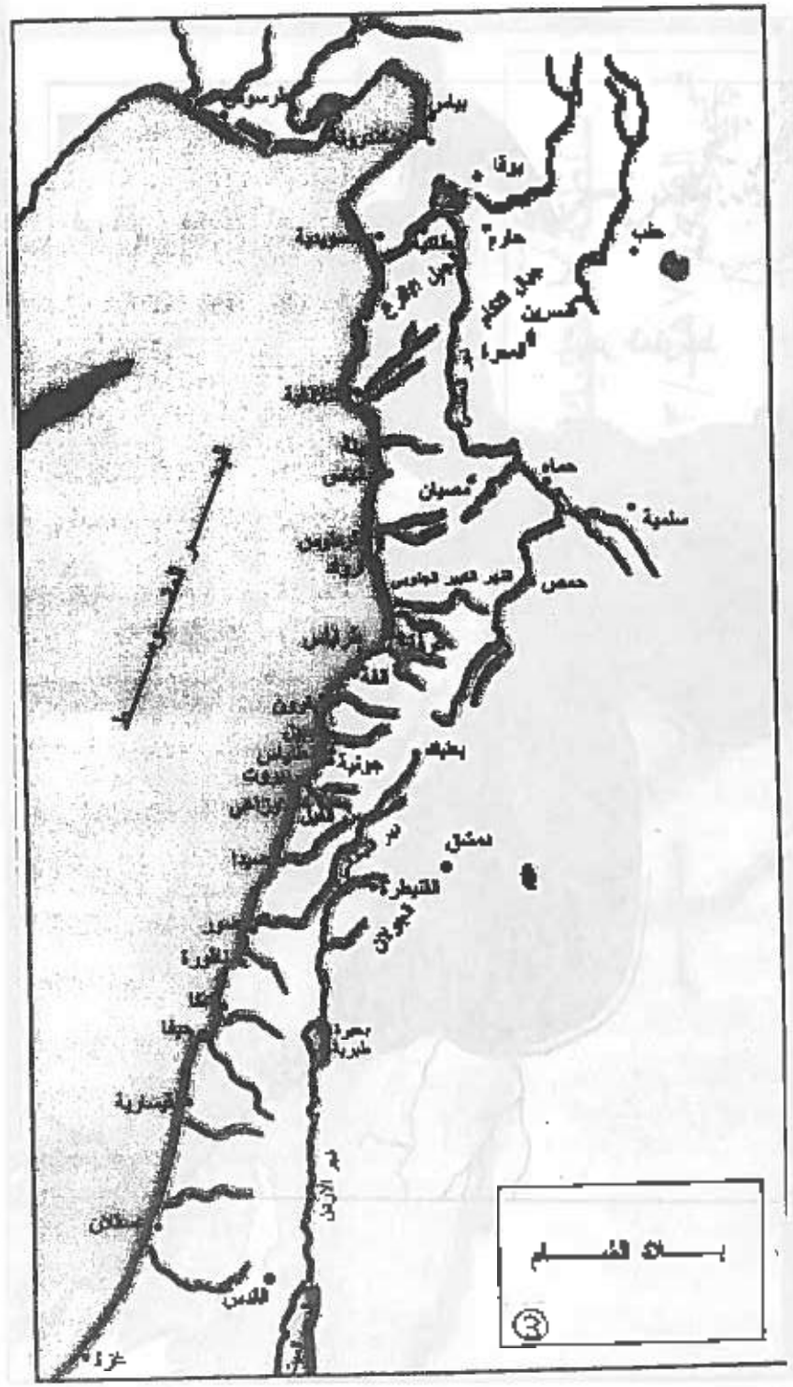

أ.د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم(*)

قراءة فى التراث العربى فى ظل العولمة

مقدمة :

يمكن القول أن للعولمة تاريخًا قديمًا ، وبالتالى فهى ليست نتاج العقود الماضية لقد حاول رونالد روبرتسون فى دراسته تخطيط الوضع الكونى: العولمة باعتبارها المفهوم الرئيسى وكانت نقطة البداية عنده هى:

ظهور الدولة القومية الموجودة على أساس أن هذه النشأة تسجل نقطة تاريخية فاصلة فى تاريخ المجتمعات المعاصرة . وأن ظهور الدولة القومية المتجانسة حوالى منتصف القرن الثامن عشر يمثل بيئة تاريخية فريدة. كما أن شيوع المجتمعات القومية فى القرن العشرين هو فعل من أفعال العولمة، هناك مكونان للعولمة وهما بالإضافة إلى المجتمعات القومية مفهوما– الأفراد والإنسانية. وقد مرت العولمة بأربع مراحل هى باختصار.

المرحلة الأولى: المرحلة الجنينية وبدأت فى أوروبا منذ القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر، حيث ظهرت المجتمعات القومية، ومع ضعف القيود التى كانت سائدة فى العصور الوسطى، كما تعمقت الأفكار الخاصة بالفرد وبالإنسانية، وسادت نظرية العالم، وبدأت الجغرافيا الحديثة وذاع التقويم الجريجورى.

المرحلة الثانية مرحلة النشأة واستمرت منذ منتصف القرن الثامن عشر حتى عام ١٨٧٠م حيث بدأت تظهر مفاهيم خاصة بالعلاقات الدولية بالأفراد باعتبارهم مواطنين لهم أوضاع

---

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر – جامعة القاهرة– معهد البحوث والدراسات الأفريقية.

متنامية في الدولة، وينشأ مفهوم أكثر تحديداً للإنسانية، وزاد إلى حد كبير الاتفاقيات الدولية ونشأت المؤسسات الخاصة بتنظيم العلاقات والاتصالات بين الدول، وبدأ الاهتمام بموضوع القومية والعالمية.

المرحلة الثالثة: وهي التي استمرت من عام ١٨٧٠ وما بعده حتى العشرينيات من القرن العشرين: وظهرت مفاهيم كونية مثل خط التطور الصحيح- والمجتمع القومي المقبول، وظهرت مفاهيم تتعلق بالهويات القومية والفردية وتم إدماج عدد من المجتمعات غير الأوروبية في المجتمع الدولي وحدث التطور في عدد وسرعة الأشكال الكونية للاتصال .

وظهرت المنافسات الكونية مثل الألعاب الأولمبية وجوائز نوبل للسلام، وتم تطبيق فكرة الزمن العالمي، ونشأت الحرب العالمية الأولى وعصبة الأمم.

المرحلة الرابعة: الصراع من أجل الهيمنة واستمرت حتى العشرينيات حتى منتصف التسعينيات وبدأت اختلافات والحروب الفكرية حول المصطلحات الخاصة بعملية العولمة والتي بدأت في مرحلة الانطلاق، ونشأت صراعات كونية حول صور الحياة وأشكالها المختلفة- وتم التركيز- على موضوعات الإنسانية بحكم حوادث الهولوكوست وإلقاء القنبلة الذرية على اليابان وبروز الأمم المتحدة.

المرحلة الخامسة: مرحلة عدم اليقين والتي بدأت منذ التسعينيات وأدت إلى اتجاهات وأزمات في التسعينيات وقد تم إدماج العالم الثالث في المجتمع العالمي، وتصاعد الوعي الكوني في التسعينيات، وحدث هبوط على القمر وشهدت المرحلة نهاية الحرب الباردة وشيوع الأسلحة وزادت المنافسة الكونية لحركات العالمية، ومشكلة تعدد الثقافات، وتعدد السلالات داخل المجتمع نفسه، وصارت المفاهيم الخاصة بالأفراد أكثر تعقيداً من خلال الاعتبارات الخاصة بالجنس والسلالة وظهرت حركة الحقوق المدنية، وأصبح النظام الدولي أكثر سيولة ، وانتهى النظام الثنائي القرمية وزاد الاهتمام بالمجتمع المدني العالمي والمواطنة العالمية، وتم تدعيم الإعلام الكوني.

لقد ظهرت عدة تجليات للعولمة من أبرزها سقوط الشمولية والسلطوية والنزوع إلى الديموقراطية والتعددية السياسية واحترام حقوق الإنسان .

هناك أيضا تجليات اتصالية تبرز أكثر من خلال البث التليفزيوني عن طريق الأقمار الصناعية، وشبكة الانترنت ، هناك أنواع مختلفة لأنماط العولمة وحيث أن النمط السائد هو العولمة المؤمركة فهناك عولمة متغربة حيث تحاول أوربا المقاومة لسيادة النمط الأمريكي.

وفي الوطن العربي ذما زلنا في غمار المنافسات الأيدلوجية الرافضة للعولمة بغير دراسة كافية لقوانينها أو التيارات التي تقبلها بدون أي شرط أو تحفظ.

إن ثورة الاتصالات والمعلومات المعاصرة والاتفاقيات الدولية في السياسة والثقافة والاقتصاد سوف تحول العالم إلى قرية ثقافية واحدة، ولن تستطيع الثقافات التقليدية أن تصنع شيئا أمام هذه الثقافات المسلحة بوسائل وفاعليات قادرة على اختراق الغرف المغلقة والامتناع البعيدة ولاتصدها الحدود أو تقف ضد الحماية في وجهها.

يعيش العالم اليوم في ظل نظام القطب الواحد، والهيمنة الأمريكية، وشيوع ظاهرة العولمة، تلك الظاهرة التي غيرت الكثير من المفاهيم، وحولت العالم إلى قرية صغيرة بعد التقدم التكنولوجي السريع ، وظهور شبكة الإنترنت التي غيرت الكثير من سبل الاتصال ، وقربت المسافات واخترقت الحواجز داخل الدولة الواحدة، بل وأصبحت تتحكم في الكثير من الاتصالات الحديثة، وأبرزت إعلاما جديداً وفكرا إنسانيا يؤمن بأن التغيير هو الثابت الوحيد، وأقامت علاقات اجتماعية جديدة ما بين المؤسسات الثقافية ، وما بين الفئات الاجتماعية وصار الانترنت ساحة للحوار الإنساني يسعى إلى تحقيق السلام في العالم، وخلق مناخ عالمي يسعى إلى إقامة الوفاق والإجماع من خلال قبول الاختلاف، وكسر الحواجز اللغوية ، وطرح المسلمات ، والتخلص من الانحيازات الجنسية واللغوية والعقائدية ، أي خلق بيئة إعلامية عامة تصير نحو شفافية معرفية خالصة.

وأمام هذا التطور التكنولوجي والعولمة، كان على أمتنا العربية أن تواكب هذا التطور ، وأن تسعى بكل ما لديها من إمكانيات إلى إيجاد نموذج عربي يحافظ على هويتها وثقافتها وتراثها وسط هذه الموجة من العداء للإسلام والمسلمين .

العولمة والتراث العربي والإسلامي

أولا: تطور فكرة العولمة:

إن مصطلح العولمة Globalization قد أصبح أكثر شيوعًا في مؤسسات إدارة الأعمال، وفي المؤسسات الصحفية والاقتصادية الأمريكية، وكان يعني بالحركة المعقدة لانتقال السلع وانفتاح الحدود الاقتصادية والليونة التشريعية المشجعة لنشاط الاقتصاد الرأسمالي ليشمل المعمورة بكاملها[١١].

ورغم أن البعض يرجع أصول هذه الظاهرة إلى عصور ظهور الديانات السماوية وأهمها الإسلام الذى شكل ظاهرة عالمية من خلال تأكيده على إشاعة عالمية الدعوة التى لاتفرق بين جنس وآخر ولا بين لون وآخر مع رفض كل عناصر الفرقة والتمييز بين البشر. وإنه من المهم إدراك هذه الحقيقة والتأكيد عليها ذلك أن التقدم التكنولوجى دفع بالدول المتقدمة إلى التطلع والرغبة فى غزو البلدان الأخرى، والسيطرة على تجارتها ومنافذها البرية ، وكانت التجارة الشرقية هى الشغل الشاغل للكشوف البرتغالية التى تمكنت من الدوران حول القارة الأفريقية بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح واستيلاء هنرى الملاح على سبته عام ١٤١٥ [٢].

بعد ذلك ظهرت أسبانيا وهولندا وبسطت سيطرتها على تجارة الشرق وموارده منذ القرن السابع عشر ، وفى القرن التاسع عشر ظهرت القوى العظمى من انجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وبلجيكا ، وبدأت عملية تقسيم العالم الخارجى فى آسيا وأفريقيا ، وطبقت هذه الدول نظم حكم استعمارية ما بين نظام الحكم المباشر وغير المباشر ونظام المحميات ومستعمرات التاج وغيرها من النظم التى سيطرت بها هذه الدول على مناطق مختلفة من القارة الأفريقية - وكانت البلدان العربية قد سقطت تحت سيطرة هذه القوى الذى تحكمت فى ثروات عالمنا العربى حتى الحرب العالمية الأولى التى تركت آثاراً خطيرة على مستقبل المنطقة العربية خاصة بعد هزيمة ألمانيا وخروجها من حلبة الصراع، وظهور الولايات المتحدة التى تقدمت إلى مصاف الدول العظمى، فضلا عن الثورة الروسية والانتكاسات التى حلت بالدولة العثمانية وبلغاريا والنمسا، وكل هذه كانت مقدمات للركود العالمى وتداعياته على العالم فى عام ١٩٢٩م[٣].

وخلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين طرأت أشياء جديدة على ظاهرة العولمة ومنها:

١- انهيار أسوار عالية كانت تحتمى بها أمم ومجتمعات من تيار العولمة ومن ثم اكتساح تيار العولمة مناطق كانت معزولة ، وجاء انسحاب المعسكر الاشتراكى من المنافسة بعد تحطيم سور برلين، وانهيار الاتحاد السوفيتى، وصارت الولايات المتحدة تنهج سياسة رأسمالية هجومية ذات رؤيا إدراكية عليا فى عالم يعانى من أزمة الهوية ، ونظام دولى غير واضح المعالم. وقد بدأت ملامح هذا النظام العالمى الجديد باستعمال القوة العسكرية لردع كل من تخول له نفسه من الدول الكبيرة والصغيرة معارضة الهيمنة الأمريكية العسكرية والاقتصادية.

إن العالم العربى بدأ يتطلع إلى سرعة الأحداث التى عرفتها أوروبا الشرقية وانفراد الولايات المتحدة بسلطة القرار، والتى أدت إلى تهميش المنظمات الدبلوماسية الأوروبية، وقد تجلى هذا فى حرب الخليج الثانية التى أذهلت الجميع[٤].

لقد ظهرت بعد ذلك مطالب الدول النامية ونشوء المجموعة الاقتصادية الأوربية إضافة إلى بروز ألمانيا واليابان ، ثم بلدان آسيا الجنوبية والشرقية لتمنع الرؤيا والسيطرة الأمريكية أحادية الجانب ، الأمر الذى جعل الحديث ينصب على استكشاف فرص بقاء أو زوال النظام العالمى الجديد بوصفه الإطار السياسى لدعوة العولمة[٥].

٢- الزيادة الكبيرة فى تنوع السلع والخدمات التى يتم تبادلها على مستوى العالم، ولم تعد صادرات أى دولة من الدول أقل تحضراً وغناً تنحصر فى مادة أولية واحدة كما كان الحال فى الحقبة الاستعمارية ، بل تعددت هذه الصادرات وتنوعت الواردات.

٣- تبادل المعلومات والأفكار بحيث صارت هى العنصر الغالب مع استمرار تبادل السلع ورؤوس الأموال كعنصر مسيطر على العلاقات الدولية، التى أصبحت فيها الشركات متعددة الجنسيات هى الوسيلة الأكثر فعالية ونشاطا فى تحقيق هذا الانتقال للسلع والمعلومات والأفكار. وكما حلت الدولة محل الإقطاع منذ خمسة قرون، فقد حلت الشركات متعددة الجنسيات محل الدولة ولم تعد حدود الدولة القومية هى حدود السوق الجديدة، بل أصبح العالم كله مجالا للتسوق والتسويق، مع تسويق أفكار ومعلومات جديدة. ولقد أصبحت الشركات المنتجة تقفز فوق أسوار الدولة المنيعة والتى أصبحت من وقت إلى آخر أسوارا شكلية سواء تمثلت فى حوافز جمركية أو حدود ممارسة السياسات النقدية والمالية[٦].

لقد حاولت الاستراتيجية الأمريكية بعد انهيار الاتحاد السوفيتى أن تجعل من المنطقة العربية ساحة الاحتفال بتنصيب نفسها قائدة للنظام العالمى الجديد وعلى أنقاض النظام العربى والاشتراكى بعد أن اختلقت مشكلة بين العراق والكويت وظلت تغذيها حتى انتهت باجتياح الجيش العراقى لدولة الكويت الذى أعطى مبررا لتدميره وتدمير البنية التحتية العراقية وأرجعت شعب العراق إلى العصور الوسطى وتنفست إسرائيل الصعداء بعد أن أزيح كابوس النظام العربى كله وحققت الولايات المتحدة الاستراتيجية من الحرب بتحقيق عدة أهداف منها:

١- حماية المصالح الأمريكية والسيطرة على منابع النفط، وتصديره وممارسة الضغوط على الدول المستوردة له.

٢- إبراز جبروتها وقدراتها في قيادة النظام العالمي الجديد من خلال حشد قوة أكثر من ثلاثين دولة ضمها التحالف الدولي ضد العراق .

- إجراء التجارب على أسلحتها الحديثة التي لم يسبق ظهورها من قبل وفي معركة حية أرادت بها إرهاب الدول القوية المشاركة لها في التحالف قبل غيرها .

٤- تدمير الجيش العراقي وإخراجه من حساب القوة العربية الشاملة تحقيقا للأهداف الصهيونية التي كانت ترى في وجوده القوة التي تشكل خطرا عليها قبل حرب الخليج الثانية.

٥- ضرب النظام العربي وتكريس شرعية الكيان الصهيوني في المنطقة من خلال النظام الإقليمي الشرق أوسطي الذي يعتبر نواة العولمة الأمريكية.

٦- إصدار شهادة الوفاة للنظام العربي من خلال دمجه ضمن دول معادية للعرب وموالية للولايات المتحدة حتى تضمن سيطرتها على المنطقة وإحكام قبضتها على ثرواتها النفطية والنقدية والتي وصلت إلى ٨٠٠ مليار دولار في البنوك الأمريكية .

٧- التحكم في الموقع الاستراتيجي الذي يتمتع به الوطن العربي والسيطرة على مداخل بحار ومحيطات العالم من خلال إحكام سيطرتها على مضيق باب المندب وقناة السويس.

إن الغرب ينظر إلى العرب على أنهم مسلمون وأن الإسلام نفسه وليس المتطرفون هم الذين يشكلون خطرا على الحضارة الغربية ، وتاريخ الإسلام خلال أربعة عشر قرن يؤكد بأنه خطر على كل حضارة واجهها خاصة المسيحية، ويقول صموئيل هينتجتون أنه ما دام الإسلام سيبقى إسلامًا وليس هناك أدنى شك في هذا وما دام الغرب سيبقى غربًا ، ولايتوقع أحد أن يصبح الغرب شرقا سيظل الصراع قائمًا بينهما كما ظل لأربعة عشر قرنا[٧].

إن هذا الكاتب الأمريكي يدعو إلى عدم الاكتفاء بمفهوم الصراع، بل لابد من تحول هذا الصراع إلى مواجهة وذلك للأسباب التالية:

١- الزيادة المستمرة والهائلة في عدد المسلمين في كل أقطار العالم.

٢- الصحوة الإسلامية والتمرد على السيطرة والثقافة القادمة من الغرب.

٣- زيادة النفوذ العسكري والثقافي للدول الغربية.

٤- سقوط الاتحاد السوفيتي ونهاية الشيوعية.

لقد أصبحت الأمة العربية مكشوفة حضاريًا مقتولة معنويًا لاتكاد تجد ما يستر عيوبها ولا ما يرفع معنوياتها في سباق التقدم العلمي والتقني حتى أن مفهوم الإبداع عند الأمة يظل مقصورا في تفكيك الثوابت وتقليد الغرب [٨].

إن الواقع خطير ، في حالة استمرار التخلف العربي في الوقت الذي يركض فيه الآخرون بخطى هائلة على مدارج النمو والتقدم وامتلاك التكنولوجيا التي لايملكها العرب[٩].

إن البلدان العربية عندما تدخل ملعب العولمة فإنها تلعب خلف المرمى وليس أمامه، أما الآخرون فإنهم يلعبون في وسط الملعب بل هناك من يتقدمون إلى الأمام، وأمتنا لاتزال تقلد وتحاكي الغرب، وبالطبع فإن هذا الوضع سوف يؤثر على ثرواتنا ومجتمعاتنا في الفترة القادمة.

والسؤال الآن: كيف تحافظ أمتنا العربية على تراثها وثقافتها العربية وخاصة اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة النبوية.

ثانيا : التراث العربي وتطوره الفكري:

لقد حفظ الله هذه اللغة لأنها لغة القرآن الكريم نزل بها فأعزها وصارت لغة خالدة رغم حقد الحاقدين ، وتآمر كل الذين لايؤمنون بهذا الدين ، ورغم أن المنطقة العربية قد تعرضت للحكم العثماني أكثر من أربعة قرون إلا أن هذا الحكم كان سطحيا، لم يتدخل في حياة الشعوب الإسلامية والعربية، فحافظ هذا على هذه اللغة التي صارت ينبوع الثقافة والفكر، وزاد من قيمة هذه اللغة ودعمها ذلك الدور الكبير الذي يقوم به الأزهر الشريف، وجامع الزيتونة، ومسجد القرويين للحفاظ على هذه اللغة وتطورها ، ولا تزال هذه اللغة مزدهرة وتضارع كافة اللغات العالمية[١٠].

لقد لعب العرب دورًا خاصًا في تاريخ الإسلام وفي بنائه السياسي، وقام الرسول صلى الله عليه وسلم بنشر العقيدة الإسلامية عن طريق اللغة العربية وقام العرب بالفتوحات الإسلامية التي نظمت صفوف القبائل في مجهود واسع مشترك، ولقد توفرت لدى عرب الفتوحات قوة دفع إيجابية لأنهم كانوا يشعرون عن اعتقاد راسخ بأنهم أصحاب رسالة عالمية خصتهم العناية الإلهية بشرف تأديتها ، وأنهم أصحاب دور تاريخي عليهم أن يقوموا به، وكان اعتناقهم بالقيام بهذا الدور التاريخي من العوامل الأساسية التي صبغت المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم العالم العربي بالطابع الحضاري العربي على أثر الفتوحات العربية[١١].

لقد سادت اللغة العربية فى الدواوين والإدارة، وانتشرت اللغة واضمحلت اللغات المحلية فى كل المناطق غربى فارس، وتبلورت فكرة العروبة، واستند العرب إلى رابطة اللغة ووحدة الثقافة والدور التاريخى ولقد أوضح الثعالبى (المتوفى عام ١٠٣٨م) فى كتابه فقه اللغة «ومن أحب الرسول أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التى نزل بها أفضل الكتب ومن هداه الله إلى الاسلام اعتقد أن محمدا رسول الله خير الرسل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات» [١٢].

وطوال عصور التخلف وغزو الدول المختلفة والمنطقة العربية فإن علماء المسلمين مارسوا أدوارهم وحافظوا على ثروات العرب من خلال إصدار الفتاوى والقيام بنشاط ثقافى كبير [١٣].

ولاتنس الدور الذى قامت به الدعوة الوهابية التى طالبت بالعودة إلى الكتاب والسنة كمصدر للتشريع ، فكانت حركة مباركة ساعدت على نشر اللغة العربية والحفاظ على التراث الإسلامى والعربى وتكاتف العلماء بحثا عن كتب السلف الصالح ، فكانت ثورة فكرية حافظت على ثقافتنا القومية، وشاركت هذه الدعوة الإسلامية فى إنشاء الزوايا الصوفية التى صارت ركائز العلم والمعرفة، وحافظت على التراث الإسلامى والعربى [١٤].

لقد تعرضت المنطقة العربية إلى غزو أوروبى تجسد فى الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨، وما تلاه من محاولات للقضاء على التراث العربى والإسلامى ، ورغم أن عمر الحملة كان قصيرا لأنها فجعت فى إطلاع مصر وانفتاحها على الغرب والذى تجسد فى إدخال المطبعة إلى مصر، وكشف رموز حجر رشيد الذى صار بداية النهضة واللغة المصرية القديمة، واحتكاك مصر بالغرب الذى ارتبطت به المنطقة العربية بأسرها [١٥].

لقد أثبتت اللغة العربية جدارتها على مر العصور وشهد تاريخ الفتح الإسلامى على سرعة انتشارها واندماجها فى بيئات لغوية متباينة ولقد نجحت العربية فى عصور الازدهار أن تكون إداة فعالة لنقل المعرفة، حتى قال القائل «عجبت لمن يدعى العلم ويجهل العربية» [١٦].

ومن منظور فقه اللغة ، تتسم اللغة العربية بالعديد من الخصائص الجوهرية التى تؤكد عالميتها ، ومن أهمها التزامها بالقاعدة الذهبية فيما يخص التوسط والتوازن اللغوى، فالعربية تجمع بين كثير من خصائص اللغات الأخرى على مستوى جميع فروعها اللغوية كتابة وأصواتا وصرفا ونحوا.

وفى ظل العولمة وثورة المعلومات تتعرض اللغة العربية أساس التراث العربى لحركة تهميش نشطة، وتشارك العربية معظم لغات العالم، إلا أنها تواجه تحديدات إضافية نتيجة للحملة التى تشنها العولمة ضد الإسلام، وبالتالى ضد العربية، نظرا إلى شدة الارتباط بها [١٧].

تزداد أهمية تعريب العلوم مع تفهم المادة العلمية حيث تساعد اللغة الأم على زيادة معدل الاستيعاب ورسوخ المفاهيم فى ذهن المتعلم هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن اكتساب المتخصصين لمعارفهم بلغات أجنبية دون روابط من اللغة الأم يجعل من الصعوبة بمكان إقامة حوار بينهم وهو الوضع الذى يتناقض فى جوهره مع ما نلحظه من تزايد النزعة نحو تداخل مجالات المعرفة ، وتبادل النهج العلمى وتلاقحها .

ولاشك أن لغتنا العربية هى الدرع الواقى أمام جحافل الغزو الثقافى فى عصر المعلومات ، كما يعد الاحتكاك اللغوى أمورا عديدة من قبيل الترجمة والقواميس الثنائية والمتعددة اللغات واقتراض الألفاظ والرموز اللغوية الأخرى، وتعلم اللغات الأجنبية ، ودراسة أثر الترجمة على اللغات المترجم إليها.

ثالثا : التراث العربى وتحديات الاستعمار الأوروبى:

إن الحضارة الإسلامية كانت تقوم فى بعض جوانبها على الاتصال الإعلامى منذ نزول القرآن الكريم على تفاعل المجتمع الإسلامى مع نفسه، وأوجدت توافقا وانسجاما بين حضارة الأمة الإسلامية ولغتها العربية التى تمكنت عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعى من أن تكون مرنة التعبير واسعة الثروة فى المفردات ، سهلة اللفظ عذبة الأصوات، سهلة النطق، خفيفة الوقع على السمع، تقل فى كلماتها الحروف غير المتحركة ولايكاد يجتمع فى مفرداتها ولا فى تراكيبها مقاطع متنافرة ، ولايلتقى فى ألفاظها ساكنان [١٨].

وعندما نكبت الأمة العربية فى أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين بتلك الموجة من الاستعمار الأوروبى، والنقيد الاستعمارى لم تسلم دولة واحدة من هذا التكالب الاستعمارى الذى حاول فرض هيمنته وسطوته مستغلاً هذا الاحتلال فى محاولات محمومة لفرض الثقافات واللغات الأوروبية ، وشهدت المنطقة العربية أيضا محاولات محمومة لفرض الثقافات الفرنسية، ومحو الثقافات المحلية فيما عرف باسم سياسة الاستعمار Assimila-tion ومشاركة النخبة Elite وهى محاولات كان الهدف والمغزى الأساس منها هو محو الثقافة

العربية الإسلامية، وإدخال اللغة الفرنسية باعتبارها اللغة الأساسية . وإذا كانت هذه السياسة قد نجحت في دول أفريقيا جنوب الصحراء، إلا أنها فشلت في هذا المجال في العالم العربي الذي تسلح باللغة العربية، وباءت كل محاولات فرض الثقافة الفرنسية، ونجحت اللغة العربية في الوقوف بحزم أمام هذه المحاولات الاستعمارية[١٩].

حاولت انجلترا أيضا فرض ثقافتها ولغتها الإنجليزية في مناطق الاستعمار البريطاني ، وطبقت سياسات الانتداب والمحمية ونظام الحكم البريطاني غير المباشر في محاولة لفرض سياستها ، ومحو الثقافات المحلية، لكن بفضل صلابة اللغة العربية نجح العرب في الحفاظ على تراثهم العربي، وفشلت كل القوى الاستعمارية في فرض ثقافتها الأجنبية، وظلت الثقافة العربية والتراث العربي الإسلامي يحتفظ بكيانه في كل الأقطار العربية رغم هذه المحاولات المضنية من جانب القوى الاستعمارية لمحو هذه الثقافة العربية وهذا التراث العربي حتى نالت هذه الشعوب استقلالها ، ورحل المستعمر الأوروبي من المنطقة دون أن ينال من تراثها وحضارتها التي استمرت في الازدهار والنمو والعصر في فترة الحرب الباردة بل وحتى في عصر القطبية الأحادية بزعامة الولايات المتحدة.

ولقد رحبت اللغة العربية بالكثير من الألفاظ الحضارية ، واستغلتها في المصطلحات العلمية، ولغة الكلام لأن اللغة العربية من أغنى اللغات الكبرى تراثا ، وأطولها عمرا ، وأبقاها على الزمان اتصالا [٢٠].

وتعمل وسائل الإعلام الحالي عن وعي على التقريب بين البلاد العربية والإسلامية وذلك بتقويم الألسنة الفصيحة، وجعلها مسايرة للحياة.

لقد حاول رجال الحركة القومية العربية الحفاظ على تراثنا العربي وسط هذه الموجات المتلاحقة حتى جاء القرن العشرون، وظهرت مجموعة من المفكرين الذين أثروا ثقافتنا العربية أمثال رفاعة الطهطاوي الذي أفاد كثيراً في مجالات التعليم والترجمة، وألف كثيراً من الكتب التي خصص فيها فصولا للحديث عن الوطن والمواطنة وحاول في كتابه، تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز ، بعض النظريات السياسية، ومهد الطريق للتخلص من الولاء لسلطان الدولة العثمانية[٢١].

لقد ظهر أيضا من أعلام هذه اليقظة الفكرية رجال حاولوا الحفاظ على تراثنا العربي وثقافتنا الإسلامية أمثال أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤-١٨٨٧) والذي حاول إثبات تفوق

اللغة العربية وكانت مسجلة الجوائب وأول صحيفة عربية ذات شأن مما جعل باي تونس ثم السلطان يطلب الاستعانة به للدفاع عن العرب والعروبة، وظهر أيضا بطرس البستاني (١٨١٩-١٨٨٣) الذي تلقى علوم اللغة العربية ولغات أخرى كما ظهر أيضا نصيف اليازجي (١٨٠٠-١٨٧١) وهو من مشاهير البلاغة في لبنان، وقد حاول هؤلاء الرواد تزعم حركة اليقظة الفكرية ونشر العلوم باللغة العربية ، وازداد عدد العلماء والأدباء ، بل هاجر الكثيرون منهم، واحتضنت مصر نخبة منهم مثل سليم نقلا (١٨٤٩-١٨٩٢) الذي أسس جريدة الأهرام التي كانت ولاتزال حتى اليوم كبرى الجرائد العربية هذا إلى جانب مجموعة من المفكرين العرب أمثال عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩-١٩٠٣) وهو أحد قواد الحركة الفكرية العربية التي حاولت الحفاظ على تراثنا العربي، وحاول في كتابه أم القرى الذي نشره عام ١٩٠٠ تحليل مفاسد الدولة العثمانية وتخلفها ورأى أن يكون العالم الإسلامي تحت لواء الخلافة بشرط أن يكون الخليفة عربيا قرشيا ، وأن يكون مركز، مكة (أم القرى) ودعا إلى إقامة خلافة عربية.

لقد آمن الكواكبي بالعروبة وأيقن بخلود العربية والتراث العربي الإسلامي ، وكان يقول : إن العرب أقدم الأمم إتباعا لأصول تساوي الحقوق، وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية والعرب أعرق الأمم في أصول الشورى في الشئون العمومية، والعرب أهدى الأمم لأصول المعيشة وهم أحرص الأمم على احترام العهود، واحترام الذمة، واحترام الجوار شهامة ، وبذل المعروف مروءة [٢٢].

لقد استمر هذا التراكم الفكري لعلماء ومؤلفين على كافة الأصعدة العربية، وظهرت كتابات عبد الحميد بن باديس وطه حسين ، وخير الدين التونسي، ومحمود عباس العقاد ، وتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ وغيرهم من المفكرين الذين أثروا الثقافة العربية بمؤلفاتهم التي حافظت على التراث العربي الإسلامي. وواصل رواد الفكر العربي دورهم الواضح لمواجهة التحديات التي تواجه أمتنا العربية بعد الحرب العالمية الثانية، والحرب الباردة ثم عصر العولمة والقطبية الأحادية من جانب الولايات المتحدة ، وظهور ثورة المعلومات والتكنولوجيا وأخيرا ظهور شبكة الإنترنت التي حملت معها ما يسمى بإرهاب عصر المعلومات بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ والتي حاولت الولايات المتحدة توسيع تعريف مصطلح الإرهاب ليشمل الإرهاب المعلوماتي على اختلاف صنوفه ودوافعه . وظهر الإرهاب ضد الفرد ، وضد

المؤسسات بل وضد الدول حيث يمكن من خلال هذه الشبكة الدولية النفاذ إلى شبكات التحكم في المرافق العامة مما يتسبب في الشلل التام للبنية التحتية الأساسية ، بل واحتمال تدميرها بالكامل، وصارت الدول معرضة لما نطلق عليه أسلحة التدمير الشامل باستخدام الأسلحة البيولوجية المعلوماتية المتمثلة في جيوش الفيروسات التي تخترق حدود الدول لتشيع الخراب والفوضى في أرجاء البنية المعلوماتية [٢٣].

لقد أنشأت الإنترنت فضاء جديدا ، فضاء المعلومات الذي تسكنه الجماعات وتقام فيه المؤسسات والمتاحف والمعارض ، وتنافذ البيع ، وتمارس فيه الصفقات ، وتعقد التحالفات ، وتحال المؤتمرات وتنقل عبر طرق معلومات فائقة السرعة الثقافة من كتب وموسيقى وأفلام وصور ولوحات .

لقد تزامنت هذه النقلة التقنية النوعية مع نقلة نوعية أخرى في مفهوم الثقافة ودورها، ولقد تضخم هذا المفهوم بعد أن أصبحت الثقافة هي محور عملية التنمية الاجتماعية ، وبعد تحولها من نشاط هامشي يزاوله المثقفون أو يصرفها إلى نشاط رئيس وقاسم مشترك ما بين جميع قطاعات المجتمع دون استثناء ، ولقد ارتقت الثقافة من كونها وسيلة لتحقيق الغايات لتكون هي الغاية ذاتها حيث تحولت الثقافة إلى واحدة من أهم الصناعات الاستراتيجية التي تحكم موازين القوى عالميا [٢٤].

إن الثقافة الجديدة التي أطلق عليها ثقافة الإنترنت قد أحدثت نقلة نوعية حيث أضافت معرفة جديدة ومعايير أخلاقية جديدة، ومؤسسات ثقافية جديدة قادرة على أن تدير صناعة الثقافة بأسلوب يختلف عن إدارة المصانع والمتاجر وهذا فضلا عن إبداع ثقافي جديد يستوعب تقنيات المعلومات والاتصالات الحديثة، مع ظهور إعلام جديد، وفكر إنساني جديد يؤمن بأن التغيير هو الثابت الوحيد باستثناء ثوابت العقيدة ، فكر لا يختزل الواقع حتى يدين لقدراته، بل يقبل الواقع كما هو بتعقيداته واحتمالاته .

إن الإنترنت تقدم لنا علاقات اجتماعية جديدة ما بين المؤسسات الثقافية ، وما بين الفئات الاجتماعية ، وما بين الأفراد بعضهم البعض، وبين ما يشكل ببنتهم الاجتماعية على اتساعها أي علاقات يسودها طابع المرونة، وتضع أولويات تحقيق الأهداف فوق شكلية التنظيمات والبيروقراطيات، أي علاقات لا تصبو دوما نحو إجماع الآراء، تعضد الأقلية ضد هيمنة الأغلبية، وتستأنس المعارضة وتعدد الآراء وتباينها .

إن ثقافة الإنترنت قد نشأت في رحم المؤسسة العسكرية الأمريكية في ظل الحرب الباردة للرقابة ضد هجوم ذري مفاجئ يشنه عليها الاتحاد السوفيتي وها هي الآن تحولت إلى ساحة للحوار الإنساني بزعم البعض أنها ستؤدي إلى ثقافة السلام وإلى خلق مناخ عالمي يسعى إلى إشاعة الوفاق والإجماع من خلال قبول الاختلاف وكسر الحواجز اللغوية، وطرح المسلمات ، والتخلص من انحيازات الجنس واللون والعقيدة، وبعبارة أخرى خلق بيئة إعلامية عامة تصبو نحو شفافية معرفية خالصة يهتدي فيها الجميع إلى الأصدق والأفضل والأمثل والأعمق من خلال الترشيح المستمر والتهذيب المتنامي للأفكار والنظريات والتآلف بين وجهات النظر المتباينة وذلك من خلال توحيد المفاهيم ومعرفة الخلفيات ، وتبادل المواقع والأدوار .

رابعا : طرق مواكبة التطور المعلوماتي والثقافي:

لقد تعقدت إشكالية الثقافة ، وتعاظمت أهميتها إزاء كم المتغيرات الحادة التي تشهدها الساحة الثقافة والناجمة عن سلسلة التفاعلات النوعية التي أحدثتها وتحدثها ثقافة المعلومات. أما بالنسبة للثقافة العربية فالأمر أكثر صعوبة نتيجة للأوضاع الخاصة التي تمر بها معظم مجتمعاتنا العربية والتي حاصرتها الثقافة في حيز المناطق الملتهبة أو المناطق المحرمة.

إن منظري الثقافة العربية يواجهون مرقفا عسيرا للغاية علاوة على كونه مستجدا وغير مسبوق في معظم جوانبه ، وهو الأمر الذي يوجب تجديد العدة المعرفية من أجل أن يصبح واقعنا الثقافي أكثر واقعية وشمولا وتأصيلا وتجاوبا مع الواقع الراهن ، وأكثر قدرة على وصل ماضيه بحاضره فكرا ومنهجا لافرضا وقسرا [٢٥].

إن العرب مطالبون في هذه الأيام الحفاظ على تراثهم وثقافتهم العربية، ومواجهة التحديات التي تحاول طمس الهوية العربية والإعلام العربي وذلك من خلال العديد من الإجراءات التي تكفل تضامن ، وتحافظ على هويتنا، وأن نبتعد عن الخلافات الأيديولوجية والتركيز على ما يخدم الإعلام والثقافة كرسالة مقدسة مع تحرير كل وسائل إعلامنا وثقافتنا وتراثنا من التبعية لإحدى الدول الكبرى ولن يتحقق ذلك إلا بعد القيام بما يلي:

١- الاعتماد على النفس: والحفاظ على الهوية العربية، والخصوصيات التراثية في كل الأقطار العربية، وأن تقوم مراكز تحقيق التراث بعقد الندوات والمؤتمرات العلمية العربية التي تناقش كل القضايا التي تواجهها للحفاظ على هذا التراث العربي، وأن تجهز المعارض

والمتاحف العربية التي تجسد التراث العربي في كل البلدان، وأن يتم التنسيق بين كافة الأجهزة من أجل الحفاظ على تراثنا العربي والإسلامي.

٢- ضرورة مواجهة وسائل الاتصال الجماهيرية كالتليفزيون باعتباره أحدث وسيلة من وسائل الاتصال ، وأنه لابد من البحث عن مستقبل أمتنا العربية، وكيفية مواجهة الشر، وحماية ثقافتنا وتراثنا الفكري، وتقاليدنا العريقة، وعلى العرب وضع استراتيجية لبرامج تكون أكثر حيوية وجاذبية للمستمع العربي دون الانحطاط بالمستوى الذي يريده الجمهور، ويؤثر على أخلاقياته . إن إعلامنا العربي لايمكن أن ينبع إلا من واقعنا فيأخذ مأخذ الاعتبار لقضيتنا الداخلية التي لاسبيل إلى أفكارها، ويتجه إلى آفاق عديدة لخدمة التضامن العربي، والتركيز على كل ما يقرب ويوحد، ويبلد ما يفرق ويباعد ، والتمسك بالواقعية والعراقة في إبداء الرأي، والالتزام بما أجمعت عليه الكلمة، وكل هذا يتطلب استعداداً نفسياً وسمواً في السلوك، واحتراما للمبادئ والقيم العربية[٢٦].

٣- إن التقدم التكنولوجي الضخم في مجال الأقمار الصناعية والذي تتحكم فيه الدول الكبرى سيقلب الموازين رأسًا على عقب ، ويهيئ الفرصة أكثر من أي وقت مضى لتحكم الدول الكبرى في مصير الدول الصغيرة ومنها دولنا العربية، وأنه أمام هذه الثورة التكنولوجية السريعة أن يقوم العرب بثورة أخرى في أعداد ما تقدمه من برامج تستهدف الارتقاء بمستوى الإنتاج بحيث يواكب أعلى نوع من هذا الإنتاج في العالم، مع زيادة حجم المنتج وتنوعه بحيث يتوافق مع رغبات جميع شرائح المجتمع دون استثناء [٢٧].

٤- إن القدرة والمواجهة الحقيقية للغزو الثقافي والفكري والاجتماعي والسياسي يتمثل في قدرة أجهزة الإعلام والدعاية العربية على تقديم الأعمال الجيدة التي تبرز تراثنا العربي عبر العصور، وتضمن هذا التراث وتجسده في شكل أفلام ومسلسلات تطرح الأفكار الجديدة التي تناقش واقعنا التراثي وسلبياته، وطرق الحفاظ عليه وعرضه بشكل راق بين كافة الأجهزة الإعلامية وأن تكون برامجنا قادرة على استيعاب ثقافة العولمة والإنترنت مع استبعاد كل ما يخالف تقاليدنا وعاداتنا وتراثنا العربي الأصيل.

٥- رصد الاعتمادات الكافية للنهوض بكل وسائل الاتصال وأجهزتها حتى تكون قادرة على مواجهة ما يبث من خلال الفضاء لأغراض الإعلام الموجهة لإثارة الفتن والقلاقل بين الجماهير وعلى الدول العربية الدعوة لمنع أي بث إلى أي بلد آخر إذا لم توافق عليه الدولة

المستقبلة وفي نفس الوقت تطالب الدول العربية لأن يكون لها فضاء لإطلاق أقمارها الصناعية حتى تستطيع مواكبة الدولة الكبرى التي تحتكر الفضائيات الخارجية بما لديها من إمكانيات، وتطور تكنولوجي ضخم وكان لإطلاق القمر العربي الصناعي عرب سات، مردود فعل إيجابي على منطقتنا العربية لأنه يستطيع أن يبث البرامج التي تدعو للتعريف بتراثنا وحضارتنا إن هذه الأقمار الصناعية العربية هي السبيل الوحيد لتلافي تلقي المآثر الأوروبية جميعها غثها وسمينها مع تعظيم مكانة تراثنا وثقافتنا العربية.

٦- إن العالم العربي يواجه الكثير من المشكلات والتحديات ، ويتطلب الأمر إعلاما قويا يسعى إلى تحقيق أهداف أمتنا وذلك من خلال بعض الوسائل ومنها:

أ- القضاء على الأمية ، وغرس الشعور بالواجب ، واحترام حقوق الإنسان في وطننا مع تعميق مفهوم الديمقراطية، واحترام ما نصت عليه المواثيق الدولية والمحلية في مجال التفكير والتعبير لكل أبناء الأمة دون تمييز مع تشجيع وسائل الاتصال الشخصي وذلك حرصا على تصحيح الاتجاهات الخاطئة السائدة [٢٨]. والأمر الذي يثير الدهشة أن بلغت نسبة الأمية في منتصف التسعينيات في الوطن العربي ما يقدر بنحو ٤٥-٥٠٪ من بين البالغين ، وتزايد هذا العدد حتى أنه يقدر عدد الأميين في عام ٢٠٠٠ بحوالي سبعين مليون أمي أغلبهم من النساء[٢٩].

ب- أن تقوم وسائل الإعلام بغرس صورة عن القيم والسلوكيات التي تتفق مع تطلعات الأمة العربية في حماية الحرية وصون العدالة، وتشجيع وسائل الاتصال الشخصي، وذلك حرصا على تصحيح الاتجاهات الخاطئة، وتعميق مفهوم الحفاظ على التراث والقيم الاجتماعية العربية[٣٠].

ج- بناء نموذج اتصالي يقوم على المشاركة وذلك بالعمل على تحقيق ديمقراطية الاتصال وتجنب النموذج الرأسي في الاتصال سواء على المستوى المحلي أو الدولي والتأكيد على السمو بالمبادئ العامة، والقيم العربية والتي تترجم في برامج علمية هدفها التعريف بالحضارة العربية، والتراث العربي عبر العصور.

٧- إن الإعلام العربي يجب أن يضع في اعتباره ضرورة تنمية الثقافة العربية في صورة جماعية والاعتماد على اللغة العربية التي هي لسان ثقافة الأمة وهويتها التاريخية وأساس مناعتها ومخزون تراثنا عبر العصور أنه لابد من خطة قومية متماسكة لخدمة اللغة العربية،

ولقد أثبتت الأبحاث والدراسات التي قامت بها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم أن وحدتنا اللغوية لاتقوم إلا على ٧٪ تقريبا من مجموع الكلمات العربية التي نستعملها بينما نحن مختلفون بنسبة ٩٣٪ من المادة اللغوية إذ تشكل اللهجات الدارجة الجانب الأعظم من لغة الحوار في برامج الإذاعة والتليفزيون والمسرح [٣١].

٨- إن التحديات التي تواجه أمتنا العربية تتمثل كما ذكرنا في مظاهر أساسية لابد من معالجتها في أول ما نقوم به، إن السوق العربية تعد من أكبر الأسواق العالمية في المجال التقني، ولذا أوجب السعي نحو استخدامها كعامل أساسي لخلق قدرات تقنيه عربية في نطاق العلاقات العربية الاقتصادية والثقافية والتراثية ، ويجب البحث عن حلول لمشاكلنا الخاصة ، ومد جسور التعاون الاقتصادي بيننا، وأنه لا بد للمؤسسات التنموية العربية وضع استراتيجية إعلامية تهدف إلى توضيح أثر المساعدات المبذولة من الجانب العربي، وإبراز أهمية مساهمات الدول النفطية للنهوض والمساعدة في الحفاظ على التراث العربي وآثار أمتنا والتي تحكي تاريخنا الطويل وتقاليدنا الأصلية، ونضالنا عبر قرون للتخلص من التبعية والغزو الأجنبي سواء كان في جانبه العسكري أو التقني .

لقد صدق الأستاذ إبراهيم نافع رئيس تحرير الأهرام في عموده «حقائق» حيث قال بأن العرب يتعرضون لمخاطر متعددة الأطراف ، ولم تعد هناك دولة صغيرة أو كبيرة بعيدة عن دائرة هذا الخطر، نتيجة لانحراف المزاج السياسي لبعض القوى المهيمنة على مقدرات عالم اليوم، والعرب ليسوا في حاجة إلى ترك الخلاف في وجهات النظر إذا أخذنا في اعتبارنا أن الخلافات الصحيحة جزء من عملية الحوار السياسي [٣٢].

الخاتمة

بعد هذا العرض السريع لطبيعة منطقتنا العربية وتراثها الثقافي والحضاري، وقيمها وتقاليدها التي ترسخت عبر قرون من الزمان ، وبعد أن استعرضنا التحديات التي تواجهها منذ فجر التاريخ والقوى الأجنبية التي احتلت بلادنا ، وحاولت طمس هويتنا وثقافتنا ، وبعد أن تحدثنا عن لغتنا العربية التي هي مخزون تراثنا ، ومحاولات النيل منها في عصور التاريخ المختلفة وخاصة في القرن العشرين والقرن الحالي، وبعد أن تحدثنا عن التحديات التي تواجهنا في ظل العولمة والسيادة القطبية للولايات المتحدة التي أعادت للمنطقة عصور الاستعمار العسكري بغزو العراق، وتحطيم البنية الأساسية به وبعد تدمير جانب كبير من تراث العراق الإسلامي والعربي، وبعد أن أخذت تعربد في المنطقة وهي تؤيد دولة إسرائيل التي تفتك يوميا بأبناء هذه الأمة في فلسطين، وتدمر المقدسات ، وتأتي على الأخضر واليابس، وتنتهك ، حرمات إخوة مسلمين عرب في فلسطين وإذا كان العراق قد أصبح قضية جديدة بعد فلسطين فإننا الآن في حاجة إلى إدراك المخاطر قبل وقوعها لأن التهديد للعرب يحدث كل يوم، وهو الأمر الذي يدعوا الزعماء العرب إلى إدراك هذا الخطر وهم مقدمون على قمة عربية في تونس الشقيق في شهر مارس ٢٠٠٤، وعليهم إدراك المسئولية وتحمل عبء هذه المرحلة التي تجتاح لأمتنا كل ما يسعى لتدمير حضارتها ، والقضاء على تراثها العربي العريق .

إن على العرب ألا يكونوا متفرجين في ظل الخضم المتسارع كما كان الحال في الماضي، فالأمر مختلف جدا ، وإذا كانت مواقفنا قد انتهت إلى استعمارنا من قبل القوى الأجنبية التي نهبت خيراتنا، وسلبت ثرواتها ، ودمرت مقدساتنا، وسرقت كنوزنا التاريخية، ولم تتوقف عند هذا الحد بل زرعت كيانا وخلية سرطانية في قلب أرضنا تراها تعربد كل يوم فتقتل الأبرياء ، وتدمر مساكن المسلمين ، وتقضي على الزرع، والضرع، وتبيد أقواما من أمة العرب التي آمنت بربها.

إن عصر العولمة إذا بقينا على حالنا وسابق عهدنا سوف يفضي بنا إلى القضاء على وجودنا وكياننا القومي، وهويتنا الثقافية في عالم مجنون تحكمه أشباح من الشركات المتعددة الجنسية إذ لاسبيل لنا في البقاء والحفاظ على قيمنا وتراثنا وهويتنا العربية إلا بالعلم وإصلاح منظومة التعليم العربي لتواكب كل التطورات، وأن تكون لغتنا العربية هي سلاحنا في هذا المضمار قبل أن يفوت الأوان، ونتباكى على ما قد كان، ونضيع بأيدينا ما بذله أجدادنا من الغالي والنفيس في سبيل وضع لبنات هذه الحضارة الإسلامية ، وهذا التراث الإنساني العربي الذي يظل شاهدا على مكانة أمتنا رغم كيد الأعداء، ورغم تربص أصحاب الأهواء، ورغم هذه العولمة التي تريد أن تكون صاحبة القول الفصل في كل شيء.

هوامش البحث

١- غسان العربي: في جذور العولمة وإشكالياتها. مجلة منبر الحوار، العدد ٣٧ عام ١٩٩٩م.

٢- فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البرتغالية في البحر الأحمر ، القاهرة ١٩٨٧م، ص٥٣ .

٣- محمد علي حوات: العرب والعولمة، شجون الحاضر وغموض المستقبل، القاهرة ، ٢٠٠١، ص٢٢ .

٤- أسعد عبد المجيد: في كتاب العرب ونظام عالمي جديد، مركز دراسات وبحوث الدول النامية، القاهرة ١٩٩١، ص٣١٥ .

٥- عبد العظيم حماد: الاتجاهات المضادة للعولمة ، مجلة المصرلة العدد ٥٤٦، أبريل ، مايو ١٩٩٩، ص٢٦ .

٦- محمد علي الحوات: العرب والعولمة : ص١٣٩ .

٧- من حديث لصموئيل جنتجيون أجراه في واشنطن محمد علي صالح ، مجلة المجلة، العدد ٨٩٦ ص ص٣-١٩ ، ١٩٩٧ .

٨- محمد علي حوات: مرجع سابق، ص١٣٥ .

٩- فوزي حماد: لكي نتجنب مصير الهنود الحمر، مجلة المصور، عدد ١٩ / ٢ / ١٩٩٩ .

١٠- عمر عبد العزيز عمر: الشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٣ بيروت ، ١٩٨٤، ص ص٤٠٦-٤٠٩ .

١١- شوقي الجمل وعبدالله عبد الرازق : معالم تاريخ مصر الحديث القاهرة، ١٩٩٨، ص١٤٠ وما بعدها.

١٢- عمر عبد العزيز عمر: مرجع سابق، ص٤١ .

١٣- عادل حسن غنيم وآخرون: تاريخ العرب الحديث، الدوحة ١٩٨٧، ص١٤٥ .

١٤- عبدالله عبد الرازق إبراهيم: الزاوية السنوسية مركز إشعاع ثقافي أفريقيا، مجلة اتحاد المؤرخين العرب عدد نوفمبر ٢٠٠١ .

١٥- شوقي الجمل وعبدالله عبد الرازق : تاريخ مصر الحديث والمعاصر، القاهرة ٢٠٠٣، ص ص١١٨-١١٩ .

١٦- نبيل علي: تحديات عصر العولمة، مكتبة الأسرة القاهرة ٢٠٠٣، ص٤٦ .

١٧- طارق البشري: العرب في مواجهة العدوان، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٣، ص١٨ .

١٨- عبد العزيز شرف: الإعلان الإسلامي وتكنولوجيا الاتصال ، القاهرة، ١٩٩٨، ص١٠٦ .

١٩- شوقي الجمل وعبدالله عبد الرازق: تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، القاهرة ١٩٩٩، الفصل الخاص بالاستعمار الفرنسي في إفريقيا، ص ص٢٧٧-٧ .

٢٠- عبد العزيز شرف : الإعلام الإسلامي، ص١٠٨ .

٢١- عمر عبد العزيز : مرجع سابق ، ص٤٢٠ .

٢٢- عبد الرحمن الكواكبي : أم القرى، القاهرة ١٩٠٠ .

٢٣- نبيل علي: مرجع سابق، ص٢٤٩ .

٢٤- نبيل علي: مرجع سابق ، ص٢٥٦ .

٢٥- نبيل علي: مرجع سابق، ص٢٦٣ .

٢٦- مصطفى المصمودي: النظام الإعلامي الجديد، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٩٤ أكتوبر ١٩٨٥، ص٢٩٩ .

٢٧- محمود منولي ولطفي عبد القادر: الإعلام وحرية المجتمع في مركب التاريخ، القاهرة ١٩٨٧، ص١٦٨ .

٢٨- محمد علي حوات: العرب والعولمة ، شجون الحاضر وغموض المستقبل، القاهرة ٢٠٠٢، ص١٤٤ .

٢٩- عواطف عبد الرحمن : قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث، العدد ٧٨ لعام ١٩٨٤، ص٢٦٤ .

٣٠- عبد العزيز شرف: الإعلام الإسلامي وتكنولوجيا الاتصال ، ص١٩٦ .

د. علي منصور نصر آل شهاب(*)

البحرين في المصادر العربية والإسلامية

مقدمة :

كانت البحرين عند ظهور الإسلام ذلك الإقليم الممتد على ساحل الخليج الفارسي ما بين عمان والبصرة، فكانت بذلك تشمل ما يعتبر في الوقت الحاضر الكويت والمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية وقطر وجزر البحرين الحالية المعروفة باسم أوال. وهي اليوم إحدى دول الخليج العربي، التي كانت ولاتزال تتمتع بموقع استراتيجي هام، أعطاها أهمية تجارية وعسكرية كبيرة على مر العصور .

والبحرين كانت تدعى محط أنظار الدول الكبرى ، فبالإضافة إلى الموقع الاستراتيجي المرموق بين طرق التجارة العالمية، كانت مركزاً مهماً لتبادل السلع التجارية بين الشرق والغرب، وهي بذلك الشريان الذي يزود العالم القديم والوسيط بما تنتجه سلع الشرق، وبرزت بعض مدنها في عملية التبادل التجاري بين الشرق والغرب، مثل «القطيف» و«دارين» التي اشتهرت بجلب المسك إليها من الهند. وكان هذا الموقع الاستراتيجي أحد الأسباب التي دفعت الدول الكبرى في العصور الوسطى إلى الاهتمام بها ، أما الأسباب الأخرى فهي الثروة الوفيرة في المنطقة من لآلئ بحرية ، ومعادن، وتعتبر مغاصات اللؤلؤ في البحرين من أفضل المغاصات وأن لؤلؤها هو الأحسن والأشهر في العالم في كل الحقب التاريخية.

---

* أستاذ التاريخ بكلية الآداب- جامعة البحرين .

لقد كان الصراع بين الإمبراطوريات العظمى فى عصر ما قبل الإسلام أحد أسبابه صراعا على مناطق النفوذ ، وكانت البحرين إحداها وكان من يريد أن يحقق إمبراطورية عظمى عليه بالتمركز فى هذه المنطقة ليتطلق منه إلى العالم نحو الشرق باتجاه الهند.

قد أدركت الإمبراطورية الفارسية أهمية البحرين إدراكا تامًا ، فأخضعتها لحكمها لفترة طويلة من الزمن ، حتى تم فتحها على أيدى المسلمين.

جغرافية البحرين فى العصور العربية والإسلامية:

التسمية والموقع :

البحرين : بفتح الباء الموحدة، وسكون الحاء وفتح الراء المهملتين، وسكون المثناة من تحت، ثم نون، تثنية بحر[١] وقال ياقوت: هكذا يتلفظ بها (البحرين) فى حال الرفع، والنصب، والجر، ولم يسمع على لفظ المرفوع (البحران) من أحد منهم، إلا أن الزمخشرى ، قد حكى أنه يلفظ التثنية فيقولون: هذان البحران، ونتهينا إلى البحرين ، ولم يبلغن من جهة أخرى .

قال صاحب الزيج: البحرين فى الإقليم الثانى، وطولها أربع وسبعون درجة وعشرون دقيقة من المغرب وعرضها أربع وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة وقال قرم: هى من الإقليم الثالث وعرضها أربع وثلاثون درجة[٣].

وسميت البحرين بهذا الاسم لموقعها الجغرافى فهى تقع بين بحرى عمان- بضم العين وبحر فارس ، وقد يطلق عليها اسم هجر واسم أوال [٤]. والصحيح عندنا ما ذكره أبو منصور الأزهرى قال: إنما سموا البحرين لأن فى ناحية قراها بحرية على باب الإحساء وقرى هجر، بينها وبين البحر الأخضر عشرة فراسخ [٥].

والبحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان ، ويزعم البعض أن البحرين قصبة هجر ، ويرى البعض الآخر العكس أى أن هجر هى قصبة البحرين[٦]. وهناك من يقول: أن هجر اسم يشمل جميع البحرين كالشام والعراق وليس مدينة بعينها [٧].

وكلمة البحرين من أصل بحرانى والبحرانى: هى التى يحمل فيها الكتعد المالح وهى البحونة أيضًا[٨]. وهناك تعريف آخر لكلمة البحرين وهى: بلد والنسبة إليه بحرانى وأبحر أذن الناقة، شقها ومزقها وبابه قطع وفيه (البحيرة) وهى ابنة السائبة وحكمها حكم أمها، و(تبحر) فى العلم وغيره تعمق فيه وتوسع [٩].

ويظهر من دراسة ما ذكره العلماء عن البحرين أن رأيهم فى حدودها كان متباينا، وأنهم لم يكونوا على اتفاق فى تحديدها فتارة يوسعونها وتارة يقلصونها [١٠]. لكن هناك شبه اتفاق بين بعضهم فى تحديدها وهى المنطقة الممتدة على ساحل الخليج العربى بين البصرة وعمان، فهى تشمل ما نعتبره فى الوقت الحاضر الكويت والاحساء وقطر وجزر البحرين المعروفة قديما باسم أوال [١١].

أهم مدن البحرين وقراها فى المصادر العربية والإسلامية:

١- **أوال** : من أهم جزر البحرين قاطبة قال عنها ياقوت «فيها نخل كثير وليمون وبساتين»[١٢]. وهى من الجزر المأهولة بالسكان عند ظهور الاسلام ، وتبعها عدد من الجزر الأخرى، منها جزيرة ستره التى تقع إلى الشرق من جزيرة أوال [١٣]. وأطلق اسم البحرين على جزيرة أوال وزارها ابن المجاور حوالى سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م، واطلق عليها البحرين، وقال: «إنها جزيرة فى صدر بحر فارس وبها مغاص اللؤلؤ»[١٤].

٢- **هجـر** : تحدثت عنها المصادر الجغرافية والتاريخية بكثير من التفصيل حتى أطلقت بعض المصادر على البحرين بلاد هجر ، قال ياقوت: هجر مدينة ، وهى قاعدة البحرين ، وربما قيل: الهجر ، وقيل ناحية البحرين كلها»[١٥] وقال الهمدانى : «إنها مدينة البحرين العظمى» [١٦]. من أهم مدن البحرين حتى سماها بعض المؤلفين باسمها[١٧] وهناك قرى كثيرة تتبع لهجر وغالبية سكانها يعتمد على الزراعة[١٨] وكانت هجر قاعدة تجارية ذات علاقة بالساحل الشرقى للخليج العربى، ومرقعها اليوم هو مدينة الهفوف الحالية بالاحساء[١٩].

٣- **الاحسـاء** : مدينة بالبحرين معروفة مشهورة ، كان أول من عمرها وحصنها وجعلها قصبة هجر أبو طاهر سليمان بن سعيد الجنابى القرمطى، وهى إلى الآن مدينة مشهورة عامرة[٢٠]. وتقع على مرحلة من الساحل ، وتبعد ميلين عن هجر [٢١]. ومرحلتين من القطيف التى تقع فى الجنوب الغربى منها [٢٢]. والاحساء والجمع (حسى) وهو الماء، الذى تنشقه الأرض، فإذا صار إلى صلابته أمسكته فيحضر إليه العربى فتستخرجه وكلما نزحت دلو جسعت أخرى[٢٣]. وقد اخطأ ابن بطوطة عندما اعتبر أن هجر هى الاحساء[٢٤]. وأما المستشرق هاملتون جب فى تعليقه على متتطفات من ابن بطوطة فقد وقع فى خطأ أكبر وذلك عندما قرأ هجر «حجر» وترجمها بلفظ Stone، وقرأ الحسا بالصاد «الحصى» وقال إن معناها Bebbles والمعروف عندنا إنها جمع حصى وهى البئر القريبة القاع والجمع حسا وأحساء والاسمان مستعملان[٢٥].

٤- القطيف :

وعرفت باسم الخط، وهو ربما لاسم قبيلة ، كانت تسكن في المنطقة . وكان الخط اسم لمدينة بناها اردشير بن بابل واشتهرت بعد ظهور الاسلام . والخط من أشهر أماكن البحرين، وكانت مرفأ السفن من البحرين وقد اشتهرت بالرفاع المسماة بها ، لإنها تباع فيها[٢٦] وسكن في الخط بعض بني تغلب قبل ظهور الاسلام بقرون[٢٧]. وفي الخط مدينة رئيسة بنيت في القرن الثالث الميلادي[٢٨].

وعند ظهور الإسلام كان يقيم في الخط الزط والسابجة . وعند الخط كانت ديار عشيرة صعصعة بن صوحان[٢٩].

ويروى أن الرسول ﷺ أرسل إلى البحرين واليين، أحدهما على القطيف والآخر على هجر ، مما يدل على أنها كانت وحدة ادارية ومركز لوال.

وقد وصف ابن بطوطة القطيف بأنها مدينة كبيرة حسنة ذات نخيل كثير، وإن اسمها كأنه تصغير قطف[٣٠].

٥- **المشقر** : هو حصن بالبحرين عظيم [٣١]. وقد وصفه ابن الأعرابي بأنه «مدينة عظيمة قديمة في وسط قلعة على قارة شمس، وفي أعلاها بئر تثقب القارة حتى تنتهي إلى الأرض وتذهب في الأرض وماء هجر يتحلب إلى هذه البئر في زيادتها »[٣٢]. والمشقر من حصون البحرين المعروفة والعادية، لذلك تنسب بعض أهل الأخبار بناءه إلى (سليمان بن داود) على عادتهم في إرجاع نسب الأبنية العادية إليه في الغالب عند عجزهم عن معرفة أصلها . وذكر بعض آخر أنه من بناء (طسم) [٣٣].

٦- **جواثي** حصن بالبحرين[٣٤]، فتح أيام الخليفة أبوبكر الصديق سنة ١٢هـ على يد العلاء بن الحضرمي، وهناك موضع آخر يقال له : قصر جواثي، ويقال: ارتدت العرب كلها بعد النبي (ص) إلا أهل جواثي[٣٥].

٧- **الزارة**: وهي قرية كبيرة بالبحرين، وبها عين الزارة وفتحت الزارة في سنة ١٢هـ في أيام الخليفة أبوبكر الصديق وصولحوا[٣٦]. وقد بارز البراء بن مالك مرزبان الزارة فطعنه ، وصرعه ، وغنم ما عليك فخمسه عمر لكثرته، وكان أول سلب خمس في الإسلام[٣٧]. وقد وردت في إحدى المعاجم الجغرافية على أنها مدينة من مدن فارس[٣٨]. وهذا ليس صحيحًا ، وقد اندثرت الآن [٣٩].

٨- **حواوين** : وتسمى أيضا حوار، بلدة بالبحرين فتحها زياد بن عمر بن المنذر بن عمر أخو خلاس بن عمر وكان فقيها من أصحاب علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) [٤٠]. وحوارين بلفظ التثنية وكسر أوله والجيار قريتان بالبحرين كأنه ضم الجيار إلى حوار وسماها حوارين[٤١]. وحوار جزيرة غير مأهولة السكان اليوم وهي إحدى جزر مملكة البحرين.

٩- **داريسن**: أوردها الحموي في معجمه على أنها قرية في بلاد فارس بينما هي فرضة (ميناء صغير) بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند، فتحت أيام أبي بكر الصديق سنة (١٢هـ / ٦٣٣م) وكانت من أسواق العرب، واليوم هي قرية من أعمال القطيف، غير عامرة وقد هجرها أكثر سكانها[٤٢] .

وقد ورد في كتب التاريخ والمعاجم الجغرافية أسماء كثيرة لمدن وقرى في البحرين لا يتسع المجال هنا لذكرها كلها وإنما اكتفينا بالمهم منها .

الحياة الاقتصادية في البحرين:

كان لبلاد البحرين دور اقتصادي مهم منذ القدم، فقد اشتهرت إمارة جرها بوصفها مركزا تجاريا مهما في منطقة الخليج والجزيرة العربية، وملتقى للقوافل التجارية من جنوب الجزيرة إلى الشام والعراق، كما كانت سوقا للتجارة البحرية، تستقبل تجارة الهند وأفريقيا كما زاول سكانها الزراعة ، وبنوا القرى والأبراج[٤٣].

وقد كانت البحرين منذ القدم أحد أعمدة الحضارة الإنسانية، وجاءت حضارتهم وليدة التجارة، وقد اشتهرت البحرين بالعمل في التجارة منذ أقدم العصور، بسبب ما توفر لديها من مقومات النشاط التجاري، فموقعها متميز على الضفة الغربية للخليج العربي، وسواحلها ممتدة من البصرة شمالا إلى عمان جنوبا، وموانئها كثيرة ومتعددة ، وتوسطها الطريق التجاري الذي يربط بلاد الهند والصين، والشرق الأقصى مع عالم البحر الأحمر، والساحل الأفريقي ، فضلا عن أسواقها العامرة بالتجارة ، ومختلف السلع والبضائع ، إلى جانب مهارة أهل البحرين وخبرتهم بالمسالك والدروب، ومهارتهم البحرية في صناعة السفن البحرية، فجابت قوافلهم التجارية أنحاء الجزيرة العربية وما جاورها من بلاد العراق والشام وفارس، بحثا عن مصدر رزق يعود عليهم بالربح الوفير.

وقد ذكر مايلز : أن البحرين كانت من أهم الموانئ التجارية العالمية التي تقع في منطقة الخليج العربي، بالإضافة إلى البصرة وسيراف وصحار ومسقط[٤٤].

ذكرت المصادر عدداً من الأسواق التجارية في البحرين يعود ظهورها إلى عدة عوامل، منها توفر المنتجات الزراعية والصناعية وتيسر المواصلات.

وترجع أهمية الأسواق الكبيرة العامة لتجارة البحرين إلى أنها تبيع فيها الفائض من منتجاتها الزراعية والصناعية، وتحصل على احتياجاتها بواسطة هذه الأسواق . ومنها :

١- سوق هجر:

وهي إحدى أسواق العرب الكبرى السنوية قبل الإسلام[٤١]. وكانت مركز تجاريا مهما ليس في بلاد البحرين وحدها، وإنما في شرق الجزيرة بأسرها، وتقصده العرب بعد انقضائهم من سوق دومة الجندل[٤٦] ومن القبائل العربية التي تؤم السوق، بنو محارب بن عبد القيس[٤٧].

٢- سوق المشقر:

وهي سوق تعقد طوال شهر جمادى الآخرة[٤٨] في مكان يقال له المشقر ، وهو قريب من هجر، وتؤم هذا السوق غالبية القبائل العربية وبعض الفرس [٤٩]. ومن القبائل العربية المجاورة للسوق تميم وعبد القيس[٥٠].

ونشأ في البحرين في العصر الإسلامي عدد من الأسواق المحلية، والمراكز التجارية لسكان المدينة أو لأفراد العشيرة ، وذكرت المصادر عددا من تلك الأسواق والمراكز التجارية منها سوق الاحساء وأوال ، ودارين والعقير والقطيف التي غدت قاعدة مهمة تزود السفن العابرة في الخليج بمصادر مهمة من تجارة شبة الجزيرة العربية وسلعها[٥١].

البحرين وتجارة اللؤلؤ :

اشتهرت البحرين بتجارة اللؤلؤ وظلت منذ أقدم عصورها حتى العصر العباسي، مركزا مهما من مراكز صيد اللؤلؤ وقاعدة كبرى تقصدها السفن لنقل هذه السلعة الغالية، حتى حملته السفن إلى أقاصي الهند والصين[٥٢] وأصبح مصدر مهما من مصادر الربح والثروة لهذا المركز التجاري الكبير.

وكانت عملية بيع اللآلئ بعد جمعها تتم بحضور الوالي وجمع كبير من التجار واعتاد بعض الحكام في منطقة الخليج على أن يقدموا اللآلئ الثمينة هدية لخلفاء بني العباس[٥٣] كما كان حكام بلاد البحرين يأخذون نصف ما يستخرجه الغواصون من اللؤلؤ [٥٤].

وظلت البحرين تستمد ثراؤها من المصدر الاقتصادي وهو اللؤلؤ ، إذ ترتكز جزيرة البحرين على شط اللؤلؤ العظيم الذي يتألف من تكوينات جيرية من الشعاب المرجانية ، وتوجد على

عمق قليل في مياه الخليج[٥٥]. وظلت جزيرة البحرين منذ أقدم العصور حتى العصر العباسي، مركزا مهما من مراكز صيد اللؤلؤ وقاعدة كبرى تقصدها السفن لنقل السلعة الغالية، التي غدت شطرا مهما من قائمة الصادرات للخليج وبلغ اهتمام الدولة العباسية بهذه الثروات العظيمة أن عملية الاشراف على جمع اللؤلؤ كانت من الأمور التي ينص عليها عند تعيين الولاة على منطقة البحرين وباقي سواحل الخليج ، فقد ولى الرشيد قائده المعلى على البصرة وفارس والأهواز واليمامة والبحرين والفرض، وانتقلت هذه الوظيفة بعد المعلى إلى محمد بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس ثم إلى عمار بن حمزة[٥٦]. وفي خلافة الرشيد كان مسلم ابن عبدالله العراقي، أحد المسئولين عن تجهيز الغاصة لطلب اللؤلؤ في سواحل البحرين وعمان، فقد وقعت في يده وكان أحدهما كبيرة الحجم لايوجد لها نظير ، تسمى اليتيمة والأخرى أصغر منها، فباع الأولى للرشيد بسبعين ألف دينار والصغيرة بثلاثين ألف دينار[٥٧].

وقد زاد اقبال تجار العالم على لؤلؤ البحرين، وفضلوه على غيره لجودته، ومن مميزاته أنه كبير الحجم مستدير الشكل، صافي اللون، يميل إلى الزرقة والنقاوة مع بياضه الناصع ، وهذه هي أخص مميزات اللؤلؤ الفاخر، الذي امتازت به سواحل البحرين، ويصف القزويني لؤلؤ البحرين بقوله «بها مغاصي الدر ، ودره أحسن الأنواع»[٥٨].

وكانت سواحل البحرين القريبة من القطيف من أجل مغاصات اللؤلؤ وأغلاها قدرا[٥٩]. ومن أشهر مغاصات اللؤلؤ في البحرين مغاص جزيرة (أوال)، وقد وصف الادريسي [٦٠]، أعمال الغوص في أوال بقوله «وفي هذه الجزيرة رؤساء الغواصين في البحر، ساكنين بهذه المدينة، والتجار يقصدون إليها من جميع الأقطار بالأموال الكثيرة، ويقيمون بها لأشهر كثيرة ، حتى يكون وقت الغوص ، فيكترون الغواصين باسوام اجر معلومة تتفاضل على قدر تفاضل الغوص والأمانة، وزمان الغوص في شهر اغشت ستمبر[٦١] . كذلك تكثر مصائد اللؤلؤ في حدود هجر بازاء اوال وجزيرة خارك[٦٢]، وبالقرب من سواحل قطر[٦٣]، ويعتبر مغاص البحرين «أكبر مغاص في العالم»[٦٤].

وقد اشتهر تجار البحرين بحذقهم في معرفة أنواع اللؤلؤ ، فأسواق البحرين كانت مركزاً يتم فيه تقييم اللؤلؤ[٦٥] . وقد مارس أهل البحرين هذه الحرفة منذ أقدم العصور[٦٦] و يذكر الرحالة ناصر خسرو: «أن السلطات الحاكمة في البحرين وهم القرامطة في ذلك الوقت - كانت تأخذ نصف ما يستخرجه الغاصة من اللؤلؤ.

الصلات التجارية بين البحرين والعراق:

كانت صلات البحرين التجارية مع العراق وحاضرته بغداد صلات قوية ، فكانت بغداد مركزا تجاريا وسوق عظيمة تعقد مرة واحدة فى كل شهر يقصدها تجار فارس والأهواز ومن سائر الأقطار[٦٧].

ولعب أهل البحرين بدور الوسيط التجارى بين العراق وبلدان الشرق الأقصى، فكانوا يصدرون إلى العراق منتجات بلادهم وما يصل إليهم من متاع الهند، ثم يعودون بسلع العراق إلى الشرق الأوسط، وكانت سفنهم تصل إلى الابلة محملة بالمتاجر والسلع، حيث يتم تفريغها، ويؤكد أبوحنيفة الدنيورى ذلك بقوله «والابلة، وهى مرفأ سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والصين»[٦٨].

المعروف أن أحد الأبواب الأربعة ببغداد كان مخصصا لتجار البصرة والأهواز وواسط واليمامة والبحرين، وكان يطلق عليه اسم باب البصرة[٦٩].

ويؤكد ابن الساعى تلك العلاقات التجارية المميزة بين البحرين والعراق، فيقول «وأما عرب البحرين فهم قوم يصلون إلى باب السلطان، وصول التجار يجلبون جياد الخيل وكرام المهارى[٧٠] واللؤلؤ وأمتعة الهند ويرجعون بأنواع الخيام والأتمام والقماش والسكر وغير ذلك، ويكتب لهم بالمسامحة فيردون ويصدرون»[٧١].

ويروى أبويزيد الحسن السيرافى قصة الأعرابى الذى قدم البصرة من البحرين ومعه حبة لؤلؤ عثر عليها وهو فى طريقه على ساحل البحر ، وكان لايعرف قيمتها، فعرضها على عطار فى أحد أسواق البصرة ، فأخبره بأن هذه لؤلؤة تساوى مائة درهم، فاستكثر الاعرابى هذا المبلغ ، وباعها على العطار، فذهب العطار بحبة اللؤلؤ إلى بغداد وباعها هناك بثمن مرتفع ، فكانت سببا فى غناه واتساع ثروته[٧٢].

وكان من يقصد العراق من تجار البحرين ينزلون بايوان الزبير الموجود على حدود البصرة ، فهو مكان يجتمع فيه التجار، وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز من البحرين، وغيرها[٧٣]، وإذا جاء تجار البحرين عن طريق البحر، فإن سفنهم ترسوا بمينا «المحرزة فى جزيرة عبادان[٧٤]، أما من يقصد البحرين من تجار العراق ، فكانوا يقصدون العقير واوال والقطيف ، وهى من أهم موانئ بلاد البحرين ومن مراكزها الاقتصادية الكبيرة .

ومن بين السلع التى كان ينقلها تجار البحرين إلى العراق الفرط الجميلة، واشتهرت مدينة

الاحساء بصناعتها ، وهى من أعمال البحرين، فكانت تصدر الفرط إلى البصرة وإلى غيرها من البلدان[٧٥]. كذلك اختصت الاحساء بالقراطيس ، وكانت تحمل منها إلى البصرة[٧٦]، واعتاد أهل البصرة جلب الرماح الخطية من البحرين والبرود القطرية من قطر، وكان أهل البصرة يتلهفون على ثياب البحرين ، وفى البصرة أيضا كان تجار دارين يتجرون فى المسك الدارى[٧٧].

وكان من السلع التى تصدرها البحرين إلى العراق الخيول، التى اشتهرت بتربيتها البحرين فراجت تجارتها، وأحيانا كان تجار العراق، وغيرهم من البلدان يأتون إلى البحرين لشرائها ، وكذلك من السلع التى تصدرها البحرين إلى العراق الحنا ، والسمك المجفف والربيان والسلوق (البلح المسلوق) والسجاجيد المصنوعة من الخوص[٧٨].

وكانت اليمامة (وهى من أعمال البحرين) من أهم المراكز التجارية للبحرين، فيها كانت تلتقى الطرق التجارية البحرية والبرية، فكانت تستقبل تجارات البحر عن طريق البحرين[٧٩]. وكانت تصدر الرقيق إلى العراق ، فقد ذكر عن ابن أبى جعفر المنصور إنه احتاج إلى حراس وبوابين ، فقيل له لايصلح لهذا الأمر «إلا قوم لئام الأصول ، أنذال النفوس، صلاب الوجوه، ولاتجدهم إلا فى رقيق اليمامة » فأحضر له التجار من هذا الرقيق مائتى غلام[٨٠].

تأثرت النشاطات التجارية بين بلاد البحرين، والعراق فى أيام القرامطة، حيث أصبح زعام التجارة بأيديهم، وانشأوا لهم مرصدا بجزيرة أوال ، يجبون به المكوس على السفن المارة بهم، سواء كانت قادمة من البصرة أو متجهة إليها، ويقول ابن حوقل : «أن مبلغها بنحو ثلاثين ألف دينار»[٨١].

وفى العهد العيونى تحسنت العلاقات التجارية بين البحرين والعراق، وكان تجار العراق يترددون على بلاد البحرين من أجل جلب اللؤلؤ والخيل ، فقد روى أن جماعة من تجار العراق غرقت لهم سفينة محملة بصنوف البضائع بالقرب من جزيرة أوال، وكان حاكم أوال فى ذلك الوقت الفضل بن عبدالله العيونى (ت ٤٨٤هـ / ١٠٩١م) ، وما أن علم بخبر غرق السفينة حتى قام بتعريض تجارها عما فقدوه[٨٢].

وكان الشاعر ابن المقرب العيونى تاجراً ، جلب ذات يوم الحديد من بغداد ليبيعه فى بلاد البحرين، وفى طريقه إلى البحرين اعترضه ابن الدبيثى ضامن المكوس بواسط، وفرض عليه ضريبة باهظة إلى حد أنها بلغت نصف قيمة الحديد، وقد هجاه الشاعر ابن المقرب من جراء تلك الضريبة الفاحشة[٨٣].

وقد ارتبط العراق (البصرة وبغداد) بالبحرين عبر طريقين الأول يسير بمحاذاة الساحل (الساحل الغربي للخليج) والثاني يسير عبر الصحراء، ويذكر ابن حوقل أن الطريق الساحلي جيد ومساحته تقدر بثماني عشرة مرحلة، وإنه يمر في قبائل العرب، غير أنه مخرف[٨٤] وتستغرق هذه المسافة على الإبل خمسة عشر يوما[٨٥].

ويمر هذا الطريق بعدد من المحطات والمدن والقرى منها المشقر والغابة والسابور وجوانا والزارة، والقطيف والخط وعبادان حتى البصرة[٨٦] ثم يمتد هذا الطريق مارا بالمدن العراقية على شاطئ نهر دجلة حتى يصل إلى مدينة بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية في زمن العباسيين[٨٧]. ويذكر ابن الفقيه أن بين هجر والبصرة مسيرة ١٥ يوما على الإبل[٨٨]. ويذكر ناصر خسرو: أن بين الاحساء والبصرة ١٥٠ فرسخا[٨٩].

الصلات التجارية بين البحرين واليمامة والحجاز:

كانت الصلات التجارية بين البحرين واليمامة والحجاز وثيقة جداً قبل الإسلام، وبعده، فقد أشارت المصادر أن البحرين كانت تصدر المنسوجات الهجرية[٩٠] لهما، كما أن أهل الإحساء والقطيف كانوا يتبادلون تمرهم مع أهل الخرج، من سكان اليمامة بالحنطة بطريق المقايضة، إذ يتم استبدال كل واحدين من التمر براحلة من الحنطة[٩١] كما كان تجار اليمامة يشترون الأديم من نلج، التي كان يجلب إليها من اليمن، ويحملونه إلى الحسا حيث يباع هناك[٩٢].

وللتدليل على قوة صلة البحرين التجارية مع الحجاز أنه حين تأزم الموقف بين نجدة بن عامر الخارجي وعبدالله بن الزبير، فإن نجدة قطع الميرة عن أهل الحرمين التي كانت تصل إليهم من اليمامة والبحرين، ولم يرفع الحظر إلا براء من عبدالله بن عباس[٩٣].

أما عن طريق البحرين اليمامة التجاري، فقد اشتملت كتب الرحالة على وصف دقيق لمسار هذا الطريق، ومحطاته، بدءا بالبحرين ومرورا بالاحساء فاليمامة إلى أن ينتهي في مكة[٩٤]. ويذكر أبو الفدا[٩٥] أن الذاهب من البحرين إلى اليمامة لابد وأن يمر بالحسا والقطيف، ولاتتيسر الرحلة إلا في فصل الشتاء حين تتجمع مياه الأمطار فيشرب الناس، أما في الصيف فتشح المياه فتكون الرحلة شاقة ومجهدة، والمسافة ما بين البحرين واليمامة مسيرة عشرة أيام بالإبل[٩٦] وما بين الإحساء واليمامة مسيرة أربعة أيام[٩٧].

وتتجه القوافل بعد ذلك إلى ضرية (وهي لاتزال معروفة بهذا الاسم)[٩٨] ومنها إلى مكة. وتعد محطة ضرية[٩٩] مفترق الطرق بين البصرة والبحرين، فبعد عودة القوافل التجارية إلى ضرية، تأخذ طريقها نحو الشمال إلى البصرة بينما تتجه قوافل البحرين نحو اليمن[١٠٠]، والغالب أن هذا الطريق هو الذي تسلكه القوافل التجارية بشكل دائم، وهو محفوف بالمخاطر لأنه يقطع الجزيرة العربية من الشرق إلى الغرب، وكان هذا الطريق ينتهي أحيانا إلى جده على ساحل البحر الأحمر[١٠١].

وكانت التجارة بين البحرين والمدينة المنورة عامرة، حيث كان تجار البحرين يجلبون من المدينة، الزبيب، كما صرح بذلك أبوسفيان حين قال لركب كان قادم من المدينة يريد البحرين بهدف جلب البضائع: «وأحمل إليكم غدا زبيبا»، وهو ما تنتجه المدينة أو مما يأتي إليها من الطائف والشام. ولايستبعد أن ركب البحرين كان يحمل معه سلعا من بضائع الهند، أو مما تنتجه البحرين. ومما يؤكد وجود مثل هذه الصلات التجارية بين المدينة والبحرين، استمرارها بعد ذلك في العصور اللاحقة، فتذكر الأخبار أن بالمدينة المنورة على عهد يزيد بن معاوية جالية من تجار البحرين، يقرب عددها من أربعمائة رجل يعملون في التجارة[١٠٢].

علاقات البحرين التجارية مع الهند:

ترجع العلاقات التجارية بين البحرين والهند إلى فترات سحيقة في القدم، وفي البحرين عدة موانئ ترسو فيها السفن التي تتاجر مع الهند، وازدهرت الاتصالات التجارية في فترة ما قبل الإسلام وبعده بين الهند والبحرين[١٠٣]. ولعب ميناء جرها[١٠٤] (Gerha) في البحرين دور الوسيط التجاري، بين الهلال الخصيب والهند، حيث كانت تنقل البضائع بعد أن تفرغ في ميناء جرها على شكل ترانزيت براً إلى العراق أو بلاد الشام، وأحيانا إلى مصر أو بالسفن حتى نهر دجلة، وظلت هذه الحركة التجارية قائمة حتى قيام الدولة الساسانية في القرن الرابع الميلادي[١٠٥].

وفي صدر الإسلام تطورت العلاقات التاريخية بين سكان الخليج وشبه القارة الهندية، خاصة البحرين، إذ أن كلا من المنطقتين تتمتعان بطبيعة مشتركة، ساعدت على تقارب الشعبين بينهما، ألا وهي موقعهما على ساحل البحر، واستمرت البحرين كحلقة وصل بين الهند من جهة، ووادي الرافدين وشبه الجزيرة العربية من جهة أخرى[١٠٦] خاصة بعد أن عادت للخليج أهميته التجارية ثانية، بعد أن بسط المسلمون نفوذهم على منطقة الجزيرة العربية

برمتها وأصبح البحر الأحمر والخليج بحران في دولة إسلامية واحدة، خاصة أن الطريق عبره إلى منطقة الشرق الأوسط أقصر وأقل كلفة[١٠٧].

وازدادت أهمية الخليج التجارية ، بعد أن انتقلت حاضرة الخلافة الاسلامية إلى بغداد، فازدادت أهمية الموانئ الواقعة على ضفافه ومنها موانئ البحرين التجارية والتي انتفعت من هذا التحول، ومن أهم مراكز تجارة الهند دارين والتي أصبحت ذات شهرة كبيرة في استيراد العديد من السلع من الهند كالمسك وتوزيعها وبيعها في إنحاء عديدة من الجزيرة العربية[١٠٨].

واستوردت البحرين كذلك من الهند التوابل، والسيوف، والرماح ، والعطور، والحرير، والكافور، والزنجبيل، والقرنفل، والفلفل، وخشب الساج المشهور (الصناعة السفن) والأبنوسي، والبن، والأرز، والصندل، والكاريجيل (جوز الهند) والدارسين ، والخولنجان ، والقرفة ، كذلك المنسوجات على اختلاف أنواعها، بالإضافة إلى الأدوية والأحجار الكريمة[١٠٩] وقرن الكركدن. وكانت صادرات البحرين إلى الهند اللؤلؤ والتمور والخيول العربية[١١٠] والابل والجياد واللبان ، كما كان أهل الهند يجلبون جياد الخيل وكرام المهاري، وأمتعة العراق إلى بلاد الهند، ويرجعون بأنواع الأنعام والقماش والسكر وغير ذلك، فيردونه، ويصدرونه[١١١].

كان التوازن التجاري في صالح الهند لكثرة صادراتها وعلو قيمتها، ولكن عوض هذا النقص في الميزان التجاري بالنسبة لأبناء الخليج وتجارهم بالنقل البحري، وامتلاكهم للسفن التجارية الكبرى، فكانت السفن الهندية قليلة العدد، صغيرة الحجم، لاتستطيع عبور المياه الشاسعة المحيطة ببلادهم على نحو ما قام به أبناء الخليج ، ولذا اقتصرت السفن الهندية على النقل المحلي بجوار السواحل، على حين اضطلعت سفن الخليج بنقل صادرات الهند شرقا إلى الصين وإلى بلاد الدولة الإسلامية وأسواق البحر المتوسط غربا[١١٢].

العلاقات التجارية بين البحرين والصين والشرق الأقصى:

ارتبطت البحرين بعلاقات تجارية طيبة مع الصين ، وخاصة بعد أن أخذت مراكب التجار المسلمين تجوب بحار الصين منذ ظهور الاسلام[١١٣].

كان أول نداء عربي للاهتمام بالصين قد خرج من منطقة شبه الجزيرة العربية على لسان

الرسول الكريم ، الذي حث أصحابه وأمته بطلب العلم ولو في الصين، وكان الرسول الكريم قد سافر عدة مرات إلى الشام حيث لابد أنه التقى بتجار صينيين أو عرب وفرس قادمين من الصين[١١٤].

كما كانت مكة قبل الإسلام تعرف الصيني الفاخر ومرايات البورتز الصينية، هذا بالإضافة إلى أن بعض النساء في مكة والمدينة وضواحيها والبحرين كن يحملن اسماء صينية مثل الاسم (مي Mei) وتعني الكلمة في الصين الجمال، ومن المحتمل كما يقول المؤرخ العراقي المخضرم هادي العلوي: أن تكون نساء صينيات قد وصلن إلى المشرق العربي في غضون العصر الجاهلي يحملن هذا الاسم فأعجب به العرب واقتبسوه لبناتهم ، وكانت حبيبة النابغة الذبياني بهذا الاسم[١١٥].

وتعقبت الوفود الإسلامية من التجار المسلمين من العرب وغيرهم يسافرون إلى الصين، حتى غدت الجاليات الإسلامية في الصين أكثر من غيرها من الجاليات الأخرى[١١٦]، ومن ثم انتشرت الديانة الإسلامية واللغة العربية في هذه المنطقة[١١٧].

كان للبحرين دورا مميزا ورائدا في التجارة البحرية، فكانت السفن التجارية البحرية التي كانت تنقل البضائع من البصرة إلى الصين والشرق الأقصى تمر بطبيعة الحال ببلاد عمان، ومسقط والبحرين وهرمز[١١٨] وغيرها من الموانئ الساحلية بالخليج وبحر العرب ، كذلك كانت سلع الصين تصل إلى البحرين ، ثم تحمل من هناك إلى باقي مناطق الخليج[١١٩] حيث إن البحرين كانت من أهم مراكز التجمع التجاري على طول سواحل الخليج[١٢٠].

وحرصت الصين على توطيد علاقاتها التجارية مع العرب، وتشجعهم على نقل متاجرهم إليها، ويتضح ذلك من خلال ما تمتع به التجار العرب، وخاصة تجار الخليج من مكانة تجارية كبيرة في بلاد الصين، وقد جلب التجار المسك من الصين كذلك العود والحرير والورق والدبباج والخزف وسائر الأواني الصينية والياقوت والعاج ، الكافور الابنوس، الخمزوان، القرنفل، والصندل، وبعض طيور الزينة (الببغاوات والطواويس) .

أما عن صادرات العرب إلى بلاد الصين والشرق الأقصى، فكان أهمها القطن واللمات واللؤلؤ والخيول العربية الأصيلة والسجاد والعنبر والتمور والبخور[١٢١] وغيرها من طرائف الصين والشرق الأقصى[١٢٢]. وظل التبادل التجاري بين بلدان الخليج والصين يجري مباشرة وبدون أية مشاكل ، حتى سنة ٢٦٥هـ / ٨٧٨م ، حيث وقعت ثورة دامية في الصين فتأثر

حال التجارة بين الخليج والصين، وعادة ما تتعرض التجارة وتجار الخليج لأخطار الأحداث فى الصين وانعكاساتها السلبية، يقول أبوزيد السيدانى: «وامتدت يد حكام الصين إلى ظلم من قصدهم من التجار من تراخذة العرب وأرباب المراكب، فألزموا التجار مالايجب عليهم، وغلبوهم على أموالهم، واستجازوا ما لم يجز الرسم به قديما فى شئ من أفعالهم[١٢٣].

وهكذا انعكست الاضطرابات التى حدثت فى بلاد الصين على الأوضاع الاقتصادية والتجارية فى الخليج العربى وأدت إلى اضطراب وانقطاع التبادل التجارى المباشر بين موانئ الخليج وميناء كانتون، واقتصر وصول سفن تجار الخليج عند ميناء (كله) على الساحل الغربى لشبه جزيرة ملقا (الملايو) ثم تنقل المتاجر بطريق غير مباشر إلى بلاد الصين[١٢٤].

النشاط الزراعى فى البحرين:

هناك أراضى كبيرة فى البحرين صحراوية تنبت فيها الأعشاب والنباتات البرية كالاثل والغضا والطلح، وتمثل النشاط الزراعى فى مناطق الواحات، ومن أهمها الإحساء والقطيف وبحرين وبما أن المياه الباطنية تتوفر فى معظم أنحائها ، وهى قريبة من سطح الأرض لدرجة تكفى للزراعة والاستقرار ، هذا بالإضافة إلى المياه التى تتجمع فى بطون الأودية، فقد أدى ذلك إلى زراعة الحنطة والشعير فى بعض جزر البحرين[١٢٥].

عرفت البحرين بزراعة القطن وخاصة فى هجر[١٢٦] الذى كانت تعتمد عليه المنسوجات التى تصنع فى البحرين، ومن المحاصيل الزراعية الأخرى الفواكه كالموز والأترنج والرمان والتين فى هجر وأوال[١٢٧].

تبقى شجرة النخيل على رأس قائمة المحصولات الزراعية فى البحرين، فقد اشتهرت بلاد البحرين بزراعة النخيل منذ القدم، وقد امتدح المقدسى زراعة النخيل فى بلاد البحرين بقوله : «وقد أكرمهم الله تعالى بخير الثمار وسيدة الأشجار التمر والنخيل»[١٢٨] كما وصف ابن حوقل هجر والقطيف وأوال بكثرة النخل والتمور[١٢٩].

وقال عنها ابن بطوطة : «وإن فيها من النخيل ما ليس ببلد سواها » ويقال : إن أنواع التمور فى بلاد البحرين بلغ عددها ثمانمائة نوع[١٣٠] وبما أن التمور تنتج على طول ساحل الخليج من البصرة شمالا إلى عمان جنوبا بأنواعها المختلفة ، إلا أن أجودها فى البحرين المسمى المكرى والازاد[١٣١]، وكذلك الخلاص والمرزبان[١٣٢] إن هذه الزيادة فى انتاج التمور

أدت إلى رخص أسعاره، حتى ضرب المثل بمن يخسر فى تصدير السلع إلى البلاد التى يتوفر فيها فقيل «كناقل التمر إلى هجر» وقيل «كمستبضع التمر من هجر»[١٣٣].

ونتيجة لكثرة إنتاج التمور فى البحرين ذكر الرحالة الذين زاروا المنطقة ؛ إن التمر استعمل أحيانا علفا للحيوانات ، كما بيع أكثر من ألف قن بدينار واحد[١٣٤].

ولم يقتصر الناتج الزراعى فى البحرين على التمور وإنما تعددت المنتجات الزراعية، فقد ذكر البكرى: إن البحرين «كثير النخل والموز والجوز والاترنج والأشجار والزرع والأنهار»[١٣٥] كذلك الرمان والعنب فى جزيرة اوال وجزيرة تاروت[١٣٦].

وقدم ابن بطوطة خير وصف للبحرين عند زيارته لها فقال : «إنها مدينة فاخرة وكبيرة بها بساتين وأشجار وجداول ، وفيها حظائر النخيل كما يزرع فيها الليمون، والرمان والقطن.

إن هذه المنتجات الزراعية أصبحت تدر موارد مالية كبيرة لتموين ميزانية الدولة وكانت بعض الحاصلات الزراعية مهيأة للتصدير كما هو الحال ببيع التمور إلى الخرج فى اليمامة مقابل الحنطة إلى البلدان الأخرى[١٣٧] أو فى بيع تلك الحاصلات أو بعضها إلى خارج الدولة وفيها الكروم ، الذى كانت تشتهر جزيرة تاروت بالبحرين وخاصة أنواعه الجيدة من العنب[١٣٨].

النشاط الصناعى فى البحرين:

صناعة المنسوجات :

كانت البحرين مركزاً لعدد من الصناعات فهناك أنواعا متعددة من المنسوجات ، يسمى كل منها حسب القطر أو البلد أو الاقليم الذى ينسج فيه، فقد صنعت فى البحرين والاحساء الملاحف والقوط التى هى عبارة عن ملابس قصيرة مخططة يأتزر بها الخدم والطبقات الفقيرة وتنسج فى أماكن عديدة من البحرين ومنها الاحساء[١٣٩].

أما الثياب والبرود والأردية فأشهر صناعتها ما نسب إلى هجر وكانت المنسوجات الهجرية تصدر عند ظهور الاسلام إلى مكة، فيروى عبدالله بن معاذ أن سويد بن قيس حلبى هو ومخرمة العبدى بزا من هجر إلى مكة فاشترى الرسول ﷺ منها سراويل[١٤٠] كما ذكر ابن سعد أن هوذة بن على الحنفى كسا سليطا بن عمر العامرى أثوابا من نسيج هجر[١٤١] ويذكر ابن سلام الجمحى: أن بغيضا وأخويه علقمة وهوذة أولاد عامر بن عوف أهدوا الحطيئة حللا من بز هجر[١٤٢].

أما المنسوجات القطرية فهي أكثر منسوجات البحرين ذكرا ، واشتهرت قطر بصناعة البرود من الصوف ذات اللون الأحمر[١٤٣] والأردية وقد أهدى أبو العتاهية المأمون هدايا كثيرة منها أردية قطرية[١٤٤] مما يدل على أنها ظلت مزهرة حتى العصر العباسي.

واشتهرت القطيف بصنع الثياب المروزية وثياب الملابس[١٤٥] وقد ذكر ابن سيرين أن أبا موسى الأشعري كسا في كفارة يمين كانت عليه ثوبين لشخصين من برود البحرين[١٤٦] والدليل على توفر المنسوجات في البحرين يروى أنه عندما أمتد الاسلام إلى البحرين فرض الرسول ﷺ على من لم يسلم فيه أربعة دراهم وعباءة[١٤٧].

صناعة السفن :

إن موقع البحرين الاستراتيجي على الخليج، وأهمية الخليج بالنسبة للممرات الدولية، أسهم في ازدهار حركة الملاحة ، وتطور فعالياتها وأدى إلى احتكاك سكانها بشعوب عرفت الملاحة وصناعة السفن كالهنود والصينيين.

اشتهرت البحرين بصناعة السفن، وكان مركز هذه الصناعة في قرية عدولى من قرى البحرين، وإليها تنسب السفن العدولية[١٤٨] وقد جاء في معلقة طرفة بن العبد وصف السفن العدولية حين قال:

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدى

وابن يامن[١٤٩] أحد اليهود من أهل هجر كان يمتلك عددا من السفن شاركت في فعاليات حركة الملاحة عبر الخليج.

ج- الصناعات الحديدية والأسلحة:

عرفت المنطقة بعض الصناعات الحديدية البسيطة تطلبتها احتياجات إنسان المنطقة محليا مثل أعمال الفلاحة ، كصناعة المناجل والمساحي من قبل من عمل في مهنة الحدادة ، أو لغايات الحرب، وحرص السكان على تسليح أنفسهم تحسبا للطوارئ، بسبب عدم استقرار منطقة الخليج، في عهود كثيرة [١٥٠]، ومن الأسلحة التي اشتهرت البحرين بصنعها قبل الاسلام وبعده صناعة الرماح، وأشهرها على الاطلاق الرماح الخطية التي نسبت إلى منطقة الخط بالبحرين ، تجلب موادها الأولية من الهند ثم تصنع بالبحرين، ثم تباع في بقية الجزيرة العربية[١٥١] وكانت الخط تتاجر أيضا مع العرب حيث تبيعهم هذه الرماح [١٥٢].

سكان البحرين:

كانت البحرين عند ظهور الإسلام مأهولة بالسكان بدليل كثرة ما فيها من القرى والمدن ويرجع ذلك إلى توفر المياه فيها وخصوبة أرضها ووقوعها على البحر. وكانت في البحرين عند ظهور الإسلام كل قبائل عبد القيس، وعشائر تميم ومن بكر بن وائل ومن الأزد [١٥٣].

عبد القيس: وتعتبر عبد القيس من القبائل الكبيرة التي لعبت دورا مهما في تاريخ العرب والإسلام بشكل عام ودولة بني أمية بشكل خاص، أما أماكن استيطانها فهي البحرين[١٥٤].

ويذكر النسابون أن عبد القيس جاءت إلى البحرين من تهامة وزاحمت من كان قد سكن قبلها من بكر بن وائل وتميم وما سموهم المواطن[١٥٥] وكان جل سكان البحرين من بني عبد القيس من بكر بن وائل وتميم[١٥٦]. وقد انتشرت بطون عبد القيس في مختلف أنحاء البحرين، ويعدد لنا اليكري منازل بعض بطون وأفخاذ عبد القيس، فيقول : «فمن منازلها الخط، وأنماؤها الجذيمة بن عوف وشن بن أقصى بن عبد القيس، طرفها وأدناها إلى العراق، ونزلت نكرة بن لكليز القطيف وما حولها [١٥٧].

وقيس: من آل عامر بن صعصعه بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان من العدنانية ، كانت منازلهم بالبحرين[١٥٨].

لقد استحوذت عبد القيس على معظم البحرين ولذلك عدها بعضهم لعبد القيس، إن كثرة مدن وقرى عبد القيس التي ذكرتها المصادر تظهر مدى انتشارهم ودورهم في البحرين، ومن زعمائهم المشهورين عند ظهور الإسلام الأشج العصري الذي تزعم وفد عبد القيس الأول إلى رسول الله ﷺ في المدينة المنورة والجارود العبدي الذي رأسهم في الوفادة الثانية[١٥٩]. ومن بطونهم المشهورة نكرة وقد وصفوا بأنهم أهل البحرين وفيهم العدد والشرف[١٦٠].

بكر بن وائل : قبيلة عظيمة من العدنانية تنسب إلى بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن نزار بن معد بن عدنان. كانت بلادها من اليمامة إلى البحرين إلى سيف كاظمة إلى البحر فأطراف سواد العراق فالابله ذهبت[١٦١]. ومن بطون بكر التي استوطنت البحرين بنو قيس بن ثعلبه بن عكابه ، وذكرت المصادر من منازلهم هجر والسيدان والشيطان وثاج وعباعب ، وهم لم ينفردوا في سكن هذه الأماكن وقد حدث تبدل طفيف في مواطن قيس بن ثعلبة بعد الاسلام فقد أصبحت ثاج من منازل بني معد بن زيد

مناة بن تميم التي انتزعوها منهم[١٦٢]. ولقد غلبت البداوة على حياة هذه القبيلة في حلها وترحالها ولذلك لم يكن لها أي دور في الحياة الحضارية والاقتصادية لمنطقة البحرين كالتجارة والصناعة.

وكان نزوح قبيلة بكر إلى بلاد البحرين من نجد التي سبق أن جاءوا إليها من تهامة، وامتدت منازلها من اليمامة إلى البحرين ومنها إلى أطراف سواد العراق وناحية الأبلة إلى هيت[١٦٣] وما ولاها من البلاد[١٦٤] ومن منازلهم هجر وتاج وعباعب[١٦٥] والسيدان، وقد شاركت بكر بعض القبائل الأخرى في منازلهم في بلاد البحرين كعبد القيس وتميم.

وقد وقفت بكر بن وائل من الاسلام موقف معاديا في زمن الرسول ﷺ حيث أنها لم تبعث بالوفود إلى الرسول ﷺ وانضم شريح بن ضبيعه الملقب بالحطم إلى صفوف أعداء الإسلام أثناء حركة الردة فكان موقفه محاربة العشائر التي انضمت إلى الإسلام[١٦٦].

تميم: من أكبر القبائل العربية وهي من العدنانية تنتسب إلى تميم بن مر بن أدبن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[١٦٧].

وقد انتشرت في هضبة نجد من الحجاز إلى الأطراف الشرقية للجزيرة، واستوطنت بعض عشائرهم البحرين مع القبائل العربية الأخرى[١٦٨]. وتميم من القبائل العربية الكبيرة المعروفة، وقد نعتهم ابن حزم بقوله: (وهم قاعدة من أكبر قواعد العرب). وتعد في مقابل قيس وربيعه وهي المشتلة لمجموعة مضر في بعض الأحيان، وهي أقرب جغرافيا وتاريخيا إلى قيس وربيعه منها إلى كنانه. ومعارفنا عن تاريخها مستمدة مثل معارفنا عن القبائل الأخرى المماثلة من الروايات المدونة في كتب الإخباريين[١٦٩].

وكانت عشائر تميم المستوطنة في البحرين بدوية فيما يظهر، فلم يرد في الأخبار ما يدل على مساهمتها في التجارة أو الصناعة، أو تنظيمات حضارية ويبدو مما ذكرته المصادر أنه لم تكن لهم مدن وأن غالبيتهم كانوا يقيمون في البادية[١٧٠]. أما في القرن السادس فقد كانت تميم قبيلة ظاهرة، تعد من أكبر القبائل العربية، بطونها منتشرة في هضبة نجد من الحجاز إلى الأطراف الشرقية للجزيرة، وفي العراق وفي أنحاء مختلفة من جزيرة العرب، مجاورة لقبائل معروفة مثل أسد وغطفان وبني عبد القيس وتغلب، متصلة بها. ومن بني دارم من تميم كان المنذر بن ساوى حاكم البحرين الذي أسلم في أيام الرسول ﷺ[١٧١].

الأزد: من أعظم قبائل العرب وأشهرها تنتسب إلى الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن كهلان من القحطانية، وبعد تصدع سد مأرب أرغم الأزد على الهجرة من سبأ فتفرقوا في البلاد، فلحقت الأوس والخزرج بيثرب من أرض الحجاز، ولحقت خزاعة بمكة وما حواليها من أرض تهامة، ولحقت وادعه وبحمد وخزام وعتيك وغيرها بعمان[١٧٢] فلما صاروا بها انتشروا بالبحرين وهجر[١٧٣]. وكان استقرار الأزد في البحرين قبل مجيء عبد القيس إليها كما إن بعضهم جاء إليها بعد الإسلام وبعد هجرة عبد القيس إلى البصرة.

وفي عام ٦٧هـ سار نجده بن عامر الحنفي بمجموعة من الخوارج نحو البحرين لفتحها، وقد رحبت به الأزد في القطيف وعزموا على مساندته وعندما فتح أبو سعيد الجنابي القرمطي الزارة عام ٢٨٦هـ كان رئيسها الحسن بن العوام من الأزد مما يدل على أهمية دورهم في البحرين في تلك الفترة[١٧٥].

وتذكر المصادر العربية أن قبائل الأزد كان موطنها الأول اليمن، ثم جلت عن ديارها قبيل خراب سد مأرب أو بعده، فنزل فريق منهم وتحالفوا مع قبائل أخرى من العرب على التنوخ- أي الاقامة- بتلك البلاد، فأطلق عليهم اسم «تنوخ» ولما وقع الاختلاف بين ملوك الطوائف سارت تنوخ إلى العراق وغلبت عليها، وكان منهم جذيمة الابرش الدوسي الذي ملك العراق حقبة من الزمن[١٧٤].

ثم أقبلت قبائل من أولاد معن بن عدنان من تهامة حتى نزلوا البحرين على الأزد، وهؤلاء الذين أقبلوا من تهامة من بني وبرة من تغلب من قضاعة قصي بن معد كلها ومن إياد بن نزار ابن معد، فاجتمعوا بالبحرين فتحالفوا على التنوخ وهو المقام وتعاقدوا على التناصر فصاروا يداً على الناس، وضمهم اسم تنوخ فكانوا بذلك الاسم كأنهم عمارة من العمائر وتنخ عليهم بطون من عمارة من لخم وتنخ عليهم من الأزد الذين في البحرين بعض بني فهم بن غنم بن دوس قوم جزيمة الأبرش[١٧٦].

والتنوخي - بفتح التاء المشناه من فوقها وضم النون المخففة وبعد الواو خاء معجمة- وهي النسبة إلى تنوخ وهو اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديما بالبحرين وتحالفوا على التناصر وأقاموا هناك فسموا تنوخًا والتنوخ الاقامة، وهذه القبيلة إحدى القبائل الثلاث التي هي نصارى العرب وهم بهراء، وتنوخ، وتغلب[١٧٧].

لم تكن القبائل العربية هي سكان البحرين فقط، وإنما كانت هناك أقليات كثيرة، أثرت

كثيراً في مجريات الحياة في البحرين خاصة أن هذه الأقليات كانت تميل إلى الاستقرار بعكس القبائل العربية التي كانت في معظمها يميل إلى التنقل والترحال ومن هذه الأقليات:

الـــــزط: وقد اختلف في أصلهم، ففي حين يذكر البلاذري بأنهم من سبوا من أهل السند[١٧٨]. يذكر آخرون أنهم هنود، وكانوا ينتشرون قبل الإسلام في سواحل الأبله إلى البحرين وعمان وكانت الأبله قريبة من البصرة وبها عمران وتعتبر من أكبر مراكزهم. وعندما أسلموا نزح كثير منهم إلى الطاكية وسواحل الشام وكان مركزهم الثاني بعد الأبله البحرين[١٧٩].

ويروى المدائني[١٨٠] أن الزط كانوا في الطفوف (السواحل) يتتبعون الكلاء على ضفاف نهر السند. أما الأزهري فقال أنهم قوم من الهند وتنسب إليهم الثياب الزطية[١٨١] وكـانوا ينزلون الخط من أرض البحرين[١٨٢].

وقد ارتبط اسم الزط بالسيابجة وحيث أن روايات البلاذري والطبري وياقوت تذكر: بأنهم من السند، وقد سباهم الفرس في معارك سابقة وأسكنوهم في المناطق القريبة من البحرين وقطر وسواحل الخليج العربي، ثم استخدموهم بعد ذلك في قواتهم، ومما يزيد ذلك أن محمد ابن القاسم الثقافي بعث جماعة منهم إلى الحجاج عند فتحه السند[١٨٣].

وقد عرفت قبائل السند من الزط والسيابجة والطفوف ديانة قديمة عرفت بالبرهمية، كما عرفت عندهم الديانة البوذية وعندما جاء العرب المسلمون كان عامل البحرين وعمان متلهفاً على الإغارة نحو الهند فأرسل حملة في سنة (١٥هـ / ٦٣٦م) مما أغضب الخليفة[١٨٤].

ونتيجة لكثرة أعداد الهنود في البحرين من الزط تأثرت لغة أهل البحرين العربية بسبب الاختلاط، فلم تعد اللغة العربية سليمة ونصيحة حتى أن قبيلة بني عبد القيس لم تعتمد هذه اللغة وكذلك الأزد في عمان[١٨٥].

السيابجة: ذكر بعض المؤرخين أن أصلهم من السند[١٨٦] في حين يرى آخرون أن أصلهم من الهند وجزر الهند الشرقية، وأنهم كانوا يقومون بالملاحة بين ساحل الخليج العربي وشرق آسيا[١٨٧]. وكان السيابجة في عهد الرسالة وما قبلها موجودين في مناطق الخليج العربي، وفيما بعد عمروا البصرة (الأبله) وكانت البحرين هي مركزهم[١٨٨].

ويبدو أن السيابجة كانوا قوة عسكرية تخدم الأسطول الساساني عند سواحل الخليج العربي، وكان منهم في الخط حامية عند ظهور الإسلام، وقد انضموا إلى المرتدين في

البحرين[١٨٩]. ولايرد اسم السيابجة بعد الردة في حوادث البحرين. ويبدو أنهم خرجوا على البصرة فأسكنهم أبو موسى الأشعري هناك. ووكل إليهم حراسة بيت المال والمسجد ودار الإمارة والسجن، وبذلك كانوا بمثابة الشرطة في حماية المدينة[١٩٠].

وقد أخلص السيابجة في المهمات التي أوكلت إليهم، فقد رفضوا تسليم بيت المال الموكلين بحراسته في البصرة إلى الثائرين على علي بن أبي طالب وأصروا على انتظار قدوم علي، إلا أن عبدالله بن الزبير هاجمهم فقضى عليهم[١٩١].

الحياة الدينية في البحرين في فجر الإسلام:

إن موقع البحرين الاستراتيجي ومركزها التجاري جعل لها صلة قوية بالأقطار الأخرى وعلاقات عديدة مع دول مختلفة، أثرت في مسار الحياة الدينية في البحرين، حيث دان أهلها بعدد من الديانات نتيجة ذلك التأثير وأهم تلك الديانات السائدة:

الوثنية: إن انتشار الجهل بين عرب الشمال أدى إلى نشوء شيء من الاعتقاد بالأوثان في المدن خاصة، ثم تسرب إليهم من الشام والعراق شيء من عبادة الأصنام[١٩٢]. وذكـــرت المصادر أن من الأصنام التي عبدت في البحرين: ذو اللبا، وكان بالمشقر وتعبده عبد القيس، وعبدته منها بنو عامر[١٩٣]. وكانت بكر بن وائل تعبد الأصنام في الجاهلية ومن أصنامها أو ال[١٩٤]، وهذا الاسم كانت تعرف به البحرين آنذاك. والمحرق[١٩٥] صنم لبكر بن وائل[١٩٦] ومن أصنام بكر بن وائل – عوض[١٩٧].

النصـــرانية: النصرانية في البحرين قديمة، كان رئاب الشني العبدي في بلاد البحرين، ومشيله الجارود العبدي، سيد عبد القيس، قبيل اسلامه[١٩٨] وكان للنساطرة في بلاد البحرين أساقفة وخصوصاً في قطر، وهم سمونها بيت قطرايا، وقد ذكروا في مجمعهم الذي عقده سنة ٥٨٥م – الجاثليق شيشو عياب أهل البحرين المتنصرين، ويأمرونهم بالكف عن الشغل يوم الحد إن أمكنهم الأمر وإلا أعفوهم من ذلك على قطر أسقف اسمه ترما، وكان لقصبه البحرين– وهي هجر– أسقف اخر يدعى قوسى كما في أعمال مجمعهم سنة ٦٧٦م / ٥٧هـ، ومن جزائر البحرين دارين– ويقال دبرين– ذكر لها في تواريخ النساطرة ثلاثة أساقفة وهم بولس سنة ٤١٠م ويعقوب سنة ٥٨٥م وبشو عياب سنة ٦٧٦م، ومنها أيضا جزيرة سماهيج وهي في السريانية مشمهيج، في البحرين عمان، كانت فيها كنيسة مسيحية، وفي المجامع النسطورية أسما، ثلاثة أساقفة تولوا تدبيرها، وهم باطاي وإلياس سنة ٤١٠م، وسركيس

٥٧٦م ومن مدن الإحساء الخط، كان للنشاطرة فيها كنائس ، ذكر من أساقفها إسحاق سنة ٥٧٦م، وشاهين سنة ٥٧٦م [١٩٩].

دخلت النصرانية إلى البحرين عبر طرق مختلفة ، أحد هذه الطرق البعثات التبشيرية المسيحية يوملك، والتي تأتي إلى البلاد بطرق القوافل البرية والبحرية[٢٠٠] والطريق الآخر الذي دخلت المسيحية منه إلى البحرين كان العراق.

وقد انتشرت النصرانية في ربيعه حتى أوشكت أن تشمل كل بطونها وفروعها وغسان وبعض قضاعه[٢٠١] كما أعتنقها فريق من بكر بن وائل هم ، تيم اللات وضبيعة وبعض بني عجل[٢٠٢]. واعتنقت النصرانية أيضًا عبد القيس وقسم من بني تميم وهم بنو امرئ القيس بن زيد مناء[٢٠٣] ومن إشراف النصارى عند ظهور الاسلام بشر بن عمرو المعروف بالجارود وكان سيد عبد القيس ، وقد أسلم وحسن اسلامه [٢٠٤]. وقد أسلم معظم بني عبد القيس بعد إسلام الجارود ، وقد فرضت ضريبة الجزية على من بقي على نصرانيته .

وقد استطاع المبشرون المسيحيون يومذاك، أن يبلوا نشاطهم إلى قطر وهجر وبعض جزر الخليج إضافة إلى البحرين. وترتب على ذلك انتشار الأديرة ومن أشهرها مطرنة في قطر تسمى بيت قطرايا ، ويمتد سلطانها على مساحة أوسع من قطر الحالية ، وكان لها عدد من الأسقفيات خاضعة لرئيس أساقفة فارس. ويظهر من مجمع نسطوري عقد سنة ٦٧٦م ذكر فيه الآباء عدة أمور دينية أن بلاد البحرين كانت حافلة بالكنائس والأديرة ودعاة الدين المسيحيين وكان إذ ذاك على قطر أسقف اسمه ترما[٢٠٥].

اليهودية : يبدو أن اليهود في البحرين والخليج جاءوا إليهما من مناطق عربية مختلفة ، ومنها العراق والشام، وكان طريق التجارة والهجرة عاملاً قويًا لتسرب اليهود إلى المنطقة. وكانت يثرب بالحجاز مركزاً قويًا لليهود قبل الإسلام، وفي قلب الجزيرة العربية تمكنوا من أن يقرموا بتوزيع بشرى لتجمعاتهم داخل يثرب في مواقع متعددة ، فقد واتتهم الفرصة الذهبية حتى كان يقوم الصراع بين الأوس والخزرج ، وكان اليهود يؤججون ذلك الصراع [٢٠٦].

ولم تنتشر الديانة اليهودية بين العرب إلا بنطاق ضيق خاصة أن الديانة اليهودية ديانة قومية غير تبشيرية على عكس المسيحية. وعند ظهور الإسلام بقي اليهود مقيمين في البحرين يدفعون الجزية ويسكنون المواضع الحصينة الواقعة على طرق المواصلات من جزيرة العرب، وكان عملهم ينحصر في التجارة والزراعة وبعض الصناعات وكانوا يتعاملون بالربا مما أكسبهم نفوذاً عند سادة العرب من القبائل والملوك[٢٠٧]. وعرف من يهود البحرين ابن يامن

الذي عاش في هجر وامتلك عدداً من السفن التي تبحر في الخليج، وامتلك كذلك عدداً من النخيل [٢٠٨].

المجوسية : أنها ديانة بلاد فارس، وتسرب إلى البحرين شيء منها. والمجوسية تعتقد بأله النور وآله للخير وآله للظلمة والشر وبعبادة النار[٢٠٩]. وقد أورد بعض الإخباريين أن بعض العرب من تميم قد تمجس، منهم زرارة بن عدس وابنه حاجب والاقرع بن حابس وأبو سود جد وكيع بن حسان[٢١٠]. وكان المجوس في البحرين يعيشون مع اليهود والنصارى[٢١١] وكان للمجوس مرزبان يدعى سيبخت[٢١٢] أسلم بعد فتح البحرين، لكن بقية المجوس هناك لم يسلموا بل أسلم بعضهم فقط.

إن قلة انتشار المجوسية بين العرب ربما يعود إلى أنها ديانة غير تبشيرية وشأنها في ذلك شأن الديانة اليهودية ، وإلى طبيعة الديانة المجوسية التي تتعارض مع أخلاق العرب وعاداتهم وتقاليدهم. فقد كان المجوس قلة في البحرين وبعد ظهور الإسلام تناقص أتباع هذه الديانة وانقرضت فيما بعد رغم أن مجوس البحرين كانوا أكثر عدداً وأكبر نفوذا من إخوانهم في عمان [٢١٣].

الاسبذية (عبادة الخيل) : ديانة فارسية تنسب إلى الأسبذ وهو الفرس أو الحصان [٢١٤]. وورد إن قوما عرفوا بالأسبذيين كانوا يعبدون الخيل، وهم من المجوس الفرس وأن بعض القبائل مثل أياد كانت تتبرك بالناقة[٢١٥] . وقد اعتنق هذه الديانة فخذ من تميم يدعى بني عبدالله بن دارم ومنهم المنذر بن ساوى وتذكر رواية أخرى أن أسبذ قائد فارسي لكسرى على البحرين، استعبدهم وأذلهم[٢١٦]. وبينما يذكر البلاذري أن اسبذية قرية بهجر[٢١٧] ينفي أحد الباحثين ذلك حيث يورد أن مساكنهم ليست في أسبذ فقط وإنما استقروا في مناطق أخرى من البحرين[٢١٨] .

دخول البحرين في الإسلام:

كان المناذرة يسيطرون على الأراض الواقعة في شرق جزيرة العرب قبيل الإسلام، ويمتد سلطانهم ونفوذهم من أطراف العراق إلى البحرين وإلى جبل طي . وقد عملوا على نشر السلم والأمن في الجزيرة ، ولم يفرضوا سلطانًا على أهل الجزيرة أو يصنفوهم وكانت مرونتهم في المعاملة عاملاً في منع اصطدام العرب بالأقاليم الشرقية[٢١٩].

ومما يؤكد خضوع البحرين لدولة المناذرة ربيبة الإمبراطورية الفارسية في العراق حكاية الشاعر طرفة بن العبد حيث قيل أنه هجا عمرو بن هند وأراد الرجوع إلى البحرين وهنا زوده

عمرو بن حند بكتاب إلى حاكم البحرين ، وعندما وصل طرفة بن العبد قبض عليه والقى بالسجن[٢٢٠] .

كان بهذه المنطقة قبل دخولها فى الإسلام خلق كثير من عبد القيس وبكر بن وائل ، وتميم مقيمين فى بادیتها ، وكان عليها المنذر بن ساوى العبدى واليا من قبل الفرس فلما كان العام السادس للهجرة ، وجه الرسول ﷺ العلاء بن عبدالله بن عماد الحضرمى حليف بنى عبد شمس ومعه كتاب إلى المنذر[٢٢١] وهى أول سفارة بين الرسول وسكان البحرين لدعوتهم للإسلام ، ويذكر البلاذرى أن المراسلة كانت فى السنة الثامنة للهجرة وقد بعث الرسول ﷺ للمنذر بن ساوى ولسبخت مرزبان هجر يدعوهما إلى الإسلام أو الجزية[٢٢٢].

ولقد استجابت البحرين لدعوة الرسول بالدخول فى الإسلام دون قتال[٢٢٣] ، وكان على رأس المتجاوبين المنذر بن ساوى الذى أسلم معه جميع العرب وبعض العجم ، بقى العلاء الحضرمى فى البحرين وأرسل خراجها للرسول ﷺ ، ثم عزل الرسول ﷺ العلاء ، وولى أبان ابن سعيد بن العاص بن أمية بعده. وقيل أن العلاء كان على ناحية من البحرين منها القطيف، وكان أبان على ناحية أخرى فيها وهى (الخط)[٢٢٤].

وهناك العديد من الاسباب التى تؤكد إن إسلام البحرين كان سهلا ميسوراً منها ترقب أهل البحرين بومذاك لدعوة نبوية جديدة كما كان شائعاً فى تلك الفترة، كما كان المنذر بن ساوى يخشى على سلطانه من الفرس ، وقد قوى الإسلام مركزه ، وبقى حاكما للبحرين حتى وفاته سنة ١١هـ . هذا إضافة إلى أن اتصالات أهل البحرين بالحجاز كانت قوية فى تلك الفترة بسبب التجارة المزدهرة فكان ذلك عاملاً آخر فى التفاهم الفكرى بين الإقليمين[٢٢٥].

وفود أهل البحرين على الرسول ﷺ :

عرف العام التاسع للهجرة بعام الوفود وذلك لوفود عدد كبير من القبائل العربية على الرسول ﷺ تعلن دخولها فى الإسلام وإذعانها له[٢٢٦] وكان الرسول ﷺ يستقبل الوفود أحسن استقبال وبأجمل هيئة ، كما كان يكرمهم ببعض الهدايا حين انصرافهم عائدين إلى بلادهم . فعندما كتب رسول الله ﷺ إلى أهل البحرين قدم عليه عشرون رجلا على رأسهم عبدالله بن عوف الأشج وتكون الوفد من بنى تميم ومن بنى عبد القيس[٢٢٧].

واختلفت المصادر حول وصول وفد الأشج إلى المدينة فيرى البعض أن وصوله كان فى السنة الخامسة أو السابعة ، يرى البعض الآخر أن الوفد كان وصوله فى السنة الثامنة أو التاسعة وهو عام الوفود[٢٢٨]، وقد رجحت كفة المصادر التى ذكرت السنة الثامنة للهجرة[٢٢٩].

وعند وصول وفد البحرين فى السنة الثامنة للهجرة أسكنهم الرسول ﷺ فى دار رمله بنت الحارث، وقد تعلم الوفد خلال إقامته الشئ الكثير عن الإسلام ، حيث كان رئيس الوفد يسأل الرسول ﷺ عن القرآن الكريم، وكان أبى بن كعب يقرأ عليه بعض السور ، ويرجح أن الوفد مكث عشرة أيام، أى إلى ما بعد فتح مكة فى السنة الثامنة للهجرة[٢٣٠].

الوفادة الثانية : قدم وفد ثان على الرسول ﷺ فى السنة الثامنة للهجرة برأسه الجارود[٢٣١] بشر بن المعلى بن عمرو بن حنش المعلى[١٣٢] . والجارود ضمن وفادة الأشج الأولى وكان نصرانيا[١٣٣] وأحد أشراف الجاهلية سيد قومه ورئيسهم[١٣٤]، وعندما عرض عليه الرسول ﷺ الدخول فى الإسلام ورغبه فيه فقال : « يا محمد أننى على دين، وأنى تارك دينى لدينك افتضمن لى دينى » ؟ فقال الرسول ﷺ : «نعم أنا ضامن لك أن قد هداك الله إلى دين هو خير منه» فأسلم وحسن إسلامه، وأسلم من كان معه[٢٣٥] من أعضاء الوفد، وكان عددهم ستة عشر رجلا[٢٣٦].

وقد تفقد الجارود وأصحابه فى الدين خلال إقامتهم فى المدينة، فكان حسن الإسلام صلبًا على دينه فقد وقف فى وجه المرتدين فى السنة الحادية عشرة للهجرة ، بكل قوة وحزم وبجهوده تراجعت عبد القيس عن الردة وتمسكت بالإسلام[٢٣٧].

ويتضح مما سبق أن علاقة الرسول ﷺ بأهل البحرين كانت مميزة أو نقول أنها بدت علاقة حميمة، وتشير إلى ذلك كتبه ولقاءاته وثناؤه الجم على سكان البحرين ، فهو يطلب وفداً من البحرين ويحدد العدد المرغوب فيه، ويثنى على هذا الوفد قبل أن يراه ويبدو راضيا به عند اللقاء، يستفيضه ويقرب سيده ويثنى عليه، ثم يستقبل وفداً آخر فى السنة التاسعة للهجرة مع زعيمه المسيحى فيسلم هذا الزعيم أمام الرسول ، ويضمن له الرسول أنه مع الحق ويقربه ويعطف عليه[٢٣٨] .

البحرين زمن الخلافة الراشدة ١١-٤٠هـ / ٦٣٢-٦٦٠م :

البحرين زمن خلافة «أبو بكر الصديق»

ظل أبان بن سعيد بن العاص واليا على البحرين، وعند وفاة الرسول ﷺ عاد إلى المدينة دون علم الخليفة أبوبكر وقد أنبه عمر فقال له : (ما كان حقك أن تقدم وتترك عملك بغير إذن إمامك) فرد إبان بن سعيد قائلا: (أما إنى والله ما كنت لأعمل لأحد بعد رسول الله ﷺ)[٢٣٩] . وأعاد الخليفة أبوبكر العلاء بن الحضرمى إلى البحرين كوالى بعد استشارته للصحابة ، وقيل إنه استشار أهل البحرين فى أن يرد العلاء عليهم ففعل[٢٤٠]. وظل العلاء

بن الحضرمي والياً على البحرين طيلة خلافة أبي بكر، وجزء كبير من خلافة عمر بن الخطاب، حتى عزله عمر، وعين مكانه أبي هريرة الدوسي [٢٤١].

وقيل أن أبا بكر ولى أنس بن مالك على البحرين لكنه على ما يعتقد ولاه على الصدقات، فكان عامل أبوبكر على الصدقات[٢٤٢]، وكان العلاء بن الحضرمي والي البحرين وهو الذي تصدى لحركة المرتدين فيها، والتي حدثت مباشرة بعد وفاة الرسول ﷺ.

حركة الردة في البحرين:

ارتد من في البحرين بعد وفاة الرسول ﷺ ووفاة المنذر بن ساوى في نفس الشهر، وكان ذلك في السنة الحادية عشرة فارتدت قبائل بكر بن وائل وربيعه[٢٤٣]، وظلت بكر على ردتها، أما عبد القيس فجمعهم الجارود العبدي، وكان بلغه أنهم قالوا: لو كان محمد نبياً لما مات. وقالوا: ترد الملك في المنذر بن النعمان بن المنذر، وكان يسمى الغرور فلما أسلم كان يقول: أنا المغرور ولست بالغرور[٢٤٤]. وقد استطاع الجارود أن يثني قومه عن الردة، فعادوا إلى إسلامهم وثبتوا عليه[٢٤٥].

إن رجوع بني عبد القيس إلى الإسلام لم يثن سائر أهل البحرين عن ردتهم، بل اجتمع الذين أصروا على الردة بزعامة الحطم بن ضبيعه[٢٤٦] أخي بني قيس بن ثعلبة، فردوا الملك في آل المنذر، ثم أنهم حاولوا أن يصرفوا الجارود[٢٤٧]، والذين معه عن إسلامهم فذهبت محاولاتهم سدى. ونزل الحطم بين القطيف وهجر وبعث إلى داربن[٢٤٨]، فأقاموا ليجعل عبد القيس بينه وبينهم، وأرسل إلى المغرور بن سويد أخي النعمان بن المنذر يبعثه إلى جواثى وقال: أثبت فإن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة فحاصره المسلمون بجواثي[٢٤٩].

لقد امتنع المرتدون عن الإسلام عن دفع الزكاة، وأبطلت الشعائر في جميع أنحاء البحرين ما عدا مسجد جواثي. ومن الشخصيات التي ارتدت عن الإسلام مالك بن مسمع بن سيار، من قبيلة بكر بن وائل من ولد جحدر، وكان سمع هذا والد مالك الذي كان ضمن الوفد الذي قابل رسول الله ﷺ وقد أسلم، وبعد وفاة الرسول ﷺ ارتد هو ابنه [٢٥٠].

أصبح الحطم قائد الردة القوي في البحرين، حيث استطاع تنظيم قوى المعارضة فبعد أن تم اختياره حاكماً للبحرين قام بتنظيم صفوف الجيش الذي انخرطت فيه أعداد كبيرة من أقوام الزط والسيابجة والأساورة[٢٥١]، بعد أن تمكن من استغوائهم وضمهم إلى صفوف جيشه،

فأصبحوا يشكلوا قوة كبيرة ضاربة شكلت قوة مساندة لحركته استطاع أن يستغل بعض الظروف السائدة آنذاك منها سوء العلاقة التي كانت بين المسلمين من عبد القيس، وبين أهل داربن والذي كان يستفز أهلها ويحضهم على المسلمين ويحمل على الوقيعة بينهما[٢٥٢].

وهكذا أصبح الحطم يشكل قوة عسكرية كبيرة في البحرين تفوق قوة المسلمين، من حيث العدد فأخذ يضغط على الجارود وجماعته من المسلمين، وتمكن من محاصرتهم في حصن جواثي مؤيداً من فارس وبلاطها، وقد ألح عليهم في الحصار حتى اشتد عليهم الجوع وكادوا يهلكون [٢٥٣].

لقد أختار أبوبكر الصديق العلاء بن الحضرمي[٢٥٤] لبعيد سيطرة الاسلام على البحرين، ويذكر ابن سعد، أن العلاء خرج في البداية من المدينة مع قوة قوامها ستة عشر رجلا[٢٥٥]، ليبحث في استعادة السيطرة على قبائل بني تميم التي كانت منازلها وديارها على الطريق بين المدينة والبحرين ويذكر الطبري نقلا عن ابن سيف: أنه انضم إليه قيس بن عاصم وعدد من عمرو وسعد والرباب[٢٥٦]، وأمر الخليفة أبوبكر العلاء بالمسير إلى البحرين والى نصره عبد القيس ثم قاله له: يا علاء لاتمرن بحي من أحياء العرب إلا استنهضتهم إلى محاربة بني بكر بن وائل فإنهم قد أتوا بالمنذر بن النعمان بن المنذر من عند كسرى ملك الفرس، وقد عقدوا التاج على رأسه وقد عزموا على إطفاء نور الله وقتل أولياء الله فسر، وقل: لا حول ولا قوة إلا بالله[٢٥٧].

سار العلاء بن الحضرمي حتى صار بأرض اليمامة، فاستقبله ثمامة بن أثال الحنفي في مسلمة بني حنيفة، ولحق به أيضا قيس بن عاصم المنقري، وأعطاه بدل ما كان تسلم من الصدقة بعد موت النبي ﷺ وأنظم إليه عمرو والأبناء، وسعد بن تميم، وقد لحقته الرباب في مثل عدته. وقد استطاع العلاء أن يقوي الروح المعنوية لأنصاره، بعد أن وجد عليهم الغم وخوفهم من الهلاك، فبشرهم بالنصر ودعاهم إلى الجهاد[٢٥٨].

إن قرار أبي بكر إرسال الجيوش لمحاربة المرتدين، لم يكن قراراً جماعيا من قبل الصحابة، حيث إن البعض اعترض على القرار بحجة أن المرتدين لم يكن جميعهم مشركين بل إن بعضهم من يقر بوحدانية الله إلا أنهم امتنعوا عن دفع الصدقات (الزكاة) بعد وفاة الرسول ﷺ ومنهم بنو يربوع وزعيمهم مالك بن نويرة [٢٥٩]. أما البعض الآخر فقد كفروا بالله ورسوله وهم المشركون، ويمثلهم بنو بكر بن وائل وقبائل ربيعه والأزد وجماعات من

الفرس وهناك قلة من جماعات المتنبئين الذين تبعوا مسيلمة الكذاب وغيره. ولكن الرأي القائل بالحرب قد غلب عليهم آخر الأمر.

وصل جيش العلاء إلى البحرين بعد أن واصل مسيره وأرسل العلاء إلى الجارود يشد من عزيمته وعزيمة من معه ووقف هو من الخطم موقف المتأهب للقتال، وقد هب الجارود ومن معه من المسلمين من قومه لنجدة العلاء، إلا أنه أمر من قبل قوم من بكر بن وائل ، وقد كتب إلى المسلمين وهو في أسره يصف المرتدين بقوله: «إن هؤلاء القوم الذين أنا في أسرهم ضباع في الليل وأسود في النهار»[٢٦٠].

واصل العلاء سيره نحو الشرق حتى اقترب من هجر ، وكانت قيادة المرتدين في مدينة هجر، وكان الخطم بن ضبيعة، وحليفة «الغرور» ابن سويد لايزالان يحاصران المسلمين في «جرائى» في حين كان الجارود بن المعلى ومن معه من المسلمين لايزالون يناوشون المرتدين في انتظار المدد من المدينة ، وقام العلاء بالتنسيق مع الجارود ، فاستبقى الجارود ومن معه في الجهة الشرقية من هجر في حين ضرب الجيش الإسلامي بقيادة العلاء الحصار على هجر من الغرب، وقطعت إمدادات المرتدين من جهة البر[٢٦١]. وبنى المسلمون والمشركون الخنادق كل في جهته ، وكانوا يتراوحون القتال ويرجعون إلى خنادقهم ، واستمر هذا الحال شهرا، حتى استطاع المسلمون دخول معسكر المشركين بعد أن وجدوهم سكارى، فوضعوا السيوف فيهم حيث شاءوا واقتحموا الخندق واستولى المسلمون على ما في المعسكر وفر القوم هربًا بين مقتول وناج ومقتول ومأسور[٢٦٢] .

كان من نتيجة هذه المواجهة إن قتل الخطم، قتله قيس بن عاصم بعد أن قطع عفيف بن المنذر التميمي رجله، وأسر عفيف بن المنذر والغرور بن سويد الذي قال للعلاء : «أجرني» فقال له العلاء: «أنت غررت بالناس» فقال لكني «أنا مغرور» ثم أرسله وأقام بهجر وقتل الغرور بن سويد بن المنذر وقسم الأنفال بين الناس، وأعطى بن المنذر وقيس بن عاصم وثمامة ابن أثال من أسلاب القوم وثيابهم[٢٦٣] .

أما بالنسبة للناجين من الموت أو الأسر فقد ركبوا السفن إلى جزيرة دارين فتركهم العلاء بها ريثما جاءته الكتب تنبئه بأن من بقي في البحرين من القبائل رجعوا إلى دين الله، وكان جيشه قد ازداد عدده بمن انضم إليه من أهل البلاد[٢٦٤]. عند ذلك أمر الناس بالذهاب إليها حتى لايبقى لمرتد في الأرض ملجأ، والتقوا بأعدائهم فقتلوهم ، وضرب الإسلام رواقه في تلك الأنحاء[٢٦٥].

يبدو أن قرار «أبا بكر» إلى خالد بن الوليد بطلب توجه الأخير إلى البحرين من اليمامة، قد جاء متأخراً حيث أن خالد وصل البحرين بعد أن استطاع العلاء بن الحضرمي أن يقضي على حركة المرتدين وذلك في سنة ١٢هـ[٢٦٦]. عند ذلك أمر الناس بالذهاب إليها حتى لايبقى لمرتد في الأرض ملجأ، والتقوا بأعدائهم فقتلوهم أشد القتال حتى أتوا عليهم، وسبوا الذراري وساقوا الأموال ، التي بلغت كثرتها جداً جعل نفل الفارس ستة آلاف والراجل ألفين[٢٦٧]. وجمع العلاء بن الحضرمي ما كان عنده من الغنائم فأخرج منه الخمس ووجه به إلى «أبي بكر» وكتب إليه يخبره بالقضاء على حركة الردة في البحرين ، فكتب إليه أبو بكر بالجواب وأقره على البلاد [٢٦٨]. وكتب العلاء إلى من يثبت على إسلامه من بكر بن وائل، وإلى نفر منهم المثنى بن حارثه الشيباني ليسيروا للمرتدين، ويأخذوا عليهم الطريق ولم يزل حال العلاء ومن معه على محاربة المرتدين حتى استقام أمرهم ورجعوا إلى الإسلام ، وضرب الإسلام في البحرين بجرانه [٢٦٩].

بذلك فان حركة الردة عن الإسلام في البحرين، لم تكن عنيفة أو شاملة ولم تظهر من بين أهلها زعامات قوية ترفض الدين أو تدعي النبوة ، وإن ما وجدت بها عناصر تائهة ، وتجمعت حول زعيم بغير كفاءة يسمى الخطم بن ضبيعة ، فكان عليه أن يواجه منذ البداية ما يكشف عن بوادر فشله، لأن عناصر من البيئة نفسها أخذت تستجيب للنصائح، وتحملت مسؤلية الدفاع عن رأيها، وكأن مظاهر الهزيمة واجهت هذا المرتد منذ البداية، وهي شئ لم يعرفه في بلاد العرب الأخرى[٢٧٠].

وهكذا نجد أن الأمور قد هدأت واستقرت في البحرين ، خاصة بعد القضاء على ردة أهل القطيف وأهل دارين، إلا أن حركات التمرد التي قام بها الفرس المجوس بزعامة (المكعبر) واسمه فيروز بن جشيش قد أقلقت راحة المسلمين ، فقد تحصن في موضع العلاء لقتالهم إلا إنهم انسحبوا إلى الزارة وتحصنوا بها، وظل العلاء محاصرا لهم وقد طال أمد الحصار ولم يتمكن المسلمون من القضاء عليهم إلا في عهد عمر بن الخطاب، وهذا دليل على أن موضع الزارة كان حصينا في ذلك الوقت ، فحصار المسلمين للزارة كان طويلا وقيل إن العلاء تمكن من فتح الزارة في عهد أبوبكر وقد غنم أموالهم [٢٧١]. وبعثها إليه فوزعها على المسلمين بالتساوي فكان نصيب كل مسلم ديناراً واحداً.

البحرين في عهد عمر بن الخطاب :

استطاع العلاء في أول خلافة عمر أن يقوم بفتح السابور ودارين ، ثم غزا مدينة الفارز فقتل من بها من الفرس ثم أتى الزارة وبها المكعبر فحصره ، ثم أن مرزبان الزارة دعا إلى البراز ، فبارزه البراء بن مالك فقتله ، ولم تستسلم المدينة إلا حين خرج رجل من الزارة مستأمنا . دل المسلمين على العين التي تسقي سكان الزارة، فسدها العلاء وحبس المياه عنهم، فاضطروا إلى طلب الصلح . وقد صالحهم على أن يكون للمسلمين ثلث المدينة وثلث ما فيها من ذهب وفضة على أن يأخذ النصف مما كان لهم خارجها [٢٧٣].

ولم تتوقف طموحات العلاء بن الحضرمي عند التوسع البري فقط، وإنما كانت طموحاته أبعد من ذلك بكثير، بحيث تعدت إلى البحر كذلك عندما وجه هرثمة بن عرفجة البارقي من الأزد ففتح إحدى الجزر المهمة في البحر مما يلي فارس[٢٧٤] .

ونطلع العلاء بن الحضرمي إلى التوسع بدون استشارة الخليفة عمر بن الخطاب فقام بحشد جمع كبير من أهل البحرين ، جله من عبد قيس، لغزو فارس ، وجعل على ذلك الجيش ثلاثة قادة، وهم الجارود بن المعلى ، والسوار بن همام وخليد بن المنذر بن ساوى، وعبر الجنود البحر من البحرين متجهين إلى اصطخر[٢٧٥] في فارس، ولكن قائد الجيش الفارسي واسمه الهربذ المرابط على الحدود استطاع أن يحاصر المسلمين ، وأن يحول بينهم وبين سفنهم ، وجرت معركة كبرى في موضع من الأرض يدعى طاوس، اقتتل فيها الفريقان قتالاً شديداً أدى إلى مقتل همام بن سوار والجارود بشر بن عمرو [٢٧٦]. وقام الفرس بإشعال النار في سفن المسلمين الراسية، ليقطعوا خط الرجعة على المسلمين، ولتتم محاصرتهم ، واضطر خليد بن المنذر القائد العسكري أن يعدل من خطته العسكرية ، ليتفادى الخسائر ، فأمر جنوده بأن يترجلوا من على ظهور خيولهم ليكون القتال على الأقدام [٢٧٧]. فأصبح جيش المسلمين محاصراً في البر والبحر، وكان في موقف حرج .

وعندما علم عمر بن الخطاب بما فعل العلاء من بعثه ذلك الجيش في البحر ، اشتد غضبه على العلاء، وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان والي البصرة أن العلاء بن الحضرمي حمل جنداً من المسلمين فأقطعهم أهل فارس، وعصاني، وأظنه لم يرد الله بذلك [٢٧٨]. وطلب منه بأن يرسل جيشاً على وجه السرعة إلى مدينة اصطخر من بلاد فارس لإنقاذ الجيش المحاصر قبل أن يهلكوا ، وأمر العلاء بالانصراف عن البحرين إلى سعد بن معد، فأرسل عتبة جنوداً قدروا

باثني عشر ألف مقاتل ، فيهم عاصم بن عمرو ، وعرفجة بن هرثمة والأحنف بن قيس ، وأمثالهم وعليهم أبوسبرة بن أبي رهم من عامر بن لؤي [٢٧٩].

خرج جيش المسلمين من البصرة وسلك طريق البر، وعانى المسلمون من وعورة الطريق ومشقة السفر إلا أنهم وصلوا إلى مدينة اصطخر ، والتقوا بجيش خليد بن المنذر المحاصر ، وجرت معركة بين المسلمين والفرس أسفرت عن سحق قوات «الهربذ» واستنقاذ المسلمين من الهلاك، وبعد تحقيق النصر وفك الحصار استحث عتبة جيشه بالرجوع ، بعد انتهاء مهمتهم على أرض فارس، فرجعوا إلى البصرة ، ثم استأذن عتبة الخليفة عمر في الحج فأذن له فلما قضى حجه استعفاه فأبى أن يعفيه ، وعزم عليه ليرجعن إلى عمله ثم انصرف ، فمات في بطن نخلة فدفن[٢٨٠] في موضع يقال له (نياس) بأرض تميم .

ويتبين من تسلسل هذه الأحداث بأن تصرفات العلاء بن الحضرمي الأخيرة هي التي دفعت الخليفة عمر بن الخطاب لعزله للمرة الثانية عن ولاية البحرين ، وقد توفي العلاء بن الحضرمي في الطريق وهو في سبيل تنفيذ أمر الخليفة عمر، القاضي بالتوجه إلى البصرة سنة ١٥ للهجرة ليعمل تحت إمرة سعد بن أبي وقاص[٢٨١] .

وفي عهد عمر بن الخطاب كان لوالي البصرة صلاحيات إدارية واسعة في بعض الأحيان، فكان هو الذي يعين العمال على البحرين ، يستدل من ذلك من قول الربيع بن زياد الحارثي: «كان عاملا لأبي موسى الأشعري على البحرين» وقد أقر أبو موسى بصفته والياً على البصرة الربيع على البحرين بدون علم واستشارة الخليفة عمر، ويؤكد ذلك الربيع بن زياد نفسه بقوله : «دخلت على عمر فسألني من أنت ؟ قلت الربيع بن زياد الحارثي. قال وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت البحرين»[٢٨٢] .

كما قام بمحاسبة دقيقة لأبي هريرة بن أمية عندما ولاه البحرين في عام ١٧ هـ بعدما عزل العلاء عنها ، واستمر أبو هريرة عليها إلى عام ٢٠ هـ بعد أن دفع ثمن بقائه في الولاية بعد أن أتهم بالاختلاس ، فدفع عشرة آلاف فقال له عمر : استأثرت بهذه الأموال يا عدو الله وعدو كتابه؟ فقال أبو هريرة، لست بعدو الله ولا عدو كتابه ولكن عدو من عاداهما، فقال: فمن أين هي لك ؟ قال: خيل نتجت ، وغلة ورقيق لي، وأعطيات تتابعت علي[٢٨٣]. إلا أن عمر لم يقتنع بحجج أبي هريرة فقام بمصادرة الأموال [٢٨٤]، فرفض أبو هريرة العودة إلى عمله حتى أن عمر قال له : تكره العمل وقد طلبه من كان خيراً منك، ويقال بأن عمر غرمه اثني عشر

ألف فلهذا امتنع فى الثانية [٢٨٧]. وبعد رفض أبى هريرة لعمله فى البحرين قام عمر بتعيين عثمان بن أبى العاص سنة ٢٠ هـ والذى كان واليا على البحرين وعمان من قبل سنة ١٥هـ وكان قد وجه أخا الحكم إلى البحرين ومضى هو إلى عمان[٢٨٨] ثم عزله عمر وولى قدامه بن مظعون وجعل أبا هريرة على الصلاة والخراج ثم ما لبث عمر أن عزل قدامة بسبب اتهامه فى أمانته لجمعه ثروة كبيرة[٢٨٩].

لقد أصبحت البحرين فى ولاية عثمان بن أبى العاص من القواعد العسكرية الهامة بالنسبة للفتوحات الإسلامية نحو بلاد فارس. وقد قاد عثمان جيش المسلمين فى عبوره البحر إلى بلاد فارس والتقى بجيوش فارس عند مدينة «تورج» ودار قتال ضار بين المسلمين والمشركين. وقد استبسل المسلمون فى هذا القتال، واستطاع جيش المسلمين أن يحقق نصراً على الفرس ، وأدى إلى قتل قائدهم «سهرك» [٢٩٠]. لقد استمرت ولاية عثمان بن أبى العاص على البحرين إلى ما بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب فى سنة (٢٣هـ / ٦٤٣م) [٢٩١].

البحرين فى عهد عثمان بن عفان:

لقد أعاد الخليفة عثمان بن عفان ، عثمان بن أبى العاص الثقفى إلى ولايته على البحرين وما ولاها بعد استلامه الخلافة فى سنة ٢٣هـ [٢٩٢]. وكانت عمان أيضًا تتبع البحرين إداريًا تحت إدارة عثمان بن أبى العاص منذ أيام الخليفة عمر. فلما ولى عمر عثمان بن أبى العاص البحرين وعمان، دان له أهلهما بالطاعة ، بعد ذلك وجه أخاه الحكم بن العاص فى البحر إلى فارس فى جيش عظيم من عبد القيس والأزد وتميم وبنى ناجيه وغيرهم، فلتح جزيرة (ابركاوان) ثم صار إلى تورج، وهى من أرض أردشير خره، وفى رواية أبى مخنف أن عثمان بن أبى العاص نفسه قطع البحر إلى فارس ، فنزل تورج ففتحها وجعلها داراً للمسلمين وأسكنها عبد القيس وغيرهم ، فكان يغير منها على (أرجان) وهى متاخمة لها ثم أنه شخص عن فارس إلى عمان والبحرين بعد وصول كتاب لعمر فى ذلك ، واستخلف أخاه الحكم[٢٩٣] .

وقد نفذ عثمان بن عفان وصية عمر ، التى تنص على إبقاء عماله على ولاياتهم لمدة سنة بعد وفاته[٢٩٤] . لكن عثمان بن أبى العاص ترك عمله على البحرين وعمان وذهب إلى البصرة فأقطعه الخليفة عثمان بن عفان أثنى عشر ألف جريب[٢٩٥] . وقام الخليفة عثمان بن عفان بتعيين عبدالله بن سوار العبدى ثم مروان بن الحكم [٢٩٦].

البحرين زمن الخليفة على بن أبى طالب:

بعد وفاة الخليفة عثمان بن عفان دانت البحرين مثلها مثل باقى الأمصار الإسلامية للإمام على ما عدا الشام والتى كانت تتزعم المعارضة للأمام على، بقيادة والى الشام معاوية بن أبى سفيان الذى رفض قرار الخليفة بالعزل الذى جاء فيه: «هذا كتاب على إليك وإلى أهل الشام يدعوك إلى الدخول فى طاعته ، فقد اجتمع له الحرمان والمصران والحجازان واليمن والبحران وعمان واليمامة ومصر وفارس والجبل وخراسان ، ولم يبق إلا بلادكم هذه وأن سال عليها واد من أوديته أغرقها»[٢٩٧].

وقد تعاقب على حكم البحرين فى عهد الإمام على مجموعة من الولاة هم عمر بن أبى سلمه والنعمان بن عجلان الأنصارى ، وقدامه بن العجلان وعبيدالله بن العباس[٢٩٨].

وقد ناصر أهل البحرين على بن أبى طالب فى حروبه، وكانت قلوبهم معه وسيوفهم أيضا. ففى حرب البصرة وصفين انحاز إلى صف على ٣٠٠ فارس من عبدالقيس وربيعه على رأسهم حكيم بن جبلة العبدى، وهناك أصدقاء الإمام على الذين أحاطوه باهتمامهم ورعايتهم فكانوا أصدقاء مقربين له. وهم من وجوه البحرين المعروفين منهم صعصعه بن صوحان العبدى، ورشيد الهاجرى، والحارث بن مره العبدى[٢٩٩] ، الذى غزا الهند فى عهد الإمام على بعد أن استأذنه فأذن له وحصل على نصر وأصاب مغانم كثيرة[٣٠٠] ، وكان ذلك فى سنة (٣٩هـ / ٦٥٩م) .

إن مناصرة أهل البحرين للإمام على جلب عليها فيما بعد عداء بنى أمية، خاصة بعد أن أصبحت البحرين مركز أعداء البيت الأموى، الذين صاروا يلجئون إلى البحرين لأنها بعيدة عن مركز الخلافة الأموية فى الشام [٣٠١].

البحرين فى عصر الدولة الأموية ٤٠هـ - ١٣٢هـ / ٦٦٠- ٧٤٩م :

ارتبطت أحداث البحرين خلال العصر الأموى بمشكلات الدولة الأموية بشكل عام ، وتأثرت بشكل خاص بمجريات الأحداث فى مناطق كان لها الأثر الكبير فى تاريخ الدولة الأموية، ومن هذه المناطق، التى ارتبط تطور الأحداث فى البحرين بها ، البصرة والحجاز، عمان واليمامة. أى أن البحرين تأثرت أو أثرت فى الأحداث التى كانت ضد الدولة الأموية ، فى هذا الإطار الجغرافى. وكان أبرز تأثر ومشاركة للبحرين فى هذا العصر يتحصر بشكل رئيسى فى مجريات حركات الخوارج ضد الدولة الأموية سواء كان ذلك فى العراق أو فى عمان وغيرها.

وضمن ذلك كان للبحرين المتأثرة بحركة الخوارج مشاركة في أحداث أخرى ثارت ضد الدولة الأموية في الحجاز رغم أن هذه الأحداث ومجرياتها لا علاقة لها بالحركة الخارجية ، إلا أنها تندرج ضمن حركات تهدف لأضعاف الدولة الأموية أو الانفصال عنها [٣٠٢].

كان لمعركة صفين (٣٧هـ) نتائج بالغة الخطورة خاصة أن النصر لم يتحقق لطرف دون آخر بفعل الخديعة ، فحينما لاح خطر الهزيمة ، رفع أهل الشام المصاحف على أسنة رماحهم ، عملا بمشورة عمرو بن العاص ، فأحدثوا في أهل العراق الأثر المطلوب ونجحت الخديعة وانشق جيش الامام على الذي رشح للتحكيم [٣٠٣].

الخوارج في البحرين: ارتبطت نشأتهم بحادثة التحكيم في حرب صفين، وهم الذين خرجوا على الإمام على ، عند قبوله التحكيم وانكروا عليه ذلك وكانوا يقولون لا حاكم إلا الله، وقد تمسك هذا الحزب بالتقاليد الإسلامية الأولى، وطالب باقامة الخلافة على أساس دينى على أن تكون حقًا لكل عربى [٣٠٤] ، وعلى الرغم من تكفيرهم عليا ومضايقاتهم المستمرة له، فإنه اتخذ سياسة المهادنة معهم واعتمد الروية والحجة في مواجهته لهم [٣٠٥] ، إلا أنهم في النهاية استطاعوا أن يغتالوا الإمام عليا، وذلك على يد عبد الرحمن بن ملجم الذى ضربه فأصاب منه مقتلاً ، وكان ذلك في شهر رمضان ٤٠هـ / كانون الثانى ٦٦١م [٣٠٦]. وتوفى الإمام على متأثراً بجراحه في اليوم الثالث لضربته .

بعد أن نجح الخوارج في تنفيذ مخططهم باغتيال الإمام على بن أبى طالب وفشلهم في اغتيال اثنين كانا على قائمة الاغتيال، وهما معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص خلا الجو لمعاوية فقد تخلص من أهم خصومه ، خاصة أنه لم يلاق معارضة قوية من الإمام الحسن بن على الذى تنازل عن الخلافة بكل هدوء في ٢٥ من ربيع الأول سنة ٤١هـ ، وسمى هذا العام بعام الجماعة.

ولما تم الأمر لمعاوية واجتمع عليه وأمر الأمراء في البلاد جعل على البحرين الأحوص بن عبد بن أمية [٣٠٧] ومروان بن الحكم اللذين كانا من أسرته، وجاء تعيينهما نتيجة اهتمام معاوية بن أبى سفيان بشؤون الخراج وخاصة الزراعة، فقد حرص على أن يكون على رأس ولاية البحرين رجالاً من أسرته [٣٠٨]. وقام معاوية في سنة ٤٥هـ / ٦٦٥م بتعيين زياد بن أبيه على البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له الهند والبحرين وعمان [٣٠٩].

وبعد أن تولى زياد البصرة، خاف سهم بن غالب والخطيم الباهلى، أن لايقبل زياد أمان سلفه ابن عامر ، فهربا إلى الأهواز ، فتبعهما بعض أهاليها. ثم قدم سهم البصرة وهناك

تخلى عنه بعض أصحابه ، فاختفى وبعث إلى زياد بأمان ابن عامر فرفضه زياد وطلبه فقتله وصلبه في داره ثم قتل زياد الخطيم بعد أن عاد إلى البصرة من البحرين وخالف أوامر زياد [٣١٠].

وقد تعامل زياد مع أهالى البصرة بقسوة أدت في النهاية إلى فرض الأمن والنظام في البصرة نفسها والأقاليم الأخرى. ووقف زياد من خوارج البصرة موقفًا عنيفًا ، لأنهم دعوا إلى خلع الخليفة معاوية واعتناق مبادئهم. وسلك عبيدالله بن زياد طريق والده الذى توفى عام ٥٣هـ وخاصة في تعامله مع الخوارج . وجاء تعيين عبيدالله تقديراً لموقف أبيه زياد الذى يعتبر أول من جمعت له العراق ، هو ثم ابنه ، ولم تجتمع لقرشى قط غيرهما. وعبيدالله بن زياد أول من جمعت له العراق وسجستان وخراسان والبحران (البحرين) وعمان، وإنما كان البحران وعمان إلى عمال أهل الحجاز [٣١١].

انقسم الخوارج على أنفسهم ، فبعد أن كانوا كتلة واحدة ، يجتمعون على رأى واحد، شجر الخلاف بينهم وأصبحوا على أربعة أضرب ، يتبرؤ بعضهم من البعض الآخر. وبذلك ظهرت أربعة فرق خارجية يمكن اعتبارها الأصول التى تفرعت منها سائر الفرق الخارجية الأخرى وهؤلاء الأصول هم: الأزارقة، والنجدية، والاباضية ، والصفرية [٣١٢].

وقد نشط الخوارج بعد وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ ، فقد حاولوا الاتصال بابن الزبير ومناصرته ، ثم اختلفوا معه، وكان منهم رجال من بنى تميم ومضر وعبد القيس ، فظهرت من بين تلك القبائل بعض الفرق المعتدلة تعارض الأزارقة في تصلبها ومغالاتها، ومن هذه الفرق النجدية والاباضية التي انتشر اتباعها في بقاع مختلفة من العراق وأطراف الخليج والجزيرة العربية وجنوبها [٣١٣]. وجاء نشاط الخوارج الكثيف بعد هزيمتهم في معركة النهروان، وفناء معظمهم وانهزام فلولهم إلى الصحراء المتاخمة لبلاد اليمامة والبحرين وعمان وهناك قويت شوكتهم وكثر اتباعهم حتى أصبحوا بعد حين شوكة تقلق مضاجع الدولة الأموية، من جراء الغارات المتتالية التى كانوا يشنونها عليها [٣١٤].

إن جماعة من الخوارج الذين انشقوا على نافع بن الأزرق بزعامة نجده بن عامر الحنفى ، ساروا إلى اليمامة ونزلوا بأباض [٣١٥] ، ومضى نجده ومن معه إلى الخضارم فتبعهما ، وكان فيها جماعة من عمال معاوية يبلغ عددهم هم وأولادهم أربعة آلاف، فغنم ذلك وقسمه في أصحابه ، وذلك سنة خمس وستين ، فكثر جمعه، ثم أن عيراً خرجت من البحرين وتيل من البصرة تحمل مالاً وغيره، يراد بها ابن الزبير فاعترضها نجده فأخذها [٣١٦].

ثم خرج نجده بن عامر في جمع من أتباعه إلى بني كعب بن ربيعه بن عامر بن صعصعه فالتقاهم بذي المجاز ، ولم يجد عناء كبيراً في هزيمتهم والقضاء عليهم. وعاد إلى اليمامة فكثر اتباعه وصاروا ثلاثة آلاف رجل [٣٣٧].

لقد كثر اتباع نجده حتى بلغوا ثلاثة آلاف عند رجوعه إلى اليمامة ، ثم سار نجده إلى البحرين سنة سبع وستين، فقالت الأزد: نجدة أحب إلينا من ولاتنا لأنه ينكر الجور وولاتنا يجورونه، فعزموا على مسالمته ، واجتمعت عبد القيس ومن بالبحرين غير الأزد على محاربته فقال بعض الأزد: نجده أقرب إليكم منه إلينا لأنكم كلكم من ربيعه فلاتحاربوه ! وقال بعضهم: لاندع نجدة وهو حروري مارق تجرى علينا أحكامه . فالتقوا بالقطيف فانهزمت عبد القيس، وقتل منهم جمع كثير وسبى نجده من قدر عليه من أهل القطيف ، وأقام بها. ووجه ابنه المطرح في جمع إلى المنهزمين من عبد القيس وأرسل نجده سرية إلى الخط فظفر بأهله وأقام نجدة بالبحرين[٣٦٨] ، وظل بها إلى أن عزل عبدالله بن الزبير أخاه مصعب عن البصرة، وولاها ابنه حمزة في سنة ٦٧هـ / ٦٨٦م[٣٦٩] فعقد الوالي الجديد لعبدالله بن عمير الليثي على جيش كبير قوامه أربعة عشر ألف أو أكثر ، ووجهه لمقاتلة النجدية في البحرين، فباغتهم نجدة وهزمهم وكبدهم خسائر فادحة في الأرواح . إن انهزام جيش الزبيريين الكثيف الذي أرسله والي البصرة ضد نجده يدل على تعاظم حركة النجدات بالبحرين ، وأن ناقوس الخطر دق على السلطة الزبيرية التي كانت تحكم العراق في تلك الفترة[٣٧٠] .

استطاع نجده أن يبسط سلطانه على عدد من المناطق والبوادي من الطائف حتى نجران واستعمل عليها ولاته، ثم عاد إلى البحرين، فقطع الضرائب عن أهل الحرمين من اليمامة والبحرين ولكنه ما لبث أن أعادها حين كتب إليه ابن عباس مستنكرا عمله [٣٧١]. وبذلك استطاع نجده اخضاع شمال البحرين في سنة ٦٨هـ ومضى يواصل بسط سيطرته التي امتدت إلى أطراف العراق ونجح في مد نفوذه إلى اليمن وحضرموت والحجاز وقام بنفس العام بتأدية فريضة الحج على رأس ثمانمائة وستين رجلا من الخوارج[٣٧٢] .

الخلافات بين النجدات :

ظهرت الخلافات بين نجدة بن عامر وأصحابه رغم النجاحات التي حققها، سواء أكان ذلك على صعيد الفكر الخارجي أم على صعيد امتداد النفوذ، فقد دب الخلاف بين نجدة وبين أتباعه خاصة حين رموه بالخيانة والتواطؤ مع عبدالملك بن مروان، الذي كتب إليه يدعوه إلى طاعته

وبيعته على أن يهدر له ما أصاب من الدماء والأموال، وأن يوليه اليمامة وما حولها، ولكن نجدة رفض ذلك ، فقطعت عليه أصحابه ، وكان ذلك من أسباب الخلاف بينه وبين عطية بن الأسود[٣٧٣] الذي قال: «ما كاتبه عبدالملك حتى علم منه دهانًا في الدين». ففارقه ، ومضى أصحابه إلى عمان[٣٧٤] .

وظهرت من نجده أمور أنكرتها الخوارج فاشتدت النقمة عليه، فتحول أتباعه عنه وانحازوا إلى أبي فديك عبدالله بن ثور ، فلما شعر نجده بالخطر يحدق به ، هرب واستخفى فأتح أبي فديك في طلبه فاستخفى نجده في قرية من قرى هجر، فدلت عليه جارية فطلبه أصحاب أبي فديك فقتلوه في سنة ٧٢هـ / ٦٩١م [٣٧٥]. وفي سنة ٧٣هـ انهزم أبوفديك أمام جيش مؤلف من أهل البصرة وأهل الكوفة معًا وقتل . وحصر جيشه في المشقر فاضطروا إلى التسليم، وقتل منهم نحو ستة آلاف وبهذا كان سقوط دولة النجدات في اليمامة والبحرين[٣٧٦] ، بعد أن حاولت بسط سلطانها على شبه الجزيرة العربية كلها ، وبذلك تم للأمويين أمر الاستيلاء على البحرين حيث ولى عليها عبد الملك بن مروان الأشعث بن عبدالله الجارود العبدي. وتفرغ عبد الملك بعد ذلك لفرض السيطرة الأموية على باقي أنحاء البحرين محاولاً القضاء على جيوب المعارضة فيها، حتى أنه قام بدفن كثير من العيون عقابًا للمعارضين حيث ردمها بالصخور الضخمة ليقضي على زراعتهم ويضر بموارد رزقهم[٣٧٧].

وقد اشتعلت بالبحرين ثورات على الحكم الأموي فيما بين عامي ٧٩هـ - ٨٠هـ بدأها الربان النكري، ثم انضم إليه ميمون الذي جاء من عمان، مما عزز قوة التحرك المضاد للدولة الأموية، التي استدعى واليها أهل البحرين لحرب الربان وجماعته. ولكن عبدالقيس أيدت الخوارج في هذه الفترة ورفضت طلب الوالي فأرسل محمد للقاء الخوارج جيشًا من الأزد بقيادة عبدالله بن عبد الملك العوذي الأزدي ، ولكنه هزم وقتل ، وفر الوالي من البحرين . لكن الموقف ما لبث أن تغير بسبب الخلاف الذي دب بين الربان وميمون ، ترك على أثره ميمون البحرين وغادر إلى عمان بعد أربعين يومًا من خروج محمد منها وذهابه إلى عمان وأقام الربان بالزارة ولكن محمداً مع ذلك لم يحاول الاستفادة من هذا الموقف فلم يرجع إلى البحرين ويستغل الخلاف بين أعدائه فاغتنم الحجاج الفرصة ، فأرسل جيشًا قوامه ١٢ ألفا من مقاتلة الشام بقيادة يزيد بن أبي كبشة فالتقى بالربان فقتله ، وقتل كثيراً من أتباعه سنة ٨٠هـ / ٦٩٩م [٣٧٨].

وتلا ذلك ثورة داود بن محرز بن عبد القيس في القطيف ، وتمكن من إلحاق الهزيمة بجيشين أمويين من الأزد لكن تحالف أهل القطيف مع الأزد ضد داود وعبد القيس أدى إلى إلحاق الهزيمة بداود وأتباعه ، وأدى ذلك التحالف إلى قتل داود وكثير من مؤيديه وأنصاره [٣٢٩].

أعقب ذلك ثورة أخرى للخوارج سنة ٨٦هـ بقيادة مسعود بن أبي زينب العبدي، أدت إلى استعادة الخوارج لنفوذهم على البحرين مرة أخرى حتى سنة ١٠٥هـ . وفي هذه السنة غزا مسعود بنفسه اليمامة، وكان الوالي الأموي عليها سفيان بن عمر العقيلي، والتقى سفيان ومعه بنو حنيفة بمسعود فاقتتلوا بالخضرمة، قتالاً شديداً أدى إلى قتل مسعود . وقام بأمر الخوارج بعده هلال بن مدلج لقاتلهم يومه كله فقتل كثير من الخوارج، وقتلت زينب أخت مسعود ، فلما أمسى هلال تفرق عنه أصحابه ، وبقي في نفر يسير فدخلوا قصراً فتحصنوا فيه فقصد إليه بنو حنيفة فقتل هلال واستأمن الباقون من أصحابه [٣٣٠].

وقد ثار سعيد في هجر بعد مقتل أخيه مسعود لكن الخلاف دب بينه وبين أحد أتباعه المشهورين، وهو عون بن بشير أحد بني الحارث بن عامر بن حنيفة أدى إلى عدم نجاحه في الثورة ضد الأمويين ، فقد افترق أتباعه إلى فرقتين : فرقة معه في هجر والأخرى بقيت مع عون جعلت القطيف مركزاً لها . لكن سعيد استطاع أن يدبر عملية اغتيال عون للتخلص منه بعد أن وجد نفسه في موقف ضعيف بعد أن انحاز كثير من الخوارج إلى جانب عون وفعلاً نجح سعيد في التخلص من عون [٣٣١].

في عهد عبد الملك بن مروان اتخذ الحجاج بن يوسف الثقفي إجراءات حازمة لردع خوارج الخليج، ولم يؤثر في حركاتهم ، فقد امتد نشاط خوارج البحرين إلى البصرة مما يدل على شدة الارتباط بين القبائل المستوطنة في أقاليم الخليج وسهولة الاتصال الفكري والتواصل الاجتماعي بينهما ، ويرجع أيضاً إلى أنها تكون مذهبًا مخالفًا لمذهب الخلافة الأموية ومعاديًا له [٣٣٢].

قام والي العراق يوسف بن عمر الثقفي في أيام الوليد بن يزيد بن عبد الملك بعزل سفيان العقيلي عن اليمامة والبحرين ، وولى عليها علي بن المهاجر ، ولما قتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ ثار المهير بن هلال، وهاجم علي بن المهاجر في هجر ، ففر إلى المدينة المنورة، واستولى المهير على اليمامة ثم تولى بعده عبدالله بن النعمان وظل فيها حتى عين المثنى بن يزيد بن هبيرة واليًا عليها في عهد مروان الثاني الأموي [٣٣٣].

وقد انضم عدد من الموالي إلى الخوارج واشتركوا في الثورات التي قامت ضد الحكم الأموي ووصل بعضهم إلى مركز الرئاسة ومنهم أبوطالوت سالم بن مطر ، مولى بني زمان بن مالك بن صعب بن علي بن بكر بن وائل .

لقد امتازت حروب الخوارج المتأخرة بالقوة والعنف ويرجع ذلك إلى قوة الإيمان التي امتازوا بها ، ففي البحرين نجد أن انتهاء سيطرة النجدات لم يؤثر على قوة الخوارج فيها ، ومما يدل على قوة الخوارج في البحرين فشل جميع محاولات الولاة في القضاء عليهم، رغم أن معظم ثوراتهم المتأخرة لم تنجح وقضي عليها بشدة نتيجة غياب التخطيط والتنسيق وقوة الدولة الأموية [٣٣٤].

البحرين في العصر العباسي:

إن الغموض يكتنف تاريخ البحرين في هذا العصر، فعلى الرغم من أن البحرين ، كانت من بين الولايات الإسلامية التابعة للدولة العباسية عند قيامها ، إلا أن المصادر العربية لم تهتم كثيراً بتاريخها في ظل الحكم العباسي ، ولم تطلعنا على مدى تأثير هذا الحكم في هذه المناطق، بل اقتصر ما ورد فيها عن البحرين على مجرد ذكر أهم الولاة البارزين ، الذين عينوا أو عزلوا ، دون الإشارة إلى أعمالهم داخل البحرين أو علاقتهم بالدولة العباسية [٣٣٥].

عندما تولى أول خليفة عباسي زمام الأمور وهو أبو العباس السفاح ولى عمه داود بن علي مكة والمدينة واليمن والبحرين، إلا أن هذه الولاية كانت اسمية إذ كان صاحب الأمر الحقيقي فيها المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة عامل الدولة الأموية المنهارة، وفي عام ١٣٣هـ توفي داود بن علي، فولى السفاح خاله زياد بن عبيد الله الذي استطاع أن يتولى الأمر فعليًا ، وأن ينتصر على المثنى بن يزيد [٣٣٦] . وبعد مدة عين السفاح عمه سليمان بن علي واليًا على البصرة والحق بها البحرين وعمان [٣٣٧].

وبعد أن توفي السفاح سنة ١٣٦هـ تولى بعده أخوه أبو جعفر المنصور فجعل على اليمامة والبحرين المثنى بن عبدالله الهاشمي ، وعزله بعد ثلاث سنوات، وولى عليها سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، ثم ولى على البحرين قثم بن العباس وضم إليه اليمامة سنة ١٤٤هـ [٣٣٨]. وهناك رواية أخرى تذكر بأن أمر البحرين قلده أبو جعفر المنصور سنة ١٣٦هـ (٧٥٣م) إلى المسيح بن الجوزي بن زياد بن عمرو العتكي، الذي عزله ونصب مكانه عبدالله بن سليمان بن المنذر بن الجارود ، الذي عزله أيضًا ونصب عمر بن حفص هزار مرد [٣٣٩].

وقد انضم عدد من الموالي إلى الخوارج واشتركوا في الثورات التي قامت ضد الحكم الأموي ورصل بعضهم إلى مركز الرئاسة ومنهم أبوطالوت سالم بن مطر ، مولى بني زمان بن مالك بن صعب بن علي بن بكر بن وائل .

لقد امتازت حروب الخوارج المتأخرة بالقوة والعنف ويرجع ذلك إلى قوة الإيمان التي امتازوا بها ، ففي البحرين نجد أن انتهاء سيطرة النجدات لم يؤثر على قوة الخوارج فيها ، ومما يدل على قوة الخوارج في البحرين فشل جميع محاولات الولاة في القضاء عليهم، رغم أن معظم ثوراتهم المتأخرة لم تنجح وقضي عليها بشدة نتيجة غياب التخطيط والتنسيق وقوة الدولة الأموية[٣٢٤].

البحرين في العصر العباسي:

إن الغموض يكتنف تاريخ البحرين في هذا العصر ، فعلى الرغم من أن البحرين ، كانت من بين الولايات الإسلامية التابعة للدولة العباسية عند قيامها ، إلا أن المصادر العربية لم تهتم كثيراً بتاريخها في ظل الحكم العباسي ، ولم تطلعنا على مدى تأثير هذا الحكم في هذه المناطق، بل اقتصر ما ورد فيها عن البحرين على مجرد ذكر أهم الولاة الهارزين ، الذين عينوا أو عزلوا ، دون الإشارة إلى أعمالهم داخل البحرين أو علاقتهم بالدولة العباسية[٣٣٥].

عندما تولى أول خليفة عباسي زمام الأمور وهو أبو العباس السفاح ولى عمه داود بن علي مكة والمدينة واليمن، إلا أن هذه الولاية كانت اسمية إذ كان صاحب الأمر الحقيقي فيها المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة عامل الدولة الأموية المنهارة، وفي عام ١٣٣هـ توفي داود بن علي، فولى السفاح خاله زياد بن عبيد الله الذي استطاع أن يتولى الأمر فعلياً ، وأن ينتصر على المثنى بن يزيد [٣٣٦] . وبعد مدة عين السفاح عمه سليمان بن علي والياً على البصرة والحق بها البحرين وعمان[٣٣٧].

وبعد أن توفي السفاح سنة ١٣٦هـ تولى بعده أخوه أبو جعفر المنصور فجعل على اليمامة والبحرين السري بن عبدالله الهاشمي ، وعزله بعد ثلاث سنوات، وولى عليها سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، ثم ولى على البحرين قثم بن العباس وضم إليه اليمامة سنة ١٤٤هـ [٣٣٨]. وهناك رواية أخرى تذكر بأن أمر البحرين قلد أبو جعفر المنصور سنة ١٣٦هـ (٧٥٣م) إلى المسيح بن الجوزي بن زياد بن عمرو العتكي، الذي عزله ونصب مكانه عبدالله بن سليمان بن المنذر بن الجارود ، الذي عزله أيضاً ونصب عمر بن حفص هزار مرد [٣٣٩].

وقد استقرت الأمور في البحرين في معظم سنى خلافة المنصور، وأذعن له أهلها بالطاعة[٣٤٠]، ما عدا ثورة واجهت المنصور في البحرين عام (١٥١هـ) هي ثورة سليمان بن حكيم العبدي ، الذي أعلن الثورة والعصيان ضد الدولة العباسية فأوكل المنصور إلى عقبة بن سلم الهنائي بإخماد هذه الثورة ونجح في إخمادها ، ولكنه أسرف بالقتل، وسبى أعداداً كثيرة من أهل البحرين أرسل بعضهم إلى أبي جعفر الذي قتل منهم من قتل ووهب الباقين إلى ابنه المهدي الذي من عليهم فأعتقهم وكساهم[٣٤١].

بعد نجاح عقبة في القضاء على التمرد والعصيان في البحرين، أصبح صاحب السلطة العليا فيها واستمر يمارس سلطاته، مستعيناً بكاتب إنشائه حماد عجرد ، مولى بن أسد بن عامر. وكان شاعراً وكاتباً نابهاً ، ويعتبر المسئول عن الرسائل التي كانت تصل من الخليفة في بغداد والتي ترسل من البحرين إلى الخليفة [٣٤٢]. وقد مارس عقبة قتلاً جماعياً في البحرين يبدو أنه كبير إلى درجة أن المنصور يعترف بخطئه وندمه على ما فرط من التقتيل في أهل البحرين. فكان يقول: «لو كان معن على قرس جواد ، وأنا على حمار أعرج لسبقته إلى النار»[٣٤٣].

وقد تضاربت الروايات في عزل عقبة بن سلم عن البحرين فبعضها يشير إلى أن عزله تم في عهد المنصور الذي نصب بعده جابر بن توبة الكلابي [٣٤٤]. ويدل أن المنصور بعد عزله لعقبة عن البحرين نصب يزيد بن عواته الهلالي[٣٤٥]. وتؤكد المصادر الأخرى إلى أن الذي عزل عقبة هو المهدي بن المنصور وليس المنصور نفسه ، وقد كان ذلك عقاباً له على ما قام به من أعمال وحشية تجاه أهل البحرين [٣٤٦]. ونحن نرجح الرأي الأول لما اتسم به عهد المنصور من القسوة والوحشية.

ولم تدم ولاية جابر على البحرين طويلاً حيث عزله المنصور في سنة ١٥٧هـ / ٧٧٣م وولى جعفر بن سليمان ، ولم يلبث هذا أن عزل بدوره قبل أن يتم ولايته. تولاها بعده سعيد بن دعلج الذي أناب عنه في ولايتها ابنه قيم [٣٤٧]. وكان سعيد بن دعلج والي البحرين الجديد هو صاحب الشرطة بالبصرة ، ومن هنا جاء إرساله لابنه قيماً [٣٤٨]. ثم تولى البحرين بعد ذلك حمزة الكاتب [٣٤٩]. الذي عزله المهدي في مستهل خلافته عام ١٥٨هـ وولى مكانه عبدالله بن مصعب [٣٥٠]. وقلد المهدي في سنة (١٦٠هـ / ٧٧٦م) محمد بن سليمان عمالة البحرين واستمر حتى سنة (١٦٤هـ / ٧٨٠م) ، ثم عزله المهدي وأقام صالح بن داود بن علي

وقد استتبت الأمور في البحرين في معظم سنى خلافة المنصور، وأذعن له أهلها بالطاعة[٣٤٠]، ما عدا ثورة واجهت المنصور في البحرين عام (١٥١هـ) هي ثورة سليمان بن حكيم العبدى ، الذى أعلن الثورة والعصيان ضد الدولة العباسية فأوكل المنصور إلى عقبة بن سلم الهنائى بإخماد هذه الثورة ونجح فى إخمادها ، ولكنه أسرف بالقتل، وسبى أعداداً كثيرة من أهل البحرين أرسل بعضهم إلى أبى جعفر الذى قتل منهم من قتل ووهب الباقين إلى ابنه المهدى الذى من عليهم فأعتقهم وكساهم[٣٤١].

بعد نجاح عقبة فى القضاء على التمرد والعصيان فى البحرين، أصبح صاحب السلطة العليا فيها واستمر يمارس سلطاته، مستعيناً بكاتب إنشائه حماد عجرد، مولى بن أسد بن عامر. وكان شاعراً وكاتباً نابهاً، ويعتبر المسئول عن الرسائل التى كانت تصل من الخليفة فى بغداد والتى ترسل من البحرين إلى الخليفة [٣٤٢]. وقد مارس عقبة قتلاً جماعياً فى البحرين يبدو أنه كبير إلى درجة أن المنصور يعترف بخطئه ويندمه على ما فرط من التقتيل فى أهل البحرين. فكان يقول: «لو كان معن على فرس جواد، وأنا على حمار أعرج لسبقته إلى النار»[٣٤٣].

وقد تضاربت الروايات فى عزل عقبة بن سلم عن البحرين فبعضها يشير إلى أن عزله تم فى عهد المنصور الذى نصب بعده جابر بن توبة الكلابى [٣٤٤]. وقيل أن المنصور بعد عزله لعقبة عن البحرين نصب يزيد بن عوانه الهلالى[٣٤٥]. وتؤكد المصادر الأخرى إلى أن الذى عزل عقبة هو المهدى بن المنصور وليس المنصور نفسه ، وقد كان ذلك عقابًا له على ما قام به من أعمال وحشية تجاه أهل البحرين [٣٤٦]. ونحن نرجح الرأى الأول لما اتسم به عهد المنصور من القسوة والوحشية.

ولم تدم ولاية جابر على البحرين طويلاً حيث عزله المنصور فى سنة ١٥٧هـ / ٧٧٣م وولى جعفر بن سليمان ، ولم يلبث هذا أن عزل بدوره قبل أن يتم ولايته، تولاها بعده سعيد بن دعلج الذى أناب عنه فى ولايتها ابنه تميم [٣٤٧]. وكان سعيد بن دعلج والى البحرين الجديد هو صاحب الشرطة بالبصرة ، ومن هنا جاء إرساله لابنه تميمًا [٣٤٨]، ثم تولى البحرين بعد ذلك حمزة الكاتب [٣٤٩]، الذى عزله المهدى فى مستهل خلافته عام ١٥٨هـ وولى مكانه عبدالله بن مصعب [٣٥٠]. وقلد المهدى فى سنة (١٦٠هـ / ٧٧٦م) محمد بن سليمان عمالة البحرين واستمر حتى سنة (١٦٤هـ / ٧٨٠م) ، ثم عزله المهدى وأقام صالح بن داود بن على

بالاتصال بأهالى القطيف ، وأطلعهم على خبره ، ثم قرأ عليهم كتاب المهدى، فأجابوه دون تردد ما داموا يعتقدون بخروج المهدى ويترقبون خروجه فى أى لحظة وأبدوا استعدادهم لبذل الطاعة[٣٧٠].

وكان ممن تجاوب مع كتاب المهدى أبو سعيد الجنابى[٣٧١] واسمه الحسن بن بهرام وكان من عظمائهم ، ثم غاب عنهم يحيى بن المهدى مدة ورجع بكتاب المهدى يشكرهم على اجابتهم. وقد أظهر أبو سعيد الجنابى الذى كان يبيع الطعام للناس، ويتمتع بمكانة مرموقة فى البحرين[٣٧٢] الدعوة فيها سنة ٢٨٣هـ، وبما أنه من الأتباع البارزين المقربين لدى يحيى بن المهدى فقد أسهم إسهاما فعالا فى نشر هذا المذهب ، وفى استمالة قبائل البحرين واجتذابهم إلى الدعوة القرمطية ، وكانت له قدرة فائقة فى إقناع من يقابله ، وقد وصفه أبو الفضل اليمانى بأنه كان «فيلسوفًا ملعونا» [٣٧٣].

استطاع أبو سعيد الجنابى احتلال القطيف [٣٧٤]. وحاصر قوات على أبى الحسن بن مسمار وأخواته بالزارة ، التى كان عليها الحسن بن العوام من الأزد ، وقد اضطرهم إلى الاستسلام واعدامهم وأحرق المدينة ودمرها عن بكرة أبيها ، وتمكن أبوسعيد بعد ذلك من الوصول إلى البحرين ، وبدأ يبث الدعوة فيها وفق تنظيم دقيق، فالتف حوله الناقمون على الحكم العباسى [٣٧٥]. وقد امتد نفوذ القرامطة فى البحرين إلى سائر مناطقها باستثناء «هجر» ولكن بصورة مؤقتة .

أحس الخليفة العباسى المعتضد بخطورة الموقف، وبضرورة محاربة أبى سعيد الجنابى فأرسل إلى العباس بن عمرو الغنوى وكان واليًا على فارس، فأقطعه اليمامة والبحرين وضم إليه ألفين من المقاتلة وسيره إلى البصرة [٣٧٦]. فاحتشد مع جنده وخرج للقاء الجنابى ومن معه، وقبل أن تبدأ المعركة انسحب من جنوده بنو ضبه ، فانهزم ابن عمر الغنوى وأسره أبو سعيد الجنابى ، واحتوى معسكره ، وسار أبو سعيد إلى هجر فملكها وأمنها [٣٧٧]. خاصة أن حركته قويت شوكتها بعد أن تقبل حسن بن سنبر وهو أحد الوجوه البارزة فى البحرين العقيدة القرمطية ، وإعلانه الاستعداد للدفاع عنها بقوة السلاح[٣٧٨].

وبعد هذا الانتصار الساحق زحف أبوسعيد إلى اليمامة وضمها إلى البحرين، ثم توجه إلى عمان فاستولى على قسم كبير منها وعلى الجزر التابعة لها[٣٧٩]. وقد دفعته هذه الانتصارات التى حققها إلى إعلان دولته[٣٨٠].

وبدأ أبوسعيد الجنابي بتوسيع دائرة نفوذه، فشن سلسلة من الحملات العسكرية والغارات المتلاحقة على جنوب العراق وقوافل الحجاج، حتى اقتربوا من الأهواز والبصرة فأصيب أهل البصرة بالهلع ، وهموا بالرحيل عنها ، إلا أن واليها العباسي منعهم من ذلك[٣٨١].

وبعد أن السنوات الممتدة ما بين (٢٨٩- ٢٩٥هـ / ٩٠١-٩٠٧م) استقرت فيها الأمور نوعًا ما في البحرين، وفي هذه السنوات ترقى الخليفة العباسي المعتضد وتولى بعده المكتفي ، لكن أبا سعيد الجنابي لم يوقف عملياته العسكرية ، وغاراته خاصة جهة البصرة، لكنه تفرغ في الوقت ذاته لتنظيم شئون دولته، وأولى الشئون العسكرية جانبًا من الاهتمام وأمر بتربية الخيول وتدريبها ، وإعداد المحاربين المتمرسين على القتال، وإنشاء نظام الفروسية [٣٨٢]، واعتنى باصلاح الأراضي وتهيئتها للزراعة، وألغى نظام الإقطاع، وشجع الزراع والصناع ، وقدم لهم المال اللازم لمساعدتهم وقام بتنظيم التجارة الخارجية واتخذ عملات من معدن الرصاص، وأوصى بأن يكون أمر البحرين بأيدي ستة أشخاص ، يحكمون بالعدل ولايختلفون فيما بينهم ، يساعدهم في ذلك ستة وزراء، وعرف الحكام الستة بالسادة ، بينما عرف وزراؤهم باسم الشائرة[٣٨٣].

أخذت الدولة العباسية تغير من أسلوب تعاملها مع القرامطة حكام البحرين، فقد اتخذت أسلوب اللين بدلا من أسلوب التشدد ، فقد أرسل الخليفة المقتدر وفدًا يحمل خطابًا يناشده فيه إطلاق الأسرى، والدعوة إلى الطاعة ، وحدث أن أبا سعيد توفي في هذه الأثناء، فسلم الوفد الخطاب إلى ولده أبي طاهر، الذي خلف أخاه سعيد على إمارة البحرين ، فأكرم الرسل وأطلق الأسرى، الذين عادوا جميعًا إلى بغداد[٣٨٤].

وكان أبو سعيد الجنابي قد عهد لابنه سعيد وهو الأكبر ليكون من بعده، ولكنه عجز عن الأمر فغلبه أخوه الأصغر أبوطاهر سليمان، ويابعه القرمطية وجاءه كتاب عبيدالله المهدي بالولاية [٣٨٥].

تطلع أبوطاهر القرمطي حاكم البحرين إلى البصرة ، في سنة (٣١٥هـ / ٩٣٧م) فسيطر سيطرة تامة على طريق القوافل البرية، وقوافل الحج. واستطاع القرامطة هزيمة الجيوش التي أرسلها الخليفة العباسي، أولهما بقيادة عبدالله بن حمدان ، والثاني بقيادة يوسف بن ساج، وقد تعقب القرامطة هذا الجيش حتى مشارف العاصمة بغداد، ثم عرجوا على الكوفة التي قتل كثير من أهلها، وانتهبت وحملت منها أشياء كثيرة من الأموال والجواهر والثياب [٣٨٦]، ثم

توجه إلى مدينة الأنبار ، وكاد يحتل بغداد لولا مناعة جسرها ولم يتمكن من فتح مدينة هيت أيضًا [٣٨٧]. وفي سنة (٣١٨هـ أغاروا على الحجاز ، وحملوا معهم الحجر الأسود أثناء انسحابهم وأخذوه إلى الاحساء، وبقي هناك حتى سنة (٣١٩هـ) [٣٨٨].

النفوذ القاطمي في البحرين :

قامت علاقات ودية بين القرامطة في بلاد البحرين والفاطميين في بلاد المغرب، منذ أن أرسل عبيدالله المهدي إلى أبي طاهر سليمان أمير القرامطة كتابًا يتوليته، وقد ترتب على ذلك اتحادهم في سياستهم العدائية إزاء العباسيين ، فطلب أبو القاسم بن المهدي سنة ٣٠٦هـ من أبي طاهر أن يحضر إلى مصر على رأس حملة ليعونه على فتحها . لكن الجيش العباسي بقيادة مؤنس الخادم ما لبث أن أوقع الهزيمة بجيش أبي القاسم، قبل أن تصل إليه النجدة من أبي طاهر[٣٨٩].

إن اختطاف الحجر الأسود ونقله إلى هجر بالبحرين اعتبر عملاً متطرفًا يسيء إلى سمعة الخلافة الفاطمية التي تولت الحكم باسم الإسلام، والمحافظة على شعائره ورموزه، فغضب الخليفة المهدي، وأمر بإرجاع الحجر الأسود إلى مكانه فنقل طلبه بعد مرور سنة وشهرين و١٤ يومًا [٣٩٠] . أن تنفيذ القرامطة لطلب الفاطميين في إعادة الحجر الأسود ورفض أبي طاهر لجهود الخلافة العباسية ، حتى مقابل خمسين ألف دينار من الذهب[٣٩١] دليل واضح على مدى خضوع القرامطة لسلطة الفاطميين.

لم تتمتع دولة القرامطة في بلاد البحرين بالهدوء والاستقرار في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري. فقد حدث نزاع بين أفراد أسرة أبي طاهر على العرش، فقبض سابور بن أبي طاهر على عمه أحمد بن أبي سعيد، الملقب بأبي المنصور سنة ٣٥٨هـ ، وكان إذ ذاك يلي الحكم في دولة القرامطة، غير أنه ما لبث أن خرج من اعتقاله ، وقتل سابور ونفى أخوته وأشياعه إلى جزيرة أوال [٣٩٢]. وانقسم القرامطة بسبب ذلك إلى فريقين ، إحداهما بزعامة أبي طاهر الجنابي الذي أعلن ولائه للفاطميين، أما الآخر وهو الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الجنابي الملقب (بالحسن الأعصم) ، الذي آلت إليه إمارة بلاد البحرين بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٩هـ [٣٩٣]. فقد أعلن تقربه للعباسيين والبويهيين ، وهاجم عدة مرات الجيش الفاطمي في بلاد الشام. وكان البويهيون بالعراق والحمدانيون بالجزيرة الفراتية يمدون الحسن الأعصم وقرامطته بالمال والسلاح ، لاستخدامه ضد الوجود الفاطمي في الشام[٣٩٤].

استطاع الحسن الأعصم أن ينهض بالبحرين، وأن يكون قوة دفاعية كبيرة، استطاع بفضلها أن يمد نفوذه في بلاد الشام، التي أتم فتحها في سنة ٣٥٧هـ ، فولى عليها من قبله وشاحًا السلمي، ومن الشام زحف بجيشه إلى مصر ، وأقدم على حصار القاهرة المعزية شهوراً في سنة (٣٦١هـ / ٩٧١م) ولكنه لم يحقق شيئًا ، وجاءت وفاته في سنة ٣٦٦هـ[٣٩٦] لتنتهي حلم القرامطة في التوسع والانتشار .

إن وفاة الحسن بن أحمد مهدت لقيام الخلافات الداخلية بين قرامطة البحرين، فقد انكرت سياسته العدائية إزاء الفاطميين، ومبايعته للخليفة العباسي، وعمل أتباع أبي طاهر على إقصاء ولد أبي سعيد عن الإمارة، ثم استقر على أن يتولى الحكم في البحرين اثنان من سادتهم ، وهما جعفر وإسحاق فصارا على السياسة التي اتبعها أمراء القرامطة، مثل توليه الحسن بن أحمد وإقامة الدعوة الفاطمية، ومحاربة بني العباس[٣٩٧]، فقد عادت الاعتداءات القرمطية على العراق، وحاولوا احتلال البصرة في سنة (٣٧٣هـ / ٩٨٣م) ، لكن محاولتهم باءت بالفشل، وعادوا إلى البحرين بعد أن عقدوا الصلح بينهم وبين العباسيين [٣٩٨]. وفي سنة ٣٧٥هـ أخضعوا الكوفة إلى سيطرتهم ، بعد غارات عديدة ، وصار حكام البحرين يهددون بغداد ، وأدى ذلك إلى انزعاج أهل الكوفة، لما عرف به القرامطة من شدة البأس وقوة الشكيمة، حتى هابهم الناس، فبعث إليهم صمصام الدولة سلطان بني بويه جيشًا ، أوقع بهم الهزيمة على نهر الفرات وتعقبهم إلى القادسية [٣٩٩].

وقد بدأت علامات الضعف تظهر في صفوف القرامطة، منذ ذلك الحين إذ أنهم عجزوا عن صد هجمات الأصفر بن أبي الحسن الثعلبي، زعيم قبائل المنتفق سنة ٣٧٨هـ ، وكان قد أقدم على محاصرة الاحساء، حاضرتهم في البحرين ، فتحصن منه القرامطة ، ثم عدل إلى القطيف، فأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم ، وسار بها إلى البصرة[٤٠٠].

وقد ازداد نفوذ الأصفر بن أبي الحسن الذي جاء نتيجة ضعف القرامطة، ونشوب الخلاف بين زعيميهما ، جعفر وإسحاق على السلطة، وقد فقدوا غالبية مناطق نفوذهم منذ مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، ماعدا جزيرة أوال، ومدينة الاحساء[٤٠١]، التي ظلوا يبسطون سلطانهم عليها، حتى منتصف القرن الخامس الهجري، أما جزيرة أوال فقد خرجت عن طاعة قرامطة البحرين سنة ٤٥٨هـ ، وخضعت للعباسيين بعد عدة ثورات قاموا لهم

مسجداً وخطبوا فيه للخليفة العباسي، بعد أن قضوا على ثورات القرامطة البحرية والبحرية[٤٠٢].

وقد زار الرحالة ناصر خسرو القرامطة في الاحساء ، في هذه الفترة ، فذكر أن ممتلكاتهم تنحصر على الإحساء، لكنه أشاد بقوتهم ، وذكر بأنهم يملكون نحو عشرين ألف مقاتل[٤٠٣].

إن ما حل بالقرامطة من هزيمة في جزيرة أوال، كانت بعيدة الأثر في بلاد البحرين نفسها، فقد اتصل أهل البحرين بالسلاجقة، وبالعباسيين في العراق، فبعثوا إليهم في سنة ٤٦٢هـ بجيوش جرارة، أحلت بهم هزائم متتالية، واضطر القرامطة إلى الارتداد إلى بلاد الإحساء، وكانت هذه الهزائم التي حلت بالقرامطة بقيادة أمير القادة، وحثوا الناس للانضواء تحت لواء هؤلاء القادة، واستجاب كثير من أهالي البحرين وأنصار العباسيين لهذه الدعوة، وأحاطوا بالقرامطة في شمالي الإحساء وانتصروا عليهم في موقعة الخندق سنة ٤٧٠هـ وكان أثر هذه الموقعة كبيراً في التاريخ الإسلامي، حيث أنها أنهت سيطرة القرامطة التي استمرت ما يقرب من قرنين من الزمان ، شكلوا فيها رعبا وفزعا للدولتين العباسية والفاطمية[٤٠٤].

ومن خلال هذا السرد التاريخي نستنتج أن العلاقة بين قرامطة البحرين والدولة الفاطمية كانت تتراوح بين المد والجزر ، بين الولاء والانصياع لتعليمات الفاطميين، وبين الحروب الطاحنة بينهما، وتظهر علاقة هاتين الجماعتين مظاهر تضارب بين التشابه والاختلاف ، إن أدلة التشابه تتعلق بأصل الجماعتين ، لكونهما تنتميان إلى دعوة واحدة تعمل لهدف واحد . أما أدلة الاختلاف تتعلق بتناقض ممارستهما [٤٠٥].

وعن علاقة قرامطة البحرين بالحركات القرمطية الأخرى، كما يقول المؤرخ المستشرق برنارد لويس في كتابه أصول الاسماعيلية : وإن حركة القرامطة في البحرين لاتشكل أي اتصال مع الحركة القرمطية في سوريا والعراق، ويضيف على ذلك قوله: بأنه كان لقرامطة البحرين رؤساء وتقاليد محلية، تميزهم عن قرامطة السواد ، وتاريخ مستقل، ثم أصبحت لهم تنظيمات محلية خاصة[٤٠٦].

إن هزيمة قرامطة البحرين أحدثت فراغًا ، أتاح المجال لثلاث أسر أو مجموعات قبلية عربية من سكان البلاد شغلت الفراغ الذي خلفه غياب القرامطة ، كل في المنطقة التي تشغلها المجموعة الأولى: وقادها عبدالله بن علي العيوني وهو من عبد قيس كان يسكن مشارف العيون في الإحساء، ولذلك سمي العيوني. وقد تمكن من مطاردة بقايا القرامطة والاستيلاء

على الاحساء[٤٠٧]. حيث أنه دخل في مفاوضات مع الدولة العباسية لطلب المساعدة منها بعد أن شعر أنه بقوته المحدودة لايستطيع القضاء على القرامطة وانتزاع الاحساء من يدهم. فمنهم يتحصنون في عاصمتهم . كما أن البادية المؤيدة لهم تتربص بعبدالله العيوني، وتتحين أية فرصة للقضاء عليه خاصة أن هناك حصار للاحساء . فقد كاتب الخلافة العباسية ممثلة بالخليفة العباسي القائم بأمر الله والسلطان السلجوقي ملكشاه الذي كانت له السلطة الحقيقية في بغداد ووزيره نظام الملك [٤٠٨].

المجموعة الثانية : وقادها أبو البهلول العرام بن محمد بن يوسف الزجاج في سنة ٤٥٠هـ / ١٠٤٥م، وكان هدفه الاستيلاء على جزيرة أوال ، وكان ضامنًا لمكرسها من قبل القرامطة. وكان وضع القرامطة لايؤهلها القضاء عليه[٤٠٩]. واستطاع أن يستقل بجزر أوال ويؤكد سيادته عليها .

ولم يكن أبو البهلول مطمئنا إلى سلامة وضعه السياسي والعسكري نتيجة التهديدات التي كان يتعرض لها من جانب القرامطة من جهة والقبائل العربية من جهة أخرى، لهذا كان لابد من الاعتماد على قوة سياسية تدعم موقفه، وقد وجد ذلك في الخلافة العباسية ، التي كان في الواقع يدين لها بالولاء من خلال الخطبة باسمها في مساجد جزيرة أوال . وكان أبو البهلول يرغب في مساعدة الخلافة العباسية في السيطرة على جميع أنحاء البحرين بعد القضاء على القرامطة[٤١٠].

المجموعة الثالثة : وقادها يحيى بن عياش ، ثار في القطيف، وطرد منها عمال القرامطة. وتمكن من أن يبسط نفوذه عليها[٤١١]. ويقيم امارة فيها عرفت (بامارة ال عياش) . ولكي يقوي مركزه السياسي والعسكري قام كسلفه أبي البهلول بمكاتبة الخلافة العباسية ممثلة بالخليفة العباسي أبي جعفر القائم بأمر الله (٤٢٢هـ - ٤٦٧هـ / ١٠٣١- ١٠٧٥م) وجلال الدولة ملكشاه السلجوقي (٤٦٥- ٤٨٥هـ / ١٠٧٢- ١٠٩٢م) ووزيره نظام الملك (ت ٤٨٥هـ)[٤١٢]. واستطاع الاستيلاء على أوال في حدود سنة (٤٦٧هـ / ١٠٧٤م) ويقال إن ابنه زكريا هو الذي أدخل جزيرة أوال إلى حكم بني عياش فكانت القطيف وجزيرة أوال ملكا لزكريا بن يحيى بن العياش[٤١٣].

استمرت الامارة التي أنشأها كل من يحيى بن العياش وابنه زكريا في القطيف وأوال حتى قضاء عبدالله بن علي العيوني عليها .

أن أبا البهلول استطاع أن يهدد كيان القرامطة الضعيف ، مما دعاهم إلى الاستعانة ببني عامر ، الذي ينتسبون إلى بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن صعصعة من العدنانيين[٤١٤]. وكانوا قد فرضوا على القرامطة أن يدفعوا لهم جزءًا من حاصلات البحرين، مقابل الحماية والخفارة[٤١٥]. واتفق القرامطة وبني عامر أنه في حالة استرجاع جزيرة أوال من أبي البهلول يكون ملكهم لهم، ورغم هذا العرض المغري ، لم يستطع بنو عامر أن يحققوا هذا الهدف بل أحكم أبو البهلول قبضته على جزيرة أوال[٤١٦] . وقد حاول يحيى بن العياش انتزاع جزيرة أوال من يد أبي البهلول، لكنه فشل في ذلك ، واستطاع ابنه زكريا بن يحيى أن يحقق هدف أبيه وهو قتل أبي البهلول وضم جزيرة أوال وجعلها جزءًا من إمارته في القطيف [٤١٧].

الإمارة العيونية في البحرين ٤٦٩-٦٣٦هـ / ١٠٧٦-١٢٣٨م :

ينتسب العيونيون إلى فرع من عبد قيس، يسكنون الاحساء في واحة تعرف بالعيون، وتزعم هذا الفرع عبدالله بن علي العيوني، الذي شكل قوة تعتبر أخطر قوة واجهت القرامطة في البحرين ، حيث استطاع بمساعدة ملكشاه ، السلطان السلجوقي أن يحتل الاحساء ويطرد القرامطة سنة (٤٦٩هـ / ١٠٧٦م) وأعلن قيام الإمارة العيونية التي دانت بالولاء للخلافة العباسية ببغداد . كما اصطدم عبدالله العيوني بابن عياش في القطيف ، وتبعه إلى جزيرة أوال، حيث جرت معركة حاسمة ، انتهت بمقتل ابن عياش[٤١٨]. ونصب ابنه الفضل بن عبدالله أميرًا على هذه الجزيرة [٤١٩]. وادخل الاحساء عاصمة لدولته ، وحدث أن قتل ابنه الفضل بأيدي خدمه في جزيرة تاروت سنة (٤٨٣هـ / ١٠٩٠م) فحزن عليه أبوه حزنًا بالغًا ، و عين ابنه أبا سنان مكانه واليًا على القطيف والبحرين، وظل كذلك مدة حياة جده عبدالله [٤٢٠].

ورما أن فرغ العيوني من ابن عياش حتى ظهر لهم خطر خارجي يتمثل في ابن كرزاز سعد بن قيصر حاكم جزيرة كيش[٤٢١] فقد شن هجوما على البحرين بقصد السيطرة على جزيرة أوال. فتصدى له عبدالله العيوني وقضى على معظم جنده، فلم ينج منهم إلا القليل[٤٢٢] وقيل إن مجموع القتلى في هذه المعركة بلغ نحو من ألفين وثمانمائة قتيل [٤٢٣].

لقد قطع عبدالله العيوني جميع العوائد والإتاوات المتعارف عليها والتي كان يدفعها القرامطة وغيرهم لبني عامر، من قبل الحكام السابقين، وذلك لما يتمتع به بنو عامر من نفوذ كبير منذ أيام القرامطة ، فكانت النتيجة وقوع صدام مسلح بين الطرفين انتصر فيه عبدالله العيوني. أن المحاولات المستمرة من قبل بني عامر لفرض سيطرتهم على طرق التجارة

وجباية عائدات الحماية، حتى تمكنوا أخيراً من إخضاع العيونيين لمطالبهم[٤٢٥].

استطاع الأمير عبدالله بن علي العيوني تأسيس دولة قوية تمتعت بتأييد الخلافة العباسية في بغداد ودعمها ولولا ذلك أضافة إلى دعم السلاجقة لما استطاع تحقيق الانتصار على القرامطة والاستيلاء على الاحساء سنة ٤٦٩هـ / ٧٦-١م وقد شابت علاقته بالسلاجقة بعض التوتر واضطراب فتجه مخاوف عبدالله العيوني من وجود الجنود السلاجقة في الاحساء، وتأكدت مخاوفه من الحملات التي قادها بعض زعماء السلاجقة سواء من العراق أو كرمان[٤٢٥]. لكنه ظل يدين بالولاء للخلافة العباسية، وربما كانت الخطبة في المساجد تقام باسم الخليفة العباسي في بغداد. وقد أقرتا كل من الخلافة العباسية والسلطة السلجوقية قد أقرتا الأمير العيوني في حكم بلاد البحرين وأنه لايشكل خطر عليهما وربما استخدماه عنصر ضغط على القبائل المنتشرة بين البصرة والبحرين التي كانت مصدرا للقلاقل والفتن في جنوب العراق وعلى طول طريق الحج[٤٢٦].

توفي عبدالله بن علي العيوني سنة (٥٢٦هـ- ١١٣١م) بعد حكم ناهز خمسين سنة، وخلفه في إمارة الدولة بأكملها حفيده محمد بن الفضل ، الملقب بأبي سنان، وكان يسكن جزيرة أوال، وكان جده قد أوصى له بالإمارة في حياته ، مقدمًا إياه على عميه أبي منصور علي وأبي علي الحسن ابني الأمير عبدالله . فعقد العمان على ابن أخيهما الشاب، وبالرغم من أن أبا سنان لم يبادر عميه بالعداء، بل أنه ولى عمه أبا منصور الاحساء وابنه العزيز القطيف ، وحوالي عام (٥٤٣هـ - ١١٤٨م) بدأت العلاقات تتدهور بشدة بين الأمير أبي سنان وعميه أبي منصور وأبي علي [٤٢٧]، بسبب أن بني عامر أرادوا النزول على القطيف فرفض أبو سنان وطلب أن ينزلوا الاحساء ، مما أثار غفيلة بن شهانة رئيس قبيلة بنت عامر فدارت معركة انهزم فيها غفيلة وارتحل بعدها إلى الاحساء[٤٢٨].

لقد زاد من تعكير صفو العلاقات بين الأمير أبي سنان وعميه هذا الحادث وأثرت هذه المعركة في نفسه، حيث أنه اتهم عميه بتدبير هذه المعركة وتطورت الأمور فجهز أبوسنان جيشًا قاده بنفسه، وجرت معركة حامية الوطيس بين أبي سنان وعميه في الاحساء، قتل فيها أبو سنان وأخوه شبيب، وانهزم جيشهما ، وقفل عائداً إلى القطيف بجثتي القتيلين، حيث دفنا هناك[٤٢٩].

وكانت من أبرز صفات أبي سنان محمد بن الفضل، الكرم، حتى أنه قيل وهب أحد مادحيه

من شعراء العراق عقوداً من اللؤلؤ ، كانت بين يديه [٤٣٠]. ولم يكتف بذلك بل أعطاه خراج جزيرة أوال لسنة كاملة، مما أدى إلى وفاة عامل خراج هذه الجزيرة، إذ استكثر هذا العطاء فشهق شهقة ومات كمداً وغماً [٤٣١].

انقسام الأسرة العيونية: كانت المعركة التي أدت إلى قتل أبي سنان بداية انقسام خطير في دولة العيونيين، أدى في النهاية إلى ضعفها وانحلالها والقضاء عليها . ففي الاحساء سيطر أبو منصور علي بن عبدالله العيوني على الحكم، وظل من أبنائه وأخوته يقاومون إلى النهاية ، وفي القطيف وأوال بايع الناس بعد دفن أميرهم أبي سنان أخاه عزيز بن الفضل بن عبدالله العيوني، الملقب بأبي الفوارس والذي كان لايقل عن أخيه كرمًا وأريحية[٤٣٢].

أن مطلع القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، شهد تدهوراً تدريجيًا في أوضاع العيونيين ، لأسباب عديدة لعل أهمها عدم اقتدار الأمراء العيونيين المتأخرين على الحكم، والنزاع بين أفراد الأسرة العيونية أنفسهم، حيث وقعت العديد من المؤامرات وحوادث الاغتيال السياسي في البيت الحاكم [٤٣٣]. ولم يستطع الحكام وقف هجمات بني عامر المستمرة.

وفي سنة (٦٠٦هـ / ٨-١٢م) شهدت البحرين تحالفًا قبليًا خطيراً ، هدفه الإطاحة بحكم العيونيين[٤٣٤] وانتزاع السلطة منهم . فتأهبت هذه القبائل لغزو العيونيين، مما حدا بأبي الحسين محمد بن أحمد العيوني أن يستعين بالخليفة العباسي الناصر لدين الله فبادر الخليفة بإرسال المدد لنصرة حلفائه العيونيين [٤٣٥].

واستمر حكام البحرين من العيونيين على ولائهم للعباسيين حتى نهاية ملكهم في عهد الفضل بن مسعود العيوني، في نهاية النصف الأول من القرن السابع الهجري. وقد أثارت حالة التمزق والتداعي في الإمارة العيونية قلقًا واسعًا بين أعيان البحرين على مصالحهم التجارية وأموالهم ومساتينهم، فسارعوا إلى كسب رضاء مشايخ بني عامر المسؤولين عن الحماية والخفارة وأهل القوة، بل أكثر من ذلك بدءوا يتواطئون معهم ضد العيونيين . وقد أثمر هذا التآمر حين غدا معظم أعيان الاحساء مع زعيم بني عامر الشيخ عصفور بن راشد ، الذي استولى على الاحساء في حدود ٦٢٠هـ [٤٣٦].

ولكن إمارة العيونيين لم تسقط في كافة أرجاء البحرين إلا في حدود (٦٣٦هـ / ١٢٣٨م) وذلك عندما قام الأتابك السلغوري أبابكر بن سعد بن زنكي بإعداد حملة بحرية هاجم فيها جزيرة أوال ، وشاركه في تلك الحملة عدد كبير من العرب المتحالفين معه، وربما

كان لبني عامر دور في تلك الحملة . استطاع أبوبكر السلغوري الاستيلاء على أوال بعد مقتل الأمير العيوني محمد بن محمد ، ثم نهبت أمواله وأموال أسرته وتعرضوا لتنكيل شديد[٤٣٧]، وبذلك يكون حكم العيونيين قد زال من جميع بلاد البحرين ، فسقطت بذلك الدولة العيونية.

إمارة العصفوريين العامريين في البحرين:

إن العيونيين الذين أسسوا دولة في البحرين استمرت زهاء مائة وسبعة وستين سنة ، حكم خلالها عشرون حاكماً ، اقتصر نفوذهم على الاحساء والقطيف وجزيرة أوال. أما باقي بلاد البحرين فقد سيطرت عليها قبائل العرب، منهم بنو عقيل الذين خلفوا العيونيين في حكم البحرين ، وبنو تغلب وبنو سليم الذين دبت الخلافات بينهم، رحل على إثرها بنو سليم إلى مصر وبنو عقيل إلى العراق، إلا أن قسماً منهم عاد إلى البحرين حين علموا بضعف بني تغلب، فاستطاعوا أن يستحوذوا على حكم البحرين عام (٦٥١هـ / ١٢٥٣م) وأصبح بنو تغلب من جملة رعاياهم[٤٣٨].

وبعد زوال دولة العيونيين في البحرين تعاقبت على حكمها دولتان من عرب المنطقة، هما العصفوريون والجبور. فقد ازدهر ملك بني عامر مرة أخرى على يد زعيم بني عامر الشيخ عصفور بن راشد ، وسادوا إقليم البحرين والأقاليم المجاورة، ينقل عن ابن خلدون عن ابن سعيد في حديثه عن بلاد البحرين : سألت أهل البحرين حين لقيتهم بالمدينة النبوية سنة إحدى وخمسين وستمائة عن البحرين، فقالوا : الملك فيها لبني عامر عقيل، وبنو تغلب من جملة رعاياهم[٤٣٩] وبنو عصفور منهم أصحاب الاحساء[٤٤٠] وفي رواية أخرى: بأن دين القطيف واليمامة مجالات بني عامر، ولم يبق معهم لأحد من العرب عز بلاد اليمامة والبحرين[٤٤١].

إن استيلاء العصفوريين على البحرين تم على مراحل، استمرت إلى عام ٦٣٦م. ففي البداية استطاع العصفوريون انتزاع الاحساء من العيونيين. ثم القطيف وجزيرة أوال من الزنجيين ، بسبب هرم دولتهم، ولم يستطيعوا أن يبسطوا نفوذهم على معظم أجزاء البحرين إلا في وقت اجتياح هولاكو لبغداد ، وانهيار الخلافة العباسية (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) . وظل العصفوريون يتوارثون الحكم في مناطق نفوذهم قرابة القرنين والنصف من الزمان[٤٤٢] .

لقد مرت منطقة الخليج خلال عصر العصفوريين بظروف سياسة صعبة ، تمثلت في ظهور قوى سياسية جديدة مختلفة في المنطقة طامعة ، حاولت منافسة بني عصفور على السلطة كبني الحسين، وبني عامر بن عوف ، وبني مغامس ، هذا محلياً ، ودولياً ظهور المغول كقوة

اجتاحت بلاد فارس والعراق ، وقيام دولة المماليك البحرية وامتدادها من مصر إلى بلاد الشام والحجاز.

لم ينفك العصفوريين عن مقاومة النفوذ الأجنبي المتمثل في أطماع أمراء هرمز والاتابكة في بلاد فارس، الذين حاولوا أن يمدوا نفوذهم إلى جزر البحرين وسواحله ، وقد نجحوا فعلاً في إيجاد موطئ قدم لهم فيها ، لكن نفوذهم لم يستمر طويلا نتيجة مقاومة العصفوريين لهم، فاضطروا لدفع إتاوة سنوية مقابل عدم التعرض للنفوذ السلغوري ، وأخيراً اضطروا إلى الإجلاء عن الأجزاء المحتلة من البحرين[٤٤٣].

أما عن علاقة العصفوريين بالمماليك فقد كانت طيبة، فقد استقبل الظاهر بيبرس وفداً أرسله أمراء البحرين سنة (٦٥٨هـ / ١٢٥٩م) برئاسة محمد بن أحمد العامري، وفي مصر استقبلهم بيبرس باحترام وأكرم وفادتهم ، وأفاض عليهم بسابغ الأنعام[٤٤٤]. ولكن هذه العلاقة الحسنة أصابها بعض الفتور بعد وفاة السلطان بيبرس، فقد صارت بلاد البحرين تدين بالتبعية لأسرة الطيبين العربية، التي تحكم إقليم فارس وجزر وسواحل الخليج، وذلك باسم المغول، منذ بداية القرن الثامن الهجري ، ويقومون بدفع مبالغ سنوية إلى أمراء العصفوريين لتهدئتهم لكي يقفوا بجانبهم[٤٤٥].

استمرت إمارة العصفوريين العامرية أكثر من قرن ونصف القرن من الزمان، إلا أن مظاهر الانهيار بدأت في الظهور منذ حوالي النصف الأول من القرن الثامن الهجري ، حيث استفحلت الخصومات حول السلطة بين أفراد السلطة الحاكمة نفسها. وقد جر هذا التنافس بين الأمراء إلى لجوء الأمير الحاكم إلى المرتزقة والعبيد لحمايته ، بدلا من اعتماده على أفراد قبيلته، لأنه بات يخشى طموح بطون وأفخاذ قبيلته في مؤامرات ضده[٤٤٦].

وكان التنافس بين أمراء بني عصفور حول السلطة يدفعهم إلى التسابق حول طلب الدعم الخارجي من القوى الطموحة الأخرى المتنافسة في الخليج، كالطيبين والهرمزيين مما أعطى هذه القوى مبرراً للتدخل في شئونهم الداخلية، وبسط نفوذها على بلاد البحرين، ولم يكن آل عصفور يملكون القوة العسكرية الكافية التي من الممكن أن تساند سلطتهم السياسية، رغم الازدهار الاقتصادي الذي كان هو أيضاً عرضه للمنافسة القوية من جانب القوى البحرية التجارية في الخليج[٤٤٧].

بعد سقوط حكم العصفوريين في إقليم البحرين ظهرت إمارة جديدة هي إمارة الجروانيين نسبة إلى مؤسسها جروان المالكي من قبيلة عبد القيس، ويبدو أن نفوذ الجروانية لم يدم طويلا، فقد دام ربع قرن فقط بين سنتي ٧٩٥هـ - ٨٢٠هـ، إذ لم تكن إمارة الجروانيين قوية إذ أنهم خضعوا لمملكة هرمز سياسيًا، كما أن نفوذ بني عامر على التجارة والحياة الاقتصادية ظل قويًا، رغم فقدانهم لمركزهم السياسي لفترة من الزمن [٤٤٨].

خضعت البحرين إلى سلطة هرمز عندما سارع حاكم هرمز (توران شاه) باحتلال البحرين وأمضى فترة فيها وربما كان في العقد السادس والسابع من القرن الثامن الهجري فقد توفي توران شاه بعد عودته إلى بلدة هرمز في عام ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م وقيل في سنة ٧٨٨ هـ [٤٤٩].

واستمرت بلاد البحرين خلال القرن التاسع تدين بالتبعية لملوك هرمز في عهد قطب الدين فيروز شاه حتى ٨١٩هـ / ١٤١٦م ثم استولى عليها ابنه سيف الدين مهار ثم حكمها أخوه فخر الدين توران شاه سنة ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م، ثم استقلت البحرين عن نفوذ هرمز على يد إحدى بطون بني عامر وهم بني جبر أو (الجبور) [٤٥٠].

إمارة الجبور العقيلية:

ظهرت إمارة الجبور في الاحساء وتنسب إلى جبر بن حسين أو (حصين)، وهو من أحد بطون بني عامر، واستطاع جبر الاستقلال بالاحساء عن هرمز منتهزاً فرصة ضعف ملكها فخر الدين توران شاه، وتعتبر إمارة الجبور من أهم الإمارات العربية في منطقة الخليج، في هذه الفترة التاريخية، حيث بسطت سلطتها على ساحل الخليج من البحرين وشملت عمان وهرمز، كما وصلت غربًا إلى إقليم نجد، وحكمت أكثر من قرن من الزمان بين سنة (٨٢٠هـ - ٩٣١هـ / ١٤١٨-١٥٢٤م) [٤٥١].

إن قوة قبيلة بني عامر العقيلية ومهاراتهم التجارية والسياسية، قد أهلتهم لكي يحتلوا دورا قياديًا في منطقة الخليج، وجعلتهم يتحينون الفرصة المناسبة لاستعادة مركزها السياسي المفقود [٤٥٢].

وقد شهدت إمارة الجبور مجموعة من الحكام، قامت على اكتافهم عملية تأسيس الدولة، وشهدت البلاد في عصرهم تطوراً ونماءً ورخاءً وتقدمًا في أكثر من مجال. ومنهم زامل بن حسين

زامل بن حسين الجبري العقيلي، الذي قضى على آخر أمير من الأسرة الجروانية، وأبطل تبعية منطقة الاحساء إلى مملكة هرمز العربية. وقام بحرب الدواسر عندما أكثروا من الغارات على بوادي الاحساء، فأوغروا صدره، فدهمهم في منازلهم ثم صالحوه، فرجع إلى وطنه، وفي سنة (٨٥٥هـ) داهم الفضول وهزمهم، ثم غزا بلاد نجد سنة (٨٥٨هـ) وعاد بالغنائم، ويرجح أن تكون وفاته بعد (٨٦٦هـ / ١٤٦١م) بقليل [٤٥٣]. وتولى بعده ابنه سيف بن زامل، فحكم البحرين بالعدل ودان له أهلها بالطاعة، وشهدت البلاد في عهده فترة من الازدهار والرخاء، واستطاع فتح عمان [٤٥٤].

وبعد وفاة سيف بن زامل العقيلي خلفه أخوه أجود بن زامل، ولما اتصف به من قوة ودراية، فقد تمكن من توحيد البحرين ثانية، وأصبح سيد الخليج بلا منازع [٤٥٥]. لكن عهده لم يدم طويلاً، ويعتبر عهده عهد قوة وازدهار، وبلغت الإمارة في عهده شأنًا رفيعًا، وامتد نفوذها ليشمل مناطق عدة، فقد توسعت باتجاه مملكة هرمز وكذلك عمان. فقد عزز أجود بن زامل من نفوذ إمارته في البحرين، وسيطر على القطيف والاحساء منتزعًا هذه المناطق من مملكة هرمز، ولقب «بسلطان البحرين والقطيف والاحساء»، ورئيس أهل نجد، وأخذ الجزية من بعض ملوك العجم المجاورين، وكانت له اتصالات تجارية مع ملوك الهند المسلمين. وكان الأمر في عهد أجود مستتبًا ومسالك الحج من شرق الجزيرة إلى مكة آمنة [٤٥٦].

بعد وفاة أجود بن زامل خلفه خمسة أبناء، أكبرهم مقرن الذي خلف أبوه على الحكم وآلت السلطة في هرمز إلى خواجًا عطار الذي بادر بمهاجمة البحرين تحت تشجيع البرتغاليين، في عام (٩١٧هـ/ ١٥١١م) الذين كانوا أول من تعرف على الشرق بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح، وتصدى مقرن بن أجود الذي أصبح سلطانًا على البحرين لصد الهجوم بل وحاول الجبور أن يهاجموا هرمز من داخل عمان، فاضطر خواجا عطار إلى الانسحاب عائدا إلى بلاده، لكن لم يلبث أن سقطت هرمز بأيدي البرتغاليين [٤٥٧].

اتخذ البرتغاليون هرمز كقاعدة للسيطرة منها على الخليج كله، وبالفعل قبائهم في عام (٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م) زحفوا على شواطئ البحرين، وقتلوا أميرها مقرن بن زامل فتولى الحكم عدد من أفراد هذه الأسرة في المناطق الداخلية، ونتيجة للخلافات الداخلية بينهم استعان غصيب بن زامل بن هلال بوالي البصرة الشيخ راشد بن مغامس، فقدم البحرين، وأعلن نفسه حاكما عليها [٤٥٨].

وبهذا الانتصار الذي حققه راشد زالت دولة الجبور، ويقال أن مقرن بن قضيب هو الذي سلم لقوات الأتراك العثمانيين سنة ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م، وانتهى حكم الجبور حيث أمروا على الاحساء محمد باشا الملقب بغروخ في سنة ٩٥٧هـ ثم علي بن أحمد بن لاوند البريكي سنة ١٠٥١هـ / ١٦٤١م ثم استعاد بنو خالد سلطانهم على الاحساء على يد آل عريعر (٤٥٩).

غير أن البرتغاليين ما لبثوا أن استولوا على القطيف والاحساء التي زال حكم الجبور منها في منتصف عام (٩٣٢هـ / ١٥٢٥م).

هوامش البحث

١- عماد الدين اسماعيل ، تقويم البلدان، ص٩٨ .

٢- ياقوت الحموي ، معجم البلدان، م١ / ٣٤٦ .

٣- ياقوت الحموي ، معجم البلدان، م١ ، ص٣٤٦ - ٣٤٧ .

٤- علي محمد، بعض فقها ، البحرين في الماضي والحاضر ، ص٩ .

٥- ياقوت الحموي ، معجم البلدان، م١ ، ص٣٤٧ .

٦- المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

٧- أبو الفدا ، تقويم البلدان، ص٩٩ .

٨- ابن منظور لسان العرب، مجلد ١٣ ، ص٤٧ .

٩- مجد الدين الفيروز ابادي، القاموس المحيط، ج٣، ص٢٠٢ ، محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح ، ص١٧ ، وكذلك لويس معلوف، المنجد في اللغة العربية ، ص٣٧ .

١٠- جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج١ ، ص١٧٧ .

١١- الشيخ محمد التيهاني الطائي، التحفه التيهانية، ص١٢ ، انظر كذلك القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٧ ، كذلك عبد الجبار ناجي، العلاقات التجارية بين البحرين والعراق خلال العصر الوسيط، مجلة الوثيقة ، العدد السادس ، ص١٠٦ - ١٠٧ .

١٢- ياقوت الحموي ، معجم البلدان، م١ ، ص٢٧٤ .

١٣- حافظ وهبه، صفة جزيرة العرب، ص٩٥ .

١٤- ابن مجاور ، تاريخ المستبصر ، ص١٠٣ .

١٥- ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ٤ / ٣٩٣ .

١٦- الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص٣١٧ .

١٧- برهان الدين دلو، جزيرة العرب قبل الإسلام، ج١، ص٣٣ ، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥ ، ص٥٥ .

١٨- ابن عبد الحق ، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج٢ ، ص٢٠٣ .

١٩- الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص٢٢٣ .

٢٠- ياقوت الحموي ، معجم البلدان، م١ ، ص١١٢ .

٢١- المقدسي ، أحسن التقاسيم، ص٩٤ .

٢٢- أبو الفداء ، تقويم البلدان، ص٩٩ .

٢٣- محمد بن عبدالله الاحسائي ، تحفة المستفيد، ص٤، وكذلك ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج٢ ، ص٠١٥ .

٢٤- ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج١ ، ص١٧٧ .

٢٥- حسين مؤنس، ابن بطوطه ورحلاته، ص١١٣.

٢٦- القاموس المحيط ، ٢ / ٣٥٨ .

٢٧- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ، ٣ / ٩٣٩ .

٢٨- الطبري، المصدر السابق، ١ / ٨٢٠ .

٢٩- الطبري، المصدر السابق، ١ / ٩١٢ .

٣٠- ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج١ ، ص١٧٧ .

٣١- ياقوت الحموي، معجم البلدان، م٥ ، ص١٣٤ .

٣٢- عبد الرحمن عبد الكريم النجم ، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج ، ص٦١ .

٣٣- جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤ ، ص٢٠٤ .

٣٤- البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١١٤ .

٣٥- ياقوت الحموي ، معجم البلدان، م٢ ، ص١٧٤ .

٣٦- ياقوت الحموي، معجم البلدان، م٢ ، ص١٢٦ .

٣٧- البلاذري ، فتوح البلدان، ص١١٨ ، وكذلك محمد بن عبدالله الاحسائي، تحفة المستفيد، ص١٥ .

٣٨- محمد بن عبد المنعم الحميري، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص٢٨٢ .

٣٩- عبد الرحمن عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، ص٦١ .

٤٠- محمد بن عبدالله الاحسائي ، تحفة المستفيد، ص١٣ .

٤١- صفي الدين البغدادي، مراصد الإطلاع، ج١ ، ص٤٢٤، وكذلك ياقوت الحموي، معجم البلدان، م٢، ص٣١٥ .

٤٢- عبد الرحمن عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، ص٦٢ .

٤٣- الاحسائي ، تحفة المستفيد ، ١ / ٥٥ .

٤٤- مايلز، الخليج بالمانه ولبالمه، ص٢٨٩ .

٤٥- الهمداني ، صفة جزيرة العرب، ص١٧٩ - ١٨٠، الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ١ / ٣٦٥ .

٤٦- سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص٢٥٩ .

٤٧- الهمداني ، صفة جزيرة العرب، ص١٣٦ .

٤٨- هناك اختلافات بسيطة في فترة عقده، ففي حين أن اليعقوبي ، التاريخ ١ / ٣١٣ يذكر: إنه يعقد في شهر ربيع الأول، فأن التوحيدي، الامتاع والمؤانسة ١/ ٨٤ يقول : إنه يعقد في شهر ربيع الآخر، وسعيد الأفغاني، أسواق العرب ص٢٤١، يذكر إنها تبدأ أول جمادى الأخرة .

٤٩- اليعقوبي ، التاريخ ١ / ٣١٣ وكذلك التوحيدي، الامتاع والمؤانسة ١ / ٨٣ - ٨٥ ، الأفغاني ، أسواق العرب في الجاهلية والاسلام، ص٢٤١- ٢٤٤ .

٥٠- ابن حبيب المجبر ١ / ٢٦٥ ، المرزوقي، الأزمنة والأمكنة، الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص٢٤٣ .

٥١- سليمان ابراهيم العسكري، التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي، ص١١٦ .

٥٢- آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢ ، ص٣٢٢، ٣٢٣ .

٥٣- حسين المسري، تجارة العراق في العصر العباسي، ص٣٧٨ .

٥٤- تيقولا زيادة، الجغرافية والرحلات عند العرب، ص٢٣٢ .

٥٥- محمد متولي، حوض الخليج العربي، ص٠٧ .

٥٦- حسين المسري، المرجع السابق، ص٣٧٨ .

٥٧- ابن الزبير، الذخائر والتحف ، ص١٧٧ .

٥٨- القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص٢٧ .

٥٩- القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤ ، ص٤٠٨، ج٥ ، ٥١ .

٦٠- الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ١/ ٣٨٧ ، ٣٨٨ .

٦١- أي أغسطس وسبتمبر .

٦٢- المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص١٠١ .

٦٣- شيخ الربوه، نخبة الدهر وعجائب البر والبحر، ص٧٨ .

٦٤- عمر بن صالح العمري، الغوص واللؤلؤ في الخليج، ص٣٧ .

٦٥- البيروني، الجماهر في معرفة أحوال الجواهر ، ص١٢٩، ١٣٠ .

٦٦- دائرة المعارف الإسلامية، المجلد ٦ ، ص٣١٦ .

٦٧- ياقوت ، معجم البلدان، مجلد ١ ص٤٥٧، وانظر كذلك يوسف غنيمة، تجارة العراق قديما وحديثا ، ص٤٤- ٤٥ .

٦٨- الدينوري، الأخبار الطوال، ص١١٧ .

٦٩- الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد، ج١ ، ٧٢ .

٧٠- المهر: ولد الفرس، أول ما ينتج من الخيل والحمر الأهلية، وغيرها والجمع القليل امهار، وانظر ابن منظور ، لسان العرب، ج٥ ، ص١٨٥ .

٧١- ابن الساعي البغدادي ، مختصر تاريخ الخلفاء ، ص١٤١ ، وانظر كذلك القلقشندي قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، ص١٢١- ١٢٢ ، العمري ، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٨٠ .

٧٢- أبو زيد السيرافي، ذيل سلسلة التواريخ ، ص١٤٢ ، ١٤٣ .

٧٣- جميل المدور، حضارة الإسلام في دار السلام، ص٨ ،

٧٤- محمد الشيخلي، تاريخ البصرة القديمة ومواضيها ، ص٥٤ .

٧٥- ناصر خسرو ، سفر نامة ، ص٩٣ .

٧٦- الإحساني ، تحفة المستفيد، ص٩٧ .

٧٧- بلهيد ، صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار، ج٣ ، ص١١٠ .

٧٨- النبهاني، التحفة النبهانية، ص٣٨ ، وانظر كذلك: الاب انستاس ماري الكرملي، خلاصة تاريخ العراق منذ نشوءه إلى يومنا هذا، ص٧٩ .

٧٩- ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ، ص١٨٢ .

٨٠- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣ ، ص٣ .

٨١- ابن حوقل ، نفس المصدر، ص٣٣ .

٨٢- عبد الرحمن المديرس، الدولة العيونية في البحرين، ص١٦٨ .

٨٣- عبد الرحمن المديرس، نفس المرجع، ص١٧٠ .

٨٤- ابن حوقل ، المسالك ، ص٣٥ ، وكذلك الاصطخري، مسالك الممالك، ص٢٨ .

٨٥- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٤/ ٩٥٣ .

٨٦- شيخ الربوة ، نخبة الدهر، ص٣٠ .

٨٧- اليعقوبي ، كتاب البلدان، ص٣٢ .

٨٨- الهمداني ، مختصر كتاب البلدان، ص٣٠ ، القلقشندي، قلائد الجمان، ص١٨، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص١٦ ، كحالة ، جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ٢٦٢ .

٨٩- ناصر خسرو ، سفر نامة، ص٩٢ .

٩٠- ابن سعد ، الطبقات الكبرى، ق ٢ / ١٨ .

٩١- أبو الفدا ، تقويم البلدان، ص٩٩ .

٩٢- ناصر خسرو ، سفر نامة، ص٩١ .

٩٣- انظر ابن خلدون التاريخ ٣ / ٣١٥، كذلك ابن الأثير، الكامل، ٤/ ٢٠٤ .

٩٤- الهمداني ، صفة جزيرة العرب، ص١٢٨ ، وما بعدها؛ ويذكر الادريسي أن المسافة بين البحرين إلى مكة حوالي خمس عشرين مرحلة، نزهة المشتاق، ج١، ص١٤٩ ، .

٩٥- أبو الفدا ، تقويم البلدان، ص٩٧ .

٩٦- الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، ص٣٠ ، كذلك الألوسي، بلوغ الأرب ، ج١ ص١٩٧ ، كحالة جغرافية شبه جزيرة العرب، ص٢٦٢ .

٩٧- القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص١٧ .

٩٨- ابراهيم الحربي، المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة ص٥٩٤ .

٩٩- ذكرها الحميري، أنها تنسب إلى خزيمة بن ربيعة بن نزار من وجد بن عدنان، وتقع على طريق الحج من البصرة إلى مكة، الروض المعطار، ص٣٧٧ .

١٠٠- ابن رسته ، الأعلاق النفيسة ، ص١٨٢ .

١٠١- حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ج١، ص٦٢ .

١٠٢- البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج٤ ، ص٤٣ .

١٠٣- محمد حسن العمادي، التجارة وطرقها في الجزيرة العربية بعد الاسلام حتى القرن ٤ الهجري ، ص٣٣٧ .

١٠٤- جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج١ ، ص١٧٥ ، كذلك فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان ، ج١ ، ص٢٩٩- ٣٠٠ ، بيري، اكتشاف جزيرة العرب، ص٣١ .

١٠٥- محمد حسن العمادي، نفس المرجع، ص٣٣٧، وكذلك عبد الرحمن العاني، البحرين في صدر الاسلام، ص١٢١ .

١٠٦- علي أبا حسين ، العلاقات التاريخية بين البحرين والهند، ص١٠ .

١٠٧- صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص٢٢٩- ٢٣٠ .

١٠٨- لسان العرب ٤ / ٢٩٩ ، ياقوت ٢ / ٢م ٥٣٧ ، ابن خلدون، ٤/ ١٩٧ .

١٠٩- ابن خرداذبة ، المسالك والممالك، ص٧ ، كذلك سليمان التاجر، السيرافي، سلسلة التواريخ ، ص٩، ص١٣٧ ، القزويني، آثار البلاد ، ص٤٣ ، ٥٩ ، ١٠٧ .

١١٠- البكري، معجم ما استعجم ، ج٣ ص٩٢٦، كذلك آدم متز، الحضارة الاسلامية، ج٢ ، ص٤٤٢ .

١١١- القلقشندي ، قلائد الجمان، ص١٢١ .

١١٢- سليمان العسكري ، التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي ، ص١٧٨ .

١١٣- آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، ج٢ ، ص٤٤٢ .

١١٤- المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢ ، ص٢٧٨ .

١١٥- هادي العلوي، من تاريخ العلاقة بين الحضارتين الصينية والاسلامية، مجلة المدى الثقافية، العدد الأول، ص٢٧ .

١١٦- سعيد بنجرقن ، نبذه عن الصين، ص٦ .

١١٧- فشترا، الشرق الأقصى، ص١٣ .

١١٨- بدر الدين الصيني، العلاقات التجارية بين العرب الصين، ص١٣٧ .

١١٩- حسن المري، تجارة العراق في العصر العباسي، ص٣٧٨ .

١٢٠- خالد سالم، رياضة الخليج، ص٥١ .

١٢١- شوقي عبد الغني عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الاسلامية، ص٢٠٧ .

١٢٢- ابن خرداذبة ، المسالك ، ص٦٩- ٧٠ وكذلك سليمان التاجر وأبي زيد السيرافي، سلسلة التواريخ ، ص١١٠ ، ١٣٧، ١٣٨ ، المقدسي، أحسن التقاسيم ، ص٩٤- ٩٧ ، بدر الدين الصيني، العلاقات بين العرب والصين، ص٢٤٢، ٢٥٢ ، ٢٦٠، وكذلك حوراني ، العرب والملاحة ، ٢١٨ .

١٢٣- أبو زيد السيرافي، أخبار الصين والهند، ج٢ ، ص٦٧ .

١٢٤- عطيه القرصي ، تجارة الخليج بين المد والجزر ، ص٣٢ .

١٢٥- محمد ارشيد العقيلي، الخليج العربي في العصور الإسلامية، ص١١٤ .

١٢٦- القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٢٨٠ .

١٢٧- البكري، المسالك والممالك، ورقة ١٧ ، ابن بطوطة ، الرحلة، ص٢٧٩- ٢٨٠ .

١٢٨- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص١٠٥ .

١٢٩- ابن حوقل ، صورة الأرض ، طبعة وزارة الاعلام العراقية ، ص٢٤٩ .

١٣٠- ابن بطوطه ، الرحلة ، ج١، ص١٧٧ ، وكذلك النبهاني، التحفة النبهانية، ص٢٤ .

١٣١- محمد ارشيد العقيلي، المصدر السابق، ص٢١٤ ، ابن الفقيه ، البلدان، ص٣٠ .

١٣٢- النبهاني، التحفة النبهانية، ص٢٤ .

١٣٣- ابن الفقيه ، البلدان، ص٣٠ .

١٣٤- ناصر خسرو ، سفر نامه ، ص٩٤ ، وانظر كذلك ، ارنولد ويلسون، الخليج العربي ، ص١٦٦ .

١٣٥- البكري، معجم ما استعجم ، ص٣٩ .

١٣٦- أبو الفدا، تقويم البلدان، ص٨٣ .

١٣٧- عبد الجبار ناجي، العلاقات التجارية بين البحرين والعراق في العصر الوسيط، ، ص١١٥ .

١٣٨- انظر، أبو الفدا ، تقويم البلدان، ص٨٣ .

١٣٩- ناصر خسرو ، سفر نامه، ص٩٣ وانظر محمد أرشيد العقلي، الخليج العربي في العصور الاسلامية، ص٢١٥ .

١٤٠- النويري، رياض الصالحين ، ص٥٢٨ ، الشربطي، السفن، ٨/ ٥٩٨ .

١٤١- ابن سعد ، الطبقات، ج٠ ق٢ ، ص١٨ .

١٤٢- الجمحي ، طبقات مخول الشعراء، ص٩٧ .

١٤٣- عبد الرحمن المديرس، الدولة العيونية في البحرين، ص١٧٢ .

١٤٤- الجاحظ ، البيان والتبين ، ٣ / ١٢١ .

١٤٥- عبد الرحمن المديرس، المرجع السابق، ص١٧٢ .

١٤٦- الطبري، تفسير الطبري، ٧ / ٢٥ .

١٤٧- سالم أحمد العلي الدولة في عهد الرسول، م٢ ، ص٥٥٧ .

١٤٨- انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤ / ٩٠ ، الجاسر ، المعجم الجغرافي في المنطقة الشرقية، ٣ / ١١٤٠- ١١٤٢ .

١٤٩- ابن الأنباري، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، ص١٣٧ ، التبريزي، شرح القصائد العشر، ص٣٠- ٣١ .

١٥٠- محمد أرشيد العقيلي ، الخليج العربي في العصور الاسلامية، ص٢١٧ .

١٥١- الأغاني ٩ / ١٤٦ ؛ ابن منظور ، لسان العرب ٧ / ٢٩٠؛ ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص٨١ ؛ الجوهري، الصحاح ٣ / ١١٣٣ .

١٥٢- القلقشندي ، صبح الأعشى، ج٥ ، ص١٤ ، ابن منظور، لسان العرب، ج٢ ، ص١١٩٩ .

١٥٣- عبد الرحمن العاني، سكان البحرين عند ظهور الاسلام، مجلة الوثيقة ، العدد السابع يوليو ١٩٨٥م ، ص٥٧ .

١٥٤- ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ، ص٣٨ .

١٥٥- القلقشندي ، صبح الأعشى، ج١ ، ص٣٣٧ .

١٥٦- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٤ ، ص٢٠٣ .

١٥٧- البكري، معجم ما استعجم ، ١ / ٨١ .

١٥٨- عمر رضا كحاله ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج٣ ، ص٩٧ .

١٥٩- عبد الرحمن عبد الكريم النجم ، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، ص٤٢ .

١٦٠- ابن قتيبة الدينوري، المعارف، ص٩٣ .

١٦١- الهمداني، صفة جزيرة العرب ، ص١٦٩ ، وكذلك محمد الخضري بك، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية الدولة الأموية، ج١ ، ص١٥ .

١٦٢- عبد الرحمن العاني ، سكان البحرين عند ظهور الاسلام، مجلة الوثيقة، عدد ٧ ، ص٦١ .

١٦٣- بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار، ذات نخل كثير وخيرات واسعة ، انظر ياقوت ، المصدر السابق، ٥ / ٤٢١ .

١٦٤- البكري، معجم ما استعجم، ١ / ٨٥ .

١٦٥- ماء لبني قيس ابن ثعلبة وهم بطن من بكر ابن وائل ببطن خليج بناحية البحرين ، انظر ياقوت، المصدر السابق ، ٤/ ٧٦ ، وكذلك الجاسر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ٣ / ١١٢٥ - ١١٢٦ .

١٦٦- البلاذري ، فتوح البلدان، ص٨٣ .

١٦٧- عمر رضا كحاله، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج١ ، ص١٢٦ .

١٦٨- الاصطخري ، مسالك وممالك، ص٢٣ .

١٦٩- جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج٤، ص٥٢ .

١٧٠- عبد الرحمن عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الاسلام وأثرها في حركة الخوارج، ص٤٤ .

١٧١- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج٤ ، ص٥٢٧ .

١٧٢- عمر رضا كحاله ، قبائل العرب القديمة والحديثة ، ج١ ، ص٥٢٧ .

١٧٣- اليعقوبي ، التاريخ، ج١ ، ص٢٣٢- ٢٣٣ .

١٧٤- عبد الرحمن عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، ص٤٥ .

١٧٥- إحسان النص، العصبية القبلية ، ص١٣٤ .

١٧٦- حمد الجاسر ، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، ص٤٩ .

١٧٧- ابن خلكان ، وفيات الأعيان، ج١ ، ص١١٥ ، وانظر كذلك جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤ ، ص٣٧٤ .

١٧٨- البلاذري ، فتوح البلدان، ص٢٢٢ ، وكذلك أبو عبيدة: معمر بن المثنى، نقائض جرير والفرزدق، ج١ ، ص١١٥ .

١٧٩- اظهر مباركبوري الهندي، العرب والهند في عهد الرسالة، ص٥١ .

١٨٠- علي بن محمد المدائني (١٣٥- ٢٢٥هـ) وهو من الرواة الإسلاميين الثقة.

١٨١- الأزهري ، تهذيب اللغة، ج١٣ ، ص١٩٥ .

١٨٢- الجاحظ ، البخلاء ، ص٣٢٢ .

١٨٣- خالد جاسم الجنابي، تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي، ص٤٨ .

١٨٤- أحمد إسماعيل علي، تاريخ بلاد الشام ، ص٤١٦ .

١٨٥- أظهر مباركبوري الهندي، العرب، والهند في عهد الرسالة، ص٥٤ .

١٨٦- البلاذري، فتوح البلدان، ص٥٢٢ .

١٨٧- صالح أحمد العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، ص٧٠ هامش .

١٨٨- أظهر مباركبوري الهندي، العرب والهند في عهد الرسالة، ص٦٤ .

١٨٩- عبد الرحمن عبد الكريم النجم ، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج، ص٤٥ .

١٩٠- محمد أرشيد العقيلي، الخليج العربي في العصور الإسلامية، ص٤٤ .

١٩١- المرجع نفسه ، ص٤٥ .

١٩٢- عمر فروخ، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، ص٤٣ .

١٩٣- ابن حزم ، جمهرة انساب العرب، ص٤٩٣ .

١٩٤- البكري ، معجم ما استعجم ، ج١ ، ص٦٩ .

١٩٥- إحدى جزر البحرين وثاني أكبر مدنها حاليًا .

١٩٦- ابن الكلبي ، الأصنام ، ص١١١ .

١٩٧- الآلوسي ، بلوغ الأرب ، ج٣ ، ص٢١ .

١٩٨- ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٤ / ٢٢١ .

١٩٩- لويس شيخو، النصرانية وآدابها ، ص٧١ .

٢٠٠ - جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٦ ، ص٦٠ .

٢٠١- ابن قتيبة ، المعارف ، ص٦٢١ .

٢٠٢- دائرة المعارف الإسلامية مادة بكر .

٢٠٣- اليعقوبي ، التاريخ ، ج١ ، ص٢٩٨ .

٢٠٤- ابن سعد، الطبقات ، ج٥ ، ص٤٨ .

٢٠٥- شيخو، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ، ج١ ، ص٧١ .

٢٠٦- سابر طعيمة ، التاريخ اليهودي العام، ج٢ ، ص١٦ .

٢٠٧- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج٢ ، ص١٦ .

٢٠٨- ديوان امرئ القيس، ص٥٧ ، (رواية الأصمعي) .

٢٠٩- عمر فروخ ، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، ص٤٣ .

٢١٠- بن قتيبة ، المعارف ، ص٦٢١ . وكذلك ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١ ، ص٥٨٧ .

٢١١- الحموي ، معجم البلدان، ١/ ٣٤٨ .

٢١٢- البلاذري ، فتوح البلدان، ص٩٥ .

٢١٣- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٦ ، ص٢٨٧ .

٢١٤- البلاذري، فتوح البلدان، ، ص١٠٧.

٢١٥- جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٦ ، ص٦٩ .

٢١٦- ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج١ ، ص١٧٢ .

٢١٧- البلاذري ، فتوح البلدان، ص١٠٧ .

٢١٨- عبد الرحمن عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الإسلام وأثرها في حركة الخوارج ص٥ .

٢١٩- صالح أحمد العلي، امتداد العرب في صدر الإسلام، ص٢٠ .

٢٢٠- خضير نعمان الحيدي ، البحرين من إمارات الخليج العربي ، ص٣٢ .

٢٦٢- الطبري، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص٥٢٥ ، وكذلك ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج٢ ، ص٣٧ .

٢٦٣- ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، م٢ ، ج٢ ، ص٧٧.

٢٦٤- محمود بهجت سنان، البحرين درة الخليج، ص٥٣ .

٢٦٥- محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، أيام العرب في الاسلام، ص١٧٢ .

٢٦٦- البلاذري، فتوح البلدان، ص١١٩ .

٢٦٧- محمود بهجت سنان، البحرين درة الخليج ، ص٥٣ .

٢٦٨- ابن اعثم الكوفي ، الفتوح ، ج١ ، ص٥٤ .

٢٦٩- محمد ضيف الله البطاينة، بحوث في التاريخ الإسلامي، ص٣٩ .

٢٧٠- علي حبيبة ، من قضايا التاريخ في البحرين، مجلة الرئيقة ، العدد الخامس ، ص٩٦ .

٢٧١- حسين المسري، البحرين وعمان في العصر الراشدي، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٤٥ ، ص٥٩ .

٢٧٢- البلاذري ، فتوح البلدان، ص١١٧ .

٢٧٣- المرجع السابق، ص٥٤٤.

٢٧٤- نقع في الضفة الشرقية من الخليج العربي.

٢٧٥- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣ ، ص١٧٧ .

٢٧٦- حسين المسري، البحرين وعمان في العصر الراشدي، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، عدد ٤٥ ، ص٦٤ .

٢٧٧- الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ج٣ ، ص١٧٨ .

٢٧٨- ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر، م٢ ، ج٢ ، ص١١٠ .

٢٧٩- ابن الأثير الكامل، في التاريخ ، ج٢ ، ص٥٣٨ .

٢٨٠- شباب، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٢٧.

٢٨١- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج١ ، ص١٤-١٥ .

٢٨٢- ابن سعد ، الطبقات الكبرى، ج٣ ، ص٣٠٧ .

٢٨٣- ابن عبد ربه ، العقد الفريد، ج١، ص٤٥.

٢٨٤- ابن عبد ربه ، العقد الفريد، ج١ ، ص٤٤ .

٢٦٢- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٢، ص٥٢٥، وكذلك ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٧٠.

٢٦٣- ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، م٣، ج٢، ص٢٧.

٢٦٤- محمود بهجت ستان، البحرين درة الخليج، ص٥٣.

٢٦٥- محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، أيام العرب في الاسلام، ص١٧٢.

٢٦٦- البلاذري، فتوح البلدان، ص١١٦.

٢٦٧- محمود بهجت ستان، البحرين درة الخليج، ص٥٣.

٢٦٨- ابن اعثم الكوفي، الفتوح، ج١، ص٥٤.

٢٦٩- محمد ضيف الله البطانية، بحوث في التاريخ الإسلامي، ص٣٩.

٢٧٠- علي حبيبة، من قضايا التاريخ في البحرين، مجلة الوثيقة، العدد الخامس، ص٩٦.

٢٧١- حسين المسري، البحرين وعمان في العصر الراشدي، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد ٤٥، ص٥٩.

٢٧٢- البلاذري، فتوح البلدان، ص١١٧.

٢٧٣- المرجع السابق، ص٥٤.

٢٧٤- تقع في الضفة الشرقية من الخليج العربي.

٢٧٥- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٧٧.

٢٧٦- حسين المسري، البحرين وعمان في العصر الراشدي، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، عدد ٥٤، ص٦٤.

٢٧٧- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٧٨.

٢٧٨- ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، م٢، ج٢، ص١١٠.

٢٧٩- ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج٢، ص٥٣٨.

٢٨٠- شهاب، تاريخ خليفة بن خياط، ص١٢٧.

٢٨١- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج١، ص١٤-١٥.

٢٨٢- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣، ص٣٠٧.

٢٨٣- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج١، ص٤٥.

٢٨٤- ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج١، ص٤٤.

٢٨٥- أبو الفداء الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ١١٦، وكذلك ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج١، ص٤٦.

٢٨٦- البلاذري، فتوح البلدان، ص٦٣٥- ٦٣٦.

٢٨٧- أبو الفدا، الحافظ بن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ١١٧.

٢٨٨- البلاذري، فتوح البلدان، ص٦٠٧.

٢٨٩- محمد أرشيد العقيلي، الخليج العربي في العصور الاسلامية، ص٩٢.

٢٩٠- ابن قتيبة الدينوري، المعارف، ص٢٦٨- ٢٦٩.

٢٩١- البلاذري، فتوح البلدان، ص١١٢.

٢٩٢- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٠٤.

٢٩٣- البلاذري، فتوح البلدان ص٥٤٤.

٢٩٤- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٤، ص٣٥٩.

٢٩٥- الجريب: وحدة قياسية تستخدم عادة لقياس الأراضي الزراعية.

٢٩٦- شهاب، تاريخ خليفة، ج١، ص١٥٩، وكذلك عبد الرحمن عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الاسلام وأثرها في حركة الخوارج، ص١٥٣.

٢٩٧- أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٥٦.

٢٩٨- عبد الرحمن عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الإسلام، وأثرها في حركة الخوارج ص١٥٣.

٢٩٩- محمد العزب موسى، صفحات من تاريخ البحرين، ج٢، ص٢٤.

٣٠٠- محمود شاكر، شبه جزيرة العرب، ص٣٧.

٣٠١- محمد العزب موسى، صفحات من تاريخ البحرين، ج٢، ص٢٤.

٣٠٢- نعمان محمود جبران وآخر، تاريخ الجزيرة العربية في العصور الإسلامية الوسطى، ص٣٠٥.

٣٠٣- برليوس فلهوزن، الخوارج والشيعة، ص٢٥.

٣٠٤- عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، ص٣١٩.

٣٠٥- نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص٨٨.

٣٠٦- المبرد، الكامل، ص٩٢٩.

٣٠٧- محمد عبد الله الاحسائي، تحفة المستفيد، ق١، ص١٤٠.

٣٠٨- حمد الجاسر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، ص٧٦.

٢٨٥- أبو الفداء الحافظ بن كثير ، البداية والنهاية، ج٨ ، ١١٦ ، وكذلك ابن عبد ربه ، العقد الفريد، ج١ ، ص٤٦ .

٢٨٦- البلاذري، فتوح البلدان، ص٦٣٥- ٦٣٦ .

٢٨٧- أبو الفداء الحافظ بن كثير ، البداية والنهاية، ج٨ ، ١١٧ .

٢٨٨- البلاذري ، فتوح البلدان، ص٦٠٧ .

٢٨٩- محمد أرشيد العقيلي ، الخليج العربي في العصور الاسلامية، ص٩٢ .

٢٩٠- ابن قتيبة الدينوري، المعارف ، ص٢٦٨- ٢٦٩ .

٢٩١- البلاذري، فتوح البلدان ، ص١١٢.

٢٩٢- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣ ، ص٣٠٤ .

٢٩٣- البلاذري ، فتوح البلدان ص٥٤٤ .

٢٩٤- ابن سعد ، الطبقات الكبرى، ج٤ ، ص٣٥٩ .

٢٩٥- الجريب: وحدة قياسية تستخدم عادة لقياس الأراضي الزراعية.

٢٩٦- شباب، تاريخ خليفة، ج١، ص١٥٩ . وكذلك عبد الرحمن عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الاسلام وأثرها في حركة الخوارج ، ص١٥٣ .

٢٩٧- أبوحنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٥٩ .

٢٩٨- عبد الرحمن عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الإسلام، وأثرها في حركة الخوارج ص١٥٣ .

٢٩٩- محمد العزب موسى، صفحات من تاريخ البحرين، ج٢ ، ص٢٤ .

٣٠٠- محمود شاكر ، شبه جزيرة العرب، ص٣٧ .

٣٠١- محمد العزب موسى، صفحات من تاريخ البحرين، ج٢ ، ص٢٤ .

٣٠٢- نعمان محمود جبران وآخر، تاريخ الجزيرة العربية في العصور الإسلامية الوسطى، ص٣٠٥ .

٣٠٣- يوليوس فلهوزن، الخوارج والشيعة ، ص٢٥ .

٣٠٤- عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ص٣١٦ .

٣٠٥- نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص٨٨ .

٣٠٦- المبرد ، الكامل، ص٩٢٩ .

٣٠٧- محمد عبد الله الاحسائي ، تحفة المستفيد، ق١ ، ص١٤٠ .

٣٠٨- حمد الجاسر ، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية ، ص٧٦ .

٣٠٩- الطبري ، تاريخ الأمم والملوك، ج٤ ، ص١٦٥ .

٣١٠- أحمد اسماعيل علي، تاريخ بلاد الشام ، ص٢٧١ .

٣١١- ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٥، ص٧ .

٣١٢- الأشعري، مقالات الإسلاميين، ١/ ١٨٣.

٣١٣- الشيخ عبد الله بن خالد الخليفة ورعبد الملك الخمر، البحرين عبر التاريخ، ج١ ، ص١١٠.

٣١٤- محمد سعيد المسلم ، ساحل الذهب الأسود، ص١٢٨ .

٣١٥- المبرد، الكامل في اللغة، ٣/ ٣١-١ .

٣١٦- محمد عبدالله الاحسائي ، تحفة المستفيد ، ص٧٥ .

٣١٧- نايف معروف، الخوارج في العصر الأموي، ص١٤٦ .

٣١٨- ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج٤ ، ٢٠٢ .

٣١٩- الطبري ، تاريخ الرسل والملوك، ج٤ ، ص٥٧٧ .

٣٢٠- فاروق عمر ، الخليج العربي في العصور الإسلامية ، ص٧٧.

٣٢١- المصنف المجهول ، ص١٣٩.

٣٢٢- أحمد بن يعقوب، تاريخ اليعقوبي، ج٢ ، ص٣١٤، وكذلك البلاذري، أنساب الأشراف ، ٦/ ١١٦ .

٣٢٣- الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص٩٢ .

٣٢٤- المصنف المجهول، ص١٤٣ .

٣٢٥- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٥ ، ص ٢٠ .

٣٢٦- يوليوس فلهوزن، الخوارج والشيعة، ص٧٣ .

٣٢٧- محمد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود ، ص١٣١ .

٣٢٨- عبد الرحمن عبد الكريم النجم، البحرين في صدر الاسلام وأثرها في حركة الخوارج، ص١٣٥ .

٣٢٩- البلاذري، أنساب الأشراف، ج٦ ورقة ٤٢أ .

٣٣٠- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج٥ ، ١١٩ .

٣٣١- البلاذري، انساب الأشراف ، ج٧ ، ورقة ٢٥أ.

٣٣٢- فاروق عمر، الخليج العربي في العصور الإسلامية، ص٧٩ .

٣٣٣- محمد أرشيد العقيلي، الخليج العربي في العصور الإسلامية، ص١٢٠ .

٣٣٤- عبد الرحمن عبد الكريم النجم، البحرين فى صدر الإسلام وأثرها فى حركة الخوارج، ص١٣٨.

٣٣٥- حسين المسرى، تاريخ العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق والخليج العربى، ص٦٩ .

٣٣٦- محمود شاكر، شبه جزيرة العرب، ص٤١ .

٣٣٧- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ج٥ ، ص٤٤٨ ، وكذلك الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج٦ ، ص١١١. وكذلك ابن خلدون ، المقدمة، ج٥ ، ص٣٧٧ .

٣٣٨- محمد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود ، ص١٣٣ .

٣٣٩- خليفة بن خياط العصفرى ، تاريخ خليفة بن خياط، ج٢ ، ص٦٣٢ .

٣٤٠- مؤلف مجهول ، العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، ج٣ ، ص٢٥٢ .

٣٤١- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك ، ج٦ ، ص١٥٢، كذلك ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج٥، ص٦٠٤ .

٣٤٢- الجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص١٠٩ .

٣٤٣- اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى، ج٢ ، ص٣٩٦ .

٣٤٤- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج٥ ، ص٢٩٤. وكذلك : ابن الأثير الكامل فى التاريخ، ج٥ ، ص٦٠٥ .

٣٤٥- العصفرى ، تاريخ خليفة بن خياط، ج٢ ، ص٦٧٨ .

٣٤٦- ابن الأثير ، الكامل، فى التاريخ ج٥ ، ص٦٠٤. وكذلك : تاريخ اليعقوبى ، ج٢ ، ص٣٩٦ .

٣٤٧- الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، ج٦ ، ص٣٠١ ، وكذلك ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ، ج٦ ، ص١٣ .

٣٤٨- ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، ج٥، ص٤٢٩ .

٣٤٩- محمود شاكر، شبه جزيرة العرب ، ص٤٣ .

٣٥٠- محمد بن عبدالله الاحسائى، تحفة المستفيد، ص٨٠ .

٣٥١- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج٦ ، ص٣٦٧، ٣٧٨، ٣٨١. وكذلك ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج٦ ، ص٤٩ ، ٩٢ ، ٦٧، ٧٤ .

٣٥٢- ابن الأثير ، المرجع السابق ، ص٩٤ وكذلك ابن خلدون، ج٣ ، ص٤٦١ .

٣٥٣- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٦ ، ص١٠٩، ص١١٩، وكذلك الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج٦ ص٤٤٥، ٤٤٦ .

٣٥٤- محمد عبدالله الاحسائى ، تحفة المستفيد، ص٨١ .

٣٥٥- Sir john Glubb: The empire of Arabs. p. 302- 400.

٣٥٦- ابن عباس بن يزيد المبرد ، الكامل المبرد ، ج٢ ، ص٢٦ .

٣٥٧- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج٦ ، ص٣٧٩ وكذلك الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج٧ ، ص٣٥٨ .

٣٥٨- محمود شاكر، شبه جزيرة العرب، ص٤٤.

٣٥٩- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ص٧. ص٣٣.

٣٦٠- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج٧ ، ص٥٤ ، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج٧ ، ص٣٥٨ .

٣٦١- الطبرى، المصدر السابق، ص٣٣٥، ٣٣٦ .

٣٦٢- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج٧ ، ص٣٩٧ وكذلك ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج٧ ، ص١٠١ .

٣٦٣- الطبرى المرجع السابق، ص٤٩٨، وكذلك ابن الأثير ، المصدر السابق، ص١٦٨ .

٣٦٤- عبد العزيز الدورى، دراسات فى العصور العباسية المتأخرة ، ص٧٦ .

٣٦٥- مصطفى مراد الدباغ ، قطر ماضيها وحاضرها، ص١٥٧ .

٣٦٦- ياقوت الحموى، معجم البلدان، م٣ ، ص٤٠ .

٣٦٧- قاسم حسن عباس، صاحب الزنج، ص٣٦ .

٣٦٨- أحمد على، ثورة العبيد فى الاسلام، ص١١٨ .

٣٦٩- عبد الرحمن بن على بن محمد، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، ج٥ ، ص١١١ .

٣٧٠- ثابت بن سنان وابن العديم ، تاريخ أخبار القرامطة، ص١٣ .

٣٧١- نسبة إلى بلدة جناية وهى بلدة صغيرة من سواحل فارس، انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان، مجلد ٢ ، ص١٦٥ .

٣٧٢- ابن خلدون ، العبر، مجلد ٤ ، ص١٨٨ .

٣٧٣- محمد بن مالك، كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، ص٢ .

٣٧٤- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج٨ ، ص١٩٦ .

٣٧٥- يتصلى جورى، تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام، ص١٦٧ .

٣٧٦- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك ، ج٨ ، ص١٩٩ .

٣٧٧- عبد المنعم عزيز النمر، جذور حركة القرامطة، ص٢٢.

٣٧٨- قدري للعجي، الخليج العربي، ص٢٨٥- ٢٨٧ .

٣٧٩- اسماعيل المير علي، الحركة القرمطية في التاريخ، ص١٨٨ .

٣٨٠- مسكويه، تجارب الأمم، ج١، ص ١٢٠- ١٢١ .

٣٨١- ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج٧ ، ص٥١ .

٣٨٢- المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ص١٢٩- ١٣٠ .

٣٨٣- ناصر خسرو، سفر نامة ، ص٩٣ .

٣٨٤- ابن مسكويه ، تجارب الأمم، ج١، ص٣٣- ٣٤.

٣٨٥- عبد المنعم عزيز النمر، جذور حركة القرامطة، ص٢٢.

٣٨٦- عبد الطاهر البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، ص٢٧٥.

٣٨٧- ابن مسكويه ، تجارب الأمم، ج١ ، ص١٧٩ .

٣٨٨- فاروق عمر ، تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى، ص١٨٩ .

٣٨٩- محمد جمال الدين سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية، ص٤٤.

٣٩٠- اسماعيل المير علي، الحركة القرمطية في التاريخ، ص٢٤٢ .

٣٩١- ابن خلدون ، العبر، ج٤ ، ص٨٩- ٩٠ .

٣٩٢- محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ص٣٩ .

٣٩٣- حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي، ج٣ ، ص٢٤٥ .

٣٩٤- فاروق عمر ، الخليج العربي في العصور الاسلامية ، ص٢٧٩ .

٣٩٥- ابن خلدون ، العبر، ج٤ ، ص٩٠ .

٣٩٦- حسين المسري، تاريخ العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق والخليج العربي، ص٩٨ .

٣٩٧- جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، ص٥٠ .

٣٩٨- ابن الجوزي ، المنتظم، ج٧ ، ١٣١ .

٣٩٩- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٩ ، ص٤٣ .

٤٠٠- المصدر السابق، ص٥٩ .

٤٠١- الاحسائي ، تحفة المستفيد، ص٩٨ .

٤٠٢- عبد المنعم عزيز النمر، جذور حركة القرامطة ، ص٢٦. وكذلك سهيل زكار، أخبار القرامطة، ص٨١ .

٤٠٣- ناصري خسرو، سفر نامه، ص٩٣ .

٤٠٤- حسن ابراهيم حسن، ج٤ ، ص٢٥٨.

٤٠٥- سامي العياش، الاسماعيليون، ص٩٦ .

٤٠٦- عارف تامر ، القائم والمنصور الفاطميان أمام ثورة الخوارج ، ص٥٦ .

٤٠٧- محمد أرشيد العقيلي، الخليج العربي في العصور الإسلامية، ص١٩١ .

٤٠٨- سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان، في تاريخ الأعيان، ص١٩٣، ١٨٢، .

٤٠٩- الاحسائي ، تحفة المستفيد، ص٩٨ .

٤١٠- عبد الرحمن المليرس، الدولة العيونية في البحرين، ص٧٧ .

٤١١- محمد أرشيد العقيلي، المرجع السابق، نفس الصفحة.

٤١٢- انظر بن خلكان ، وفيات الأعيان، ٥/ ٢٨٣ - ٢٨٩ .

٤١٣- الاحسائي ، تحفة المستفيد، ص٩٨ .

٤١٤- القلقشندي، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، ص٣١٩ .(٤٥٢) الاحسائي، تحفة المستفيد، ص٨٩ .

٤١٥- الوثيقة ، العدد الثالث ، السنة الثانية ، يوليو ١٩٨٣، ص٣٢.

٤١٦- البلادي، أنوار البدرين، ص٣٩٢.

٤١٧- أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الاسلامي، ج٧ ، ص٢١٥ .

٤١٨- محمد بن خليفة التيهاني، التحفة التيهانية، ص٩٦ .

٤١٩- التيهاني، التحفة التيهانية، ص٩٨ .

٤٢٠- محمد الغزب موسى، صفحات من تاريخ البحرين، ج٢، ص٣٧ .

٤٢١- قيس : جزيرة ، وهي كيش في بحر عمان ، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، م٤ ، ص٤٢٢ .

٤٢٢- التيهاني، التحفة التيهانية، ص٩٨ .

٤٢٣- الاحسائي ، تحفة المستفيد، ص١٠١ ؛ ٣١٢،٠٠ ؛ فاروق عمر فوزي، تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى، ص٢١٣ .

٤٢٤- فاروق عمر فوزي، تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى، ص٢١٣ .

٤٢٥- تقع كرمان إلى الشرق من بلاد فارس، ويقع الخليج العربي إلى الجنوب منها ، انظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤/ ٤٥٤.

٤٢٦- عبد الرحمن المديرس ، الدولة العبونية في البحرين، ص١٠٧ .

٤٢٧- محمد العزب موسى، صفحات من تاريخ البحرين، ج٢، ص٧٤ .

٤٢٨- الشيخ عبدالله بن خالد الخليفة وعلي أبا حسين ، البحرين عبر التاريخ ، ج٢ ، ص٤٩ .

٤٢٩- المرجع السابق، نفس الصفحة.

٤٣٠- الاحسائي ، تحفة المستفيد، ص١٠٣ .

٤٣١- النبهاني، التحفة النبهانية، ص١٠٤ .

٤٣٢- محمد العزب موسى، صفحات من تاريخ البحرين، ج٢ ، ص٧٥ .

٤٣٣- فاروق عمر فوزي، تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى، ص٢١٢.

٤٣٤- المخيري، المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب، ص١٧٧ .

٤٣٥- ابن المقرب العيوني، ديوان ابن المقرب، ص٩٤٣ .

٤٣٦- عبد اللطيف الحميدان، إمارة المعصفوريين، ص٥٨ .

٤٣٧- عبد الرحمن المديرس، الدولة العبونية في البحرين، ص١٤٨ .

٤٣٨- ابن خلدون ، العبر ، ج٤ / ١٩٦ .

٤٣٩- المصدر السابق، نفس الصفحة، وكذلك حسين المسري، العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق ومنطقة الخليج العربي، ص١١٤.

٤٤٠- عبد الرحمن المديرس، المرجع السابق، ص١٤٨.

٤٤١- ابن خلدون ، العبر، ج٤ ، ص١٩٦ .

٤٤٢- محمد أرشيد العقيلي، الخليج العربي في العصور الإسلامية، ص٢٠١ .

٤٤٣- فاروق عمر فوزي، تاريخ العرب في العصور الإسلامية الوسطى، ص٢١٤.

٤٤٤- المقريزي ، السلوك،ج١ ، ص٢١٤، وكذلك القلقشندي، نهاية الأرب، ص١٠٦.

٤٤٥- الشيخ عبدالله بن خالد الخليفة و علي أبا حسين ، البحرين عبر التاريخ، ج٢ ، ص١٢٢ .

٤٤٦- عبد اللطيف الحميدان، إمارة المعصفوريين، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، عدد ١٥ ، ص١١٨.

٤٤٧- محمد العزب موسى، صفحات من تاريخ البحرين، ج٢ ، ص٧٩ .

٤٤٨- فاروق عمر فوزي، الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى، ص٢١٤ .

٤٤٩- الشيخ عبدالله بن خالد الخليفة و علي أبا حسين ، البحرين عبر التاريخ، ج٢ .

٤٥٠- عبداللطيف الحميدان، التاريخ السياسي إمارة المعصفوريين في البحرين ، مجلة الوثيقة، العدد٣ ، ص٥٩.

٤٥١- فاروق عمر فوزي، المرجع السابق، ص٢١٥ .

٤٥٢- عبداللطيف الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، مجلة كلية آداب البصرة عدد١٦ ، ص٣٤.

٤٥٣- الشيخ عبدالله بن خالد الخليفة، المرجع السابق، ص١٠٦.

٤٥٤- محمد العزب موسى، صفحات من تاريخ البحرين، ج٢ ، ص٩٨ .

٤٥٥- محمد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود، ص١٦٩.

٤٥٦- محمد أرشيد العقيلي، الخليج العربي في العصور الإسلامية، ص٢٠٢.

٤٥٧- محمد العزب موسى ، المرجع السابق، ص٩٩ .

٤٥٨- محمد أرشيد العقيلي، المرجع السابق، ص٢٠٣.

٤٥٩- الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة، وعلي أبا حسين ، البحرين عبر التاريخ، ص١١٨ .

د. سعيد مغاوري محمد(*)

أهمية تمحيص قراءات المستشرقين لنصوص البرديات العربية

تمهيد

تعتبر نصوص البرديات من أندر الوثائق التاريخية، وهي تغطي فترة زمنية كبيرة تمتد للقرون الأربعة للهجرة. موضوعاتها تشمل تقريبا جميع نواحي الحضارة في الدولة الاسلامية- بداية من عهد الخلفاء الراشدين حتى نهاية العهد العباسي تقريبا كما إنها بالغة الأهمية لطلاب التاريخ والحضارة واللغة والفكر والفنون والنظم والآثار والدراسات الإسلامية، فهناك على سبيل المثال المراسلات الديوانية والكشوف الحسابية والمراسلات الشخصية للاطمئنان وطلب الحوائج وصلة الرحم والعقود بشتى أنواعها (زواج- بيع- شراء إيجار- عمل)، وهناك أيضًا نصوص تتعلق بالسير والمغازي والنصوص الدينية (بعض آيات من القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية الشريفة) والوصفات الطبية وإيصالات الجزية والخراج وقوائم وكشوف العمال ورجال الحسبة. ونصوص أخرى تتعلق بمجالس العلماء والقضاة وفض المنازعات ومجالس الصلح ، ونصوص تتعلق بأهل الذمة والفصل في قضاياهم وحفظ حقوقهم وأموالهم ، وغيرها من النصوص يصعب حصرها لتعدد موضوعاتها.

جميع هذه النصوص بالغة الأهمية ولقد عكف على دراستها عدد كبير من المستشرقين

* أستاذ الآثار والحضارة الاسلامية المساعد - رئيس قسم الارشاد السياحي كلية السياحة والفنادق- جامعة المنوفية.

في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية وروسيا وغيرها- بعض هؤلاء المستشرقين استطاع قراءة النصوص قراءة صحيحة والبعض الآخر وردت قراءاتهم مخالفة وغير مطابقة للنصوص ربما لتواضع فهمهم للغة العربية وعدم إتقانه لها ، وربما بسبب عدم الإعجام في غالبية نصوص البرديات العربية، لذلك وجب التنبيه على الطلاب والباحثين والدارسين في مجال الوثائق التاريخية والبرديات العربية ضرورة توخي الحيطة والحذر عند الأخذ من دراسات وقراءات المستشرقين للوثائق التاريخية والبرديات العربية بسبب وجود العديد من الأخطاء في قراءة بعض العبارات والكلمات التي قد تخل بمعنى مضمون الوثيقة ومن ثم يعرضها للفهم والتأويل الخاطئ .

أولا: أبرز المستشرقين الذين عنوا بدراسة البرديات العربية:

هناك عدد كبير من المستشرقين الذين عكفوا لسنوات طويلة على دراسة وتحقيق ونشر نصوص البرديات العربية- أقدمهم على الاطلاق المستشرق الفرنسي البارون سلفستر دي ساسي S.D. SACY فقد نشر في عام ١٨٢٥م أول برديتين عربيتين في مجلة العلماء Jour-nal des Savants باللغة الفرنسية[١] ، جدير بالذكر أن المستشرق سلفستر دي ساسي توفي سنة ١٨٣٨م، وكان متخصصًا في دراسة الأدب واللغة العربية وإليه يرجع الفضل في جعل باريس مركزاً للدراسات العربية، وتجدر الإشارة إلى أن العالم العربي رفاعة الطهطاوي كان ممن اتصلوا بهذا المستشرق الفرنسي الشهير في القرن ١٩م ، ثم تعاقبت بعد ذلك سلسلة كبيرة من الدراسات بشتى لغات العالم من قبل عدد كبير من المستشرقين من النمسا وألمانيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وجمهورية التشيك والولايات المتحدة الأمريكية وروسيا.. وغيرها . سأتناول عبر هذه الدراسة قراءات بعض أبرز هؤلاء المستشرقين مسلطا الضوء على أبحديات عربية وردت في قراءاتهم بصورة مخالفة لسياق نص البردية أو لهيئة الحروف الواردة بها . نذكر منهم على سبيل المثال :

١- المستشرق الإنجليزي برنارد موريتز B. Moritz [٢]:

شغل منصب مدير عام دار الكتب المصرية في الفترة من ١٨٩٦- ١٩١١م وساهم بقدر كبير في تأسيس مجموعة البرديات العربية بدار الكتب المصرية بداية من عام ١٩٠٠م حتى خروجه من مصر بعد ذلك . جدير بالذكر أن هذا المستشرق قد ساهم بجهده في إخراج الآلاف من البرديات من مصر في مطلع القرن العشرين .

٢- المستشرق الألماني كارل هنري بيكر C.H.Becker

شغل منصب مدير جامعة هايدلبرج بألمانيا ثم بعد ذلك منصب وزير المعارف وكانت له جهوداً ملموسة في نشر العديد من نصوص البرديات العربية- لعل أبرزها على الإطلاق دراساته الموسعة في برديات الوالي الأموي قره بن شريك العبسي ٩٠- ٩٦هـ / ٧٠٩ - ٧١٥م [٣].

٣- المستشرق الإنجليزي مرجليوث D.S. Margoliouth

وهو مستشرق متعصب - توفي سنة ١٩٤٠م : كانت له جهوداً ملموسة في نشر عدد من نصوص البرديات العربية المحفوظة في مجموعة جون رايلاندز بمدينة مانشستر في إنجلترا - تحامل كثيرا على العرب والمسلمين عند نشره هذه النصوص، وذلك بتعمده إبراز الجوانب السلبية وأغفاله ذكر عناصر الحضارة[٤] والعدالة وإنصاف أهل الذمة في عدد من نصوص هذه البرديات .

٤- المستشرق ليفي ديلافيدا Levi Della Vida

وهو مستشرق يهودي متعصب - نشر عدد كبير من نصوص البرديات العربية وخاصة المحفوظة في متحف جامعة بنسلفانيا بأمريكا . وهي مجموعة هامة ونادرة تم جمعها بداية من عام ١٩٠٢. ولقد عكف هذا المستشرق لسنوات طويلة على نشر أعداد من هذه البرديات بعضها ما زال يحتاج إلى إعادة وتصحيح[٥] .

٥- المستشرق النمساوي جوزيف فون كارابا تشيك J. Von. Karabacek

وهو يعتبر من أبرز المستشرقين الذين عنوا بدراسة نماذج مختارة من البرديات العربية. لعل أبرزها على الإطلاق دراساته الموسعة عن البرديات العربية المحفوظة في المكتبة الوطنية بالنمسا (مجموعة الأرشيدوق رايнر) كتبت باللغة الألمانية ونشر بعضها سنة ١٨٨٣م[٦].

٦- المستشرق الإنجليزي جيفري خان J. Khan

وهو مستشرق معاصر يعيش في إنجلترا حاليًا . نشر العشرات من البرديات العربية من مجموعة (ناصر خليلي) المحفوظة في مكتبة مانشستر بإنجلترا . أغلب هذه البرديات عبارة عن أجزاء من عقود إيجار وعمل وكشوف حسابية وأجزاء من رسائل ينسب بعضها للعهد الطولوني وأخرى تنسب للعهد العباسي حتى العهد المملوكي ، عثر عليها في العديد من مدن وقرى مصر في الوجهين القبلي والبحري[٧].

٧- المستشرق النمساوي أدولف جروهمان A. Grohmann

ويعتبر من أشهر علماء البرديات العربية في العالم عكف لسنوات طويلة على قراءة ونشر عدد من هذه البرديات في مصر والنمسا وألمانيا وجمهورية التشيك وإنجلترا وفرنسا وغيرها[٨].

٨- ألبرت ديترش Albert Dietrich

مستشرق ألماني عاش ومات في القرن العشرين، له العديد من البحوث والدراسات في مجال نصوص البرديات العربية وكذلك الوثائق التاريخية، من بينها دراسة علمية عن بعض البرديات العربية بجامعة هايدلبرج بألمانيا نشرت سنة ١٩٥٤م وأخرى بجامعة هامبورج سنة ١٩٥٥م، جدير بالذكر أن هذا المستشرق كان قد شغل منصب مدير معهد الدراسات العربية بجامعة جوتنجن بألمانيا [٩].

٩- تيودور ثيف Theodor Seif

مستشرق ألماني عاش ومات أيضًا في القرن العشرين ، عكف لسنوات طويلة على دراسة عدد كبير من نصوص البرديات العربية ، أغلبها محفوظ في العديد من المكتبات والمتاحف والجامعات الأوروبية من بينها بردبات ووثائق تاريخية محفوظة في عدد من الجامعات الألمانية منها دراسة تحمل عنوان : Zwei Arabische Papyrusurkunden

١٠- فارنر ديم Werner Diem

مستشرق ألماني معاصر يعمل حاليا أستاذا بجامعة كولن بألمانيا تخصص في الدراسات العربية والإسلامية، درس عدد كبير من برديات مجموعة (شوت- رابنهارت) بجامعة هايدلبرج بألمانيا ، كانت لي معه عدة مراسلات وتبادل آراء في عدد من قراءات نصوص البرديات العربية وخاصة مجموعة هايدلبرج قبل انتقاله للعمل بجامعة كولن بألمانيا .

ثانيا: تصحيح بعض القراءات لعدد من المستشرقين في نصوص البرديات العربية

يقتضي الإنصاف أن نقدر جهود العديد من المستشرقين الذين نشروا العديد من البرديات العربية بشتى لغات العالم، حيث يتطلب نشر هذه النصوص مشقة بالغة بسبب تمزق ألياف البرديات، هذا بالإضافة لتداخل الكلمات وعدم إعجام (النقط) غالبية النصوص، الأمر الذي يجعل من قراءة هذه النصوص أمرا بالغ الصعوبة لذلك كله وجب علينا تقديم الشكر لجهود

هؤلاء المستشرقين وفي ذات الوقت نحذر من الأخذ من قراءاتهم دون تمحيص أو تدقيق، وذلك لأن بعض قراءات عدد من هؤلاء المستشرقين قد جانبه الصواب، الأمر الذي يعرض نص البردية أو الوثيقة لفهم خاطئ، ومن هذا المنطق فإنني أهيب بزملائي وأخواني الباحثين العرب التأني عند الأخذ من قراءات بعض هؤلاء المستشرقين لنصوص البرديات العربية، دون إعمال العقل ومراجعة القراءة وتدقيقها وإعادة عرضها ومقارنتها باللوحات المرفقة وذلك بسبب عدم الدقة من قبل بعض هؤلاء المستشرقين إما عن عمد وإما عن غير قصد. وفيما يلي سأتعرض بإيجاز شديد لبعض هذه القراءات لعدد من هؤلاء المستشرقين وهي قراءات تختلف في مجملها عن سياق نص البردية أو الوثيقة .

١- قراءات المستشرق جهفري خان

سبق أن ذكرت أن هذا المستشرق نشر العديد من نصوص البرديات العربية من مجموعة (ناصر الخليلي) المحفوظة في إنجلترا وأغلب هذه البرديات ما زالت تحتاج لإعادة قراءة . وذلك بسبب ظهور بعض النصوص والقراءات بشكل لا يتمشى مع سياق نصوص هذه البرديات.

منها بردية من مجموعة (ناصر الخليلي) تحمل رقم سجل (Inv. No ٢٩٤) أطوال ٢٠,٥ × ١١,٨ سم وردت بالبردية قراءات خاطئة منها ما ورد في السطرين (٣ ، ٥) من النص هكذا :

أ- ١- بسم الله الرحمن الرحيم

٢- صبحك الله يا خي بعافية وكرامة قد فهمت

٣- كتابك وما ذكرت من أم الحمار وأنت من اعذر الناس

٤- عندي وأنا اعلم أن لو قام لك سبيل تسبق رسولي

٥- وأما قولك في إن أم شعيب ذهبت إلى الفاسقة

٦- ولاذكرته لي ولا علمت حتا أتاني كتابك

٧- لزعمت لي أنها ذهبت إلى منزل بنت أختي فلما

٨- وصلت رأت بنتها على قارعة الطريق فقالت

٩- [هـ] ـا هو ذا منزلكم قالت فقد حلت بقلب

١٠- البيت حتا نقلت ابنتها ولم يذكر لى شئ (حتـ) ـا أتانى

فى السطر الثالث قرأ جيفرى خان عبارة (أم الحمار) ونظرا لعدم اعجام بالبردية فربما تقرأ أيضا (أم الخمار) أو (أم الجمار) أو (أم الجماز) وأيضا فى السطر (٥) قرأ جيفرى خان عبارة (الفاسقة) ولكن هيئة حروف الكتابة تشير إلى (الغاشمة) أى التى لاتدرى حيث أن شكل الحرف الثالث قريب لأن يقرأ (غين) نظرا لطمس الحرف، أما الحرف السادس من الكلمة فأقرب لأن يقرأ (ميم) وعلى ذلك فإن الكلمة أقرب لأن تقرأ (الغاشمة) وليس (الفاسقة) كما قرأها المستشرق جيفرى خان[١٠١].

ب:- إيصال براءة ذمة مالية

هذا الإيصال من نفس مجموعة (ناصر الخليلى) تحمل رقم سجل (No. ٩٢) أطـــوال ١٧,٥ × ٩ سم مؤرخ فى شهر رمضان سنة ١٩٤هـ ورد بهذا الايصال بعض الأخطاء التى وقع فيها المستشرق جيفرى خان، ففى السطر السادس قرأ جيفرى كلمة (مثمون) والصحيح (ميمون) وفى نفس البردية أيضا قرأ جيفرى خان عبارة فى نفس السطر (١٥) هكذا: «وأنا سهل فقد سهل» وأعتقد بأن القراءة الصحيحة تكون على النحو التالى:

«وأما سهل فقد سهل». وهى تتمشى مع سياق نص البردية وهيئة الحرف الثالث أقرب لأن تقرأ (ميم).

٢- قراءات المستشرق كارل هنرى بيكر C.H.Becker

نشر هذا المستشرق عدد كبير من نصوص البرديات العربية أغلبها محفوظ فى معهد البرديات بجامعة هايدلبرج بألمانيا (مجموعة شوت- راينهارت) إحداها تحمل رقم سجل (١٧ PSR. No) مؤرخة فى شهر جمادى الأولى سنة ٩١هـ / ٧١٠م موضوعها رسالة من الوالى الأموى قره بن شريك العبسى ٩٠ - ٩٦هـ / ٧٠٩- ٧١٥م للعامل (بسيل) يحثه فيها على الفصل فى قضية بين بعض أهل الذمة- نقد قرأ د. كارل بيكر عبارة فى الشطر العاشر هكذا: (ولا تظلمن عبدك) ولكن نظرا لعدم وجود اعجام فى البردية فاعتقد أن القراءة الصحيحة يجب أن تكون (ولايظلمن عندك)[١٠٢] بمعنى أن لاتظلم أحد من المتخاصمين فى مجلس حكمك.

النص

١- [بسم الله الرحمن الرحيم]

٢- [من قره بن شريك]

٣- [إلى بسيل صاحب اشقره فإنى]

٤- أحمد الله الذى لا إله إلا

٥- هو

٦- أما بعد فإن مرلس بن جريج

٧- أخبرنى أنه كان يسئل تيطيا

٨- من أهل كورتك ثلثه

٩- وعشرين دنيرا وثلث دينر

١٠- فيزعم أن التيطى مات

١١- وأنه أخذ ماله لبطى من

١٢- أهل قريته ، وغلبه على

١٣- حقه فإذا جاءك كتب هذا

١٤- فإن أقام البينه على ما أخبرنى

١٥- فأنظر من أخذ ماله

١٦- فعليه دينه، ولايظلمن عندك

١٧- إلا أن يكون شأنه

١٨- غير ذلك فتكتب

١٩- إلى به ولاتكتب إلا

٢٠- بحق والسلم على من اتبع

٢١- الهدى وكتب مسلم بن لبان

٢٢- ونسخ الصلت فى صفر سنة

٢٣- إحدى وتسعين

٣- ليفي ديلا فيدا Giorgio Levi Della Vida

سبق أن ذكرت أن هذا المستشرق عكف لسنوات طويلة على دراسة عدد من البرديات العربية المحفوظة في الولايات المتحدة الأمريكية من أبرزها برديات محفوظة في متحف جامعة فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا- بعضها أجزاء من رسائل وكشوف وبرامات ذمة مالية وأجزاء من رسائل ديوانية ونصوص إدارية ومالية.. وغيرها.

من البرديات العربية التي نشرها ليفي ديلافيدا بردية عربية موضوعها (إيصال باستلام أموال خراجية خاصة بأراضي زراعية) محفوظة بمتحف جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية برقم سجل (Inv.E ١٦٤٢١) مؤرخ بعام ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م ورد في السطر (٣) من نص الإيصال قراءة بهذه الصيغة (غير الموزونة) ولكن هيئة الحروف ربما تشير إلى غير ذلك واعتقد بأن القراءة الصحيحة هي:

(عن المدينة) وهي تتمشى أيضا مع سياق نص البردية وكذلك هيئات الحروف الأبجدية الواردة بها وفي السطر (٤) من نص نفس الإيصال قرأ د. ليفي ديلافيدا عبارة بهذا الشكل (أخذ وبع) ولكن هيئة الحروف ربما تشير إلى غير ذلك واعتقد بأن القراءة الصحيحة يجب أن تكون (نصف وربع) وفي السطر (٧) من نفس النص قرأ د. ليفي ديلافيدا كلمة (عزا) وهي لا تتمشى مع سياق نص البردية ولكن القراءة الصحيحة يجب أن تكون (خراج) كما أن هيئة حروفها تشير إلى حروف (الألف والخاء والراء والألف والجيم)

٤- المستشرق أدولف جروهمان A. Grohmann

سبق أن أشرت إلى جهود هذا المستشرق في نشر عدد كبير من نصوص البرديات العربية سواء تلك المحفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة أو مجموعة (الأرشيدوق رانير) في فيينا بالنمسا أو مجموعة (شوت - رانيهارت) المحفوظة بمعهد البرديات بجامعة بألمانيا .. أو غيرها من المجموعات العالمية . من أولى الملاحظات على قراءات الدكتور / ادولف جروهمان قراءته لبردية اختاسيا المؤرخة في شهر جمادى الأولى سنة ٢٢٢هـ فقد قرأ الكلمة الأخيرة من البردية قرأها (ابن حديدو) ولكن هيئة الحروف البردية تقرأ (ابن جريده) والبردية تحمل رقم سجل (Perf . No ٥٥٨) موضوعها وإيصال باستلام طعام لإطعام جند المسلمين، حيث أن شكل الحرف الثاني أقرب لأن يقرأ (راء) وليس (دال) .

نص البردية

١- بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أخذ عبدالله

٢- ابن جبر وأصحبه من الجزر من اغنس أخذنا

٣- من خليفة ابن أبوقير الأصغر ومن خليفة اصطفى ابن أبوقير الأكبر خمسين شاه

٤- من الجزر وخمس عشرة شاه أخرى أجزرها اصحب سفنه وكتبه وثقلاه في

٥- شهر جمادى الأولى من سنة اثنتين وعشرين وكتب ابن جريده

ب- كشف بمتعلقات منزلية محفوظ بدار الكتب المصرية بالقاهرة

برقم سجل (١٤٦) ينسب لمدينة الأشمونين في صعيد مصر

هذا الكشف النادر يحمل عبارة هامة قرأها دكتور جروهمان بهذه الصيغة

(رجل وبنات وقنية وآلة وأبات) ولكن المدقق في هذه العبارة يجد أنها لا تتمشى مع سياق نص البردية ، كما أن هيئات الحروف تختلف كلية مع نفس القراءة التي قرأها د. جروهمان وبمقارنة الحروف مع اللوحة اتضح أن القراءة الصحيحة يجب أن تكون هكذا:

(رجل وثياب وقنينة وآلة وأثاث) .

النص

١- بسم الله الرحمن الرحيم

٢- أقر كل واحد .. وكريمه ولدين مطروح الأجير عند شهود

٣- هذا الكتاب وأشهدهم على أنفسهما في صحة عقلهما وبدنهما وجواز أمرهما

٤- طايعين أنهما التمسا جميع ما خلفته بهما والدتهما توبيه ابنة هدى

٥- حسن المرسى من رجل وثياب وقنيه وآله وأثاث وتسلم كل واحد

٦- جميع حقه وحصته على فرائض الله عز وجل لتذكر سبل خط الأثرين ...

وهي تعني مجموعة متعلقات منزلية تركتها سيدة وكتبت وصيتها عند موتها، والبردية موضوعها (توزيع ميراث) ، ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض الباحثين العرب يأخذ هذه القراءة الخاطئة السابق ذكرها دون تمحيص أو تدقيق.

ج- عقد إيجار منزل

هذا الكشف النادر محفوظ فى دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم سجل (٨٧) مؤرخ فى شهر ربيع الثانى سنة ٢٠٩هـ / أغسطس ٨٢٤م قرأ د. جروهمان كلمة فى السطر (٢) وهى اسم سيده (حمبقه) ولكن هيئة الحروف تشير إلى اسم كلمة (جميعه) وهى تتمشى أيضا مع سياق نص البردية .

٥- المستشرق البرت ديتوش

نشر هذا المستشرق العديد من نصوص البرديات العربية وبعض أوراق الكاغد منها دراسته لورقة كاغد أطوالها ٣٤,٤ × ١٢,٤ سم محفوظة بجامعة هايدلبرج بألمانيا برقم سجل (inv. Ar. pap ٩١٢) وهى عبارة عن تذكرة أو رسالة تتعلق بشراء نباتات طبية من مصر . ويلاحظ أن هذه التذكرة معجمه فى بعض الكلمات والكثير منها غير معجم. ويلاحظ كذلك أن المستشرق (ديتوش) قرا العديد من الكلمات بصيغة (ورسأل) السطر (٤) (وربيع) السطر (٥) (ويشترى) السطر ١٢،٧) واعتقد أن القراءة الصحيحة هى (وتسأل ، وتبيع ، وتشترى) وغيرها ، كما أنه قرأ كلمتين فى السطر (١٧) بهذه الصيغة (والميشير وحب المتن) واعتقد بأن القراءة الصحيحة هى: (والمستنير وحب المتن)- أيضا هناك قراءة خاطئة أخرى فى كتابة الظهر- فقرأ عبارة فى السطر الأول هكذا: (استلفنا من صهرى) واعتقد بأن القراءة الصحيحة (أسامه بن صهيبى) [١٢] خاصة وأن كتابة الظهر دائما تكون فى هذا الجزء من الرسالة متعلقة باسم صاحب الرسالة مع اسم المرسل إليه. كما أن كلمة (صهيبى) مكرره بوضوح فى السطر الأخير من الرسالة.

النص

١- بسم الله الرحمن الرحيم

٢- مشرقى كتب الله سلامة أصحبه عبده خلف

٣- بن اسحق ضرة هيل الوزن أربعة عشر رطل يتفضل حرس الله

٤- عزه وتسأل فى مربعة العطارين بمصر عن الشيخ

٥- أبو الحسين بصير أو الشيخ أبو الحسين بن عهد وتبيع

٦- لى القليل الهيل على دكانه بعد إخصاصهما

٧- السلام التام وتشترى لى هذه الحوائج إما من عنده

٨- أو ممن تعرف وهذه أسماء الحوائج وهو

٩- توتيا كافورى وتوتيا شبودى وإقليميا ذهبى

١٠- وإقليميا فضى والاصطاخيفون وخرنق أبيض

١١- وخرنق أحمر وهيدس وسمكيدج وإكليل الملك

١٢- وبيبونج وشاترج تشترى جميع هذه الحوائج من

١٣- كل شئ بقصطه الرخيص على قدره والغالى على

١٤- قدره وترسل لى به مع أول واصل وإن كان له وصول

١٥- فيكون ذلك حجيته وإن كانت هذه الحوائج أيضا تعرف

١٦- كان تشترى لى أيضا منها وهو أصول التخمنج

١٧- والافناخون والمستنير وحب المتن يكون

١٨- أيضا بقصطه ذلك فى جملة الحوائج وتكتب على كل

١٩- حاجه إسمها ونسخه بقيمتها ووزنها وعليك

٢٠- أفضل السلام وحسبى الله ونعم الوكيل

٦- المستشرق تيودور ثيف

لهذا المستشرق العديد من الدراسات حول عدد من نصوص البرديات العربية وأوراق الكاغد، إحدى هذه البرديات بردية مؤرخة فى ٩ ذو الحجة سنة ١٠١هـ / الموافق ١٢ يونيو ٧٢٠م قرأ المستشرق (تيودور ثيف) كلمة فى السطر السادس (هرم) والصحيح هو (هدم) لأنها تتمشى مع سياق نص البردية حيث أن الكلمة التالية لها هى كلمة (مكسوره) أيضا قرأ هذا المستشرق كلمة أخرى فى مطلع السطر (١٠) هكذا (بجور)[١٣] واعتقد بأن القراءة الصحيحة هى (بجره) وهى تتمشى أيضا مع سياق نص الرسالة التى تتعلق بمتابعة أعمال أحد العمال على أحد أقاليم صعيد مصر فى العصر الأموى.

الحواشي والتعليقات

1- Silvestre, De Sacy, Journal des Savants, Paris 1825

2- Moritz (B) , Arabic Palaeography Collection of Arabic Texts from the First Century of Hijra Till the Year (1000). Cairo 1905 .

، عبد العزيز الدالي: البرديات العربية ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٨٣م ص٦٦ .

3- Becker . C.H, Papyri Scott- Reinhardt. I Hiedelberg. 1906,

Becker . C.H; Arabische Papyri des Aphrodito Fundes , 1906,

Nuve Arabische Papyri des Aphrodito Fundes. 1911 .

4- Margoliouth. D.S: Catalogue of Arabic Papyri in the John Rylands Library. Manchester 1933, Arabic papyri of the Bodleian Library , London . 1893.

5- Giorgio Levi Della Vida: Arabic Papyri in the University Museum in Philadelphia U.S.A. 1992 .

6- Karabacek . J.V: Die Papyrussammlung Erzherzog Rainer Wien 1894, Mitteilungen Aus Der Sammlung Der Papyri Erzherzog Rainer, Wien. 1894.

7- Geoffrey khan : Arabic Papyri selected Material from the kalili Collection, Oxford 1992.

8- Grohmann . A; Arabic papyri in the Egyptian National Library, vol 1-6 Cairo . 1934, , Arabisch payperi Aus Dem Staatlichen Museum Zu Berlin Der Islam. 1935, Arabisch Payperi aus Der Sammlung Carl Wessely im Orientalischen Institute Zu Prag 1943.

9- Dietrich , Albert: Die Arabischen Papyri des Topkapi Sarayi - Musum. in Istanbul. 1958, Arabisch Papyri Aus Der Hamburger Staats und universitat bibliotheic Hamburg. 1959 .

١٠- تشر المستشرق جيفري خان العديد من نصوص البرديات في دراسته السابق ذكرها وبيانها كالتالي:

- Geoffrey Khan: Arabic papyri Selected from the Kalili Collection Oxford. 1992 .

pp. 104-106.

pp. 161- 163.

pp. 215- 218 .

١١- انظر اللوحة المرفقة - لوحة رقم (١) .

١٢- انظر اللوحة المرفقة لوحة رقم (٢) .

١٣- انظر اللوحة المرفقة لوحة رقم (٣) .

لوحة رقم (١)

لوحة رقم (١أ)

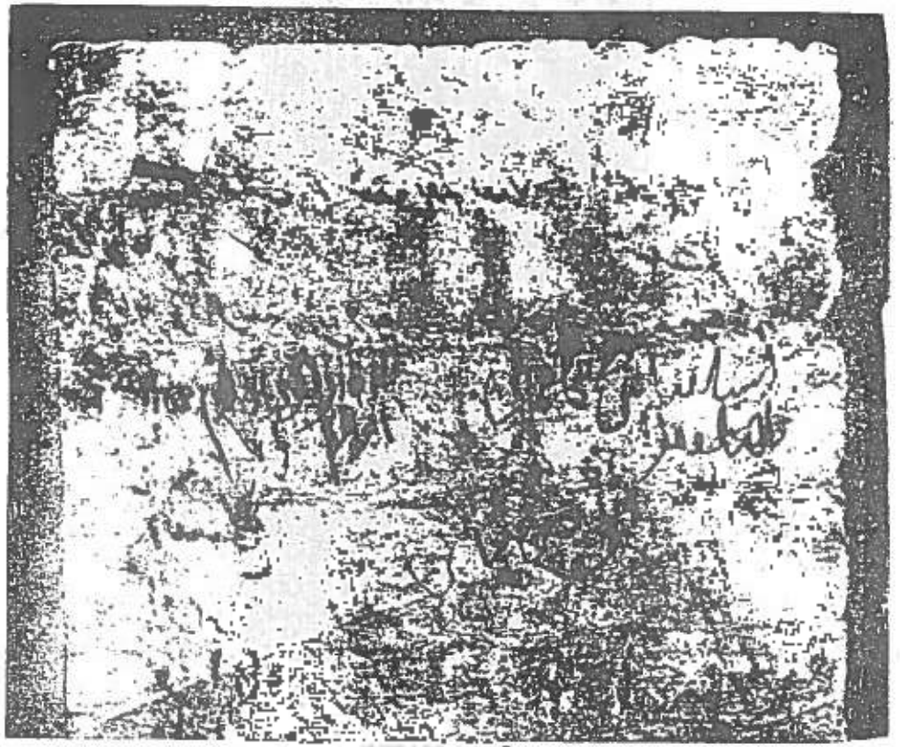

لوحة رقم (١ب)

لوحة رقم (٣)

رقم الإيداع ١٨٧٢١ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977 - 322 - 173 - 3

دار النشر

ت: ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٦٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق